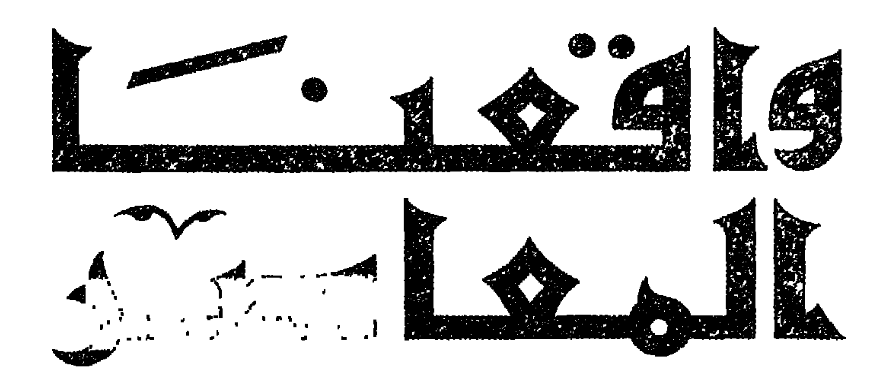
مُحمّد قطب



دار الشروق

واقعنا المعاصر

الطبعــة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

© دار الشروق

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس . ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مقدّمة الطبعة الرابعة

منذ سنوات ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب. وقد كنت أتوقع أن يجد موضوع الكتاب اهتماما عند القراء - والشباب خاصة - لأن الواقع المعاصر، بما يحمله في طياته من عقابيل الماضى وملامح المستقبل، والصحوة الإسلامية ومايكتنفها من ظروف، ومايحيطها من عداوات، وما تحمله من دلالات.. كل ذلك موضع اهتمام كبير من الشباب العامل فى الحقل الإسلامى، الذى هو أبرز سمات الواقع المعاصر.

ولكنى - والحق يقال - لم أكن أتوقع أن يجد الكتاب هذا الإقبال الواسع الذى لقيه بالفعل، إذا نفدت الطبعة الأولى في شهور قليلة، ثم نفدت طبعته الثانية والثالثة، وها نحن أولاء نقدم طبعته الرابعة.. فهذا فضل الله وحده، أحمده وأشكره على ماتفضل به علىّ من نعمائه.

وقد أثار الكتاب ردود فعل متباينة عند فئات مختلفة من القراء، وقد كنت أتوقع هذا سلفا من معرفتى بمواقف هذه الفئات المختلفة من القضايا المثارة فى الكتاب، فلم أفاجأ بها فى الواقع.. ولكنى أحب أن أقرر مطمئنا أننى أودعت هذا الكتاب ما اعتقدت أنه حق، وابتغيت به مرضاة الله وحده، دون نظر إلى ما يرضى هذا الفريق من الناس أو ذاك.

لذلك فقد أبقيت كل شىء فى الكتاب على ما هو عليه، دون حذف ولا إضافة ولا تعديل. فما كان فيما اجتهدت فيه من خطأ، فأسأل الله أن يلهمنى الصواب فيه. كما أسأله أن يثبتنى على اليقين والحق. إنه نعم المولى ونعم النصير.

محمد قطب


To: www.al-mostafa.com

مقدّمة الطبعَة الأولى

يجتاز العالم الإسلامى اليوم مرحلة من أسوأ مراحله . . يمكن أن نطلق عليها مرحلة «التيه» .

ولقد مرت بالعالم الإسلامى أزمات كثيرة من قبل، بل نكبات كثيرة، كان المسلمون يفقدون فيها تمكنهم فى الأرض، أو يفقدون أمنهم وطمأنينتهم، أو يفقدون ديارهم وأموالهم . . ولكنهم مع ذلك لم يخوضوا تجربة أقسى ولا أمر من تجربتهم المعاصرة فى تاريخهم كله .

لقد كانت أزمة الردة - مثلا - أزمة حادة ولا شك ، توشك أن تهدد الدولة الناشئة وتعوّق حركتها وهى فى مهدها . ولكن الناظر إلى السنن الربانية لم يكن ليخالجه الشك فى أن النصر سيكون للدولة المسلمة ، وليس للمرتدين هنا أو هناك فى أرجاء الجزيرة العربية . فقد كان إيمان المسلمين بالحق الذى اعتنقوه، وعمق صلتهم بربهم، وإخلاصهم لدينه، أضعاف إيمان المرتدين بباطلهم المزيف الذى يقاتلون من ورائه، مع خلو موقفهم من أية قيم حقيقية إلا الهوى والشهوات! وماكان من جزع الصحابة رضوان الله عليهم، ومشورتهم على أبى بكر رضى الله عنه بالتريث فى قتالهم، فلم يكن ذلك لشك فى نفوسهم أن الله سينصر دينه، إنما كانت مشورتهم من أجل إتاحة الفرصة لتجميع الجيش الكافى للمعركة . ولكن إيمان أبى بكر الراسخ، وثقته العميقة بوعد الله بالتمكين لهذا الدين فى الأرض، وحساسيته المرهفة أن يترك الخارجين على أمر الله دون أن يسارع فى توقيع العقوبة التى أمر الله بإنزالها بهم . . كل ذلك قد فعل فعله فى نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، فوقفوا صفاً واحداً وراء أبى بكر رضى الله عنه . . ونصر الله دينه كما وعد .

ولقد كانت فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، وما تلاها من الحروب بين على ومعاوية، أزمة حادة ابتلى بها المسلمون والدولة ماتزال فى نشأتها، وعداوات الأرض قائمة من حولها . ولكن الناظر إلى مجريات الأمور يومئذ لم يكن ليشك فى نهاية

الأزمة. فقد كان الخلاف - على كل عمقه، وكل ما أثاره من فرقة فى صفوف المسلمين - خلافا على من يتولى الأمر ليمكن للإسلام فى الأرض، وليس خلافا على الإسلام ذاته، هل يكون هو قاعدة الحياة للمسلمين أم يكون شىء آخر خلافه! ولم تكن هناك فى الوقت ذاته قوة خارجية تملك شيئاً من الحق، أو هى أكثر إيمانا بمنهجها الذى تعيش به، من إيمان المؤمنين بالحق الذى اعتنقوه وأقاموا حياتهم على أساسه. وتلك حسب السنن الربانية هى المقومات الأساسية التى يتقرر بها النصر من عند الله أو الهزيمة، قبل العدد والعدة وخطط الحرب، وإن كانت هذه كلها عوامل لها حسابها فى الميزان الأخير، لأنها من «الأسباب» التى أمر الله باتخاذها، وجعلها جزءا من سنته الجارية. ولكن الأسباب المادية وحدها ليست هى التى تحسم الأمر، ولا هى التى تقرر المصير.

كذلك كانت أزمة الحروب الصليبية وحروب التتار أزمة حادة فى حياة المسلمين. وبدا - لفترة من الوقت - أنها يمكن أن تطيح بالكيان الإسلامى كله وتجتث المسلمين من الأرض. ولكن النتيجة الواقعية كانت غير ذلك، وجاء النصر من عند الله فى النهاية. وكانت الهزيمة فى البدء، والنصر فى النهاية كلاهما مطابقا للسنة الربانية التى لايحيد عنها شىء فى الوجود كله. فقد كان واقع المسلمين سيئاً، مليئاً بالمعاصى والبدع والانحرافات والشتات والفرقة، والانشغال بذلك كله عن نصرة دين الله والتمكين له فى الأرض. ولذلك اجتاحت جيوش الأعداء أرض المسلمين، وأزالت سلطانهم إلى حين. ولكن جذوة العقيدة كانت ماتزال حية فى النفوس، وإن غشيتها غاشية من التواكل والسلبية أو الانشغال بشهوات الأرض. فما إن جاء القادة الذين يردون الناس إلى الجادة بدعوتهم للرجوع إلى حقيقة الإسلام، حتى صحت الجذوة واشتعلت.. فجاء على أثرها النصر. فحين قام صلاح الدين يقول للناس: لقد هُزمتم لبعدكم عن طريق الله، ولن تُنصروا حتى تعودوا إلى الطريق.. وحين قام ابن تيمية يدعو لتصحيح العقيدة مما طرأ عليها من غبش المتكلمين وضلالاتهم.. وحين صاح قطز صيحته الشهيرة: وإسلاماه!.. وتبعتهم جماهير الأمة المسلمة فصدقت الله فى عقيدتها وسلوكها، جاء النصر، وتغلب المسلمون على أضعافهم من المشركين والكفار.

وجاءت نكبة الأندلس عقابا ربانيا للمسلمين على تفرقهم وتشتتهم وحرب بعضهم لبعض، وتعاونهم مع أعدائهم من الصليبيين ضد بعضهم البعض، واتخاذ أولئك الأعداء بطانة من دون المؤمنين - مخالفة لأمر الله - وهم لا يألونهم خبالا.. بالإضافة إلى الفتنة بشهوات الأرض، المباح منها وغير المباح..

ولم تعد الأندلس إلى الإسلام.. ولكن طاقة الأمة الإسلامية فى مجموعها لم تكن قد استنفدت. ففى ذات الوقت الذى انحسر فيه ظل الإسلام عن الأندلس كانت هناك

دولة فتية فى سبيلها إلى التمكن فى الأرض ، واستطاعت أن تحفظ كيان المسلمين أربعة قرون كاملة ، وامتدت فى داخل العالم الصليبى حتى « فيينا» و«بطرسبرج» ، ودخل فى الإسلام على يديها ملايين من البشر فى أوروبا وآسيا .

ولكن الأزمة التى يعانيها المسلمون اليوم هى أقسى من سابقاتها وأمرّ .

وما يخالجنى شك فى أنها هى الأخرى ستمر ، ويمكن الله لدينه مرة أخرى فى الأرض .

ولكن علينا أن نعرف الطبيعة الخاصة لهذه الأزمة ، لنعلم لم طالت عن كل سابقاتها؟ ولنعلم من جهة أخرى كيف يكون المخرج منها حين يأذن الله ، فنتخذ الأسباب المؤدية بإذن الله إلى النجاة .

حين وقعت الحروب الصليبية الأولى التى استغرقت حوالى مائتى عام (١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م) والتى وقعت فى أثنائها وبعدها كذلك غارات التتار ، كان المسلمون قد شغلوا عن الإسلام الصحيح ببدع وخرافات ومعاص ، وتواكل وتقاعس وقعود عن الأخذ بالأسباب ، ولكن الإسلام ذاته لم يكن فى نفوسهم موضع نقاش ، لا بوصفه عقيدة ولا بوصفه نظام الحكم ونظام الحياة . وحتى حين هُزموا أمام الصليبيين وأمام التتار فلم يكن صدى الهزيمة فى نفوسهم هو الشك فى الإسلام ذاته عقيدةً أو نظام حياة ، ولم يكن هو التطلع إلى ما عند أعدائهم من عقائد أو أفكار أو مشاعر أو نظم أو أنماط سلوك ، أو الظن ـ للحظة واحدة ـ أن أعداءهم يملكون شيئاً من «الحق » تقوم حياتهم عليه ، أو أن هناك شيئاً ـ غير الإسلام ـ يمكن أن يكون هو الحق فى العقيدة وفى نظام الحياة سواء . ولم تكن قضية الحكم بما أنزل الله موضع شك منهم ولا موضع نقاش ، لأنها كانت جزءاً لا يتجزأ من إسلامهم ، بل كانت فى حسهم ـ كما هى فى الحقيقة ـ المقتضى المباشر لكونهم مسلمين .

لذلك لم يهنوا ـ حتى وهم مهزومون أمام أعدائهم فترة غير قصيرة ـ ولم يشعروا أنهم أدنى من أعدائهم ، بل كان يتمثل فيهم قول تعالى : ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾[1] .

وكانوا مؤمنين !

بل كانوا يشعرون ـ حتى وهم مهزومون ـ بازدراء شديد لأعدائهم ، لأن عقيدتهم وتصوراتهم لا تتفق مع العقيدة الصحيحة والتصور الحق ، ولأن أخلاقهم وأنماط

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩] .

سلوكهم لا تتفق مع أخلاقيات الإسلام وأنماط سلوكه . كان التتار ـ فى حسهم ـ همجا لا دين لهم ولا حضارة ، وكان الصليبيون هم المشركين عباد الصليب ، وكانوا فوق ذلك منحلى الأخلاق ، لا غيرة لهم على عرض ولا حفاظ .

أما فى الحروب الصليبية الأخيرة ، فقد كان الموقف قد تغير كثيراً عن ذى قبل .

كان المسلمون قد انحرفوا انحرافا شديدا عن حقيقة الإسلام ، لا فى السلوك وحده ولكن فى التصور كذلك .

مفهوم لا إله إلا الله ـ أساس الإسلام كله وأكبر أركانه ـ كان قد تحول إلى كلمة تقال باللسان ، لا علاقة لها بالواقع ، ولا مقتضى لها فى حياة المسلمين أكثر من أن ينطقوا بها بضع مرات فى كل نهار ! فضلا عما أحاط بالعقيدة من خرافة ، وعبادة للأضرحة والأولياء والمشايخ ، بدلا من العبادة الصافية الخالصة لله دون وسيط .

مفهوم العبادة ـ الشامل الواسع ـ كان قد انحصر فى شعائر التعبد ، من أداها فقد أدى كل ما عليه من العبادة ، ولم يعد مطالبا بشىء من التكاليف أمام الله ! فضلا عما أصاب الشعائر التعبدية ذاتها من عزلة كاملة عن واقع الحياة ، كأنها شىء ليس له مقتضى فى الحياة الدنيا ولا تأثير ! .

مفهوم القضاء والقدر ـ الذى كان فى صورته الصحيحة قوة دافعة رافعة ـ صار فى صورته السلبية قوة مخذلة مثبطة عن العمل والنشاط والحركة والأخذ بالأسباب ! فضلا عما صاحب ذلك من استخدام القوى الخفية من السحر والجن . . إلخ ، جريا وراء سنة الله الخارقة بدلا من التعامل مع السنة الجارية التى أمر المسلمون بالتعامل معها ، واتخاذ الأسباب المؤدية إلى جريانها فى صالحهم إذا توكلوا على الله حق التوكل ، كقوله تعالى : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (١) وقول الرسول ﷺ « تداووا عباد الله فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء » . . (٢) . . إلخ . . إلخ . .

مفهوم الدنيا والآخرة ـ الذى يربط الدنيا بالآخرة ، ويجعل الدنيا مزرعة الآخرة ـ تحول إلى فصل كامل بين الدنيا والآخرة ، يجعلهما موضع التقابل الكامل وموضع التضاد ، فمن أراد الدنيا ترك الآخرة ، ومن أراد الآخرة ترك الدنيا ، واكتفى فيها بالكفاف .

---

(١) سورة القتال [٧] .

(٢) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد .

وأما عمارة الأرض فقد أهملت حين أهملت الدنيا من أجل الآخرة ، فخيم على الناس الفقروالجهل والمرض والتخلف الحضارى والمادى والعلمى والعقلى . . وزاد على ذلك كله أنه - فى حسهم - قدر مقدور من عند الله ، لا حيلة لهم فيه إلا الرضاء والتسليم ![1]

وفضلا عن ذلك كله فقد خلت حياة الناس من الروح ، وأصبحت الحياة كلها تقاليد موروثة يحافظ عليها من أجل أنها تقاليد ، لا من أجل أنها جزء من منهج حى يحكم الحياة . فالعبادة تقاليد ، والسلوك تقاليد ، وحجاب المرأة تقاليد ، وقضية العرض تقاليد . . أكثر مما هى عبادة واعية لله ، أو منهج مترابط يحكم الحياة .

وحين جاءت الحروب الصليبية الجديدة والمسلمون على هذا الوضع ، كان الاحتمال الأكبر أن ينهاروا ، ويسلموا أنفسهم للضياع !

* * *

يحفظ التاريخ للمسلمين كثيرا من أدوار البطولة فى جهاد الصليبيين الذين أغاروا على بلاد الإسلام ما بين القرن السابع عشر الميلادى إلى القرن التاسع عشر ، سواء فى الشمال الأفريقى ، أو وسط أفريقيا ، أو فى وادى النيل (مصر والسودان) أو فى الهند والملايو وأندونيسيا والفلبين ، أو فى وسط آسيا الذى اغتالته روسيا القيصرية الصليبية . .

ولكنها كانت بطولات المنهزم المتقهقر ، بضرب آخر ضرباته قبل الاستسلام .

كانت العقيدة قد توارت وراء الركام ، فكان حقا على الناس أن ينتهوا إلى الهزيمة والاستسلام .

* * *

ويقال كلام كثير عن الحضارة الأوربية الفارهة التى التقى بها المسلمون فى تخلفهم الحضارى الذى كانوا عليه ، فأدى بهم ذلك اللقاء إلى الهزيمة الروحية ، والانبهار بما عند الغرب من أفكار ونظم وانفلات من الدين والأخلاق والتقاليد . .

وما يقال عن الفارق الحضارى صحيح فى ذاته . . أما الظن بأنه هو السبب فى الهزيمة الروحية ، والانهيار الذى أصاب المسلمين تجاه الغرب ، ففضلا عن كونه مجانبا للحقيقة ، فهو مضلل لنا أشد التضليل ، لأنه يغطى على الأسباب الحقيقية للهزيمة ، كما يغطى كذلك على الوسائل الحقيقية للعلاج .

---

(١) تحدثت عن هذه المفاهيم فى كتاب مستقل بعنوان : « مفاهيم ينبغى أن تصحح» .

لقد كان المسلمون فى نشأتهم الأولى فى طور من البداوة لا يملكون شيئا مما يملكه المتحضرون من حولهم من أسباب الحضارة المادية أو من العلوم . وكان لزاما عليهم إذا أرادوا الحضارة المادية والعلم أن يأخذوا أسبابهما من الدولتين « العريقتين » عن يمين وشمال فارس والروم .

وقد صنعوا ذلك بالفعل . . ولكنهم لم يحنوا رءوسهم أبدا ، ولم يشعروا بالانبهار . كانوا هم الأعلين ، لأنهم كانوا هم المؤمنين !

كانوا فى حاجة شديدة لتعلم علوم الكفار والوثنيين من حولهم ، ولكن هذه الحاجة الشديدة لم تشعرهم بالصغار تجاههم ، ولا بأنهم دونهم ، بل كانوا يعرفون - ويشعرون - أن العزة لهم ، لأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وليس للكفار والوثنيين شىء من العزة ولو ملكوا كل علوم الأرض ، وكل خزائن الأرض !

وحين أخذوا ممن حولهم فقد كان سلوكهم المستعلى بالإيمان واضحا فى طريقة الأخذ ، وكان أوضح ما يكون فى خصلتين رئيسيتين :

الأولى : أن أرواحهم لم تهزم قط أمام أعدائهم تحت ضغط الحاجة إلى الأخذ منهم .
والثانية : أنهم لم ينقلوا كل شىء وجدوه عند أعدائهم ، بل كانوا ينقلون على بصيرة ، فينقلون فقط مايظنون أنهم فى حاجة إليه ، مما لايتعارض مع عقيدتهم وإسلامهم ، ويعرضون عن كل مايرونه غير نافع لهم ، أو يرونه مخالفاً لعقيدتهم وتصوراتهم ، وأوضح مثال على ذلك أنهم نقلوا علوم الإغريق ، ولم ينقلوا ماكان مشهوراً عندهم من الأساطير ، لأنهم رأوا فيها أمرا من أمور الجاهلية الوثنية الغارقة فى الضلال ، لا يستحق أن يلتفت إليه ، بل يستحق الزراية والإهمال .

أما فى حركة النقل الأخيرة فقد كان الأمر جد مختلف !

وليس الاختلاف ناشئا من حجم الفارق الحضارى بين الآخذين والمعطين ، كما يبدو للنظرة السطحية للوهلة الأولى ، إنما هو ناشىء بصفة أساسية من اختلاف « الموقف» ما بين حركة الأخذ الأولى وحركة الأخذ الثانية .

فى الأولى كان المسلمون هم الأعلين وإن كانوا آخذين ، لأن الاستعلاء بالإيمان هو الذى يكيف حياتهم ويحدد موقفهم . وفى الثانية كانت العقيدة قد تخلفت وتوارت تحت الركام ، فلا عزة ولا استعلاء ، إنما هى الهزيمة والانبهار ، والنقل - بلا بصيرة - لكل ماهو موجود فى الغرب ، بغير تمييز بين ما ينفع وما يضر ، ولا بين ما يتفق مع الإسلام وما يتعارض معه ، لأن الإسلام لم يعد محور ارتكاز « المسلم المعاصر ! » ولم يعد له كيانه المتميز ، المستمد من العقيدة الصحيحة ، ومن تطبيق منهج الله .

* * *

واليوم يدور الزمن دورته، ويبدأ الوجه الكالح للقرون الأخيرة فى حياة المسلمين ينحسر، ويبزغ فجر جديد للإسلام فى ربوع الإسلام . بدأ الناس - والشباب المثقف خاصة - يعودون إلى الإسلام، يريدونه رائقاً صافيا كما نزل أول مرة بلا غبش ولا ركام .

وفى كل مكان فى الأرض التى حكمها الإسلام ذات يوم حركات بعث إسلامى ، ودعاة يدعون إلى الإسلام، وشباب يتطلعون إلى اليوم الذى يجدون فيه الإسلام مطبقا بالفعل، واليوم الذى يعود فيه المسلمون إلى الاستخلاف والتمكين فى الأرض - فى صورتهم الإسلامية الحقيقية المتميزة - تحقيقاً لوعد الله : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً** ﴾[1] .

وفى الطريق عقبات كثيرة تعوّق المسيرة ولكنها لا تمنع المسير .

فهناك من ناحية جهل الناس بحقيقة الإسلام، وبعدهم الشديد عن هذه الحقيقة سواء فى التصور أو السلوك . .

وهناك من ناحية أخرى الغزو الفكرى يزين للناس - والشباب خاصة - الانسلاخ من الإسلام جملة واتباع الغرب بشطريه، الشرقى أو الغربى، ويزين لهم الانفلات من كل قيد من قيود الأخلاق .

وذلك فضلاً عن العداوات المرصودة للإسلام ، تبطش بالدعاة فى كل الأرض، وتضع فى طريق الدعوة ما وسعها من العراقيل .

ولكن هناك إلى جانب ذلك مبشرات . .

والمبشرات فى حسّى أكبر من المعوقات . .

فالصحوة الإسلامية القائمة اليوم فى كل مكان فى العالم الإسلامى، حدث تاريخى له دلالته . . فهى تجىء - من جهة - بعد الجهد الجاهد الذى بذلته الصليبية الصهيونية على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان لزحزحة الأمة الإسلامية عن إسلامها وسلخها منه . . وتجىء - من جهة أخرى - والبشرية فى أحد منعطفاتها التاريخية ، وقد بدأت تيأس من حضارتها المادية الجافية، وبدأت تتطلع إلى مخلّص جديد . .

ولن يُخْرِجَ المسلمين من أزمتهم، ويرفع عنهم إصرهم والأغلال التى صارت عليهم، ويردهم إلى عزتهم، إلا العودة الصحيحة الصادقة إلى الدين الذى أنعم الله به عليهم وحباهم إياه .

---

(١) سورة النور [٥٥] .

ولن يخلّص البشرية من أزمتها، ويحل لها ما عقدته من مشكلاتها فى جاهليتها المعاصرة، إلا المنهج الربانى، الذى أنزله الله ليقوم الناس بالقسط. :

﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾[1].

ولكن الأمر لن يكون نزهة سهلة فى طريق معبّد مفروش بالورود . .

إنما هى رحلة شاقة فى طريق مملوء بالأشواك والدموع والدماء والعذاب . . يخوضها المؤمنون بهذا الدين مع كل العداوات المحيطة بالإسلام، وكل العقبات المرصودة فى الطريق . . حتى يتم التمكين للإسلام من جديد، وتزول الغربة الثانية التى أخبر عنها رسول الله ﷺ : «بدأ الإسلام غريبا، وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء»[2]. وفى رواية الترمذى «فطوبى للغرباء، يصلحون ما أفسد الناس من سنتى».

وفى هذا الكتاب محاولة لتشخيص ما أصاب الأمة الإسلامية منذ كانت فى موقع الذروة على عهد رسول الله ﷺ إلى أن أصبحت ذلك الغثاء الذى أخبر عنه رسول الله ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يارسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل»[3]. ومحاولة لدراسة الواقع المعاصر لهذه الأمة بعد أن أصابها ما أصابها فى مسيرتها الطويلة خلال القرون . . ثم محاولة لدراسة الصحوة الإسلامية وما تحمله من دلالة تاريخية، وماذا أنجزت، وماذا ينبغى أن تنجز حتى تجتاز أزمتها الحالية، وتصل بإذن الله إلى التمكين الذى وعد الله به المؤمنين.

وقد أردت بمحاولتى تلك الرد على تساؤلات الشباب المتطلع إلى تحقيق الإسلام فى عالم الواقع: لماذا طالت المسيرة؟ لماذا تأخر التمكين؟ ما منهج الدعوة؟ ما الطريق الصحيح . . ؟

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وما توفيقى إلا بالله﴾[4].

فما كان فى هذه المحاولة من التوفيق فهو من الله . وما كان فيها من القصور فبحسبى أننى بذلت فيها ماوسعنى من الجهد، وعلى الله قصد السبيل.

أدعو الله أن يوفق العاملين فى الحقل الإسلامى إلى الرؤية الصحيحة، والعمل الجاد لتحقيق الأمانة التى ناطها الله بالمؤمنين . .

محمد قطب

---

(١) سورة الحديد [٢٥].
(٢) أخرجه مسلم
(٣) أخرجه أحمد وأبو داود بسند صحيح.
(٤) سورة هود [٨٨].

نظرة إلى الجيل الفريد

ذلك الجيل الذى قال عنه رسول الله ﷺ : « خيركم قرنى » (١) .

والذى استحق استحقاقا كاملا وصف الله سبحانه : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ (٢) .

إنه الجيل الذى تم فيه اللقاء بين المثال والواقع ، فترجم مثاليات الإسلام إلى واقع ، وارتفع بالواقع البشرى إلى درجة المثال .

والمثالية الواقعية ، أو الواقعية المثالية من أبرز خصائص هذا الدين .

فلا هو يضع مُثُلاً روحانية عسيرة التطبيق ، تهمل ضرورات الإنسان وواقعه المادى ، وتشد الناس إلى أعلا شدا بلا هوادة فتعلقهم فى الفضاء ، كما تصنع الهندوكية والبوذية والرهبانية ، ولا هو إذ يلتفت إلى مطالب الجسد وعالم المادة يحبس الإنسان فى نطاق ضروراته ، ويقعد به عن التحليق فى الآفاق العليا التى يتحقق فيها المثال ، بل يأخذ بهذه وتلك فى آن واحد على توازن واتساق ، ومن ثم تلتقى فيه المثالية التى لا تهمل الواقع ، بالواقعية التى لا تهمل المثال ، ويكون من نتائجها ـ فى أعلا حالاتها ـ ذلك الجيل المتفرد فى التاريخ .

ونحن فى حاجة ملحة لأن نتعرف على هذا الجيل ، لنعرف مكان الأسوة لنا فيه فى واقعنا المعاصر ، ولنقيس على ضوئه مدى قربنا أو بعدنا عن حقيقة الإسلام .

ونريد ـ قبل أن نرسم السمات الفريدة لذلك الجيل المتفرد ـ أن نتعرف على العوامل التى أثرت فيه ، فرفعته إلى تلك القمم السامقة التى وعاها التاريخ .

لقد كان العرب شتيتا متناثرًا لا يتجمع على شىء ، رغم وجود مقومات التجمع الأرضية كلها من وحدة الأرض ، ووحدة اللغة ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة المصالح . . تلك التى يقول علم الاجتماع الجاهلى إنها هى التى تنشئ «الأمة» . ولكن الأمة مع ذلك لم تنشأ رغم مرور الزمن المديد على هذا الشتيت المتناثر

(١) أخرجه الشيخان .

(٢) سورة آل عمران [١١٠] .

وهو يحمل تلك المقومات . بل كانوا قبائل متناحرة تأكلها الحروب والثارات ، وتأكلها قبل كل شيء جاهليتها التى تعيش فيها مجافية للهدى الربانى .

ومن هناك رفعها الإسلام ، لا أفرادا ولا قبائل ، ولكن « أمة » هى أعظم أمة فى التاريخ بشهادة الله مخرجها إلى الوجود :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾(١) .

فمن أى شيء تكونت هذه الأمة الفذة ، وما العوامل التى أثرت فى تكوينها ونشأتها؟

لاشك أن خامتها هى ذات الخامة التى كانت تعيش فى ذات الأرض قبل هذا الحدث العظيم لعدة قرون . ولكن شيئا ما ـ فعله كفعل السحر ـ قد أنشأ من هذه الخامة فى سنوات قليلة نسيجا غير مسبوق ولا ملحوق . . فما هو يا ترى ذلك الشيء العجيب التأثير ، الذى أخرج ذلك النسيج الفذ من تلك الخامة التى ظلت لقًى مهملا عدة قرون؟!

لاشك ـ بادئ ذى بدء ـ أنه القرآن . . ذلك الكتاب العظيم الذى نزل ليعيد بناء البشرية على هدى الوحى الربانى :

﴿ إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ﴾ (٢) .

﴿ وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى حكيم ﴾ (٣) .

ماذا يفعل القرآن فى النفوس؟ هل يغير خامتها فيخرجها من بشريتها لتكون خلقا آخر؟ كلا! فقد نزل للبشر ، لا ليبدل فطرتهم ، بل ليعيدهم إلى فطرتهم التى فطرهم الله عليها يوم خلق الإنسان « فى أحسن تقويم » .

﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٤) .

أرأيت حين تمرر المغنطيس على قطعة من الحديد ، أتراه يغير طبيعتها؟ كلا ! ولكنه يعيد ترتيب ذراتها فتصبح شيئاً آخر غير قطعة الحديد المبعثرة الذرات ! تصبح كيانا جديدا له طاقة مغناطيسية كهربائية لم تكن له من قبل ! وكذلك يفعل فى نفوس البشر

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .
(٢) سورة الإسراء [٩] .
(٣) سورة الزخرف [٤] .
(٤) سورة الروم [٣٠] .

هذا الدين المنزل فى كتاب الله . إنه يتخلل النفوس البشرية فيعيد ترتيب ذراتها، فتصبح قوى كونية وطاقات، بعد أن كانت مبعثرة من قبل، ضائعة فى التيه .

فأى شىء فى هذا الكتاب العظيم هو مصدر ذلك السر الذى يحول الخامات المبعثرة الضائعة إلى طاقات؟ أهو نسقه اللغوى المعجز؟ أهو قوة بيانه؟ أهو وضوح معانيه؟ أهو حديثه عن اليوم الآخر وما فيه من مشاهد تهتز لها أوتار القلوب ؟ أهو تشريعاته وتوجيهاته وتنظيماته؟ أهو قصصه وأمثاله وعبره؟ أهو تذكيره الدائم بعظمة الله جل جلاله وقدرته المعجزة التى لا تحدها حدود ؟! .

إنه ولا شك كل ذلك . . فكل حرف فى هذا القرآن له دلالته فى مكانه، وله جانبه من التأثير .

ولكننا لا نكون مخطئين إن قلنا إن أوسع موضوعات القرآن جميعا هو موضوع الألوهية . . هو قضية لا إله إلا الله .

ولقد قلت فى غير هذا المكان[1] ، إنه يخطر لنا لأول وهلة أن تركيز القرآن ـ وخاصة فى السور المكية ـ على هذه القضية سببه أن القرآن كان يخاطب بادئ ذى بدء قوماً مشركين، يشركون مع الله آلهة أخرى ، فكان من المناسب التركيز على قضية « لا إله إلا الله» لتصحيح عقائد أولئك المشركين . . ولكن استمرار القرآن فى الحديث عن هذه القضية فى السور المدنية، وفى الكلام الموجه للمؤمنين خاصة، الذين آمنوا واستقر الإيمان فى نفوسهم حتى أنشأوا أمة مسلمة ودولة مسلمة ،وجيشا مسلما يقاتل فى سبيل الله، قاطع الدلالة على أن القضية لها أهميتها الذاتية، حتى لو كان المخاطبون مؤمنين! فالتركيز عليها ليس ناشئا من إنكار المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، إنما هو ناشئ من أنها هى المفتاح الذى يفتح القلوب البشرية للخير، وينشئ فيها الخير، ويربيها على الخير، ويُنْتِجُ منها الخير! وأنه لا يوجد مفتاح آخر لهذه القلوب، يهيئها لما تهيئه لها لا إله إلا الله !

وحين تكون القلوب منكرة تخاطب بهذه القضية لتتفتح للحق والخير . . وحين تكون مؤمنة تخاطب بها كذلك ليتعمق الإيمان فيها ويتجدد، لأنه الزاد الذى لا زاد سواه . انظر إلى هذا التوجيه للمؤمنين :

﴿يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزّل على رسوله..﴾[2] .

---

(١) فى كتاب « دراسات قرآنية » .

(٢) سورة النساء [١٣٦] .

إنه يقـول للذين آمنوا آمنوا! وهم مـؤمنون بذات الأمـر الذى يراد منهـم الإيمان به! وذلك لكى يزدادوا إيماناً ويحرصوا على ما فى قلوبهم من الإيمان!

ولقد فعل الإيمان بـ «لا إله إلا الله» فعله فى نفوس أولئك المشركين، فأنشأهم نشأة جديدة كأنها ميلاد جديد . . ثم فعل فعله فى نفوسهم بعد أن آمنوا فأصبحوا ذلك الجيل الفريد الذى نزل فى وصفه هذا التقرير الربانى :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ . .

نعـم . . إنهـا «لا إله إلا الـله» مفتاح القلوب، ومفتاح الطريق لهذه القلوب حين تتجه الوجهة الصحيحة وتهتدى بنور الله .

ذلك أن الإنسان ـ كما قلنا فى أكثر من موضع ـ عابد بفطرته . . وإنما يختلف المعبود الذى يتوجه إليه بالعبادة .

وعلى حسب المعبود يكون منهج الحياة . .

فحين يكون المعبـود هو الله يكون منهج الحيـاة هو المنهج الربانى المبين فيـه الحلال والحرام والحسن والقبيح والمباح وغير المباح . وحين يكون المعبود شيئاً آخر، يكون منهج الحيـاة هو الذى يمليـه ذلك الشيء المعبـود، سواء كـان هو الهـوى صراحـة دون مواربة أم كان هو الهوى من وراء أستار وشعارات وعناوين! ومن ثم تتعدد الصور فى الجاهليات المختلفة وتلتقى فى أنها كلها هوى . . إن يكن هوى فرد بعينه أو مجموعة أفراد أو هوى كل الناس مجتمعين . . فكلها فى النهاية أهواء .

والمنهج الربـانى هو الذى يُصلح الحياة البشرية والنفس البشريـة لأنه منزل من عند اللطيف الخبير الذى يعلم من خلق ويعلم مـا يصلحـه ومـا يصلح له، ومنزل من عند العليم الحكيم الذى يحيط علمه بكل شيء فلا تخفى عليه خافيـة، ولا يغفل عن أثر تصرف قد يقع اليوم ولكن أثره لايظهر إلا بعد فترة من الزمن لا يستوعبها عمر الفرد؛ ومنزل من عند الحكم العدل الذى لا تميل بعدله الأهواء، الغنّى الذى لا تؤثر فى حكمه المصالح الذاتية والحاجات . . وذلك كله فضلا عن أنه هو الله الذى يحق له وحده أن يقرر منهج الحياة للإنسان، لأنه هو خالقه وخالق هذا الكون كله، فبمـا أنه صاحب الخلق فهو صاحب الأمر :

﴿ألا له الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين﴾ [١] .

---

(١) سورة الأعراف [٥٤] .

ولن يستقيم الإنسان للمنهج الرباني حتى يعلم صدقا ويقينا أنه لا إله إلا الله . عندئذ يسلم نفسه لله الواحد الأحد ؛ حين يستيقن أنه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأنه هو الضار النافع، وأنه هو المحيي المميت، وأنه هو مدبر أمر هذا الكون كله، وهو صاحب المشيئة النافذة فيه، وأن كل ما عداه لا يملكون شيئاً على الحقيقة، وكل ما يملكونه في الظاهر يملكونه بمشيئة من الله وبقدر من الله .

عندئذ « يسلم » الإنسان ! أي يسلم قياده لله، فيتقبل قدره ومشيئته، ويتقبل أوامره ونواهيه، ويتقبل منهجه في الحياة .

ثم إن إقامة هذا المنهج في الأرض لا تتم بمجرد رغبة الناس في إقامته، أو إسلام أنفسهم له . فقد سبق في مشيئة الله وقدره ألا يكون الناس أمة واحدة :

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم..﴾ [1] .

فهناك إذن من لا يؤمن بلا إله إلا الله، ومن يكرهها ويحاربها ويحارب أهلها ويقاوم منهجها . . ومن ثم تحتاج إقامة هذا المنهج في الأرض إلى مجاهدة أولئك الكافرين بلا إله إلا الله، الكارهين لمنهج الله .

والجهاد من أجل إقامة المنهج الرباني في الأرض يعرض الإنسان للأذى، ويعرضه للموت، ويعرضه للحرمان من متاع الأرض .

ويحتاج القلب البشري لكي يدخل معمعة الجهاد بشتى أنواعه وشتى مخاطره أن يؤمن مرة أخرى أنه لا إله إلا الله! وأن الله هو الذي يحيي ويميت، وهو الذي يضر وينفع، وهو الذي يقبض الرزق ويبسط . . وإلا تزلزلت قدماه على الطريق عند أول اهتزازة تحدث في هذا الإيمان!

لحظة واحدة يهتز فيها الإيمان القلبي الداخلي بأن الله - وحده - هو الذي يحرك الأقدار بمشيئته، وهو الذي يقدر النفع أو الضر أو الحياة أو الموت أو بسط الرزق أو قبضه . . تختل الخطى على الطريق، وينكص صاحبها على عقبيه، إلا أن يتولاه الله برحمته، فيثبت إيمانه، فتثبت خطاه من جديد!

ومن أجل ذلك كانت لا إله إلا الله هي الإعداد للجهاد كما كانت من قبل هي مفتاح الإسلام . إسلام القلب لله .

وحتى في السلم . . في البحبوحة والراحة . . فهناك هذه الثقلة التي تقعد بالقلب

---

(١) سورة هود [١١٨ - ١١٩] .

البشرى عن « الاستقامة» على الطريق . . ثقلة الشهوات المزينة المحببة للناس : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا..﴾ (١) .

ولن يصمد القلب البشرى لهذه الثقلة ، بكل ما تحمله من إغراء وجذب ، إلا أن يؤمن إيمان اليقين أنه لا إله إلا الله ، وأن هذه الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف .

الإيمان بالله ـ حين يعمر القلب البشرى ـ يبعث فيه الخشية والتقوى التى تؤهله لطاعة الله فيما يأمره به وينهاه عنه . والإيمان بأن الحياة الدنيا ليست نهاية المطاف ، وأن هناك بعثاً ونشوراً ، وحساباً وجزاء ، ونعيماً وعذاباً ، هو الذى يغير موازين الحياة كلها ، وقيمها ومستوياتها ، فلا يعود المتاع الحسى هو غاية الحياة ، ولا يعود الاستغراق فيه هو الشغل الشاغل ولا الهم المقعد المقيم ، كما يكون الحال فى الجاهليات ، حين يؤمن الإنسان أن الحياة فرصة واحدة محدودة بحدود العمر القصير ، وكل يوم ينقضى لايعود . . فتكون الحكمة «الواقعية» حينئذ أن ينتهب أكبر قدر من اللذات فى هذا العمر المحدود قبل أن تفوت إلى غير رجعة ! ولا يكون للحلال والحرام عنده يومئذ معنى ، إنما يكون اهتبال الفرص المتاحة هو الغاية التى تسوق الناس سوقا فيتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام !

﴿والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوًى لهم﴾ (٢) .

أما حين يؤمن بالبعث والجزاء ، والنعيم المقيم والعذاب الفظيع المتجدد :

﴿ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزا حكيما. والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلا ظليلا﴾ (٣) .

عندئذ يسهل عليه أن ينضبط فى الحدود التى رسمها الله دون أن يشعر بالحرمان ، لأنه يعلم أن كل متاع زائد يشتهيه فى الأرض ثم يمتنع عنه طاعة لله ، لن « يضيع » ولن يذهب بغير عودة ، إنما هو «طاعة» تحسب له فى الميزان ، فينال عليها نعيما خالدا فى الجنان . . فتكون الحسبة بذلك رابحة ، ولا تذهب نفسه حسرات على المتاع الفائت الذى تركه طاعة لله . ومن جهة أخرى فإن تصور العذاب الفظيع جزاء على المخالفة

---

(١) سورة آل عمران [١٤] .
(٢) سورة محمد [١٢] .
(٣) سورة النساء [٥٦ـ٥٧] .

التى يهم بها انسياقا وراء شهواته، يجعله يرى أن الامتناع عنها هو الصفقة الرابحة، وليس الانغماس فيها بلا انضباط على طريقة الحيوان . . ومن هنا تتأكد التقوى والخشية التى يبعثها الإيمان بالله .

من أجل ذلك كان الكتاب الذى يرسم منهج الحياة للناس فى الأرض مرتكزا كله على الإيمان بالله واليوم الآخر، وكانت التوجيهات والتشريعات والتنظيمات الواردة فى الكتاب، كلها موصولة بالإيمان بالله واليوم الآخر، أعظم محورين يدور حولهما الكتاب .

وليس هنا مجال تفصيل الموضوعات الواردة فى كتاب الله وأثرها فى بناء النفس البشرية، فقد تحدثت عن ذلك فى غير هذا الكتاب[1] . ولكنى أذكر هذه النبذة السريعة فقط فى مجال بيان العوامل التى أنشأت ذلك الجيل المتفرد على غير مثال، لأقرر أن القرآن بما يحويه من إشارات وتوجيهات، وتنظيمات وتشريعات، كان العامل الأكبر والأعظم فى بناء تلك النفوس المتفردة فى التاريخ .

وحين نذكر القرآن نذكر السنة بلا شك، فهى المكملة والشارحة للكتاب المنزل، هى بيان ما أنزل الله وتفصيله :

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّنَ للناس ما نزل إليهم ﴾[2] .

وموضوعات السنة هى موضوعات القرآن مع اختلاف النسبة بينهما . فلئن كان القرآن قد توسع فى شرح قضية الألوهية من جميع أبعادها وأقطارها، ودخل بها إلى النفس البشرية من جميع مداخلها، من الحب والكره والخوف والرجاء والحسى والمعنوى والإيمان بالمحسوس والإيمان بالغيب. .[3] وخاطب النفس فى جميع أحوالها، فى الإقبال والإدبار، فى الرغبة والرهبة، فى الارتفاع والهبوط، فى السكون والحركة ، فى الطمأنينة والفزع، فى الرخاء والشدة، فى الوحدة وفى التجمع . .

لئن كان القرآن قد توسع فى هذه القضية ذلك التوسع فقد أجملت السنة، وإن كانت قد جاءت بما لا غناء عنه فى تحديد المفاهيم الإيمانية، وتمييز الناس على أساسها فى الحياة الدنيا، والأحكام المتعلقة بذلك فى المجتمع الإسلامى . ولئن كان القرآن قد

---

(١) انظر إن شئت كتاب « دراسات قرآنية» الفصول الأولى بعنوان « الإيمان بالله » « الإيمان باليوم الآخر» «الإيمان بالملائكة والكتاب والنبيين» «قصص الأنبياء» « آدم والشيطان» « أخلاقيات لا إله إلا الله» .
وكذلك فصل «كيف تربت الجماعة الأولى » من كتاب « منهج التربية الإسلامية» الجزء الثانى .

(٢) سورة النحل [٤٤] .

(٣) انظر إن شئت فصل « خطوط متقابلة» فى كتاب « منهج التربية الإسلامية» الجزء الأول .

أجمل فى كثير من مواضع التشريع ، فقد توسعت السنة وفصلت حتى أتت بالدقائق التى توضح للناس حلالهم وحرامهم فى شتى تعاملاتهم.

ولئن كان القرآن قد توسع فى ذكر اليوم الآخر بمشاهده الأخاذة فقد توسعت السنة مقابل ذلك فيما يعرف بالترغيب والترهيب، أى الترغيب فى الأعمال التى تقرب الإنسان من الجنة ، والترهيب من الأعمال التى تعرض الإنسان للنار .

وهكذا حين نتحدث عن أثر القرآن فى إنشاء ذلك الجيل المتفرد نتحدث عن السنة فى ذات الوقت. ولكنا نريد أن نضيف عنصراً آخر شديد التأثير فى رفع نفوس الناس فى ذلك الجيل إلى أقصى طاقاتها، والاستواء بها على تلك القمم السامقة التى وصلت إليها، ذلك هو وجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين ظهرانيهم . فلا شك أن كان لهذا الوجود أثره الكبير فى الوفرة الملحوظة فى النماذج السامقة من بين أولئك المحيطين بالرسول ﷺ، مع ارتفاع القمم التى وصلوا إليها، ذلك الارتفاع الشاهق الذى عجزت عنه البشرية فى شتى أجيالها.

لقد كان التأثير المباشر لشخصية الرسول ﷺ ذا أثر بالغ فى بناء تلك النفوس التى أحاطت به ، وأحبته، وتربت على عينه ﷺ ، ونهلت من معينه، واتخذته الأسوة والقدوة من طريق الصحبة والرؤية والسماع.

إن كل مربٍّ فى التاريخ يؤثر فى تلاميذه المحيطين به نوعا من التأثير. ولكن الأثر الذى تركته شخصية الرسول ﷺ فى نفوس أتباعه ومحبيه أثر غير مكرر فى التاريخ، ولا عجب فى ذلك فإنها شخصية غير مكررة فى التاريخ !

إنها أكمل شخصية وأعظم شخصية فى الوجود البشرى كله من بدئه إلى منتهاه .

وليس هنا مجال التفصيل فى شرح هذه العظمة الفائقة . فهى شخصية تحوى داخلها شخصيات ، وعظمة تحوى داخلها عظمات، لو أصاب أى إنسان واحدة منها لَعُدّ من عظماء التاريخ، فكيف بها مجتمعة فى شخص الرسول ﷺ على سموق متفرد فى كل واحدة منها؟ شخصية المربى، شخصية القائد السياسى، شخصية القائد العسكرى، شخصية العابد الروحانى، شخصية الزوج، شخصية الأب، شخصية الصاحب ، شخصية الداعية . . ثم كيف بها مجتمعة على توازن بينها لا يجعل واحدة منها تطغى على الأخرى، وعلى شمول وترابط لا يجعل واحدة منها تنفصل وتستقل عن الأخريات؟

عظمة فذة فى التاريخ، وتأثيرها كذلك فذ فى التاريخ .

وصف أبوسفيان - قبل إسلامه - جانباً من جوانب هذه العظمة، وجانبا من

عمق تأثيرها فقال : « ما رأيت أحداً يحبه الناس كحب أصحاب محمد محمدا» .

وهو وصف صادق دقيق . فهى شخصية أخاذة من أحبها تعمق فى حبها إلى أقصى الغاية ، (وكذلك من انطمست بصيرته فأبغضها لم يستطع أن يقف فى بغضها عند حد !)

والذين أحبوه والتصقوا به وعايشوه عن قرب ، قد تأثروا به ولا شك أعمق التأثر ، فاستطاعوا أن ينهلوا من معين القرآن أكثر ، وأن يكون استواؤهم على القمة السامقة أيسر . ذلك أن القرآن معين لا ينضب ، ولكنه يعطى كل إنسان على قدر سعة الإناء الذى يغترف به . فحين تتسع القلوب وتشف الأرواح بمصاحبة ذلك الروح العظيم ، تكون قدرتها على تشرب روح القرآن أكبر ، وقدرتها على صحبة القرآن والعمل به أوسع وأعمق .

قال أحد الصحابة لرسول الله ﷺ إنهم حين يكونون معه يكونون على حال غير الذى يكونون به حين يعودون إلى شواغلهم ومعهود حياتهم ، فقال له ﷺ **« والذى نفسى بيده أن لو تدومون على ماتكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم. ولكن يا حنظلة ساعة وساعة»** [(١)] .

وليس معنى هذا أن تأثير صحبة الرسول ﷺ كان ينتهى حين يخرجون من عنده ، فمثل هذا التأثير لايمكن أن يزول . إنما يدل تصريح الصحابة رضوان الله عليهم على عمق أثر الصحبة المباشرة فى نفوسهم ، حتى ليحسون أنهم يصبحون خلقا آخر غير ما يعهدون من أنفسهم . . وفى الحق إن الإشعاع الذى يتلقونه من الروح العظيم المشع يجعل أرواحهم شفافة رفافة محلقة ، كما يشعر السابح بخفه جسمه وهو محمول على الماء . . فإذا خرجوا إلى واقع الحياة اليومى خف ذلك الإشعاع الذى امتلأت به أرواحهم ، فأحسوا بالفرق بين حالتهم فى صحبته ﷺ وحالتهم فى معتاد حياتهم . ولكن واقع التاريخ يقول إن الشحنة لم تذهب أبداً من أرواحهم ، وإن إحساسهم بالتغيّر بعد الخروج من عنده ﷺ إن هو إلا شوق إلى مزيد من القدرة على التحليق ، ولكنه ليس فقدانا لتلك القدرة على الإطلاق ، فقد ظلوا يحلّقون ويحلّقون ويحلّقون ، على آفاق لا عهد للبشرية بها من قبل .

ولسنا نقول مع ذلك إن وجود الرسول ﷺ بشخصه شرط لإقامة هذا الدين فى الأرض ! فلو علم الله أن هذا شرط لا يقوم الإسلام فى الأرض إلا به ما كلف سبحانه وتعالى الناس أن يقيموا الدين بعد رسول الله ﷺ ، وهو لا يكلف نفسا إلا وسعها .

(١) أخرجه مسلم .

إنما نقول إن شخص الرسول ﷺ حاضر بسيرته وحاضر بسنته إلى الدرجة التى يقوم بها الإسلام فى الأرض كاملا غير منقوص . ولكننا نحاول فقط أن نفسر واقعا حدث بالفعل ، هو الوفرة الملحوظة فى النماذج الفائقة من بين المحيطين بالرسول ﷺ ، وفرة لم تتكرر فى التاريخ من بعد ، وإن كانت لم تنقطع فى صورة أفراد متناثرين من كل جيل يزخر بهم تاريخ الإسلام فى الماضى ومازال يزخر إلى هذه اللحظة .

عنصر ثالث لا يمكن إغفال أثره فى نشأة ذلك الجيل المتفرد ، هو أثر النشأة الجديدة .

إن كل نشأة جديدة تكون أنشط وأكثر حيوية وأكثر فاعلية من الأجيال السابقة .

وهذا أمر له ما يفسره من طبيعة النفس البشرية ، بل من طبيعة الكون المادى نفسه! فغاز الأوكسجين المحضر حديثا فى المعمل تكون له فاعلية (فى المساعدة على الاشعال) أكبر من الأوكسجين الموجود فى الجو ، مع أنه يماثله مماثلة تامة فى التركيب! كذلك النفوس التى تبدأ عهدا جديدا أو تشهد إنشاء جديدا تكون أكثر حيوية وأكثر فاعلية من غيرها من النفوس . ويمكن تفسير ذلك من ناحيتين . الأولى أن النشأة الجديدة - وخاصة على النحو الذى صنعه الإسلام - تعيد تركيب النفوس على صورة جديدة فتصبح نفوسا جديدة بالفعل ، مذخورة الطاقة حادة الفاعلية كذلك الأوكسجين المحضّر لتوه فى المعمل . والثانية أن التحديات التى يتلقاها جيل النشأة الجديدة هى أعنف التحديات وأشقها وأقساها . ومن شأن التحديات دائما أن تشحذ النفوس الحية وتستخلص منها أقصىْ طاقاتها . فإذا اجتمع الأمران معا : جدة النفوس وعنف التحديات فنستطيع أن نتصور الفاعلية الهائلة التى تكون لتلك النفوس ، وهى تعمل فى واقع الحياة .

يضاف إلى ذلك أن أصحاب النشأة الجديدة هم من ناحية أقدر الناس على تقدير النعمة الجديدة حق قدرها ، فقد عايشوا الجاهلية من قبل ثم انتقلوا إلى الإسلام ، فأدركوا - بالممارسة الواقعة - عظم النقلة التى انتقلوها من الجاهلية إلى الإسلام ، كما قال عمر رضى الله عنه : « **لا يعرف الإسلام من لم يعرف الجاهلية**» ! أى لا يقدره حق قدره إلا من أدرك الفارق بينه وبين الجاهلية . . وهم من ناحية أخرى أحرص الناس على المحافظة على البناء الجديد سليما من كل نقص يعتوره ، فقد بنوه لبنة لبنة ، وتعبوا فى بنائه وعانوا المشقات ، وظلوا يرقبون ارتفاعه يوما بعد يوم حتى استوى على أكمل صورة ، فهم لايطيقون أن يعبث به عابث ، أو ينقص من رونقه منتقص ، فقد اختلط بأعماق مشاعرهم فأصبح منهم وأصبحوا منه ، وأصبحوا يحسون وجودهم فى وجوده .

وكذلك كان ذلك الجيل الفريد حريصا على الإسلام، حريصا على أن يظل البناء الذى شيدوه تحت قيادة الرسول ﷺ وإشرافه سليما من كل نقص.

ولسنا نقول مع ذلك إن هذا شرط لازم لإقامة دين الله فى الأرض.. فلو علم الله أنه شرط لازم ما كلف الناس فيما بعد جيل النشأة أن يقيموا هذا الدين!

ولكنا نحاول فقط أن نفسر ذلك الواقع التاريخى الذى تفرد فى التاريخ.

وهذا يجرنا إلى سؤال نرى من الضرورى تحديد الإجابة عليه، لأنه يحيك فى صدور بعض الناس حين ينظرون إلى ذلك الجيل المتفرد ثم ينظرون إلى ما بعده من الأجيال فيقول قائل منهم: إن الإسلام لم يعش إلا فترة قصيرة هى فترة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين ثم انتهى بعد ذلك! ويجىء خبثاء المستشرقين وحواريوهم فيؤكدون على هذا المعنى ليحدثوا فى نفوس الناس يأسا من عودة الإسلام إلى حكم الحياة الواقعة كما حكمها من قبل.

إذا كان هذا الجيل المتفرد غير قابل للتكرار - أو هو على الأقل لم يتكرر حتى اللحظة الحاضرة - فما قيمته؟ ما دوره بالنسبة للإسلام والمسلمين؟ أليكون مجرد ذكرى لشىء لا يمكن أن يعود؟

وإذا كانت هناك ظروف خاصة أحاطت بنشأة ذلك الجيل غير قابلة للتكرار، وكان لها أثر عميق فى نشأته، كوجود الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين ظهرانيهم، وتأثير النشأة الجديدة فى نفوس الجيل الذى عاصر تلك النشأة، فأنّى يرجى أن تقوم للإسلام صورة فى الواقع على نسق تلك الصورة الأخاذة التى قامت ذات يوم؟!

وتحتاج الإجابة إلى تحديد واضح.

أى شىء فى ذلك الجيل المتفرد هو غير قابل للتكرار، أو على الأقل لم يتكرر حتى هذه اللحظة؟ أهو الخصائص الرئيسية التى تحقق الوجود الإسلامى فى عالم الواقع، أم هى الدرجة العالية الفذة التى وصل إليها ذلك الجيل فى تحقيق تلك الخصائص فى عالم الواقع؟!

وتلك الظروف الخاصة التى أحاطت بنشأة ذلك الجيل ونقول إنها غير قابلة للتكرار.. ما دورها بالضبط؟ هل كان مجال تأثيرها هو إنشاء تلك الخصائص الرئيسية التى تحقق الوجود الإسلامى فى عالم الواقع، أم هو فى تلك الدرجة العالية الفذة التى وصل إليها ذلك الجيل فى تحقيق تلك الخصائص فى عالم الواقع؟

أحسب أن القضية الآن أصبحت واضحة.

إن الخصائص الرئيسية التى تحقق الوجود الإسلامى فى عالم الواقع مستمدة بكاملها من القرآن والسنة ، أى من العنصرين الدائمين فى حياة المسلمين ، المحفوظين بقدر الله ومشيئته .

فقد تكفل الله بحفظ كتابه المنزل ، بينما ضاعت الكتب السابقة وحرّفت :

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (١) .

كما تكفل بحفظ سنة نبيه ﷺ ، بينما لم يبق من سنن الأنبياء السابقين إلا ما حفظه الرآن وحفظته سنة رسول الله ﷺ .

وفى هذين المصدرين كل « المواد» اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمة المسلمة والدولة المسلمة فى أى عصر من عصور التاريخ يرغب المسلمون فى البناء ، ويعزمون على بذل الجهد اللازم له .

أما الذى صنعته الظروف الخاصة فهو تلك الدرجة الفذة فى تحقيق الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامى ، المستمدة كلها من الكتاب والسنة . . وتلك الدرجة - لا الخصائص الرئيسية - هى التى لم تتكرر فى التاريخ .

وتبقى الإجابة على الشق الآخر من السؤال : إذا كانت تلك الدرجة التى تحققت بالفعل ذات يوم غير قابلة للتحقيق مرة أخرى ، لأنها نشأت من ظروف خاصة غير قابلة للتكرار ، فما قيمتها فى حياة الإسلام والمسلمين؟ أهى قد وجدت فقط لتظل حلما مهوّما يعرّج الناس عليه من أجل حلاوة الذكرى ليس غير ؟ !

كلا ! إنها وجدت - بقدر من الله - لتظل نموذجا يشد المسلمين إليه ليحاولوا تحقيقه فى عالم الواقع . . وحين يحاولون فإنهم يرتفعون بالفعل ، حتى وإن لم يصلوا - فى مجموعهم - إلى ذات الدرجة التى وصل إليها هؤلاء ؛ وإن كان التاريخ المشهود يقول إن أفرادا من كل جيل يصلون بالفعل إلى ذلك المستوى السامق الرفيع، أولئك الذين تتوهج قلوبهم بنور الإسلام فيستطيعون أن يقبسوا من شخصية الرسول وأحداث حياته مثل ما كان يقبس الصحابة رضوان الله عليهم بالمعايشة المباشرة، وأن يحسوا - فى أعماق نفوسهم - بالنشأة الجديدة على نحو ما أحس الذين عاشوها أول مرة.. فينهلوا من الكتاب والسنة بمثل العمق الذى كان ينهل به الصحابة الكرام، ويحققوا فى ذوات أنفسهم ما كانوا يحققون.

---

(١) سورة الحجر [٩] .

هؤلاء قلة فى كل جيل - نعم - بينما كانوا كثرة ملحوظة فى المحيطين برسول الله ﷺ . . ولكن مجموع المسلمين - حين يحاولون - يرتفعون درجات من الارتفاع ، حتى ولو لم يصلوا لذلك المستوى الرفيع ، لأن المحاولة ذاتها توجه الناس إلى أعلى ، بينما القعود يهبط بهم إلى أسفل ، بحكم الثقلة التى تجذب الناس أبدا إلى أسفل ما لم يحاولوا الارتفاع :

﴿ والعصر . إن الإنسان لفى خسر .إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ (١) .

من هنا يظل لذلك الجيل المتفرد دوره فى حياة الإسلام والمسلمين .

فوجود هذا النموذج الفذ فى عالم الواقع ، حقيقةً واقعةً ، لا حلما ولا خيالا ولا شعارات ، يظل يحفز الراغبين فى تحقيق الإسلام لتحويل الرغبة إلى واقع ، وبذل أقصى الجهد فى هذا السبيل . . وحين يحققون الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامى فى عالم الواقع ، فلا عليهم بعد ذلك إن لم يصلوا إلى الدرجة الفذة التى وصل إليها الجيل الأول ، فإن مجرد تحقيق الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامى - ولو فى حدها الأدنى - هو قفزة هائلة إلى أعلى بالنسبة لكل جاهليات التاريخ ، بما فيها الجاهلية المعاصرة ، بل فى مقدمتها الجاهلية المعاصرة ! وتبقى الدرجات العليا مجالا للتفاضل ، ومجالا للتطوع النبيل ، لاتكلف نفس إلا وسعها ، يبلغ منها كل إنسان بقدر ما يطيق ، فتصل قلة قليلة إلى المستوى ، ويقترب الباقون خطوات .

نعم ، إن وجود هذا الجيل المتفرد واقعاً فى التاريخ ، لم يكن - فى قدر الله - لمجرد أن يكون ذكرى حلوة تشع نسماتها على القلوب ساعة ثم تتبدد . . بل ليكون واقعا يتجدد .

فقد طلب الله من المسلمين فى كتابه الباقى إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها أن يتأسوا برسول الله ﷺ ، وأن يقتفوا أثر ذلك الجيل الفريد ويصلوا أنفسهم به :

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (٢) .

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك

---

(١) سورة العصر .
(٢) سورة الأحزاب [٢١] .

هم المفلحون. والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾ (١) .

بل نقول أكثر من ذلك . .

نقول إن حركة البعث الإسلامى المعاصرة هى أقرب الحركات أن تتمثل فيها خصائص ذلك الجيل المتفرد، إن لم يكن على ذات الدرجة من الوفرة وذات الدرجة من التمكن، فعلى درجات قريبة منها على أى حال .

ذلك أن الإسلام اليوم يعيش غربته الثانية التى تحدث عنها رسول الله ﷺ : **« بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء»** (٢) .

فإن لم تكن الغربة الثانية مطابقة تمام المطابقة للغربة الأولى فى جميع حيثياتها فإنها ولا شك تشبهها فى أمور كثيرة جوهرية ، أهمها أن منهج الله ليس هو الذى يحكم حياة الناس ، وأن الأمر يحتاج إلى دعوة الناس من جديد إلى الإسلام، لا لأنهم ـ فى هذه المرة ـ يرفضون أن ينطقوا بأفواههم لا إله إلا الله محمد رسول الله كما كان الناس يرفضون نطقها فى الغربة الأولى، ولكن لأنهم فى هذه المرة يرفضون المقتضى الرئيسى لـ «**لا إله إلا الله**»، وهو تحكيم شريعة الله والامتثال لمنهج الله، وإن كان ألف مليون من البشر من المحيط إلى المحيط ينطقون بأفواههم كل يوم : لا إله إلا الله محمد رسول الله ! وهذه هى حقيقة «الغربة» التى يعانيها الإسلام اليوم فى الأرض، رغم ملايين المصاحف التى تطبع، ومئات المحطات الإذاعية والتلفزيونية التى ترتل القرآن وتذيعه على الناس، وتشرحه ـ فى الأحاديث والدروس الدينية ـ لمن شاء من الناس الاستماع !

وفى الغربة تكون الحركة إنشاء جديدا أكثر مما تكون مجرد إصلاح لما هو قائم بالفعل فى نفوس الناس.

إن هذا الغثاء الذى يعيش بالملايين اليوم، والذى أشار إليه رسول الله ﷺ فى حديثه : **«يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل إنكم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل..»**(٣) .

هذا الغثاء لا يحتاج إلى مجرد وعظه وإرشاده، وتقديم حقائق الإسلام إليه فى الدروس الدينية سواء فى المسجد أو الإذاعة أو الكتاب أو المحاضرة، إنما يحتاج إلى

---

(١) سورة الحشر [٩ ـ ١٠] . (٢) أخرجه مسلم . (٣) أخرجه أحمد وأبوداود .

انتشاله من الجاهلية التى تحيطه وتضغط على حسه بثقل « الأمر الواقع» وتنشئته نشأة جديدة على حقائق الإسلام، ليعيشه بالفعل، لا « ليتحدث» عنه أو « يفكر» فيه أو «يعجب» به أو «يتمناه» وهو قاعد عن العمل لتحقيقه .

والذى تقوم به حركات البعث الإسلامى اليوم هو هذا فى حقيقته . هو نشأة جديدة فى وسط الغربة . ومن ثم يتحقق لهذه الحركات عنصر من العنصرين الخاصين اللذين أسهما فى صنع الجيل الأول، ولم يتكررا خلال ثلاثة عشر قرنا من قبل، ويكون لهذا العنصر فاعليته الكاملة فى نفوس الذين يعيشون هذه الحركات، ويجاهدون لإزالة الغربة الثانية كما جاهدت الجماعة الأولى من قبل لإزالة الغربة الأولى للإسلام .

أما العنصر الآخر وهو حضور الرسول ﷺ بشخصه الكريم بين ظهرانى الناس فهو بطبيعته لا يتكرر أبداً إلى قيام الساعة . ولكنا نستطيع أن نزعم أن الذين يعيشون «النشأة الجديدة» بالعمق الحقيقى الذى تحدثه فى النفوس، ولا تفتنهم جزئيات من حقائق الإسلام فتشغلهم عن جوهره، ولا عن حقيقة المعركة التى يخوضها « الغرباء» فى الأرض، لإعادة هذا الدين إلى التمكن وحكم حياة الناس الواقعة من جديد. . هؤلاء يتوهج الحق فى قلوبهم إلى الحدالذى يعيشون فيه مع رسول الله ﷺ ـ فى سيرته وسنته ـ كأنهم يعايشونه ويتلقون عنه من قرب كذلك الجيل الأول المتفرد، وتكون هذه المعايشة ـ من خلال السيرة والسنة ـ كفيلة برفعهم إلى تلك الآفاق السامقة التى ارتادها الجيل الأو بجهد أيسر، وهم يتلقون الرفعة من الأثر المباشر لشخصية الرسول ﷺ .

وخلاصة القول ـ كما أسلفنا ـ أن حركة البعث الإسلامى المعاصرة هى أقرب الحركات أن تتمثل فيها خصائص ذلك الجيل المتفرد، إن لم تكن بنفس الوفرة وبنفس الدرجة من الرفعة، فعلى درجات قريبة منها على أى حال . وإنها لتقدم بالفعل نماذج ترتفع إلى ذلك المستوى، وتذكّر الناس به من جديد، سواء فى التجرد لله، أو صدق الجهاد فى سبيل الله، أو التقدم للشهادة بنفس راضية مستعلية على كل متاع الأرض، متطلعة إلى ما عند الله ، أو الثبات على العذاب الذى لاتطيقه الأبدان ولا النفوس .

والخلاصة مرة أخرى أن ذلك الجيل المتفرد، الذى تمثلت فيه واقعية الإسلام ومثاليته، لم يوجد ليكون مجرد ذكرى، وإنما وجد ليحاول المسلمون فى كل الأجيال أن يصعدوا لمستواه، فإن حاولوا فقد ارتفعوا ونجوا من الهبوط، سواء وصلوا ـ فى مجموعهم ـ إلى ذلك المستوى الرفيع أم لم يستطيعوا الوصول .

والخلاصة مرة ثالثة أن الذى تفرد به ذلك الجيل لم يكن هو الخصائص الأساسية للوجود الإسلامى، فهذه مطلوبة من كل جيل، وممكنة فى كل جيل، ولازمة لإقامة الوجود الإسلامى الصحيح فى الأرض، والناس محاسبون إن قصروا فى أدائها، ويعتبرون آثمين فى حق الله وحق أنفسهم إن قصروا فيها، ويتوقف وجودهم وثقلهم فى الأرض على القيام بها فى صورتها الصحيحة.

إنما الذى تفرد به ذلك الجيل هو الدرجة العجيبة التى قاموا فيها بتحقيق هذه الخصائص فى عالم الواقع، بعد قيامهم بتحقيقها فى ذوات أنفسهم. وهذه درجة لم يفرضها الله فرضا على الناس، إنما فرض عليهم الحد الأدنى الذى لاتستقيم الحياة بدونه، وترك الدرجات العلا للتطوع النبيل، الذى تقدر عليه النفوس حين تتربى التربية الصحيحة على الإسلام، وتستضئ بنور الحق، وتعبد الله كأنها تراه[1] ، وتقتدى بالرسول ﷺ كأنها تعايشه.

وحين يتحقق للناس الحد الأدنى من هذا الدين، تستقيم الحياة على صورة تعجز عنها أى جاهلية من جاهليات التاريخ، وفى مقدمتها الجاهلية المعاصرة.. أما حين يتحقق ما فوق ذلك فهذا هو الفردوس الأرضى الذى تحقق ذات مرة على يد ذلك الجيل المتفرد، والذى سيظل أملاً جميلاً يحاول المسلمون تحقيقه فى أى قرن من القرون!

* * *

وفيما يلى نحاول أن نبرز السمات الرئيسية للأمة الإسلامية فى عهد ذروتها الذى تحقق فيه بالكامل وصف الله لها فى كتابه المنزل: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ ولنجعل فى بالنا أن الذى نبرزه فى هذا العرض السريع هو الخصائص الرئيسية للوجود الإسلامى - اللازمة فى ذاتها لكل جيل - ولكن فى صورتها الفذة التى حققها ذلك الجيل المتفرد، وأن الأمرين معا مهمان فى هذا العرض، ولكن الأمر الجوهرى هو تلك الخصائص الرئيسية، لأنها هى التى يتوقف عليها الوجود الإسلامى الصحيح، وحين انحرف المسلمون عنها تدريجيا، أصابهم - على المدى - ما هم واقعون فيه اليوم، مما نعرض له فى مكانه من الكتاب.

ولا يتسع المقام بطبيعة الحال للحديث المستفيض عن كل السمات الرئيسية للأمة

---

(١) جاء فى حديث «هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم»: «قال وما الإحسان؟» قال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» رواه الشيخان.

الإسلامية، فليس هذا تأريخا لها ولا بحثا متخصصا فى خصائصها ، إنما نختار أبرز هذه السمات ، ونعرضه فى أوجز صورة تتناسب مع موضوع الكتاب .

ونختار من هذه السمات :

أولا : صدق الإيمان ، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة ، وصدق الجهاد فى سبيل الله .

ثانيا: تحقيق معنى « الأمة» فى صورته الحقيقية .

ثالثا : تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض .

رابعا : أخلاقيات لا إله إلا الله .

خامسا : الوفاء بالمواثيق .

ثم نتحدث عن أمرين آخرين هما من الخصائص الرئيسية للأمة الإسلامية ، وإن كان تحققهما ـ بطبيعته ـ لم يتم فى حياة الجيل الأول ، إنما تم فى الأجيال التالية ، لأنهما ـ بحكم طبيعتهما ـ يحتاجان إلى فترة زمنية بعد التمكن فى الأرض ، ذانك هما الحركة العلمية الإسلامية ، والحركة الحضارية الإسلامية ، وقد تمتا كلتاهما متأخرتين فى الزمن ، ولكن قواعدهما الأولى كانت قد أرسيت ولاشك فى حياة ذلك الجيل الذى كتب فى الحقيقة تاريخ الإسلام ، فقد كانت الأجيال التالية متأثرة كلها بالدفعة الهائلة التى أحدثها الجيل الأول فى حركة الحياة ، لا فى داخل العالم الإسلامى وحده ، ولكن فى الأرض كلها على الاتساع !

* * *

أولا : صدق الإيمان ، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة، وصدق الجهاد فى سبيل الله

كلها من الخصائص الأصيلة لهذه الأمة ، وهى هى التى قامت عليها خيريتها التى وصفها الله بها فى قوله تعالى :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[١] .

وليس الذى يبهرنا من الجيل الأول هو اتصافه بهذه الصفات ، فهى من لوازم الأمة

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

التى يخرجها القرآن إلى الوجود ، وتحدد لها سنة رسول الله ﷺ دقائق حياتها . وإنما الذى يبهرنا فى ذلك الجيل الأول هو الدرجة العجيبة التى وصلوا إليها فى ترسيخ هذه الصفات فى نفوسهم وفى واقع حياتهم .

إن دعوة القرآن كلها هى إخلاص الدين لله :

﴿ ألا لله الدين الخالص﴾ (١) .

﴿ قل إنى أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين﴾ (٢) .

﴿ وادعوه مخلصين له الدين﴾ (٣) .

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾ (٤) .

والإخلاص الذى يأمر الله به ليس مجرد مشاعر تستكّن فى ضمير الإنسان، وليس مجرد إقرار يعلن فيه الإنسان أن الله واحد لا شريك له، عن اعتقاد قلبى بصدق ما يقرّ به من وحدانية الله . فهذا ـ وحده ـ لا يفى بما يطلبه الله من عباده بلفظ الأمر، لا على سبيل الندب أو التحبيب أو التحضيض : «وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء» إنما المتتبع لكل الآيات التى جاء فيها الأمر بالإخلاص يجد أنها متعلقة بتوجيه العبادة لله وحده دون شريك . فهى إذن ليست متعلقة بالاعتقاد وحده، إنما هى متعلقة كذلك بسلوك معين مرتبط بالاعتقاد . فالعبادة ـ كما هو واضح بالبداهة ـ سلوك واقعى، وليست مجرد مشاعر أو اعتقادات . سلوك مبنى على المشاعر، ومنبثق عن الاعتقاد .

والإخّلاص المطلوب فى العبادة هو براءة هذه العبادة من الشرك، وتلك هى حقيقة التوحيد . وهو أمر لازم لا للارتقاء فى مراتب الكمالات، بل لحصول الإيمان بادئ ذى بدء؛ أما الارتقاء فى مراتب الكمالات بعد ذلك فله مجالات أخرى نتحدث عن بعضها فى حياة ذلك الجيل الأول، وهى التى ورد فيها الندب والتحبيب، لا الأمر والإلزام .

فما العبادة المطلوبة من العباد، وما كيفية البراءة من الشرك ؟

العبادة كما بينها الله فى كتابه المنزل تشمل أمورا ثلاثة :

ـ الاعتقاد الجازم بأن الله واحد فى ذاته وفى أسمائه وصفاته .

---

(١) سورة الزمر [٣] .
(٢) سورة الزمر [١١] .
(٣) سورة الأعراف [٢٩] .
(٤) سورة البينة [٥] .

ـ والتوجّه إليه وحده بالشعائر التعبدية التى افترضها على عبادة .

ـ والالتزام بما أنزل الله من التحليل والتحريم والتحسين والتقبيح والإباحة والمنع .

وأيما أمر اختل من هذه الثلاثة فهو ناقض للتوحيد ومُدْخل فى الشرك الذى يخرج الناس من الإسلام، مع اعتبار معين فى هذا الشأن هو أن المَعصية ـ بغير استحلال ـ لا تنقض أصل الالتزام، ولا تخرِّج الناس من الإسلام، ما داموا يقرون بالأمر المنزل من عند الله، ولا يجعلون مخالفتهم له تشريعا مضاهيا لشرع الله، أو قائما بذاته مناقضا لشرع الله . بعبارة أخرى ليست المعصية لما أنزل الله هى التى تخرج من الملة، إنما هو التشريع بغير ما أنزل الله، وهو المعنىّ فى قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** ﴾ [1] ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون** ﴾ [2] ﴿ **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ [3] . وكون ذلك هو الشرك المخرج من الملة واضح فى قوله تعالى :

﴿ **أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله** ﴾ [4] .

﴿ **اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء** ﴾ [5] .

و«الدين» فى آية الشورى، واتباع ما أنزل الله فى آية الأعراف، كلاهما لا يتعلق بالاعتقاد وحده ولا بالشعائر التعبدية وحدها، إنما يشمل قضية التحليل والتحريم، ويعتبر اتخاذ أىٍّ من هذه الأمور الثلاثة : الاعتقاد والشعائر والشرائع، من مصدر غير الله شركا واتباعا للأولياء، بدليل قوله تعالى فى سورة النحل حكاية عن المشركّين، وتحديداً لأعمال الشرك التى يقومون بها :

﴿ **وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء** ﴾ [6] .

وبدليل قوله تعالى عن المنافقين فى سورة النساء موضحا المحك الذى يصدّق دعوى الإيمان أو يكذبها :

﴿ **ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به، ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا..** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما** ﴾ [7] .

---

(١) سورة المائدة [٤٤] .
(٢) سورة المائدة [٤٥] .
(٣) سورة المائدة [٤٧] .
(٤) سورة الشورى [٢١] .
(٥) سورة الأعراف [٣] .
(٦) سورة النحل [٣٥] .
(٧) سورة النساء [٦٠ ـ ٦٥] .

من هذه الآيات ـ وأمثالها فى القرآن كثير ـ يتضح لنا أن العبادة المطلوبة من العباد هى إفراد الله بالألوهية والربوبية، الذى يشمل توحيد الله فى ذاته وأسمائه وصفاته، والتوجه إليه وحده بالشعائر التعبدية، والالتزام بما أنزل الله، وعدم اتخاذ شرع من مصدر سواه، سواء على سبيل المضاهاة لشرع الله كما كان يفعل التتار قبل إسلامهم من اتخاذ « الياسق» الذى يجمع أحكاما من القرآن وأحكاما من مصادر أخرى، أو على سبيل التشريع المطلق، أى تنحية شرع الله جملة واتخاذ شرع غيره.

هذه العبادة ـ على هذه الصورة ـ هى التى تخرج الناس من الشرك وتجعلهم مسلمين. وهذا هو الإخلاص فى حده الأدنى، الذى لا يقبل الله من الناس أقل منه، ولا تقوم بغيره حقيقة الإسلام فى داخل النفوس ولا فى واقع الحياة (أما الدرجات العليا فمرهونة بمقدار الطاعات التى يتقدم بها العباد إلى الله، ومقدار الحرص على الالتزام بما أقر به القلب واللسان).

أما الاعتقاد بأن هناك شركاء لله فى الخلق أو التدبير أو الرزق أو الإحياء أو الإماتة أو النفع أو الضر.. إلخ، أو التوجّه لغير الله بالشعائر التعبدية، أو التشريع بغير ما أنزل الله، أو الرضى بغير ما أنزل الله، فهو الشرك الذى يخرج الناس من الإسلام.

* * *

وإذا كان أمر الإخلاص كذلك، فى شموله لهذه الأمور الثلاثة، فإن جدية الأخذ من الكتاب والسنة تصبح بديهية من بديهيات الأمة المسلمة لا يقوم بغيرها لهذه الأمة وجود. فما دام الالتزام بما أنزل الله ركنا من أركان العقيدة، لا تقوم فى الحقيقة بدونه (بصرف النظر عن المعصية التى لا تتحول إلى تشريع بالنسبة لصاحبها ولا بالنسبة لغيره من الناس)[1]. فقد أصبحت جدية الأخذ من الكتاب والسنة هى المقتضى المباشر للإسلام. ففى كل لحظة من حياة الناس « تشجر» أشياء تحتاج إلى « حكم» يتخذ فيها. فمن أين يستمد الحكم؟

إنه ليس هناك إلا مصدران اثنان: إما حكم الله وإما حكم الجاهلية:

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟! ﴾[2].

فإن لم يتخذ الناس أحكامهم من عند الله ـ أى من القرآن والسنة، ومن اجتهاد الفقهاء الملتزم بالكتاب والسنة لا يشذ عنهما ولا يخرج على أحكامهما ـ فإنهم عندئذ يتخذون أحكامهم من الجاهلية، ويخرجون بذلك من الإسلام.

(١) انظر فصل « مفهوم لا إله إلا الله» من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح».
(٢) سورة المائدة [٥٠].

فجدية الأخذ من الكتاب والسنة هى لازم من لوازم الوجود الإسلامى، وسمة من سمات الأمة الإسلامية لا تنفك عنها؛ وليس وجودها هو الذى يبهرنا من ذلك الجيل الأول. إنما الذى يبهرنا منه هو الدرجة العالية من الالتزام فى التنفيذ، التى تجعل المعصية شيئاً نادرا فى حياة الناس، مما نتحدث عن نماذج منه بعد قليل.

كذلك أمر الجهاد فى سبيل الله . . إنه سمة أصيلة من سمات هذه الأمة.

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾[١] .

فما دامت الأمة قد حملت راية لا إله إلا الله، وحملت معها مسئولياتها، فقد أصبح الجهاد من لوازم وجودها، ذلك أن البشر لا يستقيمون كلهم على منهج الله، ولا يرضون كلهم أن يكون الدين لله، ولا يدعون المسلمين وشأنهم يقيمون دينهم بمأمن من العدوان:

﴿وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة﴾ [٢] .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ [٣] .

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [٤] .

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ [٥] .

﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[٦] .

وبصرف النظر عن الجدل الذى يقوم به المستضعفون من المسلمين فى جيلنا الحاضر، حين يقولون إن الجهاد فى الإسلام دفاعى فقط، أى أن المسلمين لا يقاتلون إلا إذا هوجموا من قبل أعدائهم، مستندين إلى أحكام القتال المرحلية التى جاء فيها قوله تعالى: **﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين﴾** [١]

(١) سورة الصف [١٠ـ ١١] .
(٢) سورة التوبة [٣٦].
(٣) سورة البقرة [٢١٧] .
(٤) سورة الأنفال [٣٩] .
(٥) سورة البقرة [١٢٠] .
(٦) سورة التوبة [٢٩] .

مغفلين الآيات الصريحة التى أوردناها آنفا، أو مؤولين لها على ضوء الأحكام المرحلية .

بصرف النظر عن هذا الجدل فسيظل الواقع الذى تعيشه الأمة الإسلامية اليوم بعد أن تركت الجهاد تحت راية الإسلام خير دليل على وجوب الجهاد إلى قيام الساعة .

دفاعياً أو هجومياً . . لا غنى للأمة الإسلامية عن الجهاد : ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ .

ومرة ثالثة نقول إن الذى يبهرنا من حياة الجيل الأول ليس هو صدق الجهاد فى سبيل الله - الذى هو عنصر لازم للوجود الإسلامى فى كل جيل - إنما هو الدرجة الرائعة من هذا الصدق فى حياة ذلك الجيل .

والآن نعود إلى ذلك الجيل المتفرد لنرى الصورة المثالية التى تحققت بها هذه الصفات فى عالم الواقع .

لقد عاش ذلك الجيل مع القرآن حياة كاملة إن صح التعبير . .

كل جملة فى القرآن وكل عبارة، كل توجيه وكل أمر أو نهى . . يصل إلى نفوسهم بشحنته الكاملة، ويحركها الحركة التامة المطلوبة من الجملة أو العبارة، أو التوجيه أو الأمر أو النهى .

لم تكن هناك قراءة لمجرد التأمل الفكرى، ولا قراءة للاستمتاع الفنى ببلاغة القرآن، ولا قراءة لاستخراج نظريات فلسفية أو عقلية أو تجريدية . . أو حتى للتأثر الوجدانى الذى يأخذ بمجامع النفس ثم ينتهى بتهويمة روحية لا تحرك صاحبها من مكانه !

إنما كانت هناك معرفة للتنفيذ الفورى .

يروى الصحابة عن أنفسهم يقولون : لم يكن أحدنا يستكثر من القرآن ، إنما كنا نتعلم عشر آيات لا نزيد عليهن حتى نعمل بما فيهن ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعا[٢] .

لقد أنزل الله هذا القرآن لينشئ شيئا ضخما فى واقع الأرض :

﴿ ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى ! بل لله الأمر جميعا ﴾ [٣] .

لقد كان المشركون يطالبون الرسول ﷺ بمعجزات حسية كتسيير الجبال وتقطيع

---

(١) سورةالبقرة [١٩٠] .

(١) انظر تفسير ابن جرير (١/ ٨٠) .

(٣) سورة الرعد [٣١] .

الأرض وتكليم الموتى، ويعلقون إيمانهم بصدق الرسول ﷺ على تحقيق هذه المعجزات الحسية. ولكن الله لم يشأ أن ينزل عليهم تلك الآيات الحسية وأنزل بدلا منها ذلك الكتاب المعجز العظيم: الآية الباقية أبد الدهر. والآية التى أوردناها آنفا تشير إلى أنه ليس من شأن القرآن أن يسيّر الجبال أو يقطّع الأرض أو يكلم الموتى، لأن له شأنا آخر.. وتوحى بأن ما يقوم به القرآن أعظم من ذلك كله! أعظم من تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى، الذى تنتهى إليه أحلام الجاهليين وتصوراتهم.. إن مهمته هى إنشاء «الإنسان» فى أحسن تقويم.. وذلك أعظم عند الله من كل ما يتصورون.

ولقد عمل القرآن عمله بالفعل فى نفوس المسلمين الأوائل، فأنشأها إنشاء من جديد، فكان منهم ذلك الواقع العجيب الذى سجله التاريخ، والذى يلتقى فيه الواقع بالمثال.

كان القرآن يحدثهم عن قضية الألوهية فيدخل بها إلى نفوسهم من كل مداخلها، ويوقّع بها على أوتار قلوبهم، فإذا اهتزت وجههم إلى حقيقة التوحيد.

كان يحدثهم عن آيات الله فى الكون، وعن قدرة الله المعجزة فى الخلق، وعن الإحياء والإماتة، وعن الرزق والتدبير، وعن علم الله للغيب.. إلخ.. الخ.

﴿ إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى. ذلكم الله فأنى تؤفكون. فالق الإصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، ذلك تقدير العزيز العليم. وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر، قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون. وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع، قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون. وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه. انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾[1].

﴿ وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين. ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا. إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون. وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس. إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾[2].

(١) سورة الأنعام [٩٥ـ٩٩].　　(٢) سورة النحل [٦٦ـ٦٩].

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين. ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [1] .

﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله. إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وما لهم من دونه من وال. هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال. ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله وهو شديد المحال﴾ [2] .

. . . .

. . . .

وكانت هذه الآيات كلها تصل إلى نفوسهم بكل شحنتها ، فتدخل إلى أعماقها ، فتهزها هزا . . فتستجيب :

﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله. ذلك هدى الله يهدى به من يشاء...﴾[3] .

وكانت استجابتهم فذة من كل جوانبها . .

امتلأت قلوبهم بعظمة الله فقدروه حق قدره ، فأخبتوا له ، وتعلقت قلوبهم به فى الخوف والرجاء ، فى الحب والكره ، فى السعة والشدة ، فى الضيق والفرج ، فى كل لحظة وفى كل حال .

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك، فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا. ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد، فاستجاب لهم ربهم..﴾ [4] .

---

(١) سورة المؤمنون [١٢ـ ١٤] .
(٢) سورة الرعد [٨ـ ١٣] .
(٣) سورة الزمر [٢٣] .
(٤) سورة آل عمران [٩٠ـ ٩٥] .

ولم يكن هذا الذكر تسبيحا باللسان، ولا بالأذكار والأوراد، ولا على حبات المسابح .

إنما كان الله حاضرا فى قلوبهم فى كل لحظة ﴿ قياما وقعودا وعلى جنوبهم ﴾ [1] . لأن القرآن كان يخاطبهم بقضية الإلوهية فى كل حال من أحوالهم . إن كانوا يريدون شيئا فالله هو الذى يعطى ويدبر . وإن كانوا يخشون شيئا فالله هو الذى يقدر الأقدار . إن كانوا يطلبون بسطة فى الرزق فالله هو الذى يقبض ويبسط . إن كانوا يريدون الذرية فالله هو الذى يهب الذرية لمن يشاء . إن كانوا يخشون أعداءهم فالله هو الذى يسلط من يشاء على من يشاء لحكمة يريدها، ولن يخرجوا من قبضة أعدائهم إلا فى اللحظة التى يقدرها الله، وبقدر يقدره الله . . والله هو مالك الملك الذى يؤتى الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الأمر وهو على كل شىء قدير :

﴿ قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل، وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب ﴾ [2] .

وهكذا حيثما وجّه الإنسان بصره، أو توجهت به مشاعره وجد الله تجاهه . .

والمسلمون الأوائل هم الذين امتلأت قلوبهم بهذه الحقيقة حتى أعماقها . . فآتت ثمارها . . وهل ثمارها إلا طاعة الله؟!

إذا كانت الألوهية على هذا النحو الهائل المحيط . . فكيف يكون موقف العبد تجاه مولاه؟

هذا . . هو الذى جعل ذلك الجيل على النحو الذى كان عليه . . إحساسهم الحق بالعبودية الكاملة للإله الحق، العظيم القادر، المحيط بكل شىء علما وتدبيرا وقدرة ومشيئة وحفظاً وهيمنة وملكا وجبروتا ورحمة ومغفرة . .

هو الله . . وهم العبيد . . والعبيد يسلمون أنفسهم وقلوبهم وأرواحهم للذى يملكها حقا وصدقا . . فيتصرفون تجاه المالك كما يتصرف العبيد من الإذعان والطاعة والتسليم والخضوع . .

وعندئذ يصلون إلى القمة التى لا يحسن الصعود إليها إلا من يحسن العبودية لله!

إن هذا الأمر عجيب . . ولكنه هو حقيقة النفوس! إنها لا تكون على تمامها، وفى

(1) سورة آل عمران [١٩١] .
(2) سورة آل عمران [٢٥-٢٦] .

أحسن حالاتها وأعلاها، إلا حين تكون مستقيمة على وضعها الصحيح تجاه خالقها. كالآلة لا تدور دورانها الطبيعي السهل السلس حتى يكون كل « ترس» من «تروسها» في وضعه الصحيح ، ولا يكون شيء منها ناتئا عن موضعه فتقف عن الحركة أو تضطرب في دووتها.

فما الوضع الصحيح للإنسان تجاه خالقه؟

﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ (١) .

استسلموا لله بكافة أنفسكم. . بكافة كل نفس منكم. . بحيث يكون كل جزء من نفوسكم مستسلما لله. . وهذا هو الإسلام!

وعندئذ ؟تكونون في أعلى عليين! تكونون في أصفى حالاتكم، وفي أفضل حالاتكم، وفي أعلى صورة مستطاعة للإنسان على الأرض. . الإنسان الذي توشك أن تصافحه الملائكة !

هل من عجب إذن أن يكون أعظم بشر في تاريخ البشرية هو أعبد الناس لله؟

هو الذي يمن الله عليه بأنه قرّبه إليه أشد القرب بأن ألصق عبوديته به سبحانه وتعالى:

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ (٢) .

ففي أعظم لحظات التقريب أبرز الصفة التي كانت هي أداة القرب، وأداة الرفعة، وأداة التكريم.

إنه رب كريم ، يكرّم عباده بمقدار ما يتعبدونه، فيكون أكرمهم عنده هو أشدهم عبودية له :

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٣) .

والكريم عند الله هو الكريم حقا في السماوات وفي الأرض، وفي كل وضع من أوضاعه وكل حالة من حالاته.

---

(١) سورة البقرة [٢٠٨] .

(٢) سورة الإسراء [١] .

(٣) سورة الحجرات [١٣] .

وهذا هو الذى وعته قلوب الصحابة الكرام رضى الله عنهم . . فكانوا خير قرن من القرون ، بمقدار ما أخلصوا دينهم لله . . بمقدار ما صدقوا فى عبوديتهم لله .

* * *

وكان القرآن يحدثهم عن اليوم الآخر حديثا يهز القلوب بدقة الوصف والبلاغة المعجزة فى التعبير ، فيعيشون مشاهد القيامة كأنهم يرونها اللحظة تجاه أعينهم . . كأنها هى الحاضر المشهود لا المستقبل المنظور .

تلك خاصية القرآن . . يظل يصف لك مشاهد القيامة حتى يخيل إليك من روعة الوصف أن الحياة التى تحياها الآن قد مضت وانقضت وأصبحت ماضيا يتذكر ، وأن الحاضر هو هذه المشاهد الحية الموصوفة بكل دقائقها :

﴿ إن المتقين فى جنات ونعيم. فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم. كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون. متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين. والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء. كل امرئ بما كسب رهين. وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون. يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تأثيم. ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنا كنا قبل فى أهلنا مشفقين.فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم. إنا كنا من قبل ندعوه، إنه هو البر الرحيم﴾ (١) .

﴿ وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال؟ فى سموم وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم. إنهم كانواقبل ذلك مترفين، وكانوا يصرون على الحنث العظيم، وكانوا يقولون: أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون؟ أو آباؤنا الأولون؟! قل: إن الأولين والآخرين، لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم. ثم إنكم أيها الضالون المكذبون، لآكلون من شجر من زقوم، فمالئون منها البطون، فشاربون عليه من الحميم، فشاربون شرب الهيم، هذا نزلهم يوم الدين﴾ (٢) .

نعم . . تلك خاصية القرآن . . ولكن القلوب المتفتحة تحس بوقع الكلمات على نحو يختلف عن غيرها من القلوب . . إنها تتلقى الشحنة كاملة ، فتتأثر بها كاملة ، ويسرى الأثر إلى الأعماق .

لقد كان من صدق استسلام هذه القلوب لله ، أن كان تأثرها بكلام الله أشد ، فهى تتلقى كل كلمة من كلام الله على أنها موجهة إليها شخصيا ، لا أنها موجهة لآخر

(١) سورة الطور [١٧ ـ ٢٨] . (٢) سورة الواقعة [٤١ ـ ٥٦] .

وهى تتفرج من بعيد، كما يحدث للقلوب الغافية التى تتلقى الكلام وهى وسنانة، فيكون فى حسها كرجع الصدى، مبهما غير واضح النبرات!

عاشوا والآخرة فى حسهم كأنها حاضر. يعايشون مشاهدها تجاه أعينهم، فتشدهم الجنة بنعيمها الشفيف الخالد فيشتاقون إليها، فيغذون السير إليها متخففين مما يثقلهم فى الطريق من متاع الحياة الدنيا، متزودين بالزاد الذى يصلح للطريق ﴿ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [1] وترهبهم النار بعذابها المروّع فيحذرون أن يقعوا فيها، فيحاولون الابتعاد إلى أقصى المدى لينجوا من اللهيب: « **كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع فى الحرام**» .

وكذلك كان وقع اليوم الآخر فى حسهم. . لم يكن مجرد تأثر وجدانى مؤقت، تمر به رياح الشهوات فتعصف به وتذروه، إنما هو شيء ثابت تجاه أعينهم، فى كل لحظة يرونه، وفى كل لحظة يتأثرون برؤيته، فيعملون ما يقربهم من الجنة، ويتحاشون ما يقربهم من النار. لذلك كان دعاؤهم - وهم يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم - على هذا النحو الذى تصفه الآيات:

﴿ يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض: ربنا ما خلقت هذا باطلا، سبحانك، فقنا عذاب النار. ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار. ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد﴾ [1] .

فى كل لحظة يهمّ أحدهم بعمل يسأل نفسه: هل هذا العمل مما يرضى الله عنه فيدخله به الجنة؟ أم مما يسخط الله فيدخله به النار؟

وفى كل لحظة يسأل نفسه: ما الذى يريده الله منى فى موقفى هذا فى لحظتى هذه؟ فإذا عرف الجواب أسرع إلى القيام بما يطلبه الله منه، شوقا إلى الجنة وفرارا من النار. وكان هذا هو الذكر الذى يذكرون به الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم. . الذكر الحافز إلى المسارعة فى الخيرات، لا ذكر الأوراد والأذكار والمسابح، الذى يبدأ هناك وينتهى هناك!

* * *

وكان القرآن يحدثهم عن قصة الشيطان مع آدم، ويحذرهم من الوقوع فى فتنته:

---

(١) سورة البقرة [١٩٧] .

(٢) سورة آل عمران [١٩١ - ١٩٤] .

﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما. إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم. إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون﴾ (١) .

﴿ قال أنظرنى إلى يوم يبعثون، قال إنك من المنظرين، قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ (٢) .

﴿ وإن يدعون إلا شيطانا مريدا، لعنه الله، وقال : لأتخذن من عبادك نصيبا مفروضا، ولأضلنهم، ولأمنينهم، ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله، ومن يتخذ الشيطان وليّا من دون الله فقد خسر خسراناً مبينا. يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا﴾ (٣) .

وكان الشيطان يتجسم فى حسهم مرئيا مشهودا يأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، يوسوس لهم بالمعصية ويستثير كوامن الشهوات . . فكانوا يحاولون أن يكونوا دائما على يقظة ، لأنه لا يدخل إلا على الغفلان . كانوا يتقربون إلى الله بالطاعات ليضيقوا طريق الشيطان إليهم أو يسدوه ، فلا يجد له طريقا إليهم إلا فيما هو أخفى من دبيب النمل ، ومع ذلك يحاولون أيضا أن يسدوا ذلك الطريق !

﴿ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون﴾ (٤) .

* * *

وكان القرآن يحدثهم عن أخلاقيات لا إله إلا الله :

﴿قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون﴾ (٥) .

---

(١) سورة الأعراف [٢٧] . (٢) سورة الأعراف [١٤ ـ ١٧] . (٣) سورة النساء [١١٧ ـ ١٢٠].
(٤) سورة النحل [٩٨ ـ ١٠٠] . (٥) سورة المؤمنون [١ ـ ١١] .

﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما، والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مستقراً ومقاما. والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً . والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما. يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما. ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا. والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما. والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما، خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾ (١) .

ويحدثهم كذلك عن أخلاقيات الجاهلية :

﴿ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾ (٢) .

﴿ كلا بل لا تكرمون اليتيم ، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما ﴾ (٣) .

﴿كلا إن الإنسان ليطغى ، أن رآه استغنى ﴾(٤) .

﴿ ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخلده ! ﴾ (٥) .

﴿ ولا تطع كل حلاف مهين، هماز مشاء بنميم، مناع للخير معتد أثيم، عتل بعد ذلك زنيم، أن كان ذا مال وبنين، إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ (٦) .

فيأخذون التوجيه على أنه أمر ملزم ونهى ملزم. أمر بأخلاقيات لا إله إلا الله، ونهى عن أخلاق الجاهلية .

لذلك لم تكن لا إله إلا الله منفصلة فى حسهم عن الأخلاق الفاضلة التى دعاهم إليها باسم الإيمان، لأنها كانت فى حسهم - كما هى فى الواقع - من مقتضيات لا إله إلا الله .

* * *

---

(١) سورة الفرقان [٦٣ - ٧٦] . (٢) سورة المطففين [١ - ٣] . (٣) سورة الفجر [١٧ - ٢٠] .
(٤) سورة العلق [٦ - ٧] . (٥) سورة الهمزة [١ - ٣] . (٦) سورة القلم [١٠ - ١٥] .

هل نعـجب إذن ـ حين نعـرف الـطريقـة التى كـانوا يتلقـون بهـا توجيـهـات القـرآن وتوجيـهـات الرسـول ﷺ ـ إذا رأينا تلك الـنماذج الـفذة التى تحدثنا عنهـا كتب السيـرة ، بتلك الوفرة التى وعاها التاريخ ؟

هل نعجب من الذين باتوا على الطوى ليقدموا اللقمة الضئيلة التى يملكونها إلي ضيفهم، وأطفأوا السراج حتي لا يري الضيف أنهم لا يملكون إلا ما قدموه له . . فأنزل الله فيهم : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [1] .

هل نعجب من الذى خرج من بيته وبيده تمرات فلما رأى القتال قال : لئن عشت حتى أنتهى من هذه إنه لأمر يطول ! فألقى التمرات واقتحم المعركة شوقا إلى الجنة فاستشهد ؟ !

هل نعجب ممن كان فى ليلة عرسه فسمع الهيعة فقام يطلب الجنة فلما استشهد غسلته الملائكة؟ !

هل نعـجب ممن يقـدم له رسـول الله ﷺ قـسـمـه من الفـئ فيـرده يقـول مـا على هذا بايعتك ! لأنه يبحث عن متاع من نوع آخر ، ويصدق الله فيصدقه . . فيدخله الجنة شهيداً فى سبيل الله ؟ !

هل نعـجب من عـمر يبكى حين رأى العجـوز تلهّى أبناءها ليناموا فيـذهب بنفسه فيحمل الدقيق على ظهره ويعود يصنع للأطفال الطعام بيده ولا ينصرف حتى يعلم أنهم قد شبعوا وناموا؟ !

هل نعجب من ماعز تؤرقه نفسه ، يلح على رسول الله ﷺ حتى يقيم عليه الحد ، لا يطيق أن يلقى الله بلا كفارة؟ ومن الغامدية تلح فى إقامة الحد عليها ، وتظل على عزيمتها لا تفارقها حتى تفطم ولدها . . تريد أن تلقى الله خالية من الذنوب؟ !

هل نعجب من ربعى بن عامر يدخل على رستم كما دخل ، مستعلياً على كل ما تملكه الجاهلية من السلطان والجاه ، معتزا بلا إله إلا الله ، يصدع بكلمة الحق فى وجه الجاهلية العاتية ، لا يرهبها ولا يحس لها وزنا فى حسه ، لأنه يزنها بميزان الله فإذا هى خاوية ، تستحق أن يدوسها بأقدام حماره ، ويمزقها بطرف رمحه ، ويملى على صاحبها أمر الله !

---

(١) سورة الحشر [٩] .

هل نعجب من عمرو بن العاص يطلب المدد من الخليفة لأن الروم يشدون على جيشه، فلا يرسل له عمر رضى الله عنه عشرة آلاف يمده بهم ولا خمسة آلاف، ولا ألفا ولا خمسمائة، إنما يرسل إليه أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ الكرام العظام كأنهم مدد يبلغ الألوف ؟!

هل نعجب من انتشار الإسلام فى تلك الرقعة الفسيحة من الأرض فى تلك البرهة القصيرة من الزمن، فيبلغ من المحيط غربا إلى الهند شرقا فى نصف قرن من الزمان على أيدى أولئك الأفذاذ من الرجال ؟!

هل نعجب من مئات ومئات من الخوارق فى كل اتجاه، تجتمع كلها وتحتشد فى تلك الفترة المحدودة من الزمن، حتى ليمر بها المؤرخ وكاتب السيرة مرورا عابرا كأنما يتحدث عن شىء عادى، ذلك أنه ينظر يمنة ويسرة فيرى القمم الشاهقة من حوله فلا يعود يصف قمة بأنها قمة!! لأن هذا لا يميزها عن غيرها من القمم!!

* * *

هل خرج هؤلاء البشر عن بشريتهم؟

هل أصبحوا ملائكة؟

هل خرجوا من عموم قوله ﷺ : «كل بنى آدم خطاء» ؟ (1) .

كلا : ما كانوا كذلك !

كانوا بشرا تعتمل فى نفوسهم دوافع البشر، ويتحركون فى الأرض بدوافع البشر.. ولكنها دوافع البشر فى أصفى حالاتها وأعلاها؛ دوافع البشر حين يتخففون إلى أقصى حد من ثقلة الأرض، فيصعدون أقصى ما يتاح للبشر من الصعود. ولكنهم مع ذلك كله بشر فيهم من سرق وأقيم عليه الحد، وفيهم من زنى وأقيم عليه الحد، وفيهم من شرب الخمر وأقيم عليه الحد، وفيهم من تولى يوم التقى الجمعان فغفر الله له، وفيهم من تباطأ وتثاقل، وفيهم من تخلف..

فيهم من نزل فيه قوله تعالى: ﴿**منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة**﴾(2) .

وقوله تعالى: ﴿**ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض**﴾(3) .

وقوله تعالى: ﴿**ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل**﴾(4) .

---

(1) أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجة والدرامى.

(2) سورة آل عمران [152] .

(3) سورة التوبة [38] .

(4) سورة محمد [38] .

وقوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم﴾ (١) .

ولكنهم كانوا كما وصفهم الله : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - ومن يغفر الذنوب إلا الله - ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون. أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعم أجر العاملين﴾ (٢) .

كانوا يعملون . . فإذا هبطت بهم ثقله عن المستوى السامق لم يستكينوا للهبوط ، إنما عادوا يعملون للصعود من جديد . . فيصعدون . . ويصعدون!

ثانيا : تحقيق معنى الأمة فى صورته الحقيقية

كان العرب كما قلنا قبائل متناثرة متنافرة لا تجتمع على شىء ، على الرغم من وجود كل مقومات التجمع من وحدة الأرض ، ووحدة اللغة ، ووحدة الثقافة ، ووحدة التاريخ ، ووحدة التصورات ، ووحدة التطلعات .

وقد كان يمكن على أقل تقدير أن يجتمعوا على قضية من القضايا التى يتجمع لها الناس فى جاهلياتهم ؛ قضية قومية مثلا لطرد الاحتلال الفارسى والاحتلال الرومانى من أطراف الجزيرة العربية ، أو قضية اجتماعية لتقريب الفوارق بين الغنى الفاحش فى أيدى فئة قليلة من الناس والفقر المدقع الذى يتسربل به أغلبية الناس . . أو غير هذه وتلك مما يمكن أن يجتمع له الناس فى أطوار معينة من أطوار الحضارات الجاهلية . . ولكن العصبية القبلية والثارات الدائمة وغارات السلب والنهب واشتغال كل قبيلة بشئونها الخاصة ، وحرصها على حيازة ما تفاخر به غيرها ، وسعيها إلى انتقاص غيرها ، جعل التجمع حتى على هذه القضايا الأرضية البحتة أمرا لا يخطر فى بال قبيلة من القبائل ، حتى فى فرصة التجمع السنوى فى موسم الحج .

ومن هناك انتشلهم الإسلام .

---

(١) سورة التوبة [١١٧ - ١١٨] .

(٢) سورة آل عمران [١٣٥ - ١٣٦] .

انتشلهم لا ليكوّنوا تجمعا قوميا كما يمكن أن يحدث فى أية جاهلية من جاهليات التاريخ، ولا ليكوّنوا تجمعا وطنيا تحت قيادة زعيم منهم ينشئ منهم دولة موحدة ذات كيان وحدود . . ولكن لينشئ منهم تجمعا فريدا فى التاريخ . . لينشئ منهم أمة العقيدة التى استحقت من الله وصفها بهذا الوصف العظيم : ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس، **تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** ﴾ .

والذى يلحظ النقلة الهائلة التى انتقلها العرب من شتاتهم المتناثر ليكونوا خير أمة أخرجت للناس، لا بد أن يأخذه العجب من هذا التحول الهائل فى فترة من عمر الزمن كأنها لحظات!

وقد يتمحل المتمحلون من دعاة القومية العربية، أو دعاة التفسير المادى للتاريخ ليقولوا إن العرب كانوا وشيكين من ذوات أنفسهم على التجمع القومى لطرد الروم والفرس من أطراف الجزيرة، أو لقيام ثورة « اشتراكية» من الفقراء على الأغنياء تنقل السيادة من الأخيرين إلى الأولين .

وهو تمحل فارغ لا يستحق الوقوف عنده لبضع لحظات !

فلا التجمع القومى المزعوم كانت له أى بوادر منظورة بين القبائل العربية المتناثرة، ولا تكلم به أى متكلم على الإطلاق، ولا « الثورة الاشتراكية» كانت لها أى بوادر منظورة أو كامنة فى الجزيرة العربية ولا فى غيرها من بقاع الأرض لعدة قرون تلت، ولا كان « الفقراء » فى أى قبيلة تجمعا مترابطا متضامنا ليقوم بالثورة على الأغنياء فيها، فضلا عن أن يكونوا تجمعا عريضا يشمل فقراء الجزيرة العربية كلهم بوصفهم «طبقة» تثور على طبقة الأغنياء .

وفضلا عن ذلك كله فإن التجمع الذى تمثل فى تلك « الأمة الفريدة» أمة العقيدة ، هو تجمع فريد لا مثيل له فى كل التجمعات «القومية » السابقة أو اللاحقة، ولا فى التجمعات التى قامت على أساس المذاهب الاجتماعية فى العصر الحديث، فالقول بأن العرب كانوا وشيكين من عند أنفسهم على إقامة هذا التجمع أو ذاك، لا يفسر - حتى إن صح - قيام ذلك التجمع الفريد، الذى لم يتكرر - بهذه الصورة - فى كل التاريخ.

* * *

كيف تكوّن ذلك التجمع الفريد، الذى أنشأ خير أمة أخرجت للناس؟

لقد بدأ ولا شك بأولئك الأفراد القلائل الذين تجمعوا حول الرسول ﷺ فى دار

الأرقم بن الأرقم فى خفية عن عيون الناس . كلٌّ قد هجر الجاهلية كلها من حوله وأدار لها ظهره ، وقطع صلته بقرابة الدم وصداقات القوم ، وتوجه الوجهة الجديدة التى تدعو إليها لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، التى شهد بها قلبه ولسانه وكل جوارحه ، وأصبحت له ـ منذ شهد بها ـ هى الموئل والملاذ ، وهى مفرق الطريق بينه وبين الجاهلية .

وحين التقوا حول رسول الله ﷺ فقد التقوا بكيانهم كله ، والتحمت قلوبهم بنوع جديد من الرباط لم يألفوه من قبل ، ولا وجود له فى الحقيقة خارج نطاق العقيدة . إنه اللقاء فى الله ، واللقاء فى رسول الله .

إن الناس فى الجاهلية تلتقى ، وتقوم بينها صحبة وصداقات . ولكن على أى شئ تلتقى الناس ؟

إنها إما قرابة الدم ، وإما « المصالح المشتركة » ، وإما لقاء الشهوات . .

ومن ثم فإنها ـ مهما تقاربت وتلاصقت ـ لا تصل إلى حد الالتحام !

فى كل صلة من هذه الصلات لا تذوب « الأنا » التى تقيم حاجزا بين القلب والقلب ، وإن تلاقت الأجساد أو تلاقت العقول والأفكار . فكل إنسان يقيم سياجا معينا لنفسه ، يتسع للحجم الذى يحس فيه « بالأنا » المشتملة عليها ذاته ، ومن ثم تلتقى الذوات المختلفة وتتقارب ، ولكن فى حدود ذلك السياج المنصوب من كل منهم حول «الأنا» التى يحسها بين جنبيه . ومن ثم تتنافر تلك الذوات إذ اقتربت أكثر من اللازم ، ويبدأ بينها الاحتكاك !

نوع واحد من الرباط لا يحدث فيه ذلك التنافر ، لأنه يذيب ذلك السياج الزائف الذى ينصبه الإنسان حول نفسه ، ومن ثم تظل القلوب تقترب وتقترب حتى يحدث الالتحام . . ذلك هو رباط العقيدة ! ذلك أنه ليس رباطا بين إنسان وإنسان فى محيط الأرض ، وعلى علاقات الأرض ، ولكنه رباط فى الله ، بين عبد لله وعبد لله ، خلا قلباهما من ذلك الكبر الظاهر ، أو الخفى ، الذى يحجز القلوب عن التقارب والالتحام ، وامتلأ قلباهما بشىء آخر غير مشاغل الحس القريبة ، ومشاغل الأرض المنقطعة عن السماء .

ذلك الرباط هو الذى وحد تلك القلوب حول رسول الله ﷺ حين حدث اللقاء بينها فى الله ، فتحابت ، فالتحمت ، ثم زادها التحاما لقاؤها فى حب رسول الله ﷺ ، فتآخت ذلك الإخاء العجيب الذى يتحدث عنه التاريخ !

كان الصحابة رضوان الله عليهم يسير الاثنان منهم فى الطريق ، فتفصل بينهما أثناء

المسير شجرة، فيعودان فيسلم أحدهما على الآخر شوقا إليه من تلك اللحظة التى فصلت بينهما فى الطريق !

وبكى أحد الصحابة حزنا لأنه فكر فى فراق رسول الله ﷺ فى الدار الآخرة، وهو لا يطيق فراقه فى الدنيا، فأنزل الله قوله فيه : ﴿ ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾ (١) .

ولما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة آخى بين الأوس والخزرج، فذاب ما بينهما من نزاع وصراع استمر ذلك المدى من الزمن الذى لا يعلمه إلا الله، وصار بينهما ذلك التآلف والإخاء الذى منّ الله به عليهم : ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾(٢) .

ثم آخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة العجيبة الفريدة فى التاريخ، حيث كان الأنصار يتنازلون عن شطر ما يملكون للمهاجرين عن طيب خاطر، وعن غير إلزام ألزمهم به الله ولا رسوله ﷺ، ويؤثرونهم أحيانا على أنفسهم حتى أنزل الله فيهم : ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ (٣) .

إنه ذلك الحب الذى ينشئه رباط العقيدة، ولا يملك رباط آخر أن ينشئه على هذا النحو الوثيق العميق الشفيف الذى يصل إلى درجة الالتحام، لأنه لا يصطدم بالسياج الزائف الذى تقيمه « الأنا» حول ذاتها فى جاهليات البشرية .

ولم تكن تلك المؤاخاة مؤاخاةً طبقية تقوم بين « شريف » و«شريف» ولا مؤاخاةً قومية أو عرقية تقوم بالضرورة بين عربى وعربى . . إنما كانت مؤاخاةً بين « مسلم » و«مسلم» بصرف النظر عن الجنس أو اللون أو اللغة أو الوضع الاقتصادى أو الوضع الاجتماعى، لأنها الأخوة التى قال الله عنها : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ (٤) . تربط القلوب برباط الإيمان بصرف النظر عن كل رباط آخر .

فقد آخى الرسول ﷺ بين عمه حمزه ومولاه . زيد، وبين أبى بكر وخارجة بن زيد، وبين ابن رواحة الخثعمى وبلال بن رباح . . والتقى فى بوتقة العقيدة التى صهرت

(١) سورة النساء [٦٩] .
(٢) سورة آل عمران [١٠٣] .
(٣) سورة الحشر [٩]
(٤) سورة الحجرات [١٠] .

كل فوارق الجنس واللون واللغة بلال الحبشى، وصهيب الرومى، وسلمان الفارسى، مع أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة رضوان الله عليهم. بل قال رسول الله ﷺ «سلمان منا آل البيت» [1] وقال عمر رضى الله عنه عن أبى بكر وبلال رضى الله عنهما: «أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا».

إنها هى «الأمة» التى قال عنها خالقها سبحانه: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾.

إنها الأمة فى معناها الحقيقى الذى لم يتحقق فى أى تجمع آخر من تجمعات التاريخ.

إنها أمة العقيدة.. ذات الرباط الحقيقى الذى ينشئ الأمة فى صورتها الحقيقية.

ليست الأمة كما يعرّفها علم الاجتماع الجاهلى مجموعة من البشر تجمعهم أرض مشتركة، ولغة مشتركة، وجنس مشترك، ومصالح مشتركة، ومصالح مشتركة. فهذه كلها هى العناصر التى لا اختيار للإنسان فيها، والتى يجتمع على مثلها الحيوان كذلك!

فالميلاد فى أرض معينة أمر لا يتخيره الإنسان لنفسه، ومن الحماقة أن يكون بذاته محلا للتفاضل بين بشر وبشر! واتخاذ لغة البقعة من الأرض التى ولد فيها الإنسان هو أمر كذلك لا يختاره الإنسان لنفسه، ومن ثم فلا مجال لأن يكون بذاته موضعا للتفاضل بين بشر وبشر! والانتماء - بالمولد - إلى جنس معين هو أمر كسابقيه لا اختيار للإنسان فيه، فضلا عن حماقة التفاضل بالجنس (أو باللون) التى لم تخل منها جاهلية من جاهليات التاريخ حتى جاهلية القرن العشرين. وأما «المصالح المشتركة» فهى وشيجة تلتقى البهائم على مثلها حين تلتقى على العشب والكلأ والماء فتكوّن قطعانا متآلفة بعضها مع بعض، متعادية مع من يهدد «مصالحها المشتركة» من القطعان الأخرى! إنما يكون التفاضل بين الآدميين على «القيم» التى يلتقون عليها ويتجمعون من أجلها ويحرصون عليها ويجاهدون فى سبيلها.. وهذه.. قبل كل شئ آخر هى الوشيجة التى يمكن أن تكوّن «الأمة»، لأنها القيم التى تستحق أن تقوم عليها حياة الإنسان، بصرف النظر عن الأرض واللغة والجنس وأى شيء آخر مشترك أو غير مشترك.. ومن ثم تكون العقيدة، وهى أعلى ما يمكن أن تقوم عليه حياة الإنسان، هى الوشيجة الحقيقية التى تقوم عليها الأمة الحقيقية.. الأمة الخيرّة.. ثم تنضوى تحتها كل العلاقات الأخرى.. علاقات الأرض واللغة والجنس وقرابة الدم، فتكون هذه روافد

(١) رواه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٥٩٨).

إضافية إذا وجدت، ولكنها لا تكون هى التى تكوّن الأمة ـ ولو اجتمعت كلها ـ فى غياب العقيدة، بينما تكون العقيدة وحدها ـ ولو غابت الروابط الأخرى كلها ـ هى الرباط الذى تتكون حوله أمة تتآخى بأخوّة العقيدة وتترابط برباط الإيمان فتكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، [1] وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر [2] .

تلك هى الوشيجة التى نبه القرآن فى أكثر من موضع أنها هى المعتبرة وهى المعول عليها، والتى تفصم الروابط الأخرى كلها وتبقى هى لا تنفصم.

ففى قصة نوح جاء قوله تعالى:

﴿ ونادى نوح ربه فقال رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألن ما ليس لك به علم، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين. قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم، وإلا تغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين﴾ [3] .

فقد وعد نوح من قبل أن ينجو أهله من الطوفان إلا من سبق عليه القول :

﴿حتى إذا فار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾ [4] .

ولقد دعا نوح ابنه ـ وكان فى معزل ـ ليركب فى السفينة الناجية فأبى، فأدركه الطوفان:

﴿ وهى تجرى بهم فى موج كالجبال، ونادى نوح ابنه وكان فى معزل: يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين. قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ [5] .

فلما قضى الأمر واستوت السفينة على الأرض وقد نجا من نجا، وهلك من هلك، ملأت الحسرة قلب نوح على ولده الهالك، وراح يسأل ربه كيف غرق وهو من أهله، وقد وعده الله أن ينجو أهله، ووعد الله حق لا ريب فيه ؟!

---

(١) يقول تعالى فى سورة الصف [آية ٤] : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص» .

(٢) يقول ﷺ : «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » متفق عليه .

(٣) سورة هود [٤٥ ـ ٤٧] .　(٤) سورة هود [٤٠] .　(٥) سورة هود [٤٢ ـ ٤٣] .

هنا ينبهه الله سبحانه وتعالى أن الوشيجة الحقيقية ليست وشيجة الدم . . إنما هى وشيجة العقيدة : ﴿ يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح ﴾ . وقد انفصمت وشيجة العقيدة حين أبى الابن أن يؤمن ، فانفصمت لها كل وشيجة أخرى ، ولم يعد ابن نوح من أهله ، مع أنه ابنه كما يؤكد القرآن باللفظ الصريح «ونادى نوح ابنه» .

وفى قصة إبراهيم جاء قوله تعالى :

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾ (١) .

وجاء قوله تعالى يحذر الذين آمنوا بمحمد ﷺ :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون. قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ (٢) .

فيضع روابط الدم كلها فى كفة ، بل يضع كل مقوّمات التجمع الجاهلى فى كفة ، وحب الله ورسوله ، والجهاد فى سبيل الله فى الكفة الأخرى ، ثم يرجح هذه على تلك ، وينذر الذين يخلّون بالموازين الربانية بالعذاب الأليم .

وإذا كان الإسلام من فيض رحمته وإنسانيته قد حرص على بر الوالدين - وإن كانا مشركين (٣) - فالبر شىء والولاء الذى تقوم على أساسه الأمة شىء آخر . . والولاء هو الذى ينفصم انفصاما كاملا حين تنفصم رابطة العقيدة ، وهو العنصر الحىّ الذى تقوم به الأمة فى ظل العقيدة ، وقد تأتى الروابط الأخرى فتكون أواصر إضافية : **﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ﴾** (٤) . ولكن بشرط الالتقاء فى العقيدة ، الذى لا تقوم الأمة الحقيقية إلا عليه .

وتلك الأمة - التى قامت على رباط العقيدة - هى التى وصفها خالقها بقوله سبحانه : **﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾** (٥) وهى التى لم تتكرر - بصورتها تلك - فى كل التاريخ .

---

(١) سورة الممتحنة [٤] . (٢) سورة التوبة [٢٣ - ٢٤] .

(٣) سألت أسماء رضى الله عنها رسول ﷺ هل تصل أمها المشركة فقال لها : نعم صلى أمك . رواه الشيخان .

(٤) سورة الأنفال [٧٥] .

(٥) سورة آل عمران [١١٠] .

نعم ، وجدت أمم مؤمنة من قبل ، ارتبطت بذلك الرباط فكانت أمما خيرّة ، ولكنها كانت محدودة الحجم محدودة الدور فى التاريخ ، بحكم أن الرسل السابقين أرسلوا إلى قومهم خاصة . أما محمد ﷺ ، الذى أرسل إلى البشر كافة ، فقد كانت أمته ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ فى التاريخ كله بشهادة خالقها ومخرجها على هذا النحو الفريد .

ومن كان فى شك من تلك الحقيقة فليوازن بينها وبين التجمعات الكبرى فى التاريخ ، التى جمعت أكثر من جنس أو لون أو لغة أو ثقافة ، وعلى رأسها التجمع الرومانى فى القديم ، ورابطة الشعوب البريطانية (الكومنولث Common Wealth) والتجمع الأمريكى (الولايات المتحدة الأمريكية) والتجمع الروسى (الاتحاد السوفيتى) فى الحديث .

فأما التجمع الرومانى القديم فقد كانت فيه « الدولة الأم » فى مركز السيادة الكاملة والأمم الأخرى فى موضع التبعية الكاملة كما هو مشهور فى التاريخ . ولم تقم فيهاتلك « الأخوة» التى تجمع تلك الأمم والشعوب فى رباط واحد على قدم المساواة . وحتى حين دخل قسطنطين المسيحية وفرضها على الإمبراطورية عام ٣٢٥م ، فلم تكن الأخوّة المسيحية هى التى تحكم كل مظاهر الحياة فى الإمبراطورية الرومانية ، إنما كانت جانبا واحدا من الصورة ، وبقية الجوانب مبنية على شىء آخر بعيد كل البعد عن الأخوة والمساواة ، هو التبعية للدولة الأم ، وهامشية الدور الذى تقوم به فى حياة الإمبراطورية ، إذ هو عبارة عن إمدادها بالمال والرجال . . المال لتكتنز الدولة الأم ويترف حكامها وكبراؤها ، والرجال ليقاتلوا - وليموتوا - فى سبيل مطامع الإمبراطورية وشهواتها ، أو بالأحرى مطامع الإمبراطور المقدس وشهواته ! ولكن ليس لها رأى ولا موقف تجاه الدولة الأم سوى التبعية والبذل ، مقابل « شرف» الانتماء إلى الإمبراطورية ! !

وأما تجمع « الكومنولث» فلعل حادثا واحدا معينا يغنينا عن كل شرح وإفاضة لأنه واضح الدلالة فى بيان حقيقة الرابطة فيه بين « الدولة الأم» و«المستعمرات» التى أطلق عليها من باب التمويه « رابطة الشعوب البريطانية» !

ذلك الحادث وقع فى أثناء الحرب الكبرى الثانية حيث كانت مواقع الصحراء الكبرى تتوالى عليها قوات « الحلفاء» وقوات « المحور» ذهابا وأيبة ، إلى أن استقر الأمر لقوات الحلفاء بعد اندحار «روميل» قائد قوات المحور . وكانت مدينة «طبرق» بالذات أكثر هذه المواقع تداولا بين القوتين . وفى إحدى المرات انسحبت القوات الألمانية تحت ضغط القوات البريطانية ، وكان من المعتاد أن الدولة المنسحبة تزرع الأرض بالألغام قبل

انسحابها لتحدث أكبر قدر ممكن من الخسائر فى القوات الغازية ، كما كان من المعتاد أيضا - بالنسبة للحلفاء على الأقل - أن يطلقوا قطيعا من الحمر المستنفرة أو الجمال الهائجة على حقول الألغام فداء للبشر ، فتموت الحمير والجمال وتقل خسائر الجنود إلى أقل قدر ممكن . أما فى تلك المعركة - التاريخية - فقد أطلق قائد القوات البريطانية الفيلق الهندى فى جيشه ليفجر حقول الألغام أمام الجنود البيض ، بدلا من الحمر والجمال المعتادة - لأمر لا أعلمه حتى هذه اللحظة - وانتصر « الحلفاء » انتصارا باهرا وصدر البلاغ الحربى يسجل الانتصار : انتصرنا على قوات العدو . استولينا على طبرق . خسائرنا قليلة . فنى الفيلق الهندى عن آخره ! !

وأما التجمع الأمريكى فيكفينا من سوآته ومخازيه موقف البيض هناك من السود ، وهم إخوان فى «مواطنية» الولايات المتحدة الأمريكية وإخوان كذلك فى المسيحية ! . . ومع ذلك توجد لافتات فى المطاعم ودور السينما مكتوب عليها فى وقاحة « ممنوع دخول السود والكلاب ! » ويتكرر حدوث هذا المشهد : مجموعة من البيض قد تجمهروا حول واحد من الزنوج يضربونه ويطرحونه أرضا ويركلونه بأقدامهم حتى تزهق روحه ، والشرطى الأبيض قد أدار لهم ظهره حتى ينتهوا من « جهادهم المقدس» ثم يفروا ، فيقيد الحادث ضد « مجهول» !

وأما التجمع الروسى - الذى يزعم أنه تجمع عقيدة ! - فالدولة الأم ذات السلطان الحقيقى هى روسيا ، وبقية « السوفييتات» إن هى إلا توابع ذات وجود وهمى ، لا تشارك فى سياسة عامة ولا فى أمر من الأمور إلا بالطاعة والتنفيذ ، وكيل المديح للزعيم المقدس القائم بالسلطة ، حتى إذا هلك وأمرت الدولة الأم بنبش قبره كما فعلت بستالين ، سارعت السوفييتات كذلك بإضفاء أقبح النعوت عليه تنفيذًا لأوامر السلطان الجديد ! ! ووصل الأمر إلى حد اقتلاع المصانع من السوفييتات التى كانت مصنعة قبل أن تدهمها « العقيدة » الجديدة ، ووضعها فى روسيا لتكون هى الأقوى وهى الأضخم وهى صاحبة السلطان ! !

فى التجمع القائم على العقيدة ، أو المنبثق فى الحقيقة من العقيدة ، يكون الرباط الأكبر هو رباط الأخوة فى الله ، أقوى الروابط فى حياة البشر على الإطلاق .

وبقدرما يتحقق من هذه الأخوة فى عالم الواقع ، يكون مدى تحقق المعنى الحقيقى للأمة ، ويكون ثقلها فى ميزان الله يوم القيامة ، كما يكون ثقلها التاريخى فى واقع الأرض .

ولا شك أن ذلك الجيل المتفرد هو الذى حقق أكبر قدر من هذه الأخوة ، ولذلك

كان أثقل الأجيال وزنا عند الله : خيركم قرني . . [1] كما كان أكثرها وزنا وفاعلية في تاريخ البشرية .

لقد حقق ذلك الجيل تلك الأخوة فى كل مجال من مجالات الحياة .

حققها بين المهاجرين فى ذوات أنفسهم ، كما حققها بين الأنصار كذلك ، ثم حققها بين المهاجرين والأنصار فى تلك الصورة الرائعة التى وعاها التاريخ ، والتى استحقت أن يمن الله بها عليهم :

﴿ وألف بين قلوبهم. لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم . ولكن الله ألف بينهم، إنه عزيز حكيم ﴾ [2] .

وحققها فى التكافل الذى اتسمت به تلك الأمة فى تاريخها الحيّ كله ، والذى كان فى أبرز صوره فى ذلك الجيل المتفرد ، الذى كفل فيه الأنصار المهاجرين كفالة غير معهودة فى التاريخ .

تكافل لا يقتصر على حدود الأسرة وروابط الدم ، إنما يتسع حتى يسع المجتمع الإسلامى كله . ولا يقتصر على حدود الزكاة المفروضة التى ينفقها بيت المال على المحتاجين ، إنما يتسع حتى يصبح إنفاقا عاما فى سبيل الله .

تكافل لا يقتصر على إعانة المحتاجين فى المجتمع الإسلامى ، وإنما يشمل معانى أخرى وآفاقا أخرى غير المعونة المالية الحسية . إنه تكافل على صيانة الأموال والدماء والأعراض ، للجميع على حد سواء ، يستوى فيهم الغنى والفقير والقوى والضعيف :

« يأيها الناس ، إن دماءكم وأعراضكم وأموالكم حرام كحرمة بلدكم هذا فى شهركم هذا فى يومكم هذا» [3] .

« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم» [4] .

تكافل على الخير . . على نشر الخير فى الأرض . . ورفع البشر إلى المكانة اللائقة «بالإنسان » :

﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله .. ﴾ [5] .

---

(١) رواه الشيخان .
(٢) سورة الأنفال [٦٣] .
(٣) من خطبة رسول الله ﷺ فى حجة الوداع .
(٤) رواه أحمد وأبوداود ، وابن ماجة بسند صحيح .
(٥) سورة التوبة [٧١] .

وهذا المستوى الرفيع من التكافل ـ الذى اهتدت البشرية إلى « التحدث» عن بعض آفاقه النظرية فى قرونها الأخيرة ـ لا يقدر عليه بالفعل ، ولا يمارسه بالفعل ، إلا أمة العقيدة ، لأن كيانها الأساسى قائم عليه ، ولأنه جزء من بنائها النفسى وبنائها السلوكى على السواء .

ولقد حقق الجيل الأول من هذا التكافل أكبر قدر يمكن للبشر فى أى جيل أن يحققوه ، سواء فى التكافل المالى الذى خرج فيه الأنصار عن شطر أموالهم للمهاجرين ، أو فى التكافل على صيانة القيم والمبادئ التى جاء بها الإسلام ، الذى تستشفه فى قول الأخ المسلم لأخيه فى الله : « تعال يا أخى نؤمن ساعة ! » أى نتذاكر معانى الإيمان لنمارسها فى عالم الواقع . . وتراه بارزا فى كون هذا الجيل أقل أجيال الأرض كلها جرائم وعدوانا ، وأكثرها صيانة للدماء والأموال والأعراض ، وأكثرها حرصا من كل أخ على كرامة أخيه ومشاعر أخيه ، والذى يقع فيه أن يقول أبو ذر لرجل أسود : يا ابن السوداء ! فيقول له رسول الله ﷺ : عيرته بأمه؟! أنت امرؤ فيك جاهلية! فيذهب أبو ذر للرجل ، ويضع خده على الأرض ، ويقول للرجل : طأ خدى بقدمك! والذى يقول فيه عمر العربى القرشى عن بلال العبد الحبشى « سيدنا بلال» .

لا عجب إذن أن يكون ذلك الجيل أثقل الأجيال وزنا عند الله بشهادة رسول الله ﷺ . . ولا عجب كذلك أن يكون أبعدها أثراً وأكثرها فاعلية فى التاريخ . . بدليل ذلك الانسياح الواسع فى الأرض ، الذى لا مثيل له من قبل ولا من بعد ، والذى لم يكن مصدره التفوق فى العدد أو العدة أو الخبرة العسكرية ـ فقد كان ذلك كله من نصيب الأعداء ! ـ إنما كان مصدره ضخامة الحق الذى آمنت به تلك الأمة والتقت عليه ، وضخامة المنطلق الذى تنطلق منه ، فتحطم كل ما تجد فى طريقها من صور الباطل وأشكاله . فقد استطاعت تلك العصبة المؤمنة أن تسحق الجاهلية سحقاً وتمحوها من الوجود فى قطاع واسع من الأرض ، لا فى صورة دول وحكومات وجيوش زالت من الوجود فحسب ، بل فى صورة عقائد كذلك وأنظمة وتقاليد .

ولم يقتصر عملها على إزالة تلك الدول والحكومات والجيوش بما تحمله من عقائد وأنظمة وتقاليد ، فهذا عمل قد تقدر عليه القوى البشرية العادية ـ بشرط وجود التفوق العسكرى ـ كما أتيح لها نيبال وجنكيزخان ونابليون وهتلر لفترات من الزمان . . إنما الذى تفردت به أمة العقيدة أنها نشرت فى ربوع تلك الأرض عقيدة الحق بغير إكراه! ونشرت كذلك لغة هذه العقيدة بغير إكراه !

لقد أزال المسلمون دولة فارس كلها ، على كل ما كان لها من الهيلمان والقوة ،

وأزالوا قطاعا كبيرا من دولة الروم أعظم دول ذلك التاريخ، ولكنهم لم يكرهوا أحدا على اعتناق الإسلام، تنفيذاً لأمر الله، الذى يأمر بإزالة الطواغيت من الأرض ولكنه يأمر كذلك بعدم إكراه الناس على العقيدة الصحيحة بعد إزالة القوى التى تصد الناس عن الحق، ممثلة فى نظم وحكومات وجيوش :

﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ (١) .

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم ﴾ (٢) .

ولكن المعجزة الكبرى التى تحققت على يد ذلك الجيل، أن الذين لم يكرهوا على اعتناق العقيدة الإسلامية قد دخلوا فى الإسلام من ذوات أنفسهم، وأقبلوا عليه إقبالاً، وفرحوا بمجىء المسلمين إليهم، وأحبوهم، وصاروا بدورهم جزءا من هذه الأمة وجندا من جنود الإسلام . . كما أصبحوا كذلك يتكلمون بلغة العقيدة الجديدة، ونسى كثير منهم ما كان لهم من لغات ! (٣) .

ولا شك أن ذلك الأمر لم يكن ليتحقق لو كانت الأمة الفاتحة أمة غلبة حربية فحسب، أو أمة ذات نزعة توسعية فحسب، أو كانت تبغى العلو والفساد فى الأرض ككل التجمعات الكبرى فى جاهليات التاريخ !

إنما اعتنقت البلاد المفتوحة عقيدة الأمة الفاتحة وتكلمت لغتها، لأنها رأت فيها نموذجا غير مكرر فى التاريخ من قبل، نموذج « أمة العقيدة » التى تفتح الأرض لا لشهوة التوسع والغلبة، ولكن لتنشر النور وتنشر العدل وتنشر الأمن . . وتنشر القيم الرفيعة التى تحيا بها القلوب وتتفتح بها الأبصار .

ثالثا : تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض .

من أوامر الله لهذه الأمة تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض، وربط هذا الأمر بحقيقة الإيمان :

---

(١) سورة الأنفال [٣٩] .

(٢) سورة البقرة [٢٥٦] .

(٣) بل إن الذين بقوا على دينهم من النصارى فى مصر والشام وغيرها نسوا لغاتهم الأصلية تماما، ولم يعد لهم لسان إلا العربية على الرغم من أنهم لم يعتنقوا هذا الدين !

﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولو على أنفسكم ، أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً. يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيدا ﴾ (١) .

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (٢)

وربط هذا الأمر بالعقيدة فى الله ، وجعله خالصا لله ، يجعله سمة من سمات هذه الأمة ، أو لازما من لوازم وجودها ، ليهيىء لها القيام بدورها فى قيادة البشرية وريادتها . ولكن التغلب على أهواء النفوس ، والحد من نزواتها وشهواتها التى ينشأ عنها العدوان والظلم فى واقع الحياة ، أمر يحتاج إلى تربية وتدريب ، حتى تتعود النفوس أن تخضع للحق ولا تزيغ عنه ، ويتعود الناس أن يمسكوا بميزان العدل من منتصفه لا يميلونه ذات الشمال وذات اليمين .

ولقد كان الجيل الأول من هذه الأمة هو القمة العليا فى تحقيق العدل الربانى فى واقع الأرض ، بصورة لم تكن معهودة من قبل حتى فى الأمم التى يوصف حكامها بالعدل ، وما زالت هذه الصورة بارزة باهرة حتى بعدما وصلت البشرية ـ فى النظم الديمقراطية ـ إلى ألوان من العدل السياسى تتوهم أنه من القمم فى عالم القيم والمبادىء(٣) .

لقد كان الله يعد هذه الأمة لتكون رائدة البشرية كلها إلى الخير ، الشاهدة عليها يوم القيامة ، وكفّلها رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بتربيتها لهذا الهدف العظيم :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ (٤) .

وكانت تربية الله لهذه الأمة ـ من أجل القيام بدورها فى الأرض ـ تربية عجيبة ! لقد ربى الله رسوله صلى الله عليه وسلم بادىء ذى بدء على أنه ليس له من الأمر شىء . . إلا طاعة الله وابتغاء مرضاته .

---

(١) سورة النساء [١٣٥ ـ ١٣٦] (٢) سورة المائدة [٨]

(٣) راجع إن شئت فصل « الديمقراطية » فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة »

(٤) سورة البقرة [١٤٣] .

﴿ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم ... ﴾ [(١)].

﴿ وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في السماء فتأتيهم بآية .. ﴾ [(٢)] .

﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين ﴾ [(٣)] .

بل إنه على الرغم من يقين الرسول ﷺ - المستمد من الوحى - بأن الله سيمكن لهذا الدين حتى يسير المسافر إلى صنعاء لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه . . فإن الله سبحانه وتعالى لم يعد رسوله ﷺ مرة واحدة فى فترة التربية بمكة أنه سيشهد النصر والتمكين بشخصه! إنما كان يتنزل عليه الوحى :

﴿وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب﴾[(٤)]

وكان ذلك توجيها ربانيا لرسوله ﷺ حتى يستقر فى نفسه أنه ليس له من ا لأمر شيء إلا تبليغ الدعوة ، ولا تبقى فى نفسه حتى رغبته فى أن يهتدى فلان أو فلان ، ممن كان عليه السلام يكاد يقتل نفسه من الحزن عليهم لإعراضهم عن الهدى :

﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ [(٥)] .

ووعى رسول الله ﷺ التوجيه الربانى ، فكان قمة التجرد البشرى لله ، ثم ربى على هذا التجرد أصحابه رضوان الله عليهم ، حتى « خلت نفوسهم من حظ أنفسهم »[(٦)] . وكان ذلك جزءاً من الإعداد العظيم للدور العظيم الذى يناط بهذه الأمة حين يمكن لها فى الأرض . ذلك أن إقامة العدل فى الأرض - التى هى الغاية من إرسال الرسل وإنزال الكتب [(٧)] - لا يمكن أن تتم حتى تتجرد النفوس لله ، وتتخلى حتى عن رغباتها المشروعة ، ويكون هدفها الأسمى هو ابتغاء مرضاة الله ، ونعيمها النفسى هوالعمل لإرضاء الله .

ثم كانت دروس قرآنية ، ودروس من الرسول صلى الله عليه وسلم لرفع هذه الأمة إلى المستوى الذى يؤهلها - عن جدارة - لا للتمكين فى الأرض فحسب ، بل لقيادة البشرية ، ولا لإقامة العدل الربانى داخل ذاتها فحسب، بل مع غيرها كذلك .

---

(١) سورة آل عمران [١٢٨]
(٢) سورة الأنعام [٣٥]
(٣) سورة القصص [٣٥]
(٤) سورة الرعد [٤٠]
(٥) سورة الكهف [٧]
(٦) راجع وصف أحوالهم فى كتب السيرة
(٧) قال تعالى : « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط »[سورة الحديد٢٥].

لقد وجه الله المؤمنين فى أول ما نزل من القرآن فى المدينة توجيها معينا له دلالة خاصة :

﴿ ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ [١]

وتكرر هذا التوجيه فى أكثر من آية مدنية بعد ذلك :

﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله ...﴾ [٢] .

﴿يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذى نزل على رسوله ، والكتاب الذى أنزل من قبل ...﴾ [٣]

وهذا أمر يتعلق بالعقيدة كما هو ظاهر .

(قال : وما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره) [٤] .

ولكن له - إلى جانب الأمر الاعتقادى - صلة بأمر إعداد هذه الأمة لقيادة البشرية .

إن كل أمة آمنت برسولها ثم رفضت أن تؤمن بغيره من الرسل ، قد أحست - نتيجة لذلك - ببغض هائل للأمة التى بعث إليها الرسول الذى لم تؤمن به ، وانحصرت - من ثم - فى حدود عصبيتها لذاتها ، وامتلأ قلبها حقدا على غيرها ، ثم أوقعت أبشع الاضطهاد على أتباع من لم تؤمن به من رسل الله ، كما صنع اليهود أصحاب الأخدود مع المؤمنين بعيسى عليه السلام ، وكما يصنع اليهود والنصارى بالمسلمين الذين يقعون تحت سلطانهم فى كل الأرض .

هذا الخلق البغيض لا يؤهل أصحابه لقيادة البشرية . . ومن ثم لم يؤهل الله اليهود ولا النصارى لتلك القيادة ، فإن تولوها - بقدر من الله له حكمته عنده - [٥] كما تولتها النصرانية خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، وكما تتولاها اليهودية اليوم سافرة أو من وراء ستار ، لم يقع العدل فى الأرض ، إنما وقع الاضطهاد والظلم .

---

(١) سورة البقرة [٧] (٢) سورة البقرة [٢٨٥] (٣) سورة النساء [١٣٦]

(٤) من حديث « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم »رواه الشيخان

(٥) لم تتسلم النصرانية ولا اليهودية القيادة إلا حين تقاعست الأمة الإسلامية عن رسالتها كما سيجىء فيما يلى من فصول الكتاب

أما الأمة التى أخرجها الله لقيادة البشرية وريادتها فهى الأمة التى تؤمن بالرسل جميعا والرسالات جميعا ، فلا يكون فى قلبها حقد مبدئى ، ولا حقد تاريخى ، على غيرها من الناس .

وهذا - والله أعلم - جانب من دلالة هذا التوجيه القرآنى العظيم .

ثم انظر كذلك إلى هذا الدرس القرآنى . .

كان اليهود فى المدينة يكيدون للإسلام وللنبى ﷺ وأتباع دينه بكل ما فى جبلتهم من الرغبة فى الشر وكراهية الخير للناس بالإضافة إلى ما أثاره فى نفوسهم مبعث الرسول ﷺ من ولد إسماعيل لا من ولد إسحاق من حقد أسود غليظ كريه .

كانوا يشككون فى الوحى . ويشككون فى أمانة الرسول ﷺ . ويثيرون النزاعات والخصومات بين المسلمين بعد أن أذهبها عنهم الإسلام . ويتآمرون مع المنافقين وعلى رأسهم عبد الله بن أبى ليوقعوا الفتنة فى صفوف المسلمين . ويؤلبون القبائل المشركة لحرب المؤمنين . ويؤذون الرسول ﷺ . ويؤذون المؤمنين والمؤمنات . . مما سجله الوحى وحفلت به كتب السيرة وكتب التاريخ .

وفى وسط هذا الجو الملبد المتوتر سرق أحد المنافقين ممن دخلوا فى الإسلام ظاهرا ، وتفنن هو وقومه فى إخفاء السرقة بحيث يتهم فيها أحد اليهود من أهل المدينة .

وحين يقع مثل هذا الحادث فى أى شعب فى الأرض ، فى أى حقبة من التاريخ ، فليس له نتيجة متوقعة إلا الأخذ بتلابيب ذلك الشخص الذى ينتمى إلى «مثيرى الشغب » والإسراع بتطبيق العقوبة المقررة عليه ، إن لم يكن التنكيل به شر تنكيل ، لأنه - فوق انتمائه إلى فئة عدوة للشعب - قد ارتكب جريمة محددة ضد واحد من أفراد ذلك الشعب .

وحين فحص الرسول - القاضى - ﷺ ظروف القضية فقد همّ - حسب القرائن الظاهرة - أن يحكم على اليهودى . ولكن الوحى تنزل من السماء لتبرئة ذلك اليهودى من الجريمة التى لم يرتكبها - وإن كان قبيله واقعين فى كل جريمة ظاهرة وخفية ضد المسلمين وإدانة « المسلمين» - الذين أرادوا أن يفلت جانيهم من العقوبة ، ويقع فيها اليهودى البرىء ، فنزلت هذه الآيات من سورة النساء :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين

خصيما. واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما . ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا . هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم فى الحياة الدنيا ، فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا . ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما. ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا وإثمًا مبينا. ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك . وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ (١) .

وكان درسا هائلا للأمة المسلمة . . إن ميزان العدل لا يميله حب ولا بغض . . ولا تميله عصبية ولا قرابة ولا مصلحة أرضية . . بل لا يميل حتى إلى جانب المشاركين فى العقيدة على حساب المخالفين لها ولو كانوا - فى مجموعهم - ظالمين !

وخذ هذا التوجيه العملى . . مرت جنازة فقام رسول الله ﷺ فقالوا : يا رسول الله إنه يهودى! فقال عليه الصلاة والسلام : «أو ليست نفسا؟» (٢)

وخذ كذلك هذا الدرس التربوى . . استدان رسول الله ﷺ من يهودى فتأخر فى السداد لعسر ألم به ﷺ ، فجاء اليهودى يطالبه ويغلظ فى الطلب ، وأمسك بثوب رسول الله ﷺ فشده حول رقبة الرسول ﷺ حتى جحظت عيناه ، فهمّ عمر رضي عنه أن يهوى عليه بالسيف . فمنعه رسول الله ﷺ وقال له : لقد كنت يا عمر جديرا بغير هذا . كنت جديرا أن تأمرنى بحسن السداد وتأمره بحسن الطلب .

كذلك كانت التربية التى رباها الله ورسوله لهذه الأمة ممثلة فى جيلها الأول المتفرد . لكى تكتسب هذه السمة التى تجعلها جديرة بالتمكين فى الأرض .

﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور ﴾ (٣) .

وتجعلها جديرة بقيادة البشرية والشهادة عليها يوم القيامة :

---

(١) سورة النساء [١٠٥ - ١١٢]

(٢) أخرجه البخارى

(٣) سورة الحج [٤١]

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾ [1] .

هل نعجب إذن حين نرى تلك النماذج الرفيعة لتطبيق العدل الربانى على يدى الصحابة رضوان الله عليهم وهم ممكنون فى الأرض ، أصحاب سلطان لا يدانيه فى ذلك الوقت سلطان ؟ !

تسابق ابن عمرو بن العاص والى مصر مع شاب قبطى فسبق القبطى ، فضربه ابن عمرو بن العاص ضربة بالعصا وقال : خذها وأنا ابن الأكرمين ! فما كان من والد الشاب القبطى إلا أن رحل إلى المدينة ليشكو ضربة العصا إلى عمر رضى الله عنه .

وإلى هنا فهناك ما يستوقف النظر .

لقد كان الأقباط يعيشون تحت الحكم الرومانى فى ذل مرير ، رغم اشتراكهم مع الرومان فى العقيدة المسيحية ، وذلك بسبب اختلاف المذهب ، فالأقباط على المذهب الأرثوذكسى والرومان على المذهب الكاثوليكى . ومن أجل هذا الاختلاف فى المذاهب - وإن كان داخل العقيدة المسيحية - فقد كان الرومان يعذبون الأقباط وينكلون بهم حتى قتل منهم من قتل ، فكانوا عندهم شهداء ، كما يبدو من اسم الكنيسة المعروفة اليوم باسم كنيسة مارى جرجس جنوب القاهرة ، واسمها الصحيح كنيسة مار جرجس (أى الشهيد جرجس) . وفى هذه الكنيسة بالذات كانت العبادة تمارس على نطاقين : نطاق علنى على مذهب الدولة ، ونطاق سرى فى سراديب الكنيسة الخفية على مذهب الأقباط ، فى خفية عن عيون الرومان ، الذين ينكلون بهم إذا رأوهم يمارسون عبادتهم على خلاف مذهب الدولة .

وكان الضرب بالسياط أمراً مألوفا من تلك الدولة « العظيمة ! » لرعاياها الأقباط فى مصر ! ولم يكن الأقباط يشتكون ! فلمن يشكون إذا أرادوا ؟ ! إنما ذلت نفوسهم وتحملوا ضرب السياط صاغرين .

واليوم يسافر الرجل ألوف الأميال ليشكو ضربة عصا على ظهر ولده الشاب ! فما دلالة ذلك ؟

إنها دلالة مزدوجة . دلالة الكرامة التى استيقظت فى نفس الرجل فراح يشكو ضربة العصا وهو الذى كان يذل لضربة السوط . ودلالة وجود الملجأ الذى يُشْتَكَى إليه بعد أن لم يكن هنالك ملجأ للشكوى . .

---

(١) سورة البقرة [١٤٣] .

كلتاهما شاهد على العدل الرباني الذى وجده الناس مطبقا على يد عمر رضى الله عنه ، فصحت كراماتهم . . وهل يوقظ الكرامات شىء مثلما يوقظها ممارسة العدل فى الأرض ؟ ووجدوا الملجأ فراحوا يشتكون إليه .

ولكن الحادثة أروع آفاقا وأبعد مدى وأعمق دلالة .

لقد أمر عمر بالقصاص ! وأعطى الرجل عصاه وقال له : اضرب ابن الأكرمين ! والتفت إلى واليه عمرو بن العاص فقال له كلمته المشهورة الخالدة : ياعمرو ! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !

ولم يكن ذلك القصاص من مسلم لمسلم ، ولا من عربى لعربى فيقول الناس : عدل . . نعم . . ولكنه غير مستغرب !

إنه العدل الربانى ، فى الذروة من التطبيق !

وسرقت من علىّ كرم الله وجهه درع فوجدها عند يهودى فقاضاه إلى قاضيه شريح . . وعلىّ يومئذ هو الخليفة أمير المؤمنين .

وإلى هنا فهناك ما يستوقف النظر .

إن عليا كرم الله وجهه ـ وهو على يقين من درعه ومن حقه ـ لم يلجأ إلى سلطان الخلافة فيأخذ درعه بالقوة من اليهودى ، فضلا عن أن يأمر باعتقال السارق الأثيم «رهن التحقيق» ! إنما يلجأ إلى القضاء ، يطلب حقه عن طريقه ، وذلك ـ فى ذاته ـ مستوى رفيع من تطبيق العدل الربانى نادر المثال .

ولكن الحادثة ـ كسابقتها ـ أروع آفاقا وأبعد مدى وأعمق دلالة . .

لقد نادى شريح أمير المؤمنين بكنيته : يا أبا الحسن ! ولم يكنْ الرجل اليهودى ، فغضب علىّ كرم الله وجهه ! غضب لخصمه اليهودى ! غضب للحق . . للعدل الربانى ! وقال للقاضى : إما أن تكنىّ الخصمين معا أو تدع تكنيتهما معا !

ثم سأل شريح أمير المؤمنين عن قضيته فقال علىّ كرم الله وجهه : الدرع درعى ، ولم أبع ولم أهب .

فسأل شريح اليهودى : ماتقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فردّ هذا متلاعبا : الدرع درعى ! وما أمير المؤمنين عندى بكاذب ! (يريد أن يمسك العصا من منتصفها نفاقا على طريقتهم !) .

فيلتفت شريح إلى أمير المؤمنين فيقول : يا أمير المؤمنين ، هل من بينة ؟!

إنه هكذا العدل الرباني! البينة على من ادعى . . وهذه دعوى مرفوعة إلى القضاء فلا بد فيها من البينة ، وإن تكن مرفوعة من أمير المؤمنين . وإن تكن من عليّ كرّم الله وجهه ، الذي لم يعرف عنه كذب قط ، والذي لا يعقل أن يكذب على الله من أجل درع وهو المستعلي على كل متاع الأرض ، يراه الناس يرتجف من شدة البرد في الشتاء وتحت يده بيت المال ، يحق له منه كسوة شرعية تقيه البرد ، فيقول : والله ما أرزؤكم شيئا ! إن هي إلا قطيفتي خرجت بها من المدينة !

ولكن جواب عليّ كرم الله وجهه كان أروع !

قال : صدق شريح ! مالي بينة !

هكذا في بساطة المؤمن المتجرد . . مالي بينة !

لم يغضب ! لم يقل للقاضي : منّي تطلب البينة وأنا أمير المؤمنين ؟!

وكان موقف شريح رائعا كموقف أمير المؤمنين . . لقد حكم بالدرع لليهودي لعدم وجود البينة عند المدعي أمير المؤمنين !

وأخذ الرجل الدرع ومضى وهو لا يكاد يصدق نفسه ! ثم عاد بعد خطوات ليقول : أمير المؤمنين يقاضيني إلى قاضيه فيقضي عليه ؟! إن هذه أخلاق أنبياء ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ! الدرع درعك يا أمير المؤمنين ، خرجت من بعيرك الأورق فاتبعتها فأخذتها . .

فيقول علي كرم الله وجهه : أما إذا أسلمت فهي لك !!

ونعود مرة أخرى إلى عمر رضي عنه في مجال آخر . .

وقف عمر رضي الله عنه يوما يخطب الناس فقال : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا . . فانتدب له سلمان الفارسي فقال : لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة!

ولعل بعض الناس يومئذ قد دهشوا أو ذعروا! فمنذا الذي يكلم عمر على هذا النحو ، وإن كان سلمان!

لقد وهب الله لعمر رضي الله عنه مهابة ذات أثر ملحوظ في قلوب الناس ، إن يكن سببها ضخامة جسمه ، أو ضخامة صوته ، أو شدته المعروفة عنه ، أو غير ذلك من الأسباب ، فالناس ترهب عمر رهبة تلقائية ، حتى إن عليا كرم الله وجهه ، ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته الأثيرة عنده ، يقول : كنا نسير ذات يوم خلف عمر فعنّ له أمر فالتفت وراءه ، فسقطت قلوبنا إلى كعوبنا !

ولكنه في مهابته تلك يقول للناس : اسمعوا وأطيعوا فيقول له سلمان: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة.

ولا يغضب عمر.. وأى شخص فى مكانه كان قمينا أن يغضب.. فهو لا يطالب الناس إلا بأمر قد فرضه الله ورسوله، فإذا رُدّ طلبه هذا الرد بغير موجب فلا تثريب عليه إن غضب. ولكن عمر الذى رباه الإسلام لا يغضب.. إنما يسأل سلمان عن السبب لعل عنده سببا وجيها يبرر هذا الرد!

قال عمر : ولم ؟

قال سلمان : حتى تبين لنا من أين لك هذا البرُد الذى ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك البرُد الذى نالك كبقية المسلمين!

والآن تحددت القضية! فكأن سلمان يلقى اتهاما، أو على الأقل شبهة.. أن عمر رضى الله عنه قد استأثر بمتر من القماش زيادة عما ناله كفرد من عامة المسلمين!

ولو غضب عمر فى هذا الموقف لحق له أن يغضب.. ولكنه مرة أخرى لا يغضب، إنما ينادى ولده عبد الله بن عمر فيقول له : نشدتك الله، هذا البرد الذى ائتزرت به أهو بردك؟! فيقول عبد الله بن عمر: نعم هو بردى أعطيته لأمير المؤمنين حتى يأتزر به، لأن البرد الذى ناله كعامة المسلمين لا يكفيه لأنه رجل طوال.

عندئذ يقول سلمان : الآن مر! نسمع ونطع!

إنها القمة الرائعة فى جانبيها، جانب عمر بن الخطاب وجانب سلمان على السواء.

إن أحداً منهما لا يغضب لشخصه ولا ينطلق من منطلق شخصى! وما سلمان بالذى يشك فى نزاهة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهوالمعروف بالزهادة التى تفوق كل تصور! ولكنه الحرص على شريعة الله أن تنفذ على أعلى مستوياتها. الحرص على العدل الربانى أن يطبق أبيض ناصع البياض لا تشوبه شائبة حتى من ظن. وعمر من جانبه لا يضع شخصه فى الميزان، ولا يلتفت إلى الأذى الذى ينال شخصه من كون رجلٍ من رعيته يردّ عليه السمع والطاعة على هذا النحو أمام الرعية. إنما يريد أن يأخذ العدل الربانى مجراه فى أعلى مستوياته، فيستنطق الرجل خشية أن يكون قد وقع فى خطأ وهو لا يدرى، خطأ يبرر للرعية أو أحد أفرادها أن يرد السمع والطاعة، لأنه لاطاعة إلا فى المعروف.

كلاهما حريص على دين الله ألا تشوبه شائبة. وكلاهما قمة تتضاءل أمامها أحلام الرجال!

وصورة من تطبيق العدل الربانى فى الأرض، لا يرتقى البشر إلى مثلها على مدار القرون!

هل نحن فى حاجة إلى مزيد؟! من كان فى حاجة إلى مزيد فليراجع كتب التاريخ!

رابعا : أخلاقيات لا إله إلا الله

من أبرز سمات هذا الدين قاعدته الأخلاقية العريضة الشاملة لكل تصرفات الإنسان، وارتباط هذه القاعدة الأخلاقية بحقيقة الإيمان. ولقد سبق أن أشرنا ونحن نتحدث عن جدية الأخذ من الكتاب والسنة إلى هذا الارتباط بين الأخلاق وبين لا إله إلا الله، ولكن الأمر يحتاج إلى مزيد من البيان، خاصة فى وقتنا هذا الذى كادت تنفصل فيه الأخلاق انفصالا كاملا عن مفهوم لا إله إلا الله!

انظر إلى هذه الآيات من سورة الرعد :

﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ إنما يتذكر أولوا الألباب، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ويدرءون بالحسنة السيئة، أولئك لهم عقبى الدار: جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم، فنعم عقبى الدار. والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[1] .

إن الإشارة الأخلاقية واضحة فى الآيات ، سواء الإشارة المجملة فى قوله تعالى : **﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾** أو فيما جاء تفصيلا من الصبر ابتغاء وجه الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ودرء السيئة بالحسنة مع خشية الله والخوف من سوء الحساب.

ومعرض الحديث هو الإيمان بأن ما أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق. ومن ثم يبدو واضحا أن الالتزام بتلك الأخلاقيات المعروضة سواء منها ما أجمل وما فصل ،

---

(١) سورة الرعد [١٩ـ٢٥] .

هو مقتضى ذلك الإيمان بأن ما أنزل إلى الرسول ﷺ من ربه هو الحق، أى مقتضى الإيمان بأنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

كما أن هناك لفظة فى الآيات تعطى دلالة خاصة فى هذا المجال .

إن أول صفة لأولئك الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق هى أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق . وفى هذا إشارة إلى أمرين اثنين على الأقل : الأمر الأول أن الإيمان هو مقتضى ميثاق الفطرة، الذى قال الله عنه :

﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم ؟ قالوا : بلى ! شهدنا !﴾ [1] .

والأمر الثانى أن هذه الأخلاقيات المعروضة، سواء منها ما أجمل وما فصل، هى فى حقيقتها ميثاق مع الله، يوفى به المؤمنون وينقضه غير المؤمنين .

وتلك هى الحقيقة فى أمر الأخلاق .

إن الإنسان كائن أخلاقى بطبعه، أى أن أعماله تحمل معها « قيمة» خلقية، بصرف النظر عن كون هذه القيمة فى اعتبار إنسان بعينه صحيحة أم خاطئة . إنما تستمد أعمال الإنسان قيمة خلقية من كون أن له طريقين اثنين لا طريقا واحدا ـ غريزيا ـ كالحيوان، وله القدرة على معرفة الطريقين واختيار أحدهما :

﴿وهديناه النجدين﴾ [2] .

﴿إنا هديناه السبيل، إما شاكرا وإما كفورا﴾ [3] .

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ [4] .

فى جميع أحواله هو « يختار » . . إما طريق الخير وإما طريق الشر .

وقد يختار طريق الشر يحسبه طريق الخير، فيخسر . .

﴿قل : هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا..﴾ [5] .

ولكن هذا لا ينفى الاختيار من جهة، ولا ينفى لصوق القيمة الخلقية بعمل الإنسان من جهة أخرى .

---

(١) سورة الأعراف [١٧٢] . (٢) سورة البلد [١٠] . (٣) سورة الإنسان [٣] .
(٤) سورة الشمس [٧ـ١٠] . (٥) سورة الكهف [١٠٣ـ١٠٤] .

ليست القضية فى الحقيقة هى وجود قيمة خلقية لأعمال الإنسان أم عدم وجودها، فذلك أمر لايشك فيه أحد حتى الماديون وحتى الملحدون وحتى الشكاكون، إنماالقضية هى «المعايير» التى نقيس بها الأخلاق . . من يضعها؟!

فأما الوضعيون ، وأما التطوريون، وأما الماديون وأشباههم فقد ذهبوا بها مذاهب شتى توافق أهواءهم (١) .

وأما الله سبحانه وتعالى فيقول إن الذى يخلق هو وحده صاحب الأمر . . هو الله سبحانه وتعالى :

﴿ألا له الخلق والأمر﴾ (٢) .

ويقول سبحانه إن هناك ميثاقا مأخوذاعلى الفطرة البشرية، أشهدها الله فيه على نفسها : أن الله هو ربها لا شريك له . ثم أرسل رسلا يأخذون العهد على البشرية بتنفيذ الميثاق .

وأن مقتضى هذا الميثاق أن تعبد الله وتطيعه، وأن تتلقى منه وحده المعايير وتلتزم بها .

وأن المؤمنين هم الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق، وأن غير المؤمنين هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض .

وخلاصة ذلك كله أن الله هو الذى يحدد المعايير الخلقية، فيقول وقوله الفصل : هذا حلال وهذا حرام، هذا حسن وهذا قبيح، هذا مباح وهذا غير مباح . وأن المؤمنين هم الذين يلتزمون بهذا كله، بمقتضى أنهم مؤمنون .

أمر آخر يتعلق بالأخلاق تبدو أهميته بالنسبة للجاهلية المعاصرة بصفة خاصة، إنها ليست مجرد أعراف يصطلح عليها الناس - أوالعقل الجمعى - أو انعكاس أوضاع مادية متقلبة، أو قيم نفعية لتيسير التعامل كما هى فى الغرب اليوم، فذلك كله لا يجعل لها دواما ولا ثباتا ولا فاعلية حقيقية فى الحياة البشرية . إنما هى ميثاق مع الله بادئ ذى بدء، يُعمل فيه الخير - الذى وصفه الله بأنه خير - ويعمل ابتغاء وجه الله، لا ابتغاء النفع القريب، وإن كان النفع يتحقق بالتزام أوامر الله :

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (٣) .

---

(١) فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» تفصيل لهذه القضايا .

(٢) سورة الأعراف [٥٤] . (٣) سورة الأعراف [٩٦] .

﴿ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم، ولأدخلناهم جنات النعيم، ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ..﴾ (١) .

إنها فى حس المؤمن « أمانة » تؤدى إلى أهلها :

﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل... ﴾ (٢) .

والأمانة الأولى هى الالتزام بما جاء من عند الله ، فذلك مقتضى الإقرار بألوهيته . وتحت هذه الأمانة الكبرى تندرج الأمانات الأخرى كلها فيما يتصل بعلاقة الإنسان بنفسه وعلاقته بالناس . . وتلك هى الأخلاق !

أمر ثالث يتعلق بالأخلاق كذلك ، وله كذلك أهميته الخاصة بالنسبة للجاهلية المعاصرة ، هو أن هذه « الأمانات» التى هى الفحوى الحقيقية للأخلاق ، ليست خاصة ببعض أنواع التعامل دون بعض ، بل شاملة لكل أنواع التعامل ؛ ومن ثم لا يخرج عن نطاقها شيء البتة من أعمال الإنسان الإرادية الاختيارية ، ولا يقال عن شيء من هذه الأعمال كلها إنه خارج عن نطاق الأخلاق ، لا السياسة ولا الاقتصاد ، ولا الاجتماع ، ولا الفن ، ولا الفكر ، ولا ساعة الجد ، ولا ساعة الترويح ! كلها داخلة فى نطاق الأخلاق ، وكلها داخلة فى « الميثاق» المعقود مع الله ، وكلها يقوم به المؤمن بمقتضى عقد الإيمان .

﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما. والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما. والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما. إنها ساءت مستقرا ومقاما. والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما. والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق، ولايزنون، ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفورا رحيما، ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا، والذين لايشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا، والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما. أولئك يجزون الغرفة بما صبروا، ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها حسنت مستقرا ومقاما﴾ (٣) .

---

(١) سورة المائدة [٦٥ ـ ٦٦] . (٢) سورة النساء [٥٨] . (٣) سورة الفرقان [٦٣ ـ ٧٦] .

صحيح أن الناس فى ممارساتهم الواقعية للحياة يعصون أمر ربهم، وأن تلك المعاصى تتعلق - أشد ما تتعلق - بأخلاقيات لا إله إلا الله، وأن المعاصى مع ذلك لا تخرجهم من الإيمان ما لم يستحلوها ويجعلوها أصلا معتمدا بدلا من أوامر الله .

ولكن المعصية لا تنفى ارتباط هذه الأخلاقيات بلا إله إلا الله، ولا تنفى أصل الالتزام المبنى على الإقرار بلا إله إلا الله . فمن أقر فقد التزم - وإن عصى - وإلا فلا إقرار بغير التزام .

قضية المعصية هى أن الله - برحمته - لا يخرج من عصاه من دائرة الإيمان، ويغفر له إن شاء، ويعذبه إن شاء ولكنه لا يخلده فى النار مادام غير مستحل لمعصيته، وما دام لم يجعلها تشريعا يضاهى به تشريع الله .

ولكن هذا ليس معناه أن المعصية هينة عند الله، أو أن وجودها وعدم وجودها سيان بالنسبة للإيمان .

إنما الإيمان يزيد وينقص . ينقص بالمعاصى ويزيد بالطاعات .

ويكفى هذا التقرير من رسول الله ﷺ: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن »[1]

يكفى لبيان أن ميزان الإيمان ليس ثابتا، وإنما هو يعلو ويهبط كلما قام الإنسان بعمل من الأعمال، حسب التزامه أو عدم التزامه فى ذلك العمل بأوامر الله . كما يكفى لبيان ذلك الارتباط الذى لا ينفصم بين لا إله إلا الله وأخلاقيات لا إله إلا الله، وأن هذه الأمة - بحكم أنها أمة ربانية، أمة عقيدة - فهى أمة أخلاق، وأن التزامها بأخلاقيات لا إله إلا الله هو معيار من معايير صدق إيمانها لا يمكن إغفاله، وأنها لا تستطيع أن تتفلت من أخلاقها ثم تزعم أنها صادقة الإيمان !

* * *

فأما الجيل الأول فقد وعى هذه الحقيقة بكل عمقها وكل فعاليتها .

سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت كان خلقه القرآن .

ما أوجزها عبارة وما أبلغها كذلك !

كان خلقه القرآن . أى أن كل أمر أمر الله به فى كتابه المنزل، وكل نهى نهى عنه،

---

(١) أخرجه الشيخان .

كان مترجما ترجمة واقعية فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن ثم كان خلقه القرآن .

وعلى هذا الخلق ربى أصحابه رضوان الله عليهم ، وكان هو القدوة أمامهم فى التخلق بأخلاق الله .

لا عجب إذن أن نرى تلك القيم الأخلاقية الرفيعة فى كل مجال من مجالات الحياة

أبو بكر رضى الله عنه يتولى الخلافة فيقول للناس : **إنى وليت هذا الأمر ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى** . ويقول قريبا من ذلك عمر ابن الخطاب رضى الله عنه حين تولى الأمر .

وما من حاكم فى التاريخ يدعو الناس إلى تقويمه إن أساء !

إنما يأتى التقويم من ضغط الناس على حكامهم وهم كارهون ! وأقصى ما يمدح به حاكم فى القديم أو الحديث أن يستجيب لضغط الناس ويقبل أن يلتزم حين يُلزم ! أما أن يدعوهم إلى تقويمه فتلك من أخلاقيات لا إله إلا الله فى عالم السياسة لا يقدر عليها إلا ذلك الجيل الفريد .

ولقد قال عمر رضى الله عنه لرعيته ذات يوم : **إن وجدتم فىّ اعوجاجا فقومونى !** فقال له سلمان : **والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد السيف !** فلم يغضب رضى الله عنه ، وإنما قال الحمد لله الذى جعل فى رعية عمر من يقومه بحد سيفه ! وتلك كذلك من أخلاقيات لا إله إلا الله فى عالم السياسة ، لا يقدر عليها إلا ذلك الجيل الفريد !

وقال أبو بكر رضى الله عنه فى بيان سياسته : **الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له الحق ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه** . ولم تكن تلك شعارات تلقى على الجماهير لتلهيتها أو اللعب بمشاعرها . إنما كانت نبراسا حقيقيّا يلتزم به ، وكانت تلك هى أخلاقيات السياسة الملتزمة بلا إله إلا الله ، لا تحابى أحداً لأنه قوى ، ولا تظلم أحدًا لأنه ضعيف .

وسافر عمر إلى بيت المقدس ليتسلم مفتاحها من البطريق الذى أصر على أن يسلم المفتاح لعمر بنفسه .

ولم تكن هناك وفرة فى الدواب تسمح لعمر وخادمه أن يركبا كلاهما ، فقرر عمر أن يتناوبا الركوب والمشى دواليك ، يركب عمر مرة ويسير خلفه خادمه ، ويركب الخادم مرة ويسير خلفه عمر . حتى إذا دخلا بيت المقدس كان الدور للخادم فى

الركوب فأصر عمر على أن يأخذ الخادم دوره وأن يسير عمر خلفه ، ودخلا المدينة على هذا النحو والناس يظنون بحكم جميع الأعراف الأرضية أن الخليفة هو الراكب وأن تابعه هو الذى يسير على قدميه ! حتى عرفوا الحقيقة فأذهلتهم !

* * *

يقول رسول الله ﷺ لجنوده وهم ذاهبون إلى محاربة الكفار الذين لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة « اغزوا باسم الله فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغدروا ولا تمثلوا . ولا تقتلوا وليدا ولا شيخا ولا امرأة » (١) .

فيضع بذلك الدستور الأخلاقى للحرب ، التى يظن الناس - فى الجاهلية المعاصرة خاصة - أنه لا علاقة لها بالأخلاق !

ويلى الأمر أبو بكر رضى الله عنه ، فيوصى جنده ذات الوصاية وهم يحاربون المرتدين الذين نكلوا عن أمر الله .

ويقع القتال بين على كرم الله وجهه وبين مناوئيه ، ويقع قتلى من هنا ومن هناك ، فإذا حل الظلام ووقفت الحرب قام على كرم الله وجهه يصلى على قتلى الفريقين ! ويسلم أعداءه قتلاهم ليدفنوهم !

ويخرج الخوارج عليه ، فيقول قوم من أصحابه إنهم كفار . . فيأبى على كرم الله وجهه ويقول : إنما هم إخواننا بغوا علينا !

تلك أخلاقيات - فى الحرب - لا يقدر عليها إلا أهل لا إله إلا الله .

فى معركة أحد ، حين وقعت الهزيمة بعد النصر ، ووقع من المسلمين سبعون شهيدا فيهم سيد الشهداء حمزة ، مر أحد المسلمين على جريح ينزع ، فناوله كأس ماء لعله يسترد أنفاسه ، فقال الجريح بل أعطها لأخى فلان هناك ، فذهب إلى الثانى يعرض عليه الماء فقال أعطها لأخى فلان هناك فتركه إلى الثالث والرابع والخامس كل يقول ذات القولة ، ويؤثر أخاه على نفسه فى نزع الموت ، فلما كان الخامس رده إلى الأول فلما عاد إليه إذا هو قد لفظ أنفاسه ، فعاد إلى الثانى فإذا هو قد لفظ أنفاسه ، فعاد إلى الثالث ، فالرابع فالخامس ، فإذا كلهم قد ذهبوا شهداء ، لم يرض واحد منهم حتى لحظة الموت أن يؤثر نفسه على أخيه !

أى أخلاقيات هذه ؟ كيف نجد لها وصفا فى مصطلحات اللغات ؟

* * *

---

(١) أخرجه مسلم .

وليس هدفنا أن نسود الصفحات بذكر المستويات الأخلاقية الرفيعة لذلك الجيل الفريد ، فكتب السير وكتب التاريخ عامرة بنماذج عجيبة فى كل اتجاه .

وإنما هدفنا أن نسجل ذلك الارتباط الوثيق فى حس ذلك الجيل بين حقيقة الإيمان وبين القيم الخلقية التى يشتمل عليها هذا الدين .

ولم يكن ذلك اجتهادا خاصا بهم ، فتجد الأجيال التالية نفسها معفاة منه ، ولا كان ذلك - من حيث المبدأ - امتيازا خاصا بهم تنسلخ منه الأجيال التالية بلا تحرج !

إنما كان ذلك - فى حسهم وفى حقيقة الواقع - هو الدين ، لأن الله قال لهم إن المؤمنين هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وكذلك علمهم الرسول ﷺ فتعلموا منه أن « الدين المعاملة » فلم يكن فى حسهم - ولا فى حقيقة الواقع - أن الإنسان يمكن أن يكون مؤمنا دون أن يعمل بأعمال هذا الدين . إنما كان فى حسهم - كما هو فى الواقع - أن الناس يتفاوتون فى حقيقة إيمانهم بمقدار ما يتفاوتون فى العمل بمقتضى هذا الدين . وكان امتيازهم الذى اختصوا به أنهم أرادوا أن يعملوا من أعمال هذا الدين ما وسعهم العمل ، وأن يطبقوا من أخلاقيات هذا الدين ما وسعهم التطبيق ، تنفيذا لأمر الله ﴿فاتقوا الله ما استطعتم ﴾[1] ، فلم يكتفوا بالحد الأدنى المفروض ، إنما تطوعوا فعملوا بالنوافل والمندوبات ، وألزموا بها أنفسهم كأنها واجبات أو مفروضات . أما المبدأ - مبدأ اقتران الإيمان بالعمل ، ومبدأ التعامل بأخلاقيات لا إله إلا الله فى عالم الواقع ، فقد كان فى حسهم بديهية مسلمة ، لأنه بالفعل من بديهيات هذا الدين .

خامساً : الوفاء بالمواثيق

قال تعالى : ﴿ **وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم، ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا، إن الله يعلم ما تفعلون. ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم، أن تكون أمة هى أربى من أمة. إنما يبلوكم الله به، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة، ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون. ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها، وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم. ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا، إن ما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون**﴾[2] .

وقد أراد الله أن تكون هذه سمة من سمات هذه الأمة ، راسخة فى كيانها ، بعد أن

---

(١) سورة التغابن [١٦] . (٢) سورة النحل [٩١ - ٩٥] .

أخبر عن أهل الكتاب أنهم يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، وبعد أن أخرج هذه الأمة لتكون هى القائدة والرائدة ، والشاهدة على كل الأمم يوم القيامة .

ولقد وفت هذه الأمة بعهدها بالفعل ، وصار الوفاء بالمواثيق خلقا لها تتميز به فى وسط الجاهلية المحيطة بشعوب الأرض .

وكان الجيل الأول كما عهدناه أشد الأجيال تمسكا بكتاب الله وسنة رسوله ، بعد أن رباه الرسول ﷺ على هدى القرآن الكريم .

حينما عقد الرسول ﷺ صلح الحديبية مع مشركى قريش ، كان من بنود الصلح أنه من جاء محمداً ﷺ من المسلمين رده إليهم ، ومن جاء قريشا من المسلمين لم يردوه!

ولقد أحس المسلمون يومئذ بالغبن الواقع عليهم من هذه الاتفاقية ، وبلغ الضيق بعمر رضى الله عنه مبلغه فراح يسائل الرسول ﷺ : أولسنا بالمؤمنين؟ قال : بلى! قال : أوليسوا بالكافرين ؟ قال : بلى ! قال : فلم نعطى الدنية من ديننا . ورد عليه الرسول ﷺ بالقول الفصل : **«إنى رسول الله ولست أعصيه، وهو ناصرى»** (١) .

كان الله يعلم الخير الذى ينطوى عليه صلح الحديبية بالنسبة للمسلمين ، ولكنهم ببصرهم البشرى المحدود ، المحجوب عن الغيب ، لم يكونوا يرون فيه إلا الغبن الظاهر ، وفى ذلك أنزل الله سبحانه وتعالى :

﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا﴾ (٢) .

وبينما الاتفاقية غضة ما تزال خرج أبو جندل من صفوف المشركين مغللا بالأغلال يريد اللحاق بالرسول ﷺ والمؤمنين ، فزادت رؤيته على هذه الحال من حزن المسلمين وشعورهم بالغبن ، وتقدم عمر يريد أن يلقى السيف إليه ليقاتل به ويفك نفسه من الأسر والرسول ﷺ يأبى ، ويتمسك بالعهد المبرم بينه وبين المشركين ، وقلوب المسلمين تتقطع أسى وهم يرون هذاالمنظر البئيس .

ولكنه كان درسا عمليا فى التربية على الوفاء بالعهد . .

إن العهد الذى يبرمه المسلم هو عهد معقود باسم الله . إنه جزء من «الميثاق» الذى يلتزم به المؤمن تجاه ربه . إنه ليس أمراً تتدخل فيه « المصلحة» القريبة أو البعيدة ،

---

(١) رواه البيهقى .

(٢) سورة الفتح [٢٧] .

الظاهرة أو الخفية ، فيلتزم إذا بدت المصلحة فى التزامه ، وينقض إذا بدت المصلحة فى غيره ! إن هذا هو ديدن الجاهليات فيما تبرمه من المواثيق . تبرمه وهى لا تعتزم الوفاء به إلا ريثما تجد الوسيلة لنقضه . وفى اللحظة التى تبدو لها المصلحة فى نقضه فإنه حبر على ورق ولا أكثر ! (وجاهلية القرن العشرين أبرز مثال على ذلك فى مواثيقها الدولية . ما أسهل ما تبرم الميثاق وما أسهل ما تنقضه فى لحظات !) أما المؤمنون ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، فهم وحدهم الذين لا تحركهم المصلحة ، إنما يحركهم الحرص على مرضاة الله .

يقول الله وهو يوجه رسوله ﷺ والأمة المسلمة من ورائه :

﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾[1] .

وهذه من أخلاقيات لا إله إلا الله فى المواثيق ، حتى مع الكافرين الذين لا يرقبون فى مؤمن إلاولا ذمة ، والذين تتوقع منهم الخيانة فى أى لحظة من اللحظات . ينبذ إليهم عهدهم أولا ثم يقاتلون بعد ذلك ، ولكن لا يغدر بهم والميثاق قائم . .

ووعت الأمة الإسلامية التوجيه الربانى وطبقته فى عالم الواقع ، فكانت منه فى حياتها أعاجيب .

فحين فتح أبو عبيدة بن الجراح الشام وأخذ الجزية من أهلها الذين كانوا يومئذ ما يزالون على دينهم ، اشترطوا عليه أن يحميهم من الروم الذين كانوا يسومونهم الخسف والاضطهاد ، وقبل أبوعبيدة الشرط .

ولكن هرقل أعد جيشاً عظيماً لاسترداد الشام من المسلمين ، وبلغت الأنباء أبا عبيدة ، فرد الجزية إلى الناس ، وقال لهم : لقد سمعتم بتجهيز هرقل لنا ، وقد اشترطتم علينا أن نحميكم وإنّا لا نقدر على ذلك ، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم !

هل سمع أحد بمثل ذلك فى التاريخ ؟!

قائد جيش فاتح منتصر يأخذ جزية من أهل البلاد المفتوحة ، ثم يردها إليهم بأى حال من الأحوال ؟!

هذا هو التاريخ مفتوحة صفحاته لمن يريد أن ينقب .

إنه حادث فريد فى التاريخ .

---

(١) سورة الأنفال [٦٨] .

ولم يكن أبو عبيدة يصنع ذلك رجاء « مصلحة » بعيدة يقدرها ، ويضحى فى سبيلها بالمصلحة القريبة ! كلا ! فما كان عنده يقين بأن ينتصر على جيش هرقل الجرار ، وتعبيره واضح : وإنا لا نقدر على ذلك !

إنما ينطلق من المبدأ الذى رباهم عليه الإسلام على يد رسول الله ﷺ : الوفاء بالمواثيق ، سواء أكانت الصفقة رابحة فى النظرة القريبة أم خاسرة :

﴿ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ..﴾ [1] .

ولقد كان لهذا الخلق الإسلامى الذى التزم به أبوعبيدة أثره الذى قدره الله له ، فقد نصره الله على جيش هرقل ، فراح الناس يعيدون الجزية راضية قلوبهم ، ثم - من بعد - صاروا يدخلون فى دين الله أفواجا ، إعجابا بهذا الدين الذى يخرج من هو على هذا الخلق العظيم !

وعمر رضى الله عنه يقول لقائده فى حرب فارس : وإذا لاعب أحدكم أحد العلوج فظن هذا أن المسلم يعطيه عهد أمان فأنفذه له !

يا لله ! ويا لروعة المرتقى !

إنه لا عهد فى الحقيقة ! ولكنه مجرد توهم من جانب الفارسى أن الجندى المسلم قد أعطاه عهد أمان ! فيقول عمر لقائده : فأنفذه له !

إنه ليس فقط إنفاذ العهد الذى لم يصدر فى الواقع من الجندى ، ولكنه كذلك إلزام القائد بعهدٍ توهم العدو أن واحدا من جنود المسلمين قد أعطاه !

هل سمِع أحد بمثل ذلك فى التاريخ ؟!

ومعاوية فى هدنة مع الروم ، ولكن تأتيه عيونه بأنباء تفيد أن القوم يستغلون الهدنة للاستعداد لهجوم مفاجئ على المسلمين . فيهمّ معاوية أن يفاجئهم قبل أن يكملوا عدتهم . ولكن مستشاريه يأبون عليه ، يقولون : إما أن تنبذ إليهم على سواء كما أمر الله ، وإما أن تنتظر حتى نهاية العهد ثم تناجزهم .

وينتظر معاوية . . وينصر الله جيشه !

ضع مقابل ذلك ما فعله الصليبيون أيام صلاح الدين .

كان المسلمون معهم فى هدنة ، ولكنهم غدروا وأخذوا المسلمين على غرة ، فانحاز

---

(١) سورة النحل [٩٢] .

المسلمون إلى المسجد، فاقتحموه عليهم ، وأعملوا فيهم السيف حتى غاصت الخيل فى الدم إلى ركبها، كما تروى مراجع الصليبيين أنفسهم!

وصدق الله وهو يقول عن الكفار، والكفر كله ملة واحدة :

﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلاّ ولا ذمة، وأولئك هم المعتدون ﴾ (١) .

ومع ذلك فلم يشأ صلاح الدين - حين عادت الكرّة له عليهم - أن يعاقبهم بمثل ماعاقبوا به . . وإنما عاملهم بسماحة الإسلام !

سادساً : الحركة العلمية الإسلامية

إلى هنا كنا نتحدث عن أبرز سمات الأمة الإسلامية مع تركيز خاص على الجيل الفريد الذى رباه رسول الله ﷺ على عينه، وشهد له عليه الصلاة والسلام حين قال : «خير القرون قرنى ..» .

ولقدأكدنا فيما سبق من الحديث أن هذه السمات ليست خاصة بالجيل الأول، إنما هى سمات « الأمة المسلمة» التى ينبغى أن تزاولها فى جميع أجيالها وأعصارها، والتى تعتبر مقصرة أو آثمة إذا تخلت عنها فى أى جيل من الأجيال. وأن مزية الجيل المتفرد لم تكن أنه اتسم بتلك السمات وحافظ عليها، فذلك مطلوب من كل جيل لتتحقق له صفة الإيمان الحق. إنما كانت المزية التى تفرد بها ذلك الجيل أنه بلغ الذروة فى ممارستها، ولم يكتف فيها بالحد الأدنى المفروض ، إنما بذل جهده ليصل إلى الحد الأعلى المرغوب، فوصل إلى آفاق لا تخطر على بال الناس، خاصة حين يهبطون مع «واقعيتهم » الهابطة، فينزلون دركات تحت الحد الأدنى المفروض !

ونتحدث هنا عن سمتين أخريين من سمات هذه الأمة، اللازمة لها بوصفها « الأمة المسلمة» وإن كانتا كما أشرنا من قبل قد جاءتا - بطبيعتهما - متأخرتين عن الجيل الأول الذى كتب التاريخ .

إن الحركة العلمية والحركة الحضارية - بطبيعتهما - لا تبرزان فى مرحلة الإنشاء والتكوين، لأنهما تحتاجان إلى استقرار لا يتوفر فى مرحلة الإنشاء، وإلى جهد فائض عن الضرورات، بينما الجهد كله فى مرحلة الإنشاء يبذل فى التأسيس والتمكين . كما تحتاجان إلى زمن يمضى بعد استكمال التكوين، تتم فيه عملية « التمثيل» للقيم والمبادئ والأفكار، لتتجه بعد ذلك إلى « الإنتاج» فى مجالات العلم والحضارة المادية . ولكن

(١) سورة التوبة [١٠].

«البذرة» التى تتولد عنها كل من الحركتين تنشأ فى الحقيقة من نقطةالابتداء، وتظل كامنة حتى تستوفى نضجها الطبيعى، فتولد كما يولد الجنين المكتمل الأعضاء بعد أن يستكمل أطواره فى خفية عن العيون .

فالجيل الأول ـ وإن لم يشارك فى هاتين السمتين بنفسه ـ كان فى الحقيقة هو « الأب الروحى » لهما إن صح التعبير، من حيث إنه هو الذى قام بالانطلاقة الهائلة التى كتبت سطور التاريخ الظافر فيما بعد، ومن حيث إنه هو الذى حقق فى ذات نفسه صحة المنطلق، ولكل من هذين الأمرين أثره فى إبراز الحركة العلمية الإسلامية والحركة الحضارية الإسلامية .

فأما الانطلاقة فهى قمينة ـ فى حياة أى أمة ـ أن تحدث فيها حركة علمية وحركة حضارية، لأن ذلك مركوز فى فطرة البشر، ولأن ذلك ـ من جهة أخرى ـ من العطاء الربانى المبذول للبشر جميعا بقدر ما يبذلون فيه من جهد :

﴿ كلاً نمد، هؤلاء وهؤلاء، من عطاء ربك، وماكان عطاء ربك محظورا﴾ (١) .

﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها، نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون﴾ (٢) .

أما تصحيح المنطلق فمن شأنه أن ينشئ الحركة العلمية الصحيحة، والحركة الحضارية الصحيحة، التى تتميز تميزا واضحا عن غيرها من الحركات .

وهذا ما نعنيه هنا، ونبدأ فيه بالحديث عن الحركة العلمية الإسلامية .

* * *

لم يكن العرب فى جاهليتهم أمة علمية . . وذلك ثابت من التاريخ .

لقد كان لهم رحلات يصلون فيها إلى مراكز حضارية فى الشمال والجنوب، كما كانت لهم احتكاكات بدولتى فارس والروم، ولكل منهما فى ذلك الحين علوم ومعارف، ولكن العرب لم يشغلوا أنفسهم بتحصيل شىء من تلك المعارف العلمية، لأنهم كانوا يعيشون على هامش الدنيا وهامش التاريخ، مشغولين بثاراتهم ونزاعاتهم، وفخرهم وهجائهم، وعلى الأكثر بتجاراتهم ولهوهم وشرابهم .

كان أشد ما يشغل العرب فى حياتهم القبلية التى يعيشونها هو قول الشعر وحفظ الأنساب . فالشعر يتفننون فى قوله ويتباهون بفصاحته، وحفظ الأنساب تستخدمه كل

---

(١) سورة الإسراء [٢٠] . (٢) سورة هود [١٥] .

قبيلة فى التفاخر مع القبائل الأخرى، وفى محاولة النيل من القبائل الأخرى وقت الخصام والنزاع بما قد يكون من ملمز فى أنسابها !

ورغم بلاغة الشعر العربى الجاهلى، ودلالته على النضج الفكرى والنفسى والتعبيرى، فإن البداوة التى كان يعيش فيها العرب، ومشغلتهم الدائمة بالعصبية القبلية وما يتبعها من خصومات ونزاعات وتفاخر بالأنساب، لم تدع مجالا « للتجمع» لتكوين أمة، وهو شرط أساسى لأى حركة علمية أو حضارية .

لذلك عاش العرب قرونا لا يتجهون أى اتجاه لطلب العلم، وكانوا - كما ثبت عنهم - أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب .

ثم جاء الإسلام . جاء ليمنحهم كل العناصر المطلوبة لا لإنشاء حركة علمية فحسب، بل لإنشاء الحركة العلمية الصحيحة كما ينبغى أن تكون .

الرغبة فى « المعرفة » رغبة فطرية أودعها الله لتكون إحدى أدوات الإنسان للقيام بعمارة الأرض. والرغبة فى معرفة خواص المادة بصفة خاصة ركيزة رئيسية فى الفطرة، وركيزة رئيسية فى «العلم» بمعناه الاصطلاحى. ولكنها - كما قلنا - تحتاج إلى تجمع وإلى استقرار وأمن وطمأنينة لكى تزاول نشاطها الطبيعى الفطرى. وكل هذه العناصر كان مفقودا فى البيئة العربية القبلية الجاهلية، فلم يكن هناك - من ثم - علم بالمعنى المعروف .

فلما جاء الإسلام وجدت هذه العناصر جميعا، فوجدت - بادئ ذى بدء - البيئة التى يمكن أن يظهر فيها العلم. ولكنها، فى أمة كانت مشغولة تماما عن هذا الأمر ، كانت فى حاجة - إلى جانب التجمع والاستقرار والأمن - إلى دفعة حيوية هائلة تنشط ما كان غافلا من جوانب الفطرة، وتدفعه إلى العمل والإنتاج .

ولقد أعطى الإسلام تلك الدفعة الحيوية بصورة فذة غير مسبوقة فى التاريخ ، فكان أمرا طبيعياً أن تتحرك الفطرة لطلب العلم حين سرت الشحنة الضخمة فى جسم ذلك التجمع الجديد فحركت كل جزئية فيه .

ولكن الإسلام لم يَحْوِ تلك الشحنة الدافعة فحسب، التى يمكن أن تؤدى من ذات نفسها إلى إيقاظ الجوانبَ الغافية - أو الضامرة - من الفطرة فتعطيها دفعتها السوية وحركتها السوية، إنما حوى إلى جانب ذلك توجيهات محددة لطلب العلم، كشأنه مع كل أمر لازم للحياة البشرية .

وشأن الوحى مع متطلبات الحياة البشرية، إما أن تكون مما لا يستطيع الإنسان

الوصول فيه إلى المعرفة الصحيحة بنفسه، فيتكفل الوحى بأمر « التعليم» كله كشأن العقيدة، وأمور الحلال والحرام . . وإما أن تكون مما يستطيع الإنسان الوصول فيه إلى المعرفة الصحيحة بما أودع الله الفطرة من الأدوات، فيكتفى الوحى بالتوجيه، ووضع المنهج الصحيح للعمل والتفكير .

والتعرف على الكون المادى، وعلى خواص المادة، هو من تلك الأمور التى أودع الله الفطرة الطاقات اللازمة لها، والقمينة بأن يصل الإنسان بها إلى المعرفة الصحيحة بجهد عقلى وعضلى يبذله، لذلك لم يكن شأن الوحى فيه أن يعطى «نظريات» علمية، ولا دروسا توصل إلى معلومات معينة فى شتى العلوم. إنما كان شأنه التوجيه، وإعطاء المنهج الصحيح .

فأما التوجيهات فقد حفل بها كتاب الله المنزل، كما حفلت بها سنة الرسول ﷺ .

فأما كتاب الله فقد بدأ الوحى منه بالإقراء : « اقرأ » ولذلك دلالته الواضحة خاصة بالنسبة للأمة الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب .

ثم ثنى بذكر العلم : ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ (١) .

ثم لفت الأنظار إلى آيات الله فى الكون، وأورد فى خلال ذلك آيات كونية داخلة فى صميم « العلم» وخاصة فى مجال السماوات والأرض ومراحل تكوين الجنين .

﴿قل انظروا ماذا فى السماوات والأرض ﴾ (٢) .

﴿وفى الأرض آيات للموقنين، وفى أنفسكم، أفلا تبصرون﴾ (٣) .

﴿وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشى الليل النهار، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (٤) .

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة، فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ (٥) .

ومع أن هذه الإشارات إلى آيات الله فى الكون ـ وهى كثيرة فى القرآن ـ قد قصد بها ابتداء إيقاظ القلب البشرى لعظمة الخالق، وقدرته المعجزة، وعلمه المحيط، وهيمنته

---

(١) سورة العلق [١ ـ ٥] (٢) سورة يونس [١٠١] . (٣) سورة الذاريات [٢٠ ـ ٢١] .
(٤) سورة الرعد [٣] . (٥) سورة المؤمنون [١٢ ـ ١٤] .

سبحانه وتعالى على أمر الكون كله وتدبيره له ، لكي تخشع القلوب للخالق العظيم وتعبده وحده بلا شريك - أى لتصحيح العقيدة - إلا أن التوجيه «العلمى» واضح فيها بلا شك ، لأن التفكر ، والتبصر ، والتدبر الذى تختم به معظم الآيات التى تتعرض لهذه المجالات كقوله تعالى : ﴿ **إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون**﴾ أو ﴿**يعقلون** ﴾ أو ﴿**إن فى ذلك لآيات للعالمين** ﴾ . . إلخ ، هذا التفكر والتبصر والتدبر ، يسرى بطبيعته حتى يشمل محاولة التعرف على «سر » هذه الآيات الكونية ، وسر الصنعة الربانية الكامنة فيها . وتلك هى النقطة التى يبدأ منها « العلم» . وبدأ منها المسلمون بالفعل توجههم لطلب العلم .

ولما لم يكن عند العرب رصيد علمى سابق ، لانشغالهم - كما أسلفنا - بأمور أخرى ، فقد أحس المسلمون بالحاجة إلى الاطلاع على ما كان عند غيرهم من الأمم من العلوم ، وهو إحساس لم يشعروا به من قبل أيام جاهليتهم ولم يتجهوا إليه . ولما كانت لغة العلم الغالبة يومئذ هى الإغريقية واللاتينية ، فقد اتجه المسلمون إلى تعلم هاتين اللغتين حتى يستطيعوا نقل العلم إلى اللسان العربى ، ومن هذه النقطة بدأوا حركتهم العلمية .

ترجموا كل ما كان معروفا من العلم يومئذ ، وعكفوا على دراسته متتلمذين عليه كما هو الأمر الطبيعى فى مثل هذه الأحوال ، وإن كانوا سرعان ما اكتسبوا الحاسة العلمية لأنفسهم ، وأخذوا يصححون بعض الأخطاء التى كان العلم الإغريقى يحتوى عليها .

ولكن التوجيهات القرآنية لم تحو فقط تلك الإشارات الكونية ، وذلك التوجيه للنظر فى هذه الآيات والتفكر فيها ، إنما حوت أهم من ذلك : **منهج البحث** .

لقد كان العلم لدى الإغريق نظريا فلسفيا تجريديا . يبحث عن النظرية ويفلسفها ، ويكتفى بعرضها على « العقل » فإن أقرها - بصورة من الصور - فهى صحيحة ، بصرف النظر عن وجودها الواقعى أو صحتها الواقعية .

ولكن توجيهات القرآن كانت فى اتجاه آخر . .

إنها توجه إلى الجانب العملى والجانب النافع من العلم ، لا إلى الجانب النظرى التجريدى :

﴿**يسألونك عن الأهلة، قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ [1] .

---

(١) سورة البقرة [١٨٩] .

﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب، وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ (١) .

﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا، ومن الشجر ومما يعرشون، ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ (٢) .

ومن هنا بدأ المسلمون يحولون اتجاه البحث العلمى من المجال النظرى الفلسفى التجريدى إلى المجال العلمى التجريبى ، وكانت هذه نقلة هائلة فى منهج البحث ، هى التى أهلت البحث العلمى للآفاق الواسعة التى وصل إليها فى القرون الأخيرة .

والمسلمون هم الذين أسسوا المنهج التجريبى فى البحث العلمى .

تلك حقيقة يقرّ بها الذين أخذوا عن المسلمين هذا المنهج ، فقفزوا به قفزات واسعة فى العصر الحديث .

يقول بريفولت فى كتابه « بناء الإنسانية » "Making of Humanity" :

« إن ما يدين به علمنا للعرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة . بل يدين لهم بوجوده نفسه . فالعالم القديم - كما رأينا - لم يكن للعلم فيه وجود . . وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات . ولكن أساليب البحث فى دأب وأناة ، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها ، والمناهج التفصيلية للعلم ، والملاحظة الدقيقة المستمرة ، والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى . . أما ما ندعوه « العلم » فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة . . وهذه الروح وتلك المناهج أوصلها العرب إلى العالم الأوربى » (٣) .

ولكن الذى صنعه المسلمون فى حركتهم العلمية لا يقف عند حد تصحيح الأخطاء التى وجدوها عند الإغريق ، ولا ابتداع علوم جديدة كعلم الجبر ، ولا اكتشاف كثير من خواص المادة مما أدى إلى تقدم كبير فى علم الفيزياء وعلم الكيمياء ، ولا اكتشاف الدورة الدموية ، ولا ما ابتدعته عبقرية الحسن بن الهيثم فى علم الضوء . . ولا يقف كذلك عند منح البشرية سبيل التقدم العلمى الصحيح ، وهو المنهج التجريبى الذى ما كان للعلم أن يتقدم تقدما حقيقيا بدونه . . إنما كان هناك ماهو أهم من ذلك .

---

(١) سورة الإسراء [١٢] . (٢) سورة النحل [٦٨ - ٦٩] .

(٣) عن كتاب « تجديد التفكير الدينى فى الإسلام » لمحمد إقبال ترجمة الأستاذ عباس محمود ص ١٥٠ .

لقد حوى القرآن منهجاً كاملا للحياة، يشمل جزئيات الحياة جميعا، بما فيها «العلم»، ثم يضع كل جزئية فى مكانها الصحيح. وهذا الأمر بالذات هو أهم ما قدمته الحركة العلمية الإسلامية، وتبدو قيمته خاصة إذا نظرنا إلى الحركة العلمية التى تقدمها الجاهلية المعاصرة فى الوقت الحاضر.

إن الإنسان فى حقيقته كُلٌّ متكامل لا يمكن فصل جزء منه عن بقية أجزائه. وحين ينفصل منه جزء عن بقية الأجزاء، أو حين يحاول الناس فصل جزء منه عن بقية الأجزاء يحدث الخلل فى الكلّ المتكامل، لأن الارتباط لا يفصم فى الحقيقة وإنما يعتلّ، وإذا اعتل حدث الخلل لا محالة.

والمنهج الربانى يأخذ الإنسان على حقيقته، كلاً متكاملا لا أجزاء ولا تفاريق. ولا عجب فى ذلك فهو منزل من عند فاطر هذه الفطرة العليم بها وبكل منسرباتها:

﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ (1).

وحين يعالج المنهج الربانى أمر «العلم» فهو أولا: لا يفصله عن بقية حياة الإنسان، ولا يجعله شيئا قائما بذاته، ولا يرفع شعار «العلم للعلم» كما تصنع الجاهلية المعاصرة بصفة خاصة. وهو ثانيا: لا يجعل نشاطه مضادا ولا معاكسا لبقية اتجاهات الفطرة وبقية الحاجات النفسية والحيوية، كما تصنع الجاهلية المعاصرة حين تفصل العلم عن الدين، ثم تضعهما موضع التقابل والتضاد، فمن أراد العلم فليترك الدين، ومن أراد الدين فليترك العلم!

الإنسان فى عرف الإسلام هو الخليفة فى الأرض:

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ (2).

خلق ليعبد الله:

﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ (3).

والعبادة تشمل كل نشاط الإنسان فى الأرض: (4).

﴿قل: إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له﴾ (5).

ومن بين العبادة المطلوبة عمارة الأرض.

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (6).

---

(1) سورة الملك [14]. (2) سورة البقرة [30]. (3) سورة الذاريات [56].

(4) انظر - إن شئت - فصل «مفهوم العبادة» فى كتاب «مفاهيم ينبغى أن تصحح».

(5) سورة الأنعام [162 - 163]. (6) سورة هود [61].

ومن بينها السعى فى الأرض وابتغاء فضل الله :

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه، وإليه النشور ﴾ [1] .

والعلم أداة - ضرورية - من أدوات عمارة الأرض ، والسعى وراء الرزق ، والقيام بدور الخلافة فى الأرض . لذلك فهو مسخر لهذه الأهداف ، وليس هو هدفا فى حد ذاته .

ثم إن الإنسان كله - كما أسلفنا - مخلوق للعبادة ، التى تشمل الاعتقاد فى وحدانية الله ، وتشمل الشعائر التعبدية ، وتشمل عمارة الأرض وإقامة الحق والعدل فيها باتباع ما أنزل الله :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [2] .

والعلم - من ثم - بوصفه نشاطا إنسانيا ، هو جزء من هذا المنهج المتكامل - منهج العبادة بمعناها الواسع - يأخذ مكانه فى ذلك المنهج ، ويأخذ ارتباطه ببقية الأجزاء . لذلك لا نعجب حين نجد الرسول ﷺ يقول : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » [3] .

وإيحاء اللفظ ظاهر . .

فليست الفريضة مجرد شىء واجب الأداء فحسب ، بل إنها - فى المصطلح الإسلامى - عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، ويبتغى بها رضاه .

وهذا هو وضع العلم فى الإسلام . . عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ، ويبتغى بها رضاه !

ولا يحسبن أحد أن هذا القول يتعلق فقط بما يسمى « العلم الشرعى » ، وإن كان العلم الشرعى فريضة بديهية على كل مسلم ، ليعرف كيف يعبد الله العبادة الصحيحة ، ويعرف الحلال والحرام ، وما ينبغى عمله وما ينبغى الانتهاء عنه .

إنما ينطبق هذا الوصف على كل العلم ، مادام لا يخرج عن الحدود التى رسمها الله . وإلا فانظر معى كيف ينفذ المسلمون هذا الأمر الربانى .

---

(١) سورة الملك [١٥] . (٢) سورة الحديد [٢٥] .

(٣) رواه ابن ماجة عن أنس .

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[1] .

هل يستطيعون ذلك بغير علم، يشمل اليوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات والميكانيكا، وعشرات غيرها من العلوم ؟

وكيف ينفذون أمره تعالى :

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه..﴾ [2] .

هل يمشون بغير علم ؟ وهل يأكلون من رزقه بغير علم ؟

وانظر إلى قوله تعالى :

﴿ وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ [3] .

هل يتحقق التسخير بغير علم؟ هل يقول الإنسان للشىء كن فيكون؟! أم يحتاج تحقيق التسخير إلى جهد علمى ؟!

وعشرات من الأمور تقطع بأن العلم الذى هو « فريضة» ليس هو العلم الشرعى وحده، إنما هو كل علم نافع. إنما يختلف الأمر بين علم وعلم فيكون أحدهما فرض عين والآخر فرض كفاية ، ولكنه فى جميع الأحوال «فريضة» كما قال رسول الله ﷺ بحق.

وحين يكون العلم فى الإسلام على هذا النحو، تنتج عن ذلك نتائج مهمة فى حياة البشرية.

ينتج أولا : أن العلم لا يمكن أن يكون عدوا للعقيدة، ولا عدوا للدين.

إن العلم والدين كلاهما نزعة فطرية فى كيان الإنسان. والنزعتان ـ فى الفطرة السليمة ـ أصيلتان ومتكاملتان، ومتعاونتان فى تحقيق الوجود الصحيح للإنسان.

فتوجه الفطرة لخالقها بالعبادة فطرة : [4] .

﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا : بلى شهدنا﴾! [5] .

---

(١) سورة الأنفال [٦٠] . (٢) سورة الملك [١٥] .
(٣) سورة الجاثية [١٣] . (٤) انظر ـ إن شئت ـ فصل « الإلحاد » من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .
(٥) سورة الأعراف [١٧٢] .

والرغبة فى « المعرفة » والرغبة فى التفاعل مع الكون المادى، واستخدام ثمار المعرفة فى تيسير الحياة وتحسينها وتجميلها فطرة كذلك. فالإنسان مفطور على حب « المتاع» وعلى السعى إلى تحسين وسائل المتاع حتى ترتفع من الضرورات إلى الحاجيات إلى الزينة.

فما الذى يجعل إحدى النزعتين فى موقف الحرب والتضاد مع النزعة الأخرى؟

إنما فعلت الجاهلية الحديثة ذلك فى أوربا، لأن الدين الممسوخ الذى قدمته الكنيسة كان يحارب العلم ويضطهد العلماء ويحرقهم أحياء فى الأفران، لأنهم نادوا بحقائق علمية على غير هوى الكنيسة. فكان رد الفعل الجاهلى هو نبذ الدين جملة - بدلاً من تصحيحه - وجعل العلم منابذا للدين.

ولكن ذلك لم يكن هو السبب الأوحد فى الحقيقة.

فإن أوروبا حين نزعت عنها لباس الدين - علماؤها ومفكروها أولا ثم جماهيرها ودهماؤها بعد ذلك - رجعت إلى التراث الإغريقى الرومانى تستمد منه مناهج حياتها الجديدة.. فانبعث فيها من الجاهلية الإغريقية ذلك العداء القديم بين « الإنسان» وبين «الله».

إن الأساطير الإغريقية تصور العلاقة بين البشر والآلهة علاقة خصام وعناد وشر: الآلهة تريد أن تسحق الإنسان لكى لا ينافسها وضعها « الإلهى » ! والإنسان متمرد على الآلهة، يحاول عصيانها ليثبت وجوده وفاعليته !

وأسطورة بروميثيوس بصفة خاصة تصور هذه العلاقة أدق تصوير.

تقول الأسطورة إن كبير الآلهة « زيوس » خلق الإنسان من قبضة من طين الأرض[1]، ثم سواه على النار المقدسة التى ترمز إلى المعرفة، ثم أطلقه فى الأرض وحيدا تحيط به الظلمات. فأشفق عليه كائن أسطورى يسمى « بروميثيوس» فسرق له النار المقدسة من الإله زيوس، لتنير له ما حوله. وهنا غضب الإله غضبة عظيمة (وإن كان قد عجز عن استرداد النار المقدسة مرة أخرى !) فوكل ببروميثيوس نسرا يأكل كبده طول النهار ثم تنبت له كبد جديدة فى الليل فيأكلها النسر بالنهار، وهكذا فى عذاب أبدى. أما الإنسان - الذى استضاء بنور المعرفة فأصبح يحمل بعض خصائص الآلهة - فقد أرسل زيوس إليه بامرأة (ترمز إلى حواء) وأرسل معها صندوقاً هدية.. فلما فتح

(١) انظر كيف تأخذ الأسطورة جانبا من الحقيقة ثم تشوهها !

الصندوق إذا هو مملوء بالشرور، فقفزت من الصندوق وتناثرت على وجه الأرض. . وكان هذا هو انتقام « الإله » من « الإنسان » !

على هذا النحو تقوم العلاقة بين الإنسان وبين الله . علاقة خصام وعناد لا تعمرها مودة ولا يظللها حب .

وفي ظل هذه العلاقة تكون « المعرفة » التي يحصل عليها الإنسان غصبا مغتصبا من الآلهة ، لاكسبا مرضيا عنه منهم .

وتظل الجاهلية تؤجج البغض في هذه العلاقة، وتباعد بين الدين والعلم، حتى يصبح الأمر في حسها كما يقول الكاتب الملحد « جوليان هكسلي» في كتابه « الإنسان في العالم الحديث» : إن الإنسان كان يخضع لله في عصر الجهل والعجز، أما الآن وقد تعلم وسيطر على البيئة، فقد آن له أن يحمل على عاتق نفسه ما كان من قبل في عصر الجهل والعجز يلقيه على عاتق الله، ومن ثم يصبح هو الله !

وأيّا كانت أعذار الجاهلية أو مبرراتها فقد ارتكبت جريمة ضخمة في حق الإنسان - على الرغم من كل تقدمها العلمي - حيث فصلت بين نزعتين فطريتين أصيلتين متعاونتين، نزعة العبادة ونزعة المعرفة، ووضعتهما في موقف التقابل والتضاد، ومزقت الإنسان - من ثم - بين نزعتيه الفطريتين، وبين حاجتيه الفطريتين، فحرمت عليه إحداهما إذا أراد الأخرى، وأشقته وأضلته بالتقدم العلمي رغم كل التيسيرات التي قدمها العلم للإنسان في عصره الحديث، واستخدمت العلم - متعمدة - في محاربة العقيدة، بترويج أضاليل ليس لها وجود حقيقي ولا مدلول علمي، كالطبيعة الخالقة التي قال عنها دارون إنها « تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق» ! وكالمادة الأزلية الأبدية التي زعمها الماديون بغير برهان علمي، [1] وكالأنباء التي تنشر بين الحين والحين في المجلات العلمية الرصينة عن خلق الخلية الحية في المعمل، ثم تنشر الصحف الرصينة ذاتها بعد فترة من الزمن أن الخبر كان عاريا عن الصحة !

ويظل للحركة العلمية الإسلامية تميزها بصحة المنهج واستقامته ، وأخذها الإنسان على حقيقته الشاملة، كُلاً مترابط الأجزاء متناسق النشاط، يعمل بجميع نزعاته ومجالات نشاطه في اتجاه موحد، لا تصطدم فيه نزعة بنزعة ، ولا يتعارض مجال للنشاط مع مجال آخر ، لأنها كلها متجهة إلى عبادة الله بالمعنى الشامل الواسع ، الذي يشمل الخلافة في الأرض، وتعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويشمل كذلك رفع

---

(١) ثبت لدى العلماء الآن أن الكون حادث، وأنه وجد بعد عدم، فليس أزليا . كما يقول العلماء إنه صائر إلى الزوال فليس أبديا .

الإنسان إلى مكانه اللائق به ودوره المنوط به، وهو حمل « الأمانة » التى أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال، وحملها الإنسان .

* * *

وينتج من ذلك ثانيا : **أن العلم لا يكون وسيلة لإفساد الأخلاق .**

فإذا كان العلم نشاطا بشريا، والنشاط البشرى كله فى المنهج الربانى محكوم بالميثاق الأخلاقى المعقود بين الإنسان وبين الله، فإنه لا يمكن - بداهة - أن يستخدم لإفساد الأخلاق.

والجاهلية المعاصرة نموذج فذ للتقدم العلمى، ولاستخدام العلم كذلك فى إفساد الأخلاق كما استخدمته فى محاربة العقيدة سواء بسواء .

ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك تيسير استخدام موانع الحمل [1]، وإنتاجها على نطاق واسع أكبر بكثير جدا من حاجة البشرية الراشدة، وتخفيض أسعارها حتى تصبح فى متناول أى فتاة تريد أن تحصل عليها، وإخراجها من دائرة المراقبة الصحية التى يمكن للأطباء أن يمارسوها، وذلك ببيعها دون حاجة إلى تذكرة الطبيب، على الرغم مما يقوله الأطباء أنفسهم من خطورة استخدامها بغير رقابة صحية !

والهدف من ذلك واضح .

فحين تأمن الفتاة نتائج اتصالاتها غير المشروعة، فما الذى يمنعها - فى الفوضى الخلقية الضاربة أطنابها فى الجاهلية المعاصرة - أن تغرق فى هذه العلاقات إلى آخر المدى، ويتحقق للشياطين ما يريدون من إشاعة الفاحشة على أوسع نطاق [2] .

وليست موانع الحمل وحدها هى التى استخدم فيها العلم لإفساد الأخلاق فالسينما والإذاعة والتلفزيون والفيديو، وما يمكن أن يجدّ من هذه الأشياء، كلها أدوات كان يمكن أن تستخدم فى ترشيد البشرية وتوجيهها الوجهة الصالحة، ولكنها تستخدم اليوم للإفساد المتعمد، الذى تجاوز فى كثير من الأحيان دائرة الإفساد الخلقى بمعناه الاصطلاحى، إلى إفساد الفطرةالإنسانية ذاتها، بإشاعة التفاهة والضحالة والسطحية والجزئية، وشغل النفس عن معالى الأمور وتوجيهها إلى سفاسفها.

* * *

وينتج من ذلك ثالثا : **أن العلم لا يكون وسيلة للشر .**

---

(١) وخاصة فى صورة حبوب .

(٢) راجع إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

فما دام الإنسان كله فى المنهج الإسلامى موجها إلى عمل الخير، ومراقبة الله فى كل أعماله، والتوجه بكل ذرة من نشاطه إلى الله :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له﴾ (١) .

ما دام الأمر كذلك، والعلم جزء من نشاط الإنسان، فهناك حاجز عقدى وأخلاقى يمنع من استخدام ثمار العلم فى الشر.

والجاهلية المعاصرة، التى بلغت أبعد مدىً وصل إليه الإنسان فى التقدم العلمى، هى التى تستخدم الطاقة النووية فى إحداث ألوان من الشر يعجز الإنسان عن تصورها.

إن قنبلتى هيروشيما ونجازاكى اللتين ألقيتا من أربعين سنة فى اليابان (هذا العام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م) قد محت كل منهما آثار الحياة كلها من نبات وحيوان وإنسان فى دائرة واسعة حول المكان الذى ألقيت فيه، وإلى مدى فى الزمن القادم لا يعلمه إلا الله، ثم إن الإشعاع الذرى الناتج عنها ما يزال إلى هذه اللحظة ينتج أجنة مشوهة فى دائرة أوسع، بينما تعتبر هذه القنبلة بالقياس إلى قوى التدمير الحديثة كمسدس الأطفال بالنسبة للمدفع الثقيل !

وذلك كله بغير ضرورة حقيقية ! فمازال فى مكنة الأسلحة التى يسمونها « تقليدية» أن تفتك بعشرات الألوف بل بالملايين، وفى مكنتها أن تقرر النصر لمن يملكها ويحسن استخدامها، وذلك بصرف النظر عن الأهداف التى تدور حولها الحروب فى الجاهلية المعاصرة !

وقد أدى سباق التسلح فى الميدان النووى إلى إنفاق مقادير من الأموال كانت كفيلة برفع الفاقة والعوز عن البشرية كلها، وتوفير وسائل الحياة الكريمة لمجموعات ضخمة من البشر تعيش أدنى من درجة الآدمية بكثير ! ومع ذلك لا يتوقف السباق المسعور ولا يشبع ! ولا يصل إلى نتيجة حاسمة كذلك !

* * *

كلا ! إن المزية الكبرى للحركة العلمية الإسلامية ـ التى تجعلها فى الوقت ذاته سمة من سمات هذه الأمة ـ أنها جزء من هذا الدين، بشموله وتوازنه وترابطه، لا يشذ عنه ولا ينفصل منه .

---

(١) سورة الأنعام [١٦٢ ـ ١٦٣] .

لقد نمت الحركة العلمية الإسلامية فى ظل العقيدة الصحيحة ، فلم يحدث قط بينها وبينها صراع ، لا على المستوى النظرى ولا على الصعيد العملى .

ليس فى حقائق الدين ما يعارض العلم الصحيح ، وليس فى العلم الصحيح ما يعارض ما جاء فى هذا الدين . ولا يحتاج المسلم أن ينحى عقيدته جانباً أو ينسلخ منها لكى يتعلم ، كما لا يحتاج أن ينبذ العلم ولا ثمار المعرفة العلمية لكى يحافظ على دينه . إنما يتعلم ويعبد الله حق عبادته فى ذات الوقت ، بل يجد دينه هو الذى يدفعه دفعا إلى العلم : « طلب العلم فريضة »[1] ، ويجد دينه يطريه حين يصبح « عالما » بالمعنى الصحيح للعلم ، الذى يربط علم الدنيا بعلم الآخرة ، فيقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ [2] .

فيصبح بذلك من « أولى الألباب » لأنهم هم الذين يتصفون بخشية الله :

﴿ إنما يتذكر أولو الألباب ، الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق. والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾ [3] .

كذلك لم يحدث فى التاريخ الإسلامى ذلك الصراع البغيض الذى حدث فى ظل الكنيسة الأوروبية بين الدين والعلم ، لأنه لا حاجة ولا مبرر لذلك الصراع . بل إن الرجل يكون عالما بالشريعة وعالماً بالطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء ، لا يجد من ذلك صراعا فى نفسه ، ولا يجد اضطهادا من الدولة ولا من أحد من الناس .

ومما يستوقف النظر ولا شك أن يجد الإنسان الحسن بن الهيثم يكتب فى موضوع علمى يعتبر جافا أشد الجفاف ، وهو علم « البصريات » ، فيبدأ حديثه باسم الله ويحمده ويثنى عليه بما هو أهله ، ويستمد منه التوفيق[4] ، بينما نجد دارون يكتب فى موضوع من طبيعته أن يثير الوجدان البشرى ، ويبعث القلب البشرى خاشعا لله ، وهو علم الحياة وخروج الحى من الميت وتنوع الكائنات الحية . . فلا يذكر اسم الله مرة واحدة ، بل يقول إن الطبيعة تخلق كل شيء ولا حد لقدرتها على الخلق ، ثم يقول بعد ذلك إن الطبيعة تخبط خبط عشواء !!

إنه الفارق بين حركتين علميتين متميزتين ، حركة مهتدية وحركة ضالة . وقد كانت الحركة المهتدية نورا يشع للعالم أجمع ، فأيقظ أوربا من سباتها ، وأخرجها من ظلمات القرون الوسطى لتتعرف العلم والحضارة (وإن تكن أبت أن تأخذ مصدر النور ،

---

(١) سبقت الإشارة إليه .　(٢) سورة فاطر [٢٨] .　(٣) سورة الرعد [١٩ ـ ٢١] .

(٤) ظلت نظريات ابن الهيثم تدرس فى أوربا حتى القرن التاسع عشر لبراعته العلمية وأصالة نظرياته .

فخرجت بحضارتها العرجاء الشائهة) والحركة الضالة تمد ظلالها اليوم على العالم كله فتحقق له كثيرا من النفع ولكنها تشيع فى كيانه الخبال !

كذلك لم تتجه الحركة العلمية الإسلامية إلى إفساد الأخلاق ولا إلى بذر الشر فى الأرض كما اتجهت الحركة القائمة فى ظل الجاهلية المعاصرة، لا لأنها كانت عاجزة عن ذلك، فأى قدر من العلم يمكن أن يستخدم فى إفساد الأخلاق وبذر الشر إذا تولته الشياطين. وقد كان كهنة الفراعنة - وهم علماء تلك الأمة - يستخدمون ما لديهم من العلم فى نشر الأضاليل الاعتقادية وتعبيد الناس للفرعون بدلا من الله، وكانوا هم واليهود يستخدمون العلم فى السحر بدلا مما ينفع الناس !

إنما اتجهت الحركة الإسلامية إلى البحث عن الحقيقة، وتسخير العلم وثماره لما ينفع الناس، وحافظت على عقائد الناس وأخلاقهم، لأنها جزء من هذا الدين، محكوم بالمنهج المنزل من عند الله .

سابعا : الحركة الحضارية الإسلامية

المقصود هنا بالحركة الحضارية هو الجانب المادى والتنظيمى منها، وهو هو الذى تأخر بروزه عن الجيل الأول . أما الجانب المعنوى، جانب القيم، فقد برز منذ اللحظة الأولى لوجود المجتمع المسلم بالمدينة، بل قبل ذلك منذ قيام الجماعة المسلمة بمكة .

وقد تكون هذه القضية فى حاجة إلى شىء من البيان :

لقد غلب على استعمال كلمة الحضارة أن تطلق على الجانب المادى والتنظيمى من الحياة، وليس ذلك بعيدا عن المعنى اللغوى على أى حال، فالحضارة هى فعل أهل الحضر، مقابل البداوة التى هى شأن أهل البادية .

ولكن الإسلام قد أنشأ مفاهيم خاصة ومصطلحات خاصة، يخصص بها المصطلح اللغوى ويحدده . فالصلاة فى اللغة الدعاء، ولكنها فى المصطلح الإسلامى هى تلك الأعمال الخاصة المعروفة، التى تشمل الدعاء فيما تشمل ولكنه دعاء ذو نسق خاص محدد . والزكاة فى اللغة الطهر والنماء . ولكنها فى المصطلح الإسلامى هى ذلك المقدار من المال الذى ينفق بصورته المعينة المعروفة . والدين فى اللغة هو كل ما يدين به الإنسان أو يعتقده أو يتحاكم به أو يتحاكم إليه، ولكنه فى المصطلح الإسلامى ذلك الدين المحدد المنزل من عند الله .

والحضارة كذلك . هى فى اللغة فعل أهل الحضر . ولكنها فى المصطلح الإسلامى

هى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، فيدخل فى ذلك الجوانب المادية والتنظيمية، وتدخل فيه القيم التى يحملها هذا الدين، غير منفصلة هذه عن تلك. أى أنها تشمل الأمرين اللذين فرقت بينهما الجاهلية المعاصرة فسمت أحدهما ثقافة culture وخصته بالقيم والأفكار والمعتقدات، وسمت الآخر حضارة Civilization وخصته بالجانب المادى والتنظيمى.

والجاهلية المعاصرة إذ تفعل ذلك تحدث تفرقة لا وجود لها فى عالم الواقع. فليست هناك عمارة مادية أو تنظيمية غير مرتبطة بقيم معينة فى حياة الناس، متأثرة بها ومؤثرة فيها. كذلك فإن القيم لا تعيش فى فراغ، إنما تعيش وتبرز فى كيان مادى وتنظيمى. فالتفرقة بين الأمرين تفرقة نظرية أكثر منها واقعية. إنما تستسيغها تلك الجاهلية لأنها درجت على التفرقة بين النظرية والتطبيق، فوضعت الصورة المثالية فى النظرية، وتركت التطبيق يمثل الواقع، ولم تر حرجا فى أن يخالف التطبيق النظرية ويبتعد عنه!

ولسنا ملزمين بمجاراة الجاهلية الأوربية فى مصطلحاتها.

إنما نقول إن « الحضارة» هى الجانب المعنوى الذى يحمل القيم، والجانب المادى والتنظيمى على حد سواء. ونقول إن هناك «حضارة إسلامية» ذات قيم ثابتة وأشكال مادية وتنظيمية نامية ومتغيرة على الدوام. والمفروض فى الحالة السوية أن يظل الارتباط قائما بين تلك القيم وهذه الأشكال المتغيرة، ليصح تسميتها «حضارة إسلامية». فإذا تغيرت القيم وابتعدت عن روح الإسلام لم تعد تصلح أن تسمى بهذا الاسم، إنما هى حضارة جاهلية إذا قبلنا الاصطلاح، بمعنى عمارة مادية وتنظيمية غير قائمة على المنهج الربانى. وفى جميع الأحوال لا تنفصل الأشكال المادية والتنظيمية عن القيم المصاحبة لها، ويكون تقويم الحضارة بالأمرين معا، لا بالجانب المادى والتنظيمى وحده. بل يكون تقويمها بمقياس القيم هو المقدم وهو المعتبر، لسبب واقعى بسيط، هو أن الإنسان يستطيع أن يعيش، وأن يمارس كيانه « الإنسانى» على المستوى الأعلى بأقل قدر من الأشكال المادية والتنظيمية، ولكنه لا يستطيع أن يعيش ولا أن يمارس كيانه الإنسانى على أى مستوى كان بغير قيم ومبادئ، مهما يكن عنده من أدوات التقدم المادى والتنظيمى.

ومقارنة سريعة بين جيل الصحابة رضوان الله عليهم والأجيال التى تعيش اليوم فى الجاهلية الأوروبية المعاصرة تحسم الكلام فى هذه النقطة. فأيهما هو «الإنسان» فى أعلى صورة؟ أيهما الذى يعيش بمشاعر « الإنسان» وأفكار « الإنسان» وأخلاقيات «الإنسان» وسعة أفق « الإنسان» والعمل والكدح اللائق « بالإنسان»؟

الإجابة واضحة دون شك. وحاسمة كذلك..

إن ذلك الجيل الذى لم يكن يملك من أشكال الحضارة المادية والتنظيمية إلا القدر الأدنى هو أعظم أجيال البشرية قاطبة غير منازع . والأجيال التى تعيش اليوم فى الجاهلية المعاصرة هى من أسوأ أجيالها إن لم تكن أسوأها ، وإن كانت تملك أعلى قدر من الحضارة المادية والتنظيمية فى تاريخ البشرية ، وذلك لأنها تعرت من القيم وتنكرت لها إلا القيم النفعيةالبحتة ، لذلك نسمى حضارتها حضارة هابطة ، فى مقابل الحضارة الرفيعة المتمثلة فى ذلك الجيل الفريد ، حضارة القيم العليا والمبادئ السامية .

من هنا نقول باطمئنان إن الإسلام هو الحضارة . وإن المجتمع المسلم هو المجتمع المتحضر ، أياً كان القدر الذى يشتمل عليه من الأشكال المادية والتنظيمية .

ولكن الأمر الطبيعى فى الفطرة السوية أنها تسعى لإشباع الجوانب الحسية والجوانب المعنوية معاً فى ذات الوقت بلا تعارض ولا تناقض ، بل على توازن واتساق .

وهذا التكامل فى الفطرة وفى الحياة الواقعية علامة صحية بالنسبة للإنسان ، الذى خلقه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله :

﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ (١) .

والإسلام - دين الفطرة - يدعو إلى إشباع الجانبين معا ، سواء فيما يتعلق بالروح والجسد أو بالدنيا والآخرة .

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...﴾ (٢) .

﴿وكلوا واشربوا ......﴾ (٣) .

﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ (٤) .

ولئن كان الإسلام قد وضع القيم المعنوية فى المقدمة - كما ينبغى لها أن تكون - فإنه لم يهمل الجوانب الأخرى ولا دعا إلى مصادرتها ، بل أعطى كل ذى حق حقه :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب. قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها

---

(١) سورة ص [٧١ - ٧٢] .
(٢) سورة البقرة [١١٠] .
(٣) سورة الأعراف [٣١] .
(٤) سورة القصص [٧٧] .

وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد،الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ﴾ (١) .

فأما إذا جنح الإنسان بأحد جانبيه على حساب الآخر فهنا يحدث الخلل فى حياته، سواء جنح إلى الجانب الروحى وأهمل المادى كما تصنع الرهبانية والهندوكية والبوذية، أو جنح إلى الجانب المادى وأهمل الروح كما تصنع الجاهلية المعاصرة.

إنما يسعى الإسلام لإشباع الجوانب كلها، فينتج من ذلك الإنسان السوى الذى يحقق التوازن على المستوى الرفيع.

لذلك كان قيام الجانب المادى والتنظيمي من الحضارة ـ بعد استكمال الجانب المعنوى القائم على القيم العليا والمبادئ السامية ـ أمراً طبيعيا فى حياة المجتمع المسلم، وعلامةصحية كذلك .

ولئن كان هذا الأمر قد استغرق فترة من الوقت، فقد كان ذلك طبيعيا بالنسبة لخلو الحياة العربية السابقة من كثير من أشكال الحضارة المادية والتنظيمية، وعدم شعورها بالحاجة إلى تغيير واقعها الذى تعيشه بكل تفصيلاته .

فلما جاء الإسلام تغيرت النفوس من داخلها، وانبعثت الفطرة تعمل بكيانها المتكامل فى كل اتجاه. وكان الجانب المادى والتنظيمى من الجوانب التى نشطت بتأثير الميلاد الجديد، والدفعة الحيوية الهائلة التى أطلقها الإسلام فى الكيان الجديد .

وكما قلنا من قبل فى شأن الحركة العلمية نقول الآن بشأن الجانب المادى والتنظيمى من الحضارة، فلقد كان هذا فى حاجة إلى ذات العوامل التى كانت مطلوبة لنشأة الحركة العلمية، والتى كانت مفقودة أو ناقصة فى الحياة العربية قبل الإسلام.

كان فى حاجة إلى تجمع واستقرار وأمن وطمأنينة. وكان فى حاجة إلى دفعة حيوية هائلة تعوض الانصراف السابق عن هذا المجال . وقد أعطى الإسلام ذلك كله، فقامت الحضارة بجانبها المادى والتنظيمى بعد أن كانت قد قامت بقيمها ومبادئها من قبل .

وكما تتلمذ المسلمون على الإغريق لبدء الحركة العلمية ، فقد تتلمذوا على فارس وبيزنطة لبدء الجانب المادى والتنظيمى من الحضارة ريثما يكتسبون حاستهم الخاصة كما اكتسبوا حاستهم الخاصة فى المجال العلمى .

---

(١) سورة آل عمران [١٤ ـ ١٧] .

لما كثر الجند قيل لعمر رضى الله عنه : لولا دونت دواوين ! فاشتهى عمر ذلك !

كان هذا عملا تنظيمياً أحست الدولة الناشئة الحاجة إليه فأخذته من جيرانها بلا تردد (وكلمة ديوان فارسية كما هو معروف) كما أخذت غيره مما كانت محتاجة إليه .

ورويدا رويدا اكتسب المجتمع الجديد حاسته الخاصة فاستغنى عن الاقتباس، وكان له مشاركته الخاصة ـ والهائلة ـ فى هذا المجال، وفى غيره من المجالات كعمارة المدن والبيوت ومد الطرق وتنظيم « الخدمات» العامة .

وهناك شيء تجدر الإشارة إليه بصدد أخذ الأجيال الأولى من هذه الأمة عن الإغريق والرومان والفرس ما لزمهم سواء فى المجال العلمى أو المجال المادى والتنظيمى ، حتى صارت لهم حاستهم الخاصة التى استغنوا بها عن النقل، ثم أصبحوا فيما بعد أساتذة فى جميع تلك الميادين، وصارت أوربا تتلمذ عليهم فى جميع الميادين.

لقد كانوا يأخذون ما يأخذون وهم فى موقف العزة والاستعلاء :

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (١) .

﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾ (٢) .

كان ملء نفوسهم الاستعلاء بالإيمان والاعتزاز به، فلم يشعروا ـ وهم ينقلون عن الإغريق والرومان والفرس ـ أنهم أقل منهم، ولم يشعروا بالضآلة أمامهم أو بالذلة لهم لأنهم فى حاجة إليهم، بل شعروا أنهم هم الأعلون، وإن كانوا فى حاجة إلى غيرهم، لأنهم مؤمنون وغيرهم ليسوا مؤمنين. ومن أجل ذلك لم يفتنوا ولم ينبهروا بما عند الجاهليات من حولهم، فأخذوا ما أخذوا فى عزة، وأخذوا ما رأوه نافعاً لهم، ولم يأخذوا ما رأوه مخالفا لدينهم وعقيدتهم، (٣) لأن موقف الاستعلاء يتيح لهم أن يتخيروا وينتقوا ، بينما موقف الضعف والاستخذاء والانبهار لا يتيح لصاحبه الفرصة للاختيار، ولا القدرة على الاختيار، فيأخذ الغث والثمين، ويأخذ من الغث أكثر مما يأخذ من الثمين، لأنه أيسر أخذاً وأقل تكاليف!

لذلك لا نعجب إذا رأينا المسلمين الأوائل رغم تمكنهم من الإغريقية إلى الحد الذى ترجموا به كثيرا من مؤلفاتهم، لم يترجموا الأساطير الإغريقية ولم يعنوا بها أى عناية، بل رأوها شركا وخرافة لا تستحق النقل ولا تستحق الاعتبار!(٤) .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩] .   (٢) سورة المنافقون [٨] .

(٣) انخدع المسلمون فى الفلسفة فظنوها نافعة لهم فنقلوها، وكان ذلك خطأ غير مقصود كما سيجىء.

(٤) انظر فى المقابل قول طه حسين فى عصر الانبهار: من لم يقرأ الأساطير الإغريقية فلن يستطيع أن يكون أديبا.

كذلك كان شأنهم فى الجانب المادى والتنظيمى . . أخذوا ماوجدوا أنفسهم فى حاجة إليه، دون أن يأخذوا ما كان مشتبكا به عند أصحابه من شرك وخرافة ووثنية وانحراف فى الأفكار أو انحراف فى السلوك. ثم إن الذى أخذوه - وكله فى مجال الأدوات لا فى مجال الأسس والمناهج - طوعوه سريعا لمنهجهم الخاص فى الحياة، فأصبحوا أصلاء فيه لا مقلدين[1].

إن الأصالة أمر له أهميته البالغة فى وقت النقل عن الغير بصفة خاصة. فالأصالة لا تمنع الاستفادة من ثمار العلم وثمار الحضارة المادية - التى هى فى النهاية جهد بشرى مشترك تتداوله الأمم وتتداوله الأجيال - ولكنها تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل.

وأوثق أسباب الأصالة أن يكون الإنسان صاحب عقيدة، وصاحب منهج خاص فى الحياة. وقمة ذلك أن يكون الإنسان مسلما لأنه يكون عندئذ صاحب العقيدة الصحيحة ومنهج الحياة الصحيح. فإذا كان مسلما على النحو الذى كانت عليه الأجيال الأولى، فقد تحققت له الأصالة فى أعلى قممها، لا التى تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل فحسب، بل التى سرعان ما تكتسب الحاسة الخاصة، وتنتقل فى فترات وجيزة من الزمن من التتلمذ إلى التمكن إلى الأستاذية.

وذلك ما كان من شأن الأمة الإسلامية - فى أجيالها الأولى - فى جميع الميادين التى احتاجت فيها إلى الاقتباس من غيرها، كالمجال العلمى والمجال المادى والتنظيمى، فما مر ما بين تتلمذها على أوربا وأستاذيتها على أوربا إلا أجيال قليلة كأنها برهات فى عمر الزمان.

على أن الذى يهمنا أكثر فى هذا البحث ليس هو ما بلغته الحضارة الإسلامية فى جانبها المادى والتنظيمى من روعة - مع الأصالة والتمكن - إنما هو ما تفردت به بين الحضارات، مما يدخلها فى سمات الأمة المسلمة.

إن هناك ارتباطا وثيقا فى كل حضارة من حضارات التاريخ ما بين إنتاجها المادى والعمرانى والتنظيمى وبين مفهومها للحياة الإنسانية وأهدافها.

وهناك بالطبع أشياء كثيرة مشتركة بين الحضارات جميعا، سببها اشتراك بنى الإنسان جميعا فى نزعات معينة أو حاجات معينة، كالملبس والمسكن والمطعم وأدوات القتال . . إلى غير ذلك.

(١) انظر فى المقابل كيف تميع المسلمون وذابت شخصيتهم فى حركة النقل الأخيرة حين فقدوا أصالتهم.

ولكن العبرة ليست بتلك الجوانب التى تكاد تدخل فى باب الضرورات، إنما العبرة بالجانب الاختيارى من الحياة، المتأثر بمفهوم الإنسان لنفسه ولأهداف حياته، والذى يؤثر بدوره حتى فى أداء تلك الضرورات فيعطيها سمتها الخاص .

فالبيت مثلا هو البيت من حيث المبدأ . . هو « المأوى» الذى يأوى إليه الإنسان ويسكن فيه وإليه .

ولكن نظرة سريعة إلى البيت فى العمارة الإسلامية والبيت فى الجاهلية المعاصرة مثلا، تكشف عن الفارق الهائل فى المفاهيم، وما يترتب عليها من أنماط السلوك .

فالبيت فى العمارة الإسلامية « صيانة» للآداب وللأخلاق وللأعراض، بقدر ما هو فى الجاهلية المعاصرة « استعراض» و«كشف» لكل ما ينبغى أن يصان !

فى البيت الإسلامى لا يطلع الزائر على ربة البيت لأنها « حرم» مصون. من أجل ذلك يخصص له مكان فى البيت، يستقبل فيه، ويرحب به، وتقدم له « التحية» الواجبة، ويتناول الطعام إذا دعى إليه، دون أن يظهر لأهل البيت أو يظهروا له، كما يخصص للأسرة مجال حياتها الكامل بغير تضييق، دون أن تكون مكشوفة للزائر من الرجال . ومن بديهيات ذلك البيت أن تكون غرف النوم فى أعماقه لا فى ظاهره، لأنها الأماكن التى يضع فيها الناس ثيابهم، وينبغى الاستئذان قبل الدخول إليها حتى من الأطفال وملك اليمين .

﴿يأيها الذين آمنوا ليستئذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات: من قبل صلاة الفجر، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة، ومن بعد صلاة العشاء، ثلاث عورات لكم، ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن، طوافون عليكم بعضكم على بعض. كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ [(١)] .

انظر فى مقابل ذلك إلى البيت فى العمارة الجاهلية المعاصرة، حيث حجر النوم هى المكشوفة على الطريق، بحجة الحصول على أكبر قدرمن الشمس والهواء! وهى حجة مفتعلة لا تستر الرغبة الداخلية فى التعرى والانكشاف، ومن البديهى ألا يكون فيها «حرم مصون» لأنه لا صيانة فى هذه الجاهلية لشىء من المقدسات!

والمثال الذى ضربناه بالبيت هو مجرد توضيح للمعنى الذى نريد أن نشير إليه .

إن الأشكال المادية والتنظيمية من الحضارة ليست غاية فى ذاتها، إنما هى وسائل

---

(١) سورة النور [٥٨] .

للتعبير عن مفاهيم تلك الحضارة. والمفاهيم هى المعيار الحقيقى لتلك الحضارة، ويأتى بعد ذلك الإبداع الفنى فى التنفيذ. وللإبداع الفنى معاييره الخاصة، كما أن له وزنه فى قياس «رقى» الإنسان. ولكنه لا يكون أبدا هو المعيار! لأنه مجرد «براعة» فى الأداء لا تختص بقوم دون قوم، إنما هى من العطاء الربانى المبذول للناس جميعا، مؤمنهم وكافرهم:

﴿كلاً نمد، هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك، وما كان عطاء ربك محظورا﴾ (١).

فإذا رجعنا إلى «المفاهيم» فهنا نلمس تفرد الحركة الحضارية الإسلامية كما لمسنا من قبل تفرد الحركة العلمية الإسلامية.

إن «عمارة الأرض» أمر يقوم به «الإنسان» عامة، تحقيقا لمعنى من معانى الخلافة فى الأرض:

﴿ وإذا قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ (٢).

﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (٣).

ولكن عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، هى الشىء الذى تتميز به الأمة المؤمنة عن سائر الأمم الجاهلية، وإن اشتركا فى «العمارة» من حيث هى جهد مبذول، وفن، وبراعة فى الإخراج.

وحين ننظر من هذه الزاوية يطالعنا فى تلك الحضارة لأول وهلة أنها تأخذ الإنسان بمجموعه المتكامل: جسده وروحه، دنياه وآخرته، قيمه وأخلاقه، فى توازن ملحوظ.

فالمسجد فى المدينة هو مبناها الرئيسى، ومؤسستها الرئيسية كذلك. فهو مكان العبادة، ومكان الاجتماع، وفيه المدرسة التى يتعلم فيها الكبار والصغار. باختصار: تلتقى فيه الدنيا بالآخرة. يذكّر فيه الناس بالله واليوم الآخر لا لينقطعوا للآخرة وينصرفوا عن عمارة الأرض. بل لينطلقوا إلى الدنيا وقلوبهم مرتبطة بالآخرة، فيكون عملهم كله فى الحياة الدنيا «عبادة» على المعنى الواسع الشامل، ويكون المسجد هو المكان الذى يتلقى فيه الإنسان «الزاد» الذى يتزود به، ليقوم ببقية أعماله مطمئن القلب مستريح الأعصاب:

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله. ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء [٢٠].
(٢) سورة البقرة [٣٠].
(٣) سورة هود [٦١].
(٤) سورة الرعد [٢٨].

كما أنه المكان الذى يتعارف فيه أهل الحى وتقوم بينهم صلة الأخوة والمودة التى يحض عليها الإسلام .

ضع فى المقابل فى الجاهلية المعاصرة « علب الليل» والمراقص والملاهى باعتبارها فى حسهم هى مكان الترويح ، وهى الزاد الذى يتزود به الإنسان ليعود إلى عمله نشيطا فى الصباح !

وانظر الفارق بين الحضارتين !

إن الحضارة الإسلامية تمارس كل ألوان النشاط البشرى التى تؤدى إلى عمارة الأرض ، من تجارة وصناعة وعلم . . إلخ ، وتسعى إلى الإنتاج الوفير فى كل أبواب الإنتاج ، ولكنها فى سعيها كله تلتزم بالحلال والحرام ، وبالقيم الأخلاقية ، وبما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر من تشكيل للسلوك :

﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾ (١) .

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ (٢) .

وكان المسلمون فى أجيالهم الأولى أمة نشطة فى كل اتجاه .

كانت تجارة العالم فى أيديهم ، من الصين إلى أوربا ، مع ما يستتبع ذلك من معرفة بطرق الملاحة البحرية وطرق اليابسة فى آسيا وأفريقيا إلى مداخل أوربا .

وكانت الصناعة ـ المتاحة للناس فى ذلك الوقت ـ مزدهرة فى مراكز العالم الإسلامى المختلفة .

وكانت دور العلم عامرة بالأساتذة والطلاب فى كل فرع من فروع المعرفة من علوم الشريعة إلى الطب إلى الفلك إلى الفيزياء إلى الكيمياء إلى الرياضيات . .

وكانت هذه كلها مظاهر « حضارية » تقوم بها الأمة المسلمة .

ولكن هذا كله يمكن أن تقوم به أى أمة ممكّنة فى الأرض بوسيلة من وسائل التمكين ، ويصير التفاضل بين أمة وأمة تفاضلا فى « المقدار» أكثر مما هو فى القيمة الإنسانية .

ولكن الذى تفردت به الحضارة الإسلامية ـ مع قيامها بالجانب الذى يمكن أن تقوم به كل أمة ممكّنة فى الأرض ـ أنها تقوم به بمقتضى المنهج الربانى .

(١) سورة الملك [١٥] .　　(٢) سورة القصص [٧٧] .

تقوم بنشاطها التجارى الواسع الذى يمتد من المحيط إلى المحيط ، ولكن ذلك لا يؤدى بها إلى استعمار الأمم الأخرى لنهب خيراتها للحصول على أكبر قدر من الربح ، كما أدى بالجاهلية المعاصرة تحت أى ذريعة من الذرائع . بل يذهب التجار فى كل مكان يحملون معهم سمت الإسلام ونظافة الإسلام وأخلاق الإسلام ، فينتشر الإسلام معهم كما حدث فى أندونيسيا وكثير من بلدان أفريقيا .

تقوم بنشاطها الصناعى ، فتفرغ طاقتها فيما ينفع الناس فى الأرض ، وما يجعل الحياة ميسرة وجميلة كذلك فى الحدود المباحة ، والحدود المباحة تسمح بقدر من الزينة وقدر من الجمال :

﴿قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق،قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (١) .

﴿والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون﴾ (٢) .

ولكنها لا تجنح إلى شغل الناس بالسفاسف ، واستنفاد أموالهم فيما لا طائل تحته ، من أجل أن يربح أصحاب الصناعات الربح الحرام ، كما تجنح الرأسمالية فى الجاهلية المعاصرة ، ولا تجنح إلى تلهية الناس بالحياة الدنيا حتى ينسوا الآخرة ، وينسوا القيم العليا التى ينبغى لهم أن يحققوها فى الأرض ، من نشر العقيدة الصحيحة ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإقامة العدل الربانى فى واقع الأرض ، والجهاد فى سبيل ذلك كله بما يقتضيه الجهاد(٣) .

تقوم بنشاطها العلمى ، دون أن يؤدى العلم - كما سبق أن بينا - إلى فساد العقيدة أو فساد الأخلاق أو نشر الشر فى الأرض .

تقوم بنشاطها الفكرى والفنى ، ملتزمة فى ذلك كله بالمنهج الربانى ، فلا يؤدى الفكر إلى الإلحاد ، ولا يؤدى الفن إلى التبذل والفساد الخلقى وإتلاف الفطرة ، كما هو حادث فى الجاهلية المعاصرة .

وإلى جانب ذلك تقوم مؤسسات ونظم خاصة بالأمة المسلمة لم نجد لها مثيلا عند الأمم الأخرى ، كبيت المال ، ونظام الحسبة ، وجماعات الأمر بالمعروف والنهى عن

---

(١) سورة الأعراف [٣٢] .   (٢) سورة النحل [٥-٦] .

(٣) حين أدت الحضارة المادية إلى شغل المسلمين عن هذه المعانى كلها انهارت الدولة الإسلامية وجاء التتار والصليبيون من كل حدب كما سيأتى بيانه فى خط الانحراف .

المنكر، والأوقاف الخيرية التي يوقفها أصحابها على أعمال البر، وفى مقدمتها نشر العلم، [1] وتأمين الصحة، [2] ورعاية المعوزين والعاجزين.

وفى كلمة مختصرة: هى حضارة لا تهدف إلى مجرد عمارة الأرض، إنما مزيتها الكبرى هى عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى.

* * *

فى الصفحات السابقة تكلمنا عن أبرز سمات الأمة المسلمة، مع تأكيد الدرجة العليا التى حقق بها الجيل المتفرد هذه السمات. وقد أكدنا مع كل سمة أنها - من حيث هى - ليست خصيصة تفرد بها ذلك الجيل، إنما هى سمة دائمة - أو ينبغى أن تكون دائمة - فى حياة هذه الأمة. وأن الذى تفرد به ذلك الجيل لم يكن وجود هذه السمات فى حياته، إنما كان الدرجة الفذة التى حقق بها هذه السمات، والتى حققت مثالية الإسلام وواقعيته فى آن.

ولأمر ما - أو أمور كثيرة فى الواقع - لم تحافظ الأمة على هذا المستوى الفذ الذى مارسته طيلة حياة الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده، إنما هبطت عن ذلك المستوى الرفيع فى كثير من الاتجاهات.

ولكن هذا ليس معناه أن الإسلام قد انتهى، كما يخيل لبعض الطيبين الذين يهولهم هذا الهبوط بعد أن يعايشوا فترة الذروة بكل أمجادها وكل عظماتها، وكما يخيِّل الخبثاء من أعداء هذا الدين للناس، لغاية خبيثة فى نفوسهم، هى تيئيس الناس من عودة هذا الدين ليحكم الحياة من جديد. كأنما يقولون: أين هو الإسلام الذى تتطلعون إلى عودته من جديد، وهو قد انتهى بعد مبدئه بجيل أو جيلين، وانتهى إلى غير رجعة!

على أن هذا الهبوط عن ذلك المستوى المثالى لم يكن ليكرثنا لو بقيت الأمة فى حدود المستوى العادى للإسلام. فإن تلك المثالية الفذة لا يمكن أن تفرض فرضا على جميع الأجيال، والله سبحانه وتعالى لم يفرضها على أحد، إنما كانت تطوعا نبيلا من أولئك الأفذاذ الذين رباهم رسول الله ﷺ على عينه.

ولو بقيت الأمة على الحد الأدنى الذى فرضه الله، لبقى الخير فى الأرض، ولكان التاريخ قد سار فى غير خطه الذى سار فيه، لا بالنسبة للأمة المسلمة فحسب، بل لكل

(١) فى كل المساجد الكبرى فى العالم الإسلامى وجدت مدارس لنشر العلم، رصدت لها الأوقاف للإنفاق على المعلمين والمتعلمين، بحيث يتفرغ الجميع للعلم غير منشغلين بأمور المعاش.
(٢) راجع تاريخ البيمارستانات التى كانت تقام لعلاج المرضى بالمجان.

البشرية. فقد شاء الله منذ أخرج هذه الأمة إلى الوجود أن يرتبط بها مصير البشرية كله، فإن كانت قائمة برسالتها على النحو المطلوب تحقق الخير لها وللبشرية من ورائها، وإن تقاعست عن رسالتها برزت الجاهلية فى الأرض وسيطرت عليها.

والذى سجله التاريخ على أى حال، أن هذه الأمة لم تهبط فقط عن المستوى المثالى الذى حققته فى زمن الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، إنما هبطت - فى كثير من المجالات - حتى عن الحد الأدنى المفروض، فأصابها - وأصاب البشرية من ورائها - كثير من الشر..

وفى الفصل التالى نتحدث عن خط الانحراف فى تاريخ هذه الأمة الطويل..

خطّ الانحـــراف

من القمة الشامخة إلى الحضيض الذى تعانيه الأمة اليوم . . مسافة هائلة تبعث على الذهول .

كيف تأتىّ للأمة التى ارتفعت إلى تلك القمم السامقة، التى لم تسبقها إليها أمة فى التاريخ، ولا أدركتها بعدها أمة فى التاريخ، أن تتدنى إلى هذا الدرك من الضياع والذل والهوان والهبوط المسف الذى وصلت إليه اليوم، والذى لا تكاد تدانيه أمة فى الواقع المعاصر ؟!

هل هو أمر طبيعى لهذه الأمة ؟!

إن هناك أمما « تاريخية» وصلت ـ بمقياس الأرض ـ إلى أمجاد ضخمة، وتمكنت فى الأرض قرونا عدة ، وسيطرت على مساحات شاسعة من الأرض، وملكت من وسائل القوة الأرضية ما يفوق الحصر . . ثم اندثرت تماما كأن لم تكن قط ، كما حدث للإمبراطورية الرومانية العتيدة أكبر إمبراطوريات التاريخ، والإمبراطورية الفارسية التى كانت تنازعها السيادة فى الأرض . . وجرى ذلك كله ـ سواء فى التمكين والقوة أو الدمار والاندثار ـ حسب سنن ربانية لا تتبدل، وحسب مشيئة ربانية هى التى أجرت هذه السنن فى الحياة البشرية :

﴿ أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها؟ والله يحكم لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب﴾ (١) .

﴿ فهل ينظرون إلا سنة الأولين؟ فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا﴾ (٢) .

---

(١) سورة الرعد [٤١] . (٢) سورة فاطر [٤٣] .

ولكنْ . . أمة العقيدة . . هل تجرى عليها ذات السنن التى تجرى على الجاهليات؟!

* * *

يرى ابن خلدون ـ من دراسته للتاريخ ـ أن هناك « سنة» تدول الدول بمقتضاها . . هى سنة «الشيخوخة» . فالدول فى رأيه تولد ضعيفة ثم تقوى ويشتد عودها وتعظم سطوتها، ثم تهرم كما يهرم الفرد، فتذبل ملكاتها وتتلاشى طاقاتها، فتصير إلى الزوال . . ويردد المؤرخ الإنجليزى المعاصر « توينبى» ذات الفكرة ناقلا عن ابن خلدون .

وقد يكون ما يقوله ابن خلدون ويردده من بعده توينبى صحيحا بالنسبة للجاهليات . . فالجاهليات تقوم على « شعوب » بعينها . . فإذا كان من سنة الله أن تهرم الشعوب كما يهرم الأفراد،[1] فمن الممكن أن تدول الدول التى تنشئها تلك الشعوب بداء الشيخوخة بعد فترة معينة من عمرها، مهما يكن لها ـ فى فترة شبابها وفتوتها ـ من عوامل القوة التى تبدو لعين الناظر غير قابلة للفناء .

ولكن أمة العقيدة لا تقوم على « شعب » بعينه، إنما تقوم على « العقيدة» ، وهى عنصر له صفة الدوام . وهذا فارق رئيسى بينها وبين الأمم الأخرى التى تنشأ فى الجاهليات . فارق يجعل هذه الأمة خاضعة لسنة أخرى غير السنن التى تجرى على الأمم الجاهلية ، ويجعل مصيرها غير هؤلاء .

فالواقع التاريخى لأمة العقيدة ـ أى الأمة الإسلامية ـ يختلف تمامًا عن « السنة » التى افترض ابن خلدون أنها تجرى على الأمم فتزيلها من الوجود . فتاريخها ـ وإن كان يمثل حتى الأن ميلا مستمرا إلى الهبوط ـ إلا أنه خط متذبذب ، يحمل صحوات كثيرة صاعدة ، كتلك التى شهدتها الأمة أيام صلاح الدين قاهر الصليبيين، وأيام قطز قاهر التتار، وكحركة المد الضخمة التى قادها محمد الفاتح إلى داخل أوربا .

ومن جهة أخرى فإن هذه الأمة ـ على الرغم من كل ما أصابها من عوامل المرض والانحلال، والكوارث الداخلية والخارجية ـ لم تَزُلْ من الوجود بعد أربعة عشر قرنا من مولدها، وهى فترة لم تعشها أمة أخرى من أمم التاريخ . وليس هذا فقط، بل إنها تشهد اليوم ما يشبه أن يكون مولدا جديدا تعانى مخاضه ـ بكل آلامه ـ فى لحظتها الراهنة .

ومجرد بقائها إلى هذه اللحظة على الرغم مما أصابها، هو ذاته دليل على أنها لا

(١) لا نجزم بأن هذه سنة . . وإن كان هناك من الظواهر التاريخية ما يساعد على هذا الافتراض . وفى هذه الحالة قد يكون الترف الذى يصيب الأمم القويه هو « الداء» الذى يؤدى إلى الفناء .

تخضع لتلك السنة التى افترضها ابن خلدون . . سنة الفناء بسبب الشيخوخة . فإذا أضفنا إلى ذلك تلك الحقيقة الأخرى، وهى قيام حركات البعث الإسلامى فى كل مكان من العالم الإسلامى . . إلى جانب حقيقة ثالثة، هى بدء انتشار الإسلام فى بقاع من الأرض لم يكن قد دخلها من قبل، كاليابان وكوريا وفنلندا، ودخول أوربيين وأمريكيين فى هذا الدين بالمئات والألوف . . لم يعد هناك مجال على الإطلاق لتطبيق سنة الفناء بالشيخوخة - بفرض صحتها - على الأمة التى قامت على العقيدة، لا على شعب بعينه من الشعوب .

* * *

ومع ذلك كله تظل تلك الحقيقة المذهلة تدير الرءوس . . حقيقة هبوط هذه الأمة من الذروة العليا إلى الحضيض السحيق الذى تعيشه اليوم .

نعم، إنها لم تَفْنَ كما فنيت أمم أخرى ودول ونظم وإمبراطوريات ذات سلطان وهيلمان . ولكن يبقى السؤال : كيف هبطت؟ لماذا هبطت؟ لماذا لم تحافظ على أفقها السامى، بل لم تحافظ حتى على المستوى الأدنى الذى لا ينبغى لها أن تهبط دونه، والذى يحقق لها وجودا راسخا وممكّناً لو حافظت عليه ؟!

ولقد يخطر على البال سؤال : أين الإسلام إذن؟ ما دوره فى حياة هذه الأمة ؟ لماذا لم يحفظها من الهبوط؟ ما الفرق بين أمة العقيدة والأمم الجاهلية ، إذا كانت تلك الأمة يمكن أن تتفلت وتتفلت حتى تصبح كالأمم الجاهلية، بل أسوأ منها فى بعض المجالات؟

ما قيمة الدين إذن ؟ وما دوره فى واقع الحياة؟!

فأما هذا السؤال فله إجابته . .

إن الدين ليس « جهازا» يعمل من تلقاء نفسه، بصرف النظر عن نفوس الناس الذين يحملونه . .

ولو شاء الله لقهر الناس على الهدى فلا يستطيعون المخالفة ولا الهبوط ولا الانحراف، كما يجرى قدره فى السموات والأرض، فيمضى كل شىء فى فلكه المقدور له لا يخرج عنه قيد شعرة . . حتى يغير الله نظام الكون كله فى الموعد المقدور . ولكن الله كرّم الإنسان فلم يجعله « شيئاً» يقهر على غير إرادة منه، بل جعله كائنا فعالا مريدا قادرا على اختيار أحد الطريقين : إما طريق الهدى، وإما طريق الضلال . وفى مقابل ذلك صار يحمل تبعة عمله ، وصار ما يحدث له - فى الدنيا والآخرة سواء - يجرى نتيجة لأعماله ، حسب سنن مقررة كشفها الله له لكى يهتدى على ضوئها، ويضبط مساره بمقتضاها :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (١) .

﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(٢) .

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾ .

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض..﴾(٤) .

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ (٥) إلخ .

وهكذا يعمل الدين ـ ككل شيء فى حياة البشر ـ من خلال النفوس التى تحمله ، بقدر إقبالها عليه أو إدبارها عنه . بقدر التزامها بمقتضياته أو عدم التزامها بها . ولكن يبقى الفرق بينه وبين أى «منهج» آخر للحياة : أنه هو فى ذاته هو المنهج الصحيح ، وأن الثمرة التى تنشأ عنه تتفوق على أى ثمرة أخرى تنشأ عن أى منهج سواه . فيظل هو المنهج الذى ينبغى أن يتبع ، وتظل المناهج الأخرى هى المناهج التى لاينبغى أن تتبع ، لأنها أردأ ثمرة وأسوأ مآلا فى الدنيا والآخرة. كما يظل الفرق من ناحية أخرى أن النفوس التى تتشبع به ـ سواء كانت نفوس أفراد أو نفوس أمة ـ مظنة أن تكون أبطأ فسادا ـ حين تصيبها عوامل الفساد ـ من النفوس التى لا تقوم أصلا على العقيدة، لأنها أمتن منها بنيانا وأكثر منها ترابطا . ويظل الفرق من ناحية ثالثة أنه ـ حين تفسد النفوس ـ يظل الدين هو أنجع العلاج ، لأنه هو العلاج الصحيح . . وفى جميع الأحوال يظل المعول عليه هو «النفوس» البشرية : هل تقبل أم تدبر؟ هل تعمل بمقتضى التكاليف أم تتخلى عن التكاليف .

وإنه لما تسأل عنه هذه الأمة يوم القيامة : كيف ضيعت دينها ، وهى التى أخرجها الله لتكون شاهدة لهذا الدين ، وشاهدة به على كل البشرية يوم القيامة؟ وكيف تخلت عن التكاليف التى فرضها الله عليها لتحقيق المنهج الربانى فى واقع الحياة :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (٦) .

---

(١) سورة الرعد [١١]
(٢) سورة الأنفال [٥٣] .
(٣) سورة الروم [٤١] .
(٤) سورة الأعراف [٩٦] .
(٥) سورة الأنعام [٤٤] .
(٦) سورة البقرة [١٤٣] .

﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾ (١) .

* * *

بدأ الانحراف مبكراً جداً فى حياة هذه الأمة . . منذ العهد الأموى .

وليس هنا مجال التأريخ لهذه الأمة ، ولا مجال التأريخ لخط الانحراف . إنما نكتفى برسم الخطوط العريضة التى تبين لنا معالم الطريق . وكما أوجزنا الحديث من قبل عن الجيل المتفرد ، فاكتفينا بتسجيل أبرز السمات ، بالقدر الذى يعطينا فكرة مجملة عن الصورة الصحيحة لتطبيق هذا الدين ، فكذلك نوجز الحديث عن خط الانحراف ، بالقدر الذى يعيننا على معرفة الأسباب التى أدت بنا إلى الواقع الذى نعيشه اليوم . . ذلك أن هدفنا الرئيسى ليس الدراسة المفصلة للتاريخ الإسلامى ، إنما هدفنا أن نرسم صورة واضحة المعالم لواقعنا المعاصر ، بأبعاده الرئيسية ، وانحرافاته الرئيسية ، لنحدد على ضوئها طريق الخلاص .

* * *

بدأ الانحراف - كما قلنا - منذ العهد الأموى . ولكنه كان - فى معظمه - هبوطا عن الذروة العليا أكثر مما كان انحرافا عن الجادة . وإن كان الذى يعيش فى جو الذروة ، ويستنشق أريجه العذب ، يحس فى صدره ضيقا وحرجا من ذلك الهبوط .

كانت هناك مفارقة واضحة ولا شك عن خط الخلافة الراشدة ، واتجاهٌ بالحياة فى مجموعها - والجانب السياسى منها خاصة - إلى وجهة جديدة غير ما اعتاده الناس فى عهد النبوة وخلافة الراشدين . ولكن الأمر فى النهاية كان فى داخل الدائرة ، مع شئ من الشذوذ عنها فى هذا الموضع أو ذاك .

أول تغير فاجأ الناس هو الانتقال من الخلافة إلى الملك .

وحقيقة إنه لا يوجد نص يلزم الناس بصورة معينة من الحكم - خلافةً أو ملكاً (٢) - إنما يلتزم الحاكم - خليفةً أو ملكاً أو سلطاناً - بتنفيذ شريعة الله ، ويصبح من ثم حاكما

---

(١) سورة الزخرف [٤٤] .

(٢) عند هذه النقطة يزيغ كثير من الزائغين فيقولون إنه ليس فى الإسلام نظام للحكم! ويبررون بذلك تملتهم من إقامة « الحكم الإسلامى » الذى أمر به الله ، والذى يعرفون جيدا فى دخيلة أنفسهم أنه غير النظم المستوردة التى يسعون إلى تطبيقها! ثم يلتبس الأمر على كثير من المخدوعين ، بسبب الغزو الفكرى من ناحية ، والبعد الطويل عن النظام الذى تحكمه شربعة الإسلام من جهة أخرى ، فيصدقون هذه الفرية عن دين الله ، ويتصورونه عقيدة وشعائر تعبدية فحسب ، أو مجموعة مواعظ خلقية لتهذيب الضمير ، لا علاقة لها بالهيمنة على واقع الحياة السياسى والاقتصادى والاجتماعى . . تماما كما كان الدين الكنسى الأوروبى=

شرعيا له على الناس حق السمع والطاعة كما بينت آيات الله ، وأحاديث رسوله ﷺ ، وكما بيّن الخليفة الأول رضى الله عنه : « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم»

ولكن النظام الذى اهتدى إليه المسلمون فى عهد الذروة كان بلا شك أعدل وأقوم ، لأنه لا يحصر المسلمين فى بيت معين ، إنما يتيح لهم فرصة أوسع لاختيار من يرونه أصلح الناس لإمامتهم .

ولكن الناس على أى حال قد ارتضوا هذا التغيير ، وإن كان قد فاجأهم أول الأمر ، على أساس أن الاستقرار الذى يتيحه النظام الجديد أقرب إلى تحقيق المصلحة من النظام الذى جرّ إلى الخلاف والفرقة وإن كان فى ذاته أعدل وأقوم .

وليس هنا مجال وقفة طويلة أمام هذه النقطة ، لأن تصرف الأمويين كما قلنا لم يكن يخالف نصا صريحا من نصوص الإسلام . ولكنا نقول إن هناك منعطفا تاريخيا هنا كان له سببه فى حياة المجتمع الإسلامى فى ذلك الحين . فقد انتشر الإسلام فى سنوات قليلة فى رقعة واسعة من الأرض ، ولم تكن تلك الجموع الغفيرة التى دخلت فى دين الله أفواجا قد أتيح لها من التربية الإسلامية ما أتيح للجيل الذى رباه رسول الله ﷺ على عينه ، ومن ثم لم يكن يتوقع أن تسير الحياة على ذات المستوى الرفيع الذى سارت عليه فى العهد الأول ، فى أى مجال من مجالاته ، وفى السياسة بصفة خاصة ، لأن انتظام السياسة على المستوى الأعلى ليس مسألة الحاكم وحده إنما هو

= المحرف! والذى ينبغى أن نجعل بالنا إليه أن شكل الحكم فى النظم البشرية له أهمية بالغة لأن « مصدر السلطة» يختلف فى كل شكل منها عن الآخر ، ويختلف بالتالى أسلوب التشريع ووجهته . فتختلف الملكية المستبدة عن الملكية المقيدة ، وتختلف الجمهورية عن الملكية ، والدكتاتورية عن الديمقراطية . . وهكذا . أما فى الإسلام فمصدر السلطة واحد لا يتغير مهما تنوعت صورة الحكم . ذلك أن الحاكمية فى الإسلام ليست للبشر ، إنما هى لله . وحيث لايوجد نص فالفقهاء يجتهدون ، ولكن اجتهادهم مقيد فى النهاية بمقاصد الشريعة ، وبنصوصها العامة ، ومن ثم فالتشريع محكوم فى النهاية بكتاب الله وسنة رسوله : ﴿ فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ [سورة النساء : ٥٩] .
وصحيح أن الأمة الإسلامية - فى وضعها الصحيح - هى التى تختار ولى الأمر ببيعة حرة . ولكن هذا الاختيار الحر - وحده - لا يعطى الحاكم الشرعية . إنما الذى يعطيه الشرعية هو الحكم بما أنزل الله . فإن توفر له الاختيار الحر من جانب الأمة ولم يتحقق منه الحكم بما أنزل الله لم يكن حكمه حكما إسلامياً . ومن ثم فإنه إذا ركز علم السياسة الغربى تركيزا كبيرا على شكل الحكم ، للاختلاف البيّن الذى يترتب عليه فى تحديد « مصدر السلطة» فإن علم السياسة الإسلامى يركز بشدة على « الحكم بما أنزل الله» لأنه هو الذى يعطى الشرعية للسلطة . وكل حكومة تحكم بما أنزل الله فهى حكومة شرعية بصرف النظر عن «الشكل» الذى تقوم عليه .
وإن كانت التجربة التاريخية تقرر أن الخلافة الراشدة هى النظام الأمثل ، لأنها هى الأكمل تطبيقا لشريعة الله .

مسألة المجتمع كله، ومدى رقابته على أعمال الحاكم، ورده إياه إلى الحق الربانى، وعدم الرضا منه بمخالفة ما أنزل الله . وذلك يحتاج إلى مثل تلك التربية العالية التى كان عليها الجيل الأول رضوان الله عليه، ويحتاج كذلك إلى ترسيخ القواعد السياسية حتى تصبح عرفا ملزما يهتز ضمير الناس إذا خولف . وقد كان امتداد الخلافة الراشدة فترة أطول كفيلا بترسيخ تلك القواعد وترسية ذلك العرف، ولكن قدّر الله أن تعاجل الأمة بفتنة مقتل عثمان رضى الله عنه، بتدبير الأعداء الكائدين من الداخل من اليهود وغيرهم، وما تلاها من فتنة الخلاف الذى أدّى إلى القتال بين على ومعاوية، وامتناع كثير من الصحابة رضى الله عنهم من الخوض فى الفتنة خوفا من توسيع شقة الخلاف، ثم رضاهم - بعد مقتل على كرم الله وجهه - بالتغيير الذى أحدثه الأمويون ، رجاء استقرار حال المسلمين ودرء الفتنة عن حياتهم، ما دام لا يخالف نصا صريحا من نصوص الإسلام .

وأياً كان الأمر فقد انجلت الغاشية عن امرين اثنين، أثّرا فى حياة الأمة تأثيرا بالغا على امتداد الزمن، وإن كانا فى أول العهد ظهرا طبيعيين جدا بإزاء الظروف السياسية القائمة يومئذ :

الأمر الأول: هو استقرار الملك الوراثى بدلا من الخلافة .

والثانى : هو التخلى التدريجى من مجموع الأمة عن مراقبة أعمال الحكام، وانصرافها التدريجى إلى أمورها الخاصة !

فأما الأمر الأول فليست فيه - كما قلنا - مخالفة لنص صريح من نصوص الإسلام . ولم يكن ليحدث ضررا فى الحياة السياسية الإسلامية، ولا فى الحياة العامة لو حافظت الأمة على مراقبتها لأعمال الحاكم، وقيامها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كما أمرها الله ورسوله، فإن العبرة - كما بينا - بتنفيذ شريعة الله ، لا بشكل الحكم الذى ينفذ شريعة الله :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ..﴾ (١) .

« والذى نفسى بيده لتأطرنهم على الحق أطرا ولتقصرنهم عليه قصرا» (٢) .

ولكن الخطر كل الخطر جاء من اقتران الأمرين معاً فى حياة المسلمين منذ العهد

---

(١) سورة التوبة [٧١] .   (٢) رواه أبو داود الترمذى .

الأموى. الملك العضوض كما سماه الرسول ﷺ من جهة[1]، وقعود الأمة عن مراقبة حكامها من جهة أخرى.

وأما قعود الأمة عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى المجال السياسى، فربما كان بعضه اقتداء خاطئا بموقف الصحابة رضوان الله عليهم من الفتنة، وهو موقف طبيعى بالنسبة، لهم، ولكنه ليس قدوة يقتدى به فى أمور مخالفة تماما للأمر الذى واجههم ووقفوا منه هذا الموقف. فقد كان سبب موقفهم هو الخوف من توسيع شقة الخلاف، أى الخوف من إحداث مفسدة. أما فى موقف الأمة من حكامها الذين استتب لهم الأمر، فالمفسدة كانت هى السكوت عن نصحهم ومراقبتهم ومحاولة ردهم إلى الحق!

ولكن السبب الأكبر فى هذا القعود، والذى تقع المسئولية فيه على الأمويين أنفسهم، هو عنف معاملة الأمويين لخصومهم السياسيين، مما أرهب الناس من معارضة أى أمر يهمون به، وقضى على القواعد السياسية التى كانت جارية فى عهد الخلافة الراشدة قبل أن تتأصل وتترسخ، وتصبح عرفا ملزما للحاكم والمحكوم على السواء.

وأياً كانت المعاذير التى احتج بها الأمويون لتبرير ذلك العنف الذى سلكوا طريقه، فقد كان هذا من البدايات الخطيرة لخط الانحراف الذى زاد اتساعا على الزمن، وزاد بعداً عن الطريق السوى الذى سلكه الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم.

أمر ثالث بدأ فيه الأمويون انحرافا آخر فى خط سير الأمة المسلمة، هو البحبحة فى أموال بيت المال على غير النسق الذى سار عليه الخلفاء الراشدون.

لما تولى عمر رضى الله عنه فرض له المسلمون دراهم من بيت المال يقوت بها عياله. فلما استطاعت زوجته رضى الله عنها أن توفر له من القوت اليومى الضئيل ما تصنع له به فطيرة فى نهاية الأسبوع، قال لها: ما دمت استطعت توفيرها فهى زيادة! رديها إلى بيت المال!

وقد كان هذا ناشئا عن حساسية فى ضمير عمر رضى الله عنه رباها فيه الإسلام، خشية أن يكون قد مس درهما واحدا من أموال المسلمين بغير حقه، وكانت هذه الحساسية نموذجا من الأعاجيب التى صنعها الإسلام فى ضمير ذلك الجيل الفريد. وكانت تطوعا نبيلا لم يفرضه الله على الناس فرضا، إنما حببهم فى الصعود فصعدوا إلى أعلى الآفاق.

---

(١) قال ﷺ: «الخلافة بعدى ثلاثون عاما ثم يأتى الملك العضوض» أورده الهيثمى فى مجموع الزوائد (٧/ ٢٦٩) وقال. رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح.

والهبوط عن هذا المستوى الشاهق الذى لا يقدر عليه إلا الصفوة، إلى المستوى العادى الذى فرضه الله فرضا على عباده أمر لا يستغرب، ولا يستنكر، بل يُحمد الناس إذا التزموه ولم يهبطوا عنه ، لأنه هو الحد الذى علم الله أنه تستقيم به الحياة البشرية فى عمومها، ومن شاء بعد ذلك أن يرتفع فله عند الله أجر المحسنين.

ولكن الذى حدث على يد الأمويين لم يكن مجرد الهبوط عن المستوى الشاهق إلى المستوى العادى، بل وقعت منهم مخالفات لما أمر الله به فى توزيع الصدقات:

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله. والله عليم حكيم﴾ (1) .

لقد تبحبح الأمويون فأخرجوا من بيت المال عطايا وهدايا يؤلفون بها القلوب لهم ولحكمهم ولدولتهم. .

وأقصى ما يمكن أن يقال فى محاولة تبرير هذا الأمر أنهم تأولوا فأخطأوا، فاعتبروا تأليف القلوب لهم داخلا فى مصارف بيت المال لأنهم هم دولة الإسلام، وتثبيتهم تثبيت للإسلام فى النهاية.

وهو تأول بعيد حتى لو صح أنهم قصدوه على هذا النحو، لأن المؤلفة قلوبهم يُعْطَوْن ليدخلوا فى دين الله لا ليدخلوا فى الولاء لحاكم من الحكام.

ولو جاز للأمويين أن يتألفوا القلوب لدولتهم ولحكمهم، ويرضوا نفوس المعارضين لهم، فمن أموالهم الخاصة، وكان لديهم مال وفير يملكون به شراء من أرادوا شراءه من المعارضين. أما أن يتحببوا إلى الناس على حساب أصحاب الحقوق، فأمر لا يجوز فى عرف الإسلام. فضلا عن كونه سنة سيئة اتبعها من بعدهم، وزاد حجمها وأهداف استخدامها سوءاً مع مرور الأيام .

وأمر رابع، ربما لم يكن فى نظر الأمويين انحرافا، وربما لم يثر اعتراض أحد من المسلمين يومئذ، هو الحرص على «عروبة» الدولة إزاء الفرس بصفة خاصة، بمعنى إبعاد الفرس ـ المسلمين ـ عن تقلد مناصب الدولة، والضغط المستمر عليهم لإشعارهم أنهم دون العرب.

وربما رأى الأمويون المبرر لهذا التصرف واضحا أمام أعينهم. فقد كان الفرس من قبل ينظرون إلى العرب نظرة احتقار وازدراء، مبعثها أنهم دولة ذات عراقة تاريخية وهيلمان، بينما العرب هم أولئك الحفاة الجفاة المتخلفون بكل مقياس من مقاييس «الحضارة» المادية التى وصل فيها الفرس إلى درجة الإفراط.

---

(1) سورة التوبة [٦٠] .

فلما جاء الإسلام تغيرت المعايير والمقاييس كلها، وذهب ربعى بن عامر مستعليا بالإيمان، يدوس أبسطتهم بأقدام حماره، وينظر إليهم نظرة المؤمن إلى الجاهلية، ويدعوهم إلى الدخول فى الإسلام دعوة المستيقن أنه هو الأعلى وهم الأدنون.

ثم دار القتال العنيف الرهيب بين أولئك الحفاة الجفاة الذين تغيروا بين عشية وضحاها فصاروا « خير أمة أخرجت للناس» وبين الفرس أصحاب القدرة الحربية الهائلة والجيوش الضخمة والتقاليد العريقة والسلطان التليد. . فلم تثبت هذه كلها أمام قوة الحق وقوة الإيمان التى انطلقت بها العصبة المؤمنة، تدك حصون الجاهلية دكا وتسويها بتراب الأرض، وتشيد فى مكانها صرحا من نوع آخر، أساسه لا إله إلا الله، محمد رسول الله .

ودخل الفرس فى دين الله بعد هزيمتهم الحربية التى ما كانوا يتوقعونها على يد العرب بالذات، وبعد زوال الملك الممتد الجذور فى التاريخ، الذى لم تغنه جذوره العميقة فى معركة الحق، فانهار كأنما فى لحظات. .

ولكن الجيل الأول ولا شك كان ينطوى على ضغينة هائلة للعرب الفاتحين، حتى وإن كان قد دخل فى الإسلام. فلو أن الفرس غلبوا أمام الروم، فهما ندان يتصارعان، ولا بأس على أحدهما أن يتلقى من الآخر لطمة قوية، فإنه يمنى نفسه أنه سيعود فيتغلب عليه فى الجولة القادمة! أما العرب . . ! وأما هذا الاكتساح الذى أزال كل شىء كأن لم يكن له وجود من قبل! فهذه لم يكن هينا على الفرس أن يبتلعوها فى الجيل الأول، الذى شهد أمجاد العز وذل الانكسار. .

ومن هنا قال الأمويون لأنفسهم حين تولوا الحكم إنه لابد من كبت هؤلاء حتى لا يرفعوا رءوسهم من جديد! ومن هنا كان حرصهم على « عروبة الدولة» بمعنى عدم السماح للفرس أن يتسللوا إليها من أى سبيل.

وما نستطيع أن نحكم الآن وقد انطوت تلك الصفحات العديدة من التاريخ، هل كان دافع الأمويين خالصا لحفظ دين الله من أن يتسلل الحاقدون إليه فيفسدوه، أم كان هذا الأمر فى أنفسهم مختلطا « بالعروبة» . . لا بمعناها الشائه الذى وجد فى العصر الحديث بطبيعة الحال فى صورة « القومية العربية» الكافرة المنسلخة من الدين، لكن بمعنى أن العرب هم حملة هذه الرسالة، وهم الذين ينبغى أن تكون لهم الهيمنة على شئونها لتُحْفَظَ على صورتها الحقة بغير تحريف.

وأياً ما كان الأمر فإن الفرس على يد الأمويين لم يحسوا بالتطبيق الحق لقوله تعالى:

﴿ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين﴾ (١) .

ولئن كان الجيل الأول كان ينطوى على الحقد والضغينة ، فإنى أحسب أن الأجيال التالية لو وجدت الروح الإسلامية الحقة ، روح الأخوة المبذولة من المؤمنين لإخوانهم ، لزال ما كان فى قلوب آبائهم من ضغن ، ولأخلصوا دينهم لله ، ولم يرثوا هذا الضغن ويحافظوا عليه ، ويسعوا إلى الإفساد من الداخل ، كما فعل الذين نطلق عليهم اسم «الشعوبيين» الذين قاموا « بالانقلاب» العباسى ضد الدولة الأموية ، وهو انقلاب فارسى فى الحقيقة وإن كان الحكم قد ظل للعرب فترة من الوقت - فى الظاهر على الأقل - ثم نشروا سمومهم الشعوبية من داخل الدولة كما فعل ابن المقفع ، أو نشروا الفسق والفجور فى المجتمع كما فعل بشار وأبو نواس . .

لقد كانت « الشعوبية» الفارسية هى رد الفعل للكبت الذى زاوله الأمويون على الفرس ، حتى وإن يكن بحسن نية ، وحرصا خالصا على الإسلام !

* * *

ثم جاء العباسيون . .

لم يجيئوا بطبيعة الحال ليعيدوا عهد الخلفاء الراشدين !

إنما جاءوا ليركبوا الخط المنحرف الذى بدأه الأمويون ثم يزيدوا فى الانحراف ، كما هى السنة الربانية حين تقعد الأمة فى مجموعها عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأطر الحكام على الحق أطرا وأصرهم عليه أصرا . .

لقد كان حجم الانحراف على عهد الأمويين محدودا على أى حال ، وإن بدا مجسما غليظا حين يقاس بعهد الذروة الذى يبدو بجانبه كل شىء قزما حين يقاس إليه !

لقد بقى لمجموع الأمة - ودع عنك الحكام - صدق إيمانها ، وجدية الأخذ من الكتاب والسنة ، وصدق الجهاد فى سبيل الله . وبقى لها تحقق معنى الامة ، وبقيت - فى مجموعها - تتعامل بأخلاقيات لا إله إلا الله ، وبقى لها وفاؤها بالمواثيق . . وفى العموم بقيت روح الإسلام هى السارية فى الأمة ، السائدة فيها ، وإن كان قد غشيها من انحراف الحكام غاشية فى بعض معانى الإسلام ، فلم تعد ترى العدل الربانى يتحقق كما كان يتحقق أيام الجيل المتفرد ، بسبب ظلم الحكام ، ولم تعد من جانبها حريصة على مراقبة حكامها كما كان يفعل ذلك الجيل ، على الرغم من أن حكامه كانوا يقومون بمراقبة أنفسهم قبل أن تراقبهم رعيتهم !

---

(١) سورة التوبة [١١] .

واتسعت الفتوح الإسلامية حتى دق المسلمون أبواب القسطنطينية، وامتد الإسلام إلى الهند شرقا وإلى الشمال الإفريقى غربا، وقويت دولة الإسلام حتى أصبحت قوة يرهبها أعداؤها ويعملون لها ألف حساب . . وغلب الخير على الشر فى ذلك المجتمع، وبقيت مظالم الحكام ومخالفاتهم محصورة فى دائرتهم، بينما ينعم المجتمع فى مجموعه بنعمة الإسلام، وبالأمن والطمأنينة والاستقرار، الذى تولدت عنه الحركة العلمية والحركة الحضارية كما أسلفنا من قبل .

فأما على عهد العباسيين فقد بقيت الانحرافات الأموية كلها، وزادت حدتها، ثم أضيف إليها انحرافات من نوع جديد .

فأما الملك الوراثى العضوض فقد بقى، مع إضافة مزيد من الخروج على الخط السوى. فلئن كان الأمويون قد حرصوا - من أجل تثبيت دولتهم وتمكينها - أن يختاروا من بينهم أصلحهم وأقدرهم، فإن العباسيين جعلوه وراثيا بحتا، يتولونه بالدور، ولو جاء الدور على صبى فى العاشرة أو الثانية عشرة ! مما أثر على قوة الدولة ذاتها - بصرف النظر عن المعانى الإسلامية فى مجال السياسة - فضلا عما جرى من المؤامرات الرهيبة من أجل ولاية العهد أو من أجل تولى الملك، مما تقشعر له الأبدان! وفضلا عن اضطرار الحكام - بعد ضعف سلطانهم - إلى الاعتماد على غيرهم، والترك بصفة خاصة، مما أدى إلى تسلط هؤلاء، وإفساد كل القيم السياسية الإسلامية على الإطلاق!

وأما العنف فى معاملة الخصوم السياسيين، الذى بدأه الأمويون، فقد تزايدت حدته، وتحول إلى مذابح بشعة لا يتصور صدورها عن مسلمين!

وأما البحبحة فى بيت المال، التى بدأها الأمويون كذلك، فقد وصلت بعد زيادة الأموال فى العهد العباسى من الزكاة والخراج والموارد الأخرى إلى صورة لا تخطر على البال. فلئن كان الأمويون قد أعطوا المعارضين ليسكتوهم ويستميلوهم إليهم، ويشتروا ود من يجدون فى كسبه إلى صفهم تأييدا لسلطانهم. . فقد كان «الخليفة» العباسى لا يجد حرجا فى صدره أن يجيئه شاعر من «المداحين» الذين قال عنهم رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم المداحين فاحثوا فى وجوههم التراب»[1] فيأمر له - لقاء أبيات فى مدحه - بمائة ألف من بيت مال المسلمين !

أما « الجماهير » التى ثارت ذات يوم على عثمان رضى الله عنه من أجل مخالفات ضئيلة تأول فيها عثمان بغير منهج الشيخين من قبله، فقد صارت ترى هذا العبث الماجن ببيت مال المسلمين ولا تحرك ساكنا له، كأن الأمر لا يخصها على الإطلاق!

---

(١) أخرجه مسلم .

فإذا كانت هذه هى الانحرافات التى بدأت أيام الأمويين، وبقيت وزادت حدتها على يد العباسيين، فقد أضيفت إليها ـ بحكم عوامل جديدة ـ انحرافات أخرى خطيرة، أودت بالحكم العباسى فى النهاية، وما زالت آثارها ـ أو آثار منها ـ سارية فى جسم الأمة حتى هذه اللحظة، تنتظر من يبرئها منها حتى تستطيع أن تنبعث من جديد .

* * *

ظهرت فتنة «الفرق» . .

ولئن كان الخوارج قد ظهروا من قبل فى عهد على رضى الله عنه واستمروا فى العهد الأموى، وظهر المرجئة ردَّ فعل لظهور الخوارج، وكان أمر هؤلاء وهؤلاء منبعثا من فتنة مقتل عثمان والقتال الذى دار بين على ومعاوية، فقد تفشت الفرق تفشيا ذريعا فى العصر العباسى، وكانت لها منابع خارجية فى هذه المرة إلى جانب المنابع الداخلية .

لقد نشطت الحركة العلمية فى العصر العباسى، ونشطت معها حركة الترجمة من الإغريقية واللاتينية، وكان فيها الكثير النافع الذى تحتاج إليه الأمة بالفعل، ولكن المسلمين انخدعوا فى لون من الفكر حسبوه نافعاً لهم فنقلوه إلى العربية فكان منه شر كثير، ألا وهو الفلسفة الإغريقية .

لقد كانت تلك الفلسفة فكرا جاهليا رغم كل إشراقاته وكل تجلياته . وما كان ينبغى لهذا الفكر الجاهلى بحال من الأحوال أن يمتزج بالإسلام، ذلك النور الربانى الخالص الذى يشرق بذاته، من مصدريه الأصيلين الصافيين، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والذى عاش على إشراقته ذلك الجيل المتفرد فكان كما كان .

وأسوأ ما فى ذلك الفكر هو عقلانيته التجريدية التى تحول كل شىء إلى فكرة مجردة باردة لا حياة فيها ولا حركة، فضلا عن تضخيم دور العقل حتى يصبح هو الحكم الأخير فى كل أمر من الأمور[1] .

وقد أصاب هذا الفكر المسيحية فأنشأ فيها ما يسمى «اللاهوت» وهو محاولة عقيمة للتوفيق بين خزعبلات الكنيسة العقدية من التثليث، والبنوة المزعومة لله سبحانه وتعالى، وفكرة الخطيئة الأبدية، والصلب والفداء . . إلخ، وبين الفلسفة الإغريقية .

ولئن كان النصارى ـ فى محاولتهم لإضفاء العقلانية على تلك الخزعبلات التى لا

(١) انظر إن شئت فصل «العقلانية» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

يستسيغها العقل - قد لجئوا إلى الفلسفة الإغريقية لعلها تعينهم، فتخبطوا، وفشلوا، وظل لاهوتهم يحمل ذات الخلط الذى تحمله مقررات المجامع « المقدسة »، فما كان المسلمون فى حاجة إلى مثل هذا السلوك، وهم الذين يحملون النور الصافى من منابعه الصافية المستغنية بذاتها عن كل مدد من خارجها ليس من طبيعتها.

ولكن الفتنة بالفلسفة من جهة، وفتح الخلفاء العباسيين المجال من جهة أخرى للمناظرة بين علماء المسلمين وبين اليهود والنصارى فى أمر الإسلام، جعل « المثقفين» فى ذلك العصر يتجهون إلى الفلسفة الإغريقية لتعينهم فى هذا الجدل، حتى أصبحت هى «المودة» الفكرية للعصر كله.

ومن لوثة الفلسفة الإغريقية والعقلانية الإغريقية نشأت فرق كثيرة وتخبطات كثيرة فى فكر المسلمين.

ويذكر الناس المعتزلة نموذجا للغزو الفكرى الإغريقى فى فكر المسلمين، حيث جعلوا العقل هو المحكّم فى الوحى، وجعلوه هو المرجع الأخير فى كل أمر من الأمور حتى العقيدة..

ولكن المعتزلة لم يكونوا وحدهم الذين تأثروا بالعقلانية الإغريقية وانحرفوا بها عن عقيدة الإسلام الصحيحة، فكل الذين خاضوا فى قضايا الصفات من « المتكلمة» وفى قضايا القضاء والقدر والجبر والاختيار.. كان اعتمادهم فى «الكلام» الذى قالوه، على تلك العقلانية التى تعطى العقل أكبر من حجمه الحقيقى، وتجعله هو المرجع وهوالحكم فى كل قضايا الوجود، فانزلقوا إلى تصورات لا هى إسلامية صافية، ولا كانت العقيدة الإسلامية الواضحة البسيطة السمحة فى حاجة إلى شيء منها، ولا هى قدمت أى خدمة لتلك العقيدة، بل حولتها من تصور صاف ووجدان حىّ وسلوك عملى يقصد به مرضاة الله، إلى قضايا ذهنية تجريدية باردة، لا تزيد الإيمان إن لم تبعث على إثارة الشكوك والشبهات المناقضة للإيمان، ولا تحرك الوجدان، ولا تؤدى إلى سلوك واقعى، لأن من شأن العقلانيات أن تبدأ فى الذهن وتنتهى فى الذهن، وتجد تحقيق غايتها فى ذلك الجهد الذى يبذله الذهن، دون أن تخرج من هذه الدائرة المغلقة إلى الواقع الحىّ عن طريق الوجدان والسلوك. وورث العالم الإسلامى - مع الأسف - ذلك التراث الإغريقى - وإن لبس ثوباً إسلاميا - على أنه « العقيدة الإسلامية» أو على أنه « الدراسة العلمية للعقيدة الإسلامية» كأن أصحاب رسول الله ﷺ لم يكونوا « هم » أصحاب هذه العقيدة وأكثر الناس فهما لها وقربا من حقيقتها.. دونما حاجة إلى هذه المعاظلات الذهنية الباردة السخيفة. ومازال هذا التراث الإغريقى - فى ثوبه الإسلامى

المزيف ـ هو الذى نقدم من خلاله العقيدة الإسلامية للدارسين فى كل معاهدنا الإسلامية من المحيط إلى المحيط !

وهذا كله فضلا عن « الفرق الباطنية» التى انتشرت فى العصر العباسى بصفة خاصة، ومدت لها جذورا فى الأرض الإسلامية، وكونت دولا أو دويلات، وشغلت المسلمين بمحاربتهم ومطاردتهم بضعة قرون، وكانت ـ فى جملتها ـ ذات صلة خفية باليهود المندسين فى العالم الإسلامى . . تتظاهر بالإسلام وهى تعمل فى واقع الأمر لتقويض الإسلام، وتترك شيئا من معتقداتها فى كل مرة فى أذهان العوام!

* * *

ولم تكن هذه وحدها جناية الفرق . .

فلئن كانت القضايا الذهنية التجريدية هى مشغلة « المثقفين» الذين أغوتهم الفلسفة الإغريقية فصنعوا بها « لاهوتا» إسلاميا كما صنع النصارى من قبل فى لاهوتهم المسيحى . . فإن الفكر الإرجائى ـ بجميع شعبه وألوانه ـ كان ـ على امتداد الزمن ـ أشد خطرا على العقيدة الإسلامية والحياة الإسلامية من كل معاظلات الفلسفة التى دخلت فى دراسة العقيدة .

القول بأن الإيمان هو التصديق ، أو هو التصديق والإقرار ـ على أحسن الفروض ـ وإخراج العمل من مسمى الإيمان، كان من أخطر المزالق التى أدخلتها الفرق على تلك العقيدة الصافية ومفهومها الصحيح .

وإذا كان هذا الانحراف الخطير فى فهم عقيدة التوحيد لم يؤثر لتوه فى الحياة الإسلامية، لأن الدفعة الحيوية الهائلة التى أطلقها الإسلام فى واقع الحياة كانت ماتزال تتدفق فى صورة « عمل» واقعى بمقتضى هذه العقيدة ، فإنه ـ تدريجيا ـ مع الميل البشرى الطبيعى إلى التفلت من التكاليف، حدث تقاعس مستمر عن العمل بمقتضى هذا الدين، اكتفاء بأن حقيقة الإيمان مستقرة فى القلب، مادام الإنسان قد صدق وأقر بأنه لا إله إلا الله ! وأنه مادامت هذه الحقيقة مستقرة فى القلب فقد « تم» الإيمان المطلوب، ولم يعد يضر مع الإيمان شىء!

إن إخراج العمل من مسمى الإيمان فى هذا الدين الذى نزل لينشىء «واقعا» معينا تحكمه شريعة الله ومنهجه للحياة، أمر مذهل فى مجرد تصوره، فضلا عن أن يصدر عن « علماء» معتبرين فى تاريخ هذه الأمة !

كيف يتصور أمر هذا الدين حين يكون تصديقا بالقلب وإقراراً باللسان ، دون عمل بمقتضى هذا التصديق والإقرار فى واقع الحياة ؟!

ألهذا أنزل الله دينه وأرسل رسوله ﷺ ؟! لمجرد أن يصدق الناس بقلوبهم ويقروا بألسنتهم، ثم يتركوا واقع الحياة تحكمه الجاهلية التي لا تصدق بقلبها ولا تقر بلسانها؟!

وكيف يغيرون ذلك الواقع الجاهلي بغير « عمل » واقعي إيجابي ملموس مشهود، تكون نتيجته إزالة الباطل بعقائده الفاسدة، ونظمه الهابطة التي تعبّد الناس لغير الله، وأنماط سلوكه المختلة التي تبتدعها شياطين الإنس والجن في كل جاهلية؛ وإنشاء النظام الرباني بدلا منه، بعقائده الصحيحة، ونظامه القويم المؤسس على شريعة الله، وأنماط سلوكه المستمدة من أخلاقيات لا إله إلا الله، المحكومة بميزان الله؟!

ثم كيف يحافظون على النظام الرباني - بعد إنشائه - من عدوان الجاهلية الدائم، ومحاولتها الدائبة لنقض النظام الرباني، وإقامة حكم الطواغيت بدلا منه، بوسائلها الدائمة التي تستخدمها، من عدوان بالجيوش، وعدوان بالأفكار الباطلة والمعتقدات، وعدوان بالأنظمة التي لا تحكم بما أنزل الله، وعدوان بالأنماط المبتدعة من السلوك؟!

كل ذلك يتم بمجرد التصديق بالقلب والإقرار باللسان؟!

يا لها من مهزلة مذهلة حين تلصق بالإسلام!!

وكيف يستقيم هذا مع قوله تعالى :

﴿ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب. من يعمل سوءا يجز به، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهومؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ (١) .

بل كيف يستقيم مع تعاليم القرآن كلها من مبدئها إلى منتهاها، التي توجّه الناس للاعتقاد الصحيح، والعمل بمقتضى ذلك الاعتقاد الصحيح؟!

ومن أين إذن جاء الصحابة رضوان الله عليهم - ومن تبعهم بإحسان - بهذه «الممارسة» الهائلة لهذا الدين في عالم الواقع، وهي - على ما يقول الفكر الإرجائي - خارجة من مسمى الإيمان، لأنها كلها « عمل » بالجوارح وبالجنان؟! هل قاموا بها تطوعا زائدا من عند أنفسهم لم يكلفهم به الله؟! أم قاموا بها لأنها هي حقيقة هذا الدين، الذي لا تقوم له بغيرها حقيقة في واقع الأرض ولا عند الله؟!

ثم خذ الواقع البشري نفسه، وظواهر النفس الإنسانية كما خلقها الله .

أيمكن أن يكون في النفس السوية إيمان بشيء، ثم لا يكون في واقع حياتها شيء يدل

---

(١) سورة النساء [١٢٣ - ١٢٤] .

على هذا الإيمان؟ إلا أن يكون إنسان قد أصيب « بانفصام الشخصية» وهى حالة غير سوية، تسقط عن صاحبها التكليف!

حقيقة إنه يمكن أن يكون هناك إيمان، ويصاحبه عمل مناقض لمقتضى ذلك الإيمان، نتيجة ضغط الدوافع النفسية التى قال عنها الله سبحانه وتعالى إنها شهوات مزينة للناس:

﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب﴾ [1].

ولكن هذا الأمر لا يتم بلا سبب وبلا دلالة!

فأما سببه - كما بينا - فهو هذا الضغط الواقع على نفس الإنسان من دوافعه المركبة فيه.

وأما دلالته فهو أن الإيمان لم يكن من القوة بحيث يقف لهذه الدوافع ويتغلب على دفعتها الحادة.

وهنا تحدث المعصية التى لا تنفى أصل الإيمان، ولكنها تحدث فى غيبة مؤقتة عن تأثير هذا الإيمان كما وصفها الرسول ﷺ: « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن.. » [2].

ومن هنا يكون هناك ارتباط وثيق بين قوة الإيمان وضعفه، وبين العمل الذى يقوم به الإنسان فى أى لحظة من لحظاته: أهو طاعة أم معصية؟ وأى درجة من درجات الطاعة، وأى درجة من درجات المعصية؟

ويخلص لنا من هذا كله حقيقتان:

أن العمل مرتبط بالإيمان.

وأن الإيمان يزيد وينقص. يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصى (وينتفى تماما إذا خالطه الشرك الأكبر).

وتلك هى الحقيقة - النفسية والدينية - التى عبث بها الفكر الإرجائى حين أخرج العمل من مسمى الإيمان، واعتبر الإيمان هو مجرد التصديق، أو هو التصديق والإقرار فى أحسن الأحوال! [3].

---

(١) سورة آل عمران [١٤].　　　(٢) سبقت الإشارة إليه.

(٣) انظر إن شئت فصل. «مفهوم لا إله إلا الله» من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح ».

وما من شك أن هذا الفكر كان فى مبدئه عدوى من الفلسفة والمنطق البعيدين عن روح هذا الدين . وأنه كان عند « علماء» المرجئة الأوائل مجرد « أفكار» تجريدية تدور فى «الأبراج العاجية» ولا تتصل بالواقع ! فقد كانوا هم أنفسهم من الأتقياء الفضلاء العاملين بمقتضى هذا الدين فى واقع حياتهم ، فلا هم تقاعسوا عن العمل ولا دعوا إلى التقاعس عنه . بل إنهم حين كانوا يكتبون فى الفقه ، كانوا يكتبون بوعى كامل أن هذا الدين اعتقاد وعمل لا ينفصلان . ولكنها لوثة الفلسفة والمنطق والأبراج العاجية التى يحدث فيها ما يحدث من الخلل والانحراف والاضطراب .

ولكن خطورة هذا الفكر تزايدت مع امتداد الزمن ، وبدء التفلت من التكاليف . .

إن التفلت من التكاليف - كما أشرنا من قبل - أمر بشرى طبيعى :

﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما﴾ (١) .

وهذا المرض البشرى له علاج ربانى مذكور فى كتاب الله :

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ (٢) .

والتذكير المشار إليه فى الآية ليس هو التذكير بأصل الإيمان - فالآية صريحة فى وصف المطلوب تذكيرهم بأنهم مؤمنون - إنما يكون التذكير للعمل بمقتضى الإيمان ، لأنه هو الذى يغفل الناس عنه بفعل ثقلة الشهوات المركبة فى النفوس ، فإذا تم التذكير استقام الأمر ، وعاد الإيمان إلى وضعه السوى : اعتقاد فى القلب وعمل فى واقع الحياة .

ولكن بدلا من أن يحدث التذكير ، جاء الفكر الإرجائى ليربت على لحظة الغفلة ، ويطمئن الغافلين أنهم مؤمنون ، مادامت قلوبهم مستقرا فيها الإيمان !

وعلى امتداد الزمن زادت المساحة التى يغطيها الفكر الإرجائى ! فحين كان - العمل - مثلا - يغطى تسعين فى المائة من الساحة ، كان الفكر الإرجائى يغطى العشرة فى المائة التى انحسر عنها العمل ! فلما انحسر العمل خمسين فى المائة غطى الفكر الإرجائى الخمسين ! فلما انحسر العمل كلية غطى الفكر الإرجائى الساحة كلها ، وجاء فى العصر الأخير من يقول : « من قال لا إله إلا الله فهومؤمن ، ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام» ! !

وكان هذا - فى العصر الأخير خاصة - من أشد البلايا التى ابتلى بها الإسلام !

* * *

ومن أشد انحرافات العصر العباسى كذلك ، الترف الذى أصاب الحياة بتأثير المال المتدفق من كل اتجاه .

---

(١) سورة طه [١١٥] .

(٢) سورة الذاريات [٥٥] .

كان الترف قد بدأ يظهر فى أواخر العصر الأموى، ولكنه كان ما يزال محدود الصورة محدود النطاق. وكان سببه بدء تدفق المال فى أيدى الناس مع الهبوط التدريجى عن مستوى الذروة الذى كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم..

لقد جاء مال على عهد عمر رضى الله عنه كان يعتبر بالقياس إلى ذلك الوقت شيئاً خيالياً لا يتصور!

جاء عامل عمر على البحرين يسلم مال الخراج والناس فى صلاة المغرب، فقال له عمر: كم معك؟ قال خمسمائة ألف! قال: تدرى كم خمسمائة ألف؟! قال: نعم! مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ومائة ألف! قال: اذهب فأنت ناعس! وائتنى فى الصباح! فلما جاءه فى الصباح وعلم منه أنها خمسمائة ألف حقيقة صعد المنبر فقال: أيها الناس! لقد كثر المال! فإن شئتم وزنّا لكم وزنا، وإن شئتم كلنا لكم كيلا!

ولكن هذا المال ذا المقدار « الخرافى » بالقياس إلى وقته لم يفسد المسلمين وهم على مقربة من عهد رسول الله ﷺ، وولى أمرهم وقائدهم عمر رضى الله عنه، الذى يرد إلى بيت المال ثمن الفطيرة التى أفضلتها زوجته رضى الله عنها من القوت الضيئل الذى يعيش عليه هو وعياله. كما أن عمر رضى الله عنه حبس رءوس الصحابة رضوان الله عليهم عن الخروج إلى البلدان للتجارة، وأبقاهم إلى جواره ليعاونوه فى المهمة التى انتدب لها وهى إقامة حكم الله فى الناس.

أما فى أواخر العهد الأموى، وأما فى العصر العباسى بصورة خاصة، فقد كان المال مفسدًا إلى حد الإتلاف [١].

فأما الأسرة الحاكمة فقد كان لها « مخصصات» من بيت المال ينفقون منها ما ينفقون على مستوى البذخ المبالغ فيه، ومع ذلك يفضل منها ما يدعو إلى إنشاء « بيت المال الخاص» ! تتراكم فيه الأموال عاما بعد عام!

وكان الوزراء - من أموالهم الخاصة ومما يهب لهم الخلفاء والأمراء - يعيشون فى ذات الجو الباذخ الذى تعيش فيه الأسرة الحاكمة. وكانت ثروات التجار خرافية حقا بالقياس إلى ثراء العالم كله فى ذلك الحين، إذ كانت التجارة العالمية فى وقتها فى أيديهم من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب، وتكفى رحلات السندباد - وإن تكن أسطورية - لإعطاء صورة عن عالم التجار فى ذلك الحين [٢].

(١) وشبيه به ما حدث فى الأندلس كذلك.

(٢) شخصية السندباد أسطورية وكذلك رحلاته، ولكنها ترمز إلى واقع كان قائما بالفعل.

وهكذا امتلأت الجيوب وفاضت بالنقود ، بينما القلوب تغفو ، والأيدى ترخى قبضتها من حبل الله المتين ، لذلك انتشر الترف المفسد الذى تروى عنه كتب الأدب وكتب التاريخ .

خذ هذا النموذج من الترف فى المشرق الإسلامى :

« كان العباسيون يعنون عناية فائقة بحفلات الزواج . ويتجلى إسراف خلفاء العصر العباسى الأول وبذخه مما فعله المهدى عند زواج ابنه هارون (الرشيد) بالسيدة زبيدة . فقد أقام يوم زفافها وليمة لم يسبقه إليها أحد فى الإسلام ، ووهب للناس فى هذا اليوم أوانى الذهب مملوءة بالفضة وأوانى الفضة مملوءة بالذهب والمسك والعنبر ، وزينها بكثير من الحلى والجواهر ، حتى إنها لم تقدر على المشى لكثرة ما عليها من هذه الحلى والجواهر » .

« ويقول الشابشتى إن المأمون أمهر بوران ١٠٠,٠٠٠ (مائة ألف) دينار و ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ (خمسين ألف ألف) درهم أى أكثر من نصف مليون دينار ، وأنه أوقد بين يديه فى تلك الليلة ثلاث شمعات عنبر ، وكثر دخانها فقالت زبيدة : إن فيما ظهر من السرف الكفاية ، ارفعوا هذا الشمع العنبر وهاتوا الشمع . ولما جليت بوران على المأمون نثر عليها حباراً كان فى كمه ، فوقع على حصير منسوج من الذهب ، فقال : لله در الحسن ابن هانى ، حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

«وامتنع من كان حاضرا أن يلتقط شيئا ، فقال المأمون ، أكرمنها ، فمدت زبيدة يدها فأخذت حبة ، فالتقط الباقى من كان حاضرا . كما ذكر الشابشتى : أن نفقات الزواج بلغت من مال الخليفة المهدى ١,٣٨٨,٠٠٠ ديناراً عدا مبلغ كبير أنفقه الرشيد نفسه .

« وقد أكدت السيدة زبيدة لأبى عبد الله المأمون ، وكان أخا الأمين ابن السيدة زبيدة من أبيه الرشيد كما نعلم ، أن نفقات هذا الزواج كانت تتراوح بين خمسة وثلاثين مليون درهم وسبعة وثلاثين مليون درهم .

« وقد فاق المأمون أباه الرشيد فى كرمه وإسرافه ، يدلنا على ذلك ما أنفقه على زواجه من بوران بنت الحسن بن سهل . ويقول الطبرى إن المأمون أمر للحسن بن سهل وهو فى طريقه إلى بوران بعشرة ملايين من الدراهم ، ومنحه خراج إقليم فم الصلح . ويقول ابن خلكان إنه أعطاه خراج إقليم فارس والأهواز سنة واحدة .

« وقد وصف المسعودى إسراف الحسن بن سهل وبذخه فى هذا الزواج فقال : ونثر الحسن فى ذلك من الأموال ما لم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا فى إسلام، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك. فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك، فيقول له ضيعة يقال لها فلانة الفلانية، من طسوح كذا، من رستاق كذا، وجارية يقال لها فلانة الفلانية، ودابة صفاتها كذا. ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافح المسك وبيض العنبر، وأنفق على المأمون وقواده، وعلى جميع أصحابه ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده، وعلى المكارين والحمالين والملاحين، وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق وغيره . . »[1] .

وخذا هذا النموذج أيضاً من أيام العباسيين ، عند زواج قطر الندى بنت خمارويه من الخليفة المعتضد :

« وقد استطاع خمارويه بما هيأه له بيت مال مصر أن يبذل الأموال الضخمة بذل من لايخشى فقرا ولا يهاب عوزا. فقد ذكر ابن دقماق أنه « حمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به إلا فى وقته » وذكر المقريزى (خطط جـ١ ص ٣١٩) : « أنه لم يبق خطيرة ولا طرفة من كل لون وجنس إلا حمله معها». فمن هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجواهر لا يعرف لها قيمة، ومائة هون من الذهب لدق الطيب، وألف تكة ثمن الواحدة منها عشرة دنانير. وقد أمر خمارويه بعد أن فرغ من الجهاز بأن يبنى على رأس كل مرحلة قصر أشبه بالمنزل أو مكان الاستراحة تنزل فيه وهى فى طريقها إلى بغداد. وأعدت هذه القصور بكل ما تحتاج إليه، فكانت فى سفرها تتمتع بجميع وسائل الراحة وأسباب الرفاهية كما لو كانت فى قصر أبيها. أما مبلغ نفقات هذا العرس فلم نقف عليه فى مصدر من المصادر التى رجعنا إليها. وقد ذكر ابن خلكان (جـ١ ص ١٧٤) أن صداقها كان مليون درهم. وليس هذ بالشىء الكثير بجانب ما أنفق على تجهيزها، إذا علمنا أن ابن الجصاص الجوهرى الذى عهد إليه بإعداد الجهاز نال جائزته وهى أربعمائة ألف دينار بقيت بعد إعداد كل ما تحتاج إليه العروس » .

---

(١) عن كتاب « تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى » للدكتور حسن إبراهيم حسن، ج ٢ ص ٤٤٢-٤٤٣، الطبعة السابعة ١٩٦٤ .

وهذا النموذج من الأندلس :

« ومن قصور الأمويين فى الأندلس القصر الذى بناه المأمون بن ذى النون بطليطلة ، وقد أنفق على بنائه أموالا ضخمة ، وجعل فى وسطه بحيرة فى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش ، وجلب الماء إلى القبة بحيث كان ينزل من أعلاها ويحيط بها من كل جوانبها ، فكانت قبة الزجاج فى غلالة مما سكب خلف الزجاج لا يفتر من الجرى ، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله ، وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب . . »(١) .

تلك مجرد نماذج سريعة من الترف والسرف فى حياة العباسيين فى المشرق والأمويين فى الأندلس ، وغيرها كثير كثير . . مما أصاب الناس بالترهل والاستغراق فى متاع الأرض .

* * *

وبدأت « الحضارة » تنحرف عن مفاهيمها الإسلامية . .

حقاً لقد أبدعت هذه الحضارة فى المشرق العباسى والمغرب الأموى (فى الأندلس) بدائع فى العمارة ما تزال آثار منها باقية حتى اليوم ، تشهد بالبراعة الفائقة ، والتقدم فى الهندسة والتكنولوجيا وغيرها من العلوم ، ولكن جنوحها إلى الترف ، وشغلها الناس بالحياة الدنيا عن الآخرة ، وبالمتاع الحسى عن مقتضيات الجهاد فى سبيل الله . . لم يكن يسير مع روح الإسلام ، إنما كان انحرافاً أدى إلى نتائجه الحتمية بعد فترة من الزمان (٢) .

ولقد صاحب هذا الترف - وكان جزءا منه - فتنتان أخريان ، إحداهما هى كثرة الجوارى ، والثانية هى « الجوارى المغنيات » اللواتى ملأن قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والأغنياء من التجار . .

لقد تدفقت الجوارى على العالم الإسلامى بحكم الحروب القائمة بينه وبين أعدائه ، وأصبحن تجارة رائجة فى الأسواق . ومع سلامة الأصل فى وجودهن ، فإن روح الترف التى سادت المجتمع جعلت وجودهن يضيف إلى الترف ترفا وإلى الفساد فسادا . وأصبحت فتنتهن كفتنة المال . .

---

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٤٥٧ - ٤٥٨ .

(٢) ليس معنى هذا بطبيعة الحال أن كل مجالات الحضارة قد انحرفت أو أنها انحرفت دفعة واحدة، فقد بقى خير كثير - كما سيجىء - لأنه ظل محتفظاً بالقيم الإسلامية . ولكن - فى النهاية - حين غلب الانحراف على الأصل وقع الانهيار الحتمى حسب سنة الله .

وأخطر ما كان من أمرهن على أى حال هو الدور الخبيث الذى لعبنه فى قصور الخلفاء والأمراء والوزراء. ففضلا عن روح « اللهو » التى سادت هذه القصور من وجودهن، وشغلت أصحابها عن جديات الأمور ومعاليها، فقد كان بينهن يهوديات ونصرانيات ينطوين على حقد خبيث على الإسلام، وينطلقن من هذا الحقد - وهن فى داخل القصور - إلى إثارة الفتن والمؤامرات والدسائس التى تشغل الحكام بمشكلاتهم الخاصة عن سياسة الرعية ومسئوليات الحكم الكبرى التى ينبغى أن يشغل نفسه بها كل قائم بالحكم، فضلا عن الحاكم المسلم الذى يطبق شريعة الله !

وفى جو الترف العام، وفى وجود الجوارى بأعداد وفيرة، وجدت الظاهرة الأكثر إفسادا وأكثر تلهية وهى التى أطلق عليها فى تاريخ الأدب ظاهرة « الجوارى المغنيات »، وكانت فتنة منطقية فى وجودها وفى آثارها مع الجو العام السائد فى ذلك الحين . . فما دام « الطرب » مباحا فى القصور، والغناء جزء من الطرب، وإذا كان من أنثى فهو أكثر إطرابا، فقد أصبحت هناك « صناعة » يتعيش منها ناس فى ذلك المجتمع، هى البحث عن الجوارى ذوات الصوت الصالح للغناء، وتدريبهن عليه، وتحفيظهن ما يطربن به الرجال، ثم بيعهن، أو الاحتفاظ بهن عند مدربهن لإدارة حفلات الطرب فى بيته أو فى قصر من قصور المترفين واللاهين . .

ويمتد الطرب من العشاء إلى ما بعد منتصف الليل، مع الشراب أو بدونه، وغالبا ما يكون معه، ويتلهى الناس عن ذكر ربهم وعن ذكر الجهاد فى سبيل الله، ويقومون فى الصباح - إن قاموا - يحلمون بالمزيد من الطرب والمزيد من الحفلات!

وكان حتما بعد ذلك أن يحدث الانهيار !

حقيقة إنه لم يحدث دفعة واحدة، فقد استغرق أكثر من قرنين من الزمان، وحتى حين انهارت الدولة فإن الإسلام لم يزل من الأرض ، وذلك لعدة عوامل ينبغى أن توضع فى الحساب .

لقد بدأ الفساد فى العاصمة - بغداد - فى قصور الخلفاء والأمراء أولا ، ثم فى قصور الأغنياء عامة، حتى أصبح « عملة سارية » فى العاصمة لا ينكره أغلب الناس سواء شاركوا فيه أم لم يكن لهم فيه نصيب . ولكن بقيةالأرض الإسلامية لم تكن متأثرة بهذا الفساد المحلى فى بادئ الأمر ، لأنها كانت ما تزال تمارس الإسلام بالجدية التى يقتضيها الإيمان بدين الله .

ثم أخذ الفساد يمتد من عاصمة الخلافة إلى عواصم الأقاليم بالعدوى . . وتلك سنة

ربانية تجعل الفساد « يظهر » فى الأرض حين يتقاعس الناس عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهو ماكان حادثا فى المجتمع العباسى .

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون﴾ (١) .

وحين لا يرجعون يظل الفساد ينتشر ويتأصل حتى يحدث الانهيار . .

وقد ظل الفساد ـ فى أكثر من ميدان ـ ينتشر ويتأصل ، ويأكل كل حين قطاعا جديدا من المجتمع ، حتى انهارت الدولة العباسية على يد التتار ، كما انهارت الأندلس فى الغرب على يد الصليبيين .

ولكن « الإسلام » كان باقيا ما يزال . .

كانت جذوة العقيدة حية فى النفوس . . علاها الرماد نعم بتأثير المعاصى والبدع والمنكرات ، والانصراف عن الجد الواجب فى أخذ الدين ، ولكنها حية . . تنتظر من ينفخ الرماد عنها لتشتعل من جديد . . فما إن جاء صلاح الدين يقول للناس إنكم هزمتم أمام الصليبيين لأنكم ابتعدتم عن الله ، ولن تنصروا حتى تعودوا إليه . . وما إن جاء قطز يصيح صيحته المشهورة : وإسلاماه ! حتى اشتعلت الجذوة من جديد ، وانتصر المسلمون على الصليبيين فى مصر والشام ، وكانت القمة « حطين » ، وانتصروا على التتار فى « عين جالوت » التى كانت بدء تحول ضخم فى التاريخ ، هو دخول التتار أنفسهم فى الإسلام ، وتحولهم فيما بعد إلى جند من أصلب المدافعين عن الإسلام !

انهارت « الدولة » العباسية لأنها كانت أفسد من أن يقوّمها الإصلاح . ولكن « الأمة الإسلامية » كانت ما تزال تزخر بخير كثير على الرغم من كل عناصر الفساد التى تسربت خلال الحكم العباسى ، فكانت قمينة بأن تعيش عدة قرون أخرى وتمثل جولة جديدة فى التاريخ .

وانهارت « الدولة » الإسلامية فى الأندلس ، وطرد المسلمون بوحشية بالغة ، وانمحى الإسلام من الوجود فى تلك البقعة من الأرض بعد تعذيب وحشى قامت به محاكم التفتيش زهاء قرنين كاملين من الزمان . . ولكن برزت إلى الوجود فى مكان آخر دولة إسلامية جديدة فتية قوية بقيت ممكنة فى الأرض زهاء خمسة قرون .

* * *

ولكن قبل أن نتحدث عن دولة الخلافة الثالثة بما لها وما عليها ، ينبغى أن نذكر انحرافا آخر حدث فى المجتمع العباسى ، وظل باقيا بعد انهيار الدولة العباسية ، بل إنه

---

(١) سورة الروم [٤١] .

تغلغل فى الدولة الجديدة منذ مولدها، وكانت له آثاره الخطيرة فى حياة الأمة الإسلامية حتى انهارت تلك الأمة ذاتها فى العصر الأخير.

ذلك هو الصوفية . .

نشأت الصوفية ردَّ فعل للترف الذى غشى المجتمع العباسى . . فإن « المتطهرين» من ذلك المجتمع ، الذين هالهم الفساد الذى يسرى فى المجتمع من الترف والمجون، والانصراف عن ذكر الله وعن الآخرة، أرادوا أن ينجوا بأنفسهم، فجمعوا أطراف ثيابهم وتسللوا من هذا المجتمع الفاسد، ليعيشوا حياة نقية طاهرة . . مع الله .

وبصرف النظر عما دخل فى الصوفية من أفكار - ودفعات - يهودية ونصرانية ومجوسية وهندوكية . . فما بنا أن ننكر أن دافعها الأصلى كان هو اعتزال الفساد السارى فى المجتمع، والخلوص إلى حيث الطهارة والنقاء .

ولكن الصوفية ذاتها نزعة منحرفة عن المنهج الإسلامى الصحيح .

فلئن كان فيها نزوع إلى تزكية الروح - وهو من الإسلام - ونزوع إلى الترفع عن متاع الأرض - وهو من الإسلام - ونزوع إلى ذكر الآخرة - وهو من الإسلام - فإن فيها سلبية وانعزالية ليست من الإسلام ، وإهمالا للحياة الدنيا ليس من الإسلام.

إن الصوفية فى حقيقتها عملية « هروب» من مواجهة الواقع ومجالدته . . هروب إلى «عالم خاص» من صنع الوجدان، ينعم فيه الإنسان « بمشاعر» القرب من الله - وهماً أو حقا - فيقعد عن « العمل» اكتفاء بتلك المشاعر التى تختصر له الطريق!

إن « الأعمال » وسيلة للقرب من الله . . ولكن ما حاجة « الواصل» إلى الوسيلة وقد وصل بالفعل ؟!

كذلك يقعد الصوفية عن العمل والكدح فى واقع الحياة الدنيا، كما يقعدون عن مجالدة الواقع المنحرف لرده إلى سواء السبيل، ويكتفون بتلك المشاعر التى تخيل إليهم أنهم قريبون من الله ، واصلون إليه ، عائشون فى حضرته، سابحون فى نوره . . فلا يبتغون وراء ذلك شيئاً لأنه ليس وراء ذلك شيء !!

إنها مشاعر يمكن بالفعل أن تستغرق حس الإنسان فيغرق فيها ولا يفيق .

ثم إن التدريب الروحى يفتح للإنسان عالما من الأعاجيب . . فكما أن التدريب الجسدى يعطى الإنسان قوة وقدرة، واستمتاعا بتلك القوة والقدرة، وكما أن التدريب العقلى ينشط الذهن ويكسبه قدرة على الاستيعاب والفهم، واستمتاعا بتلك القدرة كذلك، فكذلك التدريب الروحى يعطى الإنسان شفافية وإشراقا، وانسياحا وراء

السدود والحواجز الحسية إلى عالم فسيح لا تحده حدود، واستمتاعا بذلك كله يغرى بالمزيد!

ولكن الإسلام لا يقبل تلك «الغيبوبة» !

لقد جاء الإسلام «لمهمة» معينة فى الأرض .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾(١) .

وقيام الناس بالقسط لا يتأتى بمجرد الرغبة فى ذلك ولا بمجرد التمنى ، كما أنه لا يتم شىء فى حياة الإنسان كلها بمجرد الرغبة ولا مجرد التمنى ، إنما لابد من جهد يبذل لتحقيق الرغبة ، وتحويل الأمنية إلى واقع محسوس .

والمسلمون بالذات هم الذين حمّلهم الله مسئولية «العمل» لإخراج البشرية كلها من الظلمات إلى النور بمقتضى الكتاب المنزل إليهم :

﴿ ألر، كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ..﴾ (٢) .

﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ (٣) .

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ (٤) .

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (٥) .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ الذى هو خلاصة حركة الدين فى واقع الأرض ـ جهد محسوس يبذل فى واقع الحياة ، وموقف إيجابى من كل شئون الحياة .

وهنا مفرق الطريق بين الصوفية وبين الإسلام !

الصوفية انعزال سلبى ، والإسلام مواجهة إيجابية .

فى الإسلام دعوة صريحة إلى الترفع عن متاع الأرض :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث. ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل : أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد، الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ (٦) .

---

(١) سورة الحديد [٢٥] . (٢) سورة إبراهيم [١] . (٣) سورة البقرة [١٤٣] .
(٤) سورة آل عمران [١٠٤] . (٥) سورة آل عمران [١١٠] . (٦) سورة آل عمران [١٤ ـ ١٦] .

وفى الصوفية كذلك دعوة إلى الترفع عن متاع الأرض والاكتفاء منه بأقل القليل .

ولكن فيم تنفق الطاقة الهائلة المتجمعة فى النفس من ممارسة هذا الترفع عن متاع الأرض ؟

فى الإسلام تنفق الطاقة فى تحقيق « القيم العليا » فى دنيا الواقع ، وفى الصوفية تنفق فى تحقيق تلك القيم فى سبحات الروح وإشراقات الوجدان !

إحداهما تصلح الواقع بالفعل . تصلح الفرد والمجتمع ، وترفعهما من الواقع الأدنى المتمثل فى المجال الحسى الغليظ ، إلى الواقع الأعلى الذى تنطلق فيه كل طاقات الإنسان : جسده وعقله وروحه ، للقيام بمهمة الخلافة ، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، التى هى حقيقة « العبادة » بمعناها الشامل الواسع ، والتى يتحقق بتحقيقها الكيان الأعلى للإنسان .

والأخرى تترك الواقع بكل ما فيه من سوء ، لا تتعرض لإصلاحه ، وتنعزل عنه فى محاولة لإصلاح الذات ، محاولة قد تنجح فى جانب من الجوانب ـ هو الجانب الروحى ـ ولكنها تفقد الإنسان توازنه الذى خلقه الله عليه وخلقه له ، وتفقده واقعيته وإيجابيته ، فضلا عن صرفه عن القيام بالتكاليف التى فرضها الله « ليقوم الناس بالقسط » وليخرج الناس من الظلمات إلى النور

أرأيت لو أن طاقة كامنة يمكن بها استثمار قطعة واسعة من الأرض ، تنزع منها حشائشها الضارة ، وتحرثها وتسقيها ، وتستنبت فيها البقول والأشجار ، والورود والأزهار ، ليعيش من حصيلتها مجموعة من الناس ويستمتعوا بطيباتها ، أنفقت فى حرث ركن منعزل من الأرض ، وترك سائرها لتنتشر فيه الحشائش والحشرات ويأوى إليه شذاذ الآفاق .

أى تبديد للطاقة . . وأى صرف للجهد عن الإصلاح ؟ !

ذلك مثل الصوفية فى تبديد الطاقة البشرية وإن ظنت أنها تجمعها وتركزها !

وذلك مثلها فى صرف الجهد عن إصلاح الحياة البشرية وإن ظنت أنها تقوم بالإصلاح !

إن الإنسان ـ مهما فعل ـ لن يستطيع أن يعبد الله على طريقة الملائكة : ﴿ **يسبحون الليل والنهار لا يفترون** ﴾[1] .

والله من حكمته ورحمته لم يكلف الإنسان أن يعبد الله على طريقة الملائكة ، وإلا

---

(١) سورة الأنبياء [٢٠]

لخلقه ملكا منذ البدء ، نورا شفافا بلا جسد طينى ينزع ، ولا فكر ينشغل بأمور الحياة .

ولكنه ، من حكمته ورحمته ، وقد خلقه من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله ، وجعل له جسدا يتحرك بالرغبة ، وعقلا ينشغل بالتفكير ، وروحا طليقة ترفرف ، كلفه عبادة من نوع خاص غير الملائكة من ناحية ، والعجماوات والجمادات من ناحية أخرى . عبادة يجتمع فيها كيانه كله : جسده وعقله وروحه . وجعل كل نشاط جسده عبادة ، وكل نشاط عقله عبادة ، وكل نشاط روحه عبادة ، إذا توجه بذلك كله إلى الله ، والتزم فيه بما أنزل الله :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى، ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له..﴾ (١) .

وحين يفعل ذلك فهو فى أعلى حالاته ، وأقربها إلى الله ، وأجدرها برضاء الله .

ودليلنا هو أعبد عبد لله ، أعظم بشر خلقه الله ، محمد ﷺ .

«ألا إنى أعبدكم لله ، ولكنى أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى» (٢) .

هل يستطيع بشر ـ بعد هذا النص ـ أن يزعم أنه أعبد لله من محمد رسول الله ؟!

فكيف كانت عبادته ﷺ ؟!

فأما خلوته مع ربه ، فقد كان يتعبد حتى تتورم قدماه الشريفتان ، فتقول له عائشة رضى الله عنها : هون عليك يا رسول الله فقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فيقول ﷺ قولة العابد الواصل فى العبادة إلى الأعماق : أفلا أكون عبداً شكورا؟ !(٣) .

ومع ذلك . . فكيف كان ﷺ ؟

كان أكبر طاقة إيجابية عرفتها الأرض . .

فى الجهاد فى مجال الدعوة . فى القتال فى سبيل الله . فى تربية أصحابه رضوان الله عليهم ليكونوا مثلا عليا فى كل اتجاه ، وطاقات إيجابية فى كل اتجاه . فى إنشاء «الأمة» التى شهد لها خالقها ومخرجها إلى الوجود سبحانه بقوله : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ (٤) . فى إقامة العدل الربانى فى الأرض . فى تنظيم شئون « الدولة»

---

(١) سورة الأنعام [١٦٢ ـ ١٦٣] .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) سورة آل عمران [١١٠] .

السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحربية والخلقية والروحية والفكرية . . إلى جانب قيامه بأمور حياته الخاصة ﷺ ورعاية زوجاته وبناته وكفالتهن وتوجيههن وتعليمهن . . إلخ .

والرسول ﷺ هو أسوة المسلمين إلى قيام الساعة ، وهو الترجمة الواقعية لهذا الدين فى أعلى صوره .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ (١) .

والصوفية تقول إنها ترجو الله واليوم الآخر وتذكر الله كثيرا . . فلماذا لا تتأسى برسول الله ﷺ فى إيجابيته وفاعليته وواقعيته ، ومجابهته للواقع السيئ لهدمه والقضاء عليه ، وإنشاء الواقع الصحيح بدلا منه؟ !(٢) .

هذا هو الفارق بين الإسلام والصوفية .

هنا إيجابية وهناك سلبية . هنا مواجهة وهناك عزلة . هنا «زهد» فى متاع الأرض مع إباحته وممارسته ، وهناك انزواء عن المتاع يقتل الرغبة ويصيب النفس كلها بالذبول .

ومع الصوفية ينشأ التواكل بدلا من التوكل .

التوكل على الله من صميم الإيمان ، وقد تردد ذكره فى القرآن مربوطا بالإيمان :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (٣) .

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾ (٤) .

ولكن التوكل ـ ككل شىء فى دين الله ـ طاقة إيجابية دافعة ، يقوم به المؤمن مع اتخاذ الأسباب .

﴿ فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ (٥) .

والعزيمة ـ فى شأن القتال خاصة ، وهو الذى وردت بمناسبته الآية الكريمة ـ تقتضى إعداد العدة واتخاذ الأسباب .

---

(١) سورة الأحزاب [٢١] .

(٢) ينبغى أن نذكر هنا أن كثيرا ممن ينتمون إلى الصوفية كانوا مجاهدين فى سبيل الله ، ونشروا الإسلام فى بقاع من الأرض فى أفريقيا وآسيا لم يصل إليها غيرهم ، وهؤلاء زهاد فى الحقيقة وإن انتموا إلى الصوفية من حيث الشكل . وهؤلاء لا ينطبق عليهم كل ما نقوله هنا عن الصوفية .

(٣) سورة آل عمران [١٦٠] .   (٤) سورة الأنفال [٢] .   (٥) سورة آل عمران [١٥٩] .

أما التواكل الذى تمارسه الصوفية وتقول عنه إنه توكل، فهو - ككل شيء فى الصوفية - صورة سلبية معطلة، تتقاعس عن اتخاذ الأسباب متذرعة بالتوكل على الله.

لقد أفسد التواكل كثيرا من عقيدة القضاء والقدر، وحوّلها من عقيدة إيجابية دافعة إلى عقيدة سلبية مخذلة، وإلى الرضاء السلبى بالواقع وعدم محاولة التغيير.

كان الله يعلّم الجيل الأول رضوان الله عليهم ﴿ **قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ (١).

فيعلمون أنه ليس ذهابهم إلى القتال هو الذى يقتلهم، إنما هو القدر المقدر عند الله هو الذى يصيبهم أينما كانوا، فيندفعون بكل قوتهم للقتال.

وكان يعلّمهم: ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا، إنهم لا يعجزون. وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ...** ﴾ (٢).

فيعلمون علما يقينيًا مؤكدا أن الله لن يحقق للكفار مسعاهم فى هدم هذا الدين والقضاء عليه، بل سيمكن لدينه فى الأرض، ومع ذلك يعدون ما استطاعوا من قوة، أى يبذلون الجهد ويتخذون الأسباب، ولا يقولون لأنفسهم: مادام الله سيمكّن لدينه فذلك حسبنا، ونتوكل عليه فلا نعمل!

وكان يعلمهم: ﴿ **أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنّى هذا؟! قل: هو من عند أنفسكم. إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله ...** ﴾ (٣).

فيعلمون أن وقوع الأمر بقدر من الله لا يخليهم من مسئوليتهم عن أعمالهم حين يخطئون أو يسيئون التقدير.

وكان يعلمهم: ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ...** ﴾ (٤).

فيتعلمون أن وقوع قدر الله بالهزيمة ليس معناه الاستسلام للهزيمة والقعود فيها بحجة أنها قدر من عند الله، إنما معناها السعى الإيجابى لتغيير هذا الواقع مع التوكل على الله، رجاء تغيير القدر الأول بقدر جديد.. (٥).

---

(١) سورة التوبة [٥١].
(٢) سورة الأنفال [٥٩ - ٦٠].
(٣) سورة آل عمران [١٦٥ - ١٦٦].
(٤) سورة آل عمران [١٧٢ - ١٧٣].
(٥) انظر إن شئت فصل « مفهوم القضاء والقدر » من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح ».

وبذلك كله كانت عقيدة القدر فى حياة المسلمين الأوائل قوة دافعة محركة إلى الأمام.

ولكن تواكل الصوفية حوّلها إلى غير ذلك . . قعودا عن الأخذ بالأسباب بحجة أن « مالك سوف يأتيك »! وتخليا عن مسئولية الإنسان عن عمله بحجة أن ما وقع منه قد وقع بقدر من الله ! وقعودا عن تغيير الواقع السيئ من مرض أو عجز أو فقر أو ذل أو ضيم بحجة أنه ما حدث إلا بقدر من الله ولو شاء الله غير ذلك لكان ! !

ومع الصوفية كذلك ينشأ القعود عن تعمير الأرض ، بحجة أن الدنيا ملعونة ، والمعول عليه هو الآخرة ! وأن الإنسان حسبه فى هذه الدنيا عيشة الكفاف ، لكى ينجو بروحه من التعلق بالدنيا ، ولكى يفرغ لتزكية روحه استعدادا للآخرة !

ولا شك أن الدعوة إلى التقلل من متاع الأرض ، وعدم « التعلق » بالدنيا هى دعوة إسلامية أصيلة ، وهذا هو « الزهد » الذى أشرنا إليه من قبل. ولكن الانصراف عن عمارة الأرض قضية منفصلة ومختلفة عن عدم التعلق بالحياة الدنيا .

لقد ركّب الله فى النفس البشرية دوافع إلى العمل والنشاط فى صورة رغبات وشهوات أبرزت الآية الكريمة أهمها أو أشدها سيطرة على الإنسان :

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ﴾ [٤] .

ولم يخلق الله هذه الدوافع عبثا ، تعالى الله عن العبث . .

ولم يخلقها ليقتلها الإنسان من جانبه بحجة تزكية الروح . .

إنما خلقها لتعينه - أو لتدفعه - لعمارة الأرض ، التى هى جزء من الخلافة التى خلق الله الإنسان من أجلها :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾ [٢] .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ [٣] .

صحيح أن هذه الشهوات مهلكة للإنسان إذا مضى معها إلى آخر الشوط ولم يلتزم « بالحدود » التى رسمها الله ، وقال عنها : **﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾** [٤] . **﴿ تلك حدود الله فلا تقربوها ﴾** [٥] .

---

(١) سورة آل عمران [١٤] .
(٢) سورة البقرة [٣٠].
(٣) سورة هود [٦١] .
(٤) سورة البقرة [٢٢٩] .
(٥) سورة البقرة [١٨٧] .

لذلك خلق الله فى النفس البشرية ضوابط تضبط اندفاع تلك الدوافع، منها العقل والإرادة الضابطة، ومعرفة الطريقين والقدرة على اختيار أحدهما:

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾ (١) .

﴿ وهديناه النجدين﴾ (٢) .

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ (٣) .

ثم ذكّر الإنسان بالآخرة، والبعث والحساب والجزاء، ليكون ذلك معينا له فى ضبط شهواته والالتزام فيها بالحدود التى رسمها الله، والتى يعلم سبحانه أن فى داخلها الأمن والأمان والفلاح، ويعلم سبحانه كذلك أن الالتزام بها هو الذى يرفع النفس البشرية ويطهرها، ويعينها على عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . .

وعلى الرغم من وضوح المنهج الربانى فى هذه النقطة ، فإن الصوفية تسعى إلى «قتل» الدوافع البشرية بدلا من تهذيبها وضبطها، وتدعو إلى « إهمال» الحياة الدنيا بحجة التقرب إلى الله وابتغاء مرضاته .

ولو كان هذا هو الإسلام لهدانا إليه رسول الله ﷺ .

يستدلون بقوله ﷺ : « الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ذكر الله أو عالم أو متعلم»(٤) .

وبأن الله ذم الدنيا فى كتابه المنزل وقال عنها إنها « متاع الغرور» (٥) .

ولاشك أنه ورد فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ذم للدنيا أو لعن لها . . ولكن مراجعة السياق الذى ورد فيه مثل هذا الذم تكشف لنا بوضوح أن الدنيا تذم - أو تلعن - فى مجالين اثنين، حين تصد الإنسان عن الإيمان بالله وتدفعه إلى الكفر به، أو تصده عن الجهاد فى سبيل الله :

﴿ من كفر بالله بعد إيمانه - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم. ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ (٦) .

﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها

---

(١) سورة الشمس [٧ - ١٠]. (٢) سورة البلد [١٠] . (٣) سورة الإنسان [٣] .
(٤) رواه الترمذى وابن ماجة . (٥) سورة آل عمران [١٨٥] . (٦) سورة النحل [١٠٦ - ١٠٧] .

وتجارة تخشـون كسادها ومساكن ترضـونها، أحب إليكم من الله ورسوله وجهـاد فى سبيله، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، والله لا يهدى القوم الفاسقين﴾ (١) .

أما فى غير هذين المجالين فليست الدنيا مذمومة ولا ملعونة ، مادامت لا تصد عن الإيمان بالله أو الجهاد فى سبيل الله .

﴿ قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ﴾ (٢) .

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ (٣) .

صحيح أن التعلق بالدنيا يؤدى إلى معصية الله . وهذا هو المعنى الذى ركز عليه الصوفيون أشد التركيز ، وجعلوا الدنيا ملعونة من أجله . ولكن قتل النفس من جهة أخرى مخافة الوقوع فى المعصية يوقع فى معصية من نوع آخر ، هى القعود عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعن مجالدة الباطل والعمل على إزهاقة ، وعن عمارة الأرض بمقتضى منهج الله .

وحين يعمل الإنسان فى هذا الحقل ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والجهاد لتكون كلمة الله هى العليا ، وعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى ، ثم تقع منه الأخطاء والمعاصى غير متعمد لها ولا متبجح بها ، ثم يستغفر الله عنها ويجاهد لكى لا يقع فيها ، فذلك هو الذى قال الله فيه :

﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ـ ومن يغفر الذنوب إلا الله ـ ولم يصروا على مافعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها. ونعم أجر العاملين ﴾ (٤) .

وقال فيه رسول الله ﷺ :

« والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم وجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر الله لهم ! » (٥) .

وحين تجلس ساكنا وتحمل فوق رأسك سلة مملوءة بالأشياء فلا يقع منها شىء ، فقد حافظت على ما فى السلة بالفعل ، ولكنك ـ فى سبيل المحافظة عليها ـ تعطلت عن الحركة المطلوبة منك ! وليست هذه هى البراعة ! إنما البراعة أن تتحرك وأنت تحمل

---

(١) سورة التوبة [٢٤] .
(٢) سورة الأعراف [٣٢] .
(٣) سورة القصص [٧٧].
(٤) سورة آل عمران [١٣٥ـ١٣٦] .
(٥) أخرجه مسلم .

السلة على رأسك وتحاول جاهدا ألا يسقط منها شيء . فإن تساقط منها شيء أسرعت إلى إعادته فى السلة وعاودت المسير .

ولمثل هذا خلق الله الإنسان . حمّله الأمانة ثم أمره بالسير فى مناكب الأرض وهو يحمل الأمانة ، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويجاهد لكى يقوم الناس بالقسط ، ولكى تكون كلمة الله هى العليا ، ويعمر الأرض بمقتضى المنهج الربانى . . ثم كان من رحمته سبحانه وتعالى وهو يعلم ضعف الإنسان أنه يغفر ما يقع فى أثناء ذلك من الذنوب مادام العبد لا يصر عليها ، وما دام يستغفر ويتوب ، فيتم « الإنتاج» المطلوب والإنسان فى أرفع حالاته ، وأقربها إلى رضوان الله .

أما القعود عن الإنتاج ، أو حصره فى أضيق نطاق ممكن بحجة تجنب المزالق ، فليس هو الذى أمر به الله . .

ومن جهة أخرى فإن حصر الإنتاج فى أضيق نطاق ممكن - وهو نطاق الكفاف - يجعل الدولة كلها تعيش فى حالة الكفاف ، ولا يجعل لديها « الفائض» الذى تنفقه فى متطلبات « التمكين فى الأرض» .

إن التمكين فى الأرض هبة الله للمؤمنين :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾ (١) .

ولكن له تكاليف . .

فإلى جانب عبادة الله وحده بلا شريك ، وتحكيم شريعته وحده ، وهما المقتضى العملى للإيمان الصحيح ، فهناك تكاليف حسية ومادية :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وما تنفقوا من شيء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ (٢) .

فإذا عاش مجموع الناس عيشة الكفاف ، ولم ينتجوا إلا فى حدود الكفاف ، فكيف للدولة المسلمة أن تعد ما استطاعت من قوة لإرهاب أعداء الله ، تلك القوة التى لا يستمر التمكن فى الأرض إلا بها؟!

إنما يحتاج الأمر إلى الإنتاج الوفير والاستهلاك القليل . . وهذه هى المعادلة التى يتم

---

(١) سورة النور [٥٥] .   (٢) سورة الأنفال [٦٠] .

بها التمكين فى الأرض والمحافظة عليه . أما الإنتاج القليل على قدر الاستهلاك القليل فلا يؤدى إلا إلى فقر مجموع الأمة ، الفقر الذى يؤدى إلى الضعف ، والضعف يحرك شهوة الأعداء الذين ينتظرون الفرصة السانحة للانقضاض .

وإلى جانب ذلك كله ، فحين يعتزل المتطهرون المجتمع وينعزلون عنه - ليزكوا أرواحهم بعيدا عن الدنس - فمن يبقى فى المجتمع ؟ ومن يدير شئونه ؟ ومن يتحرك فيه؟!

أليست هذه العزلة مشجعا للفاسدين أن ينفردوا بالعمل دون تدخل ولا اعتراض؟! بينما كان الواجب الأول لأولئك المتطهرين أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر ، ويأطروا الحاكم على الحق أطرا ويأصروه عليه أصرا كما أمرهم الله ورسوله ﷺ؟!

فإذا أضيف إلى هذه الأمور كلها تضخم الشيخ فى حس المريد إلى حد أن يصبح فى حقيقة الأمر واسطة بينه وبين الله ، فى الوقت الذى جاء فيه الإسلام ليلغى كل واسطة بين العبد والرب ، ويحرر القلب البشرى من كل قيد يعوقه عن الاتصال المباشر بالله ، وعبادة الله وحده بلا شريك ، ويكون من تعليمه للناس : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون﴾[1] .

إذا أضيف هذا إلى كل ما سبق فقد بدا لنا كم تنحرف الصوفية عن أصل الإسلام ، وكم تضيف إليه ما ليس منه ، فى سبيل تحقيق غاية هى ذاتها من الإسلام ، ولكن طريقها الربانى غير هذا الطريق . .

وهذا كله مع الصوفية « النظيفة» الصادقة المخلصة ، فكيف إذا صارت دجلا وتهريجا وخرافات؟!

ولا شك أن هناك فى تاريخ الصوفية - سواء تاريخ الشيوخ أو المريدين - من كان عاملا بتعاليم الإسلام ، مجاهدا فى سبيل الله بماله ودمه ، آمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر ، ناشراً لدين الله فى الأرض . . فهؤلاء - كما أشرنا من قبل - لا ينطبق عليهم حكم الصوفية المنحرفة ، وإنما هم فى الحقيقة زهاد وإن ألحقوا بالصوفية .

ولكن الذى لاشك فيه كذلك أن هؤلاء قلة فى تاريخ التصوف ، وأن الأغلبية كانت من أولئك السلبيين المنعزلين ، الذين يسعون إلى تزكية أنفسهم فى عزلة عن ركب الحياة .

* * *

---

(١) سورة البقرة [١٨٦] .

إذا عدنا إلى الفترة العباسية لنقوم مدى ما حدث فيها من انحراف فسنجده انحرافا ضخما ولا شك . . في كثير من مجالات هذا الدين .

وكان طبيعيا كما قلنا أن تنهار الدولة العباسية من وطأة هذه الانحرافات مجتمعة، ومن بينها ما يكفى وحده لتقويض أركانها، كالترف الذى غرقت فيه القصور، ولعب الدخلاء بالسلطان، والدسائس والمؤامرات، وضعف القوة السياسية والعسكرية . . فإذا اجتمع إلى ذلك ما سردناه من الانحرافات الأخرى فلم يكن انهيار الدولة عجبا، إنما كان العجب أن تستمر أكثر من ذلك بكل ما تحمله من أمراض .

وجاء الانهيار تحقيقا لسنن الله فى الحياة البشرية . . السنن التى لا تحابى أحدا ولو قال بلسانه (لاإله إلا الله محمد رسول الله) !

وبصرف النظر عن كون التتار الذين أطاحوا بالدولة العباسية قد جاءوا بدعوة خفية متآمرة من وزير شيعى فى الدولة العباسية ذاتها، ومن اليهود القاطنين فى بغداد، الذين لم يمسوا بسوء طيلة وجود التتار فيها، بينما جرى النهر أربعين يوما أحمر من دماء المسلمين الذين ذبحهم التتار .

بصرف النظر عن هذه الحقيقة، فما كان لمثل هذا الأمر أن يقضى على الدولة لو أنها واعية لنفسها كما ينبغى للدولة المسلمة، ملتزمة بأوامر الله التى تأمر بإعداد القوة لإرهاب أعداء الله، وتأمر بعدم اتخاذ بطانة ممن يكيدون للإسلام :

﴿يـأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يـألونكم خبالا، ودوا ما عنتم، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾[1] .

﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾[2] .

ولكن انهيار الدولة بما تحمل من أوضار لم يكن هو نهاية « الأمة الإسلامية» رغم اشتراكها - ولو بقدر - فى هذه الأوضار، أولا : لأن الدفعة الحيوية الهائلة التى أطلقها الإسلام فى هذه الأمة لم تكن قد استنفدت، وثانياً : لأن العقيدة كانت ما تزال حية وإن علاها الرماد، فكانت تنتظر فقط من ينفخ عنها الرماد لتشتعل الجذوة من جديد .

وقد تبدت حيوية الإسلام وحيوية الأمة الإسلامية فى ظهور الدولة العثمانية بكل قوتها وكل حيويتها كأنها بعث جديد للأمة أو مولد جديد .

---

(١) سورة آل عمران [١١٨] . (٢) سورة فصلت [٤٦] .

ولكن . . هل كان بعثا صافيا ، أو مولدا من نوع المولد الأول فى عهد الذروة؟ أم حمل معه من أوضار « الأمة» ما كان كامنا فيها من الأوضار ؟ !

* * *

فأما من حيث صدق الرغبة فى خدمة هذا الدين ، وبذل الدماء والأموال فى سبيل ذلك ، فإنا نجد فيهم من لايقل عن مرتبة التابعين رضوان الله عليهم ، وكان جهدهم فى الحقيقة امتداداً لجهد الصحابة والتابعين الذين حاولوا فتح القسطنطينية أول مرة على عهد الأمويين .

ويكفيهم - فى ميزان الله - أنهم توغلوا فى أوروبا الصليبية ما توغلوا ، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراض وقلوب ، فدخل الناس فى الإسلام بعشرات الملايين .

ويكفيهم - فى ميزان الله - أنهم حموا العالم الإسلامى من غارات الصليبيين خمسة قرون متوالية ، فلم يجرءوا أن يتجهوا مرة أخرى نحو الشرق للاستيلاء على بيت المقدس كما فعلوا أول مرة حتى زالت الدولة العثمانية من الوجود .

ويكفيهم - فى ميزان الله - أنهم حتى وهم فى النزع قد منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام ، ولم يتمكن شذاذ الآفاق من التجمع لإقامة دولتهم إلا بعد أن زالت دولة الخلافة من الوجود .

كما أن احترامهم للعلم ، وللعلماء من حملة هذا الدين ، مما يحسب لهم كذلك فى ميزان الله .

ولكن هذا كله - على ضخامته فى ميزان الله - لاينفى وجود انحرافات خطيرة سواء فى الدولة ، أو فى حياة الأمة فى ظل الدولة . . آتت ثمارها السيئة على مرور الأيام .

لقد كانت هذه أول دولة للخلافة لم تستعرب .

ولم يكن ذلك يؤثر فى مبدأ الأمر ، مع الإخلاص وصدق العزيمة ، والعمل الجاد لتوحيد العالم الإسلامى ، ووضعه تحت قيادة قوية موحدة تحميه من التمزق الذى كان يعانيه فى أواخر الدولة العباسية .

ولكنه على مر الأيام صار يؤثر ، إذ أحس الشعب العربى ، الذى ظل طيلة تسعة قرون على الأقل هو قلب الإسلام النابض ، بلون من العزلة ، وحكامه يخاطبونه بغير لغته ، وبغير اللغة التى نزل بها الإسلام . . وظلت هذه العزلة تتزايد مع توالى الظروف السياسية التى أحاطت بالدولة العثمانية ، حتى تمكن الأعداء الماكرون من تمزيق جسم

الأمة، وكانت قضية « الترك» و«العرب» من الأدوات التي استخدموها ـ بخبث ـ في التمزيق.

ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت باللغة التي نزل بها هذا الدين، فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين. فضلا عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة، كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما في حاجة إليه، على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية، وما ألف أصلا بالتركية حول هذا الدين.

ثم كان ـ كما هو الشأن في الدول العسكرية ـ نوع من « الحزم» الزائد الذي يصل أحيانا إلى حد الاستبداد.

ولا شك أن الاستبداد السياسي قد وقع من قبل، بدأ به الأمويون وتلاهم العباسيون، وكان من الانحرافات التي ارتكبها « الملك العضوض» ، وحاد بها عن خط الخلافة الراشدة التي نعم الناس في ظلها بتطبيق العدل الرباني في أروع صوره.

ولكني أحسب أن الاستبداد السياسي في الدولة العثمانية لم يكن مجرد امتداد لما كان من الأمويين والعباسيين (وإن كان هذا جائزا) ولكن كان له سببه « المحلي» في الدولة العثمانية ذاتها من « الحزم» الزائد الذي يمارسه العسكريون في المعتاد حين يتولون شئون السياسة.

ولقد كانت مواجهة الدولة لأعداء أقوياء، لابد من القضاء عليهم أو إخضاعهم بالقوة ليتم التمكين للدولة، من أسباب هذا « الحزم» الزائد الذي اتسم به الحكم العثماني. ولكن روح الإسلام على أي حال لا تبيح الاستبداد أيا كانت ذرائعه، وتوجب تطبيق العدل الرباني فيما بين الحاكم ورعيته في جميع الأحوال.

وزاد الأمر سوءاً نظام الولاة في الدولة العثمانية، حيث كان الوالي على أي قطر من أقطار الدولة، يتولى لفترة محدودة، غالبا ما تكون سنتين أو ثلاث سنوات على الأكثر، ثم يعزل بعدها من ولايته.

وقد كان للدولة هدفها من هذا النظام دون شك، وهو تركيز السلطة في يد الخليفة، وعدم إتاحة الفرصة للولاة أن يستقلوا بولاياتهم كما حدث في أواخر العصر العباسي وانتهى بتفكيك الدولة العباسية وانهيارها في النهاية. وقد ساعد هذا النظام بالفعل على دوام سيطرة الدولة العثمانية على ولاياتها فترة غير قصيرة من الزمان، واستقرار الدولة وهيبتها في نفوس الأتباع والأعداء على حد سواء.

ولكن كان للنظام معايبه من جانب آخر، فإن الوالى الذى يعلم سلفا أنه لن يبقى فى منصبه إلا تلك الفترة المحدودة، لا يمكن أن يلتفت إلى الرعية بالحق والعدل، إلا أن تكون له أخلاق العلماء أو طباع الملائكة! إنما يكون همه فى الغالب جمع أكبر قدر من المال يستطيع جمعه ليعيش منعما بقية حياته، فيجمع للسلطان ما أمر السلطان بجمعه، ويجمع أضعاف ذلك لنفسه بالعسف والظلم اللذين يقعان لا محالة على عباد الله!

فإذا أضيف إلى ذاك نظام الإقطاع، الذى كان معمولا به عند الأتراك فى جاهليتهم قبل أن يدخلوا فى الإسلام، وحملوه معهم فى إسلامهم، فقد أضيف إلى طابع الاستبداد السياسى نوع من الظلم الاجتماعى الذى يسببه الإقطاع، يعيش فيه ألوف من البشر فى حالة التبعية الكاملة للباشوات أصحاب الإقطاعيات.

فإذا كان هذا من جانب الحكام.. فالأمر من جانب المحكومين لم يكن يخلو كذلك من الانحراف.

فأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى أمرت به الأمة، فقد كانت قد تخلت عنه بالنسبة لحكامها من زمن بعيد، ولم يكن من المتوقع أن تعود إليه فى الجو العسكرى الذى قامت فيه الدولة العثمانية، بل كان الأحرى أن تزداد تخليا عنه!

وأما «العمل» بمقتضى الإيمان فى الدائرة الفردية والاجتماعية - أى فيما لا يتعلق بالسياسة - فقد كان الحال خيرا بكثير ولا شك منه فى أواخر الدولة العباسية حيث كان التحلل قد ساد المجتمع وفسدت أخلاقه. فإن المولد الجديد على يد الدولة الفتية، والعزمة القوية التى يحتاج إليها بناء دولة جديدة تقاتل أعداء أشداء، وتريد أن تمكن لنفسها فى الأرض، فضلا عن الجد الصارم الذى تتصف به الدولة العسكرية، كل ذلك قد أحدث تماسكا خلقيا واجتماعيا قرب الناس من روح الإسلام بقدر ما كان الترف العباسى واللهو والمجون قد أبعدهم عنه.

ولكن من شأن القبضة القوية أن تتراخى، ومن شأن التمكين فى الأرض أن يجعل الأعصاب تسترخى، ما لم يحدث التذكير الدائم الذى يوقظ القلوب..

وبدلا من أن يحدث التذكير على الصورة الإسلامية الصحيحة فقد حدث على الطريقة الصوفية!

لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر فى المجتمع العباسى، ولكنها كانت ركنا منعزلا عن المجتمع، أما فى ظل الدولة العثمانية، وفى تركيا بالذات، فقد صارت هى المجتمع! وصارت هى الدين!

وانتشرت - فى القرنين الأخيرين بصفة خاصة - تلك القولة العجيبة : من لا شيخ له فشيخه الشيطان!

وأصبحت الصوفية - بالنسبة للعامة بصورة خاصة - هى مدخلهم إلى الدين ، وهى مجال ممارستهم للدين!

وحين أصبحت هكذا فقد أصبحت مجموعة من الخرافات والأوهام تتعلق «بالمشايخ» ، الأحياء منهم والأموات . وصار « التدين» هو الإيمان بالشيخ ، وبكراماته ، وبأحواله ، وقدرته على استشفاف الغيب ، وقدرته على شفاء المرضى بغير دواء ، وقدرته على « فك السحر» واستخراج الشياطين من أرواح من تسلطت عليهم . . كما أصبح هو التعلق بالأضرحة والأولياء ، ونذر النذور لهم والتقرب بالقرابين ، دون عمل حقيقى بمقتضى الدين . . فقد أصبح هذا فى حس العامة هو الدين ، وليس الدين هو ما أنزله الله فى كتابه المنزل وسنة رسوله ﷺ !

وأما الفراغ الهائل الذى خلفته الصوفية فى مجال العمل . . فقد « ستره» الفكر الإرجائى ! ! المهم هو الإيمان! والإيمان هو التصديق . وهذا متوفر داخل القلب ، فلا على الإنسان إذن أن تكون حياته خلوا من العمل بمقتضى الإيمان ، فإنه لا يضر مع الإيمان شىء .

وتدريجيا فرغت الحياة من المحتوى الحقيقى للدين ، ولم يبق منه سوى وجدانات مهومة . . مختلطة بالأضاليل ، وتقاليد!

وللتقاليد مع هذه الدولة دور تجدر الإشارة إليه .

إن الشعب التركى من أكثر الشعوب محافظة على التقاليد . ونضرب مثلا واحداً يؤكد لنا هذه الحقيقة .

البيت التركى - فى الغالب - مفروش بالسجاجيد ، فإن لم يكن كله فهناك على أى حال شىء ما يغطى أرضه ويصل ما بين حجرة وحجرة . وكان من تقاليد البيت التركى المسلم أن تخلع نعليك خارج عتبة الدار أو داخلها مباشرة ، وتستبدل بنعليك اللذين كنت بهما فى الخارج نعلين نظيفين تدوس بهما فوق السجاجيد ، حتى إذا وصلت إلى دورة المياه خلعت هذين النعلين ودخلت لتجد شيئا آخر يناسب استخدام الماء . فإذا خرجت من الحمام فلابد أن تجفف قدميك أولا ثم تلبس النعلين النظيفين الجافين اللذين كنت قد تركتهما قبل دخولك إلى هناك . .

وواضح بكل تأكيد أن هذا « تقليد إسلامى» مقصود به طهارة البيت للصلاة ،

ووجـوده فى البيت المسلم منطقى تمامـا مع الطهـارة التى فـرضـهـا هذا الدين فى كل شىء .

ولكنك تجد اليوم فى تركيـا « كـمـاليين» قـد انسلخـوا من دينهم تمامـا فلم يعـودوا يصلون ولا يصـومـون ولا يؤمنون بدين، ومع ذلك تجد ذات « التقليد» فى بيوتهم . . لأنه « تقليد» !

إذا فهمنا هذه الروح المتأصلة فى هذا الشعب، فهـمنا كيف حافظ هذا الشعب على «التقـاليد الإسلامية» فترة طويلة جدا، ما كـان لشعب آخر ـ ولا الشعب العربى ـ أن يحـافظ عليهـا مثله . . ومن خلاله ـ بوصفه الشعب الحاكم، أو شعب الدولة الحاكمة ـ بقيت التقاليد مرعية فى العالم الإسلامى فترة من الزمن غير قصيرة .

ولكنها فى الفترة الأخيرة كانت مجرد تقاليد . . خاوية من الروح .

إن تحول الأخلاق الإسلامية وأنماط السلوك الإسلامى إلى تقاليد هو فى ذاته أمر طيب، لأنه يطبع بهـا المجتمع والأجيـال الناشئة جيلا بعد جيل، فتتقبلهـا فى يسر، وتمارسها ممارسة تلقائية لا يشعر فيها صاحبها بالجهد .

ولكن ذلك طيب مع وجود الوعى بالأصل الإيمانى، الذى انبعثت منه هذه التقاليد وصـارت تعبيرا عـمليا عنه . فأمـا إذا ذهب هذا الوعى، وغـاب الأصل الإيمانى الذى انبثقت منه التقـاليـد أول مرة، وصـار الأمر هـو المحافظة على التقـاليد من أجل أنـهـا تقاليد . . فقـد آذنت تلك التقاليد بالزوال إذا اصطـدمت بمؤثر قوى يدهمـها ويحـاربها . ذلك أن الذى يصـمـد فى المعركة ليس هو التقليد، إنما هو الروح الكامنة وراء التقليد . فإذا خبت الروح فلا صمود .

لذلك لا نعجب ـ كـما سنرى فى الفصل القادم ـ إذا رأينا هذه التقاليد تتهاوى واحدا إثر الآخر لما دهمهـا الغزو الفكرى المنظم الذى وجه لتحطيمها، ولا تحتمل المعركة كلها أكثر من نصف قرن من الزمان فى معظم بلدان العالم الإسلامى !

ونضرب مثلا واحدا للتوضيح : « الحجاب التركى » الشهير . .

لقد كـان هذا حجابا إسـلاميا لا شـك فى نسبته إلى الإسلام[1] . والترك لـم يعـرفوه

(١) يتصايح الفارعون والفارغات بأن الحجاب ليس « إسلاميا» إنما هو تقليد عربى بدوى أبقاه المسلمون بعد إسلامهم محافظة على التقاليد الموروثة ليس غير! ويتبجحون بإنكار وقائع التاريخ . تقول عائشة رضى الله عنها : رحم الله نساء الأنصار . لما نزلت آية الحجاب عمدت كل واحدة منهن إلى ثوبها فاعتجرت به (أى لفته فوق رأسها ووجهها) فهو لم يكن تقليدا معمولا به قبل الإسلام، إنما هو أمر أمر به الله تعالى فنفذه المسلمون .

إلا من خلال إسلامهم، أى أنهم أخذوه عن الشعوب التى تعلموا منها الإسلام. وكان هذا الحجاب - بصورة من الصور - أصلا مرعيا فى العالم الإسلامى كله خلال قرون متطاولة من الزمان.

ولكن لما خفتت الروح الإسلامية الحقيقية فى العالم الإسلامى بسبب مجموعة الانحرافات التى تحدثنا عنها من قبل، بقى الحجاب تقليدا يراعى بشدة ولا تخرج عليه - ولا تجرؤ أن تخرج عليه - امرأه واحدة فى العالم الإسلامى وإلا عدت ساقطة عديمة الأخلاق.

وعلى الرغم من شدةالمحافظة عليه بوصفه تقليدا مرعيا فى المجتمع، فإنه أمام الغزو الفكرى الذى نادى بتحرير المرأة وطالب بالسفور، وخروج المرأة حاسرة فى الطريق، لم يصمد أكثر من نصف قرن، وخرجت نساء العالم الإسلامى سافرات كاسيات عاريات مائلات مميلات كما وصفهن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يبرزن إلى الوجود بثلاثة عشر قرنا أوتزيد.

وكان ذلك لأن الحجاب كان مجرد تقليد، يرعى بهذه الصفة، لا عن إيمان حى واع بالأصل الاعتقادى الذى انبثق عنه الحجاب.

وازن بين ذلك وبين الفتيات المحجبات اليوم عن عقيدة ووعى.. إن الجاهلية - بكل ثقلها - تندد بهن وتسخر منهن، بل تتعرض لهن أحيانا بالسجن والتعذيب.. فهل خلعن الحجاب؟ أو استمعن للأصوات الناشزة التى تدعوهن لخلعه؟!

هذا هو الفارق بين السلوك النابع من العقيدة، والسلوك النابع من التقليد.. وقس على ذلك كل أمور الإسلام..

فإذا علمت أن الأمر انتهى إلى أن يصبح الإسلام كله، حتى عباداته وسلوكه، تقاليد، ترعى لأنها تقاليد ولكنها خاوية من الروح.. استطعت أن تدرك كيف جاء الانهيار.

* * *

أمر أخير لابد من الإشارة إليه فى ظل الحكم العثمانى، لأنه كان ذا أثر بعيد فى المجتمع الإسلامى..

لقد ظلت الأمور فى العالم الإسلامى - وفى العالم أجمع فى الحقيقة - عشرة قرون كاملة تقريبا لا تكاد تتغير إلا فى نطاق محدود..

وكان الفقهاء المسلمون الكبار قد اجتهدوا فى كل ما واجههم من الأمور، فأنشئوا

فقها متكاملا عميقا شاملا يغطى احتياجات المسلمين فى العبادات والمعاملات . ثم جاء تلاميذهم وشراحهم فزادوا فى قضايا الفروع حلولا لمشكلات تصوروا حدوثها فى أى ظرف من الظروف القادمة ، فكانوا يفترضون الفرض ويقولون : أرأيت لو حدث كذا ! ويستنبطون لهذا الأمر المتخيل حكما مستمدا من شريعة الله .

فلما مضى الزمن وحدثت تلك الافتراضات بالفعل ، لم يحس المسلمون أنهم فى حاجة إلى اجتهادات جديدة ، فقد غطى الفقهاء وتلاميذهم وشراحهم من قبل كل ما جد فى حياتهم . . لذلك أعلنوا ـ منذ القرن الخامس ـ إغلاق باب الاجتهاد لعدم الحاجة إليه !

ومرت خمسة قرون أخرى أو ستة على وجه التقريب والمسلمون لا يحسون بحاجة لمراجعة هذا القرار ، لأن ما بين أيديهم من الفقه يكفيهم ويفيض عن حاجتهم ، فاكتفوا بالتتلمذ عليه ، وإخراج المختصرات التى تفى بحاجة طالب العلم المبتدئ لتعينه على الدخول فى عالم الفقه العويص !

ولكن الأمور منذ القرن الثانى عشر الهجرى على الأقل بدأت تتغير تغيرا سريعا بعد اختراع الآلة وتقدم الأبحاث العلمية والمكتشفات والمخترعات ، مما أحدث أوضاعا جديدة وعلاقات جديدة لم يكن الفقهاء القدامى وتلاميذهم وشراحهم قد تخيلوا حدوثها، فلم يستنبطوا لها الأحكام الملائمة من الشريعة الإسلامية .

وهنا كان المفروض أن يعاد فتح باب الاجتهاد لمواجهةهذه التغيرات وبيان حكم الله فيها ليلتزم به المسلمون . إذ مهمة الفقه الدائمة التى لا تتوقف هى مواجهة كل ما يلم بالمسلم فى حياته وبيان حكم الله فيه من حلال أو حرام أو مندوب أو مكروه أو مباح ، ليكون المسلم على بينة من أمر ربه فى كل أمر يأتيه .

ولكن الدولة العثمانية رفضت إعادة فتح باب الاجتهاد [(١)]

رفضت بحسن نية كاملة ، وبغيرة حقيقية على دين الله . . على أساس أنه لا يوجد فى الوقت الحاضر من تتوافر فيه شروط الاجتهاد !

ولكن النتائج كانت خطيرة . .

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته . . فماذا يحدث ؟!

---

(١) يعتقد كثيرون أن الدولة العثمانية هى التى أغلقت باب الاجتهاد ، وهذا غير صحيح . فقد أقفل باب الاجتهاد منذ القرن الخامس الهجرى . إنما المأخوذ على الدولة العثمانية أنها لم توافق على إعادة فتحه حين اقتضت الظروف ذلك .

يحدث أحد أمرين : إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو ، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها . وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة وتخرج فى الوقت ذاته من ظل الشريعة ، لأن هذا الظل لم يمد - بالاجتهاد - حتى يغطيها .

وقد حدث الأمران معا ، الواحد تلو الآخر . . الجمود أولا ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة !

وقد يظن القارئ العابر للتاريخ أن الخروج على الشريعة قد حدث فى أول القرن الرابع عشر الهجرى (نهاية القرن التاسع عشر الميلادى) ولكن الحقيقة غير ذلك فالذى حدث فى تلك الفترة - كما سيجىء بيانه فى الفصل القادم - هو تنحية الشريعة الإسلامية جملة والحكم بغير ما أنزل الله جهرة . . ولكن بدء تسلل « الأنظمة» الأجنبية إلى الدولة الإسلامية قد بدأ مبكرا عن هذا العصر ، منذ بدأت عملية إدخال «التنظيمات» الأوربية لتحكم بها المحاكم فى الدولة الإسلامية فيما جد من الأمور التى لم يتناولها الفقهاء القدامى . وكان الدافع وراء هذا هم اليهود والنصارى فى بلاط الخلافة[1] ! (لأمر يريدونه بلا شك) وكانت هذه ثغرة بدأت تتسع حتى أدت فى النهاية إلى أفظع ما حدث فى تاريخ الأمة من انحرافات!

لقد كانت تلك « التنظيمات» فى مبدئها مما يمكن أن يتمشى مع روح الإسلام ولا يناقض نصوصه ، لذلك لم يجد علماء ذلك الوقت حرجا فى استخدامها ، خاصة مع عدم الإذن بإعادة فتح باب الاجتهاد :

لكن الانحراف كان خطيرا من وجهين .

الوجه الأول : أنه أحدث « مبدأ » خطيرا فى ذاته ، وأثبتت الأيام خطورته ، هو مبدأ الاستمداد من فكر غير إسلامى ، وحياة غير إسلامية ، ومنهج غير إسلامى ، وتركيب الرقعة المستعارة فى الثوب الإسلامى بحجة أنها « لا تتنافى» معه .

والوجه الثانى : وهو لا يقل خطورة ، أنه أحدث وهما فى نفوس الناس - بوعى منهم أو بغير وعى - مؤداه أن الشريعة الإسلامية صالحة للتطبيق فيما بقى على حاله من أمور الحياة لم يتغير منذ نزول هذه الشريعة ، أما ما جد من الأمور - وخاصة فى القرنين الأخيرين - فإن الشريعة لا تصلح لمواجهته وتوجيهه ، إنما الحل فيه هو استيراد

---

(١) كان وجود اليهود والنصارى فى بلاط الخلافة من المخالفات التى وقعت فيها الدولة العباسية ثم العثمانية رغم التحذير الربانى بعدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين !

«القوانين» الصالحة له من الأمم « المتقدمة» التى عانت المشكلة أصلا واستنبطت لها الحل !

وكلا الوجهين كان له فى حياة الأمة الإسلامية فى أجيالها الأخيرة أسوأ تأثير .

* * *

فى الصفحات الماضية من هذا الفصل عبرنا ـ فى سرعة خاطفة ـ أربعة عشر قرنا من تاريخ هذه الأمة على وجه التقريب ! والعبور بهذه السرعة الخاطفة على النحو الذى صنعناه لا يمكن فى الحقيقة أن يعطى صورة صحيحة عن خط سير الأحداث .

فالأحداث لا تقع مفردة ، ولا تسير فى قنوات مفردة كما نتكلم عنها هنا ، إنما تتفاعل الأحداث خلال الحياة البشرية وتعطى آثارها من خلال تجمعها وتفاعلها ، بحيث يصعب أن ترد النتائج إلى سبب واحد بعينه مهما تكن قوته فى ذاته ، ولا إلى مجموعة الأحداث كل على حدته . . كما أن الواقع التاريخى فى سيره البطىء ، المتداخل المتغير الصورة على الدوام ، لا تجرى فيه الأحداث فى خطوط مستقيمة مباشرة كالتى نرسمها نحن فى أثناء الحديث ، إنما تتعرج الخطوط وتتداخل ، يسرع بعضها أحيانا ويبطىء أحيانا أخرى ، ويبدو كالمتوقف فترة ثم يعود فيتحرك مرة أخرى . . وفى النهاية تظهر لنا نتيجة كأنها حاسمة ونهائية . . وهى لا تعدو أن تكون مرحلة فى خط السير ، يجد بعدها جديد !

كلا ! ليست الصورة فى حقيقتها كما رسمناها فى تلك الصفحات الماضية بتلك السرعة الخاطفة . . ولكنها ضرورة البحث من ناحية ، وضرورة الإيجاز .

ضرورة البحث تفرد خطوط التاريخ ، وتتحدث عن كل واحد على حدته كأنه كان كذلك فى الحقيقة . وضرورة الإيجاز تجعلنا نكتفى برسم الخطوط العريضة ، فننسى أنها لم تكن وحدها هى العاملة فى رسم الصورة النهائية ، إنما كان إلى جوارها عشرات من الخطوط الأخرى ، وعشرات من القنوات الخفية التى تصل بينها ، وتحكم ارتباطها دون أن تظهر على السطح !

فلنذكر على أى حال أننا لم نكن فى خلال تلك الصفحات نكتب تاريخ الأمة الإسلامية ، ولا حتى تاريخ خط الانحراف ! إنما كنا نلتقط خطوطا بعينها ، ومواقف بعينها ، نحسبها أظهر ما فى الصورة ، فننتزعها من سياقها المتداخل المتراكب المترابط لنسلط عليها الضوء . . ونسميها على سبيل المجاز « خط » الانحراف !

ومهما يكن من أمر ، فقد تجمعت الانحرافات وتفاعلت بعضها مع بعض ، فأدت فى النهاية إلى الانهيار . .

من الذروة السامقة إلى الهوة السحيقة . . مسافة تدير الرءوس . .

هل يصدق أحد حين يعايش الجيل المتفرد بكل قممه السامقة أن ذراريه يمكن أن تهبط إلى هذه الهوة السحيقة؟! وهل يصدق أحد حين يعايش الأجيال الحاضرة فى هوتها السحيقة التى ترديت إليها ، أنها من ذرارى ذلك الجيل المتفرد فى التاريخ؟!

كأنهما أمتان منفصلتان لا يجمع بينهما شىء !

ومن العسير كما قلنا أن نرجع النتائج النهائية إلى سبب واحد بعينه ، ولا إلى مجموعة من الأسباب كل على حدته . ولكن هذا لا ينفى أن تكون هناك أسباب أقوى فى تأثيرها من أسباب .

ولعلنا نستطيع أن نلخص الموقف فى أربع نقاط رئيسية ، أو أربعة أسباب رئيسية ، ترد إليها بقية النقاط وبقية الأسباب . .

فهناك أولا التفلت البشرى الطبيعى من التكاليف كلما امتد الزمان . والعلاج الربانى لهذا التفلت ـ كما قلنا ـ هو التذكير . فنستطيع أن نقول إذن إن التذكير لم يكن بالقدر اللازم الذى يمنع مجموع الأمة من التفلت ، أو لم يكن ـ من حيث الكيف ـ بالكفاءة المطلوبة لمنع الأمة من الانحراف عن الجادة ، وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار تزايد الرقعة المستمر ، ودخول أقوام جدد فى الإسلام باستمرار .

وفى الوقت ذاته ، حين كان التذكير أقل من المطلوب فى الكم وفى الكيف ، وكان فى حاجة إلى المزيد ، جاء تياران مضادان لعملية التذكير ، يزيدان من درجة العجز فيها ، أحدهما هو الفكر الإرجائى الذى يطمع العبد فى رضا مولاه بغير عمل حقيقى بمقتضى الإيمان ، اتكالا على ما فى القلب من وجدانات ومشاعر ؛ والآخر هو الصوفية ، التى تطمع العبد فى رضا مولاه عن طريق آخر غير أداء التكاليف الشرعية ، بالأوراد والأذكار ، والتبرك بالأولياء والمشايخ ، ووضع المريد نفسه بالكلية بين يدى شيخه ينفث فيها ما يشاء وهو مستسلم له تماما كأنما يتلقى منه وحى السماء! وكان تأثير هذه العوامل الثلاثة منصبا كله على « العمل» بمقتضى الإيمان ، أى إبرازه فى الصورة السلوكية الواقعية الصحيحة ، وبصفة خاصة على « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» وهو الخلاصة الحية لحركة هذا الدين الواقعية الإيجابية فى الأرض ، التى تؤدى إلى تطبيق المنهج الربانى فى واقع الحياة ، لكيلا يضمر وينحسر فى داخل الوجدان ، فيكون من ثم عرضة لمزيد من الانحسار .

فإذا أضفنا إلى هذه العوامل الثلاثة الاستبداد السياسى الذى أدى إلى ضمور الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فى المجال السياسى خاصة، وتحول الإسلام فى حس الناس إلى ممارسة فردية بعد ضمور الممارسة الجماعية لهذا الدين - وهى ركن أساسى فيه - والتركيز التدريجى على الشعائر التعبدية على أنها هى « الدين » . .

إذا أضفنا هذا إلى العوامل الثلاثة الماضية، فقد تجمعت لدينا فى النهاية تيارات أربعة، تلتقى آخر الأمر فى تيار واحد كبير، مضاد فى اتجاهه لمجرى هذا الدين، سواء فى واقع المجتمع أو فى داخل النفوس .

نستطيع باختصار أن نقول : إن كل المفاهيم الإسلامية قد فسدت وانحرفت فى حس الأجيال المتأخرة، بدءاً بمفهوم لا إله إلا الله، التى أصبحت مجرد كلمة تقال باللسان ، والقلب عنها غافل، والسلوك عنها بعيد، إلى مفهوم العبادة الذى انحصر فى الشعائر التعبدية - تؤدَّى أو لا تؤدى ! - إلى مفهوم القضاء والقدر الذى تحول إلى قوة مثبطة مخذلة، إلى مفهوم الدنيا والآخرة اللتين انفصلتا وتحولتا إلى معسكرين متقابلين متعاديين، العمل فى أحدهما يؤدى إلى إهمال العمل فى الآخر، إلى مفهوم عمارة الأرض، الذى تحول من عمارة الأرض بمقتضى منهج الله إلى توقف العمارة، إلى عودة العمارة ولكن بغير منهج الله [1] !

وأصبح الدين فى النهاية صورة باهتة خاوية من الروح، لا تستطيع أن تصمد للهجوم الوحشى الذى تدافع من كل صوب للقضاء على الإسلام .

ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن كل النفوس قد تخربت ؛ ولا أن التذكير لم يعد له أى أثر على الإطلاق ؛ ولا أن الفكر الإرجائى قد صرف كل الناس عن العمل، بل عن العزائم العالية ذاتها ؛ ولا أن سلبية الصوفية قد أحاطت بكل النفوس فصرفتها عن الإيجابية اللازمة، ولا أن الساحة قد خلت تماما من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، سواء فى ميدان السياسة أو فى الأمور الاجتماعية . . فإنا إن قلنا ذلك نكون مجافين للحقائق التاريخية، ومفتئتين على النماذج البارزة الرائعة التى لم يخل منها قط جيل من أجيال الإسلام، والتى تحمل دائما قبسا من ذلك الجيل الفريد . .

---

(١) راجع إن شئت كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

ولكنا حين نطلق ما نطلق من تعميمات ، نقصد بذلك الصورة الغالبة . . والصورة الغالبة هي التي تقرر الموقف العملي في الحقيقة ، وليست القلة المتميزة مهما يكن لها من التميز ، إلا أن يكون في أيديها هي مقاليد الأمور . .

وفي الفصل القادم نحاول أن نشرح بشيء من التفصيل آثار الانحراف في واقعنا المعاصر ، بعد أن أدت الأسباب إلى نتائجها الحتمية حسب سنة الله .

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ [1] .

(١) سورة الفتح [٢٣] .

آثار الانحراف

أشرنا فى نهاية الفصل السابق إشارة عابرة إلى آثار خط الانحراف الطويل فى واقع الأمة فى الفترة الأخيرة. ونريد هنا أن نركز القول على القرنين الأخيرين فى حياة الأمة - والقرن الأخير خاصة - بشىء من التفصيل، يبين لنا من ناحية، كيف وصلنا إلى واقعنا المعاصر الذى نعيشه فى هذه اللحظة، ويبين لنا من ناحية أخرى ماهية هذا الواقع المعاصر وسماته البارزة، ليتيسر لنا فيما بعد أن نتعرف على طريق الخلاص.

١- التخلف العقدى

إن أول ما يبدهنا حين ننظر إلى القرنين الأخيرين - والقرن الأخير خاصة - هو الغبش الشديد المحيط بحقيقة الإسلام فى نفوس المسلمين، والبعد المتزايد عن هذه الحقيقة فى الحياة الواقعية. أى أنه فساد فى التصور وفساد فى السلوك.

لقد كان الفساد فى السلوك قائما فى عصور سابقة، وجر على الأمة الوبال إذ أدى إلى اجتياح جحافل التتار دولة الخلافة وتدفق الصليبيين من الغرب يريدون إطفاء نور الإسلام.. ولكن التصورات كانت ماتزال أقرب إلى الصحة، لأن الانحرافات المتعلقة بالتصور كانت محصورة فى نطاق محدود. فالفرق الزائغة قد زاغت ولكن حجمها بالنسبة لمجموع الأمة ضئيل، والفكر الإرجائى قد وجد ولكنه كان مايزال أفكارا فى الأبراج العاجية أكثر منه واقعا ملموسا فى حياة الأمة، لأن دفعة العمل كانت ماتزال قوية دفاقة فى كل اتجاه، بحيث لا تعطلها تلك الأفكار عن الانطلاق. بل كان أصحاب الفكر الإرجائى هم أنفسهم - كما سبق القول - من العابدين العاملين الفقهاء، ولم يكونوا يتأثرون بفكرهم الخاص فيتركوا العمل أو ينادوا بتركه! وكانت الصوفية

موجودة، ولكنها ليست السمة الغالبة على المجتمع، بل هى قائمة فى ركن منعزل منه تتعبد لنفسها بعيدا عن الضوضاء!

أما حين بدأ الفساد فى التصور يتسع حتى يصبح هو الأصل، فقد تغير الأمر . . ولم يعد فساد السلوك وحده هو العلة فتنفعه خطبة حماسية أو موعظة مؤثرة . . إنما أصبح الأمر يحتاج إلى جهد ضخم يبذل التصحيح المفاهيم أولا ثم تصحيح السلوك بعد ذلك، أو تصحيحهما معاً فى الوقت ذاته، وهو على أى حال جهد غير يسير . .

فسدت المفاهيم كلها كما أشرنا فى نهاية الفصل السابق، فلم يعد شئ منها يشابه أصله الذى كان عليه يوم نزل هذا الدين من عند الله .

كانت لا إله إلا الله عند الجيل الذى تلقاها وآمن بها أول مرة شيئا يبلغ من الضخامة أن يزيل واقعا بشريا بأكمله، وينشئ بدلا منه واقعا جديدا مختلفا عنه كل الاختلاف.

كانت منهج حياة متكاملاً يشمل الحياة بجميع جوانبها وجميع حذافيرها، فلا يند شئ من هذه الحياة صغر أو كبر عن لا إله إلا الله ومقتضياتها، ومقتضياتها هى التسليم بما جاء من عند الله، والعمل - قدر الطاقة - بمقتضى ما أنزل الله :

﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا.. ﴾ (١) .

وكانت ضخامتها فى حسهم متمثلة فى التغير الهائل الذى حدث فى داخل نفوسهم، حتى لكأنها نفوس جديدة لا عهد لهم بها من قبل، والتغير المكافئ الذى حدث فى واقع حياتهم، حتى لكأنها حياة جديدة ليس فيها شئ من الماضى، حتى حركة الأنفاس وحركة الجوارح، فقد اكتسب كل شئ معانى جديدة لم تكن له من قبل، فأصبح شيئا جديدا غير المألوف من قبل.

وحتى الأشياء القليلة التى بقيت من حياة الجاهلية وارتضاها الإسلام، لم تكن هى بحال تلك التى كانت فى الجاهلية، إنما هى شئ مختلف تماما فى جوهره وإن تشابهت الصورة؛ شئ ولد ميلادا جديدا مع الإسلام.

فالشجاعة صفة كانت فى الجاهلية وارتضاها بل حض عليها الإسلام. ولكن هل كانت هى هى ؟ كلا! فشجاعة الجاهلية هى تلك « الحمية» التى ندد بها الإسلام تنديدا:

﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية، حمية الجاهلية ..﴾ (٢) .

---

(١) سورة التغابن [١٦] .

(٢) سورة الفتح [٢٦] .

أما ما دعا إليه الإسلام فهو الجوهر الحقيقى للشجاعة . . الشجاعة فى الحق ، لا الحمية فى الباطل ، والجهاد الخالص لله لا للسمعة والرياء .

والكرم صفة كانت فى الجاهلية ، وارتضاها الإسلام بل حض عليها . ولكنها فى الإسلام شيء مختلف فى جوهره وإن تشابهت الصورة . إنها فى الجاهلية رئاء الناس ، الذى ندد به الإسلام تنديدا :

﴿ كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين﴾ (١) .

أما فى الإسلام فهو الإنفاق النقى الخالص ، الذى يراد به وجه الله ، وليس للذكر الذى تتحدث به الركبان :

﴿ ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا﴾ (٢) .

كذلك . . لقد غيرت لا إله إلا الله كل شيء فى حياة الجيل الأول ، وأنشأت فى مكانه واقعا جديدا كل الجدة ، وارتبط هذا الواقع الجديد فى حسهم بلا إله إلا الله ، لأنها هى التى أحدثته بالفعل فى داخل النفوس وفى واقع الحياة .

حين كانت الآلهة فى حسهم متعددة كان الضياع والتيه ، وكان الارتكاس فى الحمأة الجاهلية ، وكان فساد الأخلاق ، وكان ضيق الأفق ، وسطحية الاهتمامات وقربها وأنانيتها ، وكان الظلم المتبادل :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ، ومن لا يظلم الناس يظلم (٣) !

وحين آمنوا بالله الواحد ، وأقروا أنه لا إله إلا الله ، تغير هذا كله ، فوجدوا بعد ضياع ، ورشدوا بعد تيه ، وارتفعوا بعد ارتكاس ، وسمت أخلاقهم بعد فساد ، واتسعت آفاقهم بعد ضيق ، وعمقت اهتماماتهم وبعدت آمادها وذهبت عنها أنانيتها ، وصارت الأخوة مكان التظالم . .

لذلك كان الإيمان بـ « لا إله إلا الله» موازيا فى حسهم لهذا التغير العظيم كله ، بل

---

(١) سورة البقرة [٢٦٤] . (٢) سورة الإنسان [٨-٩] .
(٣) من ملعقة الشاعر الجاهلى زهير بن أبى سلمى .

مؤديا إليه فى الحقيقة ، فلم تكن فى حسهم هى الكلمة ، إنما كانت موجودة فى حسهم بمدلولها ، بمقتضياتها ، بترجمتها الواقعية . وكانت ترجمتها الواقعية هى ما تشتمل عليه حياتهم من كل شئ ؛ من اعتقاد بوحدانية الله ، إلى صلاة وصيام وزكاة وحج تؤدى كلها لله الواحد بلا شريك ، إلى إقامة الحياة بكل دقائقها على مقتضى ما جاء من عند الله .

وهل لـ « لا إله إلا الله » معنى غير ذلك ؟ أو ترجمة غير ذلك ؟ !

صحيح أن لتحقيق لا إله إلا الله فى عالم الواقع درجات مختلفة [1] ، كلها ترجمات لها ، أدناها هو الحد الأدنى المفروض ، وأعلاها هو تلك النماذج المتفردة التى أتى بها الجيل المتفرد . ولكنها فى كل درجاتها الصحيحة ، لا تهبط عن الحد الأدنى المفروض ، لا تهبط عن الاعتقاد بوحدانية الله ، وإقامة الشعائر التعبدية له وحده بلا شريك ، وإقامة الحياة بمقتضى ما جاء من عند الله . . ثم ترتفع ما شاءت بعد ذلك فى دقة الأداء وعمق الأداء . .

ولكنها ظلت خلال القرون المتوالية تضمر تدريجيا فى حس الناس ، وظل مفعولها يضمر فى داخل النفوس وواقع الحياة ، حتى أصبحت فى النهاية لا تعمل . . وإنما تقال فقط ، ثم تجرى الحياة بعد قولها فى مجراها الذى تسوقها إليه الظروف ، كمن يضع فى طريق التيار حاجزا يريد به ضبط التيار أو تحويله ، ولكن الحاجز مملوء بالثقوب ، فهو قائم ولكنه لا يصنع شيئا ، والماء يجرى من خلاله كأنه غير موجود ! أوكورقة العملة المزيفة ، تحمل ذات الألفاظ والرسوم التى تحملها الورقة الحقيقية ، ولكنها لا تغنى صاحبها ، ولا تشترى له شيئا من السوق إن لم تعرضه للعقاب وللخزى . . لأنها ورقة بلا رصيد !

وكانت العبادة عند الذين تلقوا هذا الدين أول مرة أمرا شاملا للحياة كلها كما علمهم الله :

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له ﴾ [2] .

فلم تكن قط محصورة فى الشعائر التعبدية من صلاة وصيام وزكاة وحج ، ثم يعيش الإنسان فيما بين الشعيرة والشعيرة بلا عبادة ! إنما الحياة كلها عبادة ، وذكر الله ـ بما يقتضيه الذكر من عمل بمقتضى ما أنزل الله ـ عملية دائمة لا تتوقف :

---

(١) تقابلها درجات مختلفة من الجنة .

(٢) سورة الأنعام [١٦٢ ـ ١٦٣] .

« الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم .. »[1] .

لذلك كانت قلوبهم مشغولة أبدا بذكر الله ، وكانت كل لحظة من لحظات حياتهم عبادة .

لم يكن فى حسهم فى لحظة التجارة والبيع والشراء أنهم الآن فى خارج العبادة ، فلا عليهم أن يغفلوا عن ذكر الله ، ولا عليهم أن يغشوا أويخدعوا أو يسعوا إلى الربح الفاحش على حساب الناس !

لم يكن فى حسهم فى لحظة الترويح عن أنفسهم أنهم الآن فى خارج العبادة، فلا عليهم أن يفحشوا ويمجنوا ويعصوا الله وينسوا أوامره حتى يعودوا إلى ذكره من جديد حين تحين « لحظة » العبادة !

بعبارة أخرى لم تكن الحياة تنقسم فى حسهم إلى « عبادات» و«معاملات» إنما هى عبادات مختلفة، بعضها شعائر مفروضة ذات أوقات محددة، وبعضها معاملات مفتوحة تشمل كل نشاط الإنسان السياسى والاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى والعلمى والحضارى . . ولكنها كلها داخلة فى دائرة العبادة التى يذكر فيها اسم الله ، ويلتزم فيها بما أنزل الله .

كذلك لم تكن الحياة تنقسم فى حسهم إلى « ساعة لقلبك وساعة لربك » فالساعتان كلتاهما لله ، لأنهما من ساعات الحياة ، والحياة كلها لله . .

وهل يمكن أن تكون العبادة شيئا غير هذا الذى فهمه الجيل المتفرد ؟ !

هل التزامهم بما أنزل اللّه فى « المعاملات » كان شيئا من عند أنفسهم تزيدوا به على هذا الدين ؟ وهل التزامهم بآداب الإسلام وأخلاقياته حتى فى ساعة «الترويح» كان شيئا من عند أنفسهم تزيدوا به على هذا الدين؟

أم إن هذا هو « الدين» كما علمهم إياه رسول الله ﷺ ؟

هل الصدق والأمانة فى البيع والشراء والتجارة، والوفاء بالوعد، والإخلاص فى العمل وإتقانه، والانضباط فى السلوك، والالتزام بالآداب والأخلاق . . هل هذه كلها أشياء جاءوا بها من عند أنفسهم، وتطوعوا بها تطوعا غير مأمورين؟

---

(١) سورة آل عمران [١٩١] .

نعم لقد كانت لهم مجالات تطوعهم التى تفردوا بها . . حين ألزموا أنفسهم بالمندوبات كأنها فرائض، وهذا هو الذى ارتفع بهم إلى القمم السامقة التى وصلوا إليها . . أما تناول الحياة كلها على أنها عبادة يلتزم فيها الإنسان بما أنزل الله، ويتوجه بها إلى الله، فهل كان من عند أنفسهم؟ أم إنه هو التحقيق العملى لقوله تعالى : ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له﴾ ؟ وقوله تعالى : ﴿يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾ ؟!

وإذا كان الصدق تكليفا ربانيا، والأمانة تكليفا ربانيا، والوفاء بالوعد تكليفا ربانيا . . فهل هذه التكاليف داخلة فى العبادة أم خارجة عنها، زائدة عليها؟

وكيف تكون خارجة عنها أو زائدة عليها والله سبحانه وتعالى يقرر بأقوى صيغ التوكيد (النفى والاستثناء) أنه لم يكلف البشر إلا أن يعبدوه :

﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [١] .

فإذا كان أقصى الغاية التى خلق البشر ليقوموا بها هى العبادة، فهل يمكن أن يكون تكليف واحد من التكاليف خارجا عن دائرة العبادة؟ وأين يكون إذن من قول الله المؤكد بأنه خلق البشر لعبادته وحدها لا ليقوموا بأى شىء آخر؟!

لقد كان فهم الصحابة رضوان الله عليهم هو الفهم الحق، وكان سلوكهم بمقتضى هذا الفهم هو السلوك الحق.

ولكن خلفت من بعدهم أجيال أخذت تتخفف من التكاليف، فتخرجها رويدا رويدا من دائرة العبادة، وتضيق دائرة العبادة تدريجيا حتى تحصرها نهائيا فى الشعائر التعبدية ولا زيادة !

وحين خرج الصدق من دائرة العبادة لم يعد الصدق فى حس الناس لازما . . إنما أصبح شيئا جميلا إن وجد ، فإن لم يوجد فلا بأس !

وحين خرجت الأمانة من دائرة العبادة لم تعد لازمة فى التعامل ! إنما هى جميلة إن وجدت فى شخص بعينه ، فإن لم توجد فلا بأس !

وحين خرج الوفاء بالوعد من دائرة العبادة لم يعد لازما ! إنما هو موعظة جميلة يلقى بها الخطيب فى خطبة الجمعة ، فإن لم يمارسه أحد فلا بأس !

---

(١) سورة الذاريات[٥٦]

وهكذا صار عند الناس إسلام بلا أخلاق . . إسلام لم ينزله الله تعالى ولم يأمر به، إنما أمر بضده تماما . . ومع ذلك يمارسه الناس على أنه « غاية المراد من رب العباد» !

ويجئ الفكر الإرجائى فيواكب هذا التخلف العقدى المهلك ، ويتسع تدريجيا مع كل تخلف جديد على أساس قاعدته « العظمى» أنه لا يضر مع الإيمان شىء، وأن الإيمان هو التصديق ،أو هو الإقرار والتصديق، وأن العمل خارج من مسمى الإيمان!!

حقيقة أن الناس وهم يصنعون ذلك لم يكونوا قد خرجوا من دائرة الإيمان . . وأنهم عصاة بين يدى الرحمن إن يشأ يعذبهم وإن يشأ يرحمهم . ولكن الزعم بأن « أمة محمد بخير » وهى تصنع ذلك كله ، وأنه لا يضر مع الإيمان شيئ ، هو زعم باطل يكذبه الله ورسوله ﷺ ، ويكذبه واقع التاريخ !

فأما الله سبحانه وتعالى فيقول :

﴿ ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب، من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾ (١) .

وأما رسوله ﷺ فقد سأل أحد صحابته رضوان الله عليهم : « كيف أصبحت؟» قال : « أصبحت مؤمنا حقا» قال رسول الله ﷺ « إن لكل حق حقيقة . فما حقيقة ما تقول؟» قال الصحابى : عزفت عن الدنيا وأظمأت نهارى وأسهرت ليلى وكأنى أنظر إلى عرش ربى، وأنى أنظر إلى أهل الجنة فيها يتجاوبون وإلى أهل النار يتعاوون . فقال له النبى ﷺ : أنت أمرؤ نوّر الله قلبك . عرفت فالزم»(٢) .

وأما التاريخ فقد قال كلمته، وكلمته هى سنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول . . أن هذه الأمة تمكّن بقدر التزامها بمقتضيات الإيمان، لا بمجرد التصديق والإقرار، وأنها تزلزل ويزول عنها التمكين بمقدار ما تنتقص فى عملها من مقتضيات الإيمان . . مقتضيات لا إله إلا الله .

وانظر إلى الجيل المتفرد ـ رضوان الله عليهم ـ يبطئ عليهم النصر ذات مرة فيقولون لأنفسهم : لينظر كلٌ ما قصر فيه من أوامر ربه وأوامر رسولهﷺ ، فيجد بعضهم أنه قد

---

(١) سورة النساء [١٢٣ ـ ١٢٤] .

(٢) أخرجه ابن عساكر عن أنس رضى الله عنه .

أهمل السواك، فيقولون: هو ذاك!! وانظر إلى الأجيال التي تنقض أوامر ربها، وتعيش إسلاما بلا عمل وإسلاما بلا أخلاق، ثم تقول: لا يضر مع الإيمان شئ!!

ثم انظر مكان هؤلاء وهؤلاء من التاريخ!

* * *

وما بنا من حاجة أن نعيد الإشارة إلى ما سبق أن أشرنا إليه من قبل، من فساد شامل عند الأجيال المتأخرة فى كل مفاهيم الإسلام، سواء مفهوم القضاء والقدر، أو مفهوم الدنيا والأخرة، أو مفهوم عمارة الأرض، بالإضافة إلى مفهوم العبادة ومفهوم لا إله إلا الله.. إنما نخلص من هذه الإشارات كلها إلى حقيقة واقعة يمكن أن نطلق عليها حقيقة «التخلف العقدى» فى حياة الأمة، وما يصاحبها من «التخلف السلوكى» عن حقيقة الإسلام.

وكلا الأمرين خطير غاية الخطورة، ولكن الخطورة القصوى تكمن بلا شك فى «التخلف العقدى»، لأنه هو الذى يمهد للتخلف السلوكى من ناحية، ويؤخر علاجه من ناحية أخرى. فحين تكون العقيدة صحيحة، ويكون التخلف السلوكى ناشئا فقط من التفلت البشرى الطبيعى من التكاليف، فإن التذكير يكفى لعلاجه، لأنه هو العلاج الربانى للغفلة التى تؤدى إلى نسيان التكاليف. أما حين يكون التخلف العقدى هو الداء، فالتذكير وحده - بالصور المعتادة - لا يكفى، لأنه لا يجد استجابته الطبيعية فى القلب، ويحتاج الأمر إلى إبراء القلب ذاته مما ألم به من أمراض!

* * *

هذا التخلف العقيدى - الذى هو عقدة العقد فى حياة الأمة فى الفترة الأخيرة - قد وصل إلى أقصى درجاته فى القرن الأخير خاصة، حين نحيت الشريعة الربانية عن الحكم على يد الغزو الصليبى الجائح. ولكننا لا نريد أن نتعجل خطوات التاريخ، بل نريد أن نتتبعها خطوة خطوة حتى مرحلتها الأخيرة. إنما نريد هنا أن نحدد المعيار الذى نقيس به مدى ذلك التخلف فى حياة الأمة.

والمعيار ولا شك هو الكتاب والسنة، مرجع المسلمين فى كل أمر من أمور حياتهم.

والمعيار كذلك هو حياة الأجيال الأولى من المسلمين، التى طبقت هذا الدين فى عالم الواقع، التزاماً منها بمقتضيات الإيمان سواء فى مجال التصور أو مجال السلوك.

فكلما اقتربنا من الكتاب والسنة ، ومن حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم ، فنحن « متقدمون» عقديا (وسلوكيا كذلك بلا شك) وكلما تأخرنا عن الكتاب والسنة وعن حياة السلف الصالح فنحن متخلفون فى مجال العقيدة (وبالتالى فى مجال السلوك) .

وتلك أولى الحقائق المهمة التى ينبغى ألا تغيب عن أذهاننا ، سواء ونحن ندرس خط الانحراف وآثاره ، أو ونحن نبحث عن طريق الخلاص ؛ والتى ينبغى كذلك أن نستصحبها معنا دائما لكى لا نضل الطريق .

٢ـ التخلف العلمى والحضارى والاقتصادى والحربى والفكرى والثقافى

من التخلف العقدى نشأت كل ألوان التخلف التى أصابت العالم الإسلامى . . التخلف العلمى والحضارى والاقتصادى والحربى والفكرى والثقافى . .

وقد تختلف النسبة بين العوامل المختلفة التى أدت إلى التخلف العقدى فى تأثيرها فى كل نوع من أنواع التخلف التى ذكرناها آنفا ، فتكون نسبة تأثير الفكر الإرجائى فى بعضها أوضح ، ونسبة تأثير الصوفية فى بعضها أظهر ، ونسبة تأثير التفلت من التكاليف فى بعضها أكثر ، ونسبة تأثير الاستبداد السياسى فى بعضها أشد . . ولكنها موجودة فى مجموعها ، وعاملة فى كل مجال من مجالات التخلف التى ترتبت أصلا على التخلف العقدى واستمدت منه .

فتحت تأثير الخدر الذى أنشأه الفكر الإرجائى ، والذى مقتضاه أن الإنسان مؤمن كامل الإيمان بالتصديق والإقرار ولو لم يعمل بمقتضيات الإسلام . والخدر الذى أنشأته الصوفية سواء فى تهويمات « الذكر » أو فى إطماع العبد فى مغفرة ربه بدون أن يعمل بمقتضيات الإسلام . وتحت تأثير الاستبداد السياسى الذى يجعل كل إنسان ينشغل بخاصة نفسه ، ولا يلتفت إلى مصالح الجماعة ولا حاجات الأمة . . مصحوبا ذلك كله بالتفلت من التكاليف . . تحت تأثير ذلك كله غفت الأمة الإسلامية غفوة طويلة امتدت

فترة قرنين من الزمن على الأقل إن لم يكن أكثر، تقابل من تاريخ أوربا قرنيها الثامن عشر والتاسع عشر، قرنى الصعود الأوربى نحو السيطرة والتمكن، والتقدم العلمى والحضارى والمادى.

كانت أوربا قد برئت من آثار قرونها الوسطى المظلمة، وأقامت - عن طريق ما استمدت من العالم الإسلامى من علم وحضارة - حركة قوية فى جميع الاتجاهات، وإن كانت فقيرة كل الفقر فى الناحيتين الروحية والأخلاقية.

أما العالم الإسلامى فقد كان فى نفس الفترة قد غفا غفوته الطويلة بتأثير ذلك الخدر المزدوج الذى أشرنا إليه، وبتأثير الاستبداد السياسى والتفلت من التكاليف، فكان على المنزلق الهابط فى نفس الوقت الذى تبذل أوروبا كل جهدها للصعود.

فى المجال العلمى حدث تقلص ضخم، أبعد - بالتدريج - كل العلوم «الدنيوية» من معاهد العلم! فى ذات الوقت الذى اقتصرت فيه العلوم الشرعية على فكر القرن الخامس على أكثر تقدير، مع الفارق الكبير بين الأصالة التى كان عليها فكر القرن الخامس، والتقليد الذى تلا ذلك من القرون، وظل «يتحجر» قرنا بعد قرن!

لقد كان من مفاخر الحركة العلمية الإسلامية كما أشرنا فى الفصل الأول أنها تفتحت «للعلم» كله، وأبدعت فى العلم كله، وكان العالم يكون عالما فى العلوم الشرعية وعالما فى ذات الوقت فى الطب أو الفلك أو الفيزياء أو الكيمياء بغير تعارض ولا تناقض بين هذا وذاك. وكانت المعاهد العلمية فى الأندلس وغيرها - تلك التى تعلمت فيها أوربا حين بدأت تخرج من قرونها المظلمة - تعلم طلابها كل فروع العلم وألوانه بغير تفريق، وكانت العلوم «الدنيوية» من المعالم البارزة فى تلك المعاهد إلى جانب العلوم الشرعية، ومن هناك تعلمت أوروبا المنهج التجريبى فى البحث العلمى، وترجمت ما كتبه المسلمون فى الطب والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات والبصريات لتتتلمذ عليه فى بدء نهضتها الحديثة.

ولكن المسلمين «الغافلين» طردوا تلك العلوم تدريجيا من معاهدهم ليقتصروا على العلوم الشرعية، مع ما فى دراستهم للعلوم الشرعية ذاتها من «تخلف» عن الصورة التى ينبغى أن تكون الدراسة عليها.

وهنا قد يكون تأثير الصوفية أوضح . .

فالصوفية هى التى فرقت بين الدنيا والآخرة، واتجهت إلى إهمال الدنيا بحجة تزكية الأرواح من أجل الآخرة، وأهملت بالتالى عمارة الأرض، على أساس أن الاشتغال بها يثقل الروح ويذهب عنها شفافيتها وطلاقتها، ومن ثم أهملت كل العلوم المتصلة بتلك العمارة، واعتبرتها نافلة تستطيع الأمة أن تستغنى عن أدائها بلا ضير[1] !

نعم قد يكون تأثير الصوفية هنا أوضح، ولكنها لا تستقل بالتأثير، فلو أن المسلمين قاموا بالتكاليف التى كلفهم بها ربهم، ومن بينها إعداد القوة لإرهاب أعداء الله، لوجدوا أنه لزام عليهم أن يتعلموا كثيرا من تلك العلوم الدنيوية ويتقنوها ويتفوقوا فيها على أعدائهم، لأنهم بغير هذه العلوم يعجزون عن الوفاء بأمر ربهم وتكليفه. ولكن التفلت من التكاليف كان يؤثر - إلى جانب الصوفية - فى إهمال تلك العلوم وعدم الإحساس بالحاجة إليها، كما أن الفكر الإرجائى موجود دائما فى الساحة يغطى كل نقص أو تقصير !

ورويدا رويدا فقدت الأمة حاستها العلمية بتاتا، وخرجت من الدائرة التى كانت هى مركزها فى يوم من الأيام، يوم كانت هى الأمة العالمة فى الأرض، وأوربا تهرع إليها للتتلمذ على ما لديها من العلم.

أما العلوم الشرعية فقد تأثرت هى الأخرى بروح « التقلص» العامة التى غشت العالم الإسلامى من أكثر من وجه.

فمن ناحية قل الإقبال على العلم عند الناس فتفشت الأمية والجهل فى الأمة، بنفس المقدار الذى كانت أوروبا تزيل به أميّتها وتفتح المدارس لنشر العلم!

ومن ناحية أخرى جمدت العلوم الشرعية على صورتها التى كانت تدرس بها قبل خمسة قرون على الأقل بما كان قد دخل فيها من غزو فكرى إغريقى، ومن « علم كلام» لا يغنى ولا ينفع، فوق تحويله دراسة العقيدة إلى معاظلات ذهنية باردة معقدة تفرغ العقيدة من محتواها الحى، وتحيلها إلى « قضايا» فلسفية مثيرة للجدل بغير نتيجة ولا غاية! وفوق ذلك كله فقد تحول الطلاب إلى حفظة لا مفكرين. يتعالم الواحد منهم بمقدار ما يحفظ من المتون والشروح والحواشى، ولكنه لايفكر لنفسه ولا يفكر

---

(١) كان الغزالى - فى القرن الخامس - على الرغم من اتجاهه الصوفى المعروف يتحدث عن فروض العين وفروض الكفاية من العلوم والمعارف، ويضع العلوم الدنيوية فى فروض الكفاية التى تأثم الأمة فى مجموعها إن لم يقم بها القادرون من أبنائها. . ولكن جاء عصر بعد ذلك سقطت فيه هذه العلوم نهائيا من حساب الأمة.

بنفسه ، ففقد « العلماء » أصالة العلم وأصبحوا مجرد نقلة مقلدين ، بل أضيف إلى ذلك شر ثالث ، هو التعصب المذهبى الذى عم الدارسين ، كل يتعصب لمذهبه الذى نشأ عليه ، ويجعل قصارى « جهاده» من أجل دينه أن يثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها ، وأن يدخل فى معارك من أجل المذهب تتجاوز فى كثير من الأحيان حد الجدل باللسان ، إلى التدافع بالأيدى والأبدان ! وفشت الفرقة والتنابذ بين أصحاب المذاهب المختلفة حتى إن أحدهم قد يرفض أن يصلى خلف إمام من غير مذهبه ، بل قد يقاتل أخاه فى الصلاة لأنه رآه إلى جواره يرفع يديه أو يضعهما على صدره بما يخالف مذهبه ، ويحس أن مقاتلته لأخيه فى الإسلام على هذا النحو هى «الخدمة» التى يؤديها للإسلام ! !

وحين يكون هذا حال الدارسين من الأمة فى المعاهد الدينية - بعد أن تحولت بقية الأمة إلى أميين « لا يعلمون الكتاب إلا أمانى » - فأى فراغ من حقيقة الدين يملأ النفوس ، وأى تفاهة فى اهتمامات الناس ، بعد أن كان الدين هو محور الحياة ومحركها ، وباعث الاهتمامات الجادة وموجهها !

وحقيقة إنه لم يخل عصر من عصور الإسلام - حتى أحلكها - من « عالم » بالمعنى الحق للعلم ، ولكن قلتهم التدريجية لها دلالتها ، وفشو الجمود والتقليد له دلالته ، فكل شىء متفق مع التقلص والضمور الذى غشى بطابعه كل شىء . .

والخلاصة أن التخلف العلمى بشقيه الدنيوى والشرعى - الناشىء أصلا من التخلف العقدى - أصبح هو الطابع السائد للمجتمع الإسلامى قبيل الغزوة الصليبية الهائلة التى اجتاحت بلاد الإسلام فى العصر الحديث .

* * *

أما التخلف الحضارى - بشقيه المعنوى والمادى - فهو صنو التخلف العلمى وزميله على الطريق ! كما أنه نابع من نفس المنبع ، ومتأثر بذات المؤثر ، وهو التخلف العقدى .

أما الجانب المعنوى - جانب الأخلاق والقيم - فقد أسقطه الفكر الإرجائى حين قدم للناس إسلاما بلا أخلاق ! ذلك أن الأخلاق - وإن كانت قيما معنوية - فإنها من جانب آخر سلوك ، وإلا فهى شعارات معلقة فى الفضاء لا واقع لها فى عالم الحقيقة .

وحين كان الدين على حقيقته، كان من مزاياه الكبرى أنه قيم أخلاقية مطبقة فى عالم الواقع فى صورة سلوك واقعى، وكانت هذه - فى حس الأجيال الأولى - هى الترجمة الحقيقية لـ « لا إله إلا الله» . . أى أنها كانت مرتبطة فى حسهم بالعقيدة. أو بعبارة أخرى كان فى حسهم أن من يعتقد هذه العقيدة ينبغى أن يكون سلوكه ملتزما بتلك القيم الأخلاقية، فالدين المعاملة كما علمهم رسولهم ﷺ، وكما قالت لهم عائشة رضى الله عنها حين سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: « كان خلقه القرآن» .

وهذا الارتباط بين العقيدة ومقتضياتها الأخلاقية هو القيمة الحضارية الجوهرية فى هذا الدين، التى تجعل المجتمع الإسلامى هو المجتمع المتحضر، مهما يكن نصيبه ضئيلا من العمارة المادية للأرض، وتجعل العقيدة فى هذا الدين هى جوهر الحضارة، بما يشع منها ويرتبط بها من قيم وأخلاق.

وبهذا المعيار كان الجيل المتفرد أعلى جيل حضارى فى تاريخ البشرية كله، على الرغم من البساطة المتناهية فى الأشكال المادية والتنظيمية التى كانت فى متناول يديه، لأنه كان يمارس - فى عالم الواقع - أعلى قيم إنسانية وأخلاقية عرفتها البشرية.

ثم جاء العمران المادى فى موعده كما بينا فى الفصل الأول، امتداداً للدفعة الحيوية الهائلة التى أطلقها الإسلام فى الأمة الإسلامية فى جميع الاتجاهات، فاكتمل «الشكل» الحضارى الذى يغلف «المضمون» الذى كان قائما من لحظة الميلاد.

ولكن الفساد الذى طرأ على مفهوم « العبادة» فحصرها فى الشعائر التعبدية فحسب، وأخرج منها ألوانا كثيرة من « المعاملات» كانت فى حس الأجيال الأولى داخلة فى مفهوم العبادة الواسع الشامل، باعتبارها « سلوكا» إسلاميا مرتبطا بلا إله إلا الله . . ثم الفكر الإرجائى الذى أعطى لهذا الفساد شرعية حين أخرج « العمل» من مسمى الإيمان ومن مقتضياته . . هذا وذاك قد دمرا الجوهر الحضارى المتضمن فى هذا الدين، الذى كان قوامه السلوك الأخلاقى المرتبط بالعقيدة، المترجم لها فى دنيا الواقع.

بعبارة أخرى حين صار « المسلم» لا يجد حرجا فى قلبه أن يكذب، وأن يغش، وأن يخون الأمانة، وأن يتهاون فى العمل، وأن يخلف الوعد، وأن يحقد على أخيه ويتمنى زوال نعمته، وأن ينافق، وأن يغمز ويلمز ويغتاب، وأن يبخل ويجبن، وأن يبيت شبعان وجاره جوعان وهو يعلم . . فَقَدْ فَقَدَ جوهره الحضارى الإسلامى، لأنه تجرد من أخلاقيات لا إله إلا الله، وتجرد من قيمها الإنسانية العليا، التى هى جوهر الحضارة وعماد المجتمع المتحضر.

ومن الجانب الآخر فإن الاتجاه الصوفى الذى أهمل عمارة الأرض وتنميتها وتنظيم شئونها على أساس أن الدنيا جيفة وطلابها كلاب، وأنها لا تستحق عند الله جناح بعوضة، فينبغى أن تكون فى حس المؤمن التقى أضأل وأحقر من أن يلقى إليها التفاتة عـــابرة[1] . . هذا الاتجاه الصوفى قد أتى كذلك على « الشكل» الحضارى، وقعد بالناس عن الإنشاء والتشييد، وقعد بهم عن التنظيم كذلك، لأنهم ـ ونقصد الغالبية بطبيعة الحال ـ قد أصبحوا فقراء، ثم رضوا بالفقر، وفلسفوا رضاهم بأنه من القناعة المحبوبة، ومن الرضا بقدر الله! فلم تعد التنمية لازمة لهم، ولم يعد التنظيم لازما كذلك، فإنها سنوات عابرة تمضى على أى وضع وفى أية صورة، ثم يذهب الناس إلى ربهم فينعمون بالخلد فى جنات النعيم.

فإذا أضيف إلى ذلك ما تحمله الصوفية فى طياتها من تواكل، وتقاعس عن الأخذ بالأسباب، واعتقاد أو إحساس بأن الواقع الموجود مهما يكن من سوئه فلا ينبغى أن يسعى المرء إلى تغييره، بل لا ينبغى أن تساوره الرغبة فى ذلك لأن ذلك يعتبر تمردا على قدر الله، فقد انعدمت الرغبة تماما فى أى إبداع حضارى مادى وتنظيمى. ثم يجىء الفقر العلمى المدقع فينشىء عجزا كاملا عن الأداء حتى لو وجدت الرغبة فى النفوس!

وهكذا . . من نقطة التخلف العقدى، المتمثل فى فساد مفهوم العبادة، والفكر الإرجائى الذى يعطى ذلك الفساد شرعية، والاتجاه الصوفى المنحرف عن التوازن الإسلامى، وعن الممارسة الإسلامية الواقعية للحياة وتعميرها بمقتضى المنهج الربانى تكليفا لا تطوعا . .

من نقطة التخلف العقدى نشأ تخلف حضارى هائل، أخرج هذه الأمة من زمرة المتحضرين، كما أخرجها التخلف العقدى من قبل من زمرة المتعلمين . .

* * *

لا يحتاج التخلف الاقتصادى الذى أحاط بالعالم الإسلامى إلى جهد فى بيان أسبابه الحقيقية فى حياة الأمة.

---

(١) بينا من قبل فى الكلام عن «خط الانحراف» أن الدنيا تذم فى القرآن وأحاديث الرسول ﷺ حين تصد الإنسان عن الإيمان بالله أو عن الجهاد فى سبيله. ولكن توجيهات الإسلام صريحة فى وجوب المشى فى مناكب الأرض وابتغاء فضل الله، وعمارة الأرض بمقتضى منهج الله .

نعم لقد كانت هناك أسباب خارجية قوية أسهمت فى هذا التخلف . . ولكنها ـ وحدها ـ لا تبرره ولا تفسره .

لقد كانت أوربا الصليبية تسعى ـ منذ القضاء على الدولة الإسلامية فى الأندلس ـ إلى تطويق العالم الإسلامى ، وإضعافه بكل الوسائل (١) . وكان من بين الوسائل التى اتخذوها السعى الدائب لتحويل التجارة العالمية إلى أيديهم ، وانتزاعها من يد المماليك ، الذين كانوا يمسكون بزمامها عن طريق سيطرتهم على البحر الأحمر والبحر الأبيض ، فتدر عليهم أموالا طائلة ، وعلى العالم الإسلامى كله كذلك .

ومنذ اكتشاف البرتغاليين لطريق رأس الرجاء الصالح ، الذى كشفوه على هدى الخرائط الإسلامية وبمعاونة بحارة مسلمين (!) بدأوا يتجهون إلى الشرق الأقصى ليستولوا على أرضه وخيراته ، وينقلوها على سفنهم عن طريق رأس الرجاء الصالح فيحرموا منها دولة المماليك ، ويحرموا منها العالم الإسلامى كله . .

وحدث ذلك بالفعل ، وتأثرت اقتصاديات العالم الإسلامى تأثرا بالغا بما حدث .

ولكن . . هل هذا هو التفسير؟ أو هذا هو التبرير ؟ !

أين كانت مراكز القوة يوم قامت الدولة الإسلامية أول مرة ، سواء القوة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية؟ ألم تكن كلها فى يد فارس والروم؟

فما الذى حدث فى التاريخ؟ !

لقد انساحت الأمة المؤمنة فى الأرض ، فأزالت قوى الباطل ودكتها دكا ، وأقامت فى مكانها دولة الإسلام ، واستولت هى على مراكز القوة فأصبحت أكبر قوة فى الأرض ، وشملت قوتها كل جانب ، فصارت فى يدها القوة الحربية والسياسية والاقتصادية ، وكان ذلك كله تحقيقا لوعد الله للمؤمنين من هذه الأمة :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾ (٢) .

فما الذى غير الحال بعد ذلك ، وسلب مراكز القوة من يد المسلمين؟

---

(١) سنتحدث عن الغزو الصليبى فيما بعد .

(٢) سورة النور [٥٥] .

سنقول : ضعفت قوتهم الحربية بينما ازدادت قوة أعدائهم فتغلبوا عليهم . . [1] .

نعم ، تلك هى الأسباب الظاهرة ، ولا شك . ولكن قراءة التاريخ بالأسباب الظاهرة وحدها لا تؤدى إلى الحقيقة ، بل قد تضلل عن الحقيقة . .

يقول أصدق القائلين : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [2] .

ويقول : ﴿ ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [3] .

والذى يشغل النفوس المؤمنة هو الإيمان . . والذى يتغير فى النفوس هو حقيقة الإيمان .

فحين تكون الأمة « متقدمة» فى الإيمان ، يتحقق لها وعد الله بالاستخلاف والتمكين والتأمين . وحين تكون « متخلفة» يحدث تغيير النعمة (أى سلبها) ، ويذهب عن الأمة الاستخلاف والتمكين والتأمين .

فسلب التجارة من يد المسلمين ، واستيلاء أوربا الصليبية عليها ، له أسبابه الكامنة فى التخلف العقدى الذى أصاب الأمة فى مجموعها ، والتقلص والضمور الذى ترتب عليه فى كل اتجاه .

فتضاؤل القوة الحربية الذى مكن الأعداء من أجزاء متزايدة من العالم الإسلامى هو ذاته - كما سنبين فى الفقرة التالية - أثر من آثار التخلف العقدى .

ولكن آثار التخلف العقدى فى الميدان الاقتصادى الخاص لا تحتاج إلى توكيد .

فلنفرض أن التجارة العالمية قد سلبت من أيدى المسلمين لسبب قاهر لا يقدرون على درئه ، فهل تتوقف ثروة العالم الإسلامى على التجارة وحدها فى ذلك الحين أو فى أى حين؟ !

إن الأرض الإسلامية من المحيط إلى المحيط هى - بقدر من الله - أغنى بقعة فى الأرض وأكثرها خيرات ، وقد كانت - وما تزال حتى هذه اللحظة - لم تستثمر الاستثمار الكامل ، الذى يستغل كل مواردها وكل طاقاتها .

---

(١) نتحدث عن التخلف الحربى فى الفقرة التالية .

(٢) سورة الرعد [١١] .

(٣) سورة الأنفال [٥٣] .

فإذا ضاع جزء من الثروة لأسباب قاهرة، فلماذا لم تسع الأمة ـ فى مجموعها ـ إلى استغلال الثروات الأخرى القابلة للاستغلال، من زراعة وصناعة ومعادن مذخورة فى باطن الأرض ؟!

السبب هو التقاعس، والتواكل، والضعف العلمى، ووهن العزائم، والانصراف عن عمارة الأرض، والرضى بالفقر على أنه قدر من الله لا ينبغى السعى إلى تغييره خوفا من الوقوع فى خطيئة التمرد على قدر الله!

ومن أين نشأت هذه العوامل كلها إلا من التخلف العقدى؟!

لو تخيلنا هذا العارض ـ وهو ضياع التجارة من يد المسلمين ـ قد حدث للأجيال الأولى من هذه الأمة، فهل كان رد الفعل عندها سيكون مماثلا لما حدث للأجيال المتأخرة؟

وهل يكمن الفارق فى الظروف الخارجية التى أحاطت بالمسلمين؟ أم إنه راجع فى حقيقة الأمر إلى الفارق النفسى الهائل بين أول هذه الأمة وآخرها . . بين الإيمان الصحيح والإيمان المخلخل المنحرف . . أى راجع إلى التخلف العقدى الذى أصاب الأمة فى أجيالها المتأخرة؟

وكذلك ينبغى أن يكون فهمنا لأحداث التاريخ الإسلامى .

إن أمما أخرى ـ غير الأمة الإسلامية ـ يمكن أن تنال القوة والتمكين فى الأرض بالبعد عن الله! بل كلما زادت بعدا عن الله زادت فى القوة والتمكين . . كما هو حال أوربا الكافرة الجاحدة اليوم، لأن هذا من السنن الربانية فى معاملة الكفار:

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء.. ﴾ (١) .

لفترة من الزمن يقدرها الله . . ثم يأتى التدمير :

﴿ .. حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ (٢) .

أما أمة الإسلام فإنها تعامل بسنّة خاصة . . لا يمكّنون إلا على الإيمان، فإذا انحرفوا زال عنهم التمكين؛ ذلك لأن الله لا يريد لهم أن يفتنوا بالتمكين وهم منحرفون عن طريقه، فيزيدوا انحرافا حتى يصلوا إلى الكفر فتأخذهم سنة الكافرين :

---

(١) سورة الأنعام [٤٤].
(٢) سورة الأنعام [٤٤ ـ ٤٥] .

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون ﴾ (١) .

فمن رحمته سبحانه بهذه الأمة أنه لا يمكّنها أبداً وهى منحرفة عن السبيل! لكى تعود إليه ، فيمكنها وهو راض عنها ، ويدخر لها فى الآخرة ما يدخره لعباده الصالحين .

* * *

وأما التخلف الحربى فصلته بالتخلف العقدى واضحة بكل تأكيد!

فكل عوامل التخلف العقيدى قد أثرت فى القوة الحربية لهذه الأمة ، سواء الاتجاه الصوفى الذى يصرف الناس عن جهاد الأعداء بحجة توفير الطاقة لجهاد النفس ! أو الفكر الإرجائى الذى يغطى كل تخلف عن حقيقة الإسلام ويربت عليه ويمنحه شرعية الوجود ، أو التفلت من التكاليف التى أمرت بإعداد القوة لإرهاب الأعداء ، أو انشغال الحكام بفرض سلطانهم على شعوبهم عن الجهاد لإعلاء كلمة الله . .

فإذا أضيف إلى ذلك التخلف العلمى والتكنولوجى ، النابع أصلا من التخلف العقدى ، فقد اكتملت أسباب التخلف الحربى ، وأصبح هو النتيجة المنطقية لكل الظروف التى أحاطت بالناس فى القرون الأخيرة .

لقد حملت الدولة العثمانية عبء حماية العالم الإسلامى من الغزو الصليبى عدة قرون؛ وإن جهادها فى هذا السبيل ، وإخلاص نيتها ، وبذلها جهد الطاقة ، لمما يحسب لها فى ميزانها عند الله يوم القيامة .

ولكن عوامل التخلف التى كانت تحيط العالم الإسلامى كله ، ولا تنجو منها الدولة الحاكمة ، ظلت تؤتى ثمارها التدريجية فى الميدان الحربى كغيره من الميادين .

فبعد أن وصلت الجيوش الإسلامية إلى فيينا غربا وبطرسبرج (لننجراد حاليا) شرقا ، وحاصرت كلاً منهما فترة من الوقت ، أخذت تتراجع لا عن تلك الأهداف القصوى وحدها ، بل عن الأهداف الدنيا ، حتى أكلت روسيا الصليبية بقاعا واسعة من الأرض كل سكانها مسلمون! كما أكلت أوربا الصليبية بقاعا من الأرض كانت خاضعة للحكم الإسلامى ، يعيش فيها نصارى ومسلمون تتراوح نسبتهم من مكان إلى مكان ، وكان التخلف الحربى سبباً من الأسباب الرئيسية فى هذا التقلص المستمر .

---

(١) سورة هود [١٥ ـ ١٦] .

نعم، لقد كانت أوربا تتقوى باستمرار، حتى صارت قوتها مكافئة لقوة الدولة العثمانية، ثم بدأت تتفوق عليها، فتغير ميزان القوى، وبدأت الصليبية تأكل من جسم العالم الإسلامى .

ولكن هذا ـ وحده ـ لا يفسر ولا يبرر !

إنما الذى يفسر ـ وإن كان لا يبرر ! ـ [1] هو الجمود والقعود، والرضى بالموجود، والتواكل بدلا من التوكل الحق مع الأخذ بالأسباب، والتخلف العلمى والصناعى، وفقدان روح الابتكار . . وكلها كما بينا من قبل راجعة إلى ذلك التخلف الأساسى الخطير عن حقيقة الإيمان كما بينها الله ورسوله للمؤمنين .

وإذا كان هذا حال الدولة الحاكمة، التى أخذت على عاتقها حماية العالم الإسلامى من الغزو الصليبى فإن حال بقية العالم الإسلامى كان أسوأ بكثير .

إن الشعب التركى شعب عسكرى بطبعه، كما أنه بطبعه كذلك شديد المحافظة على التقاليد، يضاف إلى ذلك صرامته فى التربية، لصب أبنائه وبناته منذ نعومة أظفارهم فى القوالب المضبوطة التى يراد تنشئتهم عليها . وكان لهذا كله أثره فى إطالة عمر الدولة رغم كل عوامل الهدم فى داخلها، وفى صلابة شعبها وتماسكه رغم الهزائم المتوالية التى حلت بالدولة فى القرنين الأخيرين .

أما بقية العالم الإسلامى ـ على اختلاف فى الدرجة بين شعب وشعب ـ فكان نصيبه من هذه الصفات أقل، مع وجود التخلف العقدى بكل آثاره المدمرة فى العالم الإسلامى كله بلا استثناء . . فضلا عن تعرض تلك الأقطار للغزو الصليبى فى وقت باكر منذ القرن السابع عشر الميلادى إلى القرن التاسع عشر . . لذلك كان الانهيار فيها أسرع، لأن عوامل التخلف كانت فيها أشد !

لقد قاتل المماليك ببسالة نادرة أمام الحملة الصليبية الفرنسية بقيادة نابليون . . ولكن ماذا تجدى البنادق إزاء المدفع الذى سلح به نابليون جيشه؟ ! لقد كانت الهزيمة حاسمة . . هزيمة التخلف الحربى أمام التقدم والابتكار ! وحدث مثل ذلك تباعا فى العالم الإسلامى . . وانتهت المعارك بانتصار القوة الجديدة على التخلف والجمود . .

* * *

(١) لا شيء يبرر الانحراف عن سبيل الله، والتقاعس عن الجهاد وإعداد العدة له !

من نافلة القول أن نتحدث عن التخلف الفكرى والثقافى فى الجو الذى وصفناه . . بعد كل الذى ذكرناه ! فكلها ألوان من التخلف ممسك بعضها برقاب بعض ، ومؤد فى النهاية إلى الانهيار .

ولكن الصلة بين التخلف الفكرى والثقافى وبين التخلف العقدى قد تحتاج إلى إشارة خاصة بمناسبة ما تبدىء الجاهلية المعاصرة وتعيد فى هذا الشأن بالذات .

لقد أوحى الغزو الصليبى للمسلمين - كما سيأتى الحديث - بأن كل ما أصاب المسلمين من تخلف كان بسبب أنهم مسلمون ! أى بسبب الإسلام ! وركز بصفة خاصة على الجانب الفكرى والثقافى مستدلا بتاريخ الكنيسة فى أوروبا ، وبأن أوروبا كانت متخلفة فى جميع الميادين - وميدان الفكر والثقافة خاصة - وقت أن كانت حياتها محكومة بالدين ، وأنها لم تتقدم وتتحضر وتنطلق فى جميع الميادين إلا بعد أن «تحررت » من ربقة الدين .

وسوف نتناول هذه القضية بتفصيل أكثر فى موضع آخر حين نعرض للغزو الفكرى وآثاره فى حياة المسلمين . ولكننا نحب هنا أن نرجع إلى حقيقة تاريخية حاسمة الدلالة .

إن الدعوة إلى « التفكير » وإلى استخدام « العقل » على أساس منهجى صحيح ، هى فى صميمها دعوة هذا الدين . والدعوة إلى السياحة فى الأرض ودراسة التاريخ على أساس منهجى كذلك ، هى فى صميمها دعوة هذا الدين . والدعوة إلى تدبر آيات الله فى الكون ، والتعرف على السنن الربانية فى الكون المادى وفى الحياة البشرية ، هى فى صميمها دعوة هذا الدين .[1]

ومن توجيهات القرآن الكريم وتوجيهات الرسول ﷺ انطلق « الفكر » الإسلامى فى جميع ميادين الفكر والثقافة التى كانت متاحة يومئذ ، وأبدع فيها إبداعات تدل على الأصالة والتمكن والثقة بالذات . . وكان هذا كله صدى للحركة العقدية الضخمة التى تحركت بها الأمة الإسلامية فى جميع الميادين ، وصدى لإيمانها بأن « طلب العلم فريضة » كما علمها رسولها الكريم ﷺ ، وصدى لتلك الكلمة العظيمة الكريمة التى بدأ بها تنزل الوحى على رسول الله ﷺ : « اقرأ »

ولما حدث التخلف العقدى التدريجى ، الذى حصر العبادة فى الشعائر التعبدية

---

(١) راجع - إن شئت - فصل العقلانية من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

وحدها ، وأخرج منها بقية التكاليف ، حدث ضمور تدريجى فى جميع التكاليف التى كانت من قبل مرتبطة بالعقيدة ، ومرتبطة بالمعنى الشامل للعبادة ، وأصبحت أمورا «كمالية » إن شاء الإنسان قام بها وإن شاء تركها بلا ضير ! وكان طلب العلم ، والقراءة، والتفكير ، من بين هذه التكاليف التى خرجت من حيز العبادة فأصابها الضمور . ثم جاء الفكر الإرجائى فربّت على هذا التخلف، ومنحه الشرعية القائمة على أنه لا يضر مع الإيمان شىء ! وجاءت الصوفية فحصرت عمل العقل كله فى أضيق نطاق ممكن ، لتفسح المجال - فى وهمها - لعمل الروح ! وساعد الاستبداد السياسى على إحداث جمود شامل فى جميع المجالات . . ومن هذا التخلف العقدى نشأ التخلف الفكرى والثقافى وأخذ مكانه فى موعده المقدور !

* * *

حين حدث هذا القدر الهائل من التخلف ، العقدى أولا ، ثم العلمى والحضارى والاقتصادى والحربى والثقافى والفكرى . . فماذا بقى ؟ !

إسلام بلا أخلاق . إسلام بلا حضارة . إسلام بلا علم . إسلام بلا ثقافة ولا فكر . إسلام متهالك القوى الاقتصادية والحربية والمادية . . ماذا بقى فيه من حقيقة الإسلام؟!

فأما الفكر الإرجائى فقد رضى عن هذا الإسلام المتخلف المتهالك وقال : لا ضير ! لأنه لا يضر مع الإيمان شىء!

وأما الاتجاه الصوفى فقد رضى كذلك عن هذا الإسلام المتخلف المتهالك وقال : لاضير! فهذه كلها من أمور الدنيا الفانية، وليس المهم هو الدنيا إنما هو الآخرة. ليس عالم المادة وإنما عالم الروح !

وأما بالنسبة لحقيقة الإسلام ، فقد كان هذا الإسلام المتخلف المتهالك يوشك فى الحقيقة أن يصبح إسلاما بلا إسلام!!

وعندئذ أقبل الصليبيون . . من كل حدب ينسلون .

٣- الغـزو الصليبى

بدأت محاولات الغـزو الصليبى الحديث فى الحقيقـة منذ بدايات القرن العاشر الهجرى(السادس عشر الميلادى) بعد طرد الإسلام من الأندلس . فحين سقطت آخر دويلة إسلامية فى الأندلس ـ وهى دويلة غرناطة ـ عام ١٤٩٢ م بعد معارك وحشية طويلة ، بارك البابا الانتصار الصليبى وشجع الصليبيين على متابعة المسلمين لطردهم من بقية بلاد الإسلام !

وعلى الرغم من أن المسلمين الذى بقـوا فى الأندلس قـد ظلوا محافظين على إسلامهم سرا ما يقرب من مائتى عام تحت الضغط الوحشى الواقع عليهم من محاكم التفتيش ، مما لا مثيل له فى الوحشية فى التاريخ كله من قبل . . فلم يكن من المتوقع أن يظلوا على إسلامهم بغير قوة تحميهم من البطش . . فتلاشوا تدريجيا حتى انتهوا .

ولم يكن فى وسع الصليبية الحاقدة أن تكرر مسيرتها الأولى إلى بيت المقدس من طريق الشرق، لأن الدولة العثمانية الفتية لم تكن واقفة لهم بالمرصاد فحسب، بل كانت بكل حيويتها العارمة تتوغل فى شرق أوربا بقوة كاسحة لا يقف أمامها شئ . وكانت ـ كما يقول المستشرق الكندى المعاصر ولفرد كانتول سميث ـ لا تكتسح الأرض فقط ، بل كانت تكتسح العقيدة المسيحية ذاتها ، ويدخل أهلها فى الإسلام بعشرات الألوف كل عام :

«إلى أن قام كارل ماركس وقامت الشيوعية ، كان النبى « ﷺ » (يقصد الإسلام) هو التحدى الحقيقى الوحيد للحضارة الغربية الذى واجهته فى تاريخها كله . وإنه لمن المهم أن نتذكر كم كان هذا التحدى حقيقيًا ، وكم كان يبدو فى وقت من الأوقات تهديدا خطيرا حقا .

« لقد كان الهجوم مباشراً فى كلا الميدانين الحربى والعقدى ، وكان قويا جدا . . فقد فقدت المسيحية دفعة واحدة « أجمل مقاطعات الإمبراطورية الرومانية» لتتسلمها منها القوة الجديدة ، وكانت فى خطر من ضياع الإمبراطورية بكاملها . وعلى الرغم من أن القسطنطينية لم تقع ـ تماما ـ فى يد الجيوش العربية كما وقعت مصر وسوريا ، فقد استمر

الضغط عليها فترة طويلة . وفى موجة التوسع الثانية وقعت القسطنطينية بالفعل سنة ١٤٥٣ ، وفى قلب أوربا المفزعة ذاتها أحاط الحصار بفيينا سنة ١٥٢٩ ، بينما ظل الزحف، الذى بدا عنيدا لا يلين، مستمرا فى طريقه . وحدث ذلك مرة أخرى فى وقت قريب لم يتطاول عليه العهد فى سنة ١٦٨٣ ، وإن وقوع تشيكوسلوفاكيا فى قبضة الشيوعية عام ١٩٤٨ لم يكن له قط فى العصر الحديث ذلك الفزع فى نفوس الغرب المتهيب ، كما كان لذلك الزحف المستمر قرنا بعد قرن ، من تلك القوة الضخمة المهدِّدة ، التى لا تكف ولا تهدأ ، ويتكرر انتصارها مرة بعد مرة .

« وكما هو الأمر مع الشيوعية ، كذلك كان التهديد والانتصارات [الإسلامية] قائمين فى عالم القيم والأفكار أيضًا . . فقد كان الهجوم الإسلامى موجها إلى عالم النظريات كما هو موجة إلى عالم الواقع . وقد عملت العقيدة الجديدة بإصرار على إنكار المبدأ الرئيسى للعقيدة المسيحية ، التى كانت بالنسبة لأوربا العقيدة السامية التى أخذت ـ فى بطء ـ تبنى حولها حضارتها . وكان التهديد الإسلامى موجها بقوة وعنف ، وكان ناجحا مكتسحا فى نصف العالم المسيحى تقريبا . والإسلام هو القوة الإيجابية الوحيدة التى انتزعت من المسيحيين أناسا دخلوا فى الدين الجديد وآمنوا به . . بعشرات الملايين» (١) .

ولكن الصليبية وقد عجزت عن اختراق الحاجز العثمانى فى الشرق ، بل لم تفكر مجرد تفكير فى اقتحامه ، اتجهت إلى الالتفاف حول العالم الإسلامى من جهة الغرب ، وخاصة بعد اكتشافها لطريق رأس الرجاء الصالح .

كان الطريق من أقصى الشرق إلى أوربا عبر رأس الرجاء الصالح معروفا ومحفوظا عند المسلمين ، دونوه فى خرائطهم ، ودرسوا أحواله الملاحية دراسة دقيقة كما يبدو من كتاب « عجائب الهند» للبيرونى وغيره ، ولكن أوربا كانت قابعة فى ظلمات قرونها الوسطى المظلمة ، لا تعرف عن العالم إلا القليل ، ولا تخاطر بركوب بحاره ومحيطاته .

ولكن مجموعة من العوامل المتفاعلة فى داخل أوربا دفعتها أخيرا إلى ارتياد البحار المجهولة ، وكان من أقوى هذه العوامل الدافع الصليبى ، الذى عملت البابوية على تشجيعه ، متمثلا فى متابعة المسلمين بعد طردهم من الأندلس ، للاستيلاء على بلادهم

(١) ولفرد كانتول سميث ، الإسلام فى التاريخ الحديث ، الطبعة الرابعة سنة ١٩٦٦ ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

وإخضاعها لحكمهم - إن لم يكن طردهم منها كما طردوهم من الأندلس - ومتمثلا كذلك فى محاولة انتزاع السيطرة التجارية العالمية منهم وحيازتها فى أيدهم، لإضعاف المسلمين من جهة، والتقوّى على حربهم من جهة أخرى.

ومن أعاجيب ذلك الزمان أن يكون الرائد الذى دل فاسكو داجاما وأعانه على إتمام رحلته هو البحار العربى المسلم «ابن ماجد» الذى أمده بالمعلومات والخرائط، بل قاد بنفسه سفينته نحو جزر الهند الشرقية!!

غفلة أم قهر . . ؟ لست أدرى!

وحين أتم فاسكو داجاما رحلته بمعونة ابن ماجد، قال قولته الشهيرة المفصحة عن الهدف الحقيقى للرحلة، الذى نتغافل نحن عنه حين ندرّس الرحلة لأبنائنا بتأثير الغزو الفكرى كما سيجئ، ونزعم لطلابنا أنها كانت رحلة «علمية»! قال: الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت!!

رحلة صليبية واضحة الأهداف.

ومثلها كل الرحلات الأخرى التى قام بها الصليبيون فى العالم الإسلامى، يدرسون مداخله ومخارجه، ويرجعون إلى حكوماتهم ليدلوها على طريقة التسلل إلى بلاد المسلمين. وأشهرها رحلة ماجلان، التى كان هدفها الاستيلاء على الأرض الإسلامية فى الفلبين وإخضاعها لحكم الصليبيين، والتى ندرّسها لأبنائنا كذلك على أنها من أعظم الرحلات «العلمية» الاستكشافية فى التاريخ![1].

أما أنها استكشافية فنعم! وأما أنها «علمية» . . فليس شىء أشد من ذلك تزويراً على التاريخ.

ثم إنها استكشافية بالنسبة لأوربا، لأنها كشفت للأوربيين بلادا لم يكونوا يعلمون عنها شيئا إلا بالسماع. أما بالنسبة لنا نحن المسلمين! هل كانت بلادنا مجهولة منا فى انتظار أن يأتى ماجلان فيكشفها لنا، كما نوحى لأبنائنا ونحن ندرّس لهم التاريخ؟![2].

---

(١) كتب ماجلان إلى البابا عدة مرات يطلب الإذن له بإعداد «رحلة» إلى الفلبين لإخضاع «الكفار» (أى المسلمين) لحكم الصليب، وأخيرا أذن له البابا فقام برحلته «العلمية الاستكشافية»! ولما حاول رفع الصليب على الأرض الإسلامية قتله المسلمون. ونحن ندرس لأبنائنا أن «المتبربرين» قتلوه، لأنهم لم يقدروا قيمة الرحلة الاستكشافية العظيمة!

(٢) انظر من كتابات المسلمين - على سبيل المثال - رحلة ابن بطوطة!

توالت الرحلات . . وتوالت الاستكشافات . . وبدأت السرقات!

يجيء الصليبيون إلى سلطان من سلاطين المسلمين - فى أفريقيا خاصة - فليجئون إلى كرمه - أو قل إلى غفلته! - فيطلبون منه مساعدة سفنهم التى ترسو فى مرافئه فيساعدهم بلا شك ! فيطلبون قطعة أرض على الشاطئ ليقوموا هم بخدمة سفنهم إذا جاءت ! فيعطيهم قطعة الأرض بمقتضى « الكرم » ولاشك ! فإذا استولوا على قطعة الأرض وصارت لهم نقطة ارتكاز على الشاطئ جاءوا بالسفن المحملة بالجنود والسلاح، ونزلوا فى المرفأ، وجاسوا خلال الديار!

ولم تكن هذه بطبيعة الحال هى الطريقة الوحيدة للغزو الصليبى، فقد استخدموا كل الوسائل التى تحقق لهم أهدافهم، من غزو عسكرى صريح[1] ، إلى حملات تبشيرية تمهد السبيل[2] إلى تسلل « تجارى » ينقلب فيما بعد إلى استعمار كامل[3] .

وأخيرا - فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى - كانوا قد احتلوا كل الأرض الإسلامية تقريبا، ما عدا تركيا ذاتها، وأجزاء من الجزيرة العربية ، وأخضعوا المسلمين فى مناطق احتلالهم للحكم الصليبى جهرة أو بوساطة حكام من « المسلمين! » يقومون بالحكم ظاهرا، ومن ورائهم - أو من خلالهم - يحكم الصليبيون !

لا تحتاج ظاهرة الغزو الصليبى ذاتها إلى تعليل ولا تفسير !

فالحقد الذى يحمله الصليبيون فى قلوبهم للإسلام قد أخبرنا به اللطيف الخبير فى كتابه المنزل :

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم﴾ [4] .

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ (٥) .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا﴾ [6] .

فهو حقد دائم ، كامن فى قلوبهم ضد الإسلام ، لا يحتاج إلى باعث آخر . فمجرد وجود إسلام فى الأرض كاف لتحريك ضغائنهم ، وباعث لهم على التحرك ضد المسلمين ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا .

---

(١) كما حدث فى مصر والشمال الأفريقى .
(٢) كما حدث فى وسط أفريقيا وغربها .
(٣) كما حدث فى الهند وأندونيسيا .
(٤) سورة البقرة [١٢٠] .
(٥) سورة البقرة [١٠٩] .
(٦) سورة البقرة [٢١٧] .

تلك حقيقة نحتاج إلى توكيدها والتذكير بها لأن هناك أكذوبة ضخمة اصطنعها الغرب ليدارى بها أحقاده الصليبية ، وأطلقها فى جميع المجالات حتى صدقها المسلمون أنفسهم ـ بتأثير الغزو الفكرى ـ وصاروا يرددونها على نحو ما لقنها لهم سادتهم . خلاصتها أن عصر الحمية الدينية قد انتهى ، ولم تعد تلك الحمية تحرك أوربا اليوم كما كانت تحركها فى العصور الوسطى ، لأن « الدين » فى أوربا لم يعد عاملًا مؤثرا فى حياة أهلها . إنما هو « استعمار اقتصادى » هدفه البحث عن الموارد والخامات ، ولا علاقة له بالدين ! !

وتلك ـ فى مجملها ـ أكذوبة لا نصيب لها من الواقع !

حقيقة إن أوربا هجرت الدين ونسيته ، ولم تعد تحكمه فى شئ من واقع حياتها لا السياسية ولا الاقتصادية ولا العلاقات الاجتماعية ولا مشاعر القلب ولا خطرات الذهن . ولكن هذا كله شئ والحقد الصليبى شئ آخر !

إن الحقد الصليبى ليس مبعثه بالضرورة « تدين » النصارى كما قد يبدو لأول وهلة ، إنما سببه الأساسى هو وجود المسلمين ! وجود تجمع بشرى لا ينتمى إليهم ولا ينضوى إلى زمرتهم ولا يتبع ملتهم ، وهذا هو الذى تشير إليه الآية الكريمة :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ [(١)] .

وسواء كانوا هم متدينين أو منسلخين من دينهم فلن يرضوا عن « المسلمين » طالما هم مسلمون ، يستظلون براية « لا إله إلا الله محمد رسول الله » !

يقول محمد أسد فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » :

« إن الاصطدام العنيف الأول بين أوربة المتحدة من جانب وبين الإسلام من الجانب الآخر ـ أى الحروب الصليبية ـ يتفق مع بزوغ فجر المدنية الأوربية . فى ذلك الحين أخذت هذه المدنية ـ وكانت لا تزال على اتصال بالكنيسة ـ تشق سبيلها الخاص بعد تلك القرون المظلمة التى تبعت انحلال رومية . حينذاك بدأت آداب أوربة ربيعا منورا جديدا . وكانت الفنون الجميلة قد بدأت بالاستيقاظ ببطء من سبات خلفته هجرات الغزو التى قام بها القوط والهون والآفاريون . ولقد استطاعت أوربّة أن تتملص من تلك الأحوال الخشنة فى أوائل القرون الوسطى ، ثم اكتسبت وعيا ثقافيا جديدا ، وعن

---

(١) سورة البقرة [١٢٠] .

طريق ذلك الوعى كسبت أيضا حسا مرهفا . ولما كانت أوربة فى وسط هذا المأزق الحرج، حملتها الحروب الصليبية على ذلك اللقاء العدائى بالعالم الإسلامى . لقد كان ثمت حروب بين المسلمين والأوربيين قبل عصر الحروب الصليبية : كانت فتوح العرب فى صقلية والأندلس، وكان هجومهم على جنوب فرنسة، ولكن هذه المعارك كانت قبل أن تستيقظ أوربة إلى وعيها الثقافى الجديد، فاتسمت من أجل ذلك، ومن وجهة النظر الأوربية على الأقل، بطابع ذى نتائج محلية . ولم تكن تلك المعارك قد فهمت بعد على وجهها الحقيقى . إن الحروب الصليبية هى التى عينت فى المقام الأول والمقام الأهم موقف أوربة من الإسلام لبضعة قرون تتلو . ولقد كانت الحروب الصليبية فى ذلك حاسمة لأنها حدثت فى أثناء طفولة أوربة، فى العهد الذى كانت فيه الخصائص الثقافية الخاصة قد أخذت تعرض نفسها (يقصد قد أخذت تظهر) وكانت لاتزال فى طور تشكلها . والشعوب كالأفراد، إذا اعتبرنا أن المؤثرات العنيفة التى تحدث فى أوائل الطفولة تظل مستمرة ظاهراً أو باطنًا مدى الحياة التالية . وتظل تلك المؤثرات محفورة حفرًا عميقا، حتى إنه لا يمكن للتجارب العقلية فى الدور المتأخر من الحياة، والمتسم بالتفكير أكثر من اتسامه بالعاطفة أن تمحوها إلا بصعوبة ، ثم يندر أن تزيلها تماما .

« وهكذا كان شأن الحروب الصليبية، فإنها أحدثت أثرا من أعمق الآثار وأبقاها فى نفسية الشعب الأوربى . وإن الحمية الجاهلية العامة التى أثارتها تلك الحروب فى زمنها لا يمكن أن تقارن بشئ خبرته أوربة من قبل ، ولا اتفق لها من بعد .

« لقد اجتاحت القارة الأوربية كلها موجة من النشوة، كانت - فى مدة ما على الأقل - عنفوانا تخطى الحدود التى بين البلدان والتى بين الشعوب والتى بين الطبقات . ولقد اتفق فى ذلك الحين، وللمرة الأولى فى التاريخ، أن أوربة أدركت فى نفسها وحدة - ولكنها وحدة ضد العالم الإسلامى . لقد كان ثمت قبل ذلك الزمن أنجلو سكسون وجرمان وفرنسيون ونورمان وإيطاليون ودنمركيون وسلاف، ولكن فى أثناء الحروب الصليبية ولدت فكرة « المدنية الغربية» وأصبحت هدفًا واحداً تسعى إليه جميع الشعوب الأوربية على السواء . وكانت تلك المدنية الغربية عدوة للإسلام وقفت عرابا [وكيل الطفل المعمد بالتعبير الكنسى] فى هذه الولادة الجديدة . . لقد نشأ تسميم العقل الأوربى عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلة فى الغرب . وفى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوربيين

من أن الإسلام دين شهوانية وعنف حيواني، وأنه تمسك بفروض شكلية، وليس تزكية للقلوب وتطهيرا لها، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت . .

« لقد بذرت بذور البغضاء . . إن حمية الصليبيين الجاهلية كان لها ذيولها في أماكن كثيرة من أوربة، فشجع ذلك نصارى الأندلس على الحرب لإنقاذ بلادهم من « نير الوثنيين» . . .

« ولكن قبل أن يتاح لصدى هذه الحوادث أن يخفت في أسبانية حدث حدث ثالث عظيم الأهمية زاد في فساد الصلات بين العالم الغربي وبين الإسلام: ذلك هو سقوط القسطنطينية في يد الأتراك . . وبسقوط القسطنطينية فتح باب أوربا على مصراعيه للسيل الإسلامي . وفي القرون التي تلت والتي امتلأت بالحروب، لم تبق عداوة أوربة للإسلام قضية ذات أهمية ثقافية فحسب، بل ذات أهمية سياسية أيضا . وهذا زاد في اشتداد تلك العداوة . . ولقد كانت هذه البغضاء تغمر الشعور الشعبي كلما ذكرت كلمة « مسلم»، ولقد دخلت في الأمثال السائرة عندهم حتى نزلت في قلب كل أوربي رجلا كان أم امرأة . وأغرب من هذا كله أنها ظلت حية بعد جميع أدوار التبدل الثقافي . ثم جاء عهد الإصلاح الديني حينما انقسمت أوربة شيعا، ووقفت كل شيعة مدججة بسلاحها في وجه كل شيعة أخرى، ولكن العداء للإسلام كان عاما فيها كلها . بعدئذ جاء زمن أخذ الشعور الديني فيه يخبو ولكن العداء للإسلام استمر» [(١)] .

وفي هذا ما يوضح تلك الحقيقة التي تشكل أحيانا على الذهن : كيف أن أوربا هجرت دينها ومع ذلك فما تزال تشعر بالحقد الصليبي تجاه المسلمين .

فإذا أضيف إلى « وجود» الإسلام، وهو الباعث الأول لحقد اليهود والنصارى منذ أول لحظة وجد فيها الإسلام، قبل أن يحدث احتكاك من أي نوع بين المسلمين واليهود أو بينهم وبين النصارى . . إذا أضيف إلى مجرد وجود الإسلام حركته التاريخية الهائلة التي اصطدم فيها باليهود والنصارى، وأزاحهم من مراكز قوتهم ـ كلها أو بعضها ـ فترة طويلة من الوقت، فقد وجد « سبب إضافي » لحقد، لا يزول ، بشهادتهم هم أنفسهم، التي نطق بها رجل مثل « ولفرد كانتول سميث» في كتابه « الإسلام في

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة عمر فروخ مقتطفات ص ٥٢ ـ ٥٨ .

التاريخ الحديث»[1] . وينطق بها على الدوام غيره من المستشرقين والمبشرين ورجال السياسية ورجال الفكر . .[2] .

ولا يمنع هذا من وجود أطماع اقتصادية هائلة لأوربا فى الشرق الغنى بالخامات والموارد، التى لا يكادأصحابها يستثمرون منها إلا القليل، بينما تتحرق أوربا شوقا إلى شئ منها !

ولكن هذا لا ينبغى أن يخفى عنا مجموعة من الحقائق فى هذا الشأن :

الأولى : أن الباعث الصليبى كان هو الباعث الأول الذى حرك أوربا إلى الاستيلاء على العالم الإسلامى كما هو ثابت من رحلتى فاسكو داجاما وماجلان، والرحلات «الاستكشافية» الأخرى - فى أفريقيا خاصة - التى حملت المبشرين بكميات هائلة إلى أماكن لم يكن الاستغلال الاقتصادى فيها محدد المعالم أول الأمر ، وإن كان قد حدث على نطاق واسع فيما بعد، حين اكتشف المحتلون مصادر الثروة وأخذوا فى استغلالها.

الثانية : أن التحرك الاقتصادى الأول من أوربا نحو الشرق كان هدفه الأول حرمان المسلمين من مصادر قوتهم لإضعافهم ، وهوهدف صليبى واضح تتخذ له جميع الوسائل، وما الوسيلة الاقتصادية إلا واحدة من هذه الوسائل فحسب. وليست هى الغاية كما يزعمون ويزعم معهم المستعبدون لهم من « المثقفين» خاصة ، الذين يهز الواحد منهم كتفيه فى بلاهة ويقول : إن الغرب لا يريد إلا تأمين مصالحه الاقتصادية فحسب ، ولا يهمه شيء غير ذلك !

الثالثة : أنه حين برز العامل الاقتصادى فى حياة أوربا فيما بعد، وأصبح - فى ظاهر الأمر - هو المحرك الأول لجميع تصرفاتها، بقى هناك فارق واضح بين « الاستعمار الاقتصادى » فى بلاد الإسلام، والاستعمار الاقتصادى فى البلاد غير الإسلامية التى استولوا عليها فى مرحلة التوسع وتكوين الإمبراطوريات.

فمع أنه فى جميع أحواله ظالم للبلاد المحتلة المستغلّة ، أنانى النزعة، لايهمه إلا تحقيق مصالحه الخاصة على حساب أهل البلاد الأصليين، حريص دائما على تركهم فقراء متخلفين ليتسنى له استغلالهم أطول وقت ممكن، معاكس دائما لحركاتهم التحررية الاستقلالية، كابت لوجودهم السياسى و « القومى» . .

---

(١) راجع شهادته فى الصفحات السابقة.

(٢) راجع تصريحات مجموعة منهم فى كتاب « التبشير والاستعمار» لعمر فروخ وزميله .

مع ذلك كله فإنه ـ فى البلاد غير الإسلامية ـ لا يتعرض لعقائد الناس وأفكارهم وتقاليدهم بشئ من العنف على الإطلاق ، مكتفيا بما يتسرب إلى حياتهم تدريجيا من التأثير الناشىء من رغبة المغلوب فى تقليد الغالب . أما فى البلاد الإسلامية فقد كانت هناك دائما تدبيرات وترتيبات يقصد بها قصداً إلى إزالة مظاهر الحياة الإسلامية ، ومحاولة سحق الإسلام فى نفوس المسلمين بالعنف ، أو صرفهم عنه صرفا خبيثا ماكرا بوسائل أخرى غير العنف[1] ، ولكنه لا يهادَن ولا يرُضى عنه فى أى حال من الأحوال . . وكان من أول هذه التدبيرات والترتيبات فى كل بلد إسلامى وقع فى قبضتهم تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ووضع القوانين الوضعية بدلا منها ، وهو أمر لا علاقة له من قريب ولا بعيد « بالمصالح الاقتصادية» التى يزعم الغرب ويزعم معه أتباعه المستعبدون له أنها الهدف الأول والأخير من استيلائهم على العالم الإسلامى !

ومن هذا يتبين أن الدافع الصليبى كان موجودا دائما مع الغزو الأوربى لبلاد الإسلام ، سواء كان يعمل منفردا كما كان فى منطلقه الأول ، أو ممتزجا بالدافع الاقتصادى كما حدث فيما بعد ، ولكنه فى جميع أحواله حاد النزعة محتدم الأوار لا يهدأ ولا يسكن ، بل ازدادت حدته فى القرن الأخير خاصة مع بروز حركات البعث الإسلامى كما سيجىء [2] .

٤ ـ الغزو الفكرى

يقصد بالغزو الفكرى الوسائل غير العسكرية التى اتخذها الغزو الصليبى لإزالة مظاهر الحياة الإسلامية وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام ، مما يتعلق بالعقيدة وما يتصل بها من أفكار وتقاليد وأنماط سلوك .

والدافع إلى استخدام الغزو الفكرى فى الحرب الصليبية المعاصرة هو الحصيلة المرة التى خرج بها الصليبيون من حروبهم الصليبية الأولى مع المسلمين فى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين) ، والتى انتهت بالهزيمة

---

(١) سنتكلم عن هذه الوسائل فى الفقرة التالية بعنوان « الغزو الفكرى » .

(٢) يعلم المسلمون الممارسون لدينهم من الذين يعيشون فى أوربا أو يزورونها مدى الحقد الصليبى الكامن فى قلوب الأوربيين تجاه الإسلام !

الساحقة وعدم تحقيق شئ مما خرج الصليبيون من بلادهم لتحقيقه، وبذلوا فيه الأموال والدماء والنفوس .

فى تلك الحروب الأولى وقع لويس التاسع ملك فرنسا فى الأسر بعد هزيمة حملته الصليبية، وبقى سجينا فى المنصورة فترة من الوقت حتى افتداه قومه وفُكَّ أسره .

وفى أثناء سجنه أخذ يتفكر فيما حل به وبقومه، ثم عاد يقول لقومه : إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده ـ فقد هزمتم أمامهم فى معركة السلاح ـ ولكن حاربوهم فى عقيدتهم ، فهى مكمن القوة فيهم .

ووعى قومه نصيحته . .

فلما عادوا لغزو العالم الإسلامى مرة أخرى لم يكتفوا بالسلاح وحده، ولكنهم استصحبوا معهم تلك الوسيلة الخبيثة التى نطلق عليها اسم « الغزو الفكرى» .

والهدف الأخير من الغزو الفكرى هو اقتلاع العقيدة الإسلامية من قلوب المسلمين وصرفهم عن التمسك بالإسلام، أما الوسائل فهى كثيرة متعددة ، ولكن يمكن حصرها فى مجالين أساسيين مناهج التعليم ، ووسائل الإعلام.

حين دخل الإنجليز مصر عام ١٨٢٢ قام جلادستون رئيس الوزارة البريطانية يومئذ فى مجلس العموم البريطانى يقول مشيرا إلى المصحف : طالما كان هذا الكتاب فى أيدى المصريين فلن يقر لنا قرار فى تلك البلاد !

وفى مؤتمر المبشرين الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٠٦ وقف الخطباء يقولون: لقد فشلنا! فقد فتحنا المدارس والمستشفيات والملاجئ، وأعطينا الأموال وقدمنا الخدمات، ثم لا يدخل فى النصرانية بعد ذلك إلا طفل صغير خطفناه من أهله قبل أن يعرف عقيدة أهله، أو رجل كبير جاء إلينا من أجل المال ولا نضمن عقيدته مع ذلك! فقام « الأب زويمر »[1] مقرر المؤتمر يرد عليهم: لقد استمعت إلى إخوانى الخطباء، ولست موافقا على ما يقولون. فليست مهمتنا هى تنصير المسلمين، فهذا شرف ليسوا جديرين به(!) ولكن مهمتنا هى صرف المسلمين عن التمسك بالإسلام، وفى ذلك

---

(١) مبشر بروتستانتى كان له نشاط تبشيرى واسع فى البلاد الإسلامية، وأوصى قبل موته بأن يدفن فى مقابر اليهود !

نجحنا نجاحا باهرا بفضل مدارسنا التبشيرية، والسياسة التعليمية التى وضعناها للبلاد الإسلامية ! [1] .

وتلك أقوال صريحة لا تحتاج إلى تعليق . .

فالمطلوب هو صرف المسلمين عن دينهم وعن قرآنهم، وليكونوا بعد ذلك ما يكونون . فإذا عجزوا عن تنصيرهم كما كانوا يشتهون ويخططون فى البدء[2] ، فينبغى على الأقل أن ينتزعوا من قلوبهم ذلك الشئ المرهوب ، الذى يزعجهم ويفزعهم حتى وهو كامن فى قلب « الرجل المريض» كما صرح أحد الكتاب فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى» حيث قال : إن أوربا كانت تفزع من الرجل المريض لأن وراءه ثلاثمائة مليون من المسلمين على استعداد للجهاد بإشارة من أصبعه !

نعم ! إنها روح الجهاد فى هذا الدين أشد ما يفزعهم منه، وإن كان كل شىء فيه مقيتا لديهم لا يطيقون أن يبصروه ! [3] .

ولعل خير نموذج نقدمه فى مجال الغزو الفكرى هو التجربة المصرية . . فقد كانت للصليبيين عناية خاصة بمصر بالذات، وبالقضاء على الإسلام فيها، بسبب مركزها الحيوى المؤثر فى قلب العالم الإسلامى، وبالذات بسبب وجود الأزهر فيها، مما جعلها مركز الإشعاع الروحى والثقافى للعالم الإسلامى كله .

قال أحد المبشرين فى كلمة له فى المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى القاهرة سنة ١٩٠٦ وهو يتساءل عما إذا كان الأزهر يتهدد كنيسة المسيح بالخطر : إن السنيين من المسلمين رسخ فى أذهانهم أن تعليم العربية فى الجامع الأزهر متقن ومتين أكثر منه فى غيره، والمتخرجون فى الأزهر معروفون بسعة الاطلاع على علوم الدين وباب التعليم مفتوح فى الأزهر لكل مشايخ الدنيا، خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا لأن فى استطاعته أن ينفق على ٢٥٠ استاذًا . ثم عرض اقتراحا يريد به إنشاء مدرسة جامعة نصرانية تقوم الكنيسة بنفقاتها لتتمكن من مزاحمة الأزهر بسهولة،

---

(١) راجع « الغارة على العالم الإسلامى» ترجمة محب الدين الخطيب .

(٢) لا عبرة بما يقوله زويمر من أن هدف الصليبيين لم يكن هو تنصير المسلمين، ولا عبرة بتعليله ، السمج أن التنصير شرف لا يستحقه المسلمون ! فتلك محاولة منه لتغطية الفشل الذى لقيه المبشرون فى عملية التنصير، كما قال الثعلب حين عجز عن الصعود إلى كرمة العنب إنه عنب حصرم ! !

(٣) يعرف الذين يعيشون فى أوربا من المسلمين كم يثيرهم منظر الفتاة المسلمة المتحجبة إلى حد لا يستطيعون إخفاءه !

وتتكفل هذه المدرسة الجامعة بإتقان تعليم اللغة العربية . وختم كلامه قائلا : ربما كانت العزة الإلهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بإنشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الإسلامية [١] .

لذلك كانت عنايتهم بإفساد الإسلام فى مصر ـ أو بعبارة أخرى محاولة إخراج مصر من الإسلام ـ عناية شديدة ، وبذلوا فى سبيل تحقيقها جهودا مركزة قد تكون أوسع نطاقا وأعمق أثرا من أى محاولة أخرى قاموا بها فى بقية العالم الإسلامى (فيما عدا محاولاتهم التى بذلوها فى تركيا لإزالة الخلافة حتى حققوا هدفهم على يد كمال أتاتورك) [٢] .

وثمت سبب آخر لاختيار التجربة المصرية هو أنها تجربة متكاملة ، من أول الانسلاخ من الإسلام إلى بدء العودة إليه . وسيجد كل قارئ من البلاد العربية أو الإسلامية الأخرى أن بلاده قد مرت بجانب من هذه التجربة على الأقل . فإذا عرضنا له التجربة المتكاملة سهل عليه أن يستوعب أبعاد المؤامرة ويستوعب كذلك رد الفعل .

دور الحملة الفرنسية

فى عام ١٧٩٨ م جاءت الحملة الصليبية الفرنسية إلى مصر بقيادة نابليون بونابارت .

وندرس نحن لأبنائنا أن الحملة الفرنسية كانت فتحا عظيما ـ لا بالنسبة لفرنسا ولكن بالنسبة لمصر ! ـ وأنها هى بداية الانفتاح المصرى على العالم المتحضر ، وبدايةالخروج من الظلمات إلى النور . ومايزال هناك سؤال دورى يتردد فى اختبارات الشهادة الإعدادية ، مرة يقال فيه : اذكر فوائد الحملة الفرنسية على مصر ، ومرة يقال : اذكر «مآثر» الحملة الفرنسية على مصر !ولا يذكر فى المنهج مرة واحدة بطبيعة الحال أنها كانت حملة صليبية على مركز من أهم مراكز العالم الإسلامى !

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ص ٥٧ ـ ٥٨ ، الدار السعودية للنشر ، جدة .

(٢) ركز الصليبيون فى محاولتهم القضاء على الإسلام على نقطتين رئيسيتين : الآستانة والقاهرة . الآستانة باعتبارها مركز القوة السياسية والعسكرية للعالم الإسلامى ، والقاهرة باعتبارها مركز الإشعاع الروحى والثقافى . ولكن جهودهم فى الآستانة كانت سياسية وعسكرية فى المقام الأول ، بينما كانت جهودهم فى القاهرة فكرية وثقافية فى المقام الأول . لذلك فإننا ـ فى مجال الغزو الفكرى ـ نركز على التجربة المصرية ، وسنتعرض للتجربة التركية فى أثناء السرد التاريخى .

يقال فى أهداف الحملة إن نابليون كان يريد أن يتخذ من مصر قاعدة له لقطع «الطريق الإمبراطورى» بين بريطانيا والهند ، بسبب التنافس الاستعمارى بين فرنسا وبريطانيا . ويقال إنه حمل معه مطبعة ذات أحرف عربية لطبع الأوامر والمنشورات «الإصلاحية» التى يصدرها نابليون إلى الشعب المصرى . وإنه جاء معه ببعثة علمية للتنقيب عن آثار الفراعنة .

وببلاهة وغفلة ـ أو بخبث وسوء نية ـ تُتَجاهل الأهداف الحقيقية للحملة ، وأهداف المطبعة والبعثة « العلمية» !

فأما التنافس الاستعمارى بين بريطانيا وفرنسا فى تلك الفترة فحقيقة تاريخية لا شك فيها ، وكذلك رغبة نابليون الأكيدة فى أن يتخذ من مصر قاعدة يحارب منها بريطانيا ، ويقطع « طريقها الإمبراطورى» إلى الهند . أما أن هذه هى كل أهداف الحملة فأمر يكذبه واقع التاريخ !

فما العلاقة بين قطع الطريق الإمبراطورى ، وبين محاولة تنحية الشريعة الإسلامية فى مصر وإحلال القوانين الوضعية محلها؟ !

وما العلاقة بين قطع الطريق الإمبراطورى ، وبين البعثة العلمية التى تنقب عن آثار الفراعنة؟ !

أما حين نعلم أنها حملة صليبية تحمل معها أهدافًا محددة ضد الإسلام . . فهناك يتضح كل شىء !

أرسل نابليون منشورا إلى المصريين بعد احتلال الإسكندرية جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . لا إله إلا الله لا ولد له ولا شريك له فى ملكه .

«من طرف الفرنساوية ، المبنى على أساس الحرية والتسوية : [(١)] .

« السر عسكر الكبير ، أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته ، يعرّف أهالى مصر

---

(١) يلاحظ رداءة أسلوب الترجمة ولكن هكذا كانت الأساليب فى ذلك الوقت أقرب إلى العامية منها إلى العربية الفصحى . والإشارة واضحة إلى شعار الثورة الفرنسية : « الحرية الإخاء المساواة» ومعلوم جيدا أن هذا هو نفس شعار الماسونية !

جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون فى البلاد المصرية يتعاملون بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرنساوية [١] . .

« قد قيل لكم لكم إننى ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه ![٢] وقولوا للمغترين إننى ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين . وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى واحترم نبيه والقرآن العظيم ! . .

« أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجربجية [٣] وأعيان البلد : قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون(!!) وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فى رومية الكبرى وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان دائما يحث النصارى على محاربة الإسلام(!!) . . ومع ذلك الفرنساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثمانى ، وأعداء أعدائه ، أدام الله ملكه (!!) . . إلخ . . إلخ » [٤] .

وبعد هزيمة المماليك أمامه فى معركة « إمبابة » جاء واستقر فى القاهرة فى منزل . «الألفى بك» ، وكان - بوصفه « مسلما ! » محبا للإسلام والقرآن - يرأس مجلس العلماء ويخلع عليهم أحيانا « خلعا سنية ! » . . ويحاول استخدامهم فى ترويج القوانين الوضعية التى أراد إحلالها محل الشريعة الإسلامية ، والتى كان يطبعها فى المطبعة العربية التى جاء بها معه ووضعها فى بولاق !

وياله من إجراء يقطع به الطريق الإمبراطورى بين بريطانيا والهند !

إنها لسذاجة بلهاء أن نتصور أن نابليون جاء فقط ليقطع الطريق الإمبراطورى بين بريطانيا والهند!

---

(١) هنا يذكر نابليون بصراحة أن أحد أهداف الحملة هو الانتقام من المماليك الذين يتعاملون مع الفرنسيين المقيمين فى منطقة نفوذهم (مصر والشام) « بالذل والاحتقار» . والذين يكتبون عن « مآثر» الحملة الفرنسية على مصر يغفلون الكلام عن هذه النقطة الصليبيه المقنّعة !

(٢) يكاد المريب يقول خذونى !

(٣) لم أفهم ما دخل « الجربجية» (وهم اليونانيون المقيمون بمصر) فى منشور موجه للمسلمين ليطمئنهم على أن نابليون مسلم مثلهم ! !

(٤) انظر نص المنشور بكامله فى كتاب « عجائب الآثار فى التراجم والآثار» لعبد الرحمن الجبرتى ، ص ١٨٢ - ١٨٣ طبع دار الجيل ببيروت .

نعم، إنه ينافس بريطانيا ويلاحقها ويضيق عليها. ولكنه جاء ومعه مخططه الصليبي الكامل لإخراج مصر من دائرة الإسلام، لعلها تكون بعد ذلك نقطة ارتكاز لإفساد بقية العالم الإسلامي الذى يتلقى فيها العلم، ويستمد منها النور..

ولقد كانت محاولة تنحية الشريعة الإسلامية هى أول نقاط المخطط التى بدأ بتنفيذها بالفعل، حتى كشفه واحد من علماء الأزهر، فتح الله على قلبه وكشف بصيرته فعلم حقيقة نواياه[1]، فقال له فى وجهه: لو كنت مسلمًا حقا كما تدعى لطبقت الشريعة الإسلامية فى بلدك فرنسا، بدلا من تنحية الشريعة هنا، ووضع القوانين الوضعية بدلا منها..

وأما المطبعة.. تلك «المأثرة» العظيمة من مآثر الحملة.. فقد جاء بها نابليون لأكثر من سبب. ففيها يطبع المنشورات التى يطالب فيها الشعب المصرى المسلم بالخضوع لأوامر المغتصب الصليبى، كالمنشور الذى قال فيه إن الإيمان بالقضاء والقدر يستلزم الاستسلام الكامل للفرنسيين وعدم مقاومتهم، لأن تغلبهم على مصر والاستيلاء عليها كان بقدر من الله! كما كان يطبع فيها المنشورات الحاوية «لقانون نابليون» التى يصدرها لإبطال الشريعة الإسلامية بالتدريج!

وإذا كانت المطبعة قد استخدمت فيما بعد لهدف مغاير تماما لأهداف نابليون، من نشر للتراث العربى الاسلامى، فهذا أمر لايحسب لنابليون ولايحسب من «مآثر» الحملة.. لأنه لم يكن مقصودا عند نابليون، بل كان عكسه تماما هو ما استخدمت فيه على أيامه!

وأما البعثة «العلمية» التى جاءت تنقب عن آثار الفراعنة، وهى المأثرة الثانية من مآثر الحملة فأمرها أنكى!

يقول أحد المستشرقين الصرحاء فى كتاب «الشرق الأدنى: مجتمعه وثقافته»: «إننا فى كل بلد إسلامى دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام. ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات»[2].

ولقد كان هذا هوالهدف المخطط للبعثة «العلمية» المرافقة للحملة.. لم يكن هدفا

(١) هو الشيخ الشرقاوى، وكان نابليون شديد الحنق عليه!

(٢) انظر: Near East; Culture and Society, Edited by T. Cuyler Young

«علميًا» إنما كان هدفا صليبيا مغلفا بالعلم ، شأنه شأن الرحلات « العلمية» الاستكشافية التى قام بها الصليبيون ابتداء من القرن السادس عشر الميلادى !

لقد كانت الآثار الفرعونية موجودة منذ ألوف السنين . . سرق منها ما سرق ونهب منها ما نهب . . وبقيت المعابد والهياكل الضخمة يزورها من يزور مصر ويعتبرها من «عجائب» الماضى السحيق ، يتسلى برؤيتها ويقف عندها ليأخذ العبرة ويمضى . . ويعود إلى بلاده ليصفها لمن لم يرها . . ثم يمضى الأمر كله بلا احتفال كبير .

وأما المسلمون من أهل مصر فقد كانوا يرونها دون شك ، ويعجبون من دقائق صنعها ، ولكنها فى حسهم أصنام وأوثان تركها قوم غابرون ، انقطعت الصلة بينهم وبينهم بكون هؤلاء مسلمين وأولئك من عبدة الأوثان .

وكان هذا هو الحال فى كل مكان فى العالم الإسلامى توجد فيه آثار من بقايا عبدة الأوثان الذين كانوا يسكنون الأرض قبل مجىء الإسلام ، سواء فى الجزيرة العربية أو بلاد الشام والعراق أوغيرها من البلاد . . وظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام . . الناس فى إسلامهم ، وهذه الأوثان فى الأرض ، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ . .

ولكن المخطط الخبيث الذى حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ ، لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات ، تمهيدا لاقتلاعهم نهائيا من الولاء للإسلام !

وكان هذا ذاته هوالهدف من البعثة « العلمية » التى جاء بها نابليون معه إلى مصر !

ومن السذاجة البلهاء - التى يحمل « المثقفون » قدرا هائلا منها - أن نقول إن أهدافها كانت « علمية » بحتة ، وقد شهد شاهد من أهلها أنها لم تكن كذلك !

كان المقصود هو إثارة النعرة الفرعونية فى المصريين المسلمين ، حتى إذا انتسبوا لم يكن انتسابهم إلى الإسلام ، إنما إلى « مصر » بعيدا عن الإسلام كما قال « شاعر النيل » حافظ إبراهيم :

أنا مصرى بنانى من بنى ... هرم الدهر الذى أعيى الفنا

وإذا كان حافظ إبراهيم نفسه له شعر إسلامى ، فقد تحقق فيه المخطط الخبيث على أى حال ، وهو ذبذبة ولائه بين الإسلام وبين الحضارات السابقة على الإسلام كما قال ذلك المستشرق الصريح !

هذه هى الأهداف الرئيسية لحملة نابليون ، إلى جانب قطع الطريق الإمبراطورى بلاشك : العمل على تنحية الشريعة الإسلامية ، وإحلال القوانين الوضعية بدلا منها ، وإثارة النعرة الفرعونية تمهيدا لعزل مصر عن العالم الإسلامى ، أو إخراجها منه ومن الإسلام ذاته . .

فإذا أضفنا إلى ذلك « بغايا الحملة » ! اللواتى تحدث عنهن الجبرتى . . أولئك «الساقطات اللواتى جاء بهن نابليون ، يسرن فى شوارع القاهرة حاسرات متخلعات يثرن الفتنة وينشرن الفاحشة ، ويغرين بعض النساء المسلمات بتقليدهن كما أشار الجبرتى فى أكثر من موضع من كتاب « عجائب الآثار » [(1)] .

وإذا أضفنا نداء نابليون الخطير الذى أذاعه غداة احتلاله لمصر ليهود العالم كى يعودوا لوطن آبائهم ليستوطنوه [(2)] .

إذا أضفنا هذا وذاك فقد اتضحت لنا المؤامرة الصليبية الهائلة التى جاء بها نابليون إلى مصر ، بالتعاون مع اليهود الذين كان لهم ضلع كبير فى إثارة الثورة الفرنسية [(3)] التى أنتجت نابليون ذاته ووجهت أعماله . .

وتلك هى المآثر الحقيقية للحملة الفرنسية التى لا تذكرها كتب التاريخ المكتوبة بأيدى الأوربيين ، والتى ينقلها ويتتلمذ عليها « الأساتذة » الكبار من المؤرخين «المسلمين !» .

وأيا كان الأمر فإن حماقات نابليون فى مصر من ضرب الأزهر بالقنابل من القلعة ، واتخاذه اصطبلا للخيل ، ومحاولة اقتلاع المصريين عنوة من الإسلام ، بالإضافة إلى الظروف السياسية والحربية التى أحاطت بفرنسا واضطرت نابليون إلى مغادرة مصر والعودة إلى فرنسا ، وترك الحملة تواجه غضب المسلمين المتزايد من وجود الكفار على أرضهم ، مما حدا بسليمان الحلبى إلى قتل كليبر قائد الحملة بعد رحيل نابليون[(4)] . .

---

(١) راجع الجزء الثانى ص ٢٣١ ، ٢٤٤-٢٥١ ، ٢٧٢-٢٧٣ ، ٣٠٢ ، ٤٣٦-٤٣٧

(٢) نادرا ما يذكر هذا التصريح رغم خطورته راجع موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ص ٢٤٣ ، نشر مؤسسة الأهرام سنة ١٩٧٩ مادة « الصهاينة المسيحيون » .

(٣) راجع ان شئت فصل «دور اليهود فى إفساد أوربا » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٤) قاتل المصريون الحملة الفرنسية ببسالة وشجاعة نادرة ، ولكن لا بوصفهم « مصريين» إزاء «فرنسيين» كما تصور كتب التاريخ التى يتداولها الطلاب والدارسون ، إنما بوصفهم « مسلمين» يقاتلون الكفار الذين يحتلون أرضهم . والدليل على كونها حربا جهادية إسلامية ضد « الصليبيين» أن علماء الدين كانوا هم قادتها ، وأن غضب نابليون قد انصب على الأزهر بوصفه عنصر المقاومة للغزو الصليبى . . وتأتى قمة الدلالة فى كون سليمان «الحلبى» الذى قتل كليبر لم يكن « مصريا» إنما كان « مسلمًا» دفعه إسلامه إلى قتل قائد الحملة الصليبية الموجهة إلى أرض إسلامية . ذلك أن دعاوى « الوطنية» لم تكن قد برزت بعد ، ولم تكن هى الدافع الذى دفع المصريين إلى قتال الفرنسيين . ومن التزوير على التاريخ أن نقدمه للدارسين على النحو الذى نقدمه به اليوم . . وهذا ذاته من تأثير الغزو الفكرى الذى توغل فى قلوب « المسلمين» !

هذه الظروف كلها مجتمعة قد قضت على الحملة الفرنسية واضطرتها إلى مغادرة مصر . . ولكنها ـ مع الأسف ـ لم تقض على كل « مآثرها» ! فقد بقيت البعثة « العلمية» تواصل عملها في الصعيد رغم ذهاب الحملة التي استقدمتها معها ، وهذا من العجب العاجب الذي لا نستطيع اليوم تفسيره! وبقي من الحملة ذاتها رجال ادعوا الإسلام ـ كما ادعاه نابليون من قبل ـ كسليمان « باشا» الفرنساوي الذي كان له دور كبير فيما بعد! وبقي معهد الآثار الفرعونية الذي أنشأه نابليون في حي المنيرة بالقاهرة (وما يزال قائما مكانه حتى هذه اللحظة!!) .

عجزت الحملة الفرنسية ـ بسبب هذه الظروف ـ عن تنفيذ مخططاتها الصليبية اليهودية . . ولكن الأقدار ساقت لها من يقوم عنها بتنفيذ كل مخططاتها في شخص «محمد على الكبير ! » .

دور محمد على

كان محمد على شخصا سيئ السمعة . . معروفا بالقسوة وغلظ الكبد . . ترسله الدولة العثمانية لتأديب القرى التي تتأخر في دفع ما يفرض عليها من المال ، فيعسكر هو وأفراد حملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الآمنين ، حتى يرى أهل القرية أن الأفضل لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبة ـ وإن أبهظتهم ـ خيرا من الذل والفزع الذي يعانونه من محمد على وأفراد حملته !

وكان محبا للعظمة إلى حد الجنون . .

صفات كلها صالحة . . . ! [1] .

وليس بين يدي الآن ما يقطع بأن فرنسا هي التي تدخلت لدى السلطان لإرساله واليا على مصر . . وإن كانت الظروف تشير إلى ذلك [2] .

ولكنه جاء على أي حال . . واليا من قبل الدولة العثمانية على مصر . . عام ١٨٠٥

---

(١) ليس من باب المصادفة أن الذين اختيروا للأدوار الكبرى في حرب الإسلام ، كانوا متصفين بجنون العظمة وقسوة القلب من أمثال محمد على ، وكمال أتاتورك ، وجمال عبد الناصر . ذلك أنهما صفتان لازمتان لمثل هذا الدور « العظيم» !

(٢) حبذا لو قام أحد الباحثين بتحقيق هذه القضية لخدمة الحقائق التاريخية .

من الميلاد، أى بعد مغادرة الحملة الفرنسية بثلاثة أعوام، كانت مصر فى أثنائها قد عادت إلى حكم المماليك مع الولاء للسلطان.

واحتضنته فرنسا احتضانا كاملا لينفذ لها كل مخططاتها!

أنشأت له جيشا مدربا على أحدث الأساليب ومجهزا بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان باشا الفرنساوى!

وأنشأت له أسطولا بحريا على أحدث طراز يومذاك.

وأنشأت له ترسانة بحرية فى دمياط

وأنشأت له القناطر الخيرية لتنظيم عملية الرى فى مصر.

هل كان هذا كله حبا فى شخص محمد على؟ أو حبًا فى مصر؟!

إنما كان لتنفيذ المخطط الصليبى الذى عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الرحيل.

لقد قام محمد على بدور خطير فى نقل مصر من المرتكز الإسلامى إلى شىء آخر يؤدى بها فى النهاية إلى الخروج من الحيز الإسلامى.. سواء كان واعيا تماما لهذا الدور، أو مستغَلا من قبل الصليبية لتنفيذه. والذى يغلب على حسنا ـ على ضوء التجربتين الأخيرتين، تجربة كمال أتاتورك وجمال عبد الناصر ـ أنه كان واعيًا للدور وضالعًا فيه. ولكن يستوى أن يكون ضالعا بوعى أو مستغلا مستَغْفَلا.. فهو فى الحالين يؤدى ذات الدور، ويؤدى الدورُ إلى ذات النتائج بصرف النظر عن النوايا الداخلية للمنفذين. ولكن يبقى شىء مؤكد فى جميع الأحوال.. أن «المسلم» الحق لا يمكن بحال أن يقوم بمثل هذا الدور لا واعيا ولا مستغفلا، لأن إسلامه يمنعه أن يتلقى «التوجيه» من أعداء الإسلام.

لكى نفهم حقيقة الدور الذى قام به محمد على فى خدمة أعداء الإسلام، ينبغى أن نفهم ماذا كان يريد الأعداء.

لقد كانوا يريدون القضاء على الإسلام بصفة عامة، ولكنهم وضعوا فى مخططهم أهدافا مرحلية معينة تمكنهم ـ فى تصورهم ـ من القضاء الأخير على الإسلام.. من هذه الأهداف: القضاء على الدولة العثمانية، والقيام «بتغريب» العالم الإسلامى مع

العناية الخاصة بتغريب مصر - بلد الأزهر - وتصدير التغريب منها إلى بقية العالم الإسلامى .

فأما القضاء على الدولة العثمانية فالأمر فيه واضح . وأما عملية التغريب - عن طريق الغزو الفكرى - فمهمتها الأولى قتل روح الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين للقضاء على المقاومة المستمرة التى يلقاها الغزو الصليبى المسلح ، وذلك بإزالة الحاجز العقدى الذى يذكر المسلم دائما بأنه مسلم وأعداؤه كفار يجب أن يجاهدهم ولا يسمح لهم باحتلال أرضه الإسلامية ، فإذا « تغرب» لم يعد هذا الحاجز قائما فى نفسه ، ولم يعد يثير عنده ما يثيره الإسلام فى نفس المسلم . كما أن التغريب هو الذى يضمن تبعية العالم الإسلامى للغرب - بعد أن يخضع عسكريا له - لأنه حين يتغرب ، يحس أن انتماءه لم يعد للإسلام وإنما للغرب ، فلا يشعر برغبة فى الانفصال عنه ، وحتى إن رغب فى يوم من الأيام أن « يستقل» ففى حدود التبعية العامة التى لا تخرجه من حوزة سادته ، ومن النطاق الذى يضربه السادة حوله .

والآن وقد أدركنا تخطيط الأعداء فلننظر دور محمد على بعد « احتوائه» من قبل فرنسا .

كانت الخطة الصليبية - التى اضطلعت فرنسا بتنفيذها فى مصر - هى تكبير محمد على وإغرائه بالاستقلال عن السلطان ، فتنفصل بذلك قطعة من أرض المسلمين عن الدولة الإسلامية (وذلك يضعفها ولا شك) ثم يكون محمد على نموذجا مغريا لغيره من الولاة ، فيستقلون تباعا عن الدولة رغبة فى السلطان الذاتى ، فتتفكك عرى الدولة وتنهار . . وفى ذات الوقت كانت الخطة هى تغريب مصر - بعد استقلالها - لضمان تبعيتها الدائمة للغرب وانفصالها النهائى عن الإسلام .

وقام محمد على بالدور المطلوب خير قيام! فإن الجيش الذى صنعته له فرنسا ، وقام بتدريبه سليمان باشا الفرنساوى قد استخدمه محمد على لا فى محاولة الاستقلال عن الخلافة فحسب ، بل فى محاربة الخليفة نفسه ! وقد كاد يتغلب على جيش الخليفة بالفعل لولا تدخل بريطانيا . . تظاهراً بالوقوف فى صف الخليفة ، وغيرة فى الحقيقة من أن تستأثر فرنسا « بصداقة » السلطان ، وبالنفوذ فى مصر ! وفى الوقت نفسه لتخدم الهدف العام للصليبية بطريقة أخرى . . فقد أوقفت بريطانيا محمد على عند حده فى ظاهر الأمر ، ومنعته من مهاجمة الخليفة ، وفى الوقت ذاته ضمنت له الاستقلال الفعلى عن الخليفة ، والاستئثار بحكم مصر حكما وراثيا ينتقل فى ذريته ،

مع التبعية الإسمية للسلطان !! (هذا بينما تجمعت أوربا الصليبية كلها لتحطيم محمد على فى معركة نافارين لأنه نسى نفسه وتجرأ على مهاجمة دولة صليبية هى اليونان ! فقد كبرته الصليبية وسلحته لمحاربة الإسلام فقط ، فإذا فعل ذلك فله كل العون . أما إذا هاجت أطماعه لحسابه الخاص ، فمس أحد الصليبيين بسوء ، فهنا يجب تأديبه بل تحطيمه تحطيما كاملا إذا لزم الأمر !!) .

أما الجانب الآخر من المهمة وهو عملية التغريب ، فقد نفذها محمد على بسياسة الابتعاث التى اتبعها ، بإرسال الطلاب الشبان إلى أوروبا ليتعلموا هناك . . وكان هذا أخطر ما فعله فى الحقيقة . . لأنه من هناك بدأ الخط « العلمانى » يدخل ساحة التعليم، ومن ورائه ساحة الحياة فى مصر الإسلامية .

وقد يقول قائل إنه لم يكن أمامه من سبيل للنهوض بمصر إلا هذا السبيل ! وهو قول مردود . .

فلو كان فى مكان محمد على قائد مسلم واع ، [1] يريد أن ينهض بمصر الإسلامية - أى على أسس إسلامية وقاعدة إسلامية - فقد كان أمامه سبيل آخر ، هو النهوض بالأزهر - معقل العلم لا لمصر وحدها بل للعالم الإسلامى كله - برده إلى الصورة الزاهية التى كانت عليها المعاهد الإسلامية فى عصور النهضة ، حيث كانت تعلم العلم الشرعى والعلوم الدنيوية ، وكان يتخرج فيها الأطباء والمهندسون والرياضيون والفلكيون والفيزيائيون والكيميائيون المسلمون الذين علموا العلم لأوربا يوما من الأيام !

فإذا كانت بلاده - أو بلاد العالم الإسلامى جمعاء تفتقر إلى المتخصصين فى هذه العلوم ، الذين يحتاج إليهم الأزهر لينهض بمهمته ، ففى وسعه يومئذ أن يرسل أفرادا بأعيانهم ، يختارون اختيارا دقيقا ، على أساس دينهم وتقواهم ، وحصافتهم ورزانتهم ، بعد أن يكونوا قد تجاوزوا سن الفتنة ، وأحصنوا بالزواج فلا ينزلقون فى مزالق الفساد الخلقى . . فيتخصصون فى مختلف العلوم ويعودون ليدرسوا للطلاب فى بيئتهم الإسلامية ، فيظل الشباب محافظا على إسلامه ، ويتزود من العلوم بما ينفض عنه تخلفه العلمى ، ويعيد إليه الحاسة العلمية التى فقدها المسلمون خلال عصر التخلف الطويل . . وعندئذ « تنهض » مصر ، بل ينهض العالم الإسلامى كله من طريق الأزهر الذى يؤمه الدارسون من جميع بلاد العالم الإسلامى . . ويكون هذا القائد المسلم قد أدى أجل خدمة للإسلام والمسلمين . .

---

(١) كانت الدعايات حول محمد على « الكبير » تقول عنه إنه كان رجلا داهية !! فلم يكن الذى ينقصه إذن هو الوعى !

فهل فكر محمد على على هذا النحو ، أو هل كان قمينا أن يتجه هذه الوجهة ؟ !

لو كان هذا لما اختاروه ! ولما جاءوا به ليؤدى دوره « العظيم » !

إنما كانت صياغته النفسية كلها و « التوجيه » الذى يتلقاه ، كله إلى الجانب الآخر . جانب التغريب .

لذلك أرسل الشبان الصغار بأعداد متزايدة إلى أوربا ، وهم فى سن الفتنة ، غير محصنين بشىء . . « لينهلوا » من العلم إن شاءوا ، ومن الفساد إن شاءوا ، أو من العلم والفساد معا فى غالب الأحيان . . ثم يعودوا ، ليكونوا رأس الحربة المتجه إلى الغرب ، الذى يجر بلاده كلها إلى هناك !

ولا عبرة بأنه كان يرسل مع كل بعثة إماما يؤمهم فى الصلاة ويعلمهم أمور دينهم ! فقد كان للصلاة حتى ذلك الوقت قداستها فى حس المسلمين ، ولا يتصور وجود «مسلم » لا يؤديها ! أو هى فى أقل الاعتبارات « تقليد » له قداسته ، لا يمكن أن يخرج عليه مسلم ! لذلك لم يكن يتصور أن تكون هناك مجموعة من المسلمين بغير إمام يؤمهم فى الصلاة ، ولا يمكن أن يقدم محمد على على كسر ذلك التقليد المقدس فى ذلك الحين .

ولكن ماذا فعل الأئمة ؟ !

لقد كان رفاعة رافع الطهطاوى واحدا من أولئك الأئمة « العظام » ! . . أو هكذا كان يوم ذهب إلى فرنسا . . ولكنه عاد وهو واحد من أئمة التغريب !

استقبله أهله بالفرح يوم عاد من فرنسا بعد غيبة سنين . . فأشاح عنهم فى ازدراء ، ووسمهم بأنهم « فلاحون » لا يستحقون شرف استقباله !

ثم ألف كتابه الذى تحدث فيه عن أخبار « باريز » ودعا فيه إلى « تحرير » المرأة أى إلى السفور ، وإلى الاختلاط ، وأزال عن الرقص المختلط وصمة الدنس ، فقال إنه حركات رياضية موقعة على أنغام الموسيقى ، فلا ينبغى النظر إليه على أنه عمل مذموم .

ولم يكن يتوقع بطبيعة الحال أن تستجيب الأمة الإسلامية فى مصر إلى هذه الدعوة الطهطاوية فى حينها ، فقد كانت بقية الإسلام فى نفوس المسلمين ، كما كانت سيطرة التقاليد الإسلامية على كل جوانب الحياة ، تبلغان من القوة إلى الحد الذى يجعل مثل تلك الدعوة فى ذلك الوقت مثاراً للسخرية ومثاراً للاستنكار الشديد . .

ولكن رأس الحربة كان يشير إلى الاتجاه . . الاتجاه إلى التغريب .

لقد كان العمل الذى قام به رفاعة طهطاوى ـ ومن ورائه محمد على ـ هو على وجه التحديد على النحو التالى :

كانت فى حياة المسلمين ـ فى مصر وفى غيرها من بلاد العالم الإسلامى ـ نقطة ارتكاز واحدة ، هى الإسلام ـ بصرف النظر مؤقتا عن كل ما أصابهم من تخلف عن حقيقة هذا الدين ـ فجاء رفاعة الطهطاوى فوضع إلى جانب نقطة الارتكاز الضخمة القائمة ، نقطة ضئيلة غاية الضآلة هى « الحضارة الغربية» ، ودعا المسلمين إلى الانتقال إليها والارتكاز عليها . ورويدا رويدا فى حياة المسلمين أخذت تلك النقطة الضئيلة تكبر وتتضخم ، وتصبح نقطة ارتكاز ثانية فى حياة المسلمين إلى جانب الإسلام ، مع التضاؤل التدريجى فى نقطة الارتكاز الأولى بمقدار ما تتضخم النقطة الثانية . . حتى يأتى وقت تصبح تلك النقطة الضئيلة هى نقطة الارتكاز الرئيسية ، وتصبح نقطة الارتكاز الضخمة السابقة نقطة جانبية ضئيلة تكاد تنمحى من الوجود !

* * *

لقد استغرقت عملية الانتقال التدريجى ما يقرب من قرن من الزمان ، ولكنها كانت عملية مستمرة لا تتوقف ، بل تتوسع على الدوام ، على النحو الذى سنتحدث عنه فى الفقرات التالية ، متتبعين مراحل الانتقال فى مجالات الحياة المختلفة ، الاجتماعية والأخلاقية والفكرية والسياسية والاقتصادية . . وبالذات فى قضية « تحرير المرأة» . ولكن ينبغى هنا أن نتوقف لنسأل : لماذا حدث هذا الانتقال ؟!

هل هى الهزيمة العسكرية أمام الغرب الظافر ، وولع المغلوب بتقليد الغالب؟

إن هذا وحده لا يكفى لتفسير ما حدث خلال ذلك القرن من الزمان ، الذى تغرب فيه العالم الإسلامى ، ونسى أصوله كلها كأنه لم يكن مسلما فى يوم من الأيام ، بل كأنه لم يعايش الإسلام من قبل ثلاثة عشر قرنا متوالية بلا انقطاع !

هل الهزيمة العسكرية وحدها تكفى لتفسير هذا التحول الهائل ، بل هذا الانهيار الهائل خلال قرن واحد من الزمان؟!

فى الأمة صاحبة العقيدة لا تؤثر الهزيمة العسكرية كل هذا التأثير ، بل قد لا يكون لها تأثير على الإطلاق !

لقد هزم المسلمون هزيمة شديدة فى أحد ، يكفى فى تصويرها قوله تعالى : ﴿ إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم فى أخراكم ﴾ (١) .

وهزتهم الهزيمة هزا شديدا لأنهم لم يكونوا يتصورون أن يهزموا قط ماداموا مؤمنين وأعداؤهم كفار ، حتى قالوا مستنكرين فى دهشة : أنّى هذا؟! أى كيف يتأتى لهذا أن يحدث !

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟!.. ﴾ (٢) .

ولكن التوجيه الربانى بعد الهزيمة كان البلسم الشافى للجراح :

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (٣) .

ومنذ نزل هذا التوجيه وعته الأمة وعملت به ، فلم تعد الهزيمة توهنها ، لأنها تستعلى بالإيمان ، وتتأسى بالذين وصفهم الله لهم :

﴿وكأين من نبيٍّ قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا. والله يحبّ الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين. فآتاهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة، والله يحب المحسنين﴾ (٤) .

حتى حين هزموا الهزيمة المنكرة أمام التتار والصليبيين . .

لقد كانت غارة التتار كاسحة ، حتى إنها أزالت الدولة العباسية من الوجود ، وخربت بغداد ، وأذلت أهلها فجرى النهر أربعين ليلة أحمر من كثرة ما أريق من دماء المسلمين. ووصل الرعب والضعف بالمسلمين إلى أن التترى كان يلقى المسلم فى شوارع بغداد وليس معه سيفه ، فيقول للمسلم : ابق هنا حتى أعود إليك بالسيف لأقتلك ، فيبقى المسلم من الضعف والذل واقفا فى مكانه حتى يعود إليه التترى بالسيف فيقتله! ومع ذلك كله لم تذل أرواح المسلمين بحيث ينظرون إلى التتار على أنهم خير منهم ، أو أنهم جديرون بالاحترام! إنما كانوا فى نظرهم مجموعة من الهمج الوثنيين المتبربرين لا يستحقون إلا الاحتقار المطلق حتى وهم منتصرون!

وكانت غارات الصليبيين مفاجئة للمسلمين وهم على غير استعداد . . واستغرقت

---

(١) سورة آل عمران [١٥٣] .
(٢) سورة آل عمران [١٦٥] .
(٣) سورة آل عمران [١٣٩] .
(٤) سورة آل عمران [١٤٦ـ١٤٨] .

قرنين من الزمان . . لقى المسلمون فيها هوانا شديدا حتى ختم الله لهم بالنصر عليهم أيام صلاح الدين ، بعد أن أقاموا دويلات نصرانية فى مصر والشام . . ومع ذلك لم تذل أرواح المسلمين بحيث ينظرون إلى النصارى على أنهم خير منهم ، أو أنهم جديرون بالاحترام! بل كانوا فى نظرهم هم المشركين عباد الصليب . وكانوا يحتقرونهم احتقارا شديدا من أجل شركهم ومن أجل فساد أخلاقهم ، وكانوا يقولون عنهم إنهم ديابيث . يكون الواحد منهم سائرا مع زوجته فى الطريق فتلتقى بصديق لها ، فيتنحى الزوج ليتيح للمرأة أن تتحدث مع صديقها ما شاءت من الحديث [1] .

الهزيمة العسكرية وحدها لا تؤثر إذن فى الأمة ذات العقيدة مهما كانت شديدة وغير متوقعة .

ولكن قد يقال إن التفوق العلمى والحضارى والمادى الذى ووجه به المسلمون - مع الهزيمة - هو الذى أثر فيهم هذا التأثير ، وحولهم هذا التحول ، لأنهم فوجئوا به دفعة واحدة ، فانكشف لهم مقدار تخلفهم الرهيب .

وهو قول ظاهره مقنع . . وقد كان لاكتشاف المسلمين مدى تخلفهم إزاء تفوق الغرب أثر فى انبهارهم بما عند الغرب ولا شك . . ولكن هذا وحده لا يفسر! فضلا عن أن يبرر . .

لقد كان المسلمون فى بدء حياتهم « متخلفين» فى ميدان العلم وفى الجانب المادى والتنظيمى من الحضارة بدرجة لا تقاس إلى جانب ما كان لدى القوتين المجاورتين فارس والروم . . وكان المسلمون فى حاجة إلى الاقتباس منهم والأخذ عنهم فى هذين الميدانين ، ولكنهم - كما أشرنا فى الفصل الأول - لم يشعروا قط أن أعداءهم أعلى منهم ، ولا أن ما عند أعدائهم من أفكار ومعتقدات وأنماط سلوك خير مما عندهم . بل نظروا باستعلاء الإيمان إلى هذا كله على أنه جاهلية عمياء لا تهتدى بالهدى الربانى ولا تطبق فى حياتها منهج الله . فأخذوا العلم الذى كانوا يحتاجون إليه ، وأخذوا من الجوانب المادية والتنظيمية ما وجدوا أنفسهم فى حاجة إليه ، وطوعوه لمنهج حياتهم ، ولم يأخذوا شيئا من معتقدات الجاهلية ولا أفكارها ولا أنماط سلوكها . . وكان هذا هو

---

(١) انظر كيف انقلبت المعايير فى القضية ذاتها بعد الهزيمة الأخيرة فوجد فى « المسلمين» من يقول (فى مجلة روز اليوسف) إلى متى نظل رجعيين! يكون الواحد سائرا مع زوجته فى الطريق فتلتقى بصديق لها ، فيصر الزوج على الوقوف ليستمع لما يدور بين الزوجة والصديق!

المسلك الصحيح بالنسبة للأمة المسلمة حين تشعر بحاجتها إلى شئ تفتقده عندها وتجده عند الأمم الجاهلية من حولها .

أما في هذه المرة فقد كان مسلكها مختلفا كل الاختلاف . .

كان مسلكها هو « الانبهار» بما عند الغرب . . الانبهار الذى يؤدى إلى الانهيار أمام القوة الغالبة ، وتسليم القياد لها بلا تحفظ ، والرضى بالتبعية الكاملة لها ، بل الامتنان والاغتباط إذا قبلت القوة الظافرة أن تعتبرها من بين الأتباع !!

كيف حدث ذلك ؟!

لا الهزيمة العسكرية وحدها تصنع هذا فى الأمة ذات العقيدة ، ولا التخلف العلمى والحضارى والمادى وحده يصنع ذلك ، ولا حتى اجتماع الهزيمة والتخلف معا يمكن أن يؤدى إلى كل ذلك الانهيار .

إنما هى الهزيمة الداخلية ، الناجمة من التخلف العقدى .

﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ (١) .

إن اشتراط الإيمان فى الآية الكريمة لا يجئ عبثا ! فالإيمان الصحيح وحده هو الذى يحول دون الوهن والحزن فى حالة الهزيمة أمام الأعداء (٢) ، ويحول دون النتائج التى تترتب على الوهن والحزن ، وهى الاستسلام للأعداء ، والكف عن مقاومتهم ، والكف عن محاولة منازلتهم من جديد . .

والاستعلاء قرين الإيمان .

الاستعلاء على الجاهلية ، والنظر إليها على أنها جاهلية ولو كانت تملك ما تملك من أدوات النصر العسكرى ، ومن أدوات التمكن المادى فى الأرض .

والآية الكريمة ترد المؤمنين إلى الميزان الحقيقى والمعيار الحقيقى . فحين تكون القضية هى قضية الكفر والإيمان ، فالمؤمنون هم الأعلون ولو أصابتهم هزيمة مؤقتة أو ضعف مادى مؤقت ، لأن الإيمان بذاته أعلى من الكفر ، أعلى منه نفسيا وروحيا وعقليا وأخلاقيا وإنسانيا بمقدار ما يعلو الحق على الباطل ، والمنهج الصحيح على المنهج الفاسد ، والرؤية الصحيحة على الرؤية الخاطئة ، والسلوك المستقيم على السلوك المعوج . .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩] .

(٢) نزلت هذه الآية بعد هزيمة المسلمين فى أحد .

﴿ أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أم من يمشى سويا على صراط مستقيم؟ ! ﴾[1] .

هذا من الوجهة النفسية والشعورية والوجدانية ، التى تمنع الذوبان فى العدو ، أو الهزيمة الروحية أمامه .

ومن الوجهة العملية حين يستيقن المؤمنون بأنهم هم الأعلون بالعقيدة الصحيحة والمنهج الصحيح ـ ولو أصابتهم هزيمة مؤقتة أو ضعف مادى مؤقت ـ فإن هذا اليقين ذاته هو الذى يعينهم على أن يقوموا من كبوتهم ، ويسترجعوا قوتهم ، ويتأهبوا لمنازلة الأعداء من جديد :

﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم إيمانا، وقالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل ﴾[2] .

الإيمان الصادق إذن ، بمفهومه الإسلامى الصحيح ، لا بالمفهوم الإرجائى ولا بالمفهوم الصوفى ، ولا المتفلت من التكاليف الربانية ، هو الذى يعصم الأمة من الهزيمة الروحية أمام الأعداء ، وإسلام القياد لهم ، والرضى بالتبعية لهم . . فهل كان هذا الإيمان موجودا بصورته تلك حين اقتحم الصليبيون بلاد الإسلام ، وطغوا فيها وأكثروا فيها الفساد؟ !

كلا بلا شك !

ولو كان موجودا بصورته تلك ، التى نزل بها من عند الله ، وعلمها رسول الله ﷺ لأصحابه ، لما حل بالمسلمين ما حل بهم مهما يكن حالهم من ضعف القوة العسكرية والتخلف فى الناحية العلمية والمادية والتنظيمية . . إنما كان الإيمان كفيلا بأن يبعث الأمة لتزيل عنها ضعفها ، وتستدرك تخلفها ، وتقوم لمناجزة الأعداء من جديد . .

حقيقة كان هناك إيمان من لون ما . .

هو الذى جعل الأمة تقاوم الغزو الصليبى ، وتجاهده مجاهدة إسلامية ، أى تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وتنظر إليه على أنه غزو من قبل الكفار لبلاد الإسلام تنبغى مجاهدته وإزالته ؛ وتقاوم ما وسعتها المقاومة عملية تنحية الشريعة الإسلامية وإحلال القوانين الوضعية محلها ، على أساس أن هذا كفر يخرج الأمة من

---

(١) سورة الملك [٢٢] . (٢) سورة آل عمران [١٧٢ ـ ١٧٣] .

الملة إذا رضيت به . . كما جاهدت الأمة الإسلامية فى مصر حملة نابليون الصليبية ، ومنعته من إحلال قانونه محل الشريعة الإسلامية . وكما جاهد المسلمون فى الشمال الإفريقى ضد الغزو الصليبى الفرنسى ، وفى الهند ضد الغزو الصليبى الانجليزى ، وفى أندونيسيا ضد الغزو الصليبى البرتغالى ثم الهولندى . . وباختصار : فى كل مكان واجهت فيه الأمة الإسلامية غزو أوربا الصليبية لبلادها .

ولكن هذا الإيمان كان قد اعتراه ما بيناه من قبل من الفكر الإرجائى ، والاتجاه الصوفى ، والتفلت من التكاليف ، فضلا عن تحوله عند العامة إلى مجموعة من الخرافات ومجموعة من التقاليد . . لذلك لم يصمد طويلا للغزو ، رغم بسالة المقاومة التى أبداها فى جهاده . . فلما انهار كان انهياره عنيفا غير معهود من قبل . . وانهارت معه الأمة وأسلمت نفسها للتيار !

ولنعد الآن لنستكمل مع التجربة المصرية خطوات التاريخ . .

دور الاحتلال البريطانى وأدواته فى الإفساد

كان محمد على وأبناؤه حتى الخديو إسماعيل عند حسن ظن فرنسا بهم . . فأسسوا للنفوذ الفرنسى فى مصر ، وقاموا بعملية التغريب على النحو المطلوب ، وقال «إسماعيل العظيم» قولته المشهورة : أريد أن أجعل مصر قطعة من أوربا !

حتى جاء توفيق فتغير الربان الذى يمسك بالدفة ولكن لم يتغير الاتجاه !

بدأ النفوذ الانجليزى فى عهده يتدخل فى شئون مصر من بعيد . . ثم انتهى الأمر باحتلال الإنجليز لمصر عام ١٨٨٢م .

وكانت الخطة الجديدة بطبيعة الحال هى التغريب على الطريقة الإنجليزية بدلا من الفرنسية ، وإن كان العجيب أن انجلترا لم تتعرض قط للمؤسسات الصليبية الفرنسية كالمدارس والمعاهد التبشيرية وما شاكلها ، رغم حرصها على طرد النفوذ الفرنسى السياسى . ذلك أن دول أوربا الصليبية قد تتنافس فيما بينها على النفوذ والمغانم تنافسا عنيفا يؤدى إلى الحرب بين الحين والحين ، ولكنها إزاء الإسلام تتساند كلها ويحمى بعضها مصالح بعض !!

أهم ما حدث من التغيير هو الأسلوب الإنجليزى البارد فى تحويل الناس عن

الإسلام، ذلك الأسلوب الذى يتفق مع مثلهم المشهور (Slow but Sure) بطىء ولكنه أكيد المفعول .

كان فى نابليون حماقة الفرنسيين . . يغضب فيضرب، فيؤدى الضرب إلى مزيد من اليقظة ومزيد من المقاومة، كما حدث حين ضرب الأزهر بالقنابل وجعله اصطبلا للخيل .

أما الإنجليز فهم لا يقلون فى صليبيتهم عن الفرنسيين، ولا يقلون فى مقتهم للأزهر عن غيرهم من الصليبيين[1] ولكن طريقتهم فى التغيير تختلف فى الوسائل وإن لم تختلف فى الأهداف، فتأتى بنتائج مختلفة فى نهاية المطاف .

بطىء ولكنه أكيد المفعول . . يعمل عمله دون أن يتيقظ الناس للتغيير .

يقول اللورد كرومر، أول « معتمد بريطانى » فى مصر [2] : «إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد (يقصد مصر) هو تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن، بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس . ولكن كان من الواجب - منعا من إثارة الشكوك - ألا يعمل على تنصير المسلمين، وأن يرعى من منصبه الرسمى المظاهر الزائفة للدين الإسلامى، كالاحتفالات الدينية وما شابه ذلك » ! (٣) .

وحين بدأ حكمه فى مصر شكاه المبشرون إلى الحكومة البريطانية بدعوى أنه يضيّق عليهم ! فلما أرسلت الحكومة البريطانية الشكوى إليه ليرد عليها، جمع المبشرين وقال لهم : هل تتصورون أننى يمكن أن أضيق عليكم؟ ! ولكنكم تخطفون الأطفال من الشوارع، وتخطفون الرجال لتنصيرهم، فتستفزون المسلمين فيزدادون تمسكا بدينهم، ولكنى اتفقت مع شاب تخرج قريبا فى كلية اللاهوت (Trinity College) بلندن ليضع سياسة تعليمية ستحقق جميع أهدافكم ! [4] .

---

(١) راجع - قبل صفحات - قول احد المبشرين : هل الأزهر خطر على كنيسة المسيح؟

(٢) كان هذا هو اللقب الذى أطلق على الحاكم البريطانى فى مصر فى مبدأ الأمر .

(٣) لورد كرومر، مصر الحديثة Modern Egypt الجزء الأول، الصادر سنة ١٩٠٥ .

(٤) قرأت هذا النص فى الجزء الأول من كتاب « التبشير والإرساليات التبشيرية Mission & Missionaries وهو من الكتب الممنوع إخراجها فى مكتبة المتحف البريطانى . ولكن أحد الأصدقاء كان قد عثر عليه فى بيت أحد الأقباط فى أسيوط، فأطلعنى عليه ثم استرده، ثم فقد منه فى أثناء عملية اعتقاله بتهمة «الإسلام» فى أحداث عام ١٩٦٥ ! فيرجى ممن يستطيع الاطلاع على الكتاب توثيق النص مشكوراً .

هكذا يكون العمل البطيء الأكيد المفعول !

سياسة تعليمية تحقق جميع أهداف المبشرين - أى جميع الأهداف الصليبية - على مهل ، ودون ضجة تثير الانتباه ، « منعا من إثارة الشكوك» !

«أ» مناهج التعليم

تولى « المستر دنلوب » - القسيس الذى عينه كرومر مستشارا لوزارة المعارف - مهام منصبه ، وكان فى يد « سعادة المستشار» - كما كانوا يسمونه - السلطة الفعلية الكاملة فى وزارة المعارف المصرية الإسلامية !

وحين يكون القسيس على رأس السلطة فى وزارة التعليم ، فما الذى يتوقع أن يكون من أمر التعليم؟ !

جاء دنلوب ليضرب الأزهر - موطن الخطر على كنيسة المسيح - ولكن بغير حماقة نابليون ، وقد علم أن ضربه بتلك الحماقة كان سببا فى استثارة المسلمين .

ترك دنلوب الأزهر على ما هو عليه لم يتعرض له على الإطلاق ، ولكنه - على الأسلوب البطئ الأكيد المفعول - فتح مدارس جديدة تعلم « العلوم الدنيوية» ولا تعلم الدين ، إلا تعليما هامشيا هو فى ذاته - كما سيجيء - جزء من خطة إخراج المسلمين من الإسلام!

وقال الناس فى بادئ الأمر - على البديهة ، واستيحاء من البقية الباقية من الحس الإسلامى فى قلوبهم - إن هذه المدارس مدارس كفر لأنها لا تعلم القرآن . . إذ كانت المدارس الأولية التى تمهد لدخول الأزهر تعلم القرآن كله فى سنوات الدراسة الأربع . .

ولكن مدارس الكفر هذه أصبحت - بتدبير دنلوب - هى الوسيلة للرزق من ناحية ، وللمكانة الاجتماعية من ناحية أخرى . .

لقد كان المتخرج من هذه المدارس - بعد أربع سنوات فقط من الدراسة - يعين فور تخرجه فى دواوين الحكومة براتب يبلغ أربعة جنيهات كاملة ، كانت فى ذلك الحين تمثل ثروة ضخمة ، إذ كانت الأسعار زهيدة إلى حد لا يتصور بالنسبة للأسعار الحالية ، وكانت القوة الشرائية للجنيه المصرى عظيمة ، بحيث كانت الجنيهات الأربعة تكفى

للحياة الكريمة فى العاصمة ذاتها، ويستطيع صاحبها أن يتزوج ويكون أسرة، ويتبقى معه بعد ذلك ما يدخره ليشترى به « الأطيان» فى الريف! [١] .

أما خريج الأزهر الذى يقضى فى الدراسة عشرين سنة من عمره فى بعض الأحيان فلا يجد عملا . . وإن وجد عملا فى إقامة الشعائر فى المسجد فبمائه وعشرين قرشا، تكفى للحياة نعم، ولكنها حياة ذليلة ضئيلة بالنسبة لخريج المدرسة الابتدائية الذى يعمل فى « الديوان» !

وحين يكون الوضع على هذا النحو، ويكون لك ولد تريد تعليمه، فإلى أين تذهب به ؟ تذهب به إلى الأزهر ليقضى زهرة شبابه هناك ثم يتخرج ليبقى عاطلا، أو يعمل مقيم شعائر فى المسجد بهذا الراتب الضئيل؟ أم تذهب به إلى مدارس دنلوب، فيتخرج بعد أربع سنوات ليكون من المشار إليهم فى المجتمع، من « موظفى الحكومة» الذين يتودد إليهم البقال والجزار وصاحب المسكن، ويحتلون المكانة المرموقة فى كل مكان؟!

لقد كان الانتساب إلى الأزهر فيما مضى شرفا تتسابق إليه الأسر . . وكانت الأسرة التى تحوى ضمن أفرادها « عالما» أى واحدا من خريجى الأزهر، تصبح محط الأنظار، سواء فى العاصمة أو فى الأقاليم، وينظر إليها الناس بالتبجيل والإكبار، لأن « العلم» فى حس الناس هو علم الدين، الذى هو خير الدنيا والآخرة، ولأن وظائف الدولة يحتل معظمها خريجو الأزهر، فينالون - فى المجتمع الإسلامى - كل وسائل الرفعة والصعود .

وبصرف النظر عما كان فى الأزهر من تخلف عن المنهج الإسلامى الصحيح، الذى كانت تمثله جامعات الأندلس، بل كان يمثله الأزهر نفسه فى عصور الازدهار، من الجمع بين علوم الدين والدنيا، وإعداد الناس لعمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى . . فقد كان مرتبطا فى حس الناس بالإسلام، وكان رمزا حيا له فى ضمائرهم، ومن ثم كان اعتزازهم به، وتوجههم إليه، وكانت لخريجيه تلك المكانة فى المجتمع الإسلامى .

فأما الآن - فى عهد دنلوب - فقد تغير الحال تماما . .

---

(١) كانت « الفيلا» ذات الحديقة الواسعة فى ضواحى القاهرة تؤجر بمائة وخمسين قرشا! وكانت أقة السكر (أى ما يوازى الكيلو وربع الكيلو) تباع بقرشين ونصف القرش. وكانت عشر بيضات كبار بقرش واحد . . وقس على ذلك بقية تكاليف الحياة!

لم يعد يذهب إلى الأزهر إلا الفقراء الذين يعجزون عن دفع مصروفات المدارس «الحديثة»، وفى الوقت ذاته ينالون « جزاء» فقرهم ضياعا فى المجتمع وهوانا فيه .

وقد تبعث بعض الأسر العريقة واحدا من أبنائها للأزهر من أجل « البركة» وابتغاء المكانة فى الريف خاصة ـ كما صنعت أسرة مصطفى عبد الرازق مثلا ـ ولكن هؤلاء الأفراد القلائل من خريجى الأزهر من الأسر العريقة والثرية لم يكونوا لينفوا الصورة العامة التى صار الأزهر إليها، وهى أنه مأوى الفقراء العاجزين عن دفع تكاليف «التعليم الحديث» ، العاجزين فى الوقت ذاته عن نيل المكانة فى « المجتمع الحديث» .

أما خريجو المدارس الجديدة فأولئك هم « الطبقة الجديدة» فى المجتمع . . الطبقة الصاعدة . . الذين يلوون ألسنتهم برطانة المستعمر، ويفاخرون بها، ويحتضنهم المستعمر من جانبه، ويؤدى عن طريقهم الدور المطلوب، البطىء الخطوات، الأكيد المفعول .

من هم أولئك الخريجون ؟ ما ثقافتهم ؟ ما وجهتهم ؟ كيف نفذ بهم دنلوب أهدافه الصليبية التى انتدبه من أجلها كرومر ، ومنحه من أجلها ما منحه من سلطان ؟

فلننظر فى المناهج التى وضعها دنلوب فى مدارسه ، ولنتخير من بينها أشدها خطرًا وأبعدها أثرًا : مناهج اللغة العربية ، ومناهج الدين ، ومناهج التاريخ .

فأما اللغة العربية ـ لغة القرآن الذى يحترق قلب الصليبية حقدا عليه ـ فقد خطط دنلوب لقتلها والقضاء عليها .

فقد كان الراتب الذى يتقاضاه المدرسون من أصحاب المؤهلات العليا اثنى عشر جنيها إلا مدرس اللغة العربية وحده ، يتقاضى أربعة جنيهات !

وكان لهذا الوضع انعكاساته ولا شك سواء فى داخل المدرسة ،أو فى المجتمع على اتساعه ! فأما فى داخل المدرسة فلم يعد مدرس اللغة العربية هو المقدم ، بل أصبح فى ذيل القافلة ! يتقدمه المدرسون جميعا حتى ذوو المؤهلات المتوسطة ، بل يتقدمه ـ فى الراتب ـ فراش المدرسة أحيانا إذا كان ذا أقدمية طويلة !! ومن ثم لم تعد له كلمة فى المدرسة ؛ فلا هو يستشار فى شئونها ، ولاهو يشارك فى شىء من إدارتها ؛ ولم يعد له كذلك عند التلاميذ احترام ، ولولا العصا التى يحملها ويؤدب بها التلاميذ ما وقره أحد ولا عُملَ له حساب ! بينما يحظى مدرس اللغة الإنجليزية بالذات بأكبر قدر من التوقير والاَحترام !

أما فى المجتمع الواسع فهو أشد ضياعا منه فى المدرسة! فالناس جميعا يعلمون وضعه المالى، ويعلمون أنه فى ذيل القافلة، وأن المدرسين الآخرين مقدمون عليه فى الراتب وفى الاحترام سواء! وإذا كانت العصا التى يحملها تخيف منه تلاميذه فيلتزمون بالأدب فى درسه، فإن المجتمع فى الخارج لا يخشى عصاه تلك، بل يتخذها مادة للتندر والهزء والاستخفاف، بينما العصا التى يحملها زميله مدرس اللغة الإنجليزية توفر له الاحترام داخل المدرسة، ولا تعيبه فى المجتمع بشىء، إن لم توفر له المهابة و التقدير والتعظيم!

الناس من يلق خيرا قائلون له ... ما يشتهى ولأم المخطئ الهبل! (١)

وهكذا ينحدر وضع مدرس اللغةالعربية فى المجتمع، بقدر ما ينحدر راتبه، ويصبح مادة دائمة للسخرية، يتحدث الناس عن جهله، وتخلفه، وضيق أفقه، وفقره، وانحطاط مستواه الاجتماعى والفكرى.. وأشد ما يعاب عليه، ويزدرى من أجله، أنه لا يعرف لغة أجنبية!!

وحين يصبح مدرس اللغة العربية فى هذا الوضع المهين الذى لا يبعث على الاحترام، فإن وضعه يؤثر حتما على المادة التى يدرسها.. وقد كان هذا هو الهدف المقصود من وراء ذلك التدبير الخبيث.

لقد انتقل الوضع المهين المزرى من المدرس إلى المادة.. وصارت اللغة العربية موضع الازدراء والتحقير والنفور.. فالطلاب يشكون من صعوبة اللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة ونصوصا وأدبا.. وقد ظلوا يعايشونها ثلاثة عشر قرنا قبل ذلك بلا شكوى! وكأنما اكتشفوا فجأة تلك الصعوبة التى تصرفهم عنها صرفا!! وقد بدءوا يوازنون بينها وبين اللغات الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - ليجدوا أن اللغات الأجنبية أيسر - وبالذات الإنجليزية - فى كل شىء! فهى لغات غير معربة، لا تحير القارئ بين الرفع والنصب والجر، ونحوها سهل، وهجاؤها سهل، وتراكيبها غير معقدة! (٢)

---

(١) البيت للمتنبى.

(٢) يعلم دارسو اللغات الأجنبية «الحية» أن النحو والصرف فى اللغة الفرنسية معقد أشد التعقيد، فتصريف الأفعال فيها يقع فى ثلاث مجموعات على ثلاث صور مختلفة، ثم فى كل مجموعة شواذ ينتسبون إليها ولكن لا يصرفون مثلها! ولكل فعل - أيا تكن المجموعة التى ينتسب إليها - ستة تصريفات مختلفة تمثل صيغ الزمن المختلفة (لا ثلاثة فقط كما هو فى اللغة العربية: الماضى والمضارع والأمر) كما أن الهجاء فيها =

والخلاصة التى يصلون إليها أن العناية باللغة العربية غير واجبة ، بل ربما كانت غير جائزة ! بينما العناية باللغة الأجنبية - وبالذات الإنجليزية - واجبة كل الوجوب ! وأصبح الطالب الذى وجه هذا التوجيه وطبع ذلك الطبع يخطىء فى النحو العربى فينصب الفاعل ويرفع المفعول بلا تحرج ولا مبالاة ، فإذا صحح له خطؤه أو نبه إليه هز كتفيه مستنكفا وقال : ياعم ! دعك من « الفقهنة » ! هل أنا « فقى » ! [1] بينما يحترز كل الاحتراز أن يخطىء فى نطق كلمة من لغة أجنبية أو فى تصريف فعل من أفعالها أوفى صياغة تركيب من تراكيبها ، وإذا وقع منه الخطأ صار سخرية المجلس كله ورمى بالجهل المعيب !!

والكتاب يشكون من جمود اللغة وعدم مرونتها وعدم طواعيتها ، وعدم قدرتها على نقل المعانى « وظلال المعانى » كما تستطيع ذلك اللغات الأجنبية - وبالذات الإنجليزية ! - فى طلاقة ويسر ورشاقة وعمق ! وكأنما الكتّاب لم يصحبوا هذه اللغة ثلاثة عشر قرنا من قبل ذلك ، وعبرت عن خلجات نفوسهم كلها بغير عجز ! وكأنما اكتشفوا قصورها فجأة وكانوا غافلين عنه . . فانصرفوا إلى دراسة آداب اللغات الأخرى وهجروا الأدب العربى ! وأصبح المتنبى والبحترى أو علقمة وامرؤالقيس أسماء سخيفة ممجوجة تصم صاحبها لتوه بالتخلف العقلى والحضارى ! وأصبح دانتى وشكسبير ووردزورث وبايرون وأندريه جيد وأناتول فرانس وفيكتور هوجو هى التى تتردد على ألسنة « المثقفين » للدلالة على أنهم مثقفون ، ولو لم يكن لهم من حصيلتها إلا حفظ الأسماء !

و« العلماء » . . أو بالأحرى مترجمو العلوم يشكون من أن اللغة العربية لغة غير علمية !! إن صلحت للأدب - أى الأدب الردىء ! - فإنها لا تصلح للعلم . . جامدة . . معقدة . . محدودة . . متخلفة . . ولا بد من اتخاذ اللغات الأجنبية - وبالذات

= معقد ومخالف للمنطوق ، فضلا عن التأنيث والتذكير على غير منطق واضح . أما اللغة الإنجليزية فقد تكون أيسر من الفرنسية ظاهرا ، ولكن التراكيب الاصطلاحية فيها (idioms) غير قياسية ولابد من حفظ كل واحد منها على حدة . وللأفعال فيها ست صيغ للزمن كما للفرنسية بدلا من الثلاث الصيغ العربية . والهجاء غير قياسى ، وبالذات بالنسبة لمجموعة الحروف OUGH والتى ترد على ستة أنحاء مختلفة فى النطق مثل : Enough Dough Cough Thought Thorough Through

(١) كلمة « فقى » (وأصلها فقيه) تعنى فى المفهوم العامى المصرى الرجل الذى يقرأ القرآن على المقابر لقاء دريهمات . . وهو رجل « يستؤجر » لهذا الأمر ، ولا احترام له عند الناس .

الإنجليزية ! ـ لدراسة العلوم ، ولا بد أن نعلمها لأبنائنا فى المدارس إذا أردنا أن يكون لدينا فى يوم من الأيام علماء! وكأنما لم يكن لهذه اللغة صلة بالعلم من قبل ـ فى عصور الازدهار ـ بل كأنها لم تكن فى وقت من الأوقات هى لغة العلم، يوم قال روجر بيكون : من أراد أن يتعلم فليتعلم العربية ، فهى لغة العلم ! !

وهكذا صوبت السهام إلى اللغة العربية من كل جانب ، ولم تعد شيئا يعتز به المسلم العربى كما كان يعتز طيلة ثلاثة عشر قرنا من قبل ، بل أصبحت معرة يسارع الإنسان إلى الانسلاخ منها ، ويمعن فى العيب فيها والانتقاد عليها لكى يصبح من « المثقفين» !

ولم يكن بد من أن ينتقل هذا الوضع المزرى من اللغة ذاتها إلى ما هو مكتوب بتلك اللغة . . وكان هذا هو الهدف الأخير المطلوب من ذلك التخطيط الخبيث!

فالمكتوب باللغة العربية هو تراث الأمة كله . . وعلى رأسه القرآن ! !

والمطلوب هو صرف الأمة عن تراثها كله . . وعلى رأسه القرآن ! ![1] .

وانصرف الناس بالفعل عن قرآنهم وتراثهم بالتدريج ، فلم يعودوا يشعرون أنه هو «الزاد» . . إنما الزاد هو المكتوب بلغة السادة الغالبين!

أما درس الدين فى مناهج دنلوب فلا يقل سوءا إن لم يكن أسوأ .

فمدرس الدين هو نفسه مدرس اللغة العربية الذى وضعه دنلوب فى ذلك الوضع المزرى المهين ، ولكن يزيد عليه أن أكبر المدرسين سنا هو الذى يوكل إليه تدريس الدين بحجة إراحته من تعب تصحيح الدفاتر وحملها من المدرسة إلى البيت وبالعكس ! ويزيد على ذلك أيضا أن حصة الدين توضع فى نهاية الجدول المدرسى . فهى ـ فى أغلب الأحيان ـ السابعة يوم السبت أو الخامسة يوم الخميس أو السادسة فى بقية الأيام!

وفحوى ذلك أن التلاميذ يتلقون درس الدين وهم فى حالة الضجر والإعياء فى نهاية اليوم المدرسى ، وهم ينتظرون دق الجرس لينفلتوا إلى الشوارع وإلى البيوت . ويتلقونه من مدرس عجوز فانٍ يسعل ويتفل ويتحرك فى تراخ ظاهر . . فيقترن درس

---

(١) تم صرف المسلمين فى تركيا عن تراثهم الإسلامى بتغيير الحروف العربية ، وكتابة اللغة التركية بالأحرف اللاتينية على يد أتاتورك ، وتصفية اللغة التركية من معظم الكلمات العربية التى تتضمنها لتنشأ أجيال تعجز عجزا كاملا عن الاتصال بتراثها الإسلامى ، فتنقطع عنه وتنشأ بلا دين . وقد قامت فى مصر محاولات مشابهة على يد عبد العزيز فهمى وغيره ، ولكنها ولدت ميتة ولم يقدر لها النجاح .

الدين فى نفوسهم بالعجز والفناء والضجر والضيق والرغبة فى الانفلات! فوق أنه درس ميت فى طريقة تدريسه، فهو مجموعة من النصوص تلقى لتحفظ حفظا وتستظهر، بلا حركة ولا حياة ولا روح!

ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من درس الدين، ثم من الدين ذاته فى النهاية - كتنفيرهم من اللغة العربية ومما هو مكتوب بها - فاعلم أن درس الدين المسيحى فى المدارس التبشيرية - حتى التى تزعم أنها «علمانية» لا علاقة لها بالدين!، والتى يؤمها التلاميذ «المسلمون» ويحضرون درس الدين - يقام فى الصباح الباكر، والتلاميذ قادمون بنشاطهم كله وبشْرهم كله، ويقوم بتدريسه أكثر المدرسين والمدرسات شبابا وأحبهم إلى قلوب التلاَميذ! ولا يقام فى فصل الدراسة حتى لا تكون له رتابة الدروس اليومية العادية، إنما يقام فى كنيسة المدرسة! ويقام فى وسط الأناشيد التى تتجاوب بها حناجر التلاميذ وقلوبهم، فيقترن درس الدين فى نفوسهم بالفرحة والبهجة والنشاط والحركة والاستبشار بالحياة!

أضف إلى ذلك أن درس الدين فى منهج دنلوب هو فى الحقيقة رقعة فى الثوب الدراسى غير متجانسة معه، إن لم نقل متنافرة معه! فهو ثوب «علمانى»[1] بحت، لا علاقة له بالدين على الإطلاق، على الطريقة الغربية اللا دينية التى فصلت الدين عن العلم وفصلته عن الحياة. فإذا جاء درس الدين ذُكرَ الله ورسوله وذكر الدين والآخرة.. ولكنه - حتى فى أفضل أحواله - صوت ضعَيف لا يكاد صداه يبلغ الآذان فضلا عن القلوب. فإذا كان على حالته التى يلقى بها بالفعل، نصوصًا لا تشرح ولا تبث فيها الحياة، بل تستظهر استظهارا بغير فهم، ويقوم بتدريسها ذلك العجوز الفانى الضعيف فقد خمد الصوت تماما ولم يعد له أثر.. بل صار له الأثر العكسى وهو التنفير من الدين.. وذلك هو المطلوب![2].

ولكى تعلم أنها خطة مقصودة لتنفير التلاميذ من الدين، فلتعلم أن الدين فى المدارس التبشيرية التى يؤمها التلاميذ المسلمون، لا يقتصر على ذلك الدرس - مع حيويته التى أشرنا إليها، وإحاطته بالفرح والنشاط والبهجة - بل هو «روح» تلقى إلى التلاميذ فى كل مناسبة، فى أثناء الدروس وأثناء اللعب، وأثناء الوقوف فى الصف

---

(١) اقرأ - إن شئت - فصل «العلمانية» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٢) فى النية إصدار كتيب بعنوان «منهج لدرس الدين».

وأثناء الانصراف إلى الفصول أو الانصراف من المدرسة ، ومن ثم يكون ذا أثر عميق فى نفوس التلاميذ ، ولا يكون درس الدين المتخصص رقعة فى الثوب ، متنافرة معه وغير متناسقة ، بل قطعة طبيعية من نسيج الثوب ، متناسقة معه ومزينة له .

وزيادة فى النكاية لدرس الدين فقد وضعه المنهج الدنلوبى ضمن « المواد الإضافية» التى تحذف فى جدول الصيف المختصر ، الذى يقتصر على « المواد الرئيسية» فيحذف منه الدين والرسم والأشغال اليدوية والألعاب الرياضية . . وهكذا يصبح فى حس التلاميذ مادة « هامشية» ليس لها اعتبار !

وبهذا التدبير البطىء الأكيد المفعول تخرجت أجيال وراء أجيال لا تحس بأى توقير نحو الدين !

* * *

أما « ثالثة الأثافى» فهى درس التاريخ . . بشقيه : الإسلامى والأوربى !

فأما منهج التاريخ الإسلامى فيبدأ - كالمعتاد - بدراسة أحوال الجاهلية تمهيدا لدراسة البعثة النبوية وصدر الإسلام .

وفى دراسة الجاهلية ترد تلك الجملة « الشهيرة» [(١)] : كان العرب فى الجاهلية يعبدون الأصنام ويئدون البنات ويشربون الخمر ويلعبون الميسر ويقومون بغارات السلب والنهب ، فجاء الإسلام فنهاهم عن ذلك . .

وتبدو هذه الجملة بريئة فى ظاهرها ، ولكنها خبيثة كل الخبث فى واقعها .

فأما البراءة الظاهرية فمصدرها أن العرب فى الجاهلية كانوا حقيقة على الصورة التى تصفها هذه العبارة ، وأن الإسلام قد أزال تلك الصورة بالفعل ، وأما الخبث فمنشؤه أن العبارة لم تتحدث عن « جوهر» الجاهلية الذى جاء الإسلام لمحوه وتغييره ، إنما تحدثت عن « مظاهر » الجاهلية العربية خاصة ، التى قد لا توجد فى الجاهليات الأخرى ، بينما الإسلام لم يتنزل لمحو مظاهر الجاهلية العربية ، وإنما لإلغاء جوهر الجاهلية كله وإبدال الإسلام به .

بعبارة أخرى . . حين نحصر مهمة الإسلام فى محو هذه المظاهر وحدها ، فماذا يكون قد بقى من مهام الإسلام فى الوقت الحاضر ؟

---

(١) نقول « شهيرة» لأنها انتقلت من مصر إلى معظم بلدان العالم العربى !

حين ينظر التلاميذ حولهم فلا يجدون أصناما معبودة ، [1] فقد سقط إذن هذا «البند» من مهام الإسلام . .

وحين لا يجدون البنات توءد ، بل يجدون على العكس من ذلك بنات مدللات أشد التدليل ، فقد سقط هذا البند كذلك من مهام الإسلام . .

وحين يجدون بعض الناس يشربون الخمر ويلعبون الميسر ، فقد دعا الإسلام دعوته « الأخلاقية » فاستجاب لها من استجاب ووقع غيرهم فى « المعاصى » . . ولا حيلة !

وأما غارات السلب والنهب فتوجد اليوم حكومات نظامية ذات قوات مخصصة للأمن تحول دون وقوع مثل هذه الغارات وتعاقب من تسول له نفسه اقترافها . .

فماذا بقى إذن من مهام يمكن للإسلام أن يؤديها فى العالم الحديث ؟ !

إن الإسلام ـ بهذه الصورة ـ يكون قد استنفد أغراضه . . وهذا هو الإيحاء المطلوب منذ أول درس من دروس التاريخ الإسلامى ! أنه جاء لزمن معين كان يتسع له ويحتاج إليه ، ولكن لم تعد هناك حاجة إليه فى الوقت الحاضر ، فهو جزء من التاريخ الغابر ولا زيادة !

وكان الأمر يختلف اختلافا واسعا بطبيعة الحال لو ذكرت الحقيقة الجوهرية التى جاء من أجلها « الدين » . . الدين كله من لدن آدم عليه السلام إلى محمد ﷺ ، وهى دعوة الناس إلى عبادة الله وحده بلا شريك ، العبادة المتمثلة فى الاعتقاد بوحدانية الله وتقديم الشعائر التعبدية إليه وحده ، وتحكيم شريعته فى كل شأن من شئون الحياة ، مع الخصيصة التى اختصت بها الرسالة الأخيرة المنزلة على محمد ﷺ ، وهى أنها رسالة للبشرية كافة منذ مبعثه عليه السلام إلى قيام الساعة . .

كم تتغير الصورة فى حس التلاميذ حين تدرس لهم تلك الحقيقة الجوهرية التى جاء من أجلها « الدين » ، وتلك الخصيصة التى اختصت بها الرسالة الأخيرة ؟ !

إنه تغير يبلغ ما بين السماء والأرض !!

فلا هذا الدين استنفد أغراضه فى الماضى ، ولا استنفدها بالنسبة للحاضر ، ولا استنفدها بالنسبة للمستقبل ! ولا يستنفدها أبدا طالما هناك مشرك واحد فى الأرض

---

(١) يخفى عن التلاميذ عمدا أحوال الوثنيين فى أفريقيا وآسيا .

يعتقد بوجود آلهة غير الله[1]، أو يقدم الشعائر التعبدية لأحد غير الله (أو مع الله)، أو يحكّم شريعة غير شريعة الله !

بل حتى لو تصورنا جدلا أن أهل الأرض آمنوا كلهم جميعا (وهو فرض لا يتحقق أبدا لأنه يخالف ما قدّر الله) [2] فلن يستنفد هذا الدين أغراضه، لأن مهمته عندئذ تكون المحافظة على إيمان الناس بالتذكير بما أنزل الله، تحقيقًا للتوجيه الربانى :

﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ [3] .

فكيف والأرض مليئة بكل أنواع الشرك، سواء شرك الوثنية، أو شرك الرسالات السماوية المحرفة لدى اليهود والنصارى، أو شرك الاتباع المتمثل فى تحكيم الشرائع الجاهلية بدلا من شريعة الله ؟

بل كيف والعالم الإسلامى ذاته - ومصر من بينه - قد نحيت فيه الشريعة الربانية ووضعت بدلا منها قوانين الجاهلية؟

أى مهمة للإسلام يؤديها اليوم أعظم من مهمة رد الناس عن هذا الشرك كله، ودعوتهم إلى التوحيد ؟!

ولكن هذا بالذات هو الذى يراد أن يبعد عن أذهان التلاميذ!

يراد منهم ألا يتذكروا أبدا أن مصر قد نحيت فيها الشريعة الإسلامية منذ دخلها الاحتلال الصليبى، وصارت تحكمها القوانين الجاهلية، لأن تذكر ذلك يترتب عليه أن يجاهد المسلمون فى مصر هذا الاحتلال جهادا دينيا لإخراج الصليبيين من بلاد الإسلام .

من أجل ذلك يشوه الدرس الأول ذلك التشويه ، حتى تنسى الأجيال المتخرجة فى «مدارس الكفر» أن الإسلام له مهمة يمكن أن يؤديها فى الوقت الحاضر!

ثم يدرس للتلاميذ عصر البعثة وصدر الإسلام بطريقة قد تكون وافية، وإن كان لا

---

(١) أو ملحد ينكر وجود الله ألبتة .

(٢) قدّر الله أن يكون البشر أحرارا فى أفعالهم ومسئولين عنها، ومقتضى ذلك أن يختلفوا فيؤمن بعضهم ويكفر بعضهم الآخر، « ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة» أى بقهرهم على الإيمان ، ولكنه لم يشأ ذلك سبحانه .

(٣) سورة الذاريات [٥٥] .

يركز فيها على جوهر الجاهلية الذى جاء الإسلام لإزالته، وجوهر الإسلام الذى بعث الرسول ﷺ لبيانه للناس، ودعوتهم إليه، وتمكينه فى الأرض بالجهاد . .

ولكن الصورة المشرقة المتمثلة فى عصر البعثة وصدر الإسلام تطمس فجأة وتخبو . . لأن الذى يدرس للتلاميذ بعد ذلك هو « التاريخ السياسى» للإسلام . . أو بالأحرى هو التاريخ الذى يغلب عليه الانحراف!!

حقيقة إن خط الانحراف واقع تاريخى ، وخاصة فى الجانب السياسى من حياة المسلمين . . وأن هذا الانحراف بدأ مبكرا منذ العهد الأموى . . وأنه ارتكبت فيه فظائع من أجل الاستيلاء على الحكم أو استبقائه لا يرضى عنها الله ولا رسوله، ولا تليق بالمسلمين . .

ولكن التركيز على خط الانحراف وحده وإسقاط بقية الصورة هو تشويه متعمد للتاريخ الإسلامى لأمر يراد ! [1] .

فلو أن الصورة أعطيت كاملة كما هى فى الحقيقة لأعطت إيحاءً آخر مختلفًا كل الاختلاف [2] .

وقع الانحراف نعم ـ فى الجانب السياسى خاصة ـ ولكن لم ينته الإسلام من الوجود! وبقى فى الواقع التاريخى للإسلام جوانب كثيرة من الإسلام مطبقة فى عالم الواقع، وبقيت فيه أمجاد كثيرة جديرة بالتسجيل ، وجديرة باعتزاز المسلمين .

ولكن الذى يراد من دراسة التاريخ الإسلامى فى المنهج الدنلوبى ليس هو إثارة اعتزاز المسلمين بتاريخهم ، بل هو على وجه التأكيد قتل هذا الاعتزاز!

ومن أجل هذا الهدف تخفى الصفحة البيضاء كلها، أو بالأحرى يخفى ما فى صفحة التاريخ الإسلامى من بياض، ويبرز الخط الأسود وحده على أنه هو التاريخ!

يخفى نشر العقيدة الصحيحة فى مساحة واسعة من الأرض تمتد من المحيط إلى المحيط، وإخراج الناس فيها من الظلمات إلى النور، وإجراء العدل الربانى المتمثل فى تطبيق الشريعة الربانية، وتحقيق العدل خاصة بالنسبة لمن بقى على دينه فى تلك الرقعة الواسعة من الأرض، مما لا مثيل له فى التاريخ البشرى كله . . ويقدم هذا كله فى عبارة

---

(١) عرضت لهذه النقطة بشىء من التوسع فى كتاب « المستشرقون والإسلام» .

(٢) عرضت لهذا النقطة أيضا بشىء من التوسع فى كتاب « كيف نكتب التاريخ الإسلامى» .

موجزة مبهمة موهمة، وهى امتداد الفتوح الإسلامية! كأنما هى حركة توسع حربى لا هدف له إلا فسح الرقعة وبسط النفوذ!

ويخفى بقاء المجتمع الإسلامى فى عمومه فترة طويلة من الزمن نظيفا من الفاحشة، آمنا على أعراضه آمنا على أنسابه، وحيثما كانت الدولة قوية مبسوطة السلطان فهو آمن أيضا على دمائه وأمواله فى ظل شريعة الله.

وتخفى الحركة العلمية الإسلامية الهائلة التى نشرت نورها فى الأرض، وتعلمت منها أوربا حين بدأت نهضتها الحديثة نتيجة احتكاكها بالمسلمين فى أكثر من أرض وأكثر من مجال.

وتخفى الحركة الحضارية الإسلامية الضخمة بشقيها، المعنوى المتعلق بالقيم الإنسانية العليا، والمادى المتعلق بالعمارة المادية للأرض والأشكال التنظيمية للحياة.

كما يخفى بطبيعة الحال تفرد كلتا الحركتين بميزتها الإسلامية الخاصة - المستمدة من المنهج الإسلامى - وهى فسح المجال للنشاط البشرى فى جميع مجالاته الحيوية، مع الالتزام بالمنهج الربانى الذى يجمع الروح والمادة، ويجمع الدنيا والآخرة كلها فى نظام.

وحين يخفى هذا كله فماذا يبقى؟!

يبقى إيحاءان خبيثان، مقصودان:

أولهما: أن الإسلام لم يحكم إلا فترة قصيرة جدا فى عهد الخلفاء الراشدين ثم انتهى إلى غير رجعة.

والثانى: أن التاريخ الإسلامى - بعد صدر الإسلام - خال من كل القيم التى تقيم الحياة الإنسانية الصحيحة، وأنه عبارة عن عمليات دموية من إجل السلطان!

وبعد أن يفرغ التاريخ الإسلامى من محتواه الحقيقى على هذا النحو يوجه التلاميذ إلى أوربا!

أوربا هى العلم! أوربا هى الحضارة! أوربا هى القيم! أوربا هى الديمقراطية! أوربا هى حقوق الإنسان! أوربا هى التقدم الصناعى! أوربا هى الصورة الصحيحة للوجود البشرى فى جميع المجالات!

ويخفى ـ عمدا ـ فظائع الاستعمار الوحشية فى كل مكان دنسته أقدام المستعمرين، وخاصة فى العالم الإسلامى . وتخفى ـ عمدا ـ البواعث الصليبية للتحرك الأوربى نحو العالم الإسلامى . ويخفى ـ عمدا ـ الفساد الخلقى الآخذ فى الانتشار ـ يومئذ ـ فى أوربا . ويخفى ـ عمدا ـ غلبة الروح المادية على تلك الحضارة وانطماس الروح .

وهكذا يقدم التاريخ ـ الإسلامى والأوربى ـ كاذبا من شقيه كليهما وإن احتوى جانبا من الحق!

ففى التاريخ الإسلامى يقدم الخط الأسود من الصفحة بتركيز فائق، ويخفى ما فى بقية الصفحة من البياض، وفى التاريخ الأوربى يقدم الخط الأبيض من الصفحة بتركيز فائق ويخفى ما فى بقية الصفحة من السواد !

وحين يقدم التاريخ بصورته الكاذبة هذه من شقيها فماذا تكون النتيجة؟!

تكون تخريج أجيال متعاقبة من «المتعلمين» يجنحون تدريجيا إلى الانسلاخ من الإسلام على أنه شئ قد استنفد أغراضه، ولم تعد له مهمة يؤديها فى الوقت الحاضر، بل على أنه شئ قد عاش أكثر مما ينبغى، وكان ينبغى أن يندثر من زمان بعيد، ويتجهون إلى أوربا على أنها مهبط الوحى ومنبع النور، ومنتجع الصحة لمن يريد الاستشفاء من التخلف والرجعية !

* * *

إذا كان هذا كله فى المدرسة الدنلوبية الابتدائية فالمدرسة الثانوية تحوى هذه السموم كلها ولكن بجرعة أكبر ! فالطلاب فى المدارس الثانوية أنضج بلا شك وأقدر على الاستيعاب، وأجدر ـ حين يتناولون جرعة السم ـ أن يكون تأثرهم بها أشد!

من أجل ذلك يزاد فى تحقير درس اللغة العربية إلى جانب الدروس الأخرى عامة ودرس اللغة الإنجليزية خاصة، ويزاد من تحقير درس الدين ووضعه فى أقصى الزاوية الهامشية، ويزاد فى إعطاء التفصيلات فى خط الانحراف التاريخى للمسلمين مع الإخفاء الكامل لكل بياض الصفحة . . ويزاد أخيرا ـ وليس آخرا ـ فى الجرعة الأوربية التى تصور أوربا على أنها القمة السامقة الفريدة فى تاريخ البشرية، وتُلْوَى أعناق الطلاب ليّا إليها مع الإعجاب المبهور الذى لا يدع للإنسان الفرصة لالتقاط أنفاسه !

* * *

فإذا تم هذا كله جاءت «مدرسة المعلمين العليا» لتكمل التخطيط الدنلوبي الخبيث . .

كانت هذه هي المكان الذى يتخرج فيه معلمو المواد كلها ما عدا اللغة العربية ، التى يتخرج معلموها فى الأزهر - وحده أولا ، ثم فيه وفى « دار العلوم العليا» فيما بعد - وكانت فى الوقت ذاته هى « معمل التفريخ» للمخطط كله ، الذى يضمن دوام التأثير وعمق التأثير ، على أسلوب المخطط كله ، البطيء الخطى ، الأكيد المفعول .

كان طلابها يختارون بادئ ذى بدء من بين خريجى المدارس الثانوية الذين حقنوا بالسم الخبيث على جرعتين متواليتين طويلتين ، إحداهما فى أثناء التعليم الابتدائى ، والثانية فى أثناء التعليم الثانوى أى خلال تسع سنوات متواليات .

وكانوا يختارون ثانيا على أسس معينة وضعها وينفذها مدير المدرسة ومعلموها وكلهم من الإنجليز !

ولك أن تتوقع نوع « العينة» المطلوبة ! ونوع « المؤهلات» المطلوبة !

وبطبيعة الحال لن تكون الاستقامة على الإسلام ، ولا التقوى والصلاح من بين تلك المؤهلات !

وأيًا كانت نوعية الداخل وقت دخوله ، فالخارج « مضمون» ! مضمون النوعية ومضمون المؤهلات !

هنا فى « معمل التفريخ» يتم كل شئ بعناية فائقة . . لأنه مستقبل أمة كاملة يصاغ !

كانت المدرسة تقع فى حى « المنيرة» [1] على بعد دقائق معدودة من ثكنات جيش الاحتلال فى قصر النيل [2] وكان الأساتذة الإنجليز لا يدخلون على طلابهم فى الحقيقة بوصفهم أساتذة فحسب ! بل بوصفهم قوة الاحتلال القاهرة التى جاءت لتقهر نفوس هؤلاء الطلاب وتشعرهم بالضآلة والدونية إزاء « الرجل الأبيض» العظيم الذى وضعته « العناية الإلهية !» على رأس هذه البلاد[3] هذا هو المعنى الظاهر الذى كان يتعمد أولئك « الأساتذة» إظهاره . أما المعنى الخفى - وهو القهر الصليبى للمسلمين - فهذا لم يكونوا يصرحون به ، ولكنه ينبث - واضحا - فى كل مناسبة وفى كل توجيه .

---

(١) فى مكان كلية تجارة القاهرة فى الوقت الحاضر .

(٢) فى مكان فندق الهيلتون بميدان « التحرير !» فى الوقت الحاضر .

(٣) راجع كلام كرومر قبل صفحات .

وأيّا كان الأمر فقد كان أولئك « الأساتذة» يمثلون فى نفوس الطلاب شيئا مرهوبا لا يقاوم، بل حسب الطالب منهم أن يتحاشى فتكاته المتوقعة فى أية لحظة، ولكنه لا يحس بالأمن الحقيقى لحظة واحدة حتى ينتهى من دراسته ويتخرج. فإذا تخرج فالرهبة من « الخواجة» لا تغادر قلبه، وإن أخذت صورا متعددة متجددة فى حياته العملية !

وفى جو الرهبة العام يتلقى الطلاب جرعات السموم . .

هل يملك أحد أن يمتنع عن تناولها؟ بل هل يملك أحد أن يمتنع عن التأثر بها حتى لو أراد ؟!

جرعات السم هنا واضحة . . . والتلقين مباشر . .

إن ما بكم من تخلف سببه الإسلام! الدين كله يسبب التخلف ، ولكن الإسلام بصفة خاصة يعمل على التخلف أكثر من أى دين!! ستظلون متأخرين طالما بقيتم متمسكين بالإسلام ! لن تتقدموا إلا إذا تخلصتم من عقلية القرون الوسطى التى كانت تعتبر الدين أساس الحياة! أساس الحياة اليوم هو العلم وليس الدين . . !

وهذا إلى جانب التلقين غير المباشر . .

لقد كانت أوربا فى العصور الوسطى المظلمة خاضعة لسلطان الدين، فكانت جاهلة متأخرة جامدة. وحين نبذت الدين تقدمت وتحضرت وتعلمت وأوتيت كل وسائل القوة والتمكن . كان الدين حاجزا عن العلم لأنه مجموعة من الخرافات. وحاجزا عن العمل والنشاط والإنتاج لأنه ينظر إلى الآخرة ويهمل الدنيا. كان لابد من تحطيمه للقضاء على الخرافة، والاستمتاع بالحياة على الأرض . الفكر الإنسانى الحر هو الذى تصدى بجرأة لتحطيم الخرافة، ووصل إلى التقدم الرائع الذى تمارسه أوربا اليوم. هو الذى قرر الديمقراطية، وقرر حقوق الإنسان، ورفع من قيمة الكرامة الإنسانية بتقرير مبدأ الحرية الشخصية التى كانت مهدرةفى ظل السيطرة الدينية . .

وما كان الطلاب يومئذ يملكون الرد على التحدى . وما كانوا يملكون ـ فى هزيمتهم الداخلية المبهورة بما عند الغرب، ورهبتهم من الاحتلال العسكرى الجاثم على أرضهم، ورهبتهم من « الخواجة» الذى يجرّعهم ذلك السم ـ ما كانوا يملكون المعرفة التى يردون بها على التحدى ، حتى لو بقيت لهم نفوس ترغب فى الرد !

هل كان فى إمكانهم يومئذ أن يدركوا أن التخلف الذى أصابهم، والذى يعيرهم به

« الخواجة» وينفذ منه لمهاجمة عقيدتهم ودينهم وتقاليدهم، لم يكن سببه الإسلام، إنما كان سببه التخلف العقدى الذى أبعد الأمة عن حقيقة الإسلام؟

وهل كان فى إمكانهم يومئذ أن ينفذوا إلى حقيقة « الحضارة الغربية» فيعرفوا جوانب قوتها وجوانب ضعفها، ويدركوا أن الدين الذى حطمته أوربا لتتقدم وتتحضر كان دينا زائفا من صنع الكنيسة، وكان جديرا بالتحطيم بالفعل لأنه عائق عن الحياة وعن التقدم وعن عمارة الأرض، ولكن الحياة بلا دين من جانب آخر مَفْسَدَةٌ لا تقل عن مفسدة الدين الزائف إن لم تكن أشد، وأنها تعرض هذه الحضارة فى النهاية إلى الانهيار؟!

كلا! ما كان فى طوقهم يومئذ أن يدركوا شيئا من ذلك كله، حتى لو أوجعهم تبكيت الخواجة لهم، وتعييره إياهم، ونسبته كل ما فى حياتهم من سوء إلى الإسلام!

وإذ لم يكن فى طوقهم أن يدركوا شيئا من ذلك، فقد كان المتوقع لهم - وهو ما حدث بالفعل - أن يتأثروا بالسموم التى تقدم لهم، وينصبّوا فى القالب الذى وضع لهم بلا مقاومة تذكر، أو بلا مقاومة على الإطلاق!

وهل كان « الخواجات» - من مدير وأساتذة - سيسكتون على واحد من الطلاب لو وجدوا فيه شيئا من المقاومة لأهدافهم؟ كلا ولا شك! ولكنا لم نسمع على أى حال أن واحدا من الطلاب قد قاوم، وفصل لأنه قاوم!

فإذا انتهت سنوات الدراسة الأربع فى مثل هذا الجو وهذا التوجيه، فقد ضمن الخواجات أن « فراخهم» التى أنتجوها فى « معمل التفريخ»، والتى ستخرج لتتولى تربية جيل جديد من النشء، ستقوم بالدور المطلوب تلقائيا بغير حاجة إلى توجيه جديد، فقد انطبعت نفوسها بما يراد طبعها به، وصارت « تتقيأ» تلقائيا ما سكب فى كيانها من السم، ولكن لا لتتخلص منه وتفىء إلى صحتها كما يفعل الإنسان السوى حين يتناول السم، بل لتطعمه فراخا جديدة صغيرة السن، لا تدرك شيئا مما حولها، بل تلتقط كل ما يوضع أمامها بلا تمييز ولا قدرة على التمييز!

بهذا التخطيط الخبيث أحكم دنلوب قبضته الصليبية على « الأجيال» . .

فلم تكن المسألة إفساد جيل بعينه يذهب ويذهب معه فساده. إنما كان الهدف ضمان سريان السم فى الأجيال المتعاقبة، لكيلا يخرج جيل يفكر فى العودة إلى الإسلام!

ومن طريق معمل التفريخ الضخم الذى أقامه، ضَمِنَ الدورة الكاملة للسم . .

ضَمِنَ الأستاذ والتلميذ . الأستاذ الذى سيصب التلاميذ فى القالب المطلوب ، والتلاميذ الذين سينشأون فى داخل القالب لا يقاومون نشأتهم فيه .

ولكن التخطيط مع ذلك لم يكتف بتلك الدورة المتكاملة ، التى تدور دورة كاملة مع كل جيل جديد ، بل كان أشد خبثا وأشد إحكاما فمد الخيوط إلى مدى أبعد !

فإذا كان المدرس العادى قد صُبّ فى القالب فانصبّ ، وسلط على النشء ليصبه من جديد فى نفس القالب ، فإن المدرس « الممتاز » . . وناهيك « بامتيازه » ! يكافأ على امتيازه هذا مكافأة إضافية ، ليستفاد منه على نطاق أخطر . . فيبتعث إلى انجلترا ليصاغ من جديد صياغة أدق !

صحيح أن « الخواجات » هنا قد قاموا « بالواجب » على النحو المطلوب . . ولكنْ فرق بين أن تظل فى بلدك - وإن صاغك الخواجات - متأثرا ببعض تقاليدها ، وأفكارها ، وعقائدها . . وبين أن « تستنبت » من جديد فى أرض الخواجات أنفسهم ! فتصبح كأنك خواجة بالفعل ، بدلا من أن تكون مصريا متأثرا بالخواجات فحسب ! بل إنك قد تعود ملكيا أكثر من الملك ، فتقوم بالدور المطلوب بأعنف مما كان الخواجات أنفسهم يفعلون !

فإذا عاد أولئك المبتعثون وقد صاروا خلقا آخر ، ممسوخا كل المسخ ، لا يعرف دينه ولا لغته ولا قومه ، وينظر إلى ذلك كله بازدراء شامل . . فهناك يوضعون فى مراكز التوجيه ، ليكون أثرهم فى الإفساد أشمل وأوسع ، حتى إذا صار أحدهم فى نهاية المطاف وزيرا للمعارف أو وكيلا للوزارة ، حطم من مقدسات قومه ما لم يكن يجرؤ دنلوب نفسه أن يفعل . . فدنلوب - كما خطط لنفسه أو خطط له سيده الذى استخدمه ليقوم بدوره - يحافظ على المظاهر الزائفة « منعا من إثارة الشكوك » ، أما هذا الثور الهائج فلا يتقى شيئا ولا يحفل بشىء ! !

وفى وسط هذه الدورة الخبيثة يظل مدرس اللغة العربية (ومدرس الدين) يُبْعَد عن الطريق ، ويداس بالأقدام ، يسبقه غيره على الدوام ، ولا يتولى وظيفة واحدة من وظائف التوجيه ، فيظل صوته يخفت ويخفت حتى لا يسمعه أحد من الناس ، ويظل الآخرون يبرزون حتى تصبح فى أيديهم صدارة « المجتمع الجديد » .

وتمضى دورة الزمن فتفتح الجامعة الأهلية ثم الجامعة الرسمية ثم تتلوها الجامعات ذوات العدد ، فتسير نفس السيرة على نفس المخطط ، وقد غاب صاحبه من الوجود كله ، ولكن مخططه يظل سارى المفعول . . وأكيد المفعول !

« ب » وسائل الإعلام

إذا كان هذا نصيب مناهج التعليم فى عملية الغزو الفكرى الصليبى ضد الإسلام، فهناك أداة أخرى لا تقل خطرا إن لم تكن أخطر . . تلك هى وسائل الإعلام . . الكتاب والصحيفة والمسرح والسينما ثم الإذاعة (ولم يكن التليفزيون قد اخترع بعد فى الفترة التى نحن بصدد الحديث عنها، ولكنه منذ جاء سار على نفس التخطيط) .

فأما الكتاب فقد بدأ مترجما فى أول « عهد النهضة » ثم أصبح مؤلفا فيما بعد ، وإن كان خط الترجمة ظل موجودا على الدوام .

ومن الأمور الطبيعية فى مثل الحال التى كان المسلمون قد وصلوا إليها أن يبدأ الأمر بالترجمة، لغياب عنصر التأليف ، وفراغ الجو الإسلامى كله من الفكر الحىّ المتدفق المتألق المواكب لخط الحياة . .

ولكن ما الذى ينبغى أن يترجم؟!

كان المفروض - كما حدث فى حركة الترجمة الأولى - أن يبدأ الأمر بترجمة الكتب العلمية . فقد كان الفقر العلمى شديدا، وكان التخلف فى الميدان العلمى من أبرز ما أحس به المسلمون حين صحوا على الهزيمة أمام جحافل الصليبيين .

ولا شك أن بعض الكتب العلمية قد ترجم فى تلك الفترة . ولكن الجانب الأعظم من حركة الترجمة سار فى قنوات أخرى بعيدة كل البعد عن المطلوب، أو عن الأمر الواجب فى ذلك الحين .

فإلى جانب الكتب العلمية القليلة التى ترجمت، ترجمت مئات من القصص والمسرحيات، والكتب التى تحمل الفكر الغربى « العلمانى » (1) الجاحد للدين، المناوئ له، مع عناية خاصة بنشر أفكار عن نظرية التطور الداروينية . .

فأما القصص والمسرحيات فقد كان الهدف من نشرها على نطاق واسع هو تحطيم التقاليد الإسلامية التى تمنع الاختلاط وتنفّر من الفاحشة والتحلل الخلقى . . فقد كانت

---

(1) العلمانية كما بينا فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » ترجمة مزيفة لكلمة Secularism التى تعنى إقامة الحياة على أسس غير دينية، والأولى - كما قلنا فى ذلك الكتاب - أن تسمى « اللادينية » .

هذه التقاليد ـ مع كونها تقاليد خاوية من الروح [1] ـ عقبة ضخمة فى سبيل الإفساد الخلقى الهائل الذى تهدف الصليبية إلى إحداثه فى المجتمع الإسلامى . .

وإذا تذكرنا أن نابليون كان قد جاء معه ببعض « الساقطات » كما سماهن الجبرتى وهو يروى أحداث الحملة ، وأن هذا كان هدفا مقصودا من أهداف الحملة ـ أو من مآثرها !! ـ لإشاعة السفور فى المجتمع المصرى المسلم ، ومن ثم إشاعة الفاحشة ، سهل علينا أن نفهم الهدف من القصص الغرامية والمسرحيات التى تعرض جوا مختلفا تماما عن الجو الإسلامى المحافظ ، الذى لا يجهر فيه بالفاحشة ولا يتعالن بالمنكر . . والذى تسعى الصليبية إلى تحطيمه بوصفه ركنا من الحياة الإسلامية التى يراد هدمها أولا عن أخر .

فالذى تعرضه تلك القصص والمسرحيات لا يزيد على أن يكون علاقات غير مشروعة بين رجل وامرأة أو بين شاب وفتاة ، تعطى فى القصة أو المسرحية شرعية وواقعية ليست لها فى الميزان الإسلامى . ويتم هذا فى جو « الفن» الذى يسبغ على كل شىء جمالا وجاذبية مهما يكن فيه من الشر .

تلك مزية الفن ، وتلك خطورته فى ذات الوقت .

فهو يحمل القدرة على التأثير ، ويعرض ما يعرض فى جو من المشاعر والوجدانات تجعل القارىء أو السامع يشارك بخياله مع المشهد المعروض ، وينفعل بما ينفعل به الأشخاص المعروضون فى المشهد . ومن هنا يحمل الفنان مسئوليته . . فحين يكون خيّرًا . . حين يكون ملتزمًا بالقيم الإنسانية العليا . . فإنه يتجه إلى تزيين الخير والتنفير من الشر . وليس من الضرورى أن يكون ذلك عن طريق التوجيه المباشر . بل كلما لجأ الفنان إلى الطريق غير المباشر . . أى عرض ما يريد عرضه من خلال مواقف ومشاهد ومشاعر ووجدانات دون أن يتدخل بشخصه تدخلا مباشرا ، كان ذلك أبلغ فى التأثير فى نفس القارىء أو السامع ، وأفعل فى جذبه إلى صف المعنى المطلوب[2] . وأما حين لا يكون ملتزما بالقيم العليا ، أو حين يكون أسوأ من ذلك معاديا لها ، راغبا فى تحطيمها ، فإنه يحمل القدرة الفنية التى تمكنه كذلك من جذب القارىء أو السامع إلى صف التوجيه الذى يريده . .

---

(١) راجع « خط الانحراف» .

(٢) تناولت هذه القضية فى كتاب « منهج الفن الإسلامى» ولا مجال هنا للتفصيل .

وقد كان الفن الذى يترجم هو الفن الذى تخلص تماما من القيم الدينية، وراح يدعو إلى إقامة مجتمع « طليق» من تلك القيم . . مجتمع يهبط تدريجيا حتى يصبح مجتمعا حيوانيا فى النهاية . . [١] .

وسواء كان الذين ينقلون هذه القصص والمسرحيات إلى العربية واعين تماما للدور الذى يلعبونه أو غير واعين ، فقد كان هناك تشجيع خفى لنشر هذا « الفن» وترويجه بين الشباب خاصة [٢] .

والهدف واضح . .

فحين يقرأ الشاب قصة غرامية ـ أو عاطفية كما كانوا يسمونها ـ يلتقى فيها الفتى والفتاة بعيدا عن أعين الناس ، ويجرى بينهما من الكلام والمواقف ما يجرى، مصوراً بجاذبية الفن وإغرائه، فيتمنى فى دخيله نفسه أن لو كان هو صاحب الموقف، أو أن يقع له مثل ما يقرأ فى القصة أو المسرحية . . ويعلم الشاب جيدا أن مجتمعه المحافظ لا يسمح بمثل هذه المواقف التى يقرأ عنها . . ولكنه عندئذ يتمنى أن يجىء يوم تتحطم فيه تقاليد مجتمعه، التى تحول بينه وبين « الاستمتاع» على النحو الذى يتم فى المجتمعات الأخرى، التى « تحررت» من مثل تلك التقاليد .

فإذا جاء اليوم الذى تُحطم فيه هذه التقاليد بالفعل ـ وقد جاء! [٣] ـ فلن يكون مثل هذا الفتى من المعارضين ! بل سيكون أول المرحبين!

* * *

أما الكتب التى تحمل الفكر « العلمانى » فالهدف من ترجمتها واضح كذلك .

يقول « أ . شاتيلييه» فى مقدمة كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » :

«ولا شك فى أن إرساليات التبشير من بروتستانتية وكاثوليكية، تعجز عن أن تزحزح العقيدة الإسلامية فى قلوب منتحليها، ولا يتم لها ذلك إلا ببث الأفكار التى تتسرب مع اللغات الأوربية. فبنشرها اللغات الإنجليزية والألمانية والهولندية والفرنسية

---

(١) لم تكن النهاية واضحة فى القرن الماضى كما هى واضحة اليوم، ولكن ذوى الحس السليم كانوا يرونها ولا شك.

(٢) كان بين المترجمين والناشرين نصارى لبنانيون. وصلتهم بمخطط الصليبية واضحة.

(٣) سنتكلم فيما يلى عن عملية تحطيم التقاليد عن طريق « تحرير المرأة » .

يحتك الإسلام بصحف أوربا، وتمهد السبيل لتقدم (!) إسلامى مادى . . وتقضى إرساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الإسلامية التى لم تحفظ كيانها وقوتها إلا بعزلتها وانفرادها»[١] .

وهذا يوضح لنا الهدف من ترجمة هذه الأفكار ونشرها باللغة العربية . ذلك أنه مهما انتشر تعلم اللغات الأجنبية فستظل الجمهرة الكبرى من الشعب عاجزة عن قراءة هذه الأفكار فى لغاتها الأصلية . ومن ثم يبقى الحاجز الذى يشكو منه ذلك المبشر قائما يحمى العالم الإسلامى من عوامل التدمير الخارجية . . فإذا انساح الحاجز عن طريق الترجمة ، قضت الصليبية لبانتها ـ على حد تعبير المبشر ـ وأمكن إحداث الدمار المطلوب!

وأما العناية الخاصة بالداروينية ونظرية التطور فقد يكفينا فيها قول البروتوكولات : « لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه وإن تأثير أفكارهم على عقائد الأمميين واضح لنا بكل تأكيد! »[٢] . وقد استطاعت اليهودية العالمية عن طريق ترويج أفكار داروين وتوسيع نطاقها أن تحطم ما كان قد بقى من عقائد « الأمميين» الأوربيين، وتنشىء هناك مجتمعا « جديدا» بلا دين ولا أخلاق ولا تقاليد[٣] . وكان فى تخطيط الصليبية استخدام تلك القذائف المدمرة لذات الهدف فى المجتمع الإسلامى، لإنشاء مجتمع «جديد» بدلا منه ، لا دين له ولا أخلاق ولا تقاليد! لذلك كانت العناية بنشر تلك النظرية بإلحاح فى العالم الإسلامى . . لعلها تصنع هنا ما صنعته هناك![٤] .

* * *

· أما الصحافة فشأنها أخطر . .

فلئن كان الكتاب بصفة عامة هو زاد « المثقفين» ، فالصحافة زاد شامل ، يشمل المثقفين وأنصاف المثقفين ، كما يشمل العامة حتى الذين لا يقرأون منهم، إذ هناك من يتحلقون حوله ليقرأ لهم الصحيفة حتى فى أعماق الريف!

---

(١) راجع هذه المقدمة فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » ترجمة محب الدين الخطيب .

(٢) راجع البروتوكول رقم (٢) من بروتوكلات حكماء صهيون .

(٣) راجع إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة» .

(٤) قام بالترويج لهذه الأفكار فى مصر اثنان من الصليبيين : شبلى شميل وسلامة موسى، وواحد ممن يحملون أسماء المسلمين هو إسماعيل مظهر . . إلى جانب الأسماء الأخرى غير اللامعة .

وفى مصر بالذات قامت الصحافة بدور خطير لعله أخطر الأدوار، إذ كانت مصر فى نظر المخططين كما أسلفنا هى مركز التوجيه الروحى والثقافى بسبب موقعها الجغرافى ومكانتها التاريخية، وبسبب وجود الأزهر فيها . . فإذا أمكن إفسادها من الناحية الإسلامية كان ذلك عونا كبيرا للذين يخططون لإفساد العالم الإسلامى كله، لأن الفساد سيصدر يومئذ وعليه خاتم القاهرة، فيكون أفعل فى الإفساد مما لو جاء وعليه خاتم لندن أو باريس !

لذلك لا نعجب كثيرا من وجود ثلاث دور صحفية كبيرة، لبنانية مسيحية مارونية فى القاهرة! وإن كان السؤال يظل باقيا : لماذا اختار أولئك المسيحيون المارونيون اللبنانيون القاهرة لتكون موضع نشاطهم؟ أبتوجيه وتخطيط من الصليبية العالمية أم بدافع من صليبيتهم الذاتية؟! وبطبيعة الحال لا يوجد فرق فى النهاية بين هذا الوضع وذاك، فالقنوات الصليبية تلتقى كلها فى النهاية فى مجرى واحد. ولكن هناك دلائل كثيرة تدل على أن هناك اتفاقا صليبيا عالميا [١] على جعل القاهرة مكان الأفكار الناشزة عن الإسلام، والحركات المناوئة للإسلام وللدولة العثمانية، كتشجيع نازلى فاضل على بث أفكارها « التحررية» فى صالونها بالقاهرة، بحضور اللورد كرومر [٢] ، وكصدور بعض النشرات السرية للقومية العربية المطاردة من قبل الدولة العثمانية من القاهرة[٣] ، وكإقامة جمال الدين الأفغانى فى مصر فترة من الوقت[٤] .

فإذا لاحظنا هذه الدلائل كلها كان الأقرب إلى الحسبان أن يكون وجود هذه الدور الصحفية الثلاث : دار الأهرام لآل تقلا ودار الهلال لآل زيدان و ودار المقطم لآل صروف، نتيجة توجيه صليبى عالمى، لا مجرد انبعاث صليبى ذاتى، ولا توافق خواطر بين أصحاب هذه الدور الثلاث. وأيا كان المنبع فالمصب واحد ، والتخطيط واحد ، والأهداف واحدة . .

---

(١) أو قل صليبيا يهوديا كما سيظهر فيما بعد .

(٢) سيأتى الحديث عن صالون نازلى فاضل ودوره فى « إغواء» محمد عبده وسعد زغلول وتأثيره فى أفكار مصر السياسية والاجتماعية.

(٣) كانت معظم هذه النشرات تصدر من القاهرة وباريس ، كما كان أعضاء الجمعيات السرية الداعية إلى القومية العربية من نصارى لبنان وسورية يعيشون حياتهم ما بين القاهرة وباريس ، أى فى حماية بريطانيا وفرنسا، اللتين تعملان جاهدتين لقتل « الرجل المريض» والاستيلاء على تركته !

(٤) كان جمال الدين - كما سيأتى - يدعو إلى نزع الخلافة من الأتراك وأن يتولاها العرب، بينما كان يعلم بذكائه الفذ أن العرب أضعف من أن يتولوا شيئا فى ذلك الوقت! كما كان يدعو للماسونية وتآخى الأديان!

الهـدف هو تحـويل هذه الأمـة عن الإسـلام، والمنهـج هو منهـج الدولة الصليـبيـة الحاكمة: « بطىء ولكنه أكيد المفعول» . . « منعا من إثارة الشكوك» .

وهل كان يتصور فى ذلك الزمان أن تكون الخطى أسرع مما كانت؟!

كلا ! فتجربة نابليـون الحمقـاء كـانت ما تزال مـاثلة للعيـان، والفشل الذى منيت به نتيجة حماقتها وسرعة خطوها وعنف حركتها كان مايزال ماثلا فى الأذهان. . وكانت بقايا الإسـلام فى نفوس المسلمين المصريين كفيلة بإفسـاد الخطة كلها لو انكشفت . . وسرعة الخطو من العوامل التى يمكن أن تكشف الخطة وتفسد المفعول. . لذلك كان كرومر ودنلوب حريصين على العمل البطىء الذى لايثير الشكوك.

نعم . . لم يكن يتصور أن تبدأ الصحافة اللبنانية المسيحية المارونية عملها بمهاجمة الإسلام . . فقد كانت غضبة الجماهير كفيلة بتحطيم تلك الدور على رءوس أصحابها من أول الطريق!

ولكن على مهل . . . ممكن !

بل لقد يخدع الغافل إذا اطلع على بعض أعداد هذه الصحف فيحسبها لأول وهلة صحافة إسلامية !!

فهى تمتدح الإسلام، وتمتدح رسوله العظيم ﷺ، وتخصص مكانا يوميا لأخبار «الباب العالى» ومقابلات السلطان وتنقلاته، ولا تقصر فى توفية أخبار ما يدور بين السلطان والدول الأوربية من مفاوضات أو مناوشات أو منازعات . . فأى شىء يريد المسلم من صحيفته أكثر من ذلك ؟!

نعم، ولكن الذى يدقق فى الأمر يجد من خلال ذلك، وإلى جانب ذلك، أشياء أخرى تنم عن مقاصد مختلفة .

فالإسلام يمتدح بما يرضى « عواطف» المسلمين، نعم، ولكن لا يتحدث عنه كنظام حياة وشريعة حكم! وحينما تناقش المشاكل القائمة فى مصر، أو فى العالم الإسلامى فلا يقدم لها الحل من شريعة الإسلام ولا حتى من روحه . . إنما تقدم الحلول ـ كما سنرى ـ من التجربة الأوربية ومن « الحضارة الأوربية» !

بل أكثر من ذلك . .

إن هذا الإسلام الذى يُتحدَّث عنه بما يرضى عواطف الجماهير، دون أن يقدَّم للناس على أنه نظام حياة أو شريعة تحتوى على حلول مشاكلهم. . هذا الإسلام ليس حديثا يوميا يطالع القارئ لهذه الصحف فيظل على ذكر دائم من دينه، ولو حتى على مستوى العواطف والوجدانات. . إنما هو حديث « مناسبات» معينة، يطلق عليها «المناسبات الدينية»! فلا ينحسر الدين عن مفهومه الحيوى الشامل فحسب، بل ينحسر مرة أخرى إلى مناسبات عارضة فى حياة المسلم، يتمتع فيها وجدانه بمدح الرسول ﷺ ومدح الإسلام، ثم يبقى وجدانه خاويا حتى من ذكر الإسلام بقية الشهور وبقية الأيام!

وكما ملئ الفراغ الناجم من تفريغ التاريخ الإسلامى من محتواه فى المنهج الدنلوبى بذكر أوربا وقوتها، ونهضتها، وحضارتها، وأصالتها، وعظمتها. . فكذلك تملأ الصحف الفراغ الناجم من تفريغ الإسلام من محتواه الحقيقى، والفراغ الناجم من عدم ذكر الإسلام إلاّ فى « المناسبات الدينية» فحسب. . تملأ الصحف هذا الفراغ وذاك بذكر أوربا !

فهناك ذكر يومى دائم لأوربا فى باب الأخبار، وحديث دائم عن أوربا فى كل مناسبة من المناسبات!

فأما الأخبار فقد يبدو ذكر أوربا فيها أمرا طبيعيا وبديهيا. . ليس فقط لأن مهمة الصحف أن تطلع قارئها على أخبار العالم الذى يعيش فيه، وليس فقط لأن أوربا فى تلك الفترة كانت مركز نشاط دائب لا يفتر فى جميع الاتجاهات، بل لأن الحقيقة الواقعة - رضينا أم أبينا - أن أوربا كانت تمسك بيدها يومئذ أزمّة الأمور، وتقرر للعالم ما يقوله وما يفعله، بحكم غلبتها العسكرية والسياسية والعلمية والحضارية. .

ومع ذلك فإن الصحيفة الإسلامية فى الوطن المسلم يكون لها طريقة فى تقديم الأخبار تشعر قارئها أنه مسلم - ولو كان مغلوبا على أمره - وتشعره أن له نظرة إلى الأمور متميزة عن نظرة غيره إلى الأمور ذاتها. فهو قد يغضب لأمور قد يرضى بها غيره. وقد يفرح بأمور يأسف لها غيره. وقد يأسى لأمور يرضى بها غيره. . وقد يشارك غيره ولكن من موقفه الخاص المتميز. .[1].

(١) يحتاج هذا الموضوع إلى تفصيل واف عن « الإعلام الإسلامى» لعل الله يوفق كاتبا متخصصا ليكتب فيه من منطلق إسلامى واضح، ليبين للناس أن الإعلام الإسلامى ليس « وعظا» وإنما هو تناول لجميع شئون الحياة من زاوية النظر الإسلامية ومن الموقف الإسلامى.

ومع ذلك فإذا أغضينا عن الأخبار وطريقة تقديمها ، لا نستطيع أن نغضى عن الذكر الدائم لأوربا فى تلك الصحافة ، فإنه ـ فيها ـ بيت القصيد !

إن أوربا لا تذكر فى هذه الصحافة بحجمها الحقيقى ـ وهو يومئذ فى ذاته كبير ـ ولكن يزاد عليها ويضاف إليها حتى يلقى فى روع القارئ أن أوربا هى العالم ، وألا وجود لشيء غير أوربا فى هذا الوجود .

وحقيقة أن أوربا كانت يومئذ غالبة ومسيطرة . . ولكنها كانت مسيطرة على عوج عظيم فى منهج حياتها كله .

فهل كانت تلك الصحافة تكتب عن بشاعة الاستعمار وبشاعة الجرائم التى يرتكبها ضد البلاد المحتلة ومعظمها بلاد إسلامية ؟

وهل كانت تكتب عن الدوافع الصليبية للاستعمار فى البلاد الإسلامية ، من وراء «المصالح الاقتصادية» و«المصالح السياسية» وما شابهها من المصالح؟!

وهل كانت تكتب عن الغزو الفكرى وأهدافه الخفية التى يراد منها صرف الأمة عن دينها؟![1] .

وهل كانت تكتب عن الفساد الخلقى فى أوربا ، وما يجره على الناس من آثار سيئة فى حياتهم؟!

وهل كانت تكتب عن الربا ، وكيف يحدُث الظلم الاقتصادى والاجتماعى من إدارة المال بطريق الربا؟![2] .

وهل كانت تكتب عن المؤامرة الأوربية ـ الصليبية اليهودية ـ للقضاء على الخلافة العثمانية؟!

إن الصحيفة الإسلامية فى الوطن المسلم لم تكن لتغفل الحقيقة الواقعة أو تتجاهلها . لم تكن لتغفل أن أوربا هى المتحكمة فى شئون العالم ، وأنها هى القوة المتمكنة فى كل اتجاه . . سواء فى المجال السياسى أو الاقتصادى أو الحربى أو العلمى أو التكنولوجى . ولكنها ـ حين تكون إسلامية ـ لابد أولا أن تقف موقف الناقد من

---

(١) لم يكن ذلك ممكنا بطبيعة الحال وهذه الصحافة ذاتها جزء من الغزو الفكرى .

(٢) كانت تكتب عن الربا لتطلب إباحته على أنه « ضرورة اقتصادية» !

انحرافات أوربا حيث توجد انحرافات . . وهى موجودة بوفرة فى الحياة الأوربية [1] .
ولا بد ثانيا أن تنهض همم المسلمين ليتداركوا تخلفهم، ليستردوا ما فقدوه من التمكن فى الأرض، مرشدة لهم إلى الطريق السوى لتدارك التخلف، وهو أن يأخذوا من أوربا ما هم فى حاجة إليه من تقدم علمى ومادى، مع المحافظة على دينهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وعدم الذوبان فى أوربا ، وعدم تقليدها فيما يخالف عقيدة الإسلام وشريعته وروحه .

وهذا هو مفرق الطريق بين الصحافة الإسلامية والصحافة غير الإسلامية .

وقد يقول قائل: وأين كان المسلمون؟! ولماذا لم يصدروا صحافتهم التى تعبر عن موقفهم وتخدم وجودهم ومصالحهم؟!

ونقول إن المسلمين كانوا غائبين عن وعيهم ولا شك، فى غمرة الانبهار التى نشأت عن التخلف العقدى الذى كانوا واقعين فيه، والذى أدى فى حياتهم إلى كل ألوان التخلف الأخرى : العلمى والمادى والحضارى والفكرى والحربى والاقتصادى والسياسى . . ولكننا نريد أن نبرز فقط حقيقة تلك الصحافة التى أقامها المسيحيون اللبنانيون المارونيون فى مصر، وحقيقة الدور الذى قامت به . . ففضلا عن علامة الاستفهام التى تحيط بهم: لماذا جاءوا إلى مصر بالذات ليعملوا فيها وينشئوا بها دورهم الصحفية دون أى بلد آخر ؟ فهناك موقفها الخاص من كل هذه القضايا التى أشرنا إليها . فإنه إذا استحال عليها أن تقف الموقف الإسلامى - وهى مسيحية - فهى لم تقف كذلك الموقف «المحايد» الذى يعرض الحسنات والسيئات، إنما وقفت موقف المدافع المستميت عما يسمى «الحضارة الأوربية» بكل سقطاتها وانحرافاتها، كما وقفت موقف المحرض للمسلمين فى مصر أن يقتفوا أثر أوربا فى كل شىء، وأن يحلوا مشاكلهم على النسق الأوربى، وأن ينظروا إلى الأمور كلها لا بعينهم هم، ولكن بعين أوربا . . !

وإليك مثلا واحدا يبرز المعنى الذى نقصد إليه . .

لقد أدت الثورة الصناعية فى أوربا إلى تحطيم الأسرة، وإفساد الأخلاق وانتشار البغاء . . [2] .

---

(١) انظر إن شئت «جاهلية القرن العشرين» .

(٢) تحدثت فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» عن الثورة الصناعية وما أدت إليه من فساد، وأن هذا لم يكن من طبيعة التقدم الصناعى فى ذاته، ولم يكن ضربه لازب، إنما تم بتخطيط يهودى خبيث .

وبصـرف النظر عن كل شيء[1] ، فتلك مشكلة أوربية بحتة ، نشأت من ظروف محلية هناك . .

ما شأن المسلمين بها ؟!

لماذا يُشْغَلون بها؟!

وإن انشغلوا بها فمن أى زاوية ينظرون إليها؟ أمن زاوية أنه فساد أخلاقى أصاب أوربا حين تنكرت للدين والأخلاق والتقاليد، أم من زاوية أنه « ضرورة» ؟! ضرورة اجتماعية فى الحياة الحضارية الصناعية ؟!

هذا مفرق الطريق . . . !

لقد ظلت الصحافة « المصرية!» . . اللبنانية المسيحية المارونية . . تتحدث عن البغاء، وعن كونه « ضرورة اجتماعية» فى العالم « المتحضر!» عشرات السنين قبل أن تكون فى العالم الإسلامى كله مشكلة تدعو إلى وجوده ولا إلى الحديث عنه !

لماذا ؟!

ألمجرد « تسلية » القارئ المصرى ؟!

وهل هذه القذارة النفسية والأخلاقية والاجتماعية تصلح مادة للتسلية ؟!

كلا ! لم يكن القصد هو التسلية! إنما كان القصد تهيئة الأذهان لليوم الذى يراد فيه نشر البغاء فى المجتمع الإسلامى المصرى، وجعله جزءا من كيان المجتمع، تحرسه «الدولة !» بقوانينها وتسهر عليه !!

كان المراد هو تذويب « الحس » الإسلامى الذى ينفر من الفاحشة ومن التعالن بها، بعد أن نحيت « الشريعة» التى تمنع البغاء وتعاقب عليه ، حتى إذا جاء اليوم المنشود ـ وقد جاء ـ لم تكن النفوس نافرة ولا القلوب منكرة، إنما كان هناك تقبل مسبق «للضرورة الاجتماعية» التى تنشأ من « الحضارة !» وكان المعارضون لممارسة هذه «الضرورة » هم «المتزمتين» « الجامدين» « المتحجرين» الذين لا يريدون أن يسايروا «ركب الحضارة» ولا روح « التطور» السارية فى العالم كله !

وذلك مجرد نموذج يمكن أن تقاس عليه كل « القضايا التقدمية» الأخرى،

(١) أى بصرف النظر عن دور اليهود فى هذا الشأن، وعن الآثار النفسية والاجتماعية التى ترتبت على هذا الفساد الخلقى . .

كالاختلاط، والعلاقات الحرة، و«قضية المرأة» ودور الدين فى الحياة « العصرية» «العلمانية» . . إلخ . . إلخ . . وكيف كانت الصحافة « المصرية» تتناولها . . وكيف كانت بكل خطتها جزءا من الغزو الفكرى الصليبى المقصود . .

لقد أدت هذه الصحافة دورا خطيراً فى حياة المسلمين فى مصر . . على خطين رئيسيين : تقليص دور الإسلام ، ولىّ الأعناق ليّا إلى أوربا بحيث تصبح تدريجيا هى الوجهة التى يتجه المسلمون إليها بدلا من الإسلام، والتى يتوسمون فيها طريق الخلاص من حاضرهم السيئ الذى يعيشونه ، ويتطلعون من خلالها إلى مستقبل سعيد باسم يلحقهم بركب الحضارة، ويدفع عنهم وصمة التأخر والانحطاط .

يذكرنا هذا بما قلناه عن رفاعة رافع الطهطاوى . .

ولقد رُفضَتْ دعاوى رفاعة الطهطاوى يومئذ لأنه فاجأ بها قوما غير مستعدين لتقبلها . . ولكنها هى بحذافيرها وأكثر منها ستصبح منذ اليوم مقبولة ، لأن الصحافة - على الخط البطىء الأكيد المفعول - قد مهدت لها الأذهان والقلوب ، فإذا جاءت الآن - وقد جاءت بالفعل - وجدت الناس أكثر استعدادا لتقبلها ، بل وجدت بعضهم متلهفين إليها ، يستبطئون قدومها ويستعجلون خطاها!

ولقد يقول قائل : أولم تكن الأمور صائرة إلى هذا المصير بحكم جميع الظروف المحيطة بالمسلمين؟! فليس دور تلك الصحافة إذن إلا مواكبة ما كان حادثا بالفعل من «تطور » فى أفكار الناس ومشاعرهم ، مما كان لابد أن يحدث فى جميع الأحوال ؟

ونتوقف فى الإجابة عند نقطتين . .

أما أن الأمور كانت صائرة من تلقاء نفسها إلى هذا المصير ، فأمر قد نرجحه بحكم الظروف التى كانت تحيط بالمسلمين يومئذ ولكنا لا نقطع به . . فالذى حدث فى الجزيرة العربية من انطلاق محمد بن عبد الوهاب بحركته القوية لتصحيح العقيدة وإزالة ما شابها من الغبش ، يدلنا على أن الطريق الذى سارت فيه الأمور فى مصر لم يكن حتميا ، إنما كان يمكن أن يحدث فى مصر ما حدث فى الجزيرة العربية من محاولة لتصحيح أحوال الأمة بإزالة « التخلف العقدى» الذى نشأت عنه كل ألوان التخلف الأخرى من علمية ومادية وحضارية وعسكرية . . إلخ . ولكن الجو الذى أحدثته تلك الصحافة (مع وسائل الإعلام الأخرى بلا شك) قد جعل قيام مثل هذه الحركة فى مصر فى ذلك الوقت احتمالا ضئيلا جدا ، وجعل الاحتمال الأقوى هو السير فى الطريق الذى سارت فيه بالفعل .

وأما النقطة الأخرى فهى أن هذه الصحافة لم تكن مواكبة، ولكنها كانت رائدة! لم تكن تتحدث عن أشياء قائمة بالفعل فى نفوس الناس، بل عن أشياء يراد أن تقوم فى نفوسهم! والمثال الذى ضربناه بقضية البغاء واضح. فقد كانت هذه الصحافة تدأب على إدخال الأفكار الغربية اللادينية إلى المجتمع الإسلامى ولو لم يكن متقبلا لها، أو مشغولا بها من قبل.

ولو فرضنا جدلا أن وضع الغالب والمغلوب هو الذى سيحسم القضية، سواء أقامت تلك الصحافة بدورها أم لم تقم [1] فمما لا شك فيه أن دور الصحافة كان هو الإسراع فى تعبيد المغلوب للغالب الصليبى، ومدّه فى الغى، وإبعاد صحوته إلى ما ينبغى أن يكون عليه، ومنعه من الرجوع إلى الإسلام لو أراد أن يرجع إليه..

* * *

وتدريجيا.. على مهل شديد.. بدأت تلك الصحافة تهاجم الإسلام!

هل كان يتصور أن تهاجم الإسلام يومئذ باسمه الصريح؟

كلا! فالبقية الباقية من الدين فى قلب هذه الأمة فى ذلك الحين كانت تمنع حدوث ذلك. ولو حدث لثارت الجماهير على هذه الصحف وهدمتها على رءوس أصحابها..

إنما تهاجم التقاليد!

التقاليد البالية!

وإذا سألنا أنفسنا ما تلك التقاليد البالية التى تهاجم؟ لوجدنا أن معظمها كان هو الإسلام!

حقيقة كان من بين تلك التقاليد التى تهاجم تقاليد جاهلية ارتدت إليها الأمة الإسلامية فى فترة التخلف العقدى، كالتقاليد التى منعت تعليم المرأة، والتى قضت بإساءة معاملتها وتحقيرها، على أساس أن مهمتها أن تحمل وتلد ولكن ليس لها كيان

---

(١) بينا من قبل أن ما يشبه السنّة من ذوبان المغلوب فى الغالب عن طريق التقليد لا ينطبق على أمة العقيدة. فإذا قلنا إن العقيدة كانت قد ضعفت فى قلوب هذه الأمة، ومن هنا كان الذوبان سيحدث بصورة حتمية، نقول إن الضعف غير الفناء، إنما الذى سعت إليه تلك الصحافة الصليبية وكادت تنجح فيه هو الإفناء.. وهذا هو دورها الحقيقى!

إنسانى يوجب الاحترام . وهى ردة جاهلية فى هذا المجال كانت الأمة قد هبطت إليها نتيجة البعد عن المنهج الربانى القويم ، الذى ساوى - فى الإنسانية - بين كيان المرأة وكيان الرجل ، وإن فرق بينهما فى بعض التكاليف وبعض الحقوق وبعض الواجبات . حيث قال سبحانه : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾ (١) .

وقال : ﴿ من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾ (٢) .

وقال : ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾ (٣) .

وقال ﷺ « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلى » (٤) .

لقد كانت تلك التقاليد غير الإسلامية هى المدخل الخبيث الذى دخلته الصحافة لمهاجمة « التقاليد البالية» بحجة أنها ليست من الإسلام ، إنما هى من صنع المتزمتين من الرجال الذين أضفوا عليها قدسية الدين ليحموا من ورائها أنانيتهم وتزمتهم . . وقد كان هذا حقا يراد به باطل . فلم يكن القصد من مهاجمتها هو ردها إلى أصلها الإسلامى الصحيح ، إنما كان القصد هو النفاذ من هذا المدخل الخبيث لمهاجمة التقاليد الإسلامية الصحيحة الأصيلة ، بحجة أنها كلها « تقاليد بالية» ليست من الإسلام !

فاحتقار المرأة ، وتعييرها بأنها تحمل وتلد وليست مساوية فى الكيان الإنسانى للرجل ، وعدم تعليمها ، وتركها فى جهالة ومهانة . . كل هذا ليس من الإسلام .

ولكن منع الاختلاط بغير موجب ، ومنع التبرج والفتنة ، ومنع إقامة علاقة « حرة» بين الرجل والمرأة إلا العلاقات الشرعية التى أذن الله بها وحددها . . هذا كله من صميم الإسلام ، قرره الله ورسوله ، ولم يقرره المتزمتون من « رجال الدين» (٥) ولا قرره الرجل وأضفى عليه قداسة الدين ليحمى أنانيته وتزمته .

ولكن الذين كانوا يهاجمون « التقاليد البالية» فى الصحافة « المصرية» . . اللبنانية

---

(١) سورة آل عمران [١٩٥] . (٢) سورة النحل [٩٧] .
(٣) سورة النساء [١٩] . (٤) أخرجه الترمذى وإسناده صحيح .
(٥) ليس فى الإسلام « رجال دين» كما قلنا فى أكثر من موضع وفى أكثر من كتاب . ولكن هكذا يعبر أعداء الإسلام .

المسيحية . . لم يقفوا عند التقاليد غير الإسلامية ، ولم يسعوا إلى تصحيحها بردها إلى أصلها الإسلامى الصحيح . . ذلك أن هدفهم لم يكن تصحيح عقيدة هذه الأمة وتصحيح مسلكها بإرجاعه إلى صورته الإسلامية ، إنما كان هدفهم الحقيقى هو محو الإسلام محوا وإزالته من الوجود . .

وهذا هو مفرق الطريق !

لقد كان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم أن يهاجم تلك التقاليد الجاهلية التى ارتدت إليها الأمة فى فترة التخلف العقدى ، ويندد بها ، ويدعو إلى إبطالها وإزالتها . . ولكن لحساب الإسلام . . لحساب المنهج الربانى الصحيح .

وكان من شأن الداعية المسلم والمصلح المسلم فى ذات الوقت أن يرسخ التقاليد الإسلامية الصحيحة ، فيدعو إلى المحافظة على الحجاب الإسلامى ، ومنع التبرج ، ومنع الاختلاط ، ومنع التفسخ الخلقى .

ولكن الذى صنعته تلك الصحافة وكتابها كان هو المهاجمة الشاملة لكل التقاليد ، صحيحها وفاسدها ، التقاليد التى تمنع تعليم المرأة ، والتقاليد التى تمنعها من « مشاركة الرجل فى كل أمور المجتمع » !

ولقد كانت « قضية المرأة » من أكبر الموضوعات التى خاضتها تلك الصحافة وكتابها ، ومن أبعدها أثرا فى تحويل المجتمع إلى الوجهة التى يريدها المخططون الصليبيون .

ومن كان فى شك من التخطيط الصليبى وراء إثارة « قضية المرأة » فليقرأ قرارات المؤتمر التبشيرى الذى عقد فى لكنو سنة ١٩١٣ ، والذى كان - كغيره من مؤتمرات المبشرين - يخطط علانية لهدم الإسلام ومحاولة محوه من الوجود ، حيث جاء فى قرارات ذلك المؤتمر :

« سابعا : الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات »[١] .

وذلك عن طريق « تعليمها » و« تحريرها » .

فكما كانت تجربة اليهود الأولى فى أوربا[٢] كذلك كانت تجربة الصليبيين فى مصر

---

(١) الغارة على العالم الإسلامى ، ترجمة محب الدين الخطيب ، ص ١٤٧ . وهذا المؤتمر مجرد واحد من مئات المؤتمرات التى تعقد لهذا الشأن وتقرر مثل هذه القرارات .

(٢) راجع إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(وغيرها من بلاد العالم) : أنه مهما حاولوا إفساد المجتمع عن طريق إفساد الرجل وحده فإنه فى النهاية لا يفسد ! أو لا يفسد بالدرجة التى يرغبونها ، ولا بالسرعة التى يرغبونها ! ذلك أنه طالما كانت هناك أم متدينة ـ ولو كانت جاهلة بالقراءة والكتابة والعلوم ـ فإنها تبذر فى أبنائها بذور العقيدة وهم بعد أطفال . . فمهما فسدوا فى شبابهم فإنهم يعودون إلى ما لقنتهم إياه أمهم فى طفولتهم ، فلا يحدث الفساد المطلوب . . وأنه لابد من إفساد الأم لضمان إفساد المجتمع . . ولابد من إفسادها وهى فتاة قبل أن تصبح أما ، حتى إذا أصبحت أمًّا فى يوم من الأيام لم تكن لديها العقيدة التى تبذرها فى قلوب أبنائها ، ولا الأخلاق الدينية التى تطبع بها سلوكهم وهم فى سن التكوين .

فكيف يفسدون الأم المسلمة والفتاة المسلمة ؟

إذا كانت قابعة فى بيتها فمن أين يصلون إليها ؟ وإذا كانت جاهلة فمن أين يوصلون إليها الأفكار التى يلوثون بها عقلها ويفسدون بها عقيدتها وأخلاقها ؟

لابد إذن من « تحريرها » و«تعليمها » لكى يصل إليها كيد الشياطين . .

ولقد كان تعليمها واجبًا إسلاميا ، بل فريضة إسلامية نكلت عنها الأمة المسلمة . . ولكن أى نوع من التعليم ؟!

أما « تحريرها » ، على الطريقة التى تم بها ذلك التحرير . . بمعنى إخراجها من دينها وأخلاقها وتقاليدها . . فقد كان هذا هو بيت القصيد !

«جـ» قضية تحرير المرأة

« بطل » هذه القصة هو قاسم أمين . .

شاب نشأ فى أسرة تركية مصرية . . أى محافظة . . فيه ذكاء غير عادى . حصل على ليسانس الحقوق الفرنسية من القاهرة وهو فى سن العشرين . بينما كان هناك فى عصره من يحصل على الشهادة الابتدائية فى سن الخامسة والعشرين !

ومن هناك التقطه الذين يبحثون عن الكفاءات النادرة والعبقريات الفذة ليفسدوها ، ويفسدوا الأمة من ورائها ! التقطوه وابتعثوه إلى فرنسا . . لأمر يراد .

اطلع قبل ذهابه إلى فرنسا على رسالة لمستشرق يتهم الإسلام باحتقار المرأة ، وعدم الاعتراف بكيانها الإنساني . وغلى الدم فى عروقه - كما يصف فى مذكراته - وقرر أن يرد على هذا المستشرق ويفند افتراءاته على الإسلام .

ولكن عاد بوجه غير الذى ذهب به !

لقد أثرت رحلته إلى فرنسا فى هذه السن الباكرة تأثيرا بالغا فى كيانه كله ، فعاد إلى مصر بفكر جديد وعقل جديد ووجهة جديدة . .

عاد يدعو إلى « تعليم المرأة وتحريرها» على ذات المنهج الذى وضعه المبشرون وهم يخططون لهدم الإسلام !

يقول فى مذكراته إنه التقى هناك بفتاة فرنسية أصبحت « صديقة» حميمة له . . وإنه نشأ بينه وبينها علاقة عاطفية عميقة ، ولكنها « بريئة» . . وإنها كانت تصحبه إلى بيوت الأسر الفرنسية والنوادى والصالونات الفرنسية ، فتفتح فى وجهه البيوت والنوادى والصالونات ويكون فيها موضع الترحيب . .[1] .

وسواء كان هو الذى « التقى بها» أم كانت موضوعة فى طريقه عمدا ليلتقى بها ، فقد لعبت هذه الفتاة بعقله كما لعبت بقلبه ، وغيرت مجرى حياته ، وجعلته صالحا للعب الدور المطلوب ، الذى قررت مؤتمرات التبشير أنه لا بد منه لهدم الإسلام!

ونحن نميل إلى تصديقه فى قوله إن العلاقة بينه وبينها كانت « بريئة» . . لا بالمعنى الإسلامى للبراءة بطبيعة الحال ، ولكن بمعنى عدم وصول هذه العلاقة إلى درجة الفاحشة . . فإنها - على هذه الصورة - تكون أقدر على تغيير أفكاره من العلاقة المبتذلة التى تؤدى إلى الفاحشة ، لأن الفتاة ستكون حينئذ ساقطة فى حسه غير جديرة بالاحترام ، وغير جديرة بأن تكون مصدر « إلهام» !

وسواء كانت الفتاة قد « مثلت» الدور بإتقان ، لتظل العلاقة بينه وبينها « روحية!» و«فكرية» لتستطيع التأثير عليه ، أم كانت تربيته المحافظة فى الأسرة المنحدرة من أصل تركى هى التى وقفت بهذه العلاقة عند الحد الذى يصفها بالبراءة . . فالنتيجة النهائية كانت انقلابا كاملا فى كل كيانه .

ولنحاول أن نتصور كيف حدث التغيير . .

---

(١) راجع « مذكرات قاسم أمين » .

هذا شاب عبقرى، نعم، ولكنه قادم من بلاد محتلة، تحتلها إحدى الدول الأوربية . . وهو قادم إلى أوربا . . تلك التى يتحدث قومه عنها بانبهار المأخوذ، وتمثل فى حسهم العملاق الضخم الذى يتضاءل الشرق أمامه وينزوى. فنستطيع عندئذ أن نتوقع أنه قادم إلى أوربا وهو منخنس داخل نفسه، يحس بالضآلة والقزامة، ويتوجس أن يزدرى فى بلاد العمالقة، لأنه قزم قادم من بلاد الأقزام، وأقصى ما يتمناه قلبه أن يجد الطمأنينة النفسية والعقلية فى تلك البلاد الغريبة التى لا يكاد يستوعبها الخيال !

وبينما هو كذلك ـ منكمش متوجس ـ إذا هذه الفتاة تبرز له فى الطريق فتؤنس وحشته بادئ ذى بدء، فيزول عنه انكماشه وتوجسه، ويذهب عنه توتر أعصابه، ويشعر بالطمأنينة فى المهجر . .

ثم إن هذه الفتاة تبادله عواطفه ـ كما قص فى مذكراته ـ فيشعر فوق الطمأنينة بالسعادة والغبطة ، ويزداد استقرار نفسه فلا يعود يشعر بالغربة النفسية الداخلية، وإن بقيت الغربة بالنسبة للمجتمع الخارجى الذى لم يحتك به بعد . .

غير أن الفتاة تنتقل معه ـ فتنقله ـ خطوة أخرى . . فهى تصحبه إلى الأسر الفرنسية فتفتح له تلك الأسر أبوابها وترحب به، وتصحبه إلى النوادى والصالونات فترحب به كذلك . . وهنا تزول الغربة نهائيا، سواء بالنسبة لمشاعره الخاصة أو بالنسبة للمجتمع الخارجى، وينطلق فى المجتمع الجديد واثقا من نفسه، واثقا من خطواته . .

كيف تصير الأمور الآن فى نفسه؟!

كيف ينظر إلى العلاقة بينه وبين هذه الفتاة ؟

وكيف ينظر إلى التقاليد التى تم عن طريقها كل ما تم فى نفسه من تغيير؟!

علاقة « بريئة» . . أى لم تصل إلى الفاحشة . . نمت من خلالها نفسه نموا هائلا ، فخرجت من انكماشها وعزلتها، واكتسبت إيجابية وفاعلية، مع نمو فى الثقافة، وسعة فى الأفق، ونشاط وحيوية . .

ما عيب هذه التقاليد إذن؟ وما المانع أن تكون تقاليدنا نحن على هذا النحو «البرىء»؟!

هناك بلا شك ـ مهما أحسنّا الظن ـ مجموعة من المغالطات فى هذا « المنطق» . .

المغـالطة الأولى : هي دعواه « ببراءة» هذه العلاقة على اعتبار خلوها من الفاحشة المبينة . فحتى لو صدقناه ـ ونحن أميل إلى تصديقه كما قلنا ـ فهي ليست « بريئة» في الميزان الإسلامي الذي يقيس به المسلم أمور حياته كلها . فهي تشتمل على « خلوة» محرمة في ذاتها سواء أدت إلى الفاحشة أم لم تؤد إليها . وهي محرمة في دين الله لحكمة واضحة ، لأنها تؤدي ـ في النهاية ـ إلى الفاحشة ، إن لم يكن في أول مرة ـ ولا حتى في أول جيل ـ فإنه ما من مرة أباحت البشرية لنفسها هذه الخلوة إلا وصلت إلى الفاحشة في نهاية المطاف . . لم تشذ عن ذلك أمة في التاريخ !

والمغالطة الثانية : هي تجاهله ما هو واقع بالفعل في المجتمع الفرنسي من آثار مثل هذه العلاقة ، وقد علم يقينا بلا شك أن ذلك المجتمع يعج بألوان من العلاقات الأخرى «غير البريئة» ويسمح بها بلا رادع . . فلم يكن ذلك سرا مخفيا عن أحد ممن يعيش في ذلك المجتمع ، سواء من أهله أو من الوافدين عليه . فحتى لو صدقناه في أن علاقته هو الخاصة لم تصل إلى ما يصل إليه مثلها في ذلك المجتمع ـ لظروف خاصة مانعة في نفسه أو في نفسها ـ فليس ذلك حجة لإباحة تلك العلاقات ، أو الدعوة إلى مثلها ، وهو يرى بنفسه نتائجها الواقعية حين يبيحها المجتمع .

والمغالطة الثالثة : هي زعمه في كتابه الأول « تحرير المرأة» أن هذا التحرير لن ينتج عنه إلا الخير . ولن تنشأ عنه العلاقات الدنسة التي رآها بعينه في المجتمع الفرنسي . . إنما سينشأ عنه تقوية أواصر المجتمع وربطها برباط متين ![1] .

وأيّا كان الأمر . . فقد عاد قاسم أمين من فرنسا داعيا لتحرير المرأة . . داعيا إلى السفور ونزع الحجاب . .

نفس الدعوة التي دعا بها رفاعة الطهطاوي من قبل عند عودته من فرنسا . . مع فارق رئيسي . . لا في الدعوة ذاتها ، ولكن في المدعوين ! فإن أكثر من نصف قرن من الغزو الفكري المستمر كانت قد فعلت فعلها في نفوس الناس ، فلم تقابل دعوة قاسم أمين بالاستنكار البات الذي قوبلت به دعوة رفاعة الطهطاوي ، ولم توءد في مهدها كما وئدت الدعوة الأخرى من قبل !

ومع ذلك فلم يكن الأمر سهلا . فقد أثار كتاب « تحرير المرأة» معارضة عنيفة جعلت

---

(١) تنازل عن هذه المغالطة في كتابه الثاني « المرأة الجديدة» كما سيجيء .

قاسم أمين ينزوى فى بيته خوفًا أو يأسًا، ويعزم على نفض يده من الموضوع كله . . ولكن سعد زغلول[1] شجعه، وقال له : امض فى طريقك وسوف أحميك!

عندئذ قرر أن يعود ، وأن يسفر عن وجهه تماما! فلئن كان فى الكتاب الأول قد تمحك فى الإسلام، وقال إنه يريد للمرأة المسلمة ما أعطاها الإسلام من حقوق ، وفى مقدمتها التعليم ، فقد أسقط الإسلام فى كتابه الثانى « المرأة الجديدة» ولم يعد يذكره . . إنما صار يعلن أن المرأة المصرية ينبغى أن تصنع كما صنعت أختها الفرنسية، لكى تتقدم وتتحرر ، ويتقدم المجتمع كله ويتحرر! وهكذا سقط الحاجز المميز للمرأة المسلمة، وصارت هى والمشركة أختين بلا افتراق !

بل وصل الأمر إلى الدعوة إلى السير فى ذات الطريق الذى سارت فيه الغربية من قبل، ولو أدى ذلك إلى المرور فى جميع الأدوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات . . وقد كان من بين تلك الأدوار ما يعلمه قاسم أمين - ولا شك - من التبذل وانحلال الأخلاق !

قال :

« . . ولا نرى مانعا من السير فى تلك الطريق التى سبقتنا إليها الأمم الغربية لأننا نشاهد أن الغربيين يظهر تقدمهم فى المدنية يوما فيوما .

« . . وبالجملة فإننا لا نهاب أن نقول بوجوب منح نسائنا حقوقهن فى حرية الفكر والعمل بعد تقوية عقولهن بالتربية ، حتى لو كان من المحقق أن يمررن فى جميع الأدوار التى قطعتها وتقطعها النساء الغربيات»[2] .

وكان آخر ما قاله فى ليلة وفاته مخاطبا - بالفرنسية - مجموعة من الطلبة والطالبات الذين جاءوا من رومانيا فى زيارة لمصر :

« . . أحيى هذه البعثة العلمية وأشكرها على زيارة نادى المدارس العالية . أحيى منها بصفة خاصة هاته الفتيات اللواتى تجشمن مصاعب السفر متنقلات من الغرب إلى الشرق حبا فى الاستزادة من العلوم والمعارف . أحييهن وقلبى ملؤه السرور حيث أرى نصيبهن من العناية بتربيتهن لا يقل عن نصيب رفقائهن . أحييهن ولى شوق عظيم أن

(١) ستتحدث فى فقرة تالية عن دور سعد زغلول فى حياة مصر الحديثة .

(٢) عن مجلة الهلال فى الاحتفال بالذكرى العشرين لوفاة قاسم أمين ، عدد أول يونيه سنة ١٩٢٨ ص ٩٤٨ .

أشاهد ذلك اليوم الذى أرى فيه حظ فتياتنا المسلمات المصريات كحظ هاته الفتيات السائحات من التربية والتعليم. ذلك اليوم الذى نرى فيه المسلمات جالسات جنبا إلى جنب مع الشبيبة المصرية فى اجتماع أدبى كاجتماع اليوم، فيشاركننا فى لذة الأدبيات والعلوم التى هن منها محرومات. فعسى أن تحقق الآمال حتى يرتقين فيرتقى بهن الشعب المصرى» [١] .

* * *

والآن وقد صار للمرأة « قضية » فلا بد للقضية من تحريك . .

وتبنى القضية فريق من النسوة على رأسهن هدى شعراوى، وفريق من الرجال «المدافعين» عن حقوق المرأة. وأصبح الحق الأول الذى تطالب به النسوة هو السفور. . وصارت القضية التى يدور حولها الجدل هى السفور والحجاب. .

من أين جاءت القضية؟!

حين قامت الحركة النسوية فى أوربا كان للمرأة بالفعل قضية! قضية المساواة فى الأجر مع الرجل الذى يعمل معها فى نفس المصنع ونفس ساعات العمل، بينما تتقاضى هى نصف ما يتقاضاه الرجل من الأجرة [٢] .

وحين اتسعت القضية هناك وتعددت مجالاتها - تلقائيا أو بتخطيط الشياطين[٣] - فقد كان محورها الأول هو قضية المساواة مع الرجل فى الأجر ، ترجع إليه كلما طالبت أو طولب لها بحق جديد. . حتى أصبحت القضية هناك فى النهاية هى قضية المساواة التامة مع الرجل فى كل شىء ومن بين « كل شىء» «حق الفساد» الذى كان الرجل قد وَصَلَ - أو وُصِلَ - إليه ، فصار حق الفساد داخلا بدوره فى قضية المرأة، تحت عنوان « حق المرأة فىّ اختيار شريك حياتها» فى مبدأ الأمر، ثم تحت عنوان «حق المرأة فى إبداء عواطفها» وأخيرا تحت عنوان « حق المرأة فى أن تهب نفسها لمن تشاء»!!

---

(١) الهلال، أول يونيه ١٩٢٨ ، ص ٩٤٩ .

(٢) تحدثت عن هذه القضية وأطوارها المتتابعة فى أوربا فى فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

(٣) لم تكن تلقائية فى الواقع وإن بدت كذلك !

أما فى مصر - أو فى العالم الإسلامى - فلم تكن للمرأة قضية خاصة ! إنما كانت القضية الحقيقية هى انحراف هذا المجتمع عن حقيقة الإسلام ، مما سميناه « التخلف العقدى» ، وما نتج عن هذا التخلف العقدى من تخلف فى جميع مجالات الحياة . وما تحقير المرأة وإهانتها وعدم إعطائها وضعها الإنسانى الكريم إلا مجال من المجالات التى وقع فيها التخلف عن الصورة الحقيقية للإسلام . وعلاجها - كعلاج غيرها من الحالات جميعا - هو العودة إلى تلك الصورة الحقيقية ، والتخلى عن ذلك التخلف المعيب . .

تلك هى « القضية» . . وهى ليست « قضية المرأة» ولا « قضية الرجل» . . إنما قضية الأمة الإسلامية كلها ، بجميع رجالها ونسائها وأطفالها وحكامها وعلمائها وكل فرد فيها . . وتخصيصها بأنها « قضية المرأة» فضلا عن مجانبته للنظرة « العلمية» الفاحصة ، فإنه لا يعالج القضية . لأنه يأخذ عرضا من أعراض المرض فيجعله مرضا قائما بذاته ، ويحاول علاجه . . فلا يقدر لهذا العلاج أن ينجح ، لأنه يتعامى عن الأسباب الحقيقية من ناحية ، ويفتقر إلى الشمول من ناحية أخرى .

ولكن . . هل كان فى ذهن أحد أن يبحث القضية بحثا جادا مخلصا فاحصا دقيقا ليتعرف على الأسباب الحقيقية فيعالجها؟!

أم هل كان أحد ممن تناول القضية فى تمام وعيه ليناقشها مناقشة علمية موضوعية مبصرة ؟!

أم هل كان أحد ممن تناول القضية سيد نفسه لينظر إليها بنظرته الخاصة ، ويرى فيها ما يرى بمنظاره الخاص ؟! أم كانوا كلهم من العبيد . . سواء عبيد شهواتهم أو عبيد الغرب . . الذين يساقون سوقا لتنفيذ مخططات أعدائهم وهم سادرون فى الغفلة ، غارقون فى الضلال البعيد !

بلى ! لقد كانوا كلهم كذلك ، رجالا ونساء دعاة وأتباعا ، مخططين ومنفذين ! وإذ كان لا بد للقضية من موضوع ، فقد جعلت القضية - فجأة وبلا مقدمات حقيقية - قضية الحجاب والسفور !

لقد كانت القضية فى أوربا « منطقية » فى ظاهرها على الأقل . . أو فى بدايتها على الأقل .

فحين تضطر المرأة إلى العمل - لظروف ليس هنا مجال تفصيلها[1] - ثم تعطى نصف

أجر الرجل الذى يقوم بنفس العمل ، فطلب المساواة فى الأجر قضية حقيقية من جهة ، وجيهة كل الوجاهة من ناحية أخرى .

أما قضية الحجاب والسفور فما مكانها من المنطق ، وما مكانها من الحق؟!

لم يكن « الرجل » هو الذى فرض الحجاب على المرأة ، فترفع المرأة قضيتها ضده لتتخلص من « الظلم » الذى أوقعه عليها ، كما كان وضع القضية فى أوربا بين المرأة والرجل . إنما الذى فرض الحجاب على المرأة هو ربها وخالقها [٢] ، الذى لا تملك ـ إن كانت مؤمنة ـ أن تجادله سبحانه فيما أمر به ، أو يكون لها الخيرة فى الأمر :

﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا﴾ [٣] .

ثم إن الحجاب فى ذاته لا يشكل قضية . .

فقد فرض الحجاب فى عهد رسول الله ﷺ ، ونفذ فى عهده ، واستمر بعد ذلك ثلاثة عشر قرنا متوالية . . وما من مسلم يؤمن بالله ورسوله يقول إن المرأة كانت فى عهد رسول الله ﷺ مظلومة [٤] . فإذا وقع عليها الظلم بعد ذلك ، حين تخلف المسلمون عن عقيدتهم الصحيحة ومقتضياتها ، فلم يكن الحجاب ـ بداهة ـ هو منبع الظلم ولا سببه ولا قرينه ! لأنه كان قائما فى خير القرون على الإطلاق ، التى قال عنها رسول الله ﷺ : « خيركم قرنى . . » [٥] وكان قرين النظافة الخلقية والروحية ، وقرين الرفعة الإنسانية التى لا مثيل لها فى تاريخ البشرية كله . .

ولكن المطلوب هو نزع الحجاب !

---

(١) فصلت أسبابها عند الحديث عن الثورة الصناعية وآثارها فى الحياة الأوربية ، فى فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٢) أشرت فى هامشة سابقة إلى هذه الحقيقة ردا على الذين يجادلون فى وقائع التاريخ ، ويزعمون أن الحجاب كان تقليدا عربيا صحراويا قائما قبل الإسلام . . وذكرت قول عائشة رضى الله عنها فى مدح نساء الأنصار « لما نزلت آية الحجاب قامت كل واحدة منهن إلى ثوبها فاعتجرت به » .

(٣) سورة الأحزاب [٣٦] .

(٤) يقول ذلك اليوم مرتدون متبجحون ممن يحملون أسماء إسلامية ، فينسبون الظلم إلى الله ورسوله ، وإلى الدين الذى نزل من عند الله .

(٥) سبق ذكره .

المطلوب هو السفور !

المطلوب هو التبرج !

المطلوب هو أن تخرج المرأة فى النهاية عارية فى الطريق!

ذلك ما تطلبه مؤتمرات المبشرين، وما يطلبه الصليبيون الذين يخططون . .[١] . فلتكن القضية إذن هى قضية السفور والحجاب . . وليوصف الحجاب بكل شر يمكن أن يرد على الذهن، وليوصف السفور بكل خير يخطر على البال . .

ولتبدأ القضية من هنا . . ولتنته حيث يريد الشياطين !

* * *

تلقفت « القضية » كما قلنا مجموعة من النسوة فطالبن بالسفور على أنه « حق » للمرأة سلبها إياه المجتمع ،أو سلبها إياه الرجل الأنانى المتحجر المتزمت الرجعى المتعفن الأفكار![٢] .

وكانت «زعيمة» « النهضة النسوية» هدى « هانم » شعراوى، التى اتخذت من بيتها «صالونا » تقابل فيه الرجال سافرة . . فى غير وجود محرم[٣] .

كانت هدى شعراوى بنت محمد باشا سلطان أحد باشوات ذلك العصر، ومن هنا فهى « هانم» بالوراثة ! سافرت إلى فرنسا لتتعلم . . وسافرت محجبة . . ولكنها حين عادت كانت سافرة . وكان أبوها يستقبلها فى ميناء الاسكندرية ومعه مجموعة من أصدقائه، فلما نزلت من الباخرة سافرة أحمر وجهه خجلا وغضبا، وأشاح بوجهه عنها وانصرف دون أن يحييها . . ولكن ذلك لم يردعها عن صنيعها، ولم يردها عن غيها الذى عادت به من فرنسا . .

وتحلق حولها بعض النسوة . . وبعض الرجال ! الرجال الذين « يدافعون» عن قضية المرأة فى الصحف والمجلات، بالنثر وبالشعر . . لقاء جلسة «لطيفة» فى صالون الهانم، أو ابتسامة خاصة تخص بها أحدهم . . أو مبلغ من المال تدسه فى يد واحد من الصحفيين المرتزقة فيكتب مقالا فى «رقة» الهانم و «لطفها» وابتسامتها العذبة وحسن

---

(١) واليهود يخططون معهم كما سيجىء .

(٢) فى أى قرن يا ترى سلبها ذلك « الحق » ؟!

(٣) سنتحدث عن « الصالونات » فى فقرة تالية .

استقبالها لضيوفها ـ الرجال ـ أو يكتب عن اجتماعاتها وتحركاتها . . أو يكتب عن «القضية» . .

وكانت قمة المسرحية هى مظاهرة النسوة فى ميدان قصر النيل (ميدان الإسماعيلية) أمام ثكنات الجيش الإنجليزى سنة ١٩١٩ . .

فقد كانت الثورة المصرية قد قامت [١] ، وملأت المظاهرات شوارع القاهرة وغيرها من المدن تهتف ضد الإنجليز ، وتطالب بالجلاء التام أو الموت الزؤام . . ويطلق الانجليز الرصاص من مدافعهم الرشاشة على المتظاهرين فيسقط منهم كل يوم قتلى بلا حساب .

وفى وسط هذه المظاهرات الجادة [٢] قامت مظاهرة النسوة ، وعلى رأسها صفية هانم زغلول زوجة سعد زغلول [٣] ، وتجمع النسوة أمام ثكنات قصر النيل ، وهتفن ضد الاحتلال . . ثم . . بتدبير سابق ، ودون مقدمات ظاهرة ، خلعن الحجاب ، وألقين به فى الأرض ، وسكبن عليه البترول ، وأشعلن فيه النار . . وتحررت المرأة ! ! ! [٤] .

ويعجب الإنسان الآن للمسرحية وخلوها من المنطق . .

فما علاقة المظاهرة القائمة للاحتجاج على وجود الاحتلال الإنجليزى ، والمطالبة بالجلاء عن مصر . . ما علاقة هذا بخلع الحجاب وإشعال النار فيه ؟ !

هل الإنجليز هم الذين فرضوا الحجاب على المرأة المصرية المسلمة من باب العسف والظلم ، فجاء النسوة يعلنّ احتجاجهن على وجود الإنجليز فى مصر ، ويخلعن فى الوقت ذاته ما فرضه عليهن الإنجليز من الحجاب؟ !

هل كان الإنجليز هم الذين ألبسوا المرأة الحجاب ما يزيد على ثلاثة عشر قرنا كاملة

---

(١) سنتحدث عن الثورة المصرية فى فقرة تالية .

(٢) كانت جادة وإن شابها الانحراف الذى سنتحدث عنه فيما بعد .

(٣) اسمها الحقيقى صفية مصطفى فهمى . ولكنها سميت صفية زغلول باسم زوجها سعد زغلول على طريقة الأوربيين فى إلحاق الزوجات بأسماء أزواجهن ، تأثرا بالغزو الفكرى وعملية التغريب . . ولكن «الجماهير» لم تفطن لذلك ولم تستنكره !

(٤) سمى ميدان الإسماعيلية الذى تحللت فيه المرأة من حجابها الإسلامى ميدان « التحرير» «تخليدا» لهذه الذكرى العظيمة !

قبل ذلك؟! أو كانوا هم الذين سلبوا المرأة «حق» السفور منذ ذلك الزمن السحيق . . فجئن اليوم « يتحررن» من ظلمهم ، ويلقين الحجاب فى وجههم تحديا ونكاية فيهم؟!

ما المنطق فى المسرحية؟!

لا منطق فى الحقيقة!

ولكن التجارب التالية علمتنا أن هذا المنطق الذى لا منطق فيه ، هو الطريقة المثلى لمحاربة الإسلام .

إن الذى يقوم بعمل من أعمال التخريب والتحطيم ضد الإسلام ينبغى أن يكون «بطلا» لتتدارى فى ظل « البطولة» أعمال التخريب والتحطيم!

كمال أتاتورك . . جمال عبد الناصر . . أحمد بن بيلا . . وعشرات غيرهم من «الأبطال » الذين حاربوا الإسلام بوسيلة من الوسائل . . كلهم ينبغى أن يكونوا «أبطالا» وقت قيامهم بمحاربة الإسلام ، وإلا انكشفت اللعبة من ورائهم ، وانكشفت عمالتهم لأعداء الإسلام من الصليبيين واليهود . .

كمال أتاتورك الذى أطاح بالخلافة ، وأراد أن يقطع ما بين الأتراك وبين إسلامهم ، فمنع الأذان باللغة العربية ، وكتب اللغة التركية بالحروف اللاتينية وأمر بخلع الحجاب وذبح عددا من علماء المسلمين . . كان « بطلا» صنعت له البطولات المسرحية الزائفة لتخفى يده التى تقطر بدماء المسلمين ، وتخفى جريمته الكبرى فى حرب الإسلام .

جمال عبد الناصر الذى ذبح قادة الدعوة الإسلامية فى مصر ، وأنشأ للتنكيل بهم فى سجون مصر ألوانا من التعذيب الوحشى لا مثيل لها فى تاريخ البشرية كله ، إلا فى محاكم التفتيش التى أقامها الصليبيون فى الأندلس للقضاء على الإسلام . . وألغى المحاكم الشرعية وهمّ بإلغاء الأزهر . . وأضاف جرعات جديدة « لتحرير المرأة» . . كان « بطلا» . . أضفيت عليه البطولات المصطنعة لإخفاء الجريمة الهائلة التى ارتكبها ضد الإسلام . .

أحمد بن بيلا الذى جاء ليسرق الثورة الإسلامية ، ويحولها إلى ثورة اشتراكية بعيدة عن الإسلام مناوئة له ، والذى دعا المرأة الجزائرية إلى خلع الحجاب بحجة عجيبة حين قال : إن المرأة الجزائرية قد امتنعت عن خلع الحجاب فى الماضى لأن فرنسا هى التى

كانت تدعوها إلى ذلك ![1] أما اليوم فإنى أطالب المرأة الجزائرية بخلع الحجاب من أجل الجزائر . . ! أحمد بن بيلا - يوم أن دعا تلك الدعوة - كان « بطلا » ! أضفيت عليه البطولة المصطنعة بخطفه من الطائرة وهو متوجه من فرنسا إلى الجزائر . . حتى إذا نضجت اللعبة . . لعبة « البطولة » . . أطلق سراحه ليقوم بعمله ضد الإسلام . . [2] .

وعلى هذا الضوء نفهم مظاهرة النسوة فى ميدان الإسماعيلية بالقاهرة سنة ١٩١٩ .

لابد من بطولة تُضْفى على كل عمل من أعمال التخريب ضد الإسلام ، لتخفى ما وراءه من تدبير . . [3] .

وأى بطولة للنسوة يومئذ أكبر من أن يقفن أمام قوى الاحتلال ، يهتفن ضدها ، ويفتحن صدورهن للرصاص . . ؟!

يقول حافظ إبراهيم فى شأن هذه المظاهرة :

خرج الغوانى يحتججن ورحت أرقب جمعهنّهْ
فإذا بهن تَخِذْنَ من سود الثياب شعارهنّهْ
فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدّجُنّهْ
وأخذن يجتزن الطريق ودار سعد قصدهنّهْ
يمشين فى كنف الوقار وقد أبنّ شعور هنّهْ
وإذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنّهْ
وإذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنّهْ
وإذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنّهْ

---

(١) هنا كشف بن بيلا القناع عن الحقيقة - بلا قصد منه - حين صرح بأن قوى الاستعمار الصليبى هى التى تدعو إلى السفور وخلع الحجاب !

(٢) يقال إنه - فى محبسه - حين عزل عن الحكم ونفى من الأرض قد عاد إلى الإسلام وأخذ يدعو إليه . ولسنا نكره للناس الهدى . ولكنه فى فترة سلطانه كان مناوئا صريحا للإسلام .

(٣) لسنا ندرى بالضبط من هو صاحب التدبير فى خلع الحجاب فى أثناء المظاهرة وإحراقه ، ولكن مجريات الأمور تدل على أن سعد زغلول - الصديق الحميم لقاسم أمين ، الذى شجعه على المضى فى الطريق ، ووعده بحمايته - كان يبارك تلك الخطوات ، ويضع زوجته على رأسها . وسيأتى الكلام عن دور سعد فى تحويل الثورة من ثورة إسلامية إلى ثورة وطنية مبتعدة عن الإسلام .

والخـيل والفـرسـان قـد ضـربت نطاقـاً حـولهنّهْ
والـورد والـريحـان فـى ذاك النهـار سـلاحـهنّهْ
فـتطاحـن الجـيشـان سـاعـات تشـيب لهـا الأجنّهْ
فـتـضـعـضـع النسـوان والنسـوان ليس لهن مُنّهْ[1]
ثم انهـزمن مـشـتـتـات الشـمل نحـو قـصـورهنّهْ

وتدريجيا . . فى ظل البطولة المدوية . . سقط الحجاب!

وأصبح من المناظر المألوفة فى العاصمة أولا ، ثم فى المدن الأخرى بعد ذلك ، أن ترى الأمهات متحجبات ، والبنات سافرات ، وكانت الأداة العظمى فى عملية التحويل هذه هى التعليم من جهة ، والصحافة من جهة أخرى .

فأما التعليم فقد اقتضى معركة طويلة حتى تقرر . . على المستوى الابتدائى أولا ثم المستوى الثانوى ثم فى المرحلة الجامعية .

واستفاد أعداء الإسلام فائدة عظمى من الوضع الجاهلى الذى كان يسود المجتمع الإسلامى تجاه المرأة وتعليمها ، فأثاروها قضية ، ودقوا دقا عنيفا على الأوضاع الظالمة لينفذوا منها إلى ما يريدون .

ولسنا الآن فى مجال تحديد المسئوليات ، إنما نحن نتابع خطى التاريخ .

وإلا فقد كان المسلمون على خطأ بيّن وظلم بين للمرأة حين منعوا تعليمها كما أمرهم رسول الله ﷺ أن يعلموها ، وحين أهانوها وحقروها فى ذات الأمر الذى كرّمها الله به ورفعها ، وهو الأمومة وتنشئة الأجيال .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين، أن اشكر لى ولوالديك ، إلىّ المصير﴾ [2] .

« من أولى الناس بحسن صحابتى؟ قال : أمك . قال ثم من؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك»[3] .

ولكن الذين استغلوا هذا الوضع ليطلقوا دعوتهم لم يكن همهم الحقيقى رفع الظلم

---

(١) منّة أى قوة . (٢) سورة لقمان [١٤] .
(٣) متفق عليه .

عن المرأة، إنما كان رائدهم الأول هو تحطيم الإسلام، وإخراج المرأة فتنة متبرجة فى الطريق لإفساد المجتمع الإسلامى . . ولم تكن الفوضى الخلقية التى عمّت المجتمع فيما بعد مفاجئة لهم، ولا شيئا مستنكرا من جانبهم يشعرهم بالندم على ما قدمت أيديهم . . بل كانت شيئا محسوبا ومتوقعا ومرغوبا بالنسبة إليهم، وقد كانوا يرون تجربة الغرب ماثلة أمام أعينهم، ويعرفون ما يئول إليه الأمر فى المجتمع المسلم حين يتجه ذات الوجهة، ويسير على ذات الخطوات . .

ولا ينفى هذا بطبيعة الحال وجود مخدوعين مستغفلين يتلقفون الدعوة بإخلاص . . ولكنه إخلاص لا ينفى الغفلة! وهم ـ بغفلتهم ـ أدوات معينة للشياطين، يستغلون موقفهم لتقوية دعوتهم، لأن الناس ترى إخلاصهم فتظن أنهم على خير فيتبعونهم، فيتم ما أراد الشياطين!

وقد كان هناك بديل ثالث للمصلح المخلص ، الذى يريد الله ورسوله ، ويريد تصحيح الأوضاع فى المجتمع المنحرف، ورفع الظلم عن المظلومين، وهو الدعوة ـ والجهاد ـ لإعادة المجتمع الإسلامى إلى صورته الصحيحة التى ينبغى أن يكون عليها . ولكن أحداً من « المصلحين» القائمين يومئذ لم يدع إلى ذلك البديل الثالث. وظل الخيار المعروض دائما هو إما الإبقاء على الأوضاع السيئة المتخلفة الجامدة الظالمة، وإما محو الإسلام ونبذه والانسلاخ منه، والاتجاه إلى أوربا من أجل التقدم والتحضر والرقى . . بل إنه حين جاءت الدعوة إلى البديل الثالث فى موعدها المقدور عند الله، وجدت أبشع الاضطهاد والتنكيل من الحكام، ووجدت الإعراض العنيف والمعارضة من « المصلحين!» ، مما يكشف عن الاتجاه الحقيقى لحركات « الإصلاح» التى أقيمت فى المجتمع الإسلامى، وأن هدفها لم يكن الإصلاح حقا، بقدرما كان هوتحطيم الإسلام أولا . . وليكن بعد ذلك ما يكون!

سقط الحجاب تدريجيا عن طريق « بنات المدارس» !

أو لم تقرر المؤتمرات التبشيرية فى مخططاتها ضد الإسلام ضرورة العمل على تعليم المرأة المسلمة وتحريرها؟!

وفى مبدأ الأمر لم يكن التبرج والتهتك هو طابع بنات المدارس ، بل لم يكن مقبولا أصلا فى المدارس !

والحكمة فى ذلك واضحة بطبيعة الحال ! فلا المجتمع فى ذلك الوقت كان يسمح ،

ولا كشف الخطة كاملة منذ اللحظة الأولى كان يمكن من تنفيذها ، بل كان قمينا بالقضاء عليها فى مهدها !

لو خرجت بنات المدارس عن تقاليد المجتمع المسلم دفعة واحدة ومن أول لحظة ، هل كان يمكن أن يقبل أحد من أولياء الأمور أن يرسل بنته إلى المدرسة لتتعلم ؟ !

كلا بالطبع ! إنما لابد من طمأنة أولياء الأمور تماما ، حتى يسمحوا بإرسال بناتهم إلى المدارس . ولتكن الخطة على الأسلوب المتبع فى عملية التحويل كلها : « بطئ ولكنه أكيد المفعول » ! « منعا لإثارة الشكوك » !

بالتدريج . .

الشعر فى مبدأ الأمر مغطى بقبعة . . وتتدلى من الخلف ضفيرتان تربطهما شريطة من القماش . الضفيرتان مكشوفتان أما الرأس فتخفيه القبعة ! والوجه سافر . . نعم . . ولكن . . صغيرات يا أخى ! لا بأس !

ولم يمر الأمر فى الحقيقة بسهولة . . ولكنه مر فى النهاية ! كما مرت كل الخطوات التالية حتى كشف الصدر والظهر والساقين والذراعين والعرى على الشواطئ والتهتك فى الطرقات . .

كيف مرّ ؟ !

إن لهذا الأمر دلالاته ولا شك . . نعم ، كانت هناك جهود شيطانية لإفساد المجتمع المصرى بالذات ، لتصدير الفساد منه إلى بقية المجتمع الإسلامى كما مر القول ، وشاركت فى هذه الجهود كل الوسائل الممكنة من صحافة وإذاعة وسينما ومسرح . . إلخ ، وكان التركيز عنيفا والوسائل فعالة . . ولكن هل يكفى ذلك كله لتفسير ما حدث؟ !

لبيان ذلك نقول : إن كل هذه الوسائل ما تزال مستخدمة حتى هذه اللحظة ، وبعنف أشد مما كان قبل خمسين عاما دون شك ، وقد أحدثت هذه الوسائل فى خلال ما يزيد على نصف قرن تيارا هائلا نافرا من الإسلام منسلخا منه . . ومع ذلك توجد اليوم فتيات محجبات ، جامعيات مثقفات ، لا يتنازلن عن حجابهن ولو دخلن من أجله السجون والمعتقلات .

فما الفرق ؟ !

بعبارة أخرى نسأل : هل كان الحجاب الذى سقط عقيدة أم تقاليد ؟ !

والأخلاق التى سقطت . . هل كانت ذات رصيد إيمانى حقيقى أم كانت تقاليد ؟ !

والرجل الذى ثار يوم كشفت « بنات المدارس » عن وجوههن . . هل ثار للعقيدة ، أم ثار للتقاليد ؟ !

والرجل الذى ثار يوم نزلت المرأة إلى الشارع لتعمل . . هل كانت ثورته نابعة من عقيدة حقيقية ، دينية او غير دينية ، أم كانت « عنجهية » الرجل هى المحرك ، والمحافظة عليها هى الدافع إلى الثورة ؟

حين يكون الحجاب عقيدة فإنه لا يسقط . . مهما سلط عليه من أدوات التحطيم .

وحين تكون الأخلاق ذات رصيد إيمانى حقيقى ، فليس من السهل أن تسقط - ولو سلطت عليها عوامل الإفساد - إلا بعد مقاومة شديدة وزمن مديد . .

أما التقاليد الخاوية من الروح . . وأما العنجهية الفارغة . . فهى عرضة للسقوط إذا اشتد عليها الضغط ، وقد كان الضغط عنيفا بالفعل ، بل كان شيطانيا بكل ما تحمله الكلمة من معان !

* * *

بدأت بنات المدارس يكشفن عن وجوههن ويسرن فى الطريق على النحو الذى وصفناه ، ولكن فى ملابس طويلة تغطى الذراعين جميعا وتصل إلى القدمين ، وفى أدب ظاهر و « استقامة » كاملة . .

وهل كن يملكن غير ذلك ؟ !

إن الفتاة التى يحدثها شيطانها أن تلتفت فقط - يمنة أويسرة - تضيع ! تسقط فى نظر المجتمع ، وتكون عبرة لمن يعتبر ! فمن التى فى مبدأ الأمر تلتفت يمنة أويسرة ؟!

إنما هو الأدب الكامل والانضباط الشديد !

وحين افتتحت أول مدرسة ثانوية للبنات فى القاهرة . . « مدرسة السنية » . . كانت ناظرتها انجليزية . . وكانت « قمة » فى المحافظة إلى حد التزمت ! فهكذا ينبغى أن تكون الأمور فى مبدأ الأمر !! حتى يكتب لهذه الخطوة الثبات فى الأرض والتمكين ، ويمكن مدها فيما بعد إلى آفاق جديدة ! أما لو كشف المستور من أول لحظة فلن تدخل فتاة واحدة المدرسة الثانوية ، ويبوء المخطط كله بالخسران!

كانت هيئة التدريس نسوية خالصة ، فيما عدا مدرس اللغة العربية لتعذر وجود مدرسات للغة العربية يومئذ. ولكنه كان يختار من الرجال المتقدمين فى السن، المتزوجين، المشهود لهم حقا بالصلاح والتقوى، فهو بالفعل أب يرعى بناته، ويشعرن نحوه بما تشعر به الفتاة نحو أبيها الوقور، فتقدم له الاحترام والتوقير.

وليس فى المدرسة كلها رجل آخر إلا كاتب المدرسة، وهو منعزل عن المدرسة كلها فى مكتب خاص لمقابلة أولياء الأمور، والقيام بالأمور الكتابية والحسابية للمدرسة، وحارس الباب، وهو كذلك رجل وقور متقدم فى العمر تقول له البنات « ياعم! » إذا حدث على الإطلاق أن وجهن له الكلام!

وكانت الفتيات يحضرن إلى المدرسة فى عربات مغطاة بالستائر، ويعدن إلى بيوتهن بنفس الوسيلة. فأما إن كان أهل الفتاة لا يريدون أن يتحملوا نفقات العربة، فيأتى معها ولى أمرها يسلمها إلى المدرسة صباحا ويتسلمها فى نهاية اليوم المدرسى، لكى لا يتركها تسير وحدها فى الطريق.

أى شئ يريد الآباء أكثر من ذلك ؟!

بل إن « حضرة الناظرة» لهى أشد فى تأديب البنات من أولياء أمورهن! إنجليزية ياأخى ! الإنجليز حازمون فى التربية! قل ما تشاء فيهم، ولكن فى التربية . . !

وكانت المناهج فى مدارس البنات رجالية فى الحقيقة لأمر يراد فيما بعد . . ولكنها بعد مغطاة . . فالفتاة تدرس نفس المناهج المقررة فى المدارس الثانوية للبنين، ولكنها تدرس إلى جانبها مواد « نسوية» كالتدبير المنزلى ورعاية النشء . . وذلك للإيهام بأن المقصود من التعليم فى هذه المدارس هو إعداد الفتاة لحياة الأسرة التى تنتظرها. إذ كانت أشد نقط المعارضة فى تعليم البنات بعد المرحلة الابتدائية أن الدراسة الثانوية ستعطل الفتاة عن الزواج - وهى فى سن الزواج - وتبعدها عن جو البيت الذى خلقت له، والذى ستقضى بقية حياتها فيه . .

فأما تعطيل الفتاة عن الزواج فقد واجهه أصحاب « القضية» بالمطالبة بإرجاء سن الزواج، وتحريم الزواج قبل سن السادسة عشرة (وصدر تشريع بذلك) ومحاولة تزيين هذا التأخير بمختلف الحجج، حتى صار أمرا واقعا فيما بعد، لا عند السادسة عشرة، بل عند الثلاثين وما بعدها فى بعض الأحيان!

وأمَّا إبعاد البنت عن جو البيت فقد واجهه أصحاب القضية بتلك الدروس المتناثرة

فى التدبير المنزلى ورعاية النشء، وفى مقابلها تزاد سنوات الدراسة الثانوية للبنات، فتصبح ست سنوات بدلا من خمس للبنين . .

حتى إذا هدأت ثورة المعارضين، وصار التعليم الثانوى للبنات أمرا واقعا بعد المعارضة العنيدة التى كانت من قبل، أخذت هذه الدروس النسوية تتضاءل ، حتى محيت فى نهاية الأمر ، وأصبح المنهج رجاليا خالصا فى مدارس البنات . . وألغيت السنة السادسة، وأصبحت الفتاة تتخرج بعد خمس سنوات على ذات المناهج التى يتخرج عليها الفتى . . لتصبح للفتاة قضية جديدة . . قضية الدخول إلى الجامعة !

ولكن . . لا نسبق خطى التاريخ !

* * *

تعددت مدارس البنات الثانوية فى القاهرة ثم فى الإسكندرية ثم فى غيرها من المدن . . وخفت قبضة الناظرة الإنجليزية فلم يعد يهمها إلا «النظام» الصارم فى داخل المدرسة . أما «أخلاق» البنات فلم تعد تعيرها اهتماما كما كانت من قبل . وجاءت بعدها ناظرات مصريات، أقل انضباطا من ناحية النظام، وأقل اهتماما بقضايا الأخلاق . .

وسارت الأمور فترة من الزمن سيرها الرتيب، وكثر الإقبال على مدارس البنات حتى ضاقت بهن، فقامت إلى جانبها مدارس أهلية تسير على ذات المنهج، وتحقق ذات الأهداف . . واطمأن الناس اليوم على بناتهم فلم يعودوا يصحبونهن فى الذهاب والإياب . . وأصبحت أفواج البنات تذهب فى الطرقات وحدها وتجىء . .

ولكن . . هل كان يمكن أن تستمر الأمور فى داخل هذا النطاق المحدود؟!

يوجد دائما فى كل مجتمع فتاة « جريئة» وفتى « جرىء»! [1] يخرجون على تقاليد المجتمع ويتحللون منها . .

وفى المجتمعات المتماسكة يكون نصيب هؤلاء هو الردع الفورى، الذى يمنع العدوى، ويقضى على الجرثومة قبل أن يستفحل أمرها . أما فى المجتمعات المفككة فلا يحدث الردع المطلوب، أو لا يحدث بالقوة الحاسمة التى تؤتى أثرها، فتظل الجرثومة باقية، وتظل تنتشر حتى يحدث الوباء .

---

(١) أقيمت فى شواطئ الإسكندرية (ونشرتها الصحف!) مسابقة بعنوان « أبو عيون جريئة» ! يكون الفائز فيها هو أوقح الشبان وأقلهم حياء وأدبا !

لذلك مدح الله خير أمة أخرجت للناس بقوله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [1] .

ولعن شر أمة أخرجت للناس بقوله تعالى : ﴿ لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه. لبئس ماكانوا يفعلون﴾ [2] .

وفى المجتمعات التى تتحول فيها القيم والأخلاق إلى « تقاليد » خاوية من الروح ، يحدث الإنكار ويحدث الاحتجاج ، ولكن لا يحدث الردع الحاسم الذى يقتل الجرثومة قبل أن تستفحل ، فتبقى ، ثم تنتشر فى خطى بطيئة ولكنها أكيدة المفعول !

وهذا هو الذى حدث فى المجتمع المصرى أمام الغزو الفكرى الصليبى فى القرن الرابع عشر الهجرى ، وفى المجتمع الإسلامى كله . . كانت هناك بقايا قيم وبقايا دين . . ولكنها كانت تقاليد خاوية من الروح ، فلم تستطع أن تصمد طويلا أمام الغزو الكاسح ، الذى يزين الفساد للناس باسم الرقى والحضارة والتقدم و« التحرر» من الرجعية والتحرر من الجمود .

بدأت أول فتاة « جريئة» تلتفت برأسها حين يلقى إليها الفتى « الجرىء» بألفاظ الغزل المستور أو المكشوف . .

وتسقط الفتاة الجريئة فى نظر المجتمع من أجل هذه الالتفاتة ، وتعتبر فتاة فاسدة الأخلاق ، ولكنها لا تردع ! ولا يردع الفتى الجرىء الذى ألقى بألفاظ الغزل على قارعة الطريق . . فيتكرر النموذج من هنا ومن هناك . . وتتبلد أعصاب الناس على المنظر المكرر . . وتصبح ظاهرة « معاكسة» «بنات المدارس» ظاهرة مألوفة فى المجتمع المصرى ، لا يتحرك لها أحد بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . ويفرح الشياطين !

ورويدا رويدا تتغير ملابس بنات المدارس !

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

(٢) سورة المائدة [٧٨-٧٩] .

تقصر « المريلة » قليلا . . هل هناك مانع ؟! الجورب يغطى ما كشفته « المريلة» فماذا يحدث ؟!

ويقصر الكم قليلا . . هل هناك مانع؟! سنتيمترات قليلة لا تقدم ولا تؤخر . . ماذا يحدث؟! هل تخرب الدنيا إذا قصرت الأكمام قليلا أو قصر « الذيل» ! لا تحبّكوها أيها المتزمتون !

وتتبلد الأعصاب على المنظر المكرور، فتقصر الأكمام بضعة سنتيمترات أخرى أو يقصر الذيل، أو يقصر الجورب . . وينكشف من المرأة ما أمر الله بستره بنفس المقدار !

أفٍّ لكم أيها المتزمتون ! تفتشون تذكرون الأخلاق وتنادون بالويل والثبور ! ماذا حدث للأخلاق حين تراجعت الملابس بضعة سنتيمترات؟ هل تقاس الأخلاق بالسنتيمتر أيها الجامدون ؟ الأخلاق قيم (!!) . . والقيم محلها القلب (!!) ما دامت الفتاة « مقتنعة» بالقيم فى داخل نفسها فلن تفسد ولو سارت عارية فى الطريق!

وحين تكثر الفتيات فى الشوارع، حاسرات مقصرات، سواء من بنات المدارس الثانوية أومدارس المعلمات، أو من خريجات المدارس الأخيرة اللواتى صرن معلمات، وصارت لهن رواتب خاصة يستطعن الإنفاق منها على حوائجهن . . عند ذلك تبدأ « المودات» فى الظهور . . وتصبح هناك صحافة نسوية تتخصص فى عرض «المودات» أو ركن فى المجلات والصحف العامة يسمى « ركن المرأة» يقدم النصائح ويقدم « المودات» . .

فأما النصائح فتبدأ فى غاية « العفة» وفى غاية الاتزان!

كيف تحافظين على محبة زوجك؟!

وهل يكره الإسلام أن تتحبب المرأة إلى زوجها وتتجمل له وتتزين؟!

نحن فقط نقدم النصيحة مصورة ! لأننا فى زمن الصحافة المصورة التى توضح كل شيء بالرسم !!

وحين تستقر هذه الخطوة نتقدم خطوة أخرى إلى « الأمام»! تمهيدا « لتحرير » المرأة من قيد آخر من قيود الدين والأخلاق والتقاليد !

لقد كان الزوج فى المرحلة الأولى هو « المحلل» . . وانتهت مهمته، فلنكن الآن صرحاء!

كيف تجذبين انتباه الرجل ؟!

نعم ! وماذا فيها ؟!

ألا تتزين إلا المرأة المتزوجة ؟! وماذا تفعل الفتاة التى تبحث عن الزوج؟! ألا تتزين ليقع فى شباكها « ابن الحلال»؟!

فإن لم يقع « ابن الحلال » فمزيدا من التزين . .

هذا فستان يكشف « مفاتن الصدر» وهذا يكشف « مفاتن الظهر» وهذا يكشف «مفاتن الساقين» ! [1] .

وتتطور « المودة» العالمية وتتطور، حتى تكشف مفاتن الجسم كله بجميع أجزائه، وتتبعها الصحافة المصرية شبرا بشبر وذراعا بذراع . . « حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه»! [2] .

* * *

وجاء دور الجامعة . .

كنتم أيها المتزمتون تعارضون فى تعليم المرأة حتى فى المرحلة الابتدائية! وكنتم تقولون إنها لا تصلح إلا للبيت، وليست لديها القدرة على التعليم . . واليوم تتحداكم الفتاة المتعلمة ! هاهى ذى قد تعلمت على ذات المناهج التى يتعلم عليها الفتى [3]، ووصلت إلى المرحلة الثانوية . وهى لم تلحق به فحسب، بل تفوقت عليه فى كثير من الأحيان! [4] .

والآن صار من حقها أن تدخل الجامعة . . فماذا أنتم قائلون أيها الرجعيون!

---

(١) هذه العبارات وردت بنصها فى مجلات « المودة» وفى «ركن المرأة» فى المجلات التى تخصص ركنا للمرأة.

(٢) قال رسول الله ﷺ : « لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى إن دخلوا جحر ضب دخلتموه. قالوا من يارسول الله ؟ قال : اليهود والنصارى » أخرجه الشيخان .

(٣) هذه هى « حكمة» تعليم الفتاة على منهج الفتيان، ليصبح هناك وجه لقضية « المساواة» بين الجنسين، التى تصل فى النهاية إلى المساواة فى « حق» الفساد! وهناك حكمة أخرى لا تقل عنها حكمة هى إلغاء « قوامة» الرجل على المرأة أو خلخلة أساسها على الأقل بعد أن « يتساويا» فى نوع التعليم !

(٢) كان هذا التفوق يحدث بالفعل لأن الأولاد ينشغلون بالشارع والنادى والمقهى ورفقة الأصحاب، بينما البنات فى البيوت متفرغات لمراجعة الدروس، فضلا عن روح التحدى التى تحفز المرأة لتحدى الرجل .

ودارت معركة طويلة بين المدافعين والمعارضين كتلك التى قامت فى أوربا من قبل . . [1] .

وقال المدافعون : إنه نفس الدور ! إن المرأة قضيتها واحدة فى كل بلاد العالم . وستسير فى نفس الخطوات . ونتيجتها فى النهاية واحدة . هى النتيجة التى وصلت إليها أوربا ، التى سبقت العالم كله بقرن من الزمن أو أكثر ، وخاضت المرأة فيها ذات المعركة ، وخرجت منها منتصرة فى النهاية . .

وفى ظاهر الأمر كان الذى يقوله المدافعون أمراً واقعا فى كثير من بلاد الأرض . ولكنهم كانوا غافلين عن أمور . .

كانوا غافلين أولا عن أن القضية لم تأخذ شكلا واحدا فى كل الأرض بسبب طبيعتها الخاصة كما توهموا ، ولكن لأن الأجهزة العالمية التى تدير القضية لحسابها الخاص قد جعلتها تأخذ هذه الصورة لأمر تريده [2] .

وكانوا غافلين ثانيا عن أن قضية المرأة المسلمة ليست هى قضية « أختها » الأوربية ! «فأختها» الأوربية ـ ولا أخوّة فى الحقيقة لأن المسلمة لا تؤاخى المشركة ـ قد صارت لها قضية لأنه ليس لمجتمعها منهج ربانى يسير عليه ، إنما يشرع فيه البشر لأنفسهم ، فيظلمون أنفسهم ويظلمون غيرهم . وقد وقع الظلم هناك من تشريع ـ أو عرف ـ وضعه البشر ، ثم اختاروا ـ أو اختار لهم الشياطين فى الحقيقة ـ حلا ساروا فيه حتى أوصلهم فى النهاية إلى الخبال ، من تفكك الأسرة ، وتحلل المجتمع ، وشقاء الرجل والمرأة كليهما ، وتشرد الأطفال ، وجنوح الأحداث ، وانتشار الشذوذ ، والأمراض النفسية والعصبية والقلق والجنون والانتحار والخمر والمخدرات والجريمة . .

أما المرأة المسلمة فقضيتها أن الظلم قد وقع عليها من مخالفة المنهج الربانى الذى التزم به مجتمعها عقيدة ولم يلتزم به عملا ، وارتد فى هذه النقطة بالذات إلى أعراف الجاهلية الفاسدة .

وقد يكون الظلم واحدا أو متشابها ، ولكن العلاج يختلف لاختلاف الأسباب . فعلاج القضية بالنسب للمرأة المسلمة هو الرجوع إلى المنهج الربانى الصحيح والالتزام

---

(١) تحدثت عن هذه المعركة فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة» .

(٢) راجع إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

به عقيدة وعملا . وليس علاجه هو اتباع الخطوات التى سارت فيها القضية فى الغرب، فخرجت من تخبط إلى تخبط وما تزال . .

وحقيقة إن المنهج الربانى هو العلاج لكل مشكلات البشرية، ولو آمنت به أوربا ونفذته لحلت كل مشكلاتها . ولكن الذين ينفذونه بالفعل - أو المفروض أن ينفذوه - هم الذين التزموا به فعلا - أى المسلمون - فإذا حادوا عنه فإن مهمة « المصلحين» هى تذكيرهم به ، ودعوتهم إلى العودة إليه ليطبقوه فى عالم الواقع ، فتنحل مشاكلهم وينصلح حالهم. أما اتباع أوربا، وسير المرأة المسلمة فى ذات الخطوات التى سارت فيها « أختها» الأوربية فلن يحل مشكلتها، كما لم يحل مشكلة « أختها» ، وسيصل بها وبمجتمعها - وقد وصل بالفعل - إلى ذات المصير البائس الذى وصل إليه مجتمع «أختها» من قبل .

ولكن المدافعين يومئذ لم يكونوا يفقهون شيئا من ذلك كله . . وهم يومئذ أحد فريقين : فريق يعلم جيدا أن الطريق الذى تسير فيه « القضية» سيؤدى إلى انحلال أخلاق المجتمع وتفككه كما حدث فى أوربا، وهو يريد ذلك ويسعى إليه جاهدا لأنه من ﴿ **الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا**﴾ (١) .

وفريق آخر مخدوع مستغفل لأنه مستعبد للغرب، لا يرى إلا ما يراه الغرب، ويظن - فى غفلته وعبوديته - أن سيده دائما على صواب !

وهذا وذاك معاً مسخران لخدمة الصليبية فى المجتمع الإسلامى (٢)، وخدمة اليهودية العالمية كذلك (٣) .

وقال هذا وذاك إن « قضية المرأة» تستلزم أن تدخل الفتاة الجامعة لتؤدى « رسالتها» على الوجه الأكمل!

وقضية التعليم - الجامعى أو غير الجامعى - ليست هى القضية بالنسبة للمرأة المسلمة، فلن يمنعها الإسلام من طلب العلم، وهو الذى يدعوها إليه بل يفرضه عليها .

---

(١) قال تعالى : ﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة﴾ [سورة النور : ١٩] .

(٢) إلا أن يكون هو ذاته صليبيا كسلامة موسى فهو يشارك فى تنفيذ المخطط الصليبى مدفوعا بصليبيته الذاتية .

(٣) كان لليهودية مشاركة ضخمة فى تحطيم الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى، لأهداف عدة من بينها إنشاء الدولة اليهودية فى الأرض الإسلامية .

ولكن الإسلام يشترط وفى تعليمها ـ وفى نشاطها كله ـ شرطين اثنين : أن تحافظ على دينها وأخلاقها ، وأن تحافظ على وظيفتها الأولى التى خلقها الله من أجلها ، وهى رعاية الأسرة وتنشئة الأجيال . وفى حدود هذين الشرطين تتحرك حركتها كلها ، وهى حدود واسعة سَلْ عنها الصحابيات الجليلات رضوان الله عليهن .

ولكن عبّاد الغرب وشياطينه لم يكونوا يريدون شيئا من ذلك بطبيعة الحال وهم يطالبون للفتاة المسلمة بالتعليم الجامعى وما تبع ذلك من « قضايا » !

فأما الشياطين فإنهم ما جاءوا يبتغون الإصلاح . . إنما جاءوا للتخريب بادئ ذى بدء .

وأما العبّاد فليس لهم إلا طريق واحد ، لا يرون غيره ، ولا يستطيعون رؤية غيره ، لأنهم عبيد . والعبد لا يرى إلا ما يراه سيده له ، بل يعتقد فى دخيلة نفسه أن مجرد اتجاه فكره إلى شئ غير ما يراه السيد هو إثم غير مغفور !

* * *

دارت المعركة ، وطالب المدافعون عن قضية المرأة أن يسمح لها بدخول الجامعة أسوة بالرجل ومساواةً له .

وقال المعارضون إن الفتاة لا تصلح للتعليم الجامعى أصلاً لأنه لا يناسب طبيعتها ، وسيؤثر على أنوثتها ، فضلا عن أنه سيشغلها عن الزواج ويعطلها عنه عدة سنوات ، وسيصرفها عن الأسرة والبيت ـ مهمتها الأصلية ـ وفوق ذلك كله فهناك مشكلة الاختلاط الذى لابد أن يحدث فى الجامعة ، وهو أمر يخالف الدين والأخلاق والتقاليد[1] .

واستغرقت المعركة ردحا من الزمن غير قليل . وتقاذف الفريقان الاتهامات الحادة ، وضاعت حقائق كثيرة فى وسط المعركة كانت على الأقل تستحق دراسة مستأنية ليتخذ فيها القرار على بصيرة .

فأما المدافعون فالمسألة عندهم منتهية لا حاجة فيها إلى التوقف والدرس . فهم مدفوعون دفعا ـ بوعى منهم أو بغير وعى ـ إلى تخريب المجتمع الإسلامى وتدميره ، بل مدفوعون دفعا إلى استخدام « قضية المرأة » بالذات لإحداث هذا التدمير .

وأما المعارضون فمن أى منطلق ينطلقون ؟

---

(١) لم يفكر أحد فى إقامة جامعة نسوية خاصة !

كـان ظاهر الأمر أنهم ينطلقون من منطلق إسلامى . . وقد كثر فى كلامهم بالفعل ذكر الدين والأخلاق والتقاليد . . ولكن هل كانوا على وعى حقيقى بالإسلام ؟

لقد كان وعيهم به ضئيلا فى الحقيقة . . وكان إخلاصهم للتقاليد أعمق فى حسهم من الإخلاص للدين ! أو قل : إن التقاليد التى كانوا يحرصون عليها ويدافعون عنها كانت مختلطة فى حسهم بالدين، ومن ثم كان يختلط عليهم الإخلاص للتقاليد بالإخلاص للدين !

ولكنها لم تكن فى الحقيقة تقاليد إسلامية . . إنما كانت تقاليد جاهلية ارتدت إليها الأمة المسلمة فى فترة تخلفها العقدى، ثم اختلطت فى حسها بالإسلام، وظن المدافعون عنها بإخلاص أنهم يدافعون عن الدين !

وكانت عنجهية الرجل ولاشك عنصرا من عناصر القضية . .

كان يحب أن يتميز وينفرد بأشياء ، سواء كانت مما ميزه الله به حقيقة أو مما ميزته به الجاهلية، ويختلط الأمران معا فى حسه ، فيعتقد أنهما ـ كليهما ـ من صميم الدين ، وأنه حين يدافع عن مركزه المتميز، ويدفع المرأة عن اللحاق به ، إنما يدافع عن الدين !

ولم يفت المدافعين عن « قضية المرأة» أن يستغلوا نقطة الضعف هذه فى موقف المعارضين، وأن يستغلوها إلى آخر المدى . . فدعوا إلى إخراج الدين كله من القضية ، والحديث عنها على أنها قضية تقاليد . . وحين تكون على هذه الصورة، فهى إذن تقاليد عتيقة بالية ، وينبغى أن تحطم ويستبدل بها تقاليد جديدة . . عصرية تقدمية متطورة .

وبطبيعة الحال لم يرض المتدينون والحريصون على الأخلاق عن حصر القضية فى محيط التقاليد وإخراجها من دائرة الدين ، كما كان أعداؤهم يدعونهم كلما احتدمت المعركة بقولهم: لا تزجوا بالدين فى كل الأمور ! فالدين لا علاقة له بهذه الأمور ! !

ولكنهم فى النهاية انهزموا وتراجعوا . . ثم صمتوا . . وتقرر الأمر الذى خطط له المخططون، فأصبح « أمرا واقعا» رضى المتدينون أو كرهوا، وأعلنوا رأيهم أو صمتوا عنه . .

لماذا حدث ذلك ؟!

لم يكن « التطور العالمى» كما توهم المتوهمون. ولم يكن ضغط الحضارة الغربية. ولم يكن « الحق» الذى كان مغلوبا ثم انتصر كما أذاع المدافعون عن قضية المرأة. ولم تكن « طبيعة القضية» وكونها قضية عالمية لابد أن تأخذ مجراها فى كل الأرض . . بل لم يكن الغزو الفكرى فى ذاته هو الذى جعل الأمور تأخذ هذه الصورة . .

إنما كان قبل كل شىء : الهزيمة الداخلية الناشئة من الخواء، الناجم بدوره عن التخلف العقدى، والانبهار بما عند الغرب، والظن بأنه لابد أن يكون صوابا ما دام آتيا من عند الأقوياء الغالبين !

نعم، إنها الهزيمة الروحية هى التى مكنت للغزو الفكرى، وهى التى جعلت كل ما يخططه المخططون يَنْفُذُ كأنه أمر حتمى لا مرد له، ولا طاقة لأحد بالوقوف فى طريقه !

وما كان شىء من ذلك ليحدث لو أن المسلمين كانوا على إسلام صحيح .

فالعقيدة الحية المتمكنة من القلوب لا تقهر، ولا يتخلى عنها أصحابها مهما وقع عليهم من الضغوط [1] .

والاستعلاء بالإيمان يقى الناس من الذوبان فى عدوهم ،ولو انهزموا أمامه فى المعركة الحربية .

والغنى النفسى الذى يحدثه الإيمان الحق بالله، والغنى الواقعى الذى يحدثه التطبيق الصحيح للمنهج الربانى، يجعل المسلم - فردا وجماعة ومجتمعا ودولة - فى غنى عن الاقتراض فى عالم القيم والمبادئ - فضلا عن التسول ! - وإذا احتاج لشىء من أمور الدنيا يفتقده عنده فإنه يأخذه فى استعلاء المؤمن، ويطوعه لمنهجه الربانى، ويصبح مالكا له لا مملوكا له . .

وما كان الغزو الفكرى ليتسرب إلى نفوس المسلمين - لو كانوا على إسلام صحيح - ولا إلى عقولهم وأفكارهم ومشاعرهم، حتى يزيلهم عن قاعدتهم، ويجرفهم فى التيار . . غثاءً كغثاء السيل، كما وصفهم رسول الله ﷺ قبل أربعة عشر قرنا من الزمان .

وما كان ضغط الحضارة الغربية ليجلى المسلمين عن مواقعهم، وهى حضارة زائفة

---

(١) انظر ما وقع من الضغوط على الجماعة المسلمة فى مكة، وانظر ما يقع اليوم من المذابح البشعة لإخماد الصحوة الإسلامية وهى مع ذلك لا تخمد .

ممسوخة فى عالم القيم، برغم كل التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى الذى تشتمل عليه . وقد كان المسلمون قمينين أن يأخذوا كل التقدم العلمى والمادى والتكنولوجى الذى يحتاجون إليه - كما أخذوا من الروم والفرس أول مرة - دون أن يفقدوا إسلامهم، أو يتخلوا عن ذاتيتهم، أو تختلط القيم والموازين فى حسهم.

وما كان « التطور العالمى » ليغلب المسلمين على أمرهم . . فهو ليس « حتمية» حقيقية كما خيَّل اليهود للبشرية ليدفعوها فى المسار الذى جرفوها إليه . إنما انجرفت أوربا فى تيار التطور اليهودى لخوائها من العقيدة الصحيحة، ولأن عقيدتها الممسوخة لم تكن تصلح للحياة، ولا كانت تقدر على الصمود أمام كيد اليهود(1) . ولكن المسلمين كانوا قمينين أن يصمدوا ولا ينهزموا أمام «التطور» المزعوم، الذى انتكس فيه «الإنسان» أكبر نكسة وقع فيها فى تاريخه كله، فى مجال القيم والأخلاق والمبادئ، بل فى مجال « إنسانية الإنسان» ذاتها، رغم البريق الخاطف، ورغم كثرة ما قيل فى هذا العصر عن « إنسانية الإنسان» . . ! كان المسلمون قمينين أن يصمدوا ولا ينهزموا لأنهم يملكون العقيدة الصحيحة من جهة، ولأنهم هم المؤهلون أن يقفوا للكيد اليهودى من جهة أخرى ، لأن الله وعدهم بالنجاة من ذلك الكيد إن استقاموا على الشرط : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا**﴾(2) .

بل كان المسلمون قمينين أن يصححوا أفكار البشرية الزائغة إزاء لوثة الداروينية، ولوثة التطور، ولوثة المادية، ولوثة التفسير الجنسى للسلوك البشرى، والتفسير الآلى للحياة، ولوثة « التحرر» من كل القيم، ولوثة إخراج المرأة من بيتها ووظيفتها، لتكدح وتشقى من أجل لقمة العيش، وتتبذل وتفسد، وتفسد المجتمع كله معها فى نهاية الأمر . .

لو كانوا على إسلام صحيح !

ولكنهم لم يكونوا . . فأصابهم ما أصابهم . . وبدلا من أن يصححوا للبشرية منهج حياتها، ويهدوها إلى المنهج الحق، تخلوا هم عن منهجهم الربانى، وراحوا يلهثون لهثا وراء الجاهلية الأوربية، يستأذنونها فى مذلة أن تسمح لهم باللهث وراءها، ولا تحتقرهم ولا تستصغرهم إلى أن يتمكنوا من اللحاق بها فى آخر الشوط !

---

(1) راجع إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة» .
(2) سورة آل عمران [١٢٠] .

وذلك هو التفسير الحقيقى لما حدث فى قضية المرأة، وكل القضايا الأخرى التى ألمت بالمسلمين فى أثناء « نهضتهم» المعاصرة!

* * *

دخلت المرأة الجامعة لا « لتتعلم» فقط . . ولكن « لتتحرر» !

لتتحرر من الدين والأخلاق والتقاليد . .

فقد قيل لها ـ كما قيل للمرأة الأوربية من قبل ـ إن التعليم . . والاختلاط . . والحرية . . و«التجربة» كلها «حقوق» للمرأة، كان الدين والأخلاق والتقاليد تمنعها من مزاولتها . . واليوم ينبغى أن تحطم الحواجز كلها لتحصل المرأة على ما لها من حقوق . .

وبطبيعة الحال لم تكن هناك طفرة . . إنما جاء كل شىء بالتدريج . . وما كان المخططون يتوقعون أن تحدث الطفرة ـ وإن تلهفت قلوبهم لمشاهدتها ـ ولا كان ذلك ممكنا فى عالم الواقع .

لقد دخلت أربع فتيات كلية الآداب فى « الجامعة المصرية» مقتحمات كل الحواجز القائمة يومئذ، والمجتمع كله ـ بين مؤيد ومعارض ـ يرقب التجربة الجديدة، وما يمكن أن تسفر عنه .

وكان هناك ـ طبعا ـ قدر من الأدب ، وقدر من الحياء، وقدر من الاحتشام، سواء من جانب الفتيات الأربع ، أو من جانب الطلاب فى مدرجات الجامعة وأفنيتها، والجو كله مملوء بالحذر والترقب . .

ومع ذلك كله كتبت أمينة السعيد فى مذكراتها التى نشرتها لها « الهلال» ـ وهى إحدى الفتيات الأربع اللواتى « اقتحمن» الحواجز، ليثبتن جدارة الفتاة المصرية بكذا وكذا مما أثبتن جدارتهن به ! ـ كتبت تقول : إنه فى الاختبار الشفوى فى آخر العام كانت اللجنة ـ فى اختبار اللغة الإنجليزية ـ مكونة من أستاذ إنجليزى وأستاذ مصرى، وإن الأستاذ الإنجليزى ابتدرها فى الاختبار بسؤالها عن رأيها فى الحب!

تقول إنها من جانبها تلعثمت فى بادئ الأمر . . وإن الأستاذ المصرى غضب حتى احمرّ وجهه من الغضب، وغادر اللجنة ، فقال لها الأستاذ الإنجليزى : لا عليك منه ! استمرى !

وتقول : إنها وجدت نفسها تنطلق فى الحديث ـ عن الحب ـ بلا تلعثم ولا حياء!
وهو المطلوب!

* * *

لم تكن الجامعة المصرية ـ كما كانت جامعة القاهرة تسمى فى ذلك الحين ـ قد أنشئت لترعى القيم الإسلامية ، ولا لترعى تنشئة الشبان والفتيات تنشئة إسلامية.

إنما كانت قد أنشئت لتكون منبراً « حرا» . . يهاجم منه الدين والأخلاق والتقاليد مهاجمة شفوية وعملية كلما أمكن، مع الحذر من الخروج السافر دفعة واحدة، حتى ترسخ أقدام الجامعة، وتصبح معلما ثابتاً من معالم الحياة المصرية . . فلا عليها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء علانية بدون مواربة، فلن يصيبها يومئذ ما يقتلع جذورها بعد أن تثبت وتستقر . .

كانت مدرسة المعلمين العليا ـ الدنلوبية ـ قد استنفدت أغراضها فى تخريج المدرسين الذين سيوالون تعليم الأجيال فترة غير قصيرة من الزمن، يبثون فيهم ما بُثَّ فيهم من قبل من نفور من الدين وأهله، وانسلاخ من آدابه وقيمه، وعبودية مقنعة أو سافرة للغرب.

واليوم يراد توسيع الدائرة . . فالمدرسون مهمون نعم، ومطلوبون نعم، ولكن المدرس بطبيعة نشأته محدود الأفق، محصور فى دائرته لا يغادرها، تتحول حياته بعد حين إلى رتابة مملة، فينغلق على نفسه ، ويفقد حيويته وخصوبة فكره . . إلا النادر القليل.

ونريد اليوم أن يكون لدينا « مفكرون» . . « أحرار» . . لينشروا «حرية الفكر» على مستوى المجتمع كله . . رجاله ونسائه وكل من فيه . .

ومدرسة المعلمين العليا بكل ما قدمت من « خدمات» عاجزة بطبيعة تكوينها عن أداء هذه المهمة الخطيرة . . إنما الذى يقدر على ذلك هو الجامعة . .

ومن هنا كانت الجامعة محددة الأهداف ـ عند مخططيها ـ من أول لحظة .

ولقد فرح الناس بها فرحا شديدا عند مولدها، وأقبل الشباب عليها بلهفة وتشوق، لأنها ـ فى ظاهرها ـ كانت خطوة تعليمية وثقافية ضخمة، سدت ثغرة كانت موجودة فى الحياة المصرية، بعد تجمد الأزهر ، وانصراف الناس عنه، والعزلة التى فرضها عليه

دنلوب . . ثم لأمر آخر كان يخالج تلك النفوس ويزيد من فرحتها: لقد صرنا الآن مثل أوربا . . صارت لدينا جامعة!

ولم يكن كثيرون يتوقعون أن تصبح الجامعة منبرا لمهاجمة الإسلام، ولتخريج شباب يستخفون علانية بكل القيم الدينية، يستخفهم الغرور العلمي ـ أو الجهلي! ـ متكئين إلى أنهم « خريجو الجامعة»! أي « الطراز» الحديث! ـ فليس لأحد أن يتصدى لهم أو يناقشهم أو يخطئهم . . وإلا فهو جاهل رجعي متخلف . . فهنا ـ في الجامعة ـ وهنا فقط، يوجد العلم الحق، والأفق الواسع ، والفكر المتحرر، والنظرة التقدمية، والروح العلمية ، وإرادة الحياة الحرة . . وفي كل مكان آخر ـ أياً يكن ذلك المكان ـ توجد الرجعية والجمود والتأخر، والعفن المنتن الذي خلفته عصور الانحطاط ، والجهل الفاضح الذي يعيش في الظلمات، غير منفتح على تيار الحياة الحيّ . . ويكفي أهله سوءا وجهالة وتخلفا أنهم لا يعرفون « لغة أجنبية» ![1] .

ولعل الناس فوجئوا ـ في أول الأمر ـ بالمستشرقين الذين يقدحون في الإسلام، ويشوهون صورته، ويهاجمونه جهرة، أساتذةً في كلية الآداب يدرّسون أفكارهم للطلاب، تحت إشراف طه حسين « عميد الأدب العربي» ورئيس قسم اللغة العربية يومئذ، ومن بينهم المستشرق اليهودي « مرجوليوث» الذي كان يقول إن محمداً ـ ﷺ ـ مجهول النسب! فقد كانت العرب تطلق على من لا تعرف نسبه اسم عبد الله ، ومن ثم فمحمد بن عبد الله ـ ﷺ ـ هو ابن رجل مجهول النسب ! وهي فرية لم يقلها أحد غيره من المستشرقين ![2] .

ولعلهم فوجئوا بطه حسين الذي قال في كتاب « الشعر الجاهلي» : «للتوراة والإنجيل أن يحدثانا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما كذلك، ولكن

(١) ربما لا يعلم كثير من القراء أنني من خريجي تلك الجامعة ، ومن دارسي اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي فيها، فلست أصدر فيما أقرر هنا عن عصبية معهدية ضد الجامعة! إنما هي الحقيقة التي أحسبها ـ الآن ـ لم تعد خافية! ولا ينكر أحد أنه من الناحية « الثقافية» كانت الجامعة أوسع أفقا، وخريجوها أكثر احتكاكا بالأفكار «العالمية». ولكنها لم تكن توجه طلابها لنقد الحضارة الغربية، واختيار الصالح من ثمارها للاستفادة به في «نهضة» حقيقية ، مع طرح الفاسد من هذه الثمار، إنما كانت على العكس من ذلك من أكبر أدوات «التغريب».

(٢) انظر فصل « الديانة المحمدية Mohamedanism » تأليف مرجوليوث، في موسوعة تاريخ العالم: Universal History of the World .

هذا وذاك لا يثبت لهما وجودا تاريخيا ! »[١] يصبح فى مكان الصدارة فى الجامعة الجديدة، ثم يقول فى فترة لاحقة، فى كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر» : إن مصر لم تكن قط جزءا من الشرق، وإنما كانت دائما جزءا من حوض البحر الأبيض المتوسط، وكل ما جاءها من الخير جاءها من حوض البحر الأبيض المتوسط، وكل ما جاءها من الشر جاءها من الشرق!

ولعلهم فوجئوا بمن يقول إن قصص القرآن قصص « فنى» . . يعنى لا يتحدث عن حقائق تاريخية وأشخاص حقيقيين . . إنما هى قصص فنية، مبتدعة من الخيال لأغراض فنية![٢] .

وفوجئوا . . وفوجئوا . . وفوجئوا . . وثارت ثائرة من ثار منهم . . ولكنها ثورة أضعف من أن تغير شيئا من الواقع . . ومضى الواقع الجديد يثبّت أركانه، يمدّ له المخططون من وراء الستار، وتتبلد عليه مشاعر الناس . . حتى جاء الوقت الذى أصبح « الناس » هم أنفسهم خريجى الجامعة (أو الجامعات فيما بعد) . . فتجانست الأفكار والتصورات والدوافع وأنماط السلوك! ولم يعد شئ مما يجرى فى الجامعات يثير ما يسمى «الرأى العام» !

* * *

وإذا كانت كلية الآداب بالذات قد خصصت « لتفريخ» مثل هذه الأفكار والتصورات، وتخريج « مفكرين أحرار» يقومون « بواجبهم» فى إزالة « العفن» و«النتن» من الأفكار والعقول، ليضعوا بدلا منها المفاهيم الغربية عن الدين والأخلاق والتقاليد، ولينشئوا مجتمعا جديدا على هدى المخططين الذين يخططون من وراء الستار، قد « تحرر» أبناؤه وبناته وصاروا « طلقاء » يفعلون بالدين ما يراد منهم . . فإن كلية الحقوق قد أنشئت لتخريج أجيال تدعو إلى القانون الوضعى ـ لأنه تخصصها

---

(١) الأفكار الرئيسية فى هذا الكتاب ـ وهى القول بأن الشعر الجاهلى الحقيقى كان أبلغ من القرآن، ولذلك طمس عليه المسلمون، وانتحلوا شعرا أقل منه بلاغة ونسبوه إلى الشعراء الجاهليين، « ليزعموا» بعد ذلك أن القرآن أبلغ من الشعر الجاهلى! هى أفكار مرجوليوث المشار إليه، انتحلها طه حسين! وقد صودر هذا الكتاب حين أثار ما أثار من ضجة، ولكن طه حسين سئل فى حديث صحفى أجراه معه محمود عوض فى مجلة صباح الخير قبل وفاة طه حسين بعام واحد عن أفكاره فى هذا الكتاب فقرر أنه مازال مؤمنا بكل حرف فيها!

(٢) الدكتور محمد أحمد خلف الله فى كتاب « الفن القصصى فى القرآن الكريم» .

الذى ربيت عليه ، ولم تعلّم غيره ، فمن الطبيعى أن تتعصب له ، وتعادى كل شىء غيره ـ وتبعد عن الأذهان نهائيا قضية تحكيم شريعة الله ، لأنها غير واردة فى أذهانهم أصلا . . ومن هؤلاء يكون رجال السياسة ورجال الحكم ، والأسماء البارزة اللامعة فى المجال الاجتماعى .

أما الكليات العملية فهى تخرج الفنيين من أطباء ومهندسين وزراعيين وغيرهم . . ولكنها تخرجهم على الطريقة الغربية البحتة ، أى « علمانيين » [١] . لا يطيقون الحديث فى أمور الدين ـ فضلا عن أن يتدينوا هم أنفسهم ـ لأنهم طلاب « علم » والدين خرافة ، ولأنهم « واقعيون » والدين أساطير ، ولأنهم « عقول مفكرة » لا ينبغى لها أن تتدنى إلى مستوى العوام الذين لم يطلعوا على « الحقائق العلمية » . . وفضلا عن ذلك فإنهم «يتميزون» عن أمثالهم من « العلمانيين » فى الغرب ، بكونهم يحتقرون لغة بلادهم ، لأنها لغة متخلفة لا تصلح للعلم ، ويتحدثون ـ من ثم ـ بلغة السادة المتحضرين ، ويرفضون أن ينظروا فى أى كلام مكتوب بالعربية ، لأن العربية أصلا هى لغة الجمود والتخلف ، ولو كان المكتوب بالعربية هو القرآن . . بل إن هذا الكتاب بالذات هو أشد ما ينفرون من قراءته أو النظر إليه !

وهكذا تتواكب الكليات وتتواكب التخصصات . . لتخرج فى النهاية الجيل المطلوب لأعداء الإسلام ! الجيل المتجه بكليته إلى الغرب ، النافر من « الرجوع » للإسلام [٢] .

* * *

وكما كان من أهداف الجامعة تخريج الجيل الجديد من «الرجال المتحررين» ـ الذين أداروا ظهورهم للإسلام وولوا وجوههم شطر الغرب ـ سواء من كلية الآداب أو الحقوق أو الكليات العملية ، فقد كان من أهدافها كذلك تخريج الجيل الجديد من

---

(١) لفظة « علمانية » هى ترجمة عربية مضللة لكلمة Secularism كما أشرنا من قبل ، والأولى أن تسمى « اللا دينية » انظر ـ إن شئت ـ فصل « العلمانية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » . ومما هو جدير بالذكر أن هذه الترجمة المضللة كانت من صنع اللبنانيين المسيحيين !

(٢) لا ينفى ذلك بطبيعة الحال أن يكون من بين ذلك الجيل ، أو تلك الأجيال ، من لم يخضع لعملية التغريب ، وبقى محافظا على إسلامه وذاتيته ، ولكنهم ـ قبل « الصحوة الإسلامية » التى سنتحدث عنها فى الفصل القادم ـ كانوا قلة لا يحسب لهم حساب .

«النساء المتحررات » اللواتى انسلخن من الدين والأخلاق والتقاليد . . فقد كانت «الفتاة الجامعية» . . « المثقفة» . . « المتحررة» . . عنوانا للتغير المطلوب، ودافعا فى الوقت ذاته إلى مزيد من « التحرر » المطلوب !

ولكن هنا تأتى وسائل الإعلام الأخرى لتمد « قضية المرأة» باللهيب الدائم الذى لا يخبو أواره ، حتى يتم المطلوب كله، وفى أقصى صورة ممكنة . .

فلئن كان « اللهيب» قد ابتدأ ـ أو اشتعل ـ فى مسرحية المظاهرة النسائية التى أحرقت الحجاب فى ميدان الإسماعيلية أمام ثكنات الجيش الإنجليزى، فالصحافة المصرية ـ اللبنانية المسيحية المارونية [1] ـ تواكب « القضية» وتدفعها دائما إلى الأمام .

إن عدسة الصحافة تلاحق « الفتاة الجامعية» لترصد جميع تحركاتها . . وتختار ـ بطبيعة الحال ـ الوجوه الجميلة لتجعلها « إعلانا» عن القضية . . وتتنوع التعليقات، ولكنها كلها تبارك تلك الخطوة الجبارة التى خطتها الفتاة المصرية، والتى حطمت فيها القيود والحواجز، وأخرجت المرأة المصرية من سجن « التقاليد» المظلم ، ومن عقلية القرون الوسطى المظلمة [2] . . لترى النور . . لتتحرر . . لتشارك فى أمور المجتمع !

وفى ظل تلك التعليقات تسنح الفرصة ـ وهى دائما سانحة ـ لمهاجمة تلك «التقاليد» التى تجعل المرأة حبيسة البيت، مستعبدة للرجل ، ناقصة الآدمية، مهضومة الحقوق، لا عمل لها إلا الحمل والولادة والرضاعة و«خدمة» الرجل وتربية الأولاد . . !

ولابد من وقفة هنا لبيان حقيقة، سبقت الإشارة إليها، ولكنها تحتاج إلى مزيد من الإيضاح . .

---

(١) وكانت هناك كذلك صحافة « مصرية» صميمة، ولكنها كانت ـ بوعى أو بغير وعى ـ تقتفى أثر الصحف اللبنانية المسيحية المارونية التى أرست « القواعد الصحفية» فى مصر، بل قد تزيد عليها تبذلا لتكسب مزيدا من القراء من « الأجيال الصاعدة» من الأولاد والبنات !

(٢) تعبير « القرون الوسطى المظلمة» من تعبيرات الغزو الفكرى التى تجرى ـ بطلاقة ! ـ على ألسنة المستعبدين للغرب، ويقصد بها ـ فى حسهم ـ الإسلام ! وأوربا تصف ـ بحق ـ قرونها الوسطى بأنها مظلمة، لأنها كانت مظلمة حقا . وتقول ـ بحق ـ إن « الدين» عندها كان سبب ذلك الظلام، وإن التحرر منه هو الذى أخرجها من قرونها المظلمة ، لأن ذلك الدين لم يكن ربانيا، إنما كان دينا بشرياً ـ جاهليا ـ من صنع الكنيسة، يحتوى من الخرافات والخرعبلات والافتراء على الله ما لا تستسيغه فطرة سليمة ولا فكر «حر» . أما المستعبدون للغزو الفكرى فينسون أولا أن هناك فارقا رئيسيا بين الإسلام ـ الدين الربانى غير المحرف ـ وبين دين الكنيسة المحرف، وينسون ثانيا أن القرون الوسطى المظلمة فى أوربا كانت هى الفترة التاريخية المشرقة بنور الإسلام، سواء فى المشرق أو المغرب والأندلس، حيث تعلمت أوربا لتخرج من الظلمات إلى النور!

إن المرأة كانت مظلومة بالفعل، وكانت تعامل معاملة سيئة بالفعل ، وكانت تعير بأنها جاهلة، وبأن مهمتها هى أن تحمل وتلد ولا شأن لها بشئ آخر . . وكانت هذه نظرة « جاهلية» تسربت إلى المجتمع المسلم حين تخلف عقديا ، وفسد كثير من مفاهيمه الإسلامية؛ والجاهليات تجنح ـ غالبا ـ إلى تحقير المرأة وازدرائها، إلا أن تجنح ـ كالجاهلية الإغريقية الرومانية، ووريثتها الجاهلية المعاصر ـ إلى تدليل المرأة وإفسادها خلقيا لتصبح مسرحا لشهوة الرجل . .

وكان وضع المرأة فى مصر ـ وفى العالم الإسلامى كله ـ فى حاجة إلى تصحيح ، لرد الكرامة الإنسانية إليها، ووضعها فى المكانة اللائقة بها بوصفها « إنسانة» كرمها الله حين قرر الكرامة لكل بنى آدم: ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم..﴾ (١) وساواها فى الإنسانية بالرجل حين قرر أنه ﴿بعضكم من بعض﴾ (٢) وقرر لها احتراما وتوقيرا خاصا فى وضع الأمومة من أجل ما تتكبده فى الحمل والرضاعة: ﴿ حملته أمه كرها ووضعته كرها﴾ (٣) وجعل الجنة تحت أقدامها على لسان رسوله ﷺ.

وكان هذا الوضع المنحرف عن أوامر الإسلام وتوجيهاته هو هو الذى فتح الثغرة للغزو الفكرى، وهو هو الذى استغله الشياطين لينفذوا منه إلى المجتمع الإسلامى ـ فى كل بلاد الإسلام ـ وينفّذوا مخططاتهم فيه . .

ولو كان المجتمع الإسلامى يطبق الإسلام فى صورته الصحيحة، فمن أين كان ينفذ الشياطين ؟

كانت أوربا ـ فى جاهليتها ـ ستصيح صيحتها؛ و« تحرر» نساءها من الدين والأخلاق والتقاليد؛ وتخرج المرأة هناك سافرة متبرجة عارية؛ وتملأ الشوارع والمصانع والمكاتب والدواوين؛ وتغرق ـ هى والرجل ـ فى علاقات دنسة، تدنس الجسد والروح؛ وتتفكك الأسرة ؛ ويتشرد الأطفال ؛ وتنتشر الجريمة والخمر والمخدرات والقلق والأمراض العصبية والنفسية والانتحار والجنون . . ويظل المجتمع الإسلامى فى تماسكه، ورفعته ونظافته وتطهره، ينظر رجاله ونساؤه إلى تلك الجاهلية نظرة استنكار ونفور واستعلاء . .

وربما قال قائل : إن ما بدا اليوم من عوار الجاهلية المعاصرة لم يكن واضحا للعيان يوم بدأت « الحركة النسائية» فى العالم الإسلامى ، ومن ثم كان العالم الإسلامى

(١) سورة الإسراء [٧٠] . (٢) سورة آل عمران [١٩٥] . (٣) سورة الأحقاف [١٥] .

عرضة للافتتان « بقضية المرأة» فى وجهها « الإصلاحى » ، قبل أن يظهر ما تحتويه فى باطنها من الفساد . .

وهذا قول مردود . .

ففى وقت مبكر نسبيا ـ عام ١٩٢٩ م ـ كتب « ول ديورانت»، الكاتب الأمريكى ، فى كتابه « مباهج الفلسفة» هذه الكلمات :

« فحياة المدينة تفضى إلى كل مثبط عن الزواج، فى الوقت الذى تقدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية ، وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمو الجنسى يتم مبكرا عما كان من قبل، كما يتأخر النمو الاقتصادى . . . ولا مفر من أن يأخذ الجسم فى الثورة، وأن تضعف القوة على ضبط النفس عما كان فى الزمن القديم، وتصبح العفة التى كانت فضيلة موضعا للسخرية، ويختفى الحياء الذى كان يضفى على الجمال جمالا ، ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم، وتطالب النساء بحقها فى مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال، ويصبح الاتصال قبل الزواج أمرا مألوفا، وتختفى البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . .

« . . . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو فى الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية فى هذه الصناعة المزدهرة[1] ، وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه فى عالم الإنسان . وهذا هو الرأى الشائع لمعظم المفكرين فى الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى فى سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحية، وهى تعرض علينا فى المسارح وكتب الأدب المكشوف، تلك التى تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية فى الرجال والنساء المحرومين ـ وهم فى حُمّى الفوضى الصناعية ـ من حِمَى الزواج ورعايته للصحة» .

« . . حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار، اندفعت بما لم يسبق له مثيل فى تيار المغامرات الواهية . فهى واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية وهدايا من الجوارب، وحفلات من الشمبانيا فى نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها فى بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية، فلم تعد تعتمد على الرجل فى معاشها . وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله فى فنون الحب .

---

(١) يقصد صناعة البغاء . ويلاحظ أنه يلتمس لها المبررات رغم الأسى الذى يحسه على الفتاة الأمريكية!

فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذى يجعل الزوج المنتظر مترددا، إذ كيف يمكن أن يكفى أجره المتواضع للإنفاق عليهما معا فى مستواهما الحاضر من المعيشة؟»[1].

« . . ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . . أكبر الظن أنها لن تكون شيئا نرغب فيه أو نريده . . فنحن غارقون فى تيار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا فى اختيارها . وأى شئ قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم . . »[2].

فإذا كان هذا قد كان واضحا عند رجل غير مسلم ـ بل رجل ملحد ساخر بكل القيم الدينية والأخلاقية ـ مثل ول ديورانت، قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، فقد كان الأحرى أن يكون واضحا تماما عند المجتمع المسلم، الذى يهتدى ببصيرته الإيمانية، المستمدة من إيمانه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والذى يرى حتمية السنن الربانية فى الحياة البشرية حين يقدم الناس لها الأسباب، ويؤمن بالنتائج السيئة المترتبة على فساد الأخلاق فى حياة الأمم وحياة الأفراد . .

ولكن القضية أن المجتمع الإسلامى كان بعيدا عن حقيقة الإسلام . .

ومن هنا وُجدت الثغرة التى ينفُذ منها الشياطين . .

وحين نفذوا فإنهم لم يقولوا إن المجتمع قد بعد عن الإسلام الصحيح وينبغى أن يعود إليه . . فما لهذا جاءوا، وما لهذا أطلقوا صيحاتهم! إنما هم كانوا يعملون ـ بجهدهم كله ـ ليخرجوا هذه الأمة من الإسلام، وليرسموا لها الطريق الذى يبعدها نهائيا عنه، ويمنعها ـ بكل سبيل ـ من العودة إليه . .

ولئن كانوا قد استخدموا الإسلام فى مبادئ حركتهم ـ كما استخدمه قاسم أمين وغيره ـ ليتترسوا به من قذائف المعارضين، الذين سيرمونهم ـ ولا شك ـ بالمروق من الدين، فإن هذه المرحلة سرعان ما استنفدت أغراضها ، ووقفوا موقفهم الحقيقى من الإسلام، وهو موقف النبذ والمعارضة والهجوم ، على مرحلتين متتابعتين ـ بحكم

---

(١) يقصد أن الرجل قد يرفض الزواج من الفتاة الفاسدة الأخلاق، ولكن الضغط الاقتصادى يجعله يقبل فى النهاية بعد تردد!

(٢) مقتطفات سريعة من كتاب « مباهج الفلسفة» لول ديورانت، ترجمة عبد العزيز جاويد ، وفى الأصل توسع فى هذا الموضوع استغرق ما بين ص ١٢٦ وص ٢٣٦ من الترجمة العربية .

الظروف ـ الأولى هى مهاجمة «التقاليد» . والأخرى هى مهاجمة «الدين» باسمه الصريح .

فى مرحلة الهجوم الأولى هاجموا التقاليد التى كانت ظالمة بالفعل ، من تأثير الردة الجاهلية التى كان المجتمع الإسلامى قد ارتد إليها نتيجة تخلفه العقدى ، وعدم تطبيقه الإسلام على صورته الحقيقية ، ولكنهم حرصوا على أن يُدخلوا فى دائرة الهجوم التقاليد الإسلامية الحقيقية التى قررها الله ورسوله ، جنبا إلى جنب مع التقاليد الفاسدة ، ويطلقوا عليها جميعا أنها تقاليد « بالية » ينبغى أن تحطم وأن تغير ، كما حرصوا على أن يَسمُوها كلها بأنها من تراث العصور الوسطى « المظلمة» ، التى ينبغى لها أن تمحى من الوَجود فى العصر الحديث . . عصر النور . . والتحرر . . والانطلاق!

وكان فى هذا الهجوم ـ على هذا النحو ـ خبث ماكر ولاشك . فحقيقة إن كلا النوعين من التقاليد ـ الصحيح والفاسد ـ كان قائما فى الحياة الإسلامية ، بعضه إلى جانب بعض ، ولكن كان من السهل ـ لو خلصت النيات ـ فرز هذه من تلك ، والإبقاء على التقاليد الحقة ، المستمدة بالفعل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ومحاربة التقاليد الفاسدة ، التى جاءت من الردة الجاهلية فى شأن المرأة ، حتى لو اقتضى الأمر خوض معركة مع المتمسكين بها ، فإنما برز « العلماء » فى حياة هذه الأمة بالمعارك الحادة التى خاضوها ضد انحرافات المجتمع ، ولو كان المجتمع كله غارقا فيها ، وتركوا بصماتهم الإصلاحية بمقدار ما بذلوا من جهد ، وبمقدار ماكان هذا الجهد مخلصا متجردا لله .

لكن الخبثاء استغلوا ما غشى الإسلام من غبش فى نفوس معتنقيه ، فلم يعودوا يميزون بين الحق والباطل ، واستغلوا بصفة خاصة جهالة « المثقفين» ، فهاجموا الظلم البينّ الذى يأباه الله ورسوله ، وأدخلوا معه تقاليد الإسلام الحقيقية على أنها من الظلم الذي ينبغى إزالته ، وزعموا ـ فى بادئ الأمر ـ أنها ليست من الدين ، إنما هى من وضع رجال متزمتين ، اخترعوها من عند أنفسهم وألصقوها بالدين! حتى إذا زرعوا كرهها والنفور منها فى قلوب أولئك « المثقفين» ، وضمنوا لهذا النفور الثبات والرسوخ فى قلوبهم ، صارحوهم فى المرحلة الأخيرة أنها من الدين ! وقالوا لهم جهرة إن « الدين» ذاته هو البلاء الذى ينبغى التخلص منه ونبذه وراء الظهور !

هاجموا ترك المرأة جاهلة بلا تعليم . . وكان هذا بالفعل من التقاليد الفاسدة التى انزلق إليها المجتمع الإسلامى بعيداً عن تعاليم الإسلام .

وهاجموا احتقارها وازدراءها ، وتعييرها بأنها تحمل وتلد ولا شأن لها بشئ آخر ، وكان هذا بالفعل من التقاليد الفاسدة المضادة تماما لتعاليم الإسلام .

وهاجموا تزويجها بغير إذنها وبغير رغبتها ، وكان هذا كذلك من التقاليد الفاسدة المخالفة للنصوص الصريحة من أحاديث الرسول ﷺ .

ولكنهم ـ إلى جانب ذلك ـ هاجموا حجابها ، وهاجموا استقرارها فى بيتها ، وعدم خروجها إلا للضرورة ، وصوروا ذلك بأنه سجن وضعها الرجل فيه أنانية منه وظلما ، بينما هى أوامر صريحة من الله سبحانه وتعالى لأمهات المؤمنين ولنساء المؤمنين معهن . وطالبوا بخروجها إلى « المجتمع » سافرة « متحررة» بغير قيد ، وهو أمر نهى الله عنه نهياً صريحاً فى آيات مبينات :

﴿ وقرن فى بيوتكن، ولا تبرَّجن تبرج الجاهلية الأولى ﴾ [1] .

﴿ يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن﴾[2] .

﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمرهن على جيوبهن(٣) ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن .. ﴾ (الآية) [4] .

ولكن المهاجمين ـ فى الجولة الأولى ـ خلطوا الحابل بالنابل ـ عن عمد ـ وجعلوا القضايا كلها تقاليد عتيقة بالية عفى عليها الزمن ، ولم يعد يستساغ وجودها فى عصر الحرية والنور !

أما فى الجولة الثانية (وسيأتى الحديث عنها) فقد أصبح الدين ذاته هو الرجعية التى ينبغى أن ننبذها لنكون « تقدميين» !

* * *

قلنا إن الصحافة ـ سواء اللبنانية المسيحية المارونية ، أو المصرية الصميمة التى يشرف عليها من يحملون أسماء إسلامية [1] ـ قد تابعت « قضية المرأة » باهتمام ملحوظ ،

(١) سورةالأحزاب [٣٣] .　　(٢) سورة الأحزاب [٥٩] .

(٣) الخمار كما هو معلوم من اللغة هو غطاء الرأس ، والجيب فى اللغة هو فتحة الصدر ، فالمسلمة بنص الآية تغطى رأسها بالخمار ، وتغطى صدرها كذلك ، أمراً من عند الله ، لا من عند الرجل المتزمت الذى يظلم المرأة بأنانيته .

(٤) سورة النور [٣١] .

وحرصت على تغذية المعركة بالوقود الدائم الذى لا يفتر، كما حرصت على متابعة «الفتاة الجامعية» وهى تشق طريقها « الصاعد » الذى تدوس فيه كل المقدسات لكى تصل إلى « النور » !

وكان من بين ما حرصت عليه تلك الصحافة ـ والمجلات الأسبوعية بصفة خاصة ـ إبراز « الروح الجامعية » . .

ولا يتبادر إلى ذهن أحد أن المقصود بالروح الجامعية هو روح البحث العلمى، والتعمق فى أخذ الأمور ، وعدم التسرع فى إصدار الأحكام حتى يتثبت الباحث من أن لديه من الدلائل مايسند الحكم الذى وصل إليه . . إلى آخر هذه المعانى التى تخطر على البال حين تذكر « الجامعة » وتذكر « الروح الجامعية» . . والتى كان نصيب «الجامعيين» منها فى غالبية الأحيان ضئيلا للغاية . . !

إنما « الروح الجامعية» ـ اعلم هداك الله ـ هى ممارسة الاختلاط فى الجامعة بين البنين والبنات، ومقدار ما يقع فى هذه الممارسة من تحرر وانطلاق ، وانعتاق من سجن التقاليد البالية التى تفصل شقى المجتمع بعضهما عن بعض ، وتضع بينهما الحواجز التى تعيق الأمة كلها عن التقدم والارتقاء . . !!

وحذار أيتها الفتاة أن تنهزمى فى المعركة ! فالمجتمع كله ينظر إليك ويرقب نتيجة المعركة .

حذار أن تغضى بصرك ! فغض البصر معناه عدم الثقة بالنفس، وهو من مخلفات القرون الوسطى المظلمة، التى كانت تنظر إلى المرأة على أنها دون الرجل . . فتغض بصرها [٢] ! أما أنت يا حاملة الراية فارفعى رأسك عاليا، لتثبتى أنك مساوية للرجل فى كل شىء ، وأنك ندٌ له فى كل شىء . .

---

(١) كان هناك « مسلمون » لا يربطهم بالإسلام شىء، وكان هناك متمسلمون مثل « روز اليوسف» وهى يهودية أو مسيحية سمت نفسها « فاطمة اليوسف» .

(٢) غض البصر كما هو معلوم من أمر هذا الدين ، هو أمر ربانى للرجال والنساء معا :

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ فلا دخل لهذا الأمر بالدونية ! إنما هو الاحتشام اللائق « بالإنسان» لكيلا يتحول إلى حيوان شهوانى. وقد كان من أكثر من ألح على الفتاة أن تخلع حياءها ولا تغض من بصرها الكاتب الصليبى سلامة موسى، لغاية فى نفسه مفهومة وواضحة. بينما تروى كتب السيرة عن قمة البشرية محمد ﷺ أنه كان أشد حياء من العذراء !

شيئان ينبغى أن « تحرر » منهما الفتاة الجامعية . . غض البصر . . والحياء!

* * *

وفتاةالجامعة ينبغى كذلك أن تكون رشيقة خفيفة الحركة !

فإليك الأزياء . . انتقى منها ما يناسبك . . وما يظهر رشاقتك . . وأظهرى من «زينتك» بقدر طاقتك !

لا حرج عليك . . ماذا تخشين ؟!

تخشين الدين؟ والأخلاق ؟ والتقاليد ؟

تعالى معا نحطم الدين والأخلاق والتقاليد ، التى تريد أن تكبلك فى حركتك فلا تكونى رشيقة كما ينبغى لك !

وينبغى كذلك أن تكونى جذابة !

فهكذا المرأة « المتحررة» ، من صفاتها أن تكون جذابة . . فى مشيتها . . فى حركتها . . فى حديثها!

ألا ترغبين أن « ينجذب » إليك فتى الأحلام . . شريك المستقبل ؟!

إن لم ينجذب هذا ، فلينجذب غيره . . المهم أن يكون هناك دائما من يتطلع إليك . . ويعجب بك . . ويرغب فيك !

وبدأت « الفتاة الجامعية » تتخلع فى مشيتها وتتكسر ، وتتخلع فى حديثها وتتكسر[1] ، وأصبح هذا عنوان « المرأة الحديثة» أو « المرأة المتحررة» التى تملأ الشارع ، فيعج الشارع بالفتنة الهائجة التى لا تهدأ ولا تستقر . . وهو المطلوب !

* * *

أما البيت . . فآخر ما تفكر فيه الفتاة الجامعية . .

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالى مخاطبا « أمهات المؤمنين »: ﴿ يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض﴾ [سورة الأحزاب : ٣٢] وهن زوجات الرسول ﷺ ، وأمهات المؤمنين، وفى عصر الذروة الذى ارتفع فيه المجتمع الإسلامى إلى قمم لم تصل إليها البشرية فى أى جيل من أجيالها، السابقة أو اللاحقة ، فكيف بفتاة لا تعرف عن الإسلام إلا اسمه ، ومجتمع شارد عن الإسلام؟ هل كان لهذه التوجيهات المسمومة إلا نتيجة واحدة : أن ينحل المجتمع ، ويقضى على ما بقى فيه من دين وأخلاق وتقاليد؟

لقد نُعتَ لها بكل نعت مقزز منفر . . حتى أصبح البقاء فيه هو المعرة التى لا تطيق فتاة جامعية أن تلصق بها . .

البيت هو السجن . . هو الضيق . . هو الظلام . . هو التأخر . . هو الرجعية . . هو « عصر الحريم » . . هو التقاليد البالية . . هو القرون الوسطى المظلمة . . هو دكتاتورية الرجل . . هو شَلّ المجتمع عن الحركة ، ودفعه إلى الوراء . . !

إنما تتعلم الفتاة الجامعية لتعمل . . لا لتبقى فى البيت كما كانت تصنع جدتها الجاهلة المتأخرة الرجعية القابعة فى سجن التقاليد . . المستعبدة للرجل . .

وحين تعمل تُنمى شخصيتها . . تصبح إنسانة ناضجة !

أما حين تبقى فى البيت . . فلأى شىء تبقى؟! لتطبخ وتغسل . . يا للعار !! أو تحمل وتلد وترضع . . إن هذا الأمر ـ حتى لو حدث ـ لا ينبغى أن يمنعها من العمل . فالمرأة «الحديثة» قد تغلبت على هذه المشكلة ، ونسقت بين حياتها الزوجية وبين العمل ، فلم يعد شىء يعوقها عن العمل بعد الزواج . . أما قبل الزواج فالعمل ، ولا شىء غير العمل !

ولسنا هنا نناقش هذه اللوثة . . ولا الآثار التى ترتبت على «ترجيل المرأة» فى أوربا ، وإفساد فطرتها ، وتنفيرها من أن تكون على فطرتها التى فطرها الله عليها ، ودفعها دفعا إلى التنصل من كل ما يتعلق بأنوثتها من قيم وممارسات (وتركيز الأنوثة كلها فى لحظة الجنس الدنسة المسعورة) ودفعها إلى التشبه بالرجل ، وتعليمها على مناهج الرجل ، وتوجيه مشاعرها إلى العمل لا إلى البيت . .

لا نناقش هنا هذه اللوثة . . ويكفينا أن نشير إلى أن المرأة الأوربية نفسها قد بدأت تتعب من لوثتها ، وتحن إلى العودة إلى بيتها وفطرتها . . وبدأت تدرك أن اللعبة كلها لم تكن لصالحها . .[1] .

إنما نتتبع فقط ـ فى بلادنا ـ خط إخراج الأمة الإسلامية من الإسلام . . وتركيز المخططين على «قضية المرأة» ، لعلمهم أنها من أفعل الوسائل فى الوصول إلى الهدف المطلوب . .

* * *

---

(١) ناقشت هذه القضايا فى أكثر من كتاب ، منها « الإنسان بين المادية والإسلام» و«منهج التربية الإسلامية» الجزء الثانى ، و«مذاهب فكرية معاصرة» ، ولايتسع المجال هنا لإعادة المناقشة ، فحسبنا هنا التقرير .

لم تكن الصحافة وحدها هى التى تعمل . . وإن كانت من أهم الأدوات . .

إنما القصة والمسرحية والسينما والإذاعة . . كلها أدوات . .

فأما القصة والمسرحية فقد بدأتا - كما كان متوقعا - بالترجمة ، وانتهتا بالتأليف . وأما السينما فقد ظلت أجنبية فترة غير قصيرة من الوقت ، حتى قام ناس فقالوا إن من العار علينا ألا تكون لنا سينما وأفلام «وطنية» أى متكلمة باللغة العربية (نقصد العامية!) فقامت « الجهود » وتكاتفت حتى برزت تلك الأفلام إلى الوجود . .

فأما الإذاعة فقد جاءت متأخرة نوعا ما . . ولكنها سرعان ما لحقت الركب ، وشاركت فى الموكب « الكبير » .

لقد تكاتفت الأدوات كلها للوصول فى النهاية إلى هدف واحد . . صرف هذه الأمة عن دينها وأخلاقها وتقاليدها . . وإنشاء مجتمع « جديد» لايحفل شيئا بالقيم الدينية ؛ لا يجعلها نصب عينيه ، ولا يستمد منها منهج حياته ، ولا يلجأ إليها فى تكوين أفكاره ولا اهتماماته ولا عاداته ولا أنماط سلوكه . . بل إن ذكرها - فى أى وقت - فهو ذكر السخرية والاستهزاء والاستخفاف . .

ولا نحتاج هنا أن نتحدث عن هذه الوسائل (خاصة بعد أن أضيف إليها التليفزيون والفيديو) وعن آثارها المدمرة فى حياة الأمة ، فهذا واقع مشهود ، يشهده الناس كل يوم وكل لحظة ، ويرون بأعينهم آثاره فى أولادهم وبناتهم ، ويرون بأعينهم كيف يعجزون عن صد آثاره المتلفة ، ووقاية أولادهم وبناتهم من تلك الآثار . .

إنما نذكر فقط « عينات» سريعة قد تعين فى تصور التخطيط الذى يكمن وراء التنفيذ . .

* كتبت « روز اليوسف» فى مذكراتها - وكانت تقوم بالتمثيل على المسرح قبل اشتغالها بالصحافة وإصدار مجلتها التى تحمل اسمها - كتبت تقول إنها طلبت إعانة لمسرحها من الحكومة ، وكانت مصر إذ ذاك خاضعة للنفوذ البريطانى المباشر ، فنصحها المندوب السامى البريطانى (وهو الحاكم الحقيقى فى مصر فى ذلك الحين) أن تذهب إلى الريف ، وتعرض مسرحياتها هناك ، فإن فعلت ذلك نالت الإعانة فى الحال ! [1] .

والهدف واضح . .

---

(١) وهذا يفسر لنا حرص الفرق التمثيلية فى ذلك الوقت على أن تجوب الريف ، مع قلة من يفهمون «الفن» إذ ذاك!

فالريف المصرى فى ذلك الوقت « مسلم » فى عمومه، محافظ على بقايا من الدين والأخلاق ، ومحافظ بشدة على «التقاليد» المستمدة من الإسلام (بصرف النظر عما غشاها فى بعض الجوانب من انحرافات) ومن أشد ما يحافظ عليه الريف من التقاليد - وفى الصعيد خاصة - قضية الحجاب وقضية العفة وقضية العرض. . وقضية صيانة المرأة بصفة عامة من التبذل والانحلال و«الانفلات» . .

وبقاء الريف على هذه الصورة عقبة ولا شك أمام المخططين . فالريف هو معظم مصر . ولن يؤتى المخطط ثماره كاملة إن فسدت العاصمة وحدها، وبقى الريف سليما حتى ولو فى محيط التقاليد . . فإن هذا يطيل الأمر على المخططين، ويستنفد من وقتهم وجهدهم شيئا غير قليل (لم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد، ولا التليفزيون بطبيعة الحال) فمن هنا يوجه المندوب السامى البريطانى « روز اليوسف» - وهو أعلم بحقيقتها ، وحقيقة دورها - أن تذهب إلى الريف ، لعل مسرحها ومسرحياتها أن تزحزحه قليلا عن تقاليده الصامدة ، فيأخذ فى « الذوبان» . . فتنفرج الأمور [1] .

* نجيب الريحانى ممثل فكاهى موهوب ، وصاحب « مدرسة » فى التمثيل كما يقول نقاد المسرح . ولكنه صليبى لا ينسى صليبيته ، وإن غلفها « بالفن» . . بل هى عن طريق « الفن» تبلغ مداها الخبيث دون أن يحس الناس بالأمر ، لأنهم مشدودون إلى البراعة الفنية المؤثرة، فيتلقون التأثير الخفى وهم فى نشوة الإعجاب. . فينساقون وراء التأثير .

له فيلم سينمائى [2] يسخر فيه من مدرس اللغة العربية ومن اللغة العربية سخرية ماكرة - مقصودة بلا شك - فيصور مدرس اللغة العربية بائسا مسكينا تبعث كل مواقفه على السخرية به ، ولا يثير الاحترام عند أحد ، ويجعل فتاة مائعة تحاول أن تقرأ نصا عربيا فى درس المطالعة فتخطئ أخطاء مضحكة - يضحك لها الجمهور الغافل - ولكنها تقدم فى سياق الأحداث بالصورة التى توحى للمشاهد أن البنت معذورة . . فاللغة

---

(١) لا نعجب إذا وجدنا الكاتب اليهودى الأمريكى « مرو برجر » فى كتابه « العالم العربى اليوم» الذى صدر سنه ١٩٦٢ ينص نصا على أن المدينة ينبغى أن تصب خلاصة « تجربتها الحضارية» فى الريف والبادية ، بعد أن يقرر - بوضوح - أن الإسلام قد ضعف تأثيره فى المدينة ولكنه مازال باقيا على قوته فى الريف والبادية! ولا نعجب كذلك من حرص جمال عبد الناصر على توصيل الكهرباء إلى الريف المصرى - وإلى الصعيد خاصة - عن طريق توليد الطاقة من السد العالى، ليشاهد الريفيون التليفزيون ! وحرصه كذلك - فى حربه مع اليمن - على إدخال التليفزيون إلى اليمن !

(٢) اسمه « غزل البنات» .

هكذا . . صعبة على الأفهام ! لا يمكن للمتعلم أن يستوعبها مهما بذل المعلم من الجهد!

* جورجى زيدان هو أحد مؤسسى دار الهلال (والآخر هو أخوه إميل زيدان) وهما ـ كما أسلفنا ـ من اللبنانيين المسيحيين المارونيين الذين اتجهوا إلى تأسيس الصحافة فى مصر . ولكن جورجى زيدان يزيد ـ على كونه صحفيا ـ أنه يكتب قصصا وروايات « إسلامية ! » تتناول أحداث التاريخ الإسلامى فى ثوب فنى . . وقد تناول فى رواياته عدة أحداث تاريخية ، وله قدر من البراعة الفنية ـ بالنسبة لوقته على الأقل ـ تجعل القارئ يتابع رواياته فى شغف وتأثر . .

فكيف تناول أحداث التاريخ الإسلامى ؟!

إنه ما من مرة ينسى فيصور المسلمين فى موقف « إسلامى » يبعث على الإعجاب بهم ، أو تقديرهم واحترامهم ، فضلا عن أن يبعث فى المسلم الاعتزاز بأمجاد الإسلام . .

إنهم ـ أى المسلمون ـ إما غارقون فى الطرب واللهو ، والجرى وراء شهواتهم ، سواء شهوة الجنس أو شهوة الملك أو شهوة المال . . وإما واقفون مواقف جادة تثير الإعجاب ، لأن واحدا من « أهل الكتاب» ـ سواء كان يهوديا أو نصرانيا ـ هو الذى يشير عليهم ويخطط لهم ، ويقف وراءهم يساندهم فى التنفيذ ! فإن لم يكن ذلك الواحد من أهل الكتاب حاضرا فى الصورة ، فالمسلمون فى لهوهم وعبثهم ، وخلافاتهم وشجاراتهم ، ومؤامراتهم الهابطة . . يسلمون أنفسهم إلى الضياع . . وهذا متى ؟ فى أشد الأوقات التى كان المسلمون فيها ممكنين فى الأرض ، تدين لهم الدنيا بالطاعة والإذعان !![1] .

* تخصص مجموعة من القصصين والمسرحيين والسينمائيين فى موضوع معين ، يتكرر بصور مختلفة ، خلاصته أن فتاة ـ جامعية فى الغالب ، ومتعلمة بصفة عامة ـ لها « صديق» . . يقع بينهما ما يقع ـ على درجات مختلفة من الوقوع ! ـ ثم يتقدم للزواج منها فيرفضه أبواها ـ الريفيان فى الغالب ، والرجعيان التقليديان بصفة عامة ـ إما لأنهما يرتبان لها زواجا معينا بعقليتهما المتخلفة ، وإما لأنهما ـ حرصا منهما على «التقاليد» ـ يشعران بميل الفتاة له فيرفضانه من أجل هذا السبب بعينه . . ثم تمضى

---

(١) مما يؤسف له أن الذين يتجهون إلى « مسرحة » أحداث التاريخ الإسلامى للإذاعة أو التليفزيون من « المؤلفين» ، يتجهون أول ما يتجهون إلى أعمال جورجى زيدان ! فإن لم يجدوا فيها طلبتهم بحثوا عن مرجع آخر !

القصة أو المسرحية أو الفيلم بإصرار الفتاة على موقفها، بصور مختلفة من الإصرار، أدناها رفض الخطيب الذى يقدمه لها والداها، وأشدها ترك البيت والهروب مع «الصديق». . وينتهى الأمر فى كل حالة بتنفيذ ما أصرت عليه الفتاة. ورضى الوالدين، أو تسليمهما لأمر الفتاة التقدمية إذعانا للأمر الواقع، أو اقتناع الأم خاصة، ومحاولة إقناعها الأب بأنهما كانا مخطئين، وأن الفتاة على حق! (١).

* تخصص مجموعة من الكتاب ـ في وقت من الأوقات (٢) ـ فى القول بأن المجتمع لم يكن نظيفا من الجريمة الخلقية وقت أن كان محافظا على التقاليد. . وأن الفاحشة كانت تقع تحت ستار الحجاب. وذلك رداً على الذين كانوا يقولون إن السفور والاختلاط سيؤديان حتما إلى التحلل الخلقى.

وكون المجتمع ـ أى مجتمع مهما كان محافظا ـ لا يخلو من وقوع جريمة فيه، فهذه حقيقة. . يكفى شاهدا لها أن الفاحشة وقعت فى مجتمع رسول الله ﷺ. ولكنه من التبجح الغليظ أن يقال إنه مادامت الفاحشة تقع هنا وتقع هناك، فلا فائدة فى الدين، ولا فائدة فى الأخلاق، ولا فائدة فى التقاليد، ولا قيمة لكل التوجيهات الخلقية! فهناك فارق ضخم بين مجتمع لا تقع فيه الجريمة إلا شذوذا يستنكر، وتنال عقوبتها الرادعة حين تقع، ومجتمع يعج بالفاحشة حتى تصبح العفة فيه هى الشذوذ المستنكر!

*كتب إحسان عبد القدوس فى أحد توجيهاته التى كان يبثها فى مجلة «روز اليوسف»(٣): إننى أطالب كل فتاة أن تأخذ صديقها فى يدها، وتذهب إلى أبيها، وتقول له: هذا صديقى!

* كتب أنيس منصور فى إحدى مقالاته فى أخبار اليوم، أنه زار إحدى الجامعات الألمانية ورأى هناك الأولاد والبنات أزواجا أزواجا مستلقين على الحشائش فى فناء الجامعة. . قال: فقلت فى نفسى: متى أرى ذلك المنظر فى جامعة أسيوط! لكى تراه عيون أهل الصعيد، وتتعود عليه!

---

(١) لا يذكر بطبيعة الحال موقف الإسلام فى هذه القضية، لأنه ليس المقصود هو التصحيح باسم الإسلام، إنما باسم التقدم والتحرر والخروج على الإسلام! فضلا عن أن الإسلام لن يرضى عن العلاقة القائمة بين الولد والبنت قبل الزواج، وهذه العلاقة بالذات هى موضوع «الدعوة» فى القصة والمسرحية والفيلم!

(٢) ربما لم تعد هذه الموضوعات تطرق فى مصر اليوم فقد استنفدت أغراضها، ولكنها ماتزال تستخدم فى بقاع أخرى من العالم الإسلامى، حيث توجد بقية من تقاليد يراد القضاء عليها!

(٣) روز اليوسف هى أم إحسان عبد القدوس.

هذا وغيره فضلا عن آلاف بل ملايين الصور العارية . . والأغانى العارية . . والأفكار العارية . . والنكت العارية . . التى تملأ الصحف والمجلات والإذاعة والسينما والتلفزيون . . وآلاف بل ملايين الأجساد العارية فى كل مكان : فى الشوارع والمكاتب ووسائل المواصلات والشواطئ العارية فى فصل الصيف . .

وفضلا عن التفاهة التى تشيعها السينما والإذاعة والتليفزيون فى نفوس مشاهديها ومستمعيها . . التفاهة التى تجعل النفوس لا تتجه لشىء جاد . . فضلا عن أن تتجه لله واليوم الآخر ، أو للجهاد فى سبيل الله !

* * *

ولم تكن « قضية المرأة » وحدها ، وما نتج عنها من الفساد الخلقى ، هى التى استخدمت فى فك ارتباط المجتمع بجذوره الإسلامية ، فقد كان الجهد المبذول شاملا لجميع الميادين بلا استثناء ، وإن كانت « قضية المرأة » والفساد الخلقى الناشئ من «التحرر» ، من أفعل الوسائل فى فك ذلك الارتباط .

ولنُشرْ هنا إلى مجالين رئيسيين عمل فيهما الغزو الفكرى بنشاط وافر ، هما مجال الفكر والأدب ، ومجال السياسة .

« د » مجال الفكر والأدب

فأما فى مجال الفكر والأدب فقد كان المطلوب بت الصلة بين « الأجيال الحديثة » وبين تراثها الفكرى والأدبى المستمد من الإسلام .

وقد حاول عبد العزيز فهمى (باشا) وآخرون أقل منه وزنا وأهمية أن يدعوا لكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية كما فعل أتاتورك باللغة التركية ، ولكن المحاولة وئدت فى مهدها ، ولم تقف قط على قدميها ، وما كان لها أن تنجح فى البلد الذى يحوى الأزهر ، والذى ظل الأزهر قائما فيه ألف عام يعلم اللغة العربية لكل شعوب الإسلام .

وحاول آخرون أن يدعوا لكتابة الأدب باللغة العامية ، لعل هذه اللغة أن تنمو وتترعرع - حين تصير لغة الفكر والأدب - فتقتل اللغة العربية ، كما قتلت الفرنسية والإيطالية وغيرهما اللغة اللاتينية التى تفرعت عنها فى صورة لغات عامية فى مبدأ الأمر ، ثم تحولت إلى لغات « حية » وقتلت اللغة الأم !

ولكن هذه المحاولة كذلك باءت بالفشل ـ على الرغم ممن لا يزالون ينادون بها إلى هذه اللحظة ـ بسبب وجود القرآن . فكما أن الله قد حفظ كتابه المنزل : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [١] ، فكذلك كتب الله لهذه اللغة أن تبقى وتحفظ نتيجة حفظ الكتاب المنزل بها ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون﴾ [٢] .

وقد كان هذا من أغيظ الأمور لدعاة التغريب . . ومايزال !

ولكنهم إذ فشلوا فى القضاء الكامل على اللغة العربية ـ رغم محاولة تشويه صورتها فى أذهان « الأجيال الحديثة » ، بالحديث عن صعوبتها[٣] ، وجمودها ، وعجزها عن الوفاء بما يراد منها الوفاء به فى مجال الفكر والأدب والعلم والفن ـ فقد حاولوا ـ من طرق أخرى ـ قطع الصلة أو توهينها بين تلك « الأجيال الحديثة » وتراثها الإسلامى .

كانت إحدى الطرق هى بث فكرة « التطور » . . سواء فى مجالها «العلمى» الأصلى[٤] ، أو فى المجالات الفكرية والاجتماعية والأخلاقية التى سرت إليها فى أوربا بفعل اليهودية العالمية[٥] .

ومقتضى فكرة التطور أن كل حديث هو خير من كل قديم ، لمجرد أن هذا حديث وذاك قديم ، فقط ، بصرف النظر عن أى أسباب أخرى ! ولما كان الإسلام كله قديما ، قد مضى عليه ـ فى ذلك الوقت ـ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فالتطور يقتضى نبذه والأخذ بما جَدّ بعده . . والذى جدّ بعده هو الحضارة الأوربية . . لذلك لزم الأخذ بتلك الحضارة ونبذ الإسلام [٦] .

وإذ كان هذا السبب وحده ـ فى مبدأ الأمر على الأقل ـ لا يكفى ، لأن « الرجعيين» لا يؤمنون بالتطور كما يؤمن به التقدميون ، فلابد من تقويته بأسباب «موضوعية» توهن تمسك المسلمين بالإسلام من جهة ، وتصلح من جهة أخرى لتثبيت فكرة التطور ، حتى تصبح ـ وحدها ـ قادرة فيما بعد لفك الارتباط بين المسلمين والإسلام !

---

(١) سورة الحجر [٩] . (٢) سورة يوسف [٢] .

(٣) راجع ما ذكرناه عن فيلم لجيب الريحانى ، وما ذكرناه من قبل عن مخطط دنلوب ضد اللغة العربية .

(٤) فقدت نظرية التطور الداروينية اليوم كثيرا من مقوماتها ، وأنكرها كثير من العلماء المحدثين .

(٥) انظر إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة» .

(٦) يقول طه حسين فى كتاب « مستقبل الثقافة فى مصر » الذى سبقت الإشارة إليه : فعلينا إذن أن نأخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها ، إن كان فيها شر (!) لا محالة من ذلك !

فالإسلام كان صالحا للبيئة البدوية التى نشأ فيها ، ولكنه لا يصلح للبيئة المتحضرة الموجودة اليوم !

والإسلام يظلم المرأة ، ويجعلها قعيدة البيت ، مستعبدة للرجل ، مهدرة الإنسانية ، مهضومة الحقوق !

والإسلام نظام غير ديمقراطى ! ليس فيه تقرير لحقوق الإنسان!

والإسلام ليس له نظام حكم (١) ! إنما هو مجموعة من التوجيهات الأخلاقية ليس غير !

والإسلام نظام رجعى لأنه يحرم الربا ، والربا هو العمود الذى يدور عليه الاقتصاد الصناعى المتطور ، ولا يدور على غيره !

والإسلام . . والإسلام . . والإسلام . . (٢) .

* * *

وكان من بين الطرق المستخدمة كذلك تشويه التاريخ الإسلامى . .

ففضلا عن إبراز التاريخ السياسى وحده ، وإخفاء مقومات التاريخ الإسلامى الأخرى ، أو بعبارة أخرى إبراز خط الانحراف وإخفاء الجوانب البيضاء من الصورة ، مما يعطى إيحاء خبيثا بأن الإسلام لم يعش إلا فترة قصيرة من الوقت ، وأنه ليس فيه من المقومات ما يعطيه استمرارية الوجود ، وليس فيه ما يستحق الحرص عليه ، بل ينبغى نبذه والانسلاخ منه . . فضلا عن ذلك كله فقد عمد المستشرقون ـ الذى تولوا نشر الشبهات حول الإسلام بلغاتهم ، وتولى تلاميذهم من بعدهم نشرها باللغة العربية ، إما منسوبة إلى أصحابها فى حالات قليلة ، وإما منتحلة بأسماء أولئك التلاميذ فى أغلب الأحيان ـ عمد أولئك المستشرقون ـ ومن بعدهم تلاميذهم ـ إلى النيل من شخصيات الإسلام العظمى ، بدءا برسول الله ﷺ ، والصحابة الكرام رضوان الله عليهم . وأخيرا الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ! !

لقد ركزوا ـ فى التشويه ـ على فترتين اثنتين بصفة خاصة : فترة صدر الإسلام ،

---

(١) انظر كتاب « الإسلام ونظام الحكم» لعلى عبد الرازق .

(٢) ناقشت كثيرا من هذه الشبهات من قبل فى كتاب « شبهات حول الإسلام» .

وفترة الدولة العثمانية . . لسببين مختلفين ، وإن كانا يلتقيان فى النهاية عند محاولة سلخ الأمة الإسلامية من الإسلام .

فأما فترة صدر الإسلام فلأنها موضع الفخر والاعتزاز الشديد لدى كل مسلم .

ومازالت ـ بوضاءتها الفذة ، ورفعتها الشاهقة ، ومثاليتها العجيبة ـ تشد المسلمين شدا فى جميع أجيالهم ، فلا يملكون أنفسهم من التأثر بها ، ومن الرغبة العميقة فى رؤيتها مرة أخرى ممثلة فى واقع الأرض .

ويعلم أعداء الإسلام جيدا أن وجود تلك الفترة المثالية هو الذى حفظ للإسلام حيويته على مر القرون رغم كل ما أصابه من الكوارث من الداخل والخارج [1] .

ففى كل جيل من أجيال المسلمين يوجد من تهفو نفسه إلى تلك الفترة الفذة ، فيحاول أن يعيد تحقيقها فى نفسه أو فيمن حوله ، فيمتد خط الإسلام ولا ينقطع ، وينبعث فى كل مرة بعد الغفوة أو الخمود . [2] .

وبكل الحنق والغيظ الذى يتملكهم من هذا الأمر ، راحوا يحاولون تشويه تلك الفترة ، لعلهم يقتلعون من نفوس المسلمين الاعتزاز بها ، والتطلع إليها ، فلا تعود موضع خطر دائم من انبعاث جديد!

وأقدس الشخصيات عند المسلمين شخصية رسول الله ﷺ ، ويليها فى التوقير والاحترام من صحابته الكرام أبو بكر وعمر رضى الله عنهما . . ثم يأتى رتل ضخم من الشخصيات التاريخية تزدحم بهم فترة صدر الإسلام على نحو لم يتكرر فى التاريخ . .

فليكن هَمُّ أعداء الإسلام إذن هو هذه الشخصيات بالذات . . لعلها إن شوهت صورتها تفقد إشعاعها الحىّ فى نفوس المسلمين ، فيذهب ذلك الخطر الذى يتهدد أعداء الإسلام من انبعاث الإسلام من جديد .

وتحت دعوى « البحث العلمى » و«المنهج العلمى» ، راح المستشرقون يلوكون كلاما

---

(١) يقول سبحانه وتعالى عن أهل الكتاب : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ! وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [سورة البقرة : ١٤٦] فهم يعلمون جيدا أنه الحق ، كما يعلمون مكامن القوة فيه .

(٢) راجع فصل « نظرة إلى الجيل الفريد» حيث بينا أن وجود تلك الفترة الفريدة فى تاريخ الإسلام ـ حتى وإن لم تتكرر ـ يؤدى ـ بقدر الله ـ مهمة ضخمة فى حياة الأمة الإسلامية .

تافها ضعيفا يبدو فيه التمحل والكذب وسوء القصد والبعد الكامل عن المنهج العلمى وروح البحث العلمى . . [(١)] .

ولكن تلاميذهم ـ الذين استعبدت أرواحهم للغرب وكل ما يجىء من الغرب ـ راحوا يتلقفون ما يقوله المستشرقون ثم يعيدون تقيّؤه فى صورة كتب ومحاضرات ورسائل «جامعية!» وبحوث ومقالات ، ينسبون فيها الأقوال إلى أصحابها ـ كما قلنا ـ فى حالات قليلة ، وينسبونها إلى أنفسهم أغلب الأحيان ، فيقعون فى جريمتين معا : جريمة الذوبان فى فكر أعدائهم ، وجريمة الكذب والادعاء ، متنفجين فى الحالتين بما يتشدقون به من كلام أعدائهم ، مستعلين به على عباد الله !

ومن كثرة تكرار الأكاذيب ـ خاصة تحت ستار البحث العلمى ـ ينخدع ناس ، ويتأثر ناس ، ويصدق ناس . . فينجرفون فى التيار !

أما بالنسبة للدولة العثمانية وعبد الحميد خاصة فقد كان هناك لتشويهما هدف آخر

إن أوربا الصليبية تكره الإسلام عامة ، ولكنها تكره الدولة العثمانية بصفة خاصة ، لأنها هى التى توغلت فى أوربا ، وضمت منها مساحات شاسعة إلى الدولة الإسلامية ، وأخذت من أهلها ـ كما قال ولفرد كانتول سميث ـ عشرات الملايين دخلوا فى الإسلام . . ثم إن أوربا الصليبية ـ ومعها اليهودية العالمية ـ يكرهان عبد الحميد بالذات لأنه كان يقاوم ضغط أوربا مجتمعة للقضاء على الدولة العثمانية ، ولأنه رفض إعطاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (وهو مطلب صليبى يهودى كما سيأتى بيانه فيما بعد) رغم كل المحاولات وكل الإغراءات . .

والدولة العثمانية هى آخر دولة خلافة حكمت العالم الإسلامى ، وكان المسلمون فى كل الأرض يدينون لها بالولاء ، سواء كانوا واقعين تحت حكمها المباشر ، أو كانوا «مستقلين» عنها ، أو كانوا حتى فى حوزة أعداء الإسلام . .

وبعد مؤامرات طويلة ـ صليبية يهودية ـ امتدت قرنين من الزمان ، استطاع الأعداء أن يقضوا على دولة الخلافة ويستريحوا منها ، ويحكموا قبضتهم على المسلمين . .

ولكن أعداء الإسلام ـ الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ـ لا يطمئنون أبدا إلى

---

(١) تحدثت عن هذه القضايا بتفصيل أكثر فى كتاب « المستشرقون والإسلام» .

الإسلام . . ويخشون دائما أن ينبعث من جديد، ويخشون أن تعود له دولة فى يوم من الأيام.

يقول « توماس بين » أحد المستشرقين الأمريكيين فى مقدمة كتاب « السيف المقدس The Sacred Sword » ـ بعد أن يشرح لقرائه نبذة عن تاريخ الإسلام وفتوحاته الواسعة: «وقد تغير الحال اليوم، وأصبح المسلمون فى قبضة أيدينا. ولكن ما حدث مرة يمكن أن يحدث مرة أخرى. وإن الشعلة التى أوقدها محمد « ﷺ » فى قلوب أتباعه، لهى شعلة غير قابلة للانطفاء ! ».

ويقول المؤرخ الإنجليزى توينبى فى محاضرة له بعنوان « الإسلام والغرب» : إن الإسلام يمكن أن يتولى زعامة الدول البروليتارية [1] مرة أخرى إذا تهيأت الظروف!

من أجل ذلك ينبغى تشويه صورة الدولة الإسلامية الأخيرة ـ أى الدولة العثمانية ـ وتصويرها فى أبشع صورة، حتى لا يفكر أحد فى إقامة دولة للإسلام مرة أخرى . . بل حتى يحمدوا الله ـ أو يحمدوا الشيطان ! ـ أن هذه الدولة قد ذهبت إلى الأبد ولن تعود!

ومن أجل ذلك ركز الأعداء على أخطاء الدولة العثمانية وظلوا يكبرونها حتى تملأ فراغ الصفحة كله . .

ولقد كان للدولة العثمانية أخطاء بلا شك . . وأخطاء جسيمة فى بعض الأحيان[2]. ولكن الصورة التى صورها الأعداء لم تكن هى الصورة الحقيقية التى وقعت بالفعل، إنما صورة مشوهة ـ عن عمد ـ تكبّر فيها الأخطاء مئات المرات، وتمحى فيها كل الحسنات، حتى تبدو سوادا كلها، حالكة السواد!

وعبد الحميد بصفة خاصة . . الذى كانت جريمته الكبرى ـ فى حس أعدائه ـ رفضه بإصرار إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين . . فهذا ينبغى أن تكون صورته أسود من السواد! ليكون عبرة لكل من يقف فى وجه أطماع الصليبية العالمية واليهودية العالمية . .

وكان أشد ما وضع لفتنة المسلمين، وسلخهم من الإسلام، تصوير وضعهم

---

(١) يقصد توينبى بالدول البروليتارية الدول الواقعة تحت سيطرة الغرب، أو ما يسمى فى مصطلح هذه الأيام بدول «العالم الثالث».

(٢) راجع فصل « خط الانحراف» عند الحديث عن الدولة العثمانية .

التاريخى فى أواخر الدولة العثمانية بأنهم كانوا بين خيارين اثنين لا ثالث لهما : إما البقاء فى ظل الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى، ومعه التأخر والانحطاط والجمود فى كل ميادين الحياة، ومعه الظلم والاستبداد والتسلط ؛ وإما إزالة الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى، والانفتاح على التقدم والحضارة والرقى فى كل ميادين الحياة، بعد التحرر من الظلم والتسلط والاستبداد ! [1] .

وحجب عن المسلمين ـ فى هذه الصورة ـ البديل الثالث الممكن ، وهو قيام حركة إسلامية صحيحة، تصلح مفاسد الحكم العثمانى، ولكن تبقى على الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى، سواء فى تركيا أو فى أى مكان من العالم الإسلامى ، وتصلح انحرافات المجتمع الإسلامى وترده إلى حقيقة الإسلام . .

فهذا البديل بالذات هو ما يكرهه أعداء الإسلام ، وأشد ما يتخوفون منه، فلا ينبغى أن يظهر فى الصورة على الإطلاق، ويبقى الخيار بين البديلين السابقين، ذلك الخيار الذى يؤدى ـ فى النهاية ـ إلى الانسلاخ من الإسلام !

* * *

كذلك استخدم طريق ثالث فى مجال الفكر والأدب لصرف المسلمين عن الإسلام . .

إن « الأدباء» و«المفكرين» الذين تعلموا اللغات الأجنبية قد وقعوا ولا شك على ثروة أدبية وفكرية فى اللغات التى تعلموها، كانت جديدة بالنسبة إليهم ، وكان فيها أشياء كثيرة تستحق الاطلاع عليها والاستفادة منها؛ وكانت بالنسبة للخواء الفكرى الذى يعيشه المسلمون تبدو ثروة لا تقدر بثمن ، وزادا دسما يصلح لإقامة الحياة.

وحدث انبهار ضخم عند هؤلاء « الأدباء» و«المفكرين» بالفكر الأوربى والثقافة الأوربية . .

---

(١) حين أزيلت الدولة العثمانية وقع المسلمون فى قبضة أعدائهم ، يذبحونهم ويقتلونهم وينتهكون حرماتهم و«لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة» كما قرر سبحانه وتعالى فى محكم تنزيله. وكان هذا هو « التحرر» من التسلط والاستبداد الذى نالوه من أيدى أعدائهم الذين أغروهم بالانسلاخ من دولة الخلافة والانسلاخ من الإسلام . ثم جاء بعد ذلك عهد «الاستقلال» الذى حكم فيه العالم الإسلامى عملاء الصليبية والصهيونية فأوقعوا بالمسلمين أبشع أنواع الدكتاتورية فى التاريخ، وأبشع مذابح التاريخ! ومازال عبيد الغرب يتحدثون عن « الاستعمار التركى» ومفاسده، بينما كانت مفاسد الحكم التركى لا تقاس إلى جانب وحشية حكامهم فى عهود « الاستقلال» .

ولسنا نقـول إن الفكر الغربى والثقافة الغربية كانا شيئا غثا لا يستحق الاطلاع عليه . . بل نقول ـ على العكس ـ إن فيهما أشياء كثيرة تستحق الاطلاع . ولكنا نشير إلى نقطتين هامتين فى الموضوع .

الأولى : أن قاعدة هذا الفكر منحرفة ، لأن الظروف التى أحاطت بأوربا ونفرتها من الدين ، جعلت هذا النفور يتغلغل فى الفكر الأوربى كله ، ويشمل جميع ميادينه ، سواء كان أدبا صرفا ، أو دراسة « علمية » أو سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية الخ . . وأن الشرود عن الله ، ومعاندة كل ما يأتى من عند الله ، قد ترك بصماته على هذا الفكر ، ومن ثم جنح عن الرؤية الصحيحة لحقائق الوجود الرئيسية ، وأوجد صورة ـ أو صورا ـ لهذا الوجود ليست هى صورته الحقيقية ، ما دامت تصوره منقطعا عن خالقه ، قائما بغير تدبير خالقه له ، وعلى غير السنن التى رتبها خالقه له . . وحين لا يرى الإنسان تلك الحقيقة العظمى تفوته الرؤية الصحيحة الشاملة للوجود كله ، كما تفوته « قطاعات » كاملة من هذا الوجود ، لا تدخل فى « الرؤية » البشرية حين تنقطع عن الوحى الربانى . . وينعكس هذا كله على الوجود الإنسانى ، وغاية هذا الوجود ، والمنهج الذى يتبع لتحقيق تلك الغاية بعد تحديدها . . فيكون ذلك كله « هوى » بدلا من أن يكون « حقائق » ، ويكون تجارب عشوائية لا تستند إلى يقين . .

﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن﴾ [1] .

﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ،ذلك ظن الذين كفروا﴾ [2] .

والثانية : أن فى هذا الفكر مزايا إيجابية لا شك فيها . منها اتخاذ « المنهج العلمى » فى البحث ، والصبر والجلد على البحث ، وعبقرية التنظيم ، واتخاذ التجربة أساسا للبحث ، مما أدى ـ بالذات ـ إلى تقدم هائل فى ميادين العلوم البحتة ، وميدان التكنولوجيا الحديثة . . ولكن الحقائق الجزئية ـ الكثيرة ـ التى اهتدى إليها هذا الفكر ـ فى جميع الاتجاهات ـ لا تنفى انحراف القاعدة الأساسية التى تقوم عليها تلك الحقائق الجزئية ، كما أن انحراف القاعدة يجعل الفائدة النهائية من هذه الحقائق الجزئية محدودة ، بينما كانت تكون هى ذاتها أبلغ وأعمق وأجمل ، لو كانت قائمة على قاعدتها الصحيحة ، حيث تظهر الارتباطات الحقيقية الحية بين الجزئيات ، حين تُرَى آثار الصنعة الربانية الشاملة الواحدة الموحِّدة فى جنبات الكون كله . .

---

(١) سورة المؤمنون [٧٠] .   (٢) سورة ص [٢٧] .

ولكن الرؤية الكاشفة لهذا الفكر، التى تميز بين مزاياه وعيوبه، والتى تستفيد من جزئياته الصحيحة ، وتدرك فى ذات الوقت انحراف قاعدته فلا تتأثر بها بل تنبذها وتنكرها . .

هذه الرؤية لا تتوافر إلا لصاحب الرؤية الإسلامية الصحيحة، ذات القاعدة الشاملة السليمة المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ، والتى تمدّ صاحبها بالبصيرة التى يضع فيها ذلك الفكر موضع التمحيص والنقد، فيعلم ماذا يأخذ وماذا يدع.

وكان هذا كله غائبا بسبب الخواء الذى يعيشه المسلمون، الناشئ من التخلف العقدى، ومن جمود الفكر الإسلامى على ما كان عليه قبل قرون، وعدم مواكبته لما جدّ فى حياة الناس من أمور، وتحول الإسلام كله فى حس المسلمين إلى تقاليد خاوية من الروح، سواء فى ميدان العمل أو فى مجال التفكير . .

ولكن الانبهار الذى أصاب أولئك « الأدباء» و«المفكرين»، الناشئ من عدم اتصال روحهم بروح الإسلام ، وعجزهم عن الغوص والتعمق فى حقائق الإسلام ببصيرة المسلم الموصول القلب بالله ، وبالكون الذى خلقه الله، وبحقائق الوجود وحقائق الحياة . . ذلك الانبهار كان يمكن أن يظل « مسألة شخصية» عند هؤلاء الأدباء والمفكرين، يظلون يعانونها حتى يفتح الله عليهم بالرؤية الصحيحة، التى تتولد فى القلب المتفتح حين يمارس الإسلام بكيانه كله، فيفتح الإسلام له كنوزه ـ على قدر موهبته ـ ويفتح بصيرته بقدر ما يصدق فى عبادة الله . .

ولكن الذى نشر ذلك الانبهار على نطاق الأمة كلها، كان هو تلك الأجهزة المتربصة لالتقاط أولئك الأدباء والمفكرين، وتكبيرهم، والدعاية لهم، ونشر أفكارهم على أوسع نطاق ممكن . . وقامت الصحافة بالنصيب الأوفى فى ذلك المجال . . فوصّلتهم، لا للمكانة التى كانوا يستحقونها بمواهبهم فحسب، بل زيادة عليها عدة أضعاف ! وجعلت لهم دويا يخترق الآذان ويستقر فى الأذهان!

وفى غياب الفكر الإسلامى الحقيقى، الحىّ المتجدد، المستمدّ من المنابع الصافية، الشامل لكل مجالات الحياة . . صار أولئك الأدباء والمفكرون « العلمانيون» هم قادة الفكر، وعمداء الأدب، وأساتذة الجيل . . فجرّوا الأمة كلها وراءهم إلى الفكر الغربى، على أنه « مهبط الوحى» وزاد الحياة! وذلك حين خرجت أجيال من المتعلمين تتلقف فكرهم وأدبهم فى لهفة وشغف، وتتحلق حولهم، وتتعصب لهم، وتصوغ

فكرها من فكرهم، واتجاهاتها من اتجاهاتهم . . وقد كانت اتجاهاتهم كلها بعيدة عن الإسلام، بل منسلخة تماما من الدين، إن لم تكن ساخرة مستخفة مستهزئة! متجهة إلى الغرب وأفكاره وأدبائه وفلاسفته، وأصبحت أسماء الأدباء والشعراء الأوربيين من أمثال شكسبير ووردزورث وبايرون وغيرهم (للمدرسة الإنجليزية) وأناتول فرانس وفيكتور هوجو وأندريه جيد وغيرهم (للمدرسة الفرنسية)[1] هى البديل من امرئ القيس وعلقمة والمتنبى والبحترى . . البديل الذى يعطى صاحبه علوا فى الأرض، وانتفاشا فى القوم، لأنه « مثقف » ، ولو كان كل علمه بأولئك الأدباء والشعراء - كما قلنا من قبل - هو مجرد ذكر أسمائهم ! وأصبحت : قال فلان أو فلان من مفكرى الغرب هى البديل عن « قال الله وقال الرسول » . . بل أصبحت « قال الله وقال الرسول » هى عنوان الرجعية والجمود والتأخر . . من ناحيتين اثنتين على الأقل : من ناحية أنها مكتوبة باللغة العربية، ومن ناحية أنها « دين » !

«هـ» مجال السياسة

أما فى عالم السياسة فلم يكن الأمر أقل سوءا . . بل ربما كان أشد خطورة . . لقد حاول نابليون من قبل تنحية الشريعة الإسلامية ، ووضع « قانون نابليون» بدلا عنها . . ولكن الأمة المسلمة فى مصر أبت ذلك إباء، وثارت على الحملة الفرنسية الصليبية الكافرة، وطردتها آخر الأمر، بعد مقاومة عنيدة قامت بها الأمة الإسلامية المصرية، وبعد قيام « سليمان» المسلم الحلبى بقتل كليبر قائد الحملة بعد رحيل نابليون .

ولكن الإنجليز حين جاءوا إلى مصر عام ١٨٨٢ م نَحَّوْا الشريعة الإسلامية، وحكّموا بدلا عنها قانون نابليون، دون ثورة من جانب الشعب . .

ولقد يعجب الإنسان اليوم من تبدل الموقف تجاه الأمر الواحد ما بين عامى ١٧٩٨ و١٨٨٢م، ولكن عوامل عدة كانت تعمل فى ساحة الأحداث وفى داخل النفوس .

فلا شك أن ما يزيد على ثمانين سنة من الزحزحة المستمرة عن الإسلام كان لها أثر ملموس فى عالم الواقع . فسياسة « التغريب» التى اتبعها محمد على، وورثها من بعده أبناؤه، وكان قوامها الأول سياسة الابتعاث التى اتبعها محمد على، ثم سياسة

(١) كان فى مصر مدرستان ثقافيتان متميزتان : المدرسة الإنجليزية وعلى رأسها عبد الرحمن شكرى وتلميذاه، المازنى والعقاد، والمدرسة الفرنسية وعلى رأسها طه حسين .

«الفرنجة» التدريجية التى اتبعها أبناؤه ، وبخاصة الخديو إسماعيل ، كان لها أثرها التدريجى فى تقبل الأفكار الغربية وأنما ط الحياة الغربية ، وتضاؤل الاستنكار لها كلما تقدم الزمن . .

ووجود المدارس التبشيرية التى نشطت فى عهد أبناء محمد على ، وكان يتعلم فيها مسلمون ومسلمات ، يتزايد عددهم على الدوام ، ويبرزون بالتدريج على ساحة المجتمع ، وينشرون التفرنج سواء فى أزياء الملبس أو أزياء الفكر أو أزياء السلوك . . كان له كذلك أثره التدريجى فى زحزحة المجتمع من نقطة ارتكازه الطبيعية - وهى الإسلام - بإيجاد نقطة ارتكاز أخرى إلى جانبها ، تبدأ ضعيفة وتقوى بالتدريج . . [1] .

وربما كان العامل المباشر الذى حدد موقف الأمة الإسلامية فى مصر من تنحية الشريعة الإسلامية ، هو فشل الثورة التى قام بها عرابى فى صَدِّ الإنجليز ؛ ودخول الإنجليز منتصرين ، واحتلالهم البلاد بعد القضاء على قوة الجيش المصرى ، ولكن هذه - وحدها - لم تكن لتؤدى إلى سكوت الأمة عن هذا الأمر الخطير ، لولا العوامل التى أشرنا إليها آنفا ، ولولا الخواء الشامل الذى أصاب حياة الأمة من تخلفها العقدى . فقد حدثت هزيمة المجاهدين المسلمين فى الهند أمام الغزو الإنجليزى ، ولكن تنحية الشريعة الإسلامية هناك ، وإحلال القانون الانجليزى محلها ، أثارت المجاهدين مرة أخرى - رغم هزيمتهم - فقاموا بثورات متعددة ما بين عام ١٨٢٦ وعام ١٨٥٧ م كبدت الإنجليز خسائر كثيرة فى الأرواح ، ولم تسمح لهم بالاستقرار حتى قضوا عليها بوحشية بالغة .

ولا شك أن « المتدينين» نظروا إلى الأمر على أنه كفر صريح لا يمكن الرضا عنه . . ولكنهم غلبوا على أمرهم فسكتوا صاغرين . . ولكن الاحتلال الصليبى البريطانى لم يكن ليأمن ، حتى لو سكت الناس صاغرين . فهم يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم ، وتجربتهم فى الهند - على الأقل - تعلمهم أن المسلمين قد يعودون إلى الثورة والمقاومة ما لم يسحق فيهم « الإسلام» . .

لذلك كان الغزو الفكرى الذى اتبعوه - على طريقتهم البطيئة الأكيدة المفعول - موجها إلى كل ركن من أركان الحياة الإسلامية ، لزحزحة هذه الأمة زحزحة كاملة عن الإسلام (مع المحافظة على المظاهر الخاوية للإسلام منعا من إثارة الشكوك كما قال كرومر فى تقريره الذى سبقت الإشارة إليه)

---

(١) راجع ما قلناه من قبل عن دور رفاعة رافع الطهطاوى فى الحياة المصرية .

وكان من أهم المجالات التى عنى الاحتلال الصليبى بها مجال السياسة . . أى مجال الحكم والتشريع .

لقد ظلت هذه الأمة ثلاثة عشر قرنا قبل ذلك تحكّم الشريعة الإسلامية ، ولا تعرف لها بديلا فى حياتها ، ولا تتصور - مجرد تصور - أن يكون لها فى حياتها بديل . وترى - بحق - أن تحكيم الشريعة الإسلامية هو قرين إسلامها ، ومقتضاه الواقعى فى حياتها ، إلى جانب صلاتها وعبادتها ، وأن هاتين الصفتين هما اللتان تميزان المسلم من الكافر : تحكيم الشريعة وإقامة الصلاة ، أما بقية الأمور فقد يجرى عليها شىء من التساهل (أو شىء من الإرجاء !) ولكنه لا يجرى على هذين الأمرين بالذات !

وكان هذا مما حفظ لهذه الأمة وجودها التاريخى ، رغم كل ما وقعت فيه من أخطاء ، ومن تقصير ، ومن بدع ، ومن انحرافات . . وقد غلب الاحتلال الصليبى الأمة على نفسها ، فنحّى شريعتها ، وألجمها بالحديد والنار والعسف والتسلط ، ولكنه - كما قلنا - لا يأمن أن يحدث رد الفعل ، وأن تحدث الثورة على هذا الأمر فى يوم قريب أو بعيد . . فلابد من العمل الجاد للحيلولة دون وقوع رد الفعل المرهوب . .

وهنا تقدم عملاؤه لمعاونته فى زحزحة الأمة عن عقيدتها فى عالم السياسة ، كما عاونه آخرون فى مجال الفكر والأدب ، ومجال المرأة ، ومجال الأخلاق . . وكل مجال عمد فيه إلى محاربة الإسلام . .

جاء أستاذ الجيل (!) لطفى السيد ليقول فى « جريدته » [1] كلاماً ما أنزل الله به من سلطان !

جاء يقول للناس : إن الإنجليز هم أولياء أمورنا فى الوقت الحاضر ! ولا ينبغى أن نحاربهم ونقاومهم ! إنما واجبنا أن نتعلم منهم ، ثم نتفاهم معهم بعد ذلك لتصفية ما بيننا وبينهم من خلافات !

أرأيت كم جريمة يرتكبها - ويدعو إلى ارتكابها - « أستاذ الجيل » !

الجريمة الأولى هى القول بأن الإنجليز هم أولياء أمورنا فى الوقت الحاضر . . والمسلمون لا يعرفون لهم فى تاريخهم ولى أمر إلا منهم :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾ [2] .

---

(١) كان اسمها « الجريدة » . (٢) سورة النساء [٥٩] .

وبصرف النظر عما وقع من التحريف - فيما بعد - من تفسير « منكم » على المفهوم الوطنى أو القومى الذى يأباه الإسلام ، وصرفها عن معناها الإسلامى الحقيقى - أى المسلمين الذين يحكمون بشريعة الله ، وهم وحدهم الذين أمر الله بطاعتهم ، بل قيد طاعتهم بطاعتهم هم لله ورسوله ، كما هو ظاهر فى الآية من ذكر الأمر بالطاعة لله وللرسول وحدهما ، وعطف طاعة أولى الأمر على طاعة الله والرسول دون ذكر الفعل الآمر بالطاعة . . وكما هو ظاهر من التعقيب الأخير فى الآية : ﴿ **فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر..** ﴾ وكما هو واضح من قول رسول الله ﷺ : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » [1] .

بصرف النظر عن هذا كله ، فتلك أول مرة فى تاريخ الأمة الإسلامية ، توجه الأمة فيها إلى قبول « أولياء أمر » لهم من غير المسلمين أصلا . . من الصليبيين الكافرين ! !

إنما استولى الصليبيون فى الحروب الصليبية الأولى على بعض البلاد الإسلامية ، وأقاموا فيها دويلات - فى مصر والشام - استمر بعضها مائتى عام ، ولكن لم ينظر المسلمون قط إليهم على أنهم «أولياء أمورهم» ! إنما نظروا إليهم على أنهم كفار يغتصبون أرضا إسلامية ، ينبغى « جهادهم» لإجلائهم من أرض الإسلام . .

ولكن « أستاذ الجيل» كان يدلى بدلوه فى حرب الإسلام! فيزين للأمة أن تتخذ وليًا لها من الصليبيين!

أما جريمته الثانية فهى طلبه من الأمة ألا يقاوموا عدوهم الصليبى الغاصب ، إنما بدلا من ذلك يتعلمون منه !

وأى شىء كان يريد من الأمة أن تتعلم منهم؟!

لو أنه وجه الأمة أن تتعلم منهم أسباب القوة الحقيقية ، من التقدم العلمى والتكنولوجى ، والجلد على العمل والصبر عليه ، والتنظيم الدقيق لكل أمور الحياة ، مع تحذيرها من الوقوع فى الفساد العقدى المتمثل فى نبذ الدين عن كل مجالات الحياة ، والفساد الاجتماعى المتمثل فى إخراج المرأة من بيتها ووظيفتها وفطرتها ، وما يترتب عليه من فساد خلقى وفوضى وإباحية ، والفساد الفكرى الناشئ من تصور الكون بلا خالق ، وتصور الإنسان على أنه حيوان ، وتصور الحياة الدنيا على أنها هى المبدأ والنهاية بلا بعث ولا معاد ، ولا حساب ولا جزاء . .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود وسنده صحيح .

لئن فعل ذلك لقلنا إنه « أستاذ» حقا ، يوجه « الجيل » إلى ما فيه خيره وفلاحه بالنسبة للظروف المحيطة به . .

ولكنه لم يقل شيئا من ذلك ، وما كان متصورا منه أن يقول . . ولو قالها ما حصل قط على لقب أستاذ الجيل ! إنما كان مع الرجعيين المتخلفين !

وأما الجريمة الثالثة فهى دعوته بعد ذلك كله إلى « التفاهم» مع العدو الصليبى الغاصب بعد مرحلة التعلم ، لا إلى الجهاد لإجلاء الغاصبين بعد استمداد وسائل القوة عن طريق « التعلم» منهم !

وهى كلها « خدمات» لأصحاب الشأن ، كان لها وزنها عند إطلاق اللقب عليه ، واستمرارهم فى إضفاء اللقب عليه إلى آخر لحظة من حياته .

ولكن الخدمة الكبرى التى قدمها ، واستحق عليها التقدير بحق ممن يملكون التقدير يومئذ ، لم تكن فى مجرد « الكلام» على هذا النحو . فالكلام وحده - وإن استمر يكرر كما كان يكرره لطفى السيد - لا يؤتى ثمرته حتى يتبناه قوم فيعملوا به . .

لذلك كانت الخدمة الحقيقية هى « تخريجه» لجيل من « الزعماء» فى اتجاهات مختلفة ، من بينهم محمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول ! فهنا « الأستاذية» الحقة التى تستحق اللقب وتستحق التقدير !

ولكنا لا نستطيع إدراك هذا الأمر على حقيقته حتى نعرج على صالون « نازلى فاضل» ، لندرك لمحة مما كان يجرى فيه . .

* * *

لقد ابتليت مصر فى تاريخها الحديث بثلاثة « صالونات» كان لها تأثير ملحوظ فى خط سير الأحداث : صالون مى زيادة (مارى زيادة) الأديبة الشاعرة اللبنانية المسيحية ، وصالون هدى شعراوى ، وصالون نازلى فاضل .

و«الصالون» مكان يُستقبل فيه الناس من « عشاق » لون معين من ألوان الفن أو الفكر أو الثقافة . . إلخ . فيقضون فيه وقتا للتعارف والتدارس و«التذوق» والتأثر والتأثير . . فيكون بمثابة منتدى لهم ، ولكنه منتدى خاص ، لا يفتح لعامة الناس ، إلا من أذن له صاحب الصالون ورضى عنه . . وله تقاليده الخاصة التى ينبغى أن تراعى . فهو أولا وآخرا « بيت» مملوك لصاحبه ، وصاحبه هو صاحب التصرف فيه .

ولكن الصالونات الثلاثة المشار إليها كانت تتميز بأن أصحابها نساء ! ونساء يستقبلن الرجال بلا محارم! على غير مثال مسبوق فى الحياة الإسلامية[1]، ويبقى الرجال ساعات متطاولة فى « ضيافة» صاحبة الصالون ، لا يهم أن يكون فرداً أو جماعة من الرجال في وقت واحد .

فأما مىّ الأديبة الشاعرة فقد فتنت أدباء مصر جميعا فى وقت من الأوقات ، بظُرفها ـ كما قالوا ـ ولطف حديثها ، وحسن استقبالها للرجال ، وثقافتها ، ولباقتها ، و . . . [2] .

وأما هدى شعراوى فقد استقطبت من استقطبت من الصحفيين والشعراء والكتاب المدافعين عن « قضية المرأة » .

وأما نازلى فاضل فقد كان صالونها أخطر الثلاثة .

كانت نازلى فاضل أميرة « متحررة » من أميرات أسرة محمد على ، تعلمت على الطريقة الغربية ، وتخلقت بأخلاق الغرب ، وجعلت من بيتها صالونا على النحو الذى ذكرناه ، تستقبل فيه الرجال وتتجاذب معهم أطراف الحديث .

ولكن أى رجال . . وأى أحاديث ؟!

لقد كان أكبر زبائنها هو اللورد كرومر نفسه !

وناهيك بصالون يكون ضيف الشرف الدائم فيه هو المعتمد البريطانى . . الحاكم المطلق فى البلاد !

ثم كان من رواده الذين يكثرون التردد عليه : لطفى السيد ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، ومحمد عبده ، ومصطفى فهمى والد صفية ، التى سميت بعد زواجها من سعد زغلول : صفية زغلول ! نسبة إلى زوجها ، على طريقة الغرب فى إلحاق الزوجة بلقب الزوج !

فأما محمد عبده فقد كتب فى مذكراته التى نشرتها دار الهلال بعنوان « مذكرات

---

(١) يزعم بعضهم أن سكينة بنت الحسين رضى الله عنها ـ وهى أديبة وشاعرة ـ كانت تستقبل الرجال فى بيتها يتلقون الأدب والعلم على يديها . وأيا تكن صحة ذلك فقد كانت سكينة محجبة ، تخاطب الرجال من وراء حجاب ، وترعى حرمات دينها وربها . أما هؤلاء فقد كن سافرات ، لا يرعين فى صالوناتهم شرعا ولا حرمة .

(٢) انظر دواوين العقاد الأربعة الأولى ، و«أوراق الورد» و«رسائل الأحزان» للرافعى .

محمد عبده» : إنه تأثر تأثرا عميقا بلطف السيدة . . وإن عمق تأثره بها قد غير نظرته إلى المرأة تغيرا كاملا !

ومحمد عبده ـ كما هو مشهور ـ هو كاتب مقدمة كتاب قاسم أمين المسمى « تحرير المرأة» ! وقد قيل في يوم من الأيام إنه كاتب الكتاب كله ، أو الموحي بأفكاره لقاسم أمين . ولكن حسبنا منه كتابة المقدمة ، لنتعرف على نوع « التأثر » الذي تأثره محمد عبده من لطف « نازلي هانم» صاحبة الصالون!

أما قاسم أمين فهو غني عن الإشارة . .

وأما سعد زغلول فله قصة لابد من ذكرها ، لأنها تمثل تحولا من أخطر التحولات في الحياة المصرية الحديثة [1] . .

كان سعد موهوبا موهبة « الزعامة» بالنسبة للأمة المصرية في ذلك الحين . . . أعني موهبة الخطابة !

فقد كانت الجماهير في ذلك الوقت تتحلق مبهورة الأنفاس حول « الخطيب» ، كما تتحلق حول الساحر الذي يصنع الأعاجيب . وكان هذا أمرا منطقيا مع الأحوال يومئذ ، لا بالنسبة لمصر وحدها ، بل بالنسبة لأكثر البلاد العربية والإسلامية ، إن لم نقل لكثير من بلاد العالم كذلك .

لقد كانت نسبة التعليم أقل مما هي اليوم بكثير في أكثر أصقاع الأرض . ومن ثم لم تكن الكلمة المكتوبة تحدث أثرها الذي تحدثه اليوم عند المتعلمين القارئين ، الذين تعودوا أن يقرأوا ، وأن يتأثروا بما قرأوا ، على روية وتدبر بغير انفعال .

ولم تكن الإذاعة قد أنشئت بعد ، حيث يمكن للناس أن يستمعوا وهم متفرقون في بيوتهم أو نواديهم . .

ومن ثم كانت الوسيلة هي الخطابة . .

يقف الخطيب في مكان الاجتماع ، فتتحلق حوله الجماهير . . وعلى قدر موهبته الخطابية يكون تأثيره في الجماهير ، ويكون في الوقت ذاته ترشيحه « للزعامة» !

---

(١) كل من الثلاثة : محمد عبده ، وقاسم أمين ، وسعد زغلول يمثل في الحقيقة تحولا خطيرا في حياة الأمة ، ولكن ربما كان سعد أشدهم أثرا وأكثرهم خطورة .

وبطبيعة الحال لا تكون القدرة الخطابية وحدها هى كل مقومات الزعامة ، فلابد من صفات أخرى يتصف بها الزعيم ، ولابد من « مواقف » يقفها ليبرز بين الجماهير وتلتف حوله . . ولكن الخطابة - يومئذ - كانت فى مقدمة المؤهلات .

وقد كان سعد موهوبا فى الخطابة بصورة غير عادية . .

كان يشتغل فى مبدأ أمره بالمحاماة ، وكان إذا ترافع فى قضية تغصّ قاعة المحكمة بالحاضرين ، الذين جاءوا فقط ليسمعوا مرافعته ، أو بالأحرى جاءوا ليسمعوه وهو يترافع ! بينما القضية ذاتها التى يترافع فيها لا تهمهم من قريب ولا من بعيد !

ومن هناك التقطه الصالون . .

التقطه ليصوغه صياغة معينة ، تؤدى دورها الخطير فى مسار الأحداث .

هناك التقى بكرومر ، ولطفى السيد ، ومصطفى فهمى (والد صفية «زغلول ») وغيرهم ممن يعملون على «التقريب» بين المصريين والإنجليز ، عن طريق «التغريب» .

وبعد مرحلة معينة من « الصياغة » و«التشكيل» عينّ كرومر سعداً وزيرا للمعارف .

ويقول كرومر عن هذا التعيين (فى تقريره لسنة ١٩٠٦ ، المقدم للبرلمان الإنجليزى فى أبريل سنة ١٩٠٧) [١] بعد كلام طويل عن « الوطنية المصرية» وصف فى ختامه المدرسة الفكرية التى ينتمى إليها سعد زغلول ، والتى سماها على سبيل الاختصار (مدرسة محمد عبده) بأن برنامجها يقوم على (التعاون مع الأوربيين - لا معارضتهم - فى إدخال المدنية الأوربية إلى بلادهم) ونصح بأن يمنحوا كل تشجيع ممكن . . يقول كرومر بعد ذلك : إن اختيار سعد زغلول لمنصب وزير المعارف ليس إلا تنفيذاً لسياسة ترمى إلى تأييد هذه المدرسة ، ووضع مقاليد السلطة فى يدها . ثم يقول عقب ذلك ما نصه : « وسوف نراقب ما تتمخض عنه هذه التجربة من آثار فى عناية وانتباه . فإذا نجحت التجربة ، وذلك ما آمله وأعتقده ، فسوف نمنح قدراً أكبر من التشجيع للسير فى الاتجاه نفسه إلى مدى أبعد . أما إذا فشلت التجربة فستكون النتيجة الحتمية لذلك هى الاعتماد فى شئون الإصلاح على الأوربيين - وعلى الإنجليز خاصة - إلى مدى أكبر مما جرى عليه العمل سابقا . وأيا ما كانت الحال ، فلن يكون هناك سبيل إلى التراجع . إن العمل يسير بجد ونشاط فى إدخال المدنية الغربية إلى مصر . وهو يأخذ طريقه بتقدم

---

(١) ص ٨ من النسخة الإنجليزية .

ونجاح فى كل إدارة من إدارات البلد ، حسب خطة مرسومة وضعت خطوطها بعد دراسة للموقف ، تقوم على التطور والتدرج ، لا على الانقلاب العنيف والتغيير المفاجئ[1]» [2] .

ويقول المدافعون عن سعد زغلول : إنه يكفيه فخراً و«وطنية» أنه جعل التعليم باللغة العربية بعد أن كان كله باللغة الإنجليزية ، وأنه أصر على هذا المطلب حتى استجاب له الإنجليز . .

ولسنا نقول إن سعدا كان صفرا . .

ولسنا نقول إنه كان ألعوبة فى يد الاستعمار ، يؤمر فيطيع ، كما كان « زيور باشا » مثلا ، أو غيره من الذين كانوا لا يعرفون إلا تنفيذ الأوامر الصادرة إليهم . .

إنما نقول إن هناك اطمئنانا مبدئيا لدى الاستعمار الصليبى أنه سيقوم بعملية التغريب ، وعملية التقريب . . وهو هدف رئيسى ، يهون أمامه أن يستجيبوا له فى تعريب التعليم ، مادام التعليم ذاته سيظل على ذات المنهج الذى وضعه دنلوب ، وأشرف على تنفيذه بكل دقة ، بينما « الرياسة» فى الوزارة لسعد زغلول!

لقد كان المعروف لدى الناس عموما أن دنلوب هو الوزير الحقيقى فى الوزارة ، وبصرف النظر عن فكرة الناس فهذه هى الوقائع : لقد صار التعليم باللغة العربية نعم - وذلك أمر فيه من الخير ما فيه - ولكن ماذا يُعَلَّم الطلاب؟ هل سعى سعد - وهو صاحب الثقافة الأزهرية العربية الدينية - إلى إزالة الإجحاف المتعمد الذى وضعه دنلوب على معلم اللغة العربية ، والذى ينشأ عنه ما ينشأ فى نفوس الطلاب من ازدراء اللغة العربية وكل ما هو مكتوب بها ، بينما مدرس اللغة الإنجليزية - فى التعليم المعرّب - هو صاحب الصدارة ، وصاحب الكلمة المسموعة؟ هل سعى سعد إلى إحياء درس الدين من الموات الذى فرضه عليه المنهج الدنلوبى الخبيث ، بإعطائه لأهرم المدرسين وأعجزهم ، ووضعه فى نهاية اليوم المدرسى ، وحذفه آخر العام من الجدول المختصر بوصفه « مادة إضافية» ، وحصره فى استظهار مجموعة من الآيات - بلا شرح ولا تفهيم - ومجموعة من النصوص لا تستجيب لشىء فى عالم التلاميذ؟ هل سعى سعد إلى تصحيح منهج

---

(١) أى على الأسلوب الإنجليزى المعروف : « بطىء ولكنه أكيد المفعول» !

(٢) عن كتاب « حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين ، طبع مطبعة الرسالة ببيروت ، الطبعة الثامنة سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م ص ١٠٣ .

تدريس التاريخ - سواء منه الإسلامى أو الأوربى - الذى يخرّج طلابا لا يعتزون بتاريخهم، وتُلوى أعناقهم ليًا إلى أوربا، فيشبون على الانسلاخ من الإسلام والذوبان فى الغرب؟

إن هذا هو المحك . . وهذا هو الميزان الذى يوزن به « وزير المعارف» فى بلد مسلم، يفتات الاستعمار الصليبى على إسلامه ، ويهدف - كما قال كرومر صراحة - إلى زحزحته زحزحة كاملة عن حقيقة دينه، مع رعاية المظاهر الخاوية للإسلام، منعاً من إثارة الشكوك . .

هنا يصبح « وزير المعارف» بطلا حقيقا، يستحق الإشادة به ، ويستحق أن يأخذ مكانه من التاريخ . .

فهل سعى سعد إلى شيء من ذلك ؟ بل هل فكّر فيه مجرد تفكير؟

إن إصراره على تعريب التعليم عمل خيّر بلا شك، فقد أبقى الخيط موصولاً لاينقطع ، كما كاد ينقطع فى الشمال الإفريقى [1] ولكن أفق سعد كان ينتهى عند هذه النقطة، لا يتجاوزها إلى النقطة الجوهرية ، التى كان ينبغى أن يهتدى إليها بحكم إسلامه أولاً، وبحكم ثقافته الأزهرية العربية الدينية ثانياً. فأين ذهبت حساسيته «للإسلام» الذى يُجْليه دنلوب عمدا من مناهج التعليم ، ويخرّب قواعده فى نفوس الدارسين؟

هنا ينبغى أن نرجع إلى لطفى السيد، وإلى « نازلى هانم» وإلى أثر « الصالون» بعامة فى قلب الرجل الأزهرى دارس الشريعة الإسلامية والدين الإسلامى !

فإن كرومر لم يضعه فى وزارة المعارف إلا بعد أن اطمأن إلى « تهذيبه» و«تشذيبه» فى الصالون !

هذه واحدة . .

ثم كان سعد هو « الوكيل المنتخب» لمجلس شورى القوانين . . بحكم « شعبيته» الذائعة الصيت . .

وينبغى أن نعرف أولا ما هو مجلس شورى القوانين . .

---

(١) عرب التعليم فى الشمال الإفريقى بعد نضال كبير بعد خروج الفرنسيين. ولكن مازال الفكر الغربى الذى دسه الاستعمار الصليبى يحتاج إلى جهد « إسلامى» لإزالة آثاره . .

إنه فى ظاهره « مجلس نيابى» لتعويد الشعب أن يحكم نفسه بنفسه ! وما كان الإنجليز حريصين قط ـ فى أى بلد احتلوه ـ على أن يردوا السلطة للشعب الذى اغتصبوا حريته وأخضعوه لهم بالحديد والنار !

إنما كان الهدف الحقيقى من هذا المجلس هو إصدار « قوانين» تحكم البلاد بدلا من الشريعة الإسلامية ! وما كان الاستعمار الصليبى ـ فى مصر خاصة ـ يرغب أن يستقل بسلطة إصدار القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية ، رغم ماله من سلطان ، كما صنع فى الهند مثلا ، لأن مصر بلد الأزهر ، وبلد علماء الدين لعدة قرون . . ومن الخير له ـ حسب أسلوبه الذى اتبعه فى مصر ، الأسلوب البطىء الأكيد المفعول ـ أن تكون هناك سلطة « شعبية» هى التى تعطى « الشرعية» لهذه القوانين ، فيكون « الشعب » هو الذى يصدر القوانين المخالفة للشريعة ، بمعرفته وبرغبته! وتكون سياسة الاستعمار هى التظاهر بالغضب والاستياء من أن الشعب يريد أن يفرض إرادته على المستعمرين! وفى وسط « اللعبة» تمر القوانين المطلوبة كأنها « كسب» للشعب جاء رغم إرادة الاستعمار!

وكان للمجلس وكيلان ، أحدهما معين والآخر منتخب ، وكان الوكيل المنتخب هو سعد زغلول . . فقد كان له فى ذلك الوقت من الشهرة الشعبية ما يجعله ينتخب بسهولة فى ذلك المكان . .

نعم ، كان هو « الممثل الشعبى» الذى يعبر ـ بمنصبه هذا ـ عن كون الشعب ممثلا فى المجلس . ولكن أى شعب كان يمثله سعد ، وهو يصوغ القوانين المعارضة للشريعة الإسلامية ويمنحها الشرعية؟ هل هو شعب مصر المسلم ، الذى ينبغى ـ بمقتضى إسلامه ـ أن يحتكم إلى شريعة الله ، ويرفض الاحتكام إلى كل شريعة غير شريعة الله ؟

وبصرف النظر عن حال الشعب يومئذ ـ من إقبال على الإسلام أو إدبار ، أو إهمال لهذه القضية بالكلية ـ فإن سعداً ليس فردا عاديا من الشعب . . بل هو قائد وزعيم . والقيادة معناها توجيه الأمة إلى ماينبغى أن تتجه إليه ، وإيقاظها له إن كانت غافلة عنه ، وتجنيدها له بكل طاقتها حتى تصل إلى تحقيقه .

وسعد ـ بثقافته ـ ليس بعيدا عن مجال الشريعة ، بل هى مجال دراسته فى الأزهر . . فأين ذهبت حساسيته للإسلام ، حتى صار موضع فخره أنه الوكيل المنتخب للمجلس الذى يصوغ القوانين الوضعية لتحكم الناس بدلا من الشريعة الإسلامية ؟[1] .

(١) نذكر بهذه المناسبة أن كرومر ـ فى رثائه الشهير للشيخ محمد عبده ـ أبدى أسفه العميق على فقد ذلك «الصديق» ، وأشاد بالذات بفتاواه التى كانت العون الأكبر لمجلس شورى القوانين.

وهذه أخرى . .

ولكن الثالثة هى الأخطر . .

قامت الثورة المصرية عام ١٩١٩م عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى ببضع شهور . .

وكانت هذه الثورة تعبيرا عن غضب الأمة المختزن منذ عهد الاحتلال . .

وكان « الخزين» الذى تفجر يحوى أشياء كثيرة ، تجمعت على مدى الزمن فأدت إلى الاشتعال .

كان فيها الغضب الطبيعى من العدو الغاصب الذى يحتل البلاد بعساكره، ويهين- بوجوده- كرامة البلاد .

وكان فيها الاستياء من فرض « الحماية العسكرية» - فضلا عن الاستعمار - منذ قيام الحرب سنة ١٩١٤ ، وقد كانت فترة الحماية تتميز بالمزيد من الشراسة فى معاملة الشعب المهدر الكرامة ، فقد أنشئت المحاكم العسكرية ، وكانت تحكم على الناس بالإعدام لأدنى شبهة ، ولمجرد الإرهاب ، كما حدث فى «حادثة دنشواى» الشهيرة ، حيث ذهب مجموعة من الجنود الإنجليز يصطادون الحمام فى قرية « دنشواى» فأصيب أحدهم بضربة شمس فمات متأثرا بها ، فحكمت المحكمة العسكرية الإنجليزية بإعدام مجموعة من الأهالى بتهمة أنهم هم الذين قتلوه ! وكانت هذه الحادثة من الأشياء الشديدة الإثارة التى تجمعت - مع غيرها - لإحداث الثورة . .

وكان فيها الاستياء من سلب الفلاحين دوابهم التى يعتمدون عليها فى أرزاقهم ، مع سلبهم أقواتهم الضرورية من الغلال ، تحت ذريعة أن السلطة العسكرية فى حاجة إليها لحماية البلاد! وقد كانت تذهب فى حقيقتها لتموين « الجيش العربى ! ! » - الذى جندته انجلترا لمحاربة دولة الخلافة بقيادة لورد أللنبى Lord Allenby ، الذى قال وقت أن دخل القدس عام ١٩١٧ : الآن انتهت الحرب الصليبية ! والذى صرح قائلا : لولا معاونة «الجيش العربى» ما استطعنا أن نتغلب على دولة الخلافة [١] .

وكان فيها استياء أهل القاهرة بالذات من أفاعيل جيش «الأنزاك» ANZAC [٢]

(١) سنعرض للثورة العربية « الكبرى ! » وللجيش العربى الذى قاتل دولة الخلافة فيما بعد .

(٢) ترمز هذه الحروف إلى الدول التى جاء منها أولئك الجنود، على طريقة اللغات الأوربية فى أخذ حرف من كل اسم (هو عادة الحرف الأول) وجمعها فى شكل كلمة إذا أمكن ، فهذه الدول فى لغتها الأصلية هى : Africa, New Zeland, Australia, Canada ، ومجموع الحروف الأولى يكون كلمة Anzac .

المكون من خليط من الاستراليين والنيوزيلنديين ومجندى جنوب أفريقيا وكندا، فقد عاثوا فى القاهرة فسادا وارتكبوا الفواحش، وكان الواحد منهم إذا وجد مقاومة قتل الذين يقاومونه برصاص مسدسه. . وكانت هذه بالذات من أشد ما أثار الثورة فى نفس المصريين [١].

ولكن أشد العوامل التى حفزت المصريين للثورة - إلى جانب ذلك كله - كان عزل مصر رسميا عن دولة الخلافة منذ إعلان الحماية، وقطع صلتها بها نهائيا، وجعلها تابعة لبريطانيا . .

وما كانت الصلة بدولة الخلافة ذات واقع عملى فى مجال السياسة . . فمنذ عزل الخديو توفيق، وإخضاع مصر للاحتلال البريطانى ، لم تعد مصر - عمليا - تابعة لدولة الخلافة وإن كانت كذلك بالاسم . . أما الصلة الروحية فقد بقيت فى نفوس المصريين، وكانت هى الرباط « الإسلامى » الذى يربط المصريين المسلمين بدولة الإسلام.

وبصرف النظر عن كل السوء الذى كان واقعا فى الدولة العثمانية ذاتها، وصارفا لها عما ينبغى لها من الروح الإسلامية[٢]، فقد كانت فى قلوب المسلمين فى كل الأرض «رمزا» مرتبطا فى قلوبهم بالإسلام . . وممثلا له فى عالم العيان .

فلما أعلنت انجلترا الحماية العسكرية على مصر بعد قيام الحرب، فصلت مصر نهائيا عن الدولة العثمانية . . فكان ذلك - كما قلنا - أمراً شديد الوقع على النفوس، وكان له فى إحداث الثورة أثر بليغ . .

باختصار . . كانت الثورة « إسلامية» فى جوهرها . . يقوم بها الشعب المسلم فى مصر تجاه الغاصبين الكفار . . وكانت تنطلق من الأزهر ، مهد الإسلام، بالضبط كما انطلقت من قبل أيام نابليون . .

ولكن تحولا خطيرا طرأ على الثورة . . كان عماده سعد زغلول !

ولنعد إلى «وثائق» الثورة نقرأ على ضوئها التاريخ !

---

(١) من أجل ذلك حرص « الحلفاء» فى الحرب العالمية الثانية على استصحاب جيش من « البغايا» خاص بهم، وشددوا على جنودهم ألا يتعرضوا للنساء المصريات خوفا من تكرار رد الفعل الذى حدث بعد الحرب الأولى . ولكنهم فى جميع الأحوال لا يستغنون عن الفاحشة، لأنهم جنود جاهلية همجية!

(٢) كان حزب الاتحاد والترقى يثير فى تركيا النعرة الطورانية ويدعو إلى تتريك الدولة ، مما نتناوله فيما بعد .

نشرت صحيفة الأهرام فى عام ١٩٦٩م بعض وثائق المتحف البريطانى الخاصة بثورة ١٩١٩، باعتبار أنه قد مضى عليها خمسون عاما، على طريقة المتحف البريطانى فى نشر وثائقه التاريخية بعد مرور خمسين عاما من حدوثها(١) .

وكان فى هذه الوثائق أمور عجيبة تستحق الوقوف عندها لتدبر دلالتها . .

كان سعد يسكن فى شارع الفلكى بالقاهرة حيث يقوم الآن «بيت الأمة» . وكان يسكن قبله بقليل فى نفس الشارع (تجاه باب اللوق) محمد محمود (باشا) وهو أحد الشخصيات البارزة فى ذلك الوقت ، وإن لم تكن له شعبية مثل سعد زغلول، كان والده أحد « باشوات» مصر (محمود باشا سليمان) من إقطاعيى الصعيد (بساحل سليم بأسيوط) وكان هو ممن تعلموا فى إنجلترا فى جامعة أكسفورد، يحمل عصا أرستقراطية على طريقة الأرستقراطيين يومئذ . .

تقول إحدى الوثائق إن محمد محمود كان عائدا إلى بيته، وبينما هو واقف إلى جوار البيت مر سعد زغلول عائدا إلى بيته (فى نفس الشارع كما ذكرنا) فسدّ محمد محمود الطريق أمامه بعصاه ليستوقفه، وقال له : إن الشعب يغلى . . ولا بد أن نصنع شيئا! فرد عليه سعد : وماذا نصنع والحماية معلنة على البلاد؟!

وإلى هنا نبرز نقطتين مهمتين : الأولى أن الشعب هو الذى كان يغلى من جانبه ، لا بتحريض زعمائه ! أى أن الثورة منبعثة انبعاثا ذاتيا من الشعب (للأسباب التى أوردنا جانبا منها فيما سبق) . والثانية أن سعد زغلول لم يكن ـ إلى تلك اللحظة ـ يفكر فى إمكان عمل شىء ما، لأنه يرى من وجهة نظره أن الحماية معلنة على البلاد . . ومعها الحكم العسكرى الصارم . . ومن ثم فلا يمكن عمل شىء !

تقول الوثيقة إن محمد محمود قال لسعد : ولكن الشعب فى حالة فوران شديد، وإذا لم نفعل شيئا فسيفوتنا القطار !!

وفى اليوم التالى شكل سعد « وفده» الثلاثى الشهير، المكون منه ومن عبد العزيز (باشا) فهمى ومن محمد (باشا) شعراوى ، وذهبوا إلى دار المندوب السامى البريطانى لتقديم «مطالب الأمة» .

---

(١) اختصر المتحف البريطانى المدة فيما بعد إلى ثلاثين سنة للوثائق العادية، وأبقاها خمسين للوثائق ذات الأهمية الخاصة، وبعضها لا ينشر أبدا محافظة على الخطط السرية !

وهنا وقفة أخرى أمام الأحداث . .

هل كان الذى حرك سعد زغلول هو كلمة محمد محمود الأخيرة : « إذا لم نفعل شيئا فسيفوتنا القطار» ؟ !

هل هو الخوف على الزعامة والمكانة الشعبية؟ هل هو الخوف من أن يسبقه غيره إلى عمل شىء كمحمد محمود أو غيره ؟

لا نخوض كثيرا فى هذا الأمر . . ولنحسن الظن . . ولنقل إن كلام محمد محمود قد شجع سعدا على التحرك . . فقرر العمل . .

لكن الذى نقف عنده هو الوثيقة التى تتحدث عن لقاء « الوفد» للسير «ونجيت» Wingate المندوب السامى البريطانى فى ذلك الحين . .

تحدث سعد عن تذمر الأمة ، وحالة الفوران التى تغلى فى الصدور ، وطالب برفع الحماية وتغيير الأحوال . .

تقول الوثيقة إن المندوب السامى استمع إلى الوفد - باستنكار طبعا - ثم قال : كأنكم تريدون الاستقلال ! ! فقال سعد : نعم ! نريد الاستقلال !

نقف هنا لنحاول إلقاء نظرة على فكر سعد زغلول فى تلك اللحظة . إن «الاستقلال» لم يكن وارداً فى ذهن سعد ، ولا فى كلامه مع المندوب السامى . إنما الذى كان وارداً هو رفع الحماية العسكرية ، وتخفيف قبضة الاستعمار على البلاد . ولكن المندوب السامى - بقدر من الله - هو الذى نطق بكلمة « الاستقلال» ولعله كان يتصور أن « مندوبى الأمة» - التى يعلم المراقبون أنها فى حالة فوران - لن يكون مطلبهم أقل من الاستقلال !

أيا كان الأمر ، فقد التقطها سعد ، وقال : نعم ! نريد الاستقلال !

وقال ونجيت - كما هو متوقع - إن هذا مطلب لا يمكن أن يوافق عليه . وقال إنه سيرفع الأمر للحكومة البريطانية . .

واندلعت الثورة على إثر رفض المندوب السامى « لمطالب الأمة» . .

وكانت ثورة عارمة . . اشترك فيها الشعب كله إلى أقاصى الصعيد . .

وكانت القاهرة - بطبيعة الحال - هى مركز الثورة . . فكانت المظاهرات تخرج يوميا

من الأزهر ، بعد أن تستمع إلى الخطباء الذين يشعلون حماسة الجماهير ضد المستعمر الغاصب، فيتلقفها جنود الاحتلال بالمدافع الرشاشة، فيسقط كل يوم قتلى، فتزيد الثورة اشتعالا مع الدماء السائلة والرصاص المصوب إلى الصدور . .

ونفى سعد و«صحبه الكرام» بتعبير الصحافة المصرية الموالية للثورة ، بحسبان أن نفى الزعماء سيقضى على الثورة ويمكن الإنجليز من السيطرة على الموقف .

ولكن الثورة ازدادت حدة - كما كان متوقعا من ذلك الإجراء فى تلك الظروف - فسحبت بريطانيا مندوبها السامى من مصر وعينته فى وظيفة أخرى ، على طريقة الإنجليز فى معاقبة من يفشل فى خطته من كبار موظفيها ! ! وجاءت باللورد أللنبى مندوبا ساميا فى مصر على أمل أن يقضى على الثورة ويريح منها الحكومة البريطانية . .

كان أللنبى هو القائد « المظفر » الذى تغلب على جيش دولة الخلافة . . وهو رجل عسكرى له هيبة « العساكر » فربما أدت هيبته بالمصريين إلى الخوف من العواقب، والكف عن المقاومة، وإنهاء الثورة . .

تقول وثيقة أخرى أن أللنبى مكث شهرا كاملا يدرس الأحوال فى مصر قبل أن يقدم على قرار (والثورة ماضية فى طريقها على ذات الصورة) ثم أرسل تقريرا مطولا إلى حكومته (منشور بكامله فى الوثيقة) أبرز ما فيه جملتان ذواتا دلالة عميقة وأهمية بالغة :

« إن الثورة تنبع من الأزهر ، وهذا أمر له خطورته البالغة» . . «أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة!» .

لقد أدرك الرجل الداهية - وما كان فى حاجة أن يكون داهية لكى يدرك - أن الثورة تنبع من الأزهر - أى أنها ثورة دينية إسلامية - وأن هذا الأمر له خطورته البالغة !

إن أعداء هذا الدين يعلمون جيدا أن أخطر شيء عليهم هو روح « الجهاد» فى هذا الدين . إنهم أقوى عسكريا بلا شك ، ويملكون كل وسائل الإرهاب فى أيديهم، وقد يستطيعون إخماد الثورة فى النهاية، ولكن ذلك يكلفهم الكثير الكثير . . ثم هو غير مأمون العواقب فى جميع الأحوال . فالجهاد الإسلامى روح لا تخمد . . إن سكنت حينا بالهزيمة العسكرية فإنها لا تموت ، ويمكن أن تتجدد مرة أخرى فى أى حين .

والحل المقترح : « أفرجوا عن سعد زغلول وأعيدوه إلى القاهرة !» .

ونفترض أقصى ما يمكن من حسن الظن ، فنقول إن لورد أللنبى رأى أن السبب الذى أدى إلى اتساع نطاق الثورة واشتداد المقاومة هو نفى سعد زغلول، وأن إرجاع سعد قمين بأن يهدئ الخواطر الثائرة وينهى الثورة . .

ولكن سلوك سعد بعد عودته هو الذى يلجئنا إلى قراءة العبارة الواردة فى آخر تقرير أللنبى على نحو آخر، يجعل لها ارتباطا مباشرا بالعبارة الأولى الواردة فى أول التقرير، والتى تشير إلى الطبيعة « الدينية» للثورة . .

عاد سعد ليقول : الدين لله . . والوطن للجميع !

ومعنى العبارة واضح . .

الدين لله ، أى بينكم وبين الله . . فلا تذكروه فى هتافاتكم وفى حركتكم، واذكروا « الوطن» واجعلوه موضع التركيز !

بعبارة أخرى : تحويل الثورة من ثورة دينية إسلامية ، إلى ثورة وطنية لا علاقة لها بالدين .

ومن كان فى شك من دلالة العبارة التى جعلها سعد شعارا للثورة فلينظر فى «الجميع» الذين يعنيهم سعد ، بعد قوله « الدين لله » . إن الجميع المقصودين فى العبارة هم الأقباط والمسلمون . وكان الأقباط قد اشتركوا فى الثورة بعد قيامها لأن الظروف القائمة كلها يومئذ كانت تؤدى إلى اشتراكهم . . فسعد يريد أن يقول - بل قال بالفعل - لا ترفعوا الشعارات الإسلامية على الثورة - من أجل الأقباط المشتركين فيها - وارفعوا «الوطن» شعارا للثورة ، لأن هذا الشعار هو الذى يتسع « للجميع» . . أما الدين فهو لله ، أى أمر خاص ، بين الإنسان وبين الله ، يُسرّه الإنسان ولا يعلنه! [(١)] .

كأن وجود الأقباط فى مصر يمنع المسلمين أنْ يكونوا مسلمين! ويمنعهم من أن يعلنوا إسلامهم ! ويمنعهم من أن يتحركوا بمقتضى إسلامهم ! ويمنعهم - حين ينطلقون من منطلقات إسلامية - أن يقولوا إنهم ينطلقون من منطلقات إسلامية ! !

---

(١) يتضح هذا من لائحة « حزب الوفد» الذى أسسه سعد زغلول بزعامته ، فقد نص فى هذه اللائحة نصا صريحا على تحريم الخوض فى الأمور الدينية (أى عدم ذكر الدين إطلاقا فى داخل الحزب ، وهو نفس الشعار الذى أطلقه سعد على الثورة) كما أن حزب الوفد الجديد أعلن - بمناسبة النقاش الذى دار حول دخول الإخوان المسلمين الانتخابات باسم الحزب - أن الحزب كان « علمانيا» منذ نشأته !

من قال هذا؟ وكيف تقرر ؟! وعلى أى أساس تقرر؟!

إن الأقباط يعيشون فى مصر منذ أربعة عشر قرنا . . منذ الفتح الإسلامى لمصر . . يعيشون فى سلام وأمن لا تتمتع به أية أقلية فى أى مكان فى الأرض إلا فى ظل الإسلام . وقد كان الإسلام هو الذى أخرجهم من الذل الساحق الذى كانوا يعانونه فى ظل الدولة الرومانية ـ المسيحية ! ـ بسبب اختلاف المذهب؛ والإسلام هو الذى رد إليهم كرامتهم الضائعة، حتى ذهب الرجل القبطى ألوف الأميال ليشكو إلى عمر ضربة عصا ظالمة وقعت على ابنه من ابن عمرو بن العاص، بينما كانوا يتلقون السياط أيام الرومان وهم صاغرون. وبشأنهم أبرز عمر هذا المبدأ الإسلامى العظيم : ياعمرو! متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا!

وعاش الأقباط هذا الزمن المتطاول فى أمن وسلام وحرية، لم تذقه قط أية أقلية إسلامية وقعت تحت حكم النصارى . وأقرب الأمثلة هو الحبشة، المرتبطة تاريخيا بالكنيسة القبطية المصرية، والتى يبلغ تعداد المسلمين فيها أكثر من ٦٥٪ من سكانها، ومع ذلك فهم مسحوقون مستذلون، لا يعينون فى وظائف الدولة، ولا يتولون منصبا واحدا من المناصب الكبيرة، ولا يعلّمون دينهم فى مدارس الدولة الرسمية، ولا يسمح لهم بفتح مدارس إسلامية تعلم أطفالهم مبادئ دينهم، وحين يفتحون «كتاتيب» لتحفيظ القرآن تظل الدولة تفرض عليها الضرائب حتى يضطر أصحابها إلى إغلاقها . . وفى هيئة الأمم ـ على ملأ من العالم كله ـ قال هيلاسلاسى ملك الحبشة السابق : إنه فى خلال اثنى عشر عاما لن يكون فى الحبشة إلا دين واحد !! أى أنه سيسحق المسلمين ويبيدهم، أو يطردهم من أرضهم . . ولم يتحرك صوت واحد فى العالم كله بالاستنكار !

أما فى مصر فلم يحدث شىء من هذا كله، ولا يمكن أن يحدث، طالما كان المسلمون مسلمين محافظين على إسلامهم . . لأن الإسلام هو الذى يأمرهم بالعدل، وهم يقومون به لله ، لا لمصلحة أرضية هنا أو هناك؛ وكلما زاد تمسكهم بإسلامهم زاد حرصهم على إحقاق الحق وتطبيق العدل الربانى :

﴿ فلذلك فادع، واستقم كما أمرت، ولا تتبع أهواءهم، وقل : آمنت بما أنزل الله من كتاب، وأمرت لأعدل بينكم . الله ربنا وربكم . لنا أعمالنا ولكم أعمالكم. لا حجة بيننا وبينكم . الله يجمع بيننا، وإليه المصير﴾ (١) .

---

(١) سورة الشورى [١٥].

فكيف يكون وجود الأقباط ـ المكرّمين المعززين فى ظل الإسلام ـ مانعا للمسلمين أن يكونوا مسلمين ، وأن يعلنوا إسلامهم ، وأن يتحركوا بمقتضى إسلامهم ، وأن يعلنوا ـ حين ينطلقون من منطلقات إسلامية ـ أنهم ينطلقون من منطلقات إسلامية ؟!

وكيف جرى هذا التحول الكبير ، فى قلب الزعيم « المسلم » الكبير؟!

ولننظر الآن من الجانب الآخر . . جانب العدو الصليبى المستعمر . .

إذا وقعت الواقعة ، وحدثت الثورة ـ على كره من الاستعمار ـ فأيهما أهون عليه : حركة « الجهاد » الإسلامية ، أم الحركة « الوطنية » التى تبعد الدين من مجالها ، وتتحرك باسم « الوطن » فحسب ؟!

الفارق ـ لا شك ـ كبير . . ويعرف الفارق جيدا أولئك الذين يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم!

فحين تكون الحركة جهادا إسلاميا فالقضية واضحة : مسلمون ثائرون ، يجاهدون عدوا صليبيا يحتل بلادهم . فهل يتصور فيهم أن يلتقوا مع العدو الصليبى فى منتصف الطريق؟ هل يتصور فيهم أن « يتفاهموا » مع عدوهم على شىء؟ هل يتصور فيهم أن يسكتوا على حركة التغريب وحركة التقريب؟ هل يتصور فيهم أن يسكتوا على تنحية الشريعة الإسلامية عن الحكم ، ويسكتوا على الغزو الفكرى المتمثل فى المنهج الذى وضعه دنلوب للتعليم والمنهج الذى تتبعه وسائل الإعلام بمعاونة المستعمر الصليبى؟!

أما حين تكون حركة وطنية فكل هذا جائز! بل لقد وقع بالفعل! ففى ظل الحركة الوطنية قام التغريب والتقريب ، واتسع نطاق الغزو الفكرى ، واستمر المنهج الدنلوبى ، واستمرت وسائل الإعلام تؤدى « مهمتها » فى إبعاد المسلمين عن الإسلام!

فإذا وقعت الواقعة ـ على كره من الاستعمار ـ وثار المصريون . . فأيهما أهون على العدو الصليبى المستعمر : حركة الجهاد الإسلامية أم الحركة الوطنية؟!

هل كان عجبا إذن أن يشير أللنبى فى تقريره إلى أن الثورة تنبع من الأزهر ، وأن هذا الأمر له خطورته البالغة ، وأن يشير على حكومته بالإفراج عن سعد زغلول وإرجاعه إلى القاهرة؟!

ونفترض جدلا أن الرجل الداهية قد غفل عن هذه المعانى كلها ـ التى لم يغفل عنها قط صليبى مستعمر فى أرض الإسلام ـ وأن إشارته على حكومته بالإفراج عن سعد

وإرجاعه إلى القاهرة كانت « بريئة » تماما من أى معرفة سابقة بما حدث فى قلب الزعيم « المسلم» الكبير فى صالون نازلى فاضل، من تأثر بأفكار أستاذه « أستاذ الجيل»، وتأثر بصحبة اللورد كرومر، وتأثر « بتحرر » نازلى هانم، وغير ذلك من المؤثرات. . فإن الذى حدث بالفعل أن سعداً بعد عودته قَبلَ وقف الثورة على أساس « التفاوض مع الإنجليز » وأنه قال بعد فشل المفاوضات كلمتيه الشهيرتين : « خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الإنجليز» و. . «الإنجليز خصوم شرفاء معقولون»!!! ورضيت بذلك الجماهير!!!

٥- بروز الزّعامات العلمانيّة وخلوّ السّاحة من القيادة الدّينيّة

كان التحول هائلا فى الحقيقة . . ولكنه تم! وتم فى يسر عجيب لابد لنا من دراسة أسبابه .

كانت « اللعبة» التى لعبها الإنجليز فى مصر - وكررها الفرنسيون بعد ذلك مع «بن بيلا» فى الجزائر - هى نفى « الزعيم» - بعد الاطمئنان إلى تحوله عن الروح الإسلامية والمنطلق الإسلامى - ثم إعادته بعد فترة من الوقت ليصبح « معبود الجماهير»![1] وليحول الثورة من مسارها الإسلامى إلى مسار آخر، مهما يكن من أمره فهو أهون على أعداء الإسلام من « الجهاد» تحت راية الإسلام[2].

تحول سعد فى حس الجماهير إلى أسطورة . .

ولئن كانت براعته الخطابية من قبل قد جمعت حوله الجماهير إلى حد الهوس، فإن نفيه ثم إعادته قد ضاعفت هوس الجماهير إلى الحد الذى تعبر عنه صحافة ذلك الوقت بالعبادة!

أصبح ما يقوله سعد هو الحق مهما كان مخالفا للحق ! وأصبح ما يفعله سعد هو الصواب، أو أصبح على الأقل مسكوتا عنه ولو كان أبشع الأفاعيل!

كان سعد يقامر - كما أقر فى مذكراته - ويغرق فى لعب القمار حتى يخسر أمواله ، وأعداؤه السياسيون يكشفون للجماهير ذلك ، فتبتلع الجماهير ذلك ، وتزداد تعصبا

(١) هذا هو اللقب الذى أطلقته الصحف الوفدية على سعد . . ونستعيذ بالله من الكفر.

(٢) كانت الراية التى رفعها بن بيلا هى الاشتراكية ، وسيأتى الحديث عن الاشتراكية فيما بعد.

لسعد كلما أوغل أعداؤه السياسيون فى النيل منه! وكان يفطر فى رمضان، ويشرب الخمر - حتى فى رمضان - ويذيع عنه أعداؤه ذلك، فيعتذر عنه المعتذرون بأنه ضعيف لا يقوى بدنه على الصيام - فهو من أهل الأعذار - وأن الطبيب قد نصحه بأخذ جرعات من الخمر بين الحين والحين لإصلاح معدته![1] فتبتلع الجماهير إفطاره فى رمضان وشربه الخمر، وتزداد تعصبا له !!

وكان يوظف أقاربه وأصهاره فى الوظائف الكبيرة، ويعيب عليه أعداؤه هذه «المحسوبية» فيرد عليهم متحديا : « سأجعلها زغلولية لحمًا ودما» فتصفق الجماهير إعجابا بالزعيم الكبير!!

وفى النهاية لم تعد القضية عند الجماهير هى قضية « الوطن» - حتى بعد تحولها من قضية إسلامية إلى قضية وطنية - بل أصبحت القضية هى قضية سعد زغلول! فإذا كان هو راضيا فالجماهير راضية، بصرف النظر عن الأمر الذى هو راض عنه، وإذا كان غاضبا فالجماهير غاضبة، بصرف النظر عن الأمر الذى هو غاضب من أجله ! يستوى فى ذلك الجهلاء والمثقفون ، الأغنياء والفقراء، العمال والفلاحون، الطلاب والموظفون . إلا فريقا ضئيلا من الأمة خارجين على هذا « الإجماع» يوصفون بأنهم خونة مارقون . . وما كانوا بالفعل أفضل من سعد وأتباعه، إنما كان الأمر حسدا فى أنفسهم من مكانة سعد عند الجماهير !

كيف تم ذلك ؟!

هل يكفى لتفسيره مقدرة سعد الخطابية الفذة، التى كانت تعتبر من النماذج التاريخية الفذة ؟

هل تكفى « اللعبة» التى لعبها الإنجليز بنفى سعد، ثم إرجاعه بعد تضخيمه - بنفيه - فى حس الجماهير ؟

هل يكفى ما يحدث كثيرا فى نفوس « الجماهير» - على مدار التاريخ - من نسيان الهدف الأصلى والتعلق « بالرمز» ، حتى يصبح الرمز هو الهدف فى النهاية؟

إن هذا كله يمكن أن يكون تفسيرا جزئيا لما حدث، ولكنه لا يكفى - وحده - للتفسير .

---

(١) كان هذا دفاع العقاد عنه فى كتابه « سعد زغلول» !

لابد أن نضع فى حسابنا حقيقتين كبيرتين أبعد تأثيرا من العوامل السابقة كلها، على كل ما لهذه العوامل من التأثير.

الحقيقة الأولى: هى « الخواء» الذى أصاب الحياة الإسلامية كلها، برغم وجود «عواطف إسلامية» تنفعل بها القلوب..

لقد كان فى الثورة - قبل أن يحولها سعد إلى ثورة وطنية - عواطف إسلامية، تتجه إلى دولة الخلافة، و«تثور» حين يفصل ما بينها وبينها، و«تثور» ضد « الكفار» المغتصبين (فقد كانت هكذا أحاديث الناس عند بدء الثورة وخاصة فى الريف) وتتجه إلى الأزهر ليقودها، لأنه هو الجدير - فى حسها - أن يقود الثورة الإسلامية..

ولكن..

كم كان وعى المسلمين « بالإسلام»؟! وكيف كانت حقيقته فى إحساسهم؟! وبالذات ماذا كان فى حسهم من قضية « الحكم بما أنزل الله»؟ هل كانوا على وعى من أنها «مقتضى الإسلام» ومحكه الحقيقى، أم أنها «كمالات» يتمنى الناس وقوعها ولكن عدم وجودها لا يؤثر فى « إسلامهم»؟!

هذه هى القضية الرئيسية فى التحول الخطير، الذى حدث بهذا اليسر العجيب فى حس « الجماهير»..

لو كان هناك وعى إسلامى حقيقى؛ لو كان هناك إدراك واع حاسم بأن الحكم بما أنزل الله هو المقتضى الطبيعى، والمقتضى الأول لشهادة لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأن الناس لا يكونون مسلمين إذا رضوا بحكم غير حكم الله.. لو كانوا كذلك ما سهل تحويلهم إلى القضايا « الوطنية» التى يوضع شعاراً لها: الدين لله والوطن للجميع، ويمنع فى نشاطها السياسى الخوض فى أمور الدين..

أما الحقيقة الأخرى: فهى خلو الساحة من القادة الطبيعيين لهذه الأمة، وهم «علماء الدين».

لقد كان علماء الدين دائما فى تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجؤها كذلك إذا حزبهم أمر، وملاذها عند الفزع.. تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها فى أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم،

وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر . . وكان العلماء يضطهدون من قبَل ذوى السلطان أحيانا ، ويلقون فى السجون أحيانا ، ويؤذون فى أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحيانا . . ولكنهم يصمدون لهذا كله ، تقديراً لمسئوليتهم أمام الله ـ وهم الذين منّ الله عليهم بمعرفة دينه ـ حين يسألهم ربهم يوم القيامة عن « الأمانة» الكبرى الملقاة على عاتقهم ، عن مهمة هداية الناس إلى الحق ـ حاكمهم ومحكومهم ـ ومهمة النصيحة فى الدين لأولى الأمر خاصة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للراعى والرعية سواء ، وإمامهم ـ ﷺ ـ يشجعهم على احتمال البلاء فى سبيل هذه الأمانة فيقول لهم : «سيد الشهداء حمزة ، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» [1] .

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها فى أمورها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية ، كانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان . . يذكرونها بالله واليوم الآخر ، وبالجنة التى تنتظر المجاهدين الصادقين ، وكانوا يشاركون فى الجهاد بأنفسهم أحيانا ، بل يقودون الجيوش بأنفسهم فى بعض الأحيان . .

تلك كانت مهمة علماء الدين والدين حىّ فى النفوس . . وفى التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وصبروا على ما أصابهم فى سبيل الله فما ضعفوا وما استكانوا . .

فأين كان « العلماء » فى تلك الفترة التى نحن بصددها من التاريخ ؟

هل كانوا فى مكان القيادة الذى عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد . . آخره موقفهم من حملة نابليون؟

هل كانوا هم حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوى السلطان؟

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية ؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرونه وينهونه ، قتلهم أم لم يقتلهم؟

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ١٩٥) وقال : صحيح الإسناد .

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا فى ركابه ، يتملقونه ويباركون مظالمه فيمدونه فى الغىّ، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت فى بيوتها، أو انزوت فى الدرس والكتاب، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس «العلم» . . وهو علم مطلوب فى ذاته، ولكن كثيرا من فائدته ضائع، لأنه يعيش بقضاياه فى الماضى، ولا ينظر إلى الحاضر فضلا عن أن ينظر فى المستقبل !

إن « العلم» الدينى الموجود فى تلك الكتب زاد ضرورى لكل متخصص فى علوم الشريعة[1]، ولكن لا ليقف عنده ، بل ليجعله مرتكزاً ينطلق منه إلى دراسة الحاضر ، دراسة إسلامية علمية . أى النظر فى الحاضر : هل هو مستوف لشروط « الصحة » الإسلامية ، منضبط بضوابط العقيدة والشريعة ، أم منحرف عنهاً، أم ناقص فى بعض جوانبها، ثم تقديم العلاج الإسلامى لجوانب النقص وجوانب الانحراف .

بعبارة أخرى، كان واجب العلماء أن « يتحركوا» بهذا الدين، و«بالعلم» الذى يعلمونه من هذا الدين ، لصياغة المجتمع صياغة إسلامية صحيحة، ووضع كلّ من الحاكم والمحكوم فى وضعه الصحيح ، بردّ الحاكم إلى الالتزام بشريعة الله ، فيزول من ثم ماهو واقع فى المجتمع من ظلم سياسى واجتماعى واقتصادى، وردّ المحكومين إلى الالتزام بأوامر الإسلام ونواهيه، فيزول من ثم ما هو واقع فى المجتمع من فساد خلقى وروحى وسلوكى . . أو الجهاد فى سبيل هذا الأمر على الأقل ، فيتحقق من الإصلاح بقدر ما يخلص الناس نياتهم لله، وبمقدار مايبذلون من الجهد اللازم للإصلاح .

ثم كان واجب العلماء أن « يجتهدوا» ـ بما فقهوه من فقه هذا الدين ـ ليضعوا الحلول الإسلامية ـ المستمدة من مصادر التشريع الإسلامى ـ للمشكلات التى جدت فى حياة الناس . فمهمة الفقه الدائمة هى مد ظل الشريعة ـ بالاجتهاد ـ حتى يغطى كل ما يجدّ فى حياة الناس، وضبط ما يجدّ فى حياة الناس بضوابط الشريعة لكى لاتشرد بعيدا عن المنهج الربانى الذى أنزله الله ليحكم كل الحياة .

فهل كان العلماء على المستوى اللازم لهذه المعركة الضخمة فى ذلك الحين؟!

وما نريد أن نظلمهم ، فقد كان منهم ولاشك من صدع بكلمة الحق، ومنهم من

(١) فيما عدا ما اندس فى « التراث» من أمور تخالف المنهج الإسلامى من جهة، ولا يترتب عليها مصلحة إسلامية من جهة أخرى كالفلسفة المسماة إسلامية ، وعلم الكلام بكل قضاياه الجدلية الذهنية التجريدية الفارعة، وأمثال ذلك من المباحث.

ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحس أنه يستعبده لأولى السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق ، ومنهم من فكر واجتهد . . ولكنهم قلة بين الكثرة الغالبة التى راحت تلهث وراء المتاع الأرضى ، أو تقبع داخل الدرس والكتاب ، على ما فيهما من جوانب القصور .

وحين كانوا كذلك كان قد برز فى الساحة زعماء علمانيون - صاغهم الاستعمار والغزو الفكرى - يطالبون بحقوق الجماهير ! يطالبون أن تكون « الأمة مصدر السلطات » وأن يكون للحاكم حدود يلتزم بها ولا يتجاوزها ، وأن يكون هناك «دستور» يحدد اختصاص كل من السلطة التشريعية ، والسلطة التنفيذية ، والسلطة القضائية ، و«برلمان» يجمع « ممثلى الأمة » ويكون له وحده حق إصدار القرار .

وينادون فى الوقت ذاته « بالإصلاح » فى كل المجالات : فى مجال التعليم . فى مجال الاقتصاد . فى مجال الخدمات الصحية . فى مجال المرافق العامة .

وينادون بإزالة التخلف الذى وقعت فيه الأمة فى كل ميدان . . التخلف العلمى والحضارى والفكرى والمادى . .

باختصار يقومون بمهمة « القيادة » التى تقاعس عنها علماء الدين ، بالإضافة إلى عنصر آخر - يفتقده علماء الدين فى ذلك الوقت - هو اطلاعهم على أحوال العالم الحاضرة ، وإلمامهم بثقافة العصر ، وتمرسهم ببعض الخبرات العملية على الأقل فى بعض المجالات . .

حين كان الأمر على هذه الصورة فأين كان يتوقع أن تتجه الجماهير ؟!

صحيح أن الجماهير تبينت - فيما بعد - أن هذا كله كان أسطورة ضخمة !

تبينت أن « الديمقراطية » المزعومة إن كان لها ممارسات حقيقية فى بلادها الأصلية فهى عندنا مجرد تمثيلية مضحكة لا تجعل للأمة رقابة حقيقية على أصحاب السلطان! وأن « ممثلى الأمة » لا يمثلونها فى شىء حقيقى ، وإنما يمثلون مصالحهم الشخصية ، ومصالحهم الشخصية يومئذ هى مصالح الإقطاع الطاغى ، ومصالح الرأسمالية النامية ، الآخذة فى زحزحة الإقطاع العتيد ، وأخذ مكانه فى السلطان والطغيان سواء[1]! وأن الفساد الذى نجم من الحزبية التى فرقت الأسر وأرّثت العداوات والأحقاد ، والذى نجم

(١) الحقيقة أن الديمقراطية - حتى فى بلادها الأصلية - تمثل مصالح الرأسمالية قبل كل شىء آخر ، ولكن الجماهير لم تتبين ذلك إلا فى موجة « الاشتراكية » . انظر فصل « الديمقراطية » من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

من «المحسوبية» التى مارستها كل الأحزاب على السواء، والذى نجم من فساد الذمم والضمائر حين فشت المحسوبية، ولم يعد يقدّر أحد بما يشتمل عليه من حق، ولا بما يعمل من حق، إنما بمقدار قربه من الحزب الحاكم، ومقدار انتهازيته ووصوليته . . هذا الفساد أكبر وأخطر من كل «كسب» حصلت عليه الأمة، إن كانت قد حصلت على أى كسب على الإطلاق!

وفضلا عن ذلك كله فقد نسيت الأحزاب - التى نشأت أصلا من « الحركة الوطنية» - قضيتها الوطنية، ونسيت « الوطن» كله وكل دعاوى « الإصلاح» التى قامت من أجلها . . وانغمست فى « لعبة الحكم» تضع فيها همها كله وجهدها كله . . وتصبح فى النهاية - على اختلاف زعمائها وقادتها - ألعوبة فى يد الاستعمار ينفذ من خلالها ما يريد!

حقا! لقد اكتشفت « الجماهير » ذلك كله فيما بعد . . أما فى مبدأ الأمر فقد كانت «اللعبة» تأخذ بالألباب ، يزيد من تزيينها فى أعين الجماهير غياب القيادة الطبيعية لهذه الأمة، المتمثلة فى علماء الدين . .

ومن جانب آخر . . هل قام علماء الدين بتوعية أمتهم فى قضية الإسلام الرئيسية : قضية التوحيد ؟

هل قالوا لهم : إن التوحيد الذى أمر الله به ، وأرسل به رسوله ﷺ ، وأنزل به كتابه المعظم ، هو الاعتقاد اليقينى بوحدانية الله فى ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ، وتقديم الشعائر التعبدية له وحده بلا شريك، وتحكيم شريعته وحدها، وعدم الاحتكام إلى أى شريعة سواها . . وأن الإخلال بأى واحدة من هذه الثلاثة هو إخلال بالتوحيد ، ومن ثم فهو شرك ينقض الإسلام؟

وهل علموهم أن هذا الدين قول وعمل ، وأنه لم يتنزل ليكون مجرد وجدان فى القلب، أو مجرد شعائر تؤدى، إنما هو إلى جانب الوجدان والشعائر عمل بمقتضى المنهج الربانى فى واقع الأرض ، وأول العمل تحكيم شريعة الله ؟

هل نبهوهم إلى الانحرافات العقدية التى هم واقعون فيها، ودعوهم إلى نبذها، ودخلوا فى «جهاد» من أجل تقويمها، سواء كانت الانحرافات هى التبرك بالأضرحة والمشايخ والأولياء والتوجه إليهم لجلب النفع ودفع الضر، أو كانت هى تحكيم غير شريعة الله، أو كانت هى الفكر الإرجائى الذى يخرج العمل من مقتضيات الإيمان؟

هل قام محمد عبده مثلا ، وتلميذه الشيخ رشيد رضا ، ببيان التوحيد على هذه الصورة الربانية التى عرفها السلف الصالح من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وطبقوها فى واقع حياتهم؟ أم إن الأمر كان على العكس من ذلك : تطويع الأمة « للواقع » المخالف للإسلام ، على أنه « ضرورة » لا بأس بالأخذ بها ، وتنويم « العزائم» التى يمكن أن تتجه إلى الجهاد الحقيقى لرد الواقع إلى الإسلام؟!

محمد عبده يصدر الفتوى بإباحة ربا صندوق البريد ، ويصدر الفتاوى التى تعين مجلس شورى القوانين على إصدار القوانين المخالفة للشريعة . والشيخ رشيد رضا يدعو المسلمين لطاعة الحكام الذين يحكمون بغير ما أنزل الله !

قال الشيخ فى فتوى عجيبة تجمع بعض الحقائق الإسلامية الأصيلة الناصعة إلى جانب حشد من المغالطات :

« وحكم الله العام المطلق ، الشامل لما ورد فيه النص ، ولغيره مما يعلم بالاجتهاد والاستدلال ، هو العدل . فحيثما وجد العدل فهناك حكم الله ، كما قال أحد الأعلام»[1] .

« ولكن متى وجد النص القطعى الثبوت والدلالة ، لا يجوز العدول عنه إلى غيره إلا إذا عارضه نص آخر اقتضى ترجيحه عليه ، كنص رفع الحرج فى باب الضرورات» .

« وقد كان مولوى نور الدين مفتى بنجاب من الهند سأل شيخنا الأستاذ الإمام رحمه الله تعالى [2] عن أسئلة منها مسألة الحكم بالقوانين الإنكليزية ، فحوّلها إلىّ الأستاذ لأجيب عنها كما كان يفعل فى أمثالها أحيانا . وهذا نص جوابى عن مسألة الحكم بالقوانين الإنكليزية فى الهند (وهو الفتوى الـ ٧٧ من فتاوى المجلد السابع من المنار» :

---

(١) هذه هى المغالطة الأولى . فالعدل كلمة لا ضابط لها إن لم تنضبط بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وكما يقول الإمام ابن تيمية فى الرسالة الثانية عشرة من مجموعة التوحيد : « فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر ، فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل ، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم » .

(٢) يقصد الشيخ محمد عبده ، وقد توفى عام ١٩٠٥م وهذا الكلام مكتوب فى عدد ١٧ ديسمبر ١٩١٣م من مجلة المنار ، وفى هذا العدد أعاد الشيخ رشيد رضا نشر فتواه المنشورة فى عدد سابق ، مع تلك المقدمة التى نقلنا جزءا منها . وهى تستوعب من ص ٢٦٢ ـ ص ٢٦٥ من المنار جـ ٤ م ١٦ .

« الحكم بالقوانين الإنكليزية فى الهند »

(س ٧٧) ومنه : أيجوز للمسلم المستخدم عند الإنكليز الحكم بالقوانين الإنجليزية، وفيها الحكم بغير ما أنزل الله ؟

(ج) : إن هذا السؤال يتضمن مسائل من أكبر مشكلات هذا العصر، كحكم المؤلفين للقوانين وواضعيها لحكوماتهم، وحكم الحاكمين بها، والفرق بين دار الحرب ودار الإسلام فيها[١] . وإننا نرى كثيرين من المسلمين المتدينين يعتقدون أن قضاة المحاكم الأهلية الذين يحكمون بالقانون كفار أخذاً بظاهر قوله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ . ويستلزم الحكم بتكفير القاضى الحاكم بالقانون تكفير الأمراء والسلاطين الواضعين للقوانين، فإنهم وإن لم يكونوا ألفوها بمعارفهم، فإنها وضعت بإذنهم، وهم الذين يولون الحكام ليحكموا بها، ويقول الحاكم من هؤلاء : أحكمُ باسم الأمير فلان، لأننى نائب عنه بإذنه، ويطلقون على الأمير لفظ (الشارع) .

« أما ظاهر الآية فلم يقل به أحد من أئمة الفقه المشهورين، بل لم يقل به أحد قط، فإن ظاهرها يتناول من لم يحكم بما أنزل الله مطلقا، سواء حكم بغير ما أنزل الله تعالى أم لا [٢] . وهذا لايكفره أحد من المسلمين حتى الخوارج الذين يكفرون الفساق بالمعاصى، ومنها الحكم بغيرما أنزل الله [٣] . واختلف أهل السنة فى الآية، فذهب

---

(١) يقصد الفرق بين دار الحرب ودار الإسلام فيما يتعلق بتطبيق القوانين المخالفة للشريعة الإسلامية .

(٢) وهذه هى المغالطة الثانية . فإن هذا الظاهر الذى افترضه الشيخ ـ وبنى عليه ضرورة صرف الآية عن ظاهرها ـ لا يقول به أحد قط ! لأنه من التجريدات الذهنية التى ليس لها واقع عملى . فإنه لا يوجد إنسان لا يحكم، إلا إذا كان مسلوب الإرادة تماما، أو كان متوقفا تماما عن التصرف فى أى أمر من أمور الحياة! ولكنه مادام يتصرف، فهو يستند فى داخل نفسه إلى حكم معين يقرر على أساسه تصرفه . فإذا كان هذا الحكم قد راعى فيه ما أنزل الله فهو مسلم، وإن كان قد راعى فيه مخالفة ما أنزل الله فهو خارج عن الإسلام . وعلى سبيل المثال فإن مخالفة النص العام خصوعا للضرورة ـ الذى ذكره الشيخ فى المقدمة ـ لا يعتبر حكما بغير ما أنزل الله، فإن حكم الضرورة ـ المخالف للنص العام ـ وارد فيما أنزل الله . ولكن القضية هى تحديد الضرورة بالضوابط الشرعية، حتى لا تكون مسرحا للهوى البشرى، فتصبح ـ من ثم ـ من مزالق الشيطان .

(٣) وهذه هى المغالطة الثالثة : فإن الحكم بغير ما أنزل الله لا يقع ـ بإطلاقه ـ فى باب « المعصية» كما يوهم كلام الشيخ هنا=

بعضهم إلى أنها خاصة باليهود، وهو ما رواه سعيد بن منصور وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، قال : إنما أنزل الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون والفاسقون فى اليهود خاصة . وأخرج ابن جرير عن أبى صالح قال : الثلاث الآيات التى فى المائدة ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ . . إلخ : ليس فى أهل الإسلام منها شيء. هى فى الكفار. وذهب بعضهم إلى أن الآية الأولى والتى فيها الحكم بالكفر للمسلمين ، والثانية التى فيها الحكم بالظلم لليهود، والثالثة التى فيها الحكم بالفسق للنصارى، وهو ظاهر السياق. وذهب آخرون إلى العموم فيها كلها، ويؤيده قول حذيفة لمن قال إنها كلها فى بنى إسرائيل : نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كان لكم كل حلوة ولهم كل مُرة! كلا والله لتسلكن سبيلهم قدّ الشراك . رواه عبد الرزاق وابن جرير والحاكم وصححه. وأوّل هذا الفريق الآية بتأويلين :

« فذهب بعضهم إلى أن الكفر هنا ورد بمعناه اللغوى للتغليظ ، لا معناه الشرعى الذى هو الخروج من الملة، واستدلوا بما رواه ابن المنذر والحاكم وصححه البيهقى فى السنن عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال فى الكفر الواقع فى إحدى الآيات الثلاث : إنه ليس بالكفر الذى تذهبون إليه . إنه ليس كفرا ينقل عن الملة . كفر دون كفر[1] .

«وذهب بعضهم إلى أن الكفر مشروط بشرط معروف من القواعد العامة، وهو أن من لم يحكم بما أنزل الله منكرا له ، أو راغبا عنه لاعتقاده بأنه ظلم ، مع علمه بأنه حكم الله، أو نحو ذلك مما لايجامع الإيمان والإذعان[٣] . ولعمرى إن الشبهة فى

= مما نفاه هو نفسه فيما بعد . فقد يكون جهلا بأن الحكم فى هذه الفرعية مخالف لما أنزل الله فلا إثم عليه (وإن وجب عليه الاجتهاد فى معرفة الدليل) وقد يكون شهوة (كحكم القاضى المرتشى بما يخالف حكم الله وهو عالم بالمخالفة) فهذه معصية . وقد يكون تأولا (مع صدق النية) فهذا اجتهاد خاطئ له أجر . وقد يكون مضاهاة لشرع الله ، أو تفضيلا لشرع البشر على شرع الله . وكلاهما شرك صريح يخرج من الملة .

(١) مظلوم ابن عباس ! فقد قال ما قال وهو يسأل عن الأمويين : أنهم يحكمون بغير ما أنزل الله ، فما القول فيهم؟ وما من أحد على الإطلاق قال عن الأمويين إنهم كفار! فقد كانوا يحكّمون الشريعة فى عموم حياة الناس، ولكنهم يحيدون عنها فى بعض الأمور المتعلقة بسلطانهم إما تأولا وإما شهوة ـ ولكنهم لا يجعلون مخالفتهم تشريعا مضاهيا لشرع الله ـ فقال فيهم ابن عباس إنه كفر دون كفر . فهل كان يمكن لابن عباس أن يقول هذا فيمن ينحى الشريعة الإسلامية أصلا، ويضع بدلا منها قوانين وضعية ؟

(٢) نشأ هذا الجدل كله ـ وينشأ دائما ـ حول آيات سورة المائدة لأنها ذكرت المسلمين واليهود والنصارى كلا على حدة ، فخيل لبعض الناس أن كلا منهم يختص بآية ويختص بحكم غير الآخر . وكان الأوفق النظر إلى صيغة العموم فى الآيات : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ فلا يكون هناك مجال للاختلاف . وعلى أى حال فليست هذه هى الآيات=

الأمراء الواضعين للقوانين أشد والجواب عنهم أعسر ، وهذا التأويل فى حقهم لايظهر ، [1] وإن العقل ليعسر عليه أن يتصور أن مؤمنا مذعنا لدين الله يعتقد أن كتابه يفرض عليه حكما ثم هو يغيره باختياره ، ويستبدل به حكما آخر بإرادته ، إعراضا عنه وتفضيلا لغيره عليه ، ويعتد مع ذلك بإيمانه وإسلامه[2] . والظاهر أن الواجب على المسلمين فى مثل هذه الحال مع مثل هذا الحكم أن يلزموه بإبطال ما وضعه مخالفا لحكم الله، ولا يكتفوا بعدم مساندته عليه ومشايعته فيه ، فإن لم يقدروا فالدار لا تعتبر دار إسلام فيما

= الوحيدة فى القرآن فى هذا الشأن . وهناك آيات صريحة لا تحتمل الخلاف فى تأويلها كقوله تعالى: ﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله﴾ [سورة الشورى : ٢١] وهى صريحة فى أن اتخاذ شريعة لم يأذن بها الله هى من اتخاذ الشركاء . أى من الشرك الأكبر المتنافى مع الإسلام . وقوله تعالى: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك...﴾ [سورة النساء : ٦٥] .

(١) يريد أن يقول إن الشبهة غير واردة فى حقهم، ومن ثم فإن شرط الكفر (وهو إنكار شرع الله أو الرغبة عنه أى رفضه والإعراض عنه) غير متحقق فيهم ، ذلك لأنهم مسلمون . ولكن انظر كيف انتقل فجأة من القول بأن الحكم عليهم عسير « والجواب عنهم أعسر» إلى إطلاق الحكم بلا دليل !

(٢) هذه هى المغالطة الرابعة . فبدلا من أن يدلل على إيمانهم - أو يطالبهم بالتدليل على إيمانهم - وظاهر أمرهم هو الكفر بسبب وضعهم قوانين تخالف ما أنزل الله - فإنه يصادر على الدليل - كما يقول المناطقة - فيقرر أنهم مؤمنون مذعنون لدين الله ، ثم يستند إلى هذا الحكم الذى لم يقدم أى دليل عليه ، ليستبعد تصور أنهم يغيرون حكم الله باختيارهم ، ويستبدلون به حكما آخر بإرادتهم !! ثم إن هذه المغالطة ذاتها تحوى فى طياتها المغالطة الخامسة - المفهومة ضمنا من كلامه - وهى الزعم بأن هؤلاء الأمراء مكرهون على تبديل حكم الله - مادام يستبعد أنهم يغيرون حكم الله باختيارهم - فأى إكراه يقع على الحكام ليحكموا بغير ما أنزل الله ؟! هذا الإكراه يصح فى حالة واحدة : هى أن يؤتى بإنسان من بيته قسرا ، ثم يهدد بالقتل إن هو لم يجلس على دست الحكم ويحكم بغير ما أنزل الله ! فعندئذ قد يكون معذورا عند الله ! وهو أمر لم يحدث مرة واحدة فى التاريخ ولا يمكن أن يحدث ! إنما يختار الحكام الجلوس فى مقاعد الحكم بمحض إرادتهم ، ويملكون دائما أن يرفضوا - إذا عرض الأمر عليهم - ولا تثريب عليهم ! فكيف يقال إنهم مكرهون؟! إن مثل هؤلاء الحكام الذين يشير الشيخ رشيد رضا إليهم يرتكبون فى الواقع جريمتين كبيرتين : الأولى فى حق الله ، إذ ينحون شريعته ويضعون بدلا منها شريعة جاهلية من صنع البشر ، والثانية فى حق شعوبهم ، إذ يحجبون عنهم عدوهم الحقيقى الذى يفرض عليهم الحكم بغير ما أنزل الله ليفتنهم عن دينهم ، فيتترس بهم العدو ليمنع قتال الأمة له . ولو أن الحكام امتنعوا عن ستر العدو بأشخاصهم لكان العدو سيتحمل تكاليف المواجهة الدموية (كما حدث فى أفغانستان) وتكون الغلبة فى النهاية إن شاء الله للمسلمين حين يصرون على جهاد عدوهم، ولو هزموا فى المعركة مرة ومرة ومرة ، لأن هذا وعد الله . أما حين يتترس العدو بهؤلاء الحكام يحجبونه بأشخاصهم ، فإن الأمة تغفل عنهم فتكف عن الجهاد، فيكون للعدو من التمكين ما أراد . فكيف يستخف الشيخ رشيد رضا بهذا كله من جانب هؤلاء الحكام، ولا يضعه حتى فى دائرة المعصية ، بل يجعله عزيمة تحقق المصلحة للمسلمين كما سيجىء ؟!!

يظهـر، [1] وللأحكام فيها حكم آخر . وهنا يجيء سؤال السائل : وقبل الجواب عنه لابد من ذكر مسألة يشتبه الصواب فيها على كثير من المسلمين وهى :

« إذا غلب العدو على بعض بلاد المسلمين وامتنعت عليهم الهجرة ، فهل الصواب أن يتركوا له جميع الأحكام ولا يتولوا له عملا أم لا ؟ يظن بعض الناس أن العمل للكافر لا يحل بحال . والظاهر لنا أن المسلم الذى يعتقد أنه لا ينبغى أن يحكم المسلم إلا المسلم، وأن جميع الأحكام يجب أن تكون موافقة لشريعته وقائمة على أصولها العادلة ، ينبغى له أن يسعى فى كل مكان بإقامة ما يستطيع إقامته من هذه الأحكام، وأن يحول دون تحكم غير المسلمين بالمسلمين بقدر الإمكان . وبهذا القصد يجوز له أو يجب عليه أن يقبل العمل فى دار الحرب إلا إذا علم أنه عمل يضر المسلمين ولا ينفعهم، بل يكون نفعه محصورا فى غيرهم ، ومعينا للمتغلب على الإجهاز عليهم . وإذا تولى لهم العمل وكلف الحكم بقوانينهم فماذا يفعل وهو مأمور أن يحكم بما أنزل الله ؟

« أقول إن الأحكام المنزلة من عند الله تعالى منها مايتعلق بالدين نفسه، كأحكام العبادات وما فى معناها كالنكاح والطلاق ، وهى لا تحل مخالفتها بحال ، ومنها مايتعلق بأمر الدنيا كالعقوبات والحدود والمعاملات المدنية [2] والمنزل من الله تعالى فى هذه قليل وأكثرها موكول إلى الاجتهاد [3] . وأهم المنزل وآكده الحدود فى العقوبات ، وسائر العقوبات تعزير مفوض إلى اجتهاد الحكام، والربا فى الحدود المدنية، وقد ورد

---

(١) هنا يفتح الله على الشيخ فيقرر حكم الإسلام واضحا صريحا فى واجب الأمة فى مثل هذه الحالة، وفى حكم الدار التى تحدث هذه الحالة فيها. ولكن يذهب بقيمة هذا التقرير شيئان. الأول أنه لم يبين متى يكون الحاكم على هذا الوصف؟ أى ما العلامة الظاهرة التى تعرف الأمة بها وضعه لتقوم بواجبها الإسلامى الذى حدده الشيخ فى وضوح ونصاعة ؟! والأمر الثانى هو المغالطة التى سيأتى بيانها بعد، وهى اتخاذ وصف الدار بأنها ليست دار إسلام فى مثل هذه الحالة ، ذريعة للقول بأن أحكام الشريعة غير واجبة التنفيذ فيها!!

(٢) هذه هى المغالطة السادسة . فمن قال إن الحدود تتعلق بأمر الدنيا وحدها وهى حق لله ؟! وعلى أى أساس من دين الله يفرق الشيخ بين النكاح والطلاق وبين الحدود ، فيجعل الأولى من أمور الدين التى لا يحل مخالفتها بحال ، والأخرى من أمور الدنيا (أى التى تحل مخالفتها فى رأى الشيخ إذا استخدمنا « دليل المخالفة» قرينة لفهم ما يومىء إليه الشيخ هنا، ويقرره صريحا فيما بعد!) .

(٣)هذه هى المغالطة السابعة . فإذا كان المنزل فى القرآن بالنسبة لهذه الأحكام قليلا، فالسنة ـ المكملة والشارحة ـ تحوى الكثير ، ولا يجوز لعالم فقيه كالشيخ رشيد رضا أن يذكر القرآن وحده فى هذا المجال ويسقط السنة النبوية المطهرة ، الحاوية لتفاصيل الأحكام ، والمستقلة وحدها بالأحكام فى بعض الأحيان .

فى السنة النهى عن إقامة الحدود فى أرض العدو ، وأجاز بعض الأئمة الربا فيها ، بل مذهب أبى حنيفة أن جميع العقود الفاسدة ، جائزة فى دار الحرب ، واستدل له بمناحبة (مراهنة) أبى بكر (رضى الله عنه) لأبىّ ابن خلف على أن الروم يغلبون الفرس فى بضع سنين وإجازة النبى ﷺ ذلك ، وصرحوا بعدم إقامة الحدود فيها . روى ذلك عن عمر وأبى الدرداء وحذيفة وغيرهم ، وبه قال أبو حنيفة . قال فى أعلام الموقعين : «وقد نص أحمد وإسحق بن راهويه والأوزاعى وغيرهم من علماء الإسلام على أن الحدود لا تقام فى أرض العدو ، وذكرها أبو القاسم الخرقى فى مختصره ، فقال : لا يقام الحد على مسلم فى أرض العدو . وقد أتى بسر بن أرطاة برجل من الغزاة قد سرق مجنة ، فقال : لولا أنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تقطع الأيدى فى الغزو لقطعتك» رواه أبو داود ، وقال أبو محمد المقدسى : هو إجماع الصحابة . روى سعيد بن منصور فى سننه بإسناده عن الأحوص بن حكيم عن أبيه أن عمر كتب إلى الناس ألا يجلدوا أمير جيش ولا سرية ولا رجلا من المسلمين حدًا وهو غاز حتى يقطع الدرب قافلا لئلا تلحقه حمية الشيطان فيلحق بالكفار . وعن أبى الدرداء مثل ذلك » ثم ذكر ترك سعد إقامة حد السكر على أبى محجن فى وقعة القادسية ، وذكر أنه قد يحتج به من يقول لاحد على مسلم فى دار الحرب كما يقول أبو حنيفة ، ولكنه علله تعليلا آخر ليس هذا محل ذكره . وانظر تعليل عمر تجده يصح فى بلاد الحرب[1] .

« فعلم مما تقدم أن الأحكام القضائية التى أنزلها الله تعالى قليلة جدا[2] ، وقد

---

(١) هذه أعجب المغالطات على الإطلاق ! فما العلاقة بين عدم إقامة الحد على المسلم المحارب فى دار الحرب ، حتى لا يستفزه الشيطان للحاق بالعدو (أى الارتداد عن الإسلام) وبين إسقاط أحكام الشريعة عن المسلمين فى الهند ، أو فى أى بلد آخر غلب عليه الكفار فنحّوا شريعة الله ، ووضعوا بدلا منها قوانين جاهلية تحكم الناس؟ ! وكيف يستدل بعدم إقامة الحد على المسلم فى أثناء الغزو ، على عدم جواز إقامة الحدود فى البلاد المشار إليها آنفا ، بحيث تصبح الشرعية فى تلك البلاد للقوانين الوضعية لا للشريعة الإسلامية ؟ ! ويصبح تطبيق الشريعة الإسلامية فيها خطأ ينهى عنه الدين ؟!!

لو قلنا إن خضوع المسلمين فى الهند - أو فى غيرها - للقوانين الجاهلية ضرورة ، ماداموا قد عجزوا عن المقاومة بعد قيامهم بالجهاد الواجب ، لكان هذا أمرا منطقيا معقولا ، لأنه لا حيلة للناس غير ذلك (مع وجوب المجاهدة بالقلب ، لقول رسول الله ﷺ : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » رواه مسلم . أما أن يقال أنه لا يجوز إقامة احكام الشريعة فى هذه الحالة - بأمر الدين - فقول ما أظن أن أحدا قاله فى تاريخ الإسلام كله !

(٢) هذا عود إلى قضية قلة الأحكام المنزلة فى القرآن ، وقد علقنا عليها من قبل ، ولكن المغالطة الجديدة هنا (وهى التاسعة) هى الإيحاء بأنها مادامت قليلة فلا بأس بمخالفتها ! ! فلنفرض أن الله تعالى لم ينزل إلا حكما واحدا فى دينه كله ، ، وترك الباقى للاجتهاد ، فهل يجوز للمسلمين أن يقولوا : مادامت الأحكام كلها متروكة للاجتهاد إلا واحدا ، فهلم نترك الالتزام بهذا الحكم الواحد ، ونجتهد فيه كبقية الأحكام ؟!!

علمت ما قيل فى إقامتها فى دار الحرب لاسيما عند الحنفية . فإذا كانت الحدود لا تقام هنـاك [1]، فقد عادت أحكام العقوبات كلها إلى التعزير الذى يفوض إلى اجتهاد الحاكم [2] . والأحكام المدنية أولى بذلك لأنها اجتهادية أيضا ، والنصوص القطعية عن الشارع قليلة جدا ، وإذا رجعت الأحكام هناك إلى الرأى والاجتهاد فى تحرى العدل[3] والمصلحة [4] ، وأجزنا للمسلم أن يكون حاكما عند الحربى فى بلاده لأجل مصلحة المسلمين [5]، فالذى يظهر أنه لا بأس من الحكم بقانونه لأجل منفعة المسلمين ومصلحتهم[6] . فإن كان ذلك القانون ضارا بالمسلمين، ظالما لهم ، فليس له أن يحكم به ، ولا أن يتولى العمل لواضعه إعانة له [7] .

وجملة القول أن دار الحرب ليست محلا لإقامة أحكام الإسلام [8]، ولذلك تجب الهجرة منها إلا لعذر أو مصلحة للمسلمين ، يؤمن معها من الفتنة فى الدين . وعلى

---

(١) أى لا يجوز إقامتها !

(٢) هذه هى المغالطة العاشرة . فمن الذى يجوز له الحكم بالأحكام التعزيرية اجتهادا ؟ أهو الحاكم المسلم، أم إن كل حكم تعزيرى فى الدنيا يصبح شرعيا إذا طبق على المسلمين ولو صدر من الإنجليز ؟!

(٣) سبق الكلام عن العدل وضرورة ضبطه بالكتاب والسنة ليصبح هو « العدل» الذى يرضى الله عنه .

(٤) من الذى يحدد المصلحة ؟ وما قلناه عن العدل ينطبق على المصلحة ، فهى - وإن كانت متروكة للاجتهاد - فضابطها هو القواعد الشرعية .

(٥) لم يستدل فى هذه القضية الخطيرة بأى دليل شرعى ! إنما أطلق حكم الجواز من عند نفسه بلا دليل . . إلا المصلحة . . والمصلحة كما قلنا تحتاج هى ذاتها إلى الضوابط الشرعية ، فلا تصلح - على إطلاقها - أن تكون سندا لحكم إلا إذا كانت منضبطة بالضوابط الشرعية .

(٦) مرة أخرى يصدر حكما بغير دليل شرعى فى قضية من أخطر القضايا وهى الحكم بغير ما أنزل الله ، الذى يقول عنه سبحانه وتعالى إنه كفر ، ويقول أشد المتساهلين - بغير دليل شرعى - إنه فسوق ومعصية ، فيقول هو عنه إنه « لا بأس به» ! مستندا إلى حكم أصدره من عند نفسه - بلا دليل - بجواز أن يكون المسلم حاكما عند الحربى فى بلاده ! وهكذا تتوالى الأحكام فى الفتوى مترتبا بعضها على بعض، وهى كلها مفتقرة إلى الدليل الشرعى الذى يسندها !

(٧) من الذى يحدد الظلم ؟ إن الذى يحدد المصلحة هو الذى يحدد الظلم ، وهو الله سبحانه وتعالى، العليم الخبير ، صاحب الأمر ، الذى له ما فى السماوات والأرض، والذى يحكم لا معقب لحكمه وقد قرر العليم الخبير صاحب الأمر أن الحكم بغير ما أنزل الله هو الظلم : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ فمن ذا الذى يجرؤ أن يقول إن الحكم بغير ما أنزل الله يمكن أن يكون ظالما أحيانا وغير ظالم أحيانا أخرى؟!

(٨) استند إلى مثل هذا المنطلق السيد أحمد خان فقال إن دار الحرب (وكان يقصد بلاد الهند بالذات) ليست محلا للجهاد!

من أقام أن يخدم المسلمين بقدر طاقته، ويقوى أحكام الإسلام بقدر استطاعته [١]. ولا وسيلة لتقوية نفوذ الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين مثل تقلد أعمال الحكومة[٢]، ولاسيما إذا كانت الحكومة متساهلة قريبة من العدل بين جميع الأمم والملل كالحكومة الإنجليزية [٣]. والمعروف أن قوانين هذه الدولة أقرب إلى الشريعة الإسلامية من غيرها، لأنها تفوض أكثر الأمور إلى اجتهاد القضاة. فمن كان أهلا للقضاء فى الإسلام وتولى القضاء فى الهند بصحة قصد وحسن نية يتيسر له أن يخدم المسلمين خدمة جليلة. وظاهر أن ترك أمثاله من أهل العلم والغيرة للقضاء وغيره من أعمال الحكومة تأثما من العمل بقوانينها يضيع على المسلمين معظم مصالحهم فى دينهم ودنياهم. وما نكب المسلمون فى الهند ونحوها وتأخروا عن الوثنيين إلا بسبب الحرمان من أعمال الحكومة [٤]. ولنا العبرة فى ذلك بما يجرى عليه الأوربيون فى بلاد المسلمين، إذ يتوسلون بكل وسيلة إلى تقلد الأحكام، ومتى تقلدوها حافظوا على مصالح أبناء ملتهم وجنسهم، حتى كان من أمرهم فى بعض البلاد أن صاروا أصحاب السيادة الحقيقية فيها، وصار حكامها الأولون آلات فى أيديهم.

« والظاهر مع هذا كله أن قبول المسلم للعمل فى الحكومة الإنكليزية فى الهند (ومثلها ماهو فى معناها) وحكمه بقانونها هو رخصة تدخل فى قاعدة ارتكاب أخف الضررين، إن لم تكن عزيمة يقصد بها تأييد الإسلام وحفظ مصلحة المسلمين[٥]. ذلك أن تعدّه من باب الضرورة التى نفذ بها حكم الإمام الذى فقد أكثر شروط الإمامة،

---

(١) قرر فيما سبق أن دار الحرب ليست محلا لإقامة أحكام الإسلام، ليبرر خضوع المسلمين للأمراء الذين لا يحكمون بما أنزل الله. وهنا ـ لما أراد أن يبرر قيام المسلمين بتقلد الوظائف فى الحكومة التى لا تحكم بما أنزل الله ـ قال إن واجب المسلمين أن يتقلدوا هذه الوظائف ليعملوا قدر الإمكان على تقوية أحكام الإسلام! فماذا نسمى هذا التحايل؟!

(٢) نرجىء التعليق على هذه القضية إلى حين الحديث عن قضايا الحركة الإسلامية فى الفصل القادم.

(٣) نمر بهذه دون تعليق، لأنها ليست فى حاجة إلى تعليق!

(٤) كانت الحكومة الإنجليزية فى الهند تحرم المسلمين عمدا من تقلد وظائف الدولة وتسندها إلى الوثنيين. وهذه هى الحكومة التى قال عنا آنفا إنها « متساهلة قريبة من العدل بين جميع الأمم والملل»!

(٥) أرأيت كيف يجعل من مخالفة صريح أمر الله سبحانه وتعالى « عزيمة»؟! لقد كان المسلمون من الضعف ـ بعد الهزيمة العسكرية ـ بحيث لا يملكون إلا الخضوع لسلطان أعدائهم، وهم بهذا فى دائرة عفو الله:

﴿إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا. فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوا غفورا﴾ [سورة النساء: ٩٨ ـ ٩٩] أما أن يصبح هذا الخضوع عزيمة يدعى المسلمون إليها فمن العجب العاجب فى ذلك الزمان!

والقاضى الذى فقد أهم شروط القضاء، ونحو ذلك فجميع حكام المسلمين فى أرض الإسلام اليوم حكام ضرورة[1] . وعلم مما تقدم أن من تقلد العمل الحربى لأجل أن يعيش براتبه فهو ليس من أهل هذه الرخصة، فضلا عن أن يكون من أصحاب العزيمة. والله أعلم .

« (تنبيه) : دار الحرب بلاد غير المسلمين وإن لم يحاربوا [2]. وكانت القاعدة أن كل من لم تعاهده على السلم يعد محاربا» .

حين يكون « علماء الدين» على هذا النحو . . يطوعون الناس للأمر الواقع، ويخذلونهم عن الجهاد الواجب لتغييره ، ولا يتحركون من جانبهم لينافحوا عن حقوق الناس كما بينها الله فى كتابه وفى سنة رسوله ﷺ ، ولا يقفون للسلطان الجائر يأمرونه وينهونه ليأطروه على الحق أطرا ولو تعرض لهم بالأذى . . فضلا عن كونهم لا يعلّمون أمتهم حقيقة التوحيد كما أنزلها الله - الشاملة للعقيدة والشعيرة والشريعة - ولا يقدمون الرؤية الإسلامية الصحيحة للواقع الذى يعيشه الناس ، ولا الرؤية الإسلامية الصحيحة لطريق الخلاص من ذلك الواقع السيىء الذى يعيشه الناس . .

وحين يكون الزعماء العلمانيون - الذين أبرزهم الاستعمار بعد أن صنعهم على عينه، ووضعهم فى مكان القيادة ليشدوا الأمة كلها بعيدا عن الإسلام - هم - كما بدوا فى عين الجماهير يومئذ - الذين ينادون « بحقوق الجماهير »، ويقفون للسلطان الجائر،

---

(١) سبقت الإشارة إلى أنه لا يوجد إكراه على الحكام أن يجلسوا فى مقاعد الحكم ويحكموا بغير ما أنزل الله . فالضرورة غير قائمة بالنسبة لهم . وإن لم يقدروا أن يكونوا فى مكان المجاهدين لإعادة الشريعة إلى مكانها الذى نحاه عنها المستعمر الصليبى، فلا أقل من أن يتورعوا عن خدمة ذلك المستعمر بستره بأشخاصهم، والحيلولة بين المجاهدين وبينه، ليتحمل هو التكاليف الدموية لعدوانه على المسلمين . بل هم - أكثر من ذلك - ينوبون عنه فى تقتيل المجاهدين الذين يجاهدون لإعادة الشريعة إلى مكانها!

(٢) عدل هنا - دون مناسبة ظاهرة - عن كلامه الأول الذى أشار فيه إلى أن الدار التى فيها أمير مسلم (أى يحمل اسما مسلما!) يغير حكم الله باختياره ، ويستبدل به حكما آخر بإرادته لا تعتبر دار إسلام (يعنى تعتبر دار حرب) وحصر دار الحرب بأنها بلاد غير المسلمين وإن لم يحاربوا . والذى عليه جمهور العلماء أن الدار تأخذ وصفها من غلبة الأحكام عليها (أى بصرف النظر عن عقائد أهلها) فالأرض التى تحكمها شريعة الله هى دار إسلام، ولو كان أغلب سكانها غير مسلمين، كما كانت الهند خلال ثمانية قرون من الحكم الإسلامى ، وأغلب سكانها من المجوس عباد البقر. كذلك الأرض التى لا تحكمها شريعة الله فهى دار حرب ، ولو كان أغلب سكانها مسلمين، أو دار ردة إذا كان أهلها مسلمين ثم ارتدوا عن الإسلام.

ويدعـون الأمة للخـلاص من الواقع السيىء ، ويرشدونـهـا إلى طريق الحـرية والتـقدم والحضارة . .

حين يكـون الفريـقـان على هذا النحـو ، فـهل نعـجب من التـفـاف الجـمـاهير حـول الزعماء العلمانيين ، وفتنتهم بهم إلى الحد الذى رأينا نموذجا منه فى سعد زغلول [1] ؟ !

وما نقول هذا لنبرر موقف الجماهير . . ولكن لنفسره فحسب . .

أما التبرير ، فلا تبرير للخروج على أمر الله . والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ بـل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره﴾ [2] وكل من قـال لا إله إلا الله ، محـمـد رسـول الله ، يقصد بها الإسلام [3] ، فهو مسئول أمام الله عن الحال التى وصل إليها المسلمون ، وعن السلوك المنحرف الذى وقع فيه المسلمون .

ولكن الناس ليسوا فى المسئولية سـواء . . فالحكام أولا ، والعلماء بعدهم . . وفى النهاية يأتى دور « الجماهير » !

٦ـ استيراد النّظمُ والمبادئ من أوربّا

أيًا كـان الأمر . . وأيًا كانت مسئوليات الناس . . فقد صاحب هذا الوضع ظاهرة خطيرة ـ أو قل إن شئت ترتبت عليه نتيجة خطيرة ـ أصبحت منذ ذلك الحين جزءا من واقع هذه الأمة ، هى استيراد النظم والمبادئ ـ للمسلمين ـ من عند أعداء الإسلام !

لقد كان الأمر سيئا وخطيرا من كل وجه .

فقد كـانت هذه هى المرة الأولى فى حـيـاة الأمة ، التى تستـورد فيهـا « المبادئ » من خـارج الإسلام ، وتستـورد النظم ـ السياسيـة والاقتصادية والاجتماعية ـ من خارج الإسلام !

لقد احتاجت الأمة من قبل إلى « تنظيمات » إدارية ، وأشكال من أشكال الحضـارة

---

(١) لم يكن سعد زغلول حالة فردية ، ففى كل بلد كان هناك زعيم أو زعماء على شاكلة سعد زغلول ! .

(٢) سورة القيامة [١٤ـ١٥] .

(٣) إن قالها نفاقا فهو فى الدرك الأسفل من النار .

المادية ، لم تكن فى رصيدها السابق من قبل ، وكانت محتاجة إليها لتقيم « الدولة» على مستوى الكفاءة اللازم لدولة متنامية القوة تتوسع رقعتها بسرعة خيالية . . فأخذت تلك التنظيمات وتلك الأشكال من فارس وبيزنطة ، ولم تجد فى نفسها حرجا من ذلك ، ولكن تم الأمر على قاعدتين مهمتين !

الأولى : أن الأمة لم تشعر بالصغار والانكسار وهى تأخذ ما هى محتاجة إليه من «حضارة » أعدائها ، بل كانت تحس بالاستعلاء ، الناشئ من الإيمان : ﴿ ولا تهنوا ولاتحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [1] أى من كونهم مؤمنين وكون أعدائهم غير مؤمنين ، فالمؤمن هو الأعلى - بسبب إيمانه - أيًا كانت حالته المادية أو العسكرية ، وغير المؤمن هوالأدنى - بسبب كفره وإعراضه عن الهدى الربانى - أيًا كانت حالته المادية والعسكرية . فهم يشترون هذه « البضاعة» الحضارية ممن يملكها ، دون أى خضوع روحى له ، ودون أى إكبار له ، لأنه لا يستحق الإكبار وهو معرض عن دين الله .

والثانية : أن الأمة - فى حركة الأخذ هذه - لم تأخذ إلا ما كانت فى حاجة إليه . . فهى لم تأخذ كل ما كان عند أعدائها من التنظيمات والأشكال المادية من الحضارة ، إنما أخذت فقط ما شعرت أنها محتاجة إليه من هذه « البضاعة الحضارية» . وأهم من ذلك أنها حين أخذت تلك التنظيمات والأشكال المادية لم تأخذ معها قط المبادئ والنظم التى كانت لاصقة بها عند الذين أخذت عنهم . فقدكانت تلك المبادئ والنظم قائمة على عقائد وتصورات جاهلية ، لا تصلح للمسلمين ألبتة ، وليس المسلمون فى حاجة إليها ، لأن دينهم فيه الغناء عنها ، بل هم مأمورون أمراً ألا يتخذوا شيئا منها ، وإلا فهى ردة جاهلية لا تستقيم مع الإسلام .

فأما « النظم » السياسية والاقتصادية والاجتماعية فهى متصلة بالتشريع ، والمسلمون منهيون نهيا جازما عن أخذ التشريع من عند غير الله :

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾ [2] **﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾**[3] **﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك﴾** [4] .

وأما « المبادئ » فهى إما موافقة لما جاء من عند الله ، فالمسلم يتلقاها من المصدر

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩] . (٢) سورة المائدة [٤٤] .
(٣) سورة الشورى [٢١]. (٤) سورة المائدة [٤٩] .

الربانى وحده لا من أى مصدر سواه، وإما مخالفة لما جاء من عند الله ، فالأخذ بها إذن كفر وفسوق وعصيان .

وهكذا لا يأخذ المسلم من «البضاعة الحضارية» إلا ما يكون محتاجاً إليه من الأمور التنظيمية، أو الأشكال المادية التى لاتعرض بذاتها منهجا للتصور ولا منهجا للسلوك يخالف عقيدة المسلم ومنهجه الربانى للحياة . أما النظم [1] : السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية . . وأما القيم والمبادئ . . فهى « الدين» [2] الذى يتلقاه المسلم من ربه ولا يتلقاه من مصدر سواه .

أما فى حركة الأخذ الثانية ، التى تمت فى ظل الخواء الروحى والتخلف العقدى من ناحية ، وفى ظل الغزو الفكرى من ناحية أخرى - وقد تلازما فى الحقيقة لارتباط الأخير بالأول - فقد انهارت الحواجز ، ولم يعد « المسلمون» يفرقون بين ما ينبغى أخذه وما ينبغى تركه من « البضاعة الحضارية» الموجودة عند الغرب .

لقد كانوا متخلفين فى كل شىء - نعم! - ولكن الغرب لم يكن ليستطيع إمدادهم بكل ما يحتاجون إليه ليقوموا من عثرتهم . بل كان كثير مما عند الغرب قمينا أن يزيد من عثرتهم - كما حدث بالفعل ! - لأنه يُعْثِرُ الغرب ذاته ، وإن كان الغرب - بسبب قوته المادية الفارهة - لا يتأثر بعثراته الآن !

لقد كان الغرب يملك تقدما علميا فائقا ، وتقدما ماديا هائلا ، وعبقرية تنظيمية مبدعة ، وروحا من الجلد والصبر على العمل والإنتاج ، وروحا عملية فى مواجهة المشكلات، سواء من ناحية الدراسة أو من ناحية التنفيذ . . وكان كل هذا لازما لزوما شديداً للمسلمين ، لتخلفهم الشديد فى تلك الميادين كلها ، بعد أن كانوا أصحاب قدم ثابتة فيها كلها وقت أن كانوا على جادة الإسلام .

وكان الواجب على المسلمين أن يصرفوا جهدهم لتعلم هذه الأمور والتمكن منها، بوصفها حاجة ملحة لا فكاك منها . .

---

(١) الفرق واضح بين « النظم» و«التنظيمات» . فحين يكون فى الدولة وزراء ، وللوزراء وكلاء، ثم مديرو عموم، ثم موظفون مختلفو المناصب يختص كل منهم بعمل، فهذا تنظيم إدارى يخدم أى نظام يستخدمه، ولا يفرض على النظام تصورا معينا ولا فكرة معينة، ومن ثم يستخدمه الكل على السواء ، ويستخدمه المسلمون حين يرونه نافعاً لهم، ولا حرج عليهم فى ذلك . أما النظم فأمرها مختلف لأنها تتصل بالتشريع .

(٢) الدين بمعنى منهج الحياة ، ويشمل العقيدة والشعيرة والشريعة .

وكان عند الغرب في الوقت ذاته قدر هائل من الفساد الروحي والفكري والخلقي ، لا ينبغي لعاقل أن يأخذه ، فضلا عن أن يأخذه مسلم ، أتم الله نعمته عليه ورضي له الإسلام دينا ، وميزه بمنهج حياة مستقيم نظيف متطهر مترفع خال من الدنس وخال من الفساد .

وكان عند الغرب كذلك نظم اقتصادية وسياسية واجتماعية ، يختلط فيها الصلاح والفساد ، ولكنها بجملتها تشريع بغيرما أنزل الله ، قائم على قاعدة غير إسلامية ، هي تعبيد البشر بعضهم لبعض - بالتشريع - بدلا من تعبيدهم لربهم وخالقهم ، ومن ثم فقاعدته جاهلية ، وإن كان في بعض جزئياته يلتقي التقاء عارضا ببعض ما جاء من عند الله ، كمبدأ الشورى ، وبعض الحقوق وبعض الضمانات . . إلخ [١] وتلك الأمور - المتصلة بالتشريع - يأخذها المسلم - كما قلنا - من التشريع الرباني ، ولا يأخذها من مصدر سواه .

ومن هنا يتحدد الموقف الذي كان على المسلمين أن يقفوه تجاه ما يسمى في مجموعه « بالحضارة الغربية » . . فكل ما يتصل بالتقدم العلمي ، والتقدم المادي ، والناحية التنظيمية ، وروح الجلد والصبر على العمل ، والروح العملية في الدراسة والتنفيذ ، فليأخذوه وليصرفوا جهدهم فيه . وكل ماعدا ذلك فليتركوه وليحذروه . .

أما الذي حدث بالفعل فقد كان غير ذلك . .

فأما الأشياء النافعة فقد اتجهوا إليها ، ولكن بجهد متقاعس متخاذل متعثر الخطوات . .

وأما الفساد فقد سارعوا إليه فاستوعبوه كله ، وعبوا منه عبًّا كأنما هو « الزاد » .

وأما النظم فقد سعوا إلى استيرادها وتقليدها ضاربين صفحا تماما عما أنزل الله .

ولذلك كله تفسيره من حال المسلمين يومئذ ، وإن كان الإثم لاحقاً بهم في كل حال .

* * *

لقد ظنوا في غفلتهم أن « الحضارة الغربية » كتلة واحدة ، وحسبة واحدة ، إما أن توخذ كلها وإلا فلا فائدة من أخذ بعضها وترك بعضها الآخر . . كما أوهمهم بذلك

---

(١) راجع إن شئت فصلي « الديمقراطية » و« الشيوعية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

دعاة الغزو الفكرى ، سواء من الصليبية واليهودية أو من عملائهما ، وسواء من عملائهما العميل المستغفل والعميل المأجور [(١)]! ووجد هذا النداء أذنا صاغية لدى «المسلمين» المستضعفين . .

فأما دعاة الغزو الفكرى من الصليبيين واليهود فمصلحتهم واضحة فى إيهام «المسلمين» بذلك الوهم ، لأنه أفعل فى استعبادهم ، وضمان خضوعهم التام لهم ، وضمان إبعادهم بعداً كاملا عن الإسلام ، الذى لا يمقتون شيئا مقتهم له ، ولا يخافون شيئا خوفهم منه [(٢)] . فحين ينسلخ المسلمون انسلاخا كاملا من كل مقومات دينهم ، فى عالم التصور وعالم السلوك ، فى الأفكار والأخلاق والنظم والعادات ، فلن يبقى لهم من شخصيتهم المتميزة شىء ، ولن يبقى لهم من القدرة على المقاومة شىء ، ويتم إخضاعهم بعامل « العبودية» وهو أفعل بكثير وأدوم بكثير من عامل القهر العسكرى الذى يلجأ إليه الاستعمار فى مبدأ الأمر ، ولكنه لا يأمن نتائجه دائما ، لأن مجرد وجوده يستفز المقهورين ، ويدفعهم إلى المقاومة حينا بعد حين . . أما إذا استعبد المقهورون من الداخل ، بتذويب مقومات شخصيتهم من ناحية ، وإشعارهم الدائم أنهم « تبع » لقاهريهم فى كل شىء ، فهنا يأمن الاستعمار الصليبى (اليهودى) أكثر ، ويحلم ببقاء أطول ، ولو خرج كل عساكره من الأرض المحتلة[(٣)] .

أما العملاء فمنهم من باع نفسه للشيطان لقاء الأجر الذى يحصل عليه ، سواء كان الأجر سلطانا فى الأرض ، أو شهرة وذيوع صيت ، أو مالاً حراما ، أو شهوات دنسة ، فهو يقوم « بالمطلوب» منه ، والمطلوب هو استعباد المسلمين لقاهريهم من الصليبيين واليهود ، ومن أفعل الوسائل إيهامهم أن عليهم أن يأخذوا الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها كما قال طه حسين . ومنهم « النظيف» الذى لا يتناول أجرا على عمله ، ولكنه مهزوم داخليا ، فهو ينطلق من هذه الهزيمة ، يحسب - فى غفلة القهر الداخلى - أنه بدعوته إلى تقليد الغرب يقدم للمسلمين طريق الخلاص مما هم فيه!

---

(١) العيل المستغفل هو الذى يحقق مصلحة للعدو الصليبى أو اليهودى - غفلة منه - وهو يحسب أنه يحقق مصلحة للسلمين!!

(٢) مر بنا كلام « ولفرد كانتول سميث» الصريح فى فزع أوربا من الإسلام أكثر من أى شىء آخر .

(٣) من أجل ذلك كان كرومر يقول : « إن مهمة الرجل الأبيض الذى وضعته العناية الإلهية على رأس هذه البلاد هى تثبيت دعائم الحضارة المسيحية إلى أقصى حد ممكن بحيث تصبح هى أساس العلاقات بين الناس» !

وفي النهاية يستوى العميل المستغفل والعميل المأجور فى تمكين « السادة» من استعباد «العبيد» !

وأما المستضعفون فقد وجدت منهم الدعوة أذنا صاغية من جهتين اثنتين : الأولى ميل المغلوب إلى تقليد الغالب ، وهو أمر مشهور فى التاريخ . والثانية أن « التقليد » أسهل على المغلوب المستضعف ، لأنه يوفر عليه عناء « الاختيار» . ولأن الانتقاء والاختيار لا يقوم به فى الحقيقة « العبد» المستضعف ، إنما يقوم به « السيد» صاحب الإرادة الحرة ، والقدرة على التمييز قبل القدرة على الاختيار . .

لقد كانت الكارثة كامنة فى قلوب « المسلمين» أنفسهم . . من التخلف العقدى والخواء الروحى . . فلم يتحقق فيهم ما أمرهم به الله :

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾ [(١)] .

* * *

لقد كانت دعوى « أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها» دعوى باطلة من أساسها! فالتقدم العلمى لا علاقة له بداهة بالفساد الخلقى! ! ولا يقول عاقل فى الأرض كلها إنه لابد للإنسان أن يفسد خلقيا لكى يتقدم علميا! إنما كان منشأ هذا الانحراف الفكرى فى أوربا عوامل خاصة هناك ، فقد وقفت الكنيسة هناك وقفة حمقاء ضد العلم ، فلم يكن ثم مناص من تنحية قبضة الكنيسة عن الحياة كلها لكى يأخذ التقدم العلمى مجراه ؛ وأخذ التقدم العلمى مجراه بالفعل حين رفع عن كاهل الناس سلطان الكنيسة ، ودينها الجاهلى الزائف الذى كانت تستعبد به الناس ، ولكن أوربا خسرت فى مقابل ذلك كيانها الإنسانى حين نبذت العقيدة فى الله ، وخسرت أخلاقها حين قطعت صلتها بالدين ، ونبتت فى رأسها الأفكار « الحيوانية» عن الإنسان ، وقيمه ، وسلوكه ، وأهدافه . . فأصابها من جراء ذلك شر عظيم ، رأى «العقلاء» منهم نذره منذ وقت مبكر ، ورأى غيرهم آثاره حين وقعت بالفعل ، وصاروا يبحثون لأنفسهم ولشعوبهم عن « طريق الخلاص» !

ووقع التمكين فى الأرض لأوربا وهى على هذه الحال من الانتكاس الإنسانى والخلقى ، بمقتضى إحدى السنن الربانية التى يجريها الله فى عباده :

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩] .

﴿ فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء . حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾[1] .

كما كان التمكين يجرى بحسب سنة أخرى فى ذات الوقت (ولا تعارض بين سنن الله ، إنما تجرى مترابطة فى نظام محكم) :

﴿ من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها، وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون﴾ [2] .

وهكذا أصبحوا ممكنين فى الأرض رغم فسادهم ، لا بسبب فسادهم ! وإنما تحقق التمكين لهم بالجهد الإيجابى الذى يبذلونه لتمكين أنفسهم ، فيعطيهم الله ثمرته فى الأرض - إلى حين - حسب سنته ، ثم يدمر عليهم - فى النهاية - حسب سنته كذلك لأنهم غير مستقيمين على طريقه .

تلك هى قصة أوربا . .

أما التلازم بين التقدم العلمى والمادى ، وبين الإنسلاخ من الدين والانسلاخ من الأخلاق ، فأكذوبة ضخمة لم يكن لها وجود إلا فى نفوس العبيد، الذين استعبدهم الغزو الفكرى ، وأنساهم ربهم ، فأنساهم أنفسهم ! :

﴿ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم . أولئك هم الفاسقون﴾ [3] .

ومن هنا فإن تيار التغريب، الذى يدعو لإصلاح الحال على منهج الغرب، راح يحاول تقليد أوربا فى كل شيء ، فانزلقت قدمه فى الفساد قبل أن يحاول تثبيتها بالتقدم العلمى والتقدم المادى! ومن هنا سار التقدم العلمى والمادى بطيئا متعثر الخطوات، لا كما كان يرجوه المخلصون، ولا كما كان يمكن أن يحدث لو أن الأمة تجمعت بعزمها كله لإحراز ذلك التقدم، دون الانغماس فى الفساد الخلقى الذى يصرف عن جديات الأمور ، كما فعلت اليابان حين قررت أن تنهض ، فأخذت علم الغرب كله - ثم تفوقت عليه فى بعض الأمور - دون أن تغير تقاليدها ولا عقائدها ،

---

(١) سورة الأنعام [٤٤].

(٢) سورة هود [١٥ - ١٦] .

(٣) سورة الحشر [١٩] .

وهي عقائد وثنية جاهلية [1]، وقد كان « المسلمون» أولى بذلك لولا التخلف العقدى والخواء الروحي الذى كانوا غارقين فيه .

وخلاصة الأمر أن التخلف العلمي والمادى ظل باقياً على نطاق واسع رغم كل «الجهود» التى بذلت . وأن الفساد الخلقى والتحلل الدينى اكتسح العالم الإسلامى بحيث أصبح هو السمة البارزة فيه . ثم أضيف إلى الأمرين معا استيراد النظم والمبادئ من أوربا، وصيرورة ذلك جزءا من حياة الأمة ومن واقعها ، لا تتحرج منه ولا تتأثم ، ولا ترى فيه أية مخالفة « للدين»، ولا خروج على الإسلام .

وقد كان الوصول بالأمة إلى هذا الحال فى حاجة إلى زحزحة هائلة للأمة عن نقطة ارتكازها الطبيعية - وهى الإسلام - حتى تصبح نقطة الارتكاز هى أوربا والحضارة الأوربية ، وليس الإسلام .

ولقد بدأت الزحزحة مبكرة - كما قلنا - من أيام رفاعة رافع الطهطاوى ، أول « زعيم للإصلاح!» فى مصر « الحديثة!» .

وتوالت الجهود . . جهود الشياطين . . على مدى ما يقرب من قرنين من الزمان ، بلا هوادة، ولا توقف، ولا تراجع، بل بعنف متزايد على الدوام .

ولكن الجهود اتخذت صورتين مختلفتين ، على فترتين متميزتين من الزمن، وإن كانت الفترة الثانية قد اتكأت كثيراً على الأولى، ولم تكن لتعمل عملها لو لم تكن الأولى قد مهدت لها فى واقع الحياة وواقع النفوس .

تمتد الأولى بصفة عامة إلى الحرب العالمية الثانية ، حيث كانت السيطرة الصليبية (اليهودية) فى يد بريطانيا وفرنسا، وهما اللتان تقومان - أساسا - بمحاربة الإسلام ، وزحزحة الأمة الإسلامية عنه . وتبدأ الفترة الثانية من بُعَيْد الحرب العالمية الثانية ، حيث انتقلت السيطرة الصليبية (اليهودية) إلى أمريكا ، وتولت هى - أساسا - حرب الإسلام ، وإن كانت حرب الإسلام - دائماً - جهداً مشتركاً بين كل أعدائه ، يقوم كل منهم بنصيبه فيه !

---

(١) بدأت اليابان فى الأخير تتحلل تدريجيا من عقائدها وتقاليدها على يد الجيل « المثقف» الذى تلقى تعليمه فى الغرب ، بعد أن صمدت طويلا للغزو الفكرى، ولا يستغرب هذا من الوثنيين حين تغزوهم « الثقافة»، ولكنه لم يكن حتما على « المسلمين» لو كانوا على إسلام صحيح .

فى الفترة الأولى كانت اللعبة هى « الوطنية » من جهة، و«الديمقراطية» من جهة أخرى، والذى يقوم باللعبة هو الأحزاب السياسية التى صنعها الغرب لتخدم أهدافه بعملية « التغريب» وعملية « التقريب» .

فى هذه الفترة لم يكن الإسلام يحارب حربا دموية عنيفة (إلا قرب نهايتها كما سنبين فى الفصل القادم)، إنما كانت الحرب تتخذ صورة الزحزحة البطيئة (الأكيدة المفعول) عن طريق الغزو الفكرى، وعن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام، وعن طريق إخراج المرأة إلى الشارع وإفساد أخلاقها وتحويلها إلى «فتنة» لنفسها وللرجل ، وعن طريق إيجاد مؤسسات سياسية لا تحكم بما أنزل الله ، وإعطائها ثقل« الأمر الواقع» ، والزعم بأنها هى الصورة الوحيدة الممكنة. . . إلخ . . إلخ . . مما فصلناه فيما سلف من هذا الفصل .

فى تلك الفترة عنى المخططون بعدم مهاجمة الدين هجوما صريحا مباشرا ـ وإن هوجم تحت ستار محاربة « التقاليد» العتيقة البالية ـ ولكن فى ذات الوقت يقلص الإسلام تقليصا تدريجيا متزايدا حتى يخرج تماما من الحياة الواقعية ، ويصبح وجدانا فى داخل الضمير .

حين نحيت الشريعة الإسلامية عن الحكم، وهاجت الخواطر ، وقال المسلمون ـ بحق ـ إن هذا كفر ، قيل للناس لا بأس عليكم من تنحية الشريعة الإسلامية (فهذا «اجتهاد» لجأ إليه الحاكم!!) [1]، ولكنكم مازلتم مسلمين، مادمتم تصلون وتصومون، وتزكون وتحجون!

ثم سلط على الأمة من الوسائل الشيطانية ـ عن طريق « قضية المرأة» وما تبعها من الفساد الخلقى، وعن طريق السينما الخليعة والإذاعة الخليعة والشواطئ العارية والصحافة العارية . . إلخ ـ ما يصرف الناس تدريجيا عن الصلاة والصوم والزكاة والحج، ثم قيل للناس لا بأس عليكم وإن لم تصلوا وإن لم تصوموا . . فأنتم مسلمون مادمتم تقولون لا إله إلا الله !

ولكى يتم إيهام الناس أنهم مازالوا مسلمين، وهم لا يحكّمون شريعة الله ، وهم لا يؤدون الشعائر التعبدية . . كان لابد من جهد « فكرى» لتحويل الإسلام عن

---

(١) راجع فتوى الشيخ رشيد رضا التى أوردناها من قبل .

حقيقته ، وتحويله إلى المفهوم الكنسي الغربي : علاقة بين العبد والرب ، لا صلة لها بواقع الحياة !

واعتمد القائمون بالجهد - ولاشك - اعتمادا كبيرا على الفكر الإرجائي ، الذى كان يقول إن الإيمان هو التصديق ، أو هو التصديق والإقرار ، وإن العمل ليس داخلا فى مسمى الإيمان ، وإنه لا يضر مع الإيمان شىء !!

ولكن لا يجوز لنا أن ننسى أن الفكر الإرجائى - فى أحط دركاته قبل الغزو الصليبى والغزو الفكرى - لم يكن قد وصل قط إلى تنحية شريعة الله ولا إسقاط الصلاة . . لأن المسلمين - على كل ضعفهم وكل تفلتهم - لم يكونوا يرون لأنفسهم وجودا إسلاميا بغير تطبيق الشريعة الربانية وبغير أداء الصلاة . .

ولكن المنزلق كان قائما على أى حال . . وكان « المسلمون» قمينين أن يهبطوا عليه إذا دفعهم إليه « دافع» ! وقد جاء الغزو الصليبى والغزو الفكرى فقاما بالدفعة المطلوبة . . فهوى المسلمون على المنزلق . . يصاحبهم الفكر الإرجائى على طول الطريق . . !

كانت البداية على يد « أستاذ الجيل » . . فقد ظل يكرر فى جريدته أن الدين شىء سامٍ نبيل ، ولكنْ محله القلب . . ولا ينبغى خلطه بالسياسة ، لأن السياسة دنسة ! ولا يجوز تلويث الدين بدنس السياسة !!

وجاء محمد عبده يقول : لعن الله ساس ويسوس وسياسة [1] . . !!

ثم جاء سعد زغلول يقول : الدين لله ، والوطن للجميع !!

وظل الدين يزحزح ويقلص حتى انتهى تماما عند « المثقفين» إلى المفهوم الغربى الكنسى للدين . . علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا صلة لها بواقع الحياة . . حتى أصبح يقال : ما للدين والسياسة؟ ما للدين والاقتصاد ؟ وما للدين وقضايا المجتمع؟ ما للدين وملابس المرأة ؟ ما للدين وعمل المرأة ؟ ما للدين . . وأى شىء فى هذه الحياة ؟!!

ويستدل - دائما - بما حدث فى أوربا !

(١) كانت السياسة دنسة بالفعل لأنها لا تسير على المنهج الربانى . ولكن مهمة « عالم الدين» هى العمل على ردها إلى المنهج الربانى ، أى العمل لرد الحكم للشريعة لا العمل على إبعاد الدين عن السياسة بحجة أنها دنسة أو ملعونة !

فحين كان « رجال الدين» هناك يتدخلون فى كل هذه الأمور كانت الحياة فاسدة، وكان الظلم والظلام يخيمان على أوربا ، وذلك فى « العصور الوسطى المظلمة » فلما كُفّ رجال الدين عن التدخل فى شئون الحياة الواقعية، اعتدل الحال ، وتقدمت أوربا، وجاءت الثمار الجنية . ثمار الحضارة والتقدم والرقى !

ولكى تتم المقارنة جُعل فى الإسلام كذلك رجال دين ! ثم قيل للناس : القضية واحدة ! إما أن تكفوا « رجال الدين » عن التدخل فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وقضايا المرأة وغيرها من الشئون ، وإما أن نظل فى جو العصور الوسطى المظلمة ! ولن نتقدم ونتحضر حتى تحصروا الدين فى مهمته « السامية !» : تهذيب المشاعر وترقيق الوجدان، وتكفوا « رجال الدين » عن التدخل «فيما لا يعنيهم» من أمور الحياة!

وفى هذا الموقف من قبَل « المثقفين» يتجمع السم كله الذى وضعه الاستعمار الصليبى لإبعاد المسلمين عَن الإسلام . . منهج دنلوب فى تحقير اللغة العربية ومدرسها، ومدرس الدين ، والأزهر كله ، وإبعاده عن مركز الصدارة ، ووضعه فى زوايا الإهمال ، بحيث يصبح تدخله فى أى أمر من أمور المجتمع تدخلا « فيما لا يعنيه!!» ومنهج الصحافة فى جعل الدين أمرا موسميا، يلتفت إليه فى مناسبات معينة خلال العام، ويصرف النظر عنه بقية العام، فلا يستمع إليه إذا تكلم فى غير تلك المناسبات المحدودة، لأنه يتكلم فى غير موضعه المخصص له ! والتغريب . . وشبهات المستشرقين . . والزعماء العلمانيون فى الأدب والفكر، والسياسة والاجتماع . . ولىّ الأعناق إلى أوربا واعتبار كل ما حدث فيها هو الأمر الصواب الذى ينبغى أن يحدث فى كل مكان!!

* * *

ومهما يكن من أمر فقد ظلت الحرب الصليبية اليهودية ضد الإسلام تتخذ هذه الصورة من الزحزحة المستمرة البطيئة الأكيدة المفعول ، حتى فوجئت بالصحوة الإسلامية على غير انتظار!

ولن نتحدث هنا عن الصحوة الإسلامية ، فقد تركنا الحديث عنها إلى الفصل القادم . . ولكنا نقول هنا ونحن نتتبع الأحداث إنه عند نقطة معينة ، سنتناولها بالحديث فى الفصل القادم، تفجر الصراع، وختمت بريطانيا وجودها بصراع دموى مع الحركة الإسلامية قتل فيه الإمام الشهيد حسن البنا بأيد « مسلمة!!» تعمل بأمر

الاستعمار الصليبى اليهودى، وتنفذ له رغباته فى خنق الحركة الإسلامية قبل أن يشتد خطرها، ويتسع الخرق على الراقع !

ثم جاءت أمريكا لتزيل « الاستعمار القديم » وتأخذ هى مكانه فى المنطقة الإسلامية، وتتسلم بدلا منه راية الحرب الصليبية اليهودية ضد الإسلام . .

وتميز عهدها بتغيرات جذرية فى « اللعبة » السياسية . .

فقد استخدَمَتْ لحرب الإسلام فى المنطقة العربية بالذات عنصرين جديدين تماما، لا عهد للمنطقة بهما : أولهما الانقلابات العسكرية، وثانيهما الاشتراكية !!

٧- الانقلابات العسكريّة واستخدام الاشتراكيـة لحـرب الإسـلام

لم تكن تجربة الانقلابات العسكرية فى حرب الإسلام جديدة تماما بالنسبة للاعبين الجدد فى المنطقة. فقد سبقتها التجربة التركية على يد أتاتورك، وكان المدبر الحقيقى لها هو اليهودية العالمية، لإزالة الدولة الإسلامية التى ترفض - بإصرار - إعطاء اليهود وطنا قوميا فى فلسطين. وسواء كان أتاتورك نفسه من يهود الدونمة المتمسلمين، الذين كانوا العنصر الفعال فى إزالة الخلافة أو كان من غيرهم (فالمعروف حتى الآن فقط أنه مجهول الأب، وأن « أحمد رضا » الذى ينسب إليه هو زوج أمه وليس أباه) [١] سواء كان هذا أو ذاك فقد قام بالدور المطلوب تماما. فلم يكتف بإزالة دولة الخلافة - العقبة القائمة يومئذ فى وجه إقامة الدولة اليهودية فى فلسطين - بل نكل بالمسلمين تنكيلا وحشيا فقتل منهم عشرات الألوف، من علماء الدين ومن المتمسكين بالدين عامة، وألغى الحروف العربية وأمر بكتابة اللغة التركية بالحروف اللاتينية ليفصل الأجيال الحديثة عن تراثها الإسلامى فصلا كاملا، ومنع الأذان باللغة العربية، وألزم الناس بلبس القبعة لكى يصعب عليهم الصلاة، وأمر بإزالة حجاب المرأة المسلمة، وألغى كل أثر للدين فى واقع الحياة، بدءا بالشريعة الإسلامية والمحاكم . . ومرورا بكل شىء يخطر على البال !

---

(١) اقرأ فى هذا كتاب « الرجل الصنم » ترجمه عن التركية عبد الله عبد الرحمن، طبع مؤسسة الرسالة ببيروت، واستمع إلى من بقى حيا من الأتراك الذين عاصروا تلك الأحداث .

كانت تلك التجربة فى الحقيقة هى « الرصيد» الذى رجعت إليه الصليبية الصهيونية وهى تخطط لحرب الإسلام فى المنطقة ، والذى أقامت على منواله « أتاتورك» آخر ، هو جمال عبد الناصر ، ليقوم بنفس الدور . . ولنفس الأهداف . . وإن اختلفت الوسائل بعض الشيء ما بين أتاتورك الأول ، وأتاتورك الجديد .

تميز هذا العهد بالعنف الإجرامى فى محاولة القضاء على الحركة الإسلامية ، والمذابح الوحشية ، وفنون التعذيب البربرية التى تعرض لها المسلمون بالجملة ، مما لا مثيل له فى التاريخ كله ، إلا ما حدث من محاكم التفتيش فى الأندلس للقضاء النهائى على الإسلام هناك . وقد كان اختيار « العساكر » حكاما فى المنطقة مقصودا لهذا الأمر بالذات ، قبل أى شيء آخر ، كما كان المقصود منه كذلك إخضاع شعوب المنطقة بالقوة الإرهابية لتقبل الصلح مع إسرائيل .

ولا نتعجل الحديث . . [1] .

إنما يهمنا هنا أن نشير بكلمة إلى استخدام « الاشتراكية » فى حرب الإسلام . .

يظن كثيرون من « الطيبين » أن الاشتراكية التى استخدمت فى المنطقة كانت واردة من روسيا ! ويستدلون على ذلك ـ بلا شك ـ بالتوغل الذى توغلته روسيا فى المنطقة فى وقت من الأوقات .

وقد كانت « اللعبة » متقنة فى الحقيقة لتؤدى إلى هذا الاعتقاد عند الناس . . لأمر يراد !

هناك كتاب كان مقررا على طلبة البكالوريوس فى كلية التجارة بجامعة القاهرة فترة من الوقت ، يحمل عنوان « مراحل التنمية الاقتصادية فى البلاد المتخلفة » من تأليف «والت روستو » وهو أحد أخوين يهوديين يعملان فى البيت الأبيض الأمريكى [2] ، يقول فيه ما خلاصته :

إن المنطقة (يقصد ما يسمى بمنطقة الشرق الأوسط [3])معرضة للشيوعية ، بسبب

(١) سيأتى الحديث عن ذلك فى فصل « الصحوة الإسلامية » .   (٢) الثانى يسمى « يوجين روستو» .

(٣) « الشرق الأوسط» تعبير ماكر من تعبيرات الغزو الفكري يراد به إيجاد مكان لإسرائيل فى المنطقة لا يثير الاستنكار . فلو وصفت هذه المنطقة بأنها منطقة إسلامية فكيف توجد فيها إسرائيل ؟ ولو وصفت حتى بأنها عربية فكيف توجد فيها إسرائيل ؟ أما حين تصبح منطقة «جغرافية» لا صفة لها ولا انتماء ، فإن وجود إسرائيل فيها يصبح أمرا لا يثير الاستنكار !

فساد الحكم فيها ، والفوارق الضخمة بين الطبقات ، وانخفاض مستوى الدخل . ولابد لعلاج هذا الأمر من رفع مستوى المعيشة ، وتقريب فوارق الطبقات ، وإزالة الفساد الضارب أطنابه فى الحكم . ولا يمكن رفع الدخل القومى إلا عن طريق التصنيع الثقيل . ولكن التصنيع الثقيل فى البلاد المتخلفة لا يمكن أن يقوم به رأس المال الفردى . لأنه لا يحقق أرباحا سريعة ، وقد يظل يحقق خسائر لمدة عشر سنوات أو خمس عشرة سنة ، مما لا يحتمله رأس المال الفردى . لذلك ينبغى أن تقوم به الدولة ، وذلك بإنشاء قطاع عام يظل يتسع تدريجيا حتى يحتوى القطاع الخاص فى داخله . ولابد فى ذات الوقت من إنشاء زعامات محلية قوية تلتف حولها الجماهير لكى لا تتجه ببصرها إلى روسيا . وبعد أن يرتفع الدخل القومى ، وتقرّب فوارق الطبقات ، يمكن الرجوع إلى نشاط رأس المال الفردى الحر مرة أخرى ، بينما تكون شعوب المنطقة قد كرهت الشيوعية تحت وطأة التجربة الاشتراكية المخففة ! !

هل بقى شىء من الصورة يختلف عن الواقع الذى طبق بالفعل ؟!

نعم ! هناك شىء واحد لم يكن فى بال « والت روستو » وهو يصدّر الاشتراكية إلى شعوب المنطقة من داخل البيت الأبيض ! لأنه لم يكن يعيش فى المنطقة ، وكان يتصور الأمور من وراء مكتبه لا من المشاهدة « الميدانية » !

لقد جاء « التأميم » إلى مصر فى الوقت الذى كان « الموظف » يحسب نفسه قد أدى كل واجبه الذى يستحق راتبه عليه ، إذا هو حضر فى الميعاد أو بعده بقليل ، وانصرف فى الميعاد أو قبله بقليل ، وشرب « فنجان » القهوة وقرأ جريدة الصباح ! أما « العمل » فليس داخلا فى استحقاق الراتب [1] ، إنما - إذا كان ولابد - يكون عليه أجر إضافى ! !

وبينما الحال هكذا أممت المصانع الحيوية والمؤسسات ، فتحول من فيها من العمال بين يوم وليلة إلى « موظفين » فى الدولة ، على ذات النسق الذى كان قائما فى دواوين الحكومة من قبل ! فضلا عما يحدث فى الاشتراكية دائما من وجود طبقة من العاملين لا تعمل فى الحقيقة ، إنما ينصرف همها إلى التقرب إلى « المباحث » و« المخابرات » بالتجسس على إخوانهم ، وكتابة « التقارير » !

وهكذا لم يرتفع الدخل القومى بالتجربة الاشتراكية ، ولم يصلح الفساد ، بل انهار

---

(١) على نفس الطريقة التى لا يدخل فيها « العمل » فى مسمى « الإيمان » ! ! !

الاقتصاد انهيارا حادا وصل - أكثر من مرة - إلى حافة الإفلاس ! وعولج - في كل مرة - بالقروض التي تؤدي في النهاية إلى مزيد من الانهيار !

المهم لدينا - في سياقنا هذا - أن « التحول الاشتراكي العظيم » كان توجيها من البيت الأبيض ، ولم يكن توجهًا حقيقيًا إلى الاشتراكية . ولكن بقي إيضاح آخر لا تتم الصورة إلا به . .

لم يكن الهدف الوحيد - ولا الهدف الأول - للاشتراكية هو تكريه شعوب المنطقة في الشيوعية على ضوء التجربة الاشتراكية المخففة !

لقد كان لها هدف أخطر من ذلك بكثير . . هو حرب الإسلام !

إن الغرب لا يملك في وقته الحاضر من وسائل حرب الإسلام إلا الفساد الخلقي . .[1] ولكن الاشتراكية تملك !

إنها توهم الناس بأنها « عقيدة » . . و « للعقيدة » دائما سحر في نفوس الناس ولو كانت باطلة . . ففي النفس البشرية - كما فطرها الله - ميل فطري إلى « الاعتقاد » . وفي حالة الفطرة السوية يتجه هذا الميل الفطري إلى الإله الحق ، فاطر السماوات والأرض وخالق الإنسان :

« وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم ، وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم؟ قالوا : بلى ! شهدنا ! »[2] .

ولكن حين تفسد الفطرة يتجه « الاعتقاد » إلى غير الله ، معه أو من دونه فيقع الناس في الشرك :

« إني خلقت عبادي حنفاء كلهم فاجتالتهم الشياطين .. »[3] .

والاشتراكية تقول للناس - بلسان الحال أو بلسان المقال : اتركوا عقيدتكم وخذوا هذه « العقيدة » فهي العقيدة الصحيحة !

والاشتراكية فوق ذلك تبدو للناس - وللشباب خاصة - ذات هدف جاد يستحق أن يعاش من أجله وأن يُعمل من أجله ، بينما تميع الغرب وتفكك وانحل ، فلم يعد له هدف جاد يحيا من أجله غير الإنتاج المادي ، وهو هدف لا يشبع النفوس ولو كانت

---

(١) هذا بالطبع إلى جانب القمع الوحشي الذي يقوم به عن طريق الانقلابات العسكرية في المنطقة . ولكنا نقصد هنا المجالين الفكري والعقدي .

(٢) سورة الأعراف [١٧٢] (٣) أخرجه مسلم .

منتكسة كنفوس الناس فى هذه الجاهلية (وهذا الذى يجعل الشيوعية تخايل الشباب فى غرب أوربا وفى أمريكا رغم الوضع الاقتصادى المعقول الذى يعيش فيه الفرد العادى هناك ، والذى يخسره حين تحكم الاشتراكية ! !)

ومن أجل ذلك تملك الاشتراكية فى مجال حرب الإسلام أكثر مما يملك الغرب الفاسد المتميع المنحل ! فضلا عن كون « الاشتراكيين » ـ بحكم تكوينهم الفكرى المعادى للدين ـ أعنف وأوقح فى مهاجمة الإسلام !

ومن أجل ذلك يوضعون ـ فى منطقة النفوذ الأمريكى ـ فى مجالات التوجيه الفكري : فى الصحافة والإذاعة والسينما والتليفزيون والمسرح والكتاب ، ليقوموا ـ من هذه المجالات كلها ـ بمحاربة الإسلام !

وهنا يبدو « إشكال » فى « اللعبة » يحتاج إلى إيضاح .

كيف يتصور أن أمريكا تستخدم عدوتها اللدود فى منطقة نفوذها بمحض رغبتها ، بل بتوجيهها وأمرها لعملائها فى منطقة نفوذها ؟

وكيف يتصور من جانب آخر أن تدخل روسيا فى اللعبة إذا كان القياد ليس لها ، والمصلحة الأخيرة المتحققة ليست لها ولكن لغريمتها أمريكا ؟!

أما أنه فى منطق العقل إشكال . . فنعم !

أما فى منطق السياسة فهو يجرى ببساطة تامة ، ويمثل معلما بارزا من معالم هذه الحقبة التاريخية التى تعيشها المنطقة الإسلامية ، وتدور بها الدوامات السياسية العالمية ، وهى غثاء كغثاء السيل ، لا يملك نفسه عن الدوران ، ولا يختار حتى المكان الذى يدور فيه!

أما من ناحية أمريكا فخذ هذه الواقعة :

تركيا من مناطق النفوذ الأمريكية التى لا شك فيها . وفى وقت من الأوقات أحست أمريكا بوجود حركة إسلامية بدأت تظهر فى وسط الشباب ، فقامت بانقلاب عسكرى لقمع الحركة الإسلامية ، على عادتها فى تكليف الانقلابات العسكرية بهذه المهمة فى المنطقة . ولكن الحرب القبرصية التى قامت سنة ١٩٦٤ أشعلت الروح الإسلامية فى الجيش ذاته ! وذلك حين أحاطت الدبابات اليونانية بالقرى الإسلامية وحاصرتها ، ومنعت عنها الطعام والماء والدواء ، فانتشرت الأوبئة فيها ، فتحرك الجيش التركى بروح إسلامية لصد الهجمات الصليبية !

عندئذ أسقط فى يد أمريكا . . « فالعسكر » هم أداتها المفضلة لقمع الحركات الإسلامية . فإذا سرى الإسلام فى الجيش ذاته فما العمل ؟ عندئذ أصدرت أمريكا أوامرها للحكومة التركية بإطلاق نشاط الحزب الشيوعى التركى بعد أن كان محظور النشاط ، لتستعين بالشيوعية لصد الإسلام ! ! وتذكر الصحف الصادرة وقتئذ أن بعض الوزراء وافقوا على هذا الأمر ورفضه آخرون ، فأمر المعارضون بتقديم استقالاتهم !

وأما من ناحية روسيا فخذ هذه الواقعة :

في الحرب « الأيديولوجية » التى قامت بين الصين وروسيا فى الستينيات من هذا القرن الميلادى [1] ، تبادلت الصين الاتهامات مع روسيا ، وكان من أشد ما اتهمت الصين به روسيا أنها خانت المبادئ اللينينية الستالينية ، وصارت تقدم مساعدات لحكومات تدور فى فلك أمريكا كحكومة مصر ، وبعض الحكومات الأخرى فى المنطقة . وردت روسيا بأنها لا تجهل أن هذه الحكومات تدور فى فلك أمريكا ، ولكنها ترى أن وجودها فى داخل تلك البلاد خير لها من أن تكون واقفة في الخارج ، تتفرج من بعيد !

وهكذا تتم اللعبة . . أمريكا تستخدم نشاط الشيوعيين فى منطقة نفوذها لمحاربة الإسلام وتضع فى أيديهم وسائل الإعلام ليقوموا لها بتلك المهمة ، بشرط ألا يخرجوا على حدود اللعبة ، ولا يتسلموا « السلطة » فى المنطقة . . فإذا اغتروا بأنفسهم ، وظنوا أنهم قوة حقيقية ، وأقاموا انقلابا شيوعيا ، تذبحهم أمريكا ذبحًا كما صنعت فى أندونيسيا عام ١٩٦٥ وفى السودان عام ١٩٧٠م . وهما المرتان اللتان تجاوز فيهما الشيوعيون حدود اللعبة المتفق عليها ! أما فى غير ذلك فهم يعملون ـ بإذن أمريكا ، بل بتوجيهها ـ لمحاربة الإسلام . وروسيا ترضى بدورها الثانوى فى اللعبة لأن هذه ليست منطقة نفوذها الأصلية ، المتفق عليها فى توزيع مناطق النفوذ بينها وبين أمريكا [2] إنما هذا « نشاط إضافى » تقوم به روسيا لصالح المعسكرين معًا ، إذ الإسلام هو العدو المشترك لكلا المعسكرين ، وأى جهد يقوم به أحد المعسكرين فى هذا السبيل يغطيه المعسكر الآخر ويباركه ، كما قامت روسيا (بالاتفاق مع الهند) بتفتيت وحدة باكستان

---

(١) لم تكن الحرب أيديولوجية فى حقيقتها اولكن الصين كانت قد توصلت إلى صناعة القنبلة الذرية فلم يعد هناك مبرر فى حسها للخضوع لروسيا بينما شعبها يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف الشعب الروسى . ولكن سترت تمردها بالخلاف الأيديولوجى !

(٢) اتفقت أمريكا وروسيا اتفاقا غير مكتوب ، ولكن له ثقل الأمر الواقع على أن تترك أمريكا الشرق الأقصى لروسيا ، وتترك روسيا « الشرق الأوسط » لأمريكا بصفة عامة ، وإن كانت تحدث بعض التدخلات من هنا ومن هناك ولكنها تدخلات هامشية وغير حاسمة !

لحساب أمريكا (ولحسابها الخاص أيضا) وكما تقوم حاليا بمحاربة الإسلام فى أفغانستان بضراوة وحشية لحسابها (ولحساب أمريكا فى ذات الوقت) [1] .

وليس يعنينا من أمر هذه اللعبة فى الحقيقة أن نتتبع لحساب من تتم . . فهى فى جميع الأحوال تتم لحساب أعداء الإسلام يتصارعون فيما بينهم صراعا شديدا على مصالح كل منهم الخاصة ، ولكنهم بالنسبة للإسلام ينسون صراعاتهم ، وينسون عداواتهم ، ويقفون صفا واحدا لمحاربته ومحاولة القضاء عليه .

إنما الذى يعنينا فى تتبع وسائل الكيد الذى يكيد به الأعداء للإسلام ، أنه فى «المرحلة الاشتراكية » كان الهجوم على الإسلام أشد ، وأوقح ، وأوسع دائرة مما كان فى المرحلة السابقة .

أما من ناحية الشدة فقد صار الدين يهاجم جهرة بعد أن كان الهجوم فى المرحلة السابقة ملفوفا ، يأخذ صورة مهاجمة « التقاليد » لا مهاجمة الدين فى ذاته . وصار الدين هو « الرجعية » التى ينبغى القضاء عليها ، بعد أن كانت الرجعية فى المرحلة السابقة هى « أفكار » رجال الدين المتزمتين ، التى ينسجونها من عند أنفسهم ويلصقونها بالدين !

أما الوقاحة فربما يكفى فيها هذه النماذج الثلاثة :

كتب محمد حسنين هيكل - وهو أمريكى ولكن « الفترة الاشتراكية » جرأته على الهجوم السافر على الإسلام - إن التقدم التكنولوجى قد أحال أكثر الكتب (المنزلة) قداسة إلى أوراق صفراء تحفظ فى المتحف !

وكتب أحد الشيوعيين (لم يذكر اسمه) بمناسبة الخير المزعوم الذى كان سيفيض على البلاد من جراء السد العالى : إن هذه الصحراء قد بقيت فى يد « الله » ملايين السنين فظلت كما هى صحراء جرداء . فلما تسلمها « الإنسان » حولها إلى مروج خضراء !

ورسم صلاح جاهين (رسام «الكاريكاتير» المعروف) صورة هزلية فى جريدة الأهرام رسم فيها رجلا بدويا(يرمز إلى رسول الله ﷺ) يركب حمارا فى وضع مقلوب (أى رأس الحمار فى اتجاه ووجه الرجل فى الاتجاه المضاد رمزاً «للرجعية») وفى أرضية الصورة ديك وتسع دجاجات ، وعنوان الرسم : «محمد أفندى جوز التسعة»

---

(١) كتب هذا الكلام كله فى الوقت الذى كانت الأمور تسير فيه على هذه الصورة بين أمريكا وروسيا ، وبعد ذلك تغيرت الصورة حين انهارت الشيوعية وانفردت أمريكا - مؤقتا - بالسيطرة العالمية . ولكن يظل من الضرورى شرح الصورة التى كانت تسير عليها الأمور فى تلك الحقبة من التاريخ ، لأخذ العبرة منها للحاضر ، فضلا عن أن اللعبة قد تتغير من وقت إلى آخر ، أما العداء للإسلام والحرب القائمة عليه فلا تتغير !

وهو هجوم سافر على شخص رسول الله ﷺ وزوجاته التسع، لم يسبق له مثيل فى أية صحافة «إسلامية !» على الإطلاق، بل لعل الصحف الصليبية ذاتها لا تتوقح هذه الوقاحة .

وأما اتساع الدائرة فمنشؤه أن الشيوعية - فى حربها الشديدة للدين - أطلقت مجموعة من الدعاوى العريضة ، أدخلتها فى صلب « النظرية » أو « الفلسفة» الشيوعية بخصوص الدين ، لتسخّفه وتسخر منه على جميع الأصعدة وفى جميع المجالات ، لعلها تستطيع القضاء عليه بعد تشويه صورته وتنفير الناس منه ، والشيوعيون « العرب ! » يستخدمون ذات الدعاوى - حذو القذة بالقذة - فى حربهم للإسلام ، مستخدمين « المادية الديالكتية » و « المادية التاريخية » للتدليل - تدليلا علميا ! ! - على سخف الدين فى ذاته ، وانتهاء دوره فى حياة البشرية ، ورجعية معتنقيه ، وكون عجلة التطور « الحتمي » ستسحقهم سحقا وتطهر منهم الأرض ! ! [1] .

ومن هنا أخذت مهاجمة الإسلام على يد الاشتراكيين بعدا فكريا وبعدا اجتماعيا وبعدا سياسيا فى وقت واحد ، منطلقا كله من محور واحد : محور « التطور» الذى أصبح الدين بمقتضاه رجعية : رجعية فكرية ورجعية اجتماعية ورجعية سياسية ينبغى سحقها والقضاء عليها . . هكذا . . لوجه الشيطان ! !

ولم تعد القضية أن الإسلام يحوى « بعض» الأفكار أو «بعض» الأحكام أو «بعض» المواقف التى لا يرضى عنها « التقدميون » كما كان الحال من قبل ، إنما صارت القضية هى «الدين» ذاته ، وضرورة نفيه من الوجود نفيا ، ونسفه من القلوب نسفا ، وإبادة معتنقيه كلما أمكن ، و « تحرير » كل من أمكن تحريره وكل ما أمكن تحريره من الدين .

ومن هنا وقع « التحالف » بين الاشتراكيين وبين عبد الناصر ، وأيدوه وعضّدوه وهو يذبح المسلمين ويحارب الإسلام ، لأنه - وهو يقوم بهذه الأعمال لحساب أمريكا - يخدم مصلحتهم الخاصة فى ذات الوقت . كما تحالف معه « المثقفون » الذين يكرهون الإسلام ، لأنهم رأوا فى وجوده وتمكنه أمانا لهم من الحركة الإسلامية وقوتها !

وإذ كان عبد الناصر هو الدرس الثانى بعد أتاتورك ، فقد كان الإخراج متقنا واللعبة أكثر سبكا .

ولا بد لإتقان اللعبة من بطولات زائفة تُضفى على القاتل وهو يذبح فريسته ، لكى تتوارى الجريمة فى ظل البطولات !

---

(١) ناقشت هذه القضايا كلها مناقشة تفصيلية فى فصل « الشيوعية » من كتاب « مذاهب فكرية » لمن أراد الرجوع إليه .

وكما كان لأتاتورك « بطولات فذة » (١) قام فى ظلها بذبح الإسلام فى عاصمة الخلافة ، تمهيدا لتفتيت الدولة وتوزيع أسلابها بين الطامعين ، وتمكين اليهود فى النهاية من إقامة الوطن القومى فى فلسطين ، بعد أن أبت عليهم دولة الخلافة ذلك وهى فى نزعها الأخير . . كذلك كان لعبد الناصر « بطولاته الفذة » . . فهو « بطل باندونج » و«بطل القناة » و « قاهر بريطانيا وفرنسا » و « مؤسس السد العالى » و « بطل القومية العربية » . . إلخ . . إلخ . . (٢) وفى ظل هذه « البطولات » كلها يُذبّح المسلمين ، ويعمل عبد الناصر جاهدا لقتل الحركة الإسلامية . . لكى تأمن إسرائيل !(٣).

ولسنا هنا نؤرخ لعبد الناصر . . ولسنا كذلك نؤرخ لهذه الحقبة الخطيرة من حياة الأمة الإسلامية . . إنما نحن فقط نتتبع الخطوط العريضة لمحاولات الأعداء للقضاء على الأمة الإسلامية والقضاء على الإسلام ، ونتتبع الوسائل التى استخدموها فى هذه الحرب الضارية التى شنوها على الإسلام .

ولكنا نلخص الموقف كله فى نهاية هذا الفصل ، فنقول إن موقف الأعداء ، سواء فى الغزو العسكرى ، أو الغزو الفكرى ، أو فتنة المسلمين عن دينهم بكل الوسائل ، ليس أمرًا مستغربا منهم ، أيا كان القدر الذى يشتمل عليه من الخسّة والمكر ، والخديعة واللؤم ، والبربرية والوحشية . . فهم هم كما وصفهم الله فى كتابه المنزل :

﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ﴾ (٤) .

﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ﴾ (٥) .

﴿ لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ﴾ (٦) .

﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ﴾ (٧) .

﴿ وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا ﴾ (٨) .

أما المسلمون فهم يتحملون تبعة ما حل بهم من كيد أعدائهم ، وما حل بهم من

---

(١) كان من بطولاته الفذة - المصطنعة - انسحاب قوات الحلفاء من الأناضول أمام هجماته !

(٢) نسوا أن يقولوا : و « بطل النكسة ! » .

(٣) انظر الفصل القادم .

(٤) سورة البقرة [١٢٠] .

(٥) سورة البقرة [٢١٧] .

(٦) سورة التوبة [١٠] .

(٧) سورة البقرة [١٠٩] .

(٨) سورة المائدة [٦٤] .

هوان وضعف ، ولا يستطيعون أن يحتجوا فى الحياة الدنيا ولا بين يدى مولاهم فى الآخرة بأن أعداءهم كادوا لهم ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، ولم يكن لهم محيص . .

إن هذا الكيد - بكل ضراوته التى أشرنا إليها ، وكل مكره وخبثه ودنسه - ليس ابن اليوم ، ولا ابن الأمس القريب . . إنما عمره أربعة عشر قرنا ونيفا . . أى منذ نزل هذا الدين . . لا يكف إلا ريثما يشتعل من جديد !

ولكن الله - تعالى شأنه - قال لنا فى كتابه المنزل - بعد أن علّمنا كل شىء عن موقف الأعداء وكيدهم ، ومحاولتهم الدائمة لفتنة المسلمين عن دينهم ، وزحزحتهم عنه - قال سبحانه وتعالى : ﴿ **وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا** ﴾ (١) .

ولم يكن الصبر المذكور فى الآية الكريمة - ولا كانت التقوى - تميمة يعلقها المسلمون على صدورهم فترد عنهم الكيد ! ولم يكن الصبر والتقوى كذلك أمرا سلبيا فى داخل الصدور ، يمارسه الناس بوجدانهم فيصد عنهم الكيد !

إنما الصبر والتقوى قوة إيجابية هائلة تصد الكيد بإيجابيتها وفاعليتها . . بقدر من الله .

ولقد فسد مفهوم الصبر والتقوى عند الأجيال المتأخرة من المسلمين كما فسد كل شىء فى حياتهم وتصوراتهم ، فتحول إلى مفهوم سلبى لا يغير شيئا فى واقع الحياة !

ولكى نفهم المعنى الحقيقى المقصود بالصبر والتقوى ، ونفهم كيف يؤدى التمسك بهما إلى صد الكيد ، فلنعرف أولا ماذا يريد الأعداء . . إنهم يريدون أن يردوا المسلمين عن دينهم أو يزحزحوهم عنه . . فالصبر المطلوب إذن هو الصبر على هذا الدين ، وعلى كل تكاليفه ومقتضياته ، والاستقامة على أمره ، والإصرار عليه مهما فعل الأعداء . . والتقوى هى اتقاء سخط الله وغضبه . . ولا يكون هذا إلا بتنفيذ أوامره والانتهاء عن نواهيه . . وحين يقع الصبر والتقوى على هذه الصورة فما الذى يستطيعه الأعداء يومئذ ، ومن أين ينفذون ؟ !

إنما نفذوا فى الحياة الإسلامية من تقصير المسلمين فى تنفيذ ما أمر الله به ، سواء كان التقصير متمثلا فى التقاعس عن إعداد العدة التى أمرهم الله بإعدادها لإرهاب عدو الله وعدو المسلمين ، أو التقاعس عن الإنفاق فى سبيل إعداد هذه القوة كما أمر الله .

﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون** ﴾ (٢) .

---

(١) سورة آل عمران [١٢٠] . (٢) سورة الأنفال [٦٠] .

أو كان التقصير متمثلا فى إرجاء العمل والاتكال على الإيمان المكنون فى داخل القلب.

أو كان فى ترك عمارة الأرض والمشي فى مناكبها وابتغاء فضل الله ، توهّمًا أن هذا يقرب الإنسان من الله ويضمن له الآخرة.

أو كان فى ترك العدل الذى أمر الله به سواء فى سياسة الحكم أو سياسة المال أو ارتباطات الناس فى المجتمع أو روابط الأسرة بين الرجل والمرأة.

أو كان فى الفرقة التى نهى الله عنها وحذّر منها . .

أو كان فى اتخاذ بطانة من دون المسلمين لا يألونهم خبالا.

أو كان فى غير ذلك مما وقع فيه المسلمون فى قرونهم الأخيرة من البدع والمعاصى والخرافات والجهالات ، فأصابتهم السنة التى لا تتبدل ولا تتخلف ، وأصابهم النذير الذى حذرهم منه رسول الله ﷺ:

« يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : إنكم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل . ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت »[1].

وقد تحقق النذير بقدر من عند الله ، ولكن فى الوقت ذاته بسبب من تهاون الأمة فى حمل أمانتها التى ناطها الله بها ، كما وقعت الهزيمة يوم أحد بقدر من عند الله ولكن بسبب - فى الوقت ذاته - من المعصية التى وقعت من المسلمين :

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنّى هذا ؟! قل : هو من عند أنفسكم . إن الله على كل شيء قدير . وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله .. ﴾[2].

ولا خلاص لهم إلا أن يعودوا إلى الله ، فيعبدوه حق عبادته ، فيذهب الله عنهم آثار الكيد ، ويرد لهم التمكين الذى وعدهم به ، وحققه لهم حين استقاموا على طريقه ، ثم نزعه منهم حين أخلّوا بالشرط :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ﴾[3].

---

(١) أخرجه أحمد وأبو داود.

(٢) سورة آل عمران [١٦٥ - ١٦٦]   (٣) سورة النور [٥٥].

الصحوة الإسلامية

جاءت الصحوة الإسلامية فى موعدها المقدور عند الله . . وكانت مفاجأة ضخمة لكثير من الناس !

ولكن هل كانت مفاجأة في الحقيقة ؟!

إن الذين فوجئوا بها من الداخل كانوا هم الذين نقلوا نقطة ارتكازهم نهائيا من الإسلام إلى الحضارة الغربية ، وأداروا ظهرهم للإسلام على أنه قد ذهب إلى غير رجعة ، وأنهم هم - « المثقفين » - هم الطليعة للأجيال القادمة ، التى ستتحرر نهائيا من كل عقابيل الماضى ، وتمضى على طريق التحرر إلى نهاية الشوط .

وأما الذين فوجئوا بها من الخارج فكانوا هم الذين بذلوا جهد الشياطين طوال ما يزيد على قرن من الزمان لإبعاد الأمة عن الإسلام بكل الوسائل ، ورأوا بالفعل أجيالا تبتعد تدريجيا عن الإسلام ، وكل جيل يبتعد أكثر من سابقه عن نقطة ارتكازه الأصيلة ، فظنوا - بحساباتهم الأرضية - أن الأمة قد أزمعت أن تخرج نهائيا من الإسلام . . ولن تعود !

ولكن هؤلاء وهؤلاء كانوا قد أغفلوا حقيقة ضخمة تندرج تحتها حقائق كثيرة لا تسير بحسب حساباتهم ، ولا تستطيع حساباتهم أن تصل إليها ، لأن الله قد جعل على قلوبهم أكنة أن يفقهوا ، وجعل فى آذانهم وقرا !

أغفلوا بادئ ذى بدء أن الذى يدبر الأمر فى هذا الكون العريض كله ليس هم ، وليس غيرهم من البشر ، إنما هو الله!

﴿ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [(١)] .

﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ﴾ [(٢)] .

---

(١) سورة يوسف [٢١] . (٢) سورة القصص [٦٨] .

﴿ بديع السماوات والأرض ، وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [١] .

والله سبحانه هو الذى قرر أن يبقى هذا الدين فى الأرض إلى قيام الساعة على الرغم من كيد الأعداء له :

﴿ يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون ، هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [٢] .

وأغفلوا ثانيا أن الناس في المنطقة الإسلامية قد صحبوا هذا الدين اثنى عشر قرنا كاملة قبل أن يجيئوا هم بسمومهم ليفتنوا الناس عن دينهم ، وامتزجت به مشاعرهم ، وأصبح هو حياتهم وفكرهم ، ومبدأهم ومعادهم ، ونبضهم الطبيعي الذي تنبض به قلوبهم ، فلا عجب أن يرجعوا إليه ولو غفلوا عنه فترة ، إنما العجب - كان - أن يشردوا عنه ويتجهوا إلى غيره ! والعجب الأكبر - كان - أن يثبتوا على هذا الشرود ، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعى !

وأغفلوا - فيما أغفلوا - أن هذا « دين الحق » . . لا تنطبق عليه كل تخرصاتهم عن الدين الذى انتهى إلى غير رجعة ، والذى كان يمثل مرحلة وسيطة بين السحر والعلم ، والذي أخلى مكانه بصفة نهائية للتقدم العلمى والحضارى والتكنولوجى . . إلخ . فكل هذه التخرصات إن انطبقت على دين أوربا الجاهلى - الذى حرفت فيه الكنيسة ما حرفت ، وشوهت ما شوهت - فلا تنطبق على الدين الحق ، الذى حفظ الله أصوله فلم يطرأ عليها تبديل ولا تحريف ، والذي يملك الناس في كل لحظة أن يرجعوا إلى أصوله الصحيحة المحفوظة ، فيصححوا مسيرتهم إن أصابها انحراف فى أثناء الطريق . . دين الفطرة ، الذى أنزله الله ليلتقى تماما مع الفطرة السوية كما أنشأها الله ، لأنه مفصل على قدها بالضبط ، والذي يصحح انحرافات الفطرة كلما وقع فيها اختلال .

وأنه إن كانت البشرية - فى خارج الإسلام - قد كفرت وألحدت وفسقت عن أمر ربها - لأى سبب من الأسباب - فلم يكن هذا أمراً « بشريا» طبيعيا يفترض أن يتجه البشر كلهم إليه ، ولا أن يثبتوا عليه إن اتجهوا إليه فترة من الوقت [٣] ولم يكن من الحتم أن يصيب المسلمين بالذات - أصحاب الدين الحق - مهما انحرفوا عن حقيقة الدين في وقت من الأوقات . فإنما حدث الإلحاد فى العالم الذى كانت الكنيسة تسيطر عليه ، لا من

---

(١) سورة البقرة [١١٧] . (٢) سورة الصف [٨-٩] .

(٣) انظر - إن شئت - فصل « الإلحاد » فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

طبيعة الدين من حيث هو ، ولا من طبيعة البشر من حيث هم ، ولا لأن الدين كان له دور تاريخي وانتهى ! ولكن لأن الكنيسة قدمت للناس بدلا من دين الله دينا آخر لا يصلح للحياة ، ولا يسمح لها بالحركة والتقدم والنمو ، ولا يسمح للحركة العلمية أن توجد ، فضلا عن أن ترسخ أقدامها وتتقدم ، بينما العلم ضرورة للكائن البشرى ، وحاجة مركوزة في فطرته ، ليقوم بعمارة الأرض بوصفها جزءا من مهمة الخلافة التى من أجلها خلق الله الإنسان (١) .

وأيًّا كان الأمر ، فقد جاءت الصحوة الإسلامية فى موعدها المقدور عند الله . . وإن فاجأت من فاجأت من الناس من هنا ومن هناك ! (٢) .

* * *

كان الناس - قبل الصحوة الإسلامية - قد انقسموا - فى عمومهم - إلى فريقين متباعدين لا يكاد يربط بينهما رابط ، كأنهما أمتان منفصلتان ، وإن تشابهت بينهما الأسماء !

فريق « المتدينين » المحافظين ، على رأسه أصحاب الثقافة الإسلامية من خريجى الأزهر ، ويشمل كذلك كبار السن من سكان المدينة الذين حافظوا على « تقاليدهم الإسلامية » فى وجه الطوفان ، وإن كانوا قد اعتزلوا المجتمع نجاة بأنفسهم من ذلك الطوفان ، كما يشمل أهل الريف الذى لم تكن قد غزته الموجة الكاسحة بعد ، فهو على حاله التى كان عليها منذ قرون ، شديد المحافظة على تقاليده - فى الصعيد خاصة - ولكن حظه من الوعى ضئيل فى كل اتجاه ، « والدين » عنده لا يعدو أن يكون مشايخ وأضرحة ، وكرامات وأولياء . . و « تقاليد » . .

وفريق اتجه إلى الحضارة الغربية على أنها طريق الخلاص من كل ما أصاب العالم الإسلامى من أمراض ، وعلى رأسها التخلف الحضارى ، الذى اعتبروه عقدة العقد

(١) في فصل « الدين والكنيسة » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » تفصيل لما فعلت الكنيسة الأوربية ، مما أدى إلى نفور أوربا من الدين .

(٢) نتكلم هنا عن الصحوة الإسلامية في مصر ، لأننا آثرنا - كما أشرنا فى الفصل الماضي - أن نتتبع التجربة المصرية من بدء الانسلاخ عن الإسلام إلى بدء العودة إليه . لذلك لم نتكلم عن حركة محمد بن عبد الوهاب السابقة فى الزمن عن الصحوة المصرية ، والتى كان لها تأثيرها عليها دون شك ، كما لم نتحدث عن حركة الجماعة الإسلامية فى شبه القارة الهندية على يد المودودى وغيرها من الحركات المعاصرة ، ولكن القارئ - من أى بلد إسلامى - سيجد فيما كتبنا مشابه مما حدث فى بلاده ، سواء عن الغزو الفكرى أو عن الصحوة الإسلامية .

وعلة العلل ، وهو الذى يحتـاج إلى العـلاج العـاجل ، وعـلاجـه عندهم هو أخـذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها ـ إن كان فيها شر! ـ لا محالة من ذلك كما قال طه حسين! وإن كان هذا الفريق قد انقسم إلى قسمين تجاه « الدين » أحدهما يرى نبذه كليةً كما نبذته أوربا ، لأنه هو سبب التخلف وسبب الأمراض كلها ، والأخر يرى أنه لا بأس من بقائه على أن « يلزم مكانه » لا يتجاوزه . ومكانه هو أن يكون علاقة خاصة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا شأن لها بواقع الحياة ! . . فليكن « الدين » اعتقادا فى الله واليوم الآخر ، وليكن شعائر تعبدية [1] ، ولكن لا ينبغى له أن يزيد على ذلك ؛ وليس له أن يتدخل فى شىء من أمور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ؛ ولا علاقة له عموما بالأمور « المتطورة » - وفى مقدمتها قضية المرأة ـ فهذه كلها تستمد من الحضارة الغربية ، وتستورد من هناك !

الفريق الأول : يحمل تراث ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا ، ويعتز به ويحافظ عليه ، ولكنه لا يدرك على وجه التحديد أى شىء من هذا التراث هو من حقيقة هذا الدين ، وأيُّهُ قد وفد عليه من خارجه أو انحرف عن طريقه الصحيح . ثم هو يزداد اعتزازا بهذا التراث ، واحتضانا له ، وتمسكا به ، كلما أحس بتوغل التيار الغربى فى حياة الأمة ! ويحس ـ بالفطرة ـ أن هذا التيار موجّه ضد دينه وأخلاقه وتقاليده ، فيرفضه كله ، وينظر إليه نظرة الحذر والتوجس ، ويحاول قدر استطاعته ألا يمسه من دنسه شىء !

والفريق الآخر بقسميه ـ النافر من الدين كليةً ، أو الذي يرى حصره فى نطاقه الوجداني والتعبدى ، وعزله عن بقية الحياة ـ هو الفريق الذى تشرب السم الذى بثه الغزو الفكرى فى نفوس « المثقفين » ، كل بقدر ما عبّ من هذا السم ، وكل بقدر ما استراح للقدر الذى تشربه من السموم !

وعملاء الغزو الفكرى في الداخل ، والمخططون له من الخارج ، يمدون لهذا الفريق فى الغىّ ، ليدفعوه دفعة جديدة بعيدا عن الإسلام ، ويستخدمون فى ذلك كل وسيلة ، ويتخذون من موقف الفريق الأول ذاته مادة للتنفير من الدين ، وتشويه صورته فى نفوس الناس!

هل تريدون الدين ؟! انظروا إلى هؤلاء المشايخ ! انظروا إلى تزمتهم وتعصبهم ، وضيق أفقهم وقلة وعيهم ، وقلة خبرتهم بما يجرى فى الدنيا من حولهم . . إنهم

(١) لم يكن كثير منهم يؤدى الشعائر التعبدية ، إنما كانوا يعتبرون ذلك جائزا لمن أراد !!

يعيشون بعقلية « القرون الوسطى » ويريدون أن يحكموا على الحاضر « المتطور » بعقليتهم المتأخرة تلك . . وأنّى لعجلة التطور أن تتوقف من أجلهم ؟! بل ستمضى فى طريقها وتسحقهم سحقا!

وقد كان في موقف هذا الفريق ما يعيبه حقًا - رغم طيبته وإخلاصه - وما يجعله مادة يستغلها شياطين الفريق الآخر لتنفير الناس من الدين!

فلم يكن تحقير المرأة وازدراء دورها فى الحياة ، ورفض تعليمها وتثقيفها ، مما أمر به الإسلام أو مما يرضى عنه الإسلام ، وهو الذى فرض العلم على كل مسلم ، ووجه الناس جميعا - رجالا ونساء - أن يتدبروا أمور الكون من حولهم ، وأن يكون لهم موقف واع مما يعرض لهم من أحداث .

ولم يكن رفض المعطيات الصالحة فى الحضارة الغربية كالعلم ، والتقدم المادى ، واستخدام الآلة لتحمل عن الإنسان عبء الجهد البدنى الشاق ، وتنظيم الحياة وترتيبها ، والدراسة العملية للمشاكل وللحلول . . لم يكن رفض ذلك كله متمشيا مع روح الإسلام الحقيقية ، ولا متمشيا مع نهج الأجيال الأولى ، أفضل أجيال الإسلام وأعلمها بحقيقة هذا الدين!

ولم يكن الوقوف عند قضايا القرن الخامس الهجرى - على أحسن تقدير - كأن لم تمض قرون بعد ذلك ، ولا تغيّر فى حياة الناس شيء . . لم يكن ذلك متمشيا مع روح الإسلام الدافعة النامية على الدوام ، التي تستوعب ما يجدّ فى حياة الناس من أمور لا تتعارض مع الفطرة السليمة وحاجاتها ، فإن ما يجدّ في حياة الناس نتيجة زيادة معرفتهم بالكون المادى ، وزيادة قدرة الإنسان على تسخير هذه المعرفة في عمارة الأرض ، أمر لا يأباه الإسلام ، لأنه داخل في المهمة التى خلق الله الإنسان من أجلها وهى تعمير الأرض بمقتضى المنهج الربانى . بل الإسلام يأمر به أمرًا ويوجه إليه توجيها صريحًا :

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، وإليه النشور﴾ [1] .

﴿ وسخر لكم ما في السماوات وما فى الأرض جميعا منه ﴾ [2] .

---

(١) سورة الملك [١٥] .　　(٢) سورة الجاثية [١٣] .

﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ (١) .

ولم يكن الانزواء عن حركة العالم الموارة ، وحصر مناهج التفكير فى القوالب الموروثة من أجيال ، فضلا عن كون قضايا التفكير ذاتها هى الموروثة من تلك الأجيال . . لم يكن ذلك مما يأمر به الإسلام أو يرضى عنه . . صحيح أن في حركة العالم الموارة كثيراً من السوء في حكم الإسلام ، وهذا السوء يفد إلى العالم الإسلامى في موجات متلاحقة كالطوفان . . ولكن الموقف الصحيح عندئذ هو بناء السفينة الصالحة ، وعبور الطوفان بها حتى تصل إلى بر الأمان ، وليس الانزواء على الجبل الذي لا يعصم من الماء!

لقد كان الطوفان الطاغى الذى تمور به الحياة فى الغرب ، وتفد موجاته المتلاحقة إلى العالم الإسلامي ، فى حاجة إلى رؤية إسلامية صحيحة عميقة ، تشخص الداء وتقدم الدواء ، وترشد التائهين وتدلهم على المسلك الصحيح . . أما الاعتصام بالماضى ، ونفض اليد من الحاضر . . فلم تكن له نتيجة عملية إلا الغرق فى الطوفان ! !

ولا شك عندنا فى إخلاص هذا الفريق من المتدينين . . ولكن الإخلاص وحده لا يكفي ، بل لابد معه من البصيرة :

﴿ قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴾ (٢) .

لقد كانوا يحملون التراث الإسلامى ـ بما يحتويه من انحرافات المسلمين خلال القرون ـ ويعتزون به على أنه هو « الإسلام » . وكانوا يدركون جيدا أن موجة التغريب الكاسحة تتجه إلى هذا التراث لتفتك به وتقضى عليه ، فيحتضنونه أكثر ليحموه من الهجوم الموجه إليه ، ولكنهم كانوا ـ بحالتهم التى كانوا عليها ـ عاجزين عن تصحيح هذا التراث ، وتنقيته مما ألم به من أمراض وانحرافات . . ولم يكن هو ـ بحالته التى كان عليها ـ قادرا على الحياة ! (٣) .

لذلك لم يكن لهذا الفريق ذاته قدرة على الامتداد فيما يليه من أجيال . . إنما كان

---

(١) سورة هود [٦١] .

(٢) سورة يوسف [١٠٨] .

(٣) ليس المقصود هنا هو التراث بمعناه العلمي الاصطلاحى ، إنما هو الميراث التاريخي للمسلمين ، وهذا كان فى حاجة إلى تنقية جذرية ، لما دخله فى خلال الأجيال الأخيرة خاصة من انحرافات (انظر فصل «خط الانحراف») .

يتذاوب ويتضاءل على الدوام ، إما بالعزلة وإما بالموت . . ويخلى السبيل لموجة التغريب الكاسحة ، تتسع على الدوام!

وكان المخططون في سرور بالغ - ولا شك - بهذه الحال !

فحين يتذاوب هذا الفريق ويتضاءل ، تنداح الموجة بلا حواجز ، وتزول العقبات كلها من طريق التغريب . ولا تبقى إلا مشكلة المتدينين في الريف - وفي الصعيد خاصة - وهذه المشكلة - على المدى - لها حلول !

فحلّها - كما طلب الكاتب اليهودي الأمريكي « مرو برجر Morroe Berger » في كتابه « العالم العربي اليوم The Arab world Today » [1] أن تصب المدينة خلاصة حصيلتها « الحضارية » في الريف لمطاردة بقايا الإسلام هناك ، سواء كانت خلاصة حصيلتها الحضارية هي السينما الداعرة أو الإذاعة الداعرة أو الصحافة الداعرة (وذلك قبل وصول البرامج التليفزيونية الداعرة) [2].

على أن الريف - وإن كان مطلوبا إفساده في النهاية لكي لا يرسل إلى المدينة أفرادا متدينين يحتاجون إلى جهد لإفسادهم ، ولكي لا يجد الإسلام له « مأوى » في أي بقعة من الأرض [3] - فإنه لا يمثل خطرا عاجلا لأنه « متخلف » بطبعه ، ومن ثم فهو ليس مصدرا « للعدوى » ! أي أنه من المستحيل على أهل المدينة الذين « تحرروا » و«تحضروا » و « تطوروا » أن يقلدوا أهل الريف في شيء أصلا ، لا في عقائدهم ، ولا في أفكارهم ، ولا في أنماط سلوكهم . ومن ثم فإن الدين - وإن كان المطلوب محوه من الريف على المدى الطويل - لا يمكن أن ينتقل من الريف إلى المدينة بصورة تؤثر في سير الأحداث فيها ، فتردها إلى التدين بعد أن انسلخت منه . أما الأفراد المتدينون الذين

---

(١) سبقت الإشارة إليه . وهذا الكتاب لم ينل في اعتقادي حظه من الدراسة الجادة ، مع أنه يلقي كثيرا من الضوء على مخططات الأعداء لمحاربة الإسلام .

(٢) عني جمال عبد الناصر عناية خاصة بإيصال « خلاصة الحصيلة الحضارية » إلى الريف . ومن بين هذه العناية ترتيب رحلات للريفيين والريفيات إلى الشواطىء العارية بمبلغ رمزي زهيد لا يتجاوز جنيها ونصف الجنيه لفترة أسبوعين كاملين ، تشمل نفقات السفر والإقامة . . حتى ترى الريفيات مناظر العري الدنس ، ويذهب ما في نفوسهن من الحياء الفطري ، وتنتهي «المشكلة » .

(٣) لم يطالب « مرو برجر » بصب خلاصة الحصيلة الحضارية على الريف فقط ، ولكن على البادية كذلك في البلاد التي فيها بادية ، بعد أن قرر - بوضوح - أن الإسلام قد ضعف في « المدينة المصنعة الآهلة بالسكان» ومازال قويا في الريف والبادية!

يأتون من الريف يحملون معهم جراثيم « التخلف » فسرعان ما يذوبون في المدينة ، و«يتطهرون » من تخلفهم ، أو ينزوون فى ركن منها مع المستضعفين من المنزوين !

وبهذا يكون « الدين » قد انحصر فى « المتخلفين » ، سواء كان أولئك المتخلفون هم « المشايخ » من أهل المدينة ، « ذوي العقول المتحجرة المتعفنة الرجعية » [١]، أو هم أهل الريف السذج الجهلاء الذين لا يحب أحد لنفسه أن يكون منهم . . وكان هذا ولا شك نجاحا للمخططين والموجهين ، الذين كانوا قد بثوا من قبل فى أذهان « المثقفين » أن الدين تخلف ، أو أنه هو التخلف بعينه . . فإذا انحصر الدين بالفعل في « المتخلفين » الذين يشهد الناس تخلفهم ، فهذا مصداق القول ! وأصبح سلخ « المثقفين » من دينهم أيسر - إن كان قد بقى لهم دين ! ويكفى أن يقال للمرء « المثقف » أتريد أن تكون كالمتخلفين من المشايخ أو من أهل الريف ، حتى ينسلخ من فوره لينفي عن نفسه تلك التهمة الكريهة البغيضة : تهمة التخلف [٢]! وفى كل يوم تجد منسلخين جددا يبتلعهم تيار التغريب ، وتصبح الموجة المنسلخة هى الغالبة ، وهى التى تقرر صورة المجتمع ، وتقرر - فى حس أصحابها - مصيره كذلك . .

فرجال السياسة البارزون ، الذين يصولون ويجولون ، وتلتف حولهم الجماهير ، سواء أكانوا فى الحكم أم كانوا من المعارضين ، كلهم من « العلمانيين» الذين تنص لوائح أحزابهم نصا صريحا على عدم « الخوض» فى الأمور الدينية!

ورجال الفكر والأدب البارزون ، الذين تنشر لهم الصحف والمجلات آراءهم وكتاباتهم ومعاركهم الفكرية والأدبية ، وتتلقفها الجماهير ، هم كذلك من العلمانيين الذين أبعدوا الدين إبعادا من فكرهم وإنتاجهم ، إلا أن يسخروا به بين الحين والحين ، بقدر ما كانت تسنح الفرصة فى ذلك الحين!

ورجال الاقتصاد البارزون ، الذين يقتحمون الميدان الاقتصادى « الوطنى » وتشير الصحف إليهم وتتتبع أخبارهم ، وتثير إعجاب الجماهير بهم ، هم من العلمانيين الذين

---

(١) هكذا كان « المشايخ» دائما يوصفون بعد أن فعل بهم مخطط « دنلوب » ما فعل . . وبعد أن انزووا أمام تيار التغريب الذى سمى « تيار الحضارة» . . وكانوا بالفعل لا يمثلون تيّارا حيا قادرا على توجيه الحاضر فضلا عن المستقبل .

(٢) على أحد الشواطئ أرادت فتاة أن يصورها المصور جالسة على رمال الشاطئ بلباس البحر ، وكانت - على عريها - ماتزال تحمل شيئا من بقايا الحياء الفطرى ، ولكن هذا الوضع « المحتشم ! ! » لم يعجب المصور فطلب منها أن تجلس فى وضع أكثر تبذلا ، فأبت . . فقال لها - ليستفزها - هل أنت فلاحة أم ماذا ؟! وفى الحال كانت الفتاة على الوضع المطلوب . . لتنفى عن نفسها التهمة الكريهة البغيضة . . تهمة التخلف !

أباحوا الربا، وقرروه أصلا ثابتا من أصول « الاقتصاد الحديث» المتطور، ومن أصول «القوة الاقتصادية» التي ينبغي أن نحصل عليها لنتحرر من قبضة الأعداء!

ورجال الفن ـ ونساؤه ـ الذين يقومون بدور الترويح و«الترفيه» عن الجماهير، كلهم ـ بطبيعة الحال ـ من الذين انحلت أخلاقهم من قبل، فكان الانحلال ذاته هو المؤهل الذي يؤهلهم لدخول عالم الفن! وهؤلاء قد جعلت منهم الصحافة « نجوما» و«أبطالا» يسعى الأولاد والبنات إلى تقليدهم، والتشبه بهم، ولا يكف المجتمع عن التطلع إليهم، والإشادة بهم، والتحدث عنهم، والاهتمام بشأنهم.. بل أصبحواهم «الطبقة» المرموقة التي تحظى بالاحترام وتحظى بالتقدير!

فأي شيء بقي في حياة الناس لا تشكله أيدي المنسلخين من الدين، الداعين إلى التغريب تحت عنوان من العناوين؟!

وفي هذا الجو والناس ـ بفريقيهم ـ على هذه الصورة.. قامت الصحوة الإسلامية ـ مفاجئة ـ في جميع الاتجاهات لما كانت عليه حياة الناس.. فكانت منعطفا حادا في الطريق!

* * *

كانت المفاجأة الأولى أن الذين يحملون الدعوة إلى الإسلام في هذه المرة هم «الأفندية» وليسوا « المشايخ» !

وكانت هذه كذلك هي الطامة الكبرى! فحينما نجح المخططون في حصر « الدين» في المشايخ، وسلخ « الأفندية» منه، كان ذلك في حسهم نصرا مؤزراً لأنهم بذلك قد حصروه في العنصر المتخلف المنقرض الذي ليس له امتداد.. أما اليوم فماذا يفعلون «بالأفندية» حين يحملون الدين؟!

لقد كان « الأفندية» هم حَمَلة التغريب، وهم في الوقت ذاته الأداة التي يستخدمها المخططون لجر الأمة كلها إلى العبودية للغرب، والانسلاخ من الإسلام، باعتبارهم حملة الثقافة، وحملة العلم، وحملة الحضارة، وحملة الرقي، وحملة الوعي، وعنوان التقدم..

وقد كان تغيير الزي في ذاته مقصودا لأمر يراد..

فقد كان مع الزي « الوجهة» ..

أى أن الذى يرتدى زى الغرب يتجه فى الوقت ذاته إلى المكان الذى استورد الزى منه، فيستورد منه أفكاره وتقاليده وأنماط سلوكه ونظم حياته . . السياسية والاقتصادية والاجتماعية . . وفى كل اتجاه .

وكان تقسيم الأمة إلى فريقين متميزين لا رابط بينهما، مقصودا كذلك لأمر يراد . .

فالمشايخ يتجهون إلى الشرق . . إلى الإسلام . . ويضفى عليهم من صفات الجمود والرجعية والتخلف ما ينفر « الجيل الجديد» منهم ، ويبعدهم عن أن يكونوا قدوة لأى مقتد [١] . . و«الأفندية» يتجهون إلى الغرب . . إلى أوربا . . وينسلخون من الإسلام، ويضفى عليهم من صفات التقدم والرقى وسعة الأفق وعمق الإدراك ومسايرة ركب الحضارة ما يجعلهم القدوة لمن أراد الاقتداء [٢] . .

لذلك كان تغيير الزىّ يحمل معه بالفعل تغيير الاتجاه . .

فاليوم تأتى المفاجأة من أن الذين غُيِّر لهم زيهم ليغيروا وجهتهم ، هم أنفسهم - بزيّهم - الذين يعودون إلى الإسلام ، ويحملون الدعوة إليه . . !

* * *

وكانت المفاجأة الثانية أن دعاة الإسلام الجدد من « الأفندية» لا يقفون موقف «الجمود» من « الحضارة الغربية» فيرفضوها جملة ، ويأبوا أن يأخذوا أى شىء منها ، بل إنهم يعلنون أن فيها أشياء نافعة ينبغى أخذها والاستفادة منها ، كالتقدم العلمى والتقدم التكنولوجى والروح العملية وعبقرية التنظيم ؛ وفيها أشياء ضارة لا ينبغى للمسلم أن يقع فيها كالإلحاد والكفر ، والفكر المادى الذى ينكر وجود الخالق سبحانه ، أو ينكر تدبيره لكل شئون الكون ، والفساد الخلقى الذريع الذى يهبط بالإنسان إلى الدرك الحيوانى بل أسفل منه [٣] ، وآلية الحياة التى تنفى المشاعر الوجدانية وتبعدها عن مجال « الحياة العملية» ، والفردية الأنانية التى تقطّع الروابط الأسرية والروابط الإنسانية . . وفيها إلى جانب هذه وتلك نظم سياسية واجتماعية واقتصادية يختلط

---

(١) وكان فى موقفهم الذاتى - كما أسلفنا بيانه - ما يساعد الأعداء على إضفاء هذه الصفات عليهم ، وما يصدّق هذه الصفات .

(٢) وكان لهم من قشور الثقافة ومظاهر الحضارة المادية ما يساعد الأعداء على إضفاء هذه الصفات عليهم بحيث تبدو كأنها حقيقة .

(٣) يقول تعالى عن أمثالهم : ﴿ أولئك كالأنعام ، بل هم أضل﴾ [سورة الأعراف : ١١٩] .

فيها الخير والشر ، فأما الشر فينبغى نبذه لا محالة ، وأما الخير ـ أى ما كان موافقا للإسلام ـ فينبغى أخذه من مصدره الربانى المنزل من عند الله . .

ولم تكن هذه المفاجأة أخف وقعا على المخططين من الأولى . .

فكما كان زى المشايخ ـ الذى نفّروا منه الجيل الجديد بكل وسائل التنفير ـ سلاحا فى أيديهم يستخدمونه لحرب الإسلام ، فسقط من أيديهم حين صار « الأفندية » هم حملة الدعوة الجديدة إلى الإسلام . .

كذلك كان موقف الرفض البات الذى يقفه المشايخ من الحضارة الغربية سلاحا فى أيديهم يستخدمونه فى حرب الإسلام ، إذ يصفون تلك الحضارة بكل طيب من النعوت ، ويصورونها على أنها هى العلاج لكل مرض ولكل مريض ، ثم يقولون إن المشايخ يرفضونها جملة وتفصيلا ، فيظل المشايخ فى موقف اللوم ، وتظل الحضارة الغربية فى المقام الذى يتطلع الناس إليه . . فجاءت الدعوة الجديدة على يد « الأفندية» لتسقط هذا السلاح أيضا من أيديهم ، لأن الدعوة الجديدة لا ترفض تلك الحضارة جملة ، بل تنادى بأخذ النافع منها ، ورفض الشر الذى يتفق كل عاقل على أنه شر !

كما كان نقد الحضارة الغربية على هذا النحو من قبل الدعوة الجديدة ، موضع الحنق الشديد من المخططين وأتباعهم معاً فى ذات الوقت . فقد كان أوحى إلى «المثقفين» ـ كما أسلفنا فى الفصل السابق ـ أن الحضارة الغربية كتلة واحدة وحزمة واحدة لا يمكن فكها ولا تجزئتها ! وكانت تلك دعوى باطلة بطبيعة الحال ، فقد تكررت عملية «الانتقاء» من الحضارات عدة مرات فى التاريخ . مرة على يد المسلمين الأوائل إذ انتقوا من الحضارة الجاهلية ـ الفارسية والبيزنطية ـ ما وجدوه صالحا لهم ونبذوا سائرها فلم يقربوه ! ومرة على يد أوربا إذ أخذت من الحضارة الإسلامية المنهج التجريبى فى البحث العلمى ، كما أخذت التقدم العلمى فى الفيزياء والكيمياء والطب والفلك والرياضيات ، واستفادت من خبرتهم البحرية وخرائطهم ومعلوماتهم الجغرافية فى كشف ما كان الأوربيون يجهلونه من بلاد العالم بدءا بطريق رأس الرجاء الصالح ، ثم انتشارا فى الأرض بعد ذلك ، وتأثرت بكثير من فنون العمارة والوسائل الحضارية التى كان المسلمون يملكونها فى الأندلس والشمال الأفريقى وبلاد المشرق الإسلامى . . ولكنها رفضت أن تأخذ الأساس الذى قامت عليه تلك الحضارة كلها وهو الإسلام . وتكررت عملية الانتقاء مرة ثالثة فى العصر الحديث على يد اليابان ، كما سبقت

الإشارة من قبل . . ومازال قابلة للتكرار ماشاء قدر الله لها أن تتكرر فى الحاضر والمستقبل .

نعم . . كانت الدعوى باطلة ، ولكنها كانت تبث عن قصد من المخططين لأمر يراد . . خشية أن يتجه المسلمون فى محاولتهم للنهوض إلى أخذ إيجابيات هذه الحضارة ونقط القوة فيها ، ولا يأخذوا الإلحاد والفساد الخلقى ، فتكون الطامة التى يعانون الشيء الكثير منها على يد اليابان ، ولكنها على يد المسلمين أشد[1] ! لذلك قال قائلهم : لابد لنا من أخذ الحضارة الغربية بخيرها وشرها وحلوها ومرها لا محالة من ذلك !

فاليوم تجيء الصحوة الإسلامية على يد « الأفندية» فتحدث موقفا شديد الإغاظة للمخططين وأتباعهم على السواء . فكما أن دعوتها لأخذ النافع من الحضارة الغربية يسقط عنها تهمة الرجعية والجمود الذى كانوا يصمون به المشايخ فيتلبس بهم ، فكذلك دعوتها « للانتقاء» من هذه الحضارة ، وعدم أخذ ماهى غارقة فيه من الفساد الخلقى والانتكاس النفسى والإنسانى ، يفسد هدفا هاما من أهداف حملة التغريب ، وهو نشر الفساد والإلحاد ـ تحت عنوان الحضارة والرقى والتقدم ـ لإذابة ما بقى من كيان هذه الأمة ، وتحويلها إلى « غثاء كغثاء السيل» لا جذور له ولا انتماء ، فيتبدد فى التيار . .

* * *

وكانت المفاجأة الثالثة أن الدعاة الجدد جاءوا يقولون للناس : إن ما أصاب المسلمين من التخلف والجمود والضعف والتأخر فى جميع الميادين لم يكن سببه الإسلام . . إنما سببه البعد عن الإسلام ، والانحراف عن صورته الصحيحة . وأن الصورة الحقيقية للإسلام ينبغى أن تؤخذ من مصادره الصافية الأولى : كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وحياة السلف الصالح الذين طبقوا هذا الإسلام أول مرة فى واقع الأرض ، فكانوا عجبا فى التاريخ ، وكانوا ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ . .

لقد كان المخططون وأذنابهم قد بثوا فى روع «المثقفين» أن «الإسلام» هكذا . . جمود ورجعية وتخلف ، وعجز عن النهوض والتقدم ، بل مانع من النهوض

(١) كانت معاناتهم من اليابان أنها صارت تنافسهم فى أسواقهم وتضايقهم فيها . أما مصيبتهم من المسلمين إذا استردوا كيانهم المفقود فهى ضياع مواردهم الخامة التى يسرقونها من المسلمين ، وضياع سيطرتهم السياسية التى يمارسونها بسحق المسلمين وإخضاعهم لنفوذهم . . فضلا عن أمور أخرى يعرفها الغرب جيدا ولا يدركها المسلمون أنفسهم فى غفلتهم واستضعافهم . .

والتقدم، وأن ما حل بالمسلمين هو النتيجة الطبيعية لكونهم مسلمين! وأنه لا طريق لهم لعلاج ما هم فيه من التخلف والضعف ، والفقر والجهل والمرض، إلا أن ينبذوا الدين كما فعلت أوربا من قبل، فإنها لم تتقدم إلا حين حطمت « الأغلال» التى كانت تعوقها عن التقدم ، أغلال «الدين» وما حوله من اخلاقيات وتصورات وتقاليد . .

فاليوم يثير الدعاة الجدد قضايا مغايرة تماما . . يفرقون فيها بين الإسلام فى صورته الصحيحة وبين الواقع المنحرف الذى يعيشه المسلمون باسم الإسلام؛ كما يفرقون بين الدين الذى انسلخت منه أوربا ، والدين الذى نزل من عند الله وتكفل الله بحفظ أصوله من التحريف، فبقيت على صورتها المنزلة، وأصبح الرجوع إليها ممكنا فى كل لحظة ؛ ويفرقون بين « الحكومة الثيوقراطية» التى قامت فى أوربا فى قرونها الوسطى المظلمة، التى كان يحكم فيها « رجال الدين» بما شاءت لهم أهواؤهم من الجهالات والمفاسد، والحكومة الإسلامية التى يحكم فيها من يختاره المسلمون لحكمهم ، ولكنه يتقيد فى حكمه بما أنزل الله ؛ وأنه ليس فى الإسلام « رجال دين» يحكمون أو يشرعون للناس بما يشاءون، إنما فيه « علماء» و«فقهاء » لا يلبسون مسوحا خاصة ، ولا يشكلون طبقة، وليس لهم سلطان ولا حصانة سياسية أو اجتماعيةأو اقتصادية ، ويملك أى إنسان أوتى قدراً صالحاً من العلم أن يناقشهم ويجادلهم ويخطّئ اجتهادهم إن كان دليله أقوى من دليلهم ! وأن الإسلام دين « مفتوح» أمام كل معتنقيه ، يملكون أن يتفقهوا فيه بقدر ما توصلهم مداركهم ، وليس حكراً على طبقة من الكهنوت ، تحتكر نصوصه، وتحتكر تفسيره ، وتحتكر حق تبديله وتغييره حين تشاء!

وحقيقة إن الذى يقوله « الأفندية» حملة الدعوة الجديدة لم يكن كله جديدا . . فقد كان « المشايخ» من قبل يقولون شبيها به من بعض نواحيه ، فحقائق الإسلام واحدة ، والحديث عنها لابد أن يتلاقى فى بعض جوانبه. ولكن أحدا لم يكن يأبه لما يقول المشايخ ـ لا المخططون ولا أتباعهم ـ لجملة أسباب :

فهو أولا كلام صادر عن « المشايخ» . . وهم فى ضياعهم الذى هم فيه ! فيضيع معهم كلامهم مهما يكن فيه من الحق !

وهو ثانياً كلام . . ليست وراءه «حركة»! ومن ثم يموت حيث هو . . على ألسنة قائليه ، أو فى آذان سامعيه ـ إن سمعه أحد! ـ لأن أصحابه لايتحركون به . . لا يحولونه إلى « دعوة» . . لايجمّعون أحدا حوله ليعتنقه ويؤمن به ، ويجعل تحقيقه غاية يعيش من أجلها ، ويتحمل ما يتحمل فى سبيلها.

ثم هو فضلا عن ذلك كلام مصبوب فى قوالب جافة ، هى القوالب التى كانت العقيدة قد صبت فيها منذ قرون طويلة ، ذهنية تجريدية لا تخاطب الوجدان ولا تحركه ، ولا تساير عقلية الذين يوجه إليهم الخطاب فى الوقت الحاضر . ومن ثم فهى مرفوضة ابتداء من «المثقفين» خاصة ، لا تمثل بالنسبة إليهم زادا فكريا يعيشون عليه ، ولا زادا روحيا يبعث ما ضمر من أرواحهم فى موجة التغريب العاتية . .

أما على يد الدعاة الجدد من « الأفندية» فقد أحس المخاطبون كأنما يتعرفون على الإسلام من جديد . . والإسلام هو الإسلام . حقائقه ثابتة لا تتغير . ولكن طريقة تناوله ، وطريقة تعريف الناس به تختلف من عصر إلى عصر ، حسب أحوال الناس فى كل عصر ، وثقافاتهم ، واهتماماتهم ، ومشكلاتهم ، وانحرافاتهم وأمراضهم كذلك . وقد كانت القوالب الذهنية التجريدية « حالة» ألمت بالناس فى عصر معين ، فاستساغوا يومئذ أن يقدم الإسلام إليهم فى هذه الصورة ، ولكنها لم تكن الصورة المثلى ، ولا الصورة الصالحة لكل زمان ، لأنها لا تسير على المنهج القرآنى ، الذى أنزله الله للناس كافة وللعصور كافة . . يغترفون منه فى كل جيل ما يناسب أحوالهم واهتماماتهم ومشكلاتهم . . فيلبى حاجتهم فى كل مرة ، ويعطيهم بقدر ما تتفتح قلوبهم وعقولهم . . ولكنه لا يجف ، ولايتقولب ـ كما حدث فى عصر معين ـ إلا أن يصيب الناس ركود وجمود ، كان « المشايخ» يحملونه معهم ويحسبون أنه هو الصورة المثلى للإسلام .

أما الدعاة الجدد فقد عادوا به إلى المنهج القرآنى ، فأذابوا ما كان قد علق به فى ذلك العصر السحيق من جفاف وتقولب حملته الأجيال المتتابعة فى ركودها وجمودها ؛ ومن هنا أحس المخاطبون كأنما يتعرفون على الإسلام من جديد ، فأقبلوا عليه ـ من شاء الله منهم ـ بقلوب متفتحة وعقول متفتحة ، متعطشة للمزيد .

وأهم من ذلك ـ وهو الخطر الأكبر فى نظر الأعداء ـ أنه « حركة» . . فهو ليس «كلاما » فى القراطيس ، وإنما هو «إيمان» فى القلوب . . إيمان يملأ تلك القلوب فتتحرك به حركة ملموسة فى عالم الواقع ، وتتخذ موقفا محددا من كل شىء حولها ، وتصوغ سلوكها العملى على مقتضاه .

* * *

وكانت المفاجأة الرابعة هى انتشار الدعوة انتشارا « ذريعا» فى صفوف المثقفين من

الأطباء والمهندسين والمعلمين والمحامين، وغيرهم من ذوى الثقافات الحديثة، ومن طلاب الجامعة فى شتى التخصصات!

ولقد كان الظن أن هؤلاء لا يعودون أبدا، ولا تستهويهم مثل هذه الدعوة أبدا!

لقد ربُّوا على أن يصموا آذانهم، ويغلقوا قلوبهم وأذهانهم عن أى شىء يذكر فيه «الدين» . . فضلا عن أن يكون الدين هو المنطلق الذى يُنطلق منه، والمرتكز الذى يُرتكز عليه!

ربُّوا على أن الدين أمر من أمور الماضى، وأنهم هم يستشرفون للمستقبل! وأن الدين «غيبيات» وهم يعيشون فى «الواقع»! وأن الدين ممزوج بالخرافة وهم يعيشون عصر العلم!

فما بالهم يعودون إلى كل مانُهُوا عنه، وكل ما بذل الجهد الجهيد لإبعادهم عنه! جهد استخدمت فيه مئات الكتب، وألوف المقالات، وألوف الدروس «العلمانية» فى المدارس والجامعة، وألوف الصور العارية والأفلام العارية والأغانى العارية، وألوف الفتيات المتبرجات فى الطريق، وألوف المراقص والحانات ودور اللهو ودور الفجور؟!

* * *

لقد كانت كلها مفاجآت حادة وغير منظورة . . وكانت دون شك مفاجأة غير سارة لكل أعداء الإسلام.

ولم يسكت الدعاة إلى «التحرر» و«التحضر» و«التقدم» - بطبيعة الحال - على هذه الدعوة المفاجئة، وهاجموها بكل وسائل الهجوم، وأول وسائل الهجوم هو دمغها «بالرجعية» وهى أشد وسائل التنفير عند «المثقفين»!

ولقد كانوا يهاجمونها دفاعا عن أنفسهم فى الحقيقة!

﴿ ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء! ﴾ (١).

ولكنهم - فى عبودية منتكسة - كانوا يهاجمونها كذلك دفاعا عن «السادة» الذين يشعرون بالتبعية لهم والانتماء إليهم! ودفاعا عن الفكر الذى استعبدوا له من الداخل خلال عملية التغريب . . فما عادوا يحسون لأنفسهم بوجود ذاتى، وأصبح وجودهم مرتبطا بذلك الفكر الدخيل عليهم، يحسبونه - فى غفلتهم - فكرهم الخاص، لأنهم لا

---

(١) سورة النساء [٨٢].

يدركون عملية المسخ التى أجريت لهم وهم غافلون ، فشوهت كيانهم من الداخل ، وشوهت نظرتهم إلى أنفسهم وكل ما يحيط بهم ، فصاروا ينظرون بعيون سادتهم ! وصاروا - فى دخيلة أنفسهم - يحتقرون أنفسهم بوصفهم « شرقيين » ! لأن سادتهم يحتقرونهم وهم على هذه الصورة ! ويحاولون بكل جهدهم أن ينسلخوا من تلك الصورة ويمحوا « عارها » عن أنفسهم لعل سادتهم يرضون عنهم، فيرضوا هم عن أنفسهم ! ![1] .

لذلك لم يكن العبيد فى حاجة إلى إشارة من السادة ليهاجموا الدعوة الإسلامية ، فهم - بطبيعة موقفهم الممسوخ كله - يحسون بالعداء العميق لها ، والنفور الشديد منها . ولكن السادة - مع ذلك - لم يهملوا التوجيه :

لابد من جرعة زائدة من كل ما تقدم . . من الكتب والمقالات والدروس والأبحاث التى تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد . . والصور العارية والأفلام العارية والقصص العارية والأفكار العارية . . والفتيات المتبرجات فى الطريق . . والمراقص والحانات ودور اللهو ودور الفجور ! فإنه لا شىء يصد هذا الخطر الداهم مثل إفساد الأخلاق ، وصرف الشباب عن كل الاهتمامات الجادة ، وشغلهم بلذائذ الحس الدنسة ، وهموم الدنيا القريبة ، لكى لا يفرغوا إلى ربهم ، ولا يذكروا آخرتهم ، فتنسد منافذ « الدين » فى قلوبهم ، ويصبحوا فى مناعة من تلك الدعوة الخطرة ، بل فى عداء مع تلك الدعوة التى تريد أن « تحرمهم » مما هم غارقون فيه من الدنس والتفاهة والانحلال !

* * *

ولكن المفاجأة المذهلة كانت أعنف من كل ذاك !

كانت دخول الفدائيين المسلمين ساحة الحرب فى فلسطين عام ١٩٤٨ !!

وهنا ينبغى أن نعود بذاكرتنا خمسين سنة إلى الوراء قبل ذلك التاريخ . . إلى مؤتمر « هرتزل » زعيم الصهيونية فى مدينة بال بسويسرا عام ١٨٩٧ ، الذى تقرر فيه ضرورة إنشاء الدولة اليهودية خلال خمسين عاما فى فلسطين . ففى ذلك المؤتمر وضعت

---

(١) نذكر فى هذا المجال كتابات الدكتور حسين فوزى فى كتاب « سندباد عصرى » وكتابات الدكتور زكى نجيب محمود فى مهاجمة «الفكر الشرقى» وتمجيد «الفكر الغربى» . . ثم نذكر قولة « توينبى » فى محاضرته بعنوان «الإسلام والغرب» (تعريب الدكتور نبيل صبحى) التى يقول فيها إننا ظللنا نحرج المسلم التركى حتى يتخلى عن إسلامه ويقلدنا، فلما فعل ذلك احتقرناه . . لأنه لم يعد عنده ما يعطيه !

المخططات الكفيلة بإقامة الدولة خلال خمسين عاما، وقامت الدولة بالفعل بعد خمسين عاما من ذلك المؤتمر .

فأى شىء فعل المخططون[1] لتنفيذ أهدافهم خلال الفترة التى قرروها لإنشاء دولتهم؟!

لقد بدأوا ـ كما هو معلوم ـ بمحاولة إغراء السلطان عبد الحميد بإعطاء اليهود قطعة أرض فى فلسطين ليقيموا عليها وطنا قوميا لهم ، وتكفلوا فى مقابل ذلك بما يغرى أى حاكم فى الأرض لا يريد إلا الحياة الدنيا، ولا يريد إلا الملك والسلطان (كما صوروا السلطان عبد الحميد!) .

كانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت تعج بالمشاكل التى لاتتركها فى راحة . .

فالحالة الاقتصادية متدهورة ، والقلاقل تتلاحق فى قلب الدولة وفى أطرافها، يقوم بها حزب الاتحاد والترقى الذى يشكل أغلبية أعضائه يهود الدونما المتمسلمون[2]، وتقوم بها الأقليات غير الإسلامية بتحريض من روسيا وبريطانيا: روسيا تحرض الأرمن الأرثوذوكس [3] ، وبريطانيا تحرض بقية الطوائف ، كما تقوم ـ مع فرنسا ـ بتشجيع حركات « القومية العربية» التى يحملها نصارى لبنان وسوريا، يحرضون بها العرب على الثورة والتمرد على سلطان الخلافة ، بغية تفكيك الدولة الإسلامية ، والقضاء على «الرجل المريض» كما كانوا يسمون الدولة العثمانية ، ليرثوا تركته ، ويوزعوها أسلابا فيما بينهم . .

وفى وسط هذه الحال المضطربة تقدم « هرتزل» بعرضه السخى المغرى إلى السلطان عبد الحميد . .

عرض عليه قروضا طويلة الأجل ، ومشروعات لإنعاش الاقتصاد العثمانى

---

(١) ينبغى أن نتذكر جيدا أن التخطيط ـ كما سيجىء بيانه ـ كان صليبيا صهيونيا فى ذات الوقت، ولم يكن صهيونيا فقط ولا صليبيا فقط .

(٢)كان هؤلاء اليهود يعيشون فى المغرب، التى نزحوا إليها مع المسلمين النازحين إليها من الأندلس فرارا من فظائع محاكم التفتيش ، ثم صدرت إليهم أوامر خفية بأن يتمسلموا وينزحوا إلى البلقان . وهناك قاموا بدورهم فى القضاء على الخلافة العثمانية .

(٣) كان الروس يتبعون المذهب الأرثوذوكسى، ومن هنا كانت صلتهم بالأرمن الذين هم على مذهبهم، وتحريضهم إياهم ضد دولة الخلافة .

المتأزم، وعرض عليه التدخل لدى روسيا وبريطانيا لكف أيديهما عن إثارة الأقليات فى كل مكان . . وكانت هذه بالذات من أشد ما يستخدمه الأعداء لإجهاد الدولة، وعدم إعطائها فرصة لا لتقاط الأنفاس . .

وكان رد عبد الحميد حاسما ناصعا عملاقا . . كما ينبغى للقائد المسلم أن يكون .

لو كان يريد السلطان والجبروت، ومتاع الحياة الدنيا، كما صوره أعداؤه ليشوهوا صورته - انتقاما من موقفه العنيد الواعى من مخططات الصليبية الصهيونية لتدمير المسلمين والقضاء على الإسلام - لقبل العرض اليهودى - الصليبى ، وانساق معه، وأصبح « بطلا تاريخيا» مثل الذين توزعوا أسلابه من بعده، وحكموا بلاد العالم الإسلامى تحت السلطان الصليبى الصهيونى ، وصاروا « أبطالا تاريخيين» . . تتركز بطولتهم فى تذبيح المسلمين، وتسخير أوطانهم لمصالح الصهيونية والصليبية !

ولكن الرجل المسلم قال قولته المشهورة : **إن هذه ليست أرضى ، ولكنها أرض المسلمين، وقد رووها بدمائهم، وفى كل شبر منها شهيد.. ولا أملك أن أتنازل عن شبر واحد منها!**

وكان ما كان مما يعرفه الجميع . .

عزل عبد الحميد بعد أن لوثت سمعته بكل شناعة يمكن أن يوصف بها حاكم!

وأثيرت النعرة « الطورانية» على يد حزب الاتحاد والترقى ، وقامت الدعوة إلى «تتريك» الدولة ، لإثارة العرب ، حتى يرفعوا شعار « العروبة» ويثوروا «الثورة العربية الكبرى» بقيادة لورنس - الذى سمى « لورنس العرب» ! ! - لتفتيت وحدة المسلمين ، وإثارة العداوة والبغضاء بينهم، وتمهيدا وتسهيلا للأحداث التى ستجرى فيما بعد .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) - أو أقيمت [١] - للقضاء النهائى على الدولة العثمانية، وفصل العالم العربى عنها، بما فيه فلسطين التى يراد إقامة الدولة اليهودية فيها، بعد أن عجز اليهود عن إقامة الدولة فيها وهى فى ظل الدولة العثمانية .

---

(١) يقول « وليم كار» فى كتابه« أحجار على رقعة الشطرنج» إن اليهود أقاموا الحرب العالمية الأولى للقضاء على الدولة العثمانية تمهيدا لإنشاء الدولة اليهودية ، والحرب العالمية الثانية من أجل إنشاء الدولة بالفعل. وهو قول يحمل كثيرا من الحق، بصرف النظر عن تهويلات وليم كار فى شأن اليهود . ولاشك أنهم استغلوا المناسبتين استغلالا كاملا لتحقيق أهدافهم.

ثم جيء بكمال أتاتورك ليجهز على الخلافة، ويذبّح المسلمين، ويدير ظهر تركيا للإسلام بعد أن كانت هي مركز الخلافة ، ومركز القوة السياسية والعسكرية للعالم الإسلامي [١] ، ويجعلها تابعا ذليلا لأوربا ، وتضفي عليه في الوقت ذاته البطولات الزائفة ليكون نموذجا يحتذى من بعد في بقية أرجاء العالم الإسلامي [٢] .

ووزعت أسلاب « الرجل المريض» ـ بعد القضاء عليه ـ بين بريطانيا وفرنسا صديقتي اليهود، ووضعت فلسطين بالذات تحت الانتداب البريطاني ، وبريطانيا يومئذ هي زعيمة العالم الصليبي، وصاحبة الإمبراطورية « التي لا تغيب عنها الشمس» ، والنصيرة الأولى للصهيونية، ووزير خارجيتها «بلفور» ـ صاحب وعد بلفور المشهور ـ من أصل يهودي، ومندوبها السامي الذي عينته في فلسطين « صمويل هور» يهودي . وفي ظل الانتداب تم التحضير لإنشاء الدولة ، بتسليم الأراضي التي تملكها الدولة لليهود، وما لزم من بقية الأرض يشترى بأثمان مغرية، ثم يُغرَى الذين باعوا الأرض بإنفاق ما حصلوا عليه من ثمنها على الفتيات اليهوديات، اللواتي يعملن في « تل أبيب» لهذا الهدف ! !

أما ما حول فلسطين فقد قسم إلى دويلات ضعيفة لا تملك أمر نفسها، فهي تحت الحكم البريطاني أو الفرنسي ، لا تملك قوة سياسية وهي تحت الاحتلال الصليبي، ولا قوة حربية بطبيعة الحال، فجيوشها ـ التي تسمى جيوشا من باب المجاز فحسب ـ هي جيوش للزينة والاستعراض في الحفلات . . ولهدف آخر هو تكريه العرب في الجندية وحمل السلاح، لما يلقونه في فترة التجنيد الإجباري من مهانة وذل متعمدين ، لا تستوجبهما التربية العسكرية في ذاتها، ولا يعامل الانجليز والفرنسيون جنودهم بهما في بلادهم ، وذخيرة هذه « الجيوش» وسلاحها في يد بريطانيا وفرنسا ، فإن كفت عن الإمداد بالسلاح أو حتى بالذخيرة عجزت تلك «الجيوش» عن إطلاق طلقة واحدة ولو في الهواء[٣] !

وهذه الدويلات فوق ذلك . . أي فوق ضعفها السياسي والحربي ـ والاقتصادي

---

(١) قلنا من قبل إن الأعداء ركزوا على تركيا ومصر بالذات في مخططاتهم للقضاء على الإسلام .

(٢) قال جمال عبد الناصر في أكثر من مرة إن مثله الأعلى هو كمال أتاتورك .

(٣) حدث بالفعل في الحرب المسرحية التي قامت على أرض فلسطين عام ١٩٤٨ أن امتنعت بريطانيا عن تقديم الذخيرة للجيوش العربية فتوقفت الحرب وتم التقسيم !!

أيضا[1] ـ متعادية متخاصمة لا يربط بينها رابط ! لا الإسلام . . ولا حتى «العروبة» . . ولا حسن الجوار . . بل انقلب هذا كله إلى عداوات وخصومات!

لقد كانت دعاوى «الوطنية» و«القومية» قد بذرت بذورها فى تلك الأرض من زمن سابق تمهيدا لذلك اليوم « الموعود» ! وكان لكل من الدعويين « زعماء» و«أبطال » ! وقد سردنا فى الفصل السابق قصة سعد زغلول فى مصر ، وفى كل بلد كانت هناك «قصة» مشابهة أو مماثلة . . وكان ذلك ـ كما سردنا هناك ـ أثرا من آثار «التخلف العقدى» الذى استغله الغزو الفكرى ، ونجح فى استغلاله ، فتوغلت سموم الكيد فى حياة الأمة بسبب بعدها عن حقيقة الإسلام ، وعن الصبر والتقوى اللذين أخبر الله عباده أنهماهما الوسيلة التى تقى الأمة من آثار السم :

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا﴾ [2] .

لقد بذرت تلك الدعاوى فى الأرض الإسلامية لتفرق وحدة الأمة وتمزق رابطتها . فمن شأن القومية والوطنية أن تبذر التحاسد والتباغض فى نفوس الناس تجاه الوطنيات الأخرى والقوميات الأخرى ، وأن يشتد التحاسد والتباغض بينهم كلما وجدت بينهم أهداف مشتركة ! لأن كلا منهم يريد أن يستحوذ على الهدف وحده ويحرم منه الآخرين! ولقد نجحت الوطنية والقومية فى أوربا لأسباب محلية هناك[3] ، وظنت أوربا أنها لعبة ناجحة ، لأنها تعاصرت ـ فى تاريخها ـ مع التقدم الصناعى ، ومع الرخاء الذى ساد أوربا نتيجة احتلالها بلاد العالم الإسلامى ونهب خيراته واستغلالها على أوسع نطاق . . وإن كانت أوربا قد شقيت ـ وأشقت العالم كله معها ـ بويلات الحروب المتتابعة ، التى نجمت عن تنافس الوطنيات والقوميات ، وتقاتلها على مناطق النفوذ . .

أما المسلمون !

لقد كانت دعاوى الوطنية والقومية فى الوطن الإسلامى فتنة لا تعود عليهم إلا بالوبال وحده ، فلم تكن لهم القوة التى يكسبون بها شيئا من ورائها . . وإنما يجنون من تمزقهم أن يكونوا لقما سائغة فى فم العدو ، يزدردها فى سهولة بعد أن كان قد عجز

---

(١) كانت كلها بلادا فقيرة «متخلفة » رغم إمكانياتها الذاتية .

(٢) سورة آل عمران [١٢٠] .

(٣) انظر إن شئت فصل « القومية والوطنية» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة» .

من قبل عن التهام اللقمة الكبيرة المتجمعة ، على كل الضعف والوهن الذى كان قد أصاب « الرجل المريض» (١) !

ومازلت أذكر ـ بالعجب والأسف اللذين أحسست بهما أول مرة وأنا صغير ـ ما قاله الوزير العراقى المسئول فى أواخر الثلاثينيات حين صار للعراق أسطول جوى ، إذ قال : لقد أصبحت لدينا طائرات حربية تستطيع أن تضرب القاهرة بالقنابل وتعود دون توقف !!

يا عجبا ! ويا أسفًا !

فإذا كانت الطائرات العراقية عاجزة فى ذلك الوقت عن ضرب الإنجليز فى قاعدتهم داخل العراق ـ فى الموصل ـ فلماذا تفكر فى ضرب القاهرة ؟! وماذا صنعت لهم القاهرة حتى يفكروا فى ضربها؟!

ولكن هكذا يفعل السم المبثوث عن قصد فى الأرض الإسلامية ، الذى صنعت له الزعامات والبطولات ليفتتن بها الناس ، فيزدادوا تمزقا كلما ازدادوا فتنة ، ويزدادوا ضعفا وهواناً على العدو !

وهل كان الوجود الصليبى فى المنطقة يأمن على نفسه ، وهل كان الوجود الصهيونى يأمن على نفسه ، لو كان المسلمون فى تلك البقعة من الأرض ـ وفى غيرها ـ أمة واحدة كما أمرهم ربهم :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ﴾ (٢) .

فإذا كانت هذه حال تلك الدويلات المحيطة بالدولة اليهودية المزمع إنشاؤها، من الضعف السياسى والحربى والاقتصادى، ومن الفرقة والخصومة حتى لا تجتمع لهم كلمة ، فماذا بقى مما يخشاه الأعداء ؟

نعم ! بقى شىء واحد . . هو الشباب !

---

(١) جاء فى كتاب « الغارة على العالم الإسلامى » قول أحد المبشرين : إن أوربا كانت تفزع من « الرجل المريض» لأن وراءه ثلاثمائة مليون من البشر ، مستعدين للجهاد بإشارة من أصبعه !

(٢) سورة آل عمران [١٠٣] .

فالشباب قوة خطرة إذا تجمع على هدف معين ، وأخذه مأخذ الجد . .

ومن أجل ذلك كانت عناية الأعداء منذ وقت مبكر بتمييع هذا الشباب وإتلافه ، وإشاعة التفاهة والانحلال في كيانه ، لكي لا يتجمع في يوم من الأيام على هدف معين ، ويأخذه مأخذ الجد . . وكانت هذه هي « حكمة» الصحف العارية ، والأفلام العارية والشواطئ العارية . . وحكمة إخراج المرأة من دينها ، وأخلاقها وتقاليدها ، لتخرج متبرجة في الطريق ، وتكون فتنة لنفسها وللشباب من حولها ، وتتحقق أهداف المبشر النصراني «زويمر» ـ الذي أوصى أن تدفن جثته في مقابر اليهود ، مما يدل على أصله الحقيقي ، وعلى أن الحقد اليهودي والصليبي قد اجتمعا في شخصه ـ حين قال مخاطبا المبشرين في المؤتمر التبشيري الذي عقد في القدس سنة ١٩٣٥ :

«إنكم أعددتم نشئاً (في بلاد المسلمين) لا يعرف الصلة بالله ، ولا يريد أن يعرفها . وأخرجتم المسلم من الإسلام ، ولم تدخلوه في المسيحية . وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقا لما أراده الاستعمار المسيحي ، لايهتم بالعظائم ، ويحب الراحة والكسل ، ولا يصرف همه في دنياه إلا في الشهوات .

« فإذا تعلم فللشهوات ، وإذا جمع المال فللشهوات ، وإن تبوأ أسمى المراكز ففي سبيل الشهوات يجود بكل شيء .

« إن مهمتكم تمت على أكمل الوجوه ، وانتهيتم إلى خير النتائج ، وباركتكم المسيحية ، ورضي عنكم الاستعمار ، فاستمروا في أداء رسالتكم ، فقد أصبحتم بفضل جهادكم المبارك موضع بركات الرب» [1] .

بهذا التخطيط المحكم ـ من جميع نواحيه ـ قامت الدولة اليهودية عام ١٩٤٨ ، بعد خمسين عاما من مؤتمر « هرتزل» عام ١٨٩٧ ، واعترفت بها أمريكا في منتصف الليل بتوقيتنا المحلي ، وبعد عشر دقائق أعلنت روسيا ـ التي قامت على أساس لاديني ، والتي ترفض من حيث المبدأ قيام أي دولة في الأرض على أساس ديني ـ أعلنت اعترافها بالدولة اليهودية !

وكانت قد جرت قبل الإعلان الرسمي للدولة مسرحية الحرب بين « الجيوش»

---

(١) عن كتاب « المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام » ، لمحمد محمود الصواف ، طبع دار الاعتصام بالقاهرة ، الطبعة الثالثة ، ص ٢١٨ .

العربية وبين العصابات اليهودية خلال عام ١٩٤٨ ، لتستقر القوات كلها على خط التقسيم المعدّ من قبل ، والمتفق عليه من قبل ! وكان أحد فصول المسرحية أن تمتنع بريطانيا عن تموين الجيش المصرى بالذخيرة فيتوقف الجيش عن القتال ! ويتوقف - بالمصادفة البحتة ! - عند خط التقسيم !

وفى أثناء ذلك وقعت المفاجأة المذهلة . . التى لم تكن لأحد على بال !

دخل الفدائيون من الإخوان المسلمين ساحة المعركة ، بعزيمة المسلم المجاهد فى سبيل الله ، وبنية الشهادة فى سبيل الله .

وأحس اليهود على الفور بالفرق الهائل - الخطير - بين القتال مع أولئك المجاهدين ، والقتال مع الجيوش المسرحية التى شاركت فى المسرحية المعدّة من قبل ، والمتفق عليها من قبل !

وكانت المفاجأة مذهلة لا لليهود وحدهم ، ولكن للعالم الصليبى كله !

فأما اليهود فكانوا - بعد أن التقوا بالفدائيين فى بضع معارك - كانوا إذا سمعوا صيحة : « الله أكبر ولله الحمد » ، فروا من معسكراتهم ، تاركين أسلحتهم وذخيرتهم ومؤنهم ، لينجوا بجلودهم من هجمات الفدائيين ، الحريصين على الموت حرص أعدائهم على الحياة .

وأما الصليبية فلم تكن مفاجأتها أخف وقعا ، وإن لم تكن مشاركة بجنودها المباشرين فى ساحة القتال !

لقد كانت الدعوة الإسلامية بقيادة الإمام الشهيد حسن البنا قد أزعجت الصليبية من أولى خطواتها عام ١٩٢٨ ، وخاصة حين نشطت فى منطقة الإسماعيلية ، حيث كانت القاعدة البريطانية فى ذلك الحين . وكانت بريطانيا - زعيمة الصليبية وقتئذ - تتابع حركات الجماعة التى أنشأها حسن البنا مراقبة دقيقة ، وتتحسس أخبارها ، وتحاول أن تنفذ إليها عن طريق جواسيسها .

وأذكر عبارة ظهرت فى الطبعة الأولى لكتاب « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام Modern Trends in Islam » تأليف المستشرق الإنجليزى جب Gibb عام ١٩٣٦ (عدلت فى الطبعات التالية !) تبين مدى قلق بريطانيا زعيمة الصليبية من هذه الجماعة .

يتحدث جب فى هذا الكتاب عما سماه « الاتجاهات الحديثة فى الإسلام » ، ويقف

بتلك «الحداثة» عند جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده [1] . ثم يكتب (فى الطبعة الأولى) هامشة تعليقية يقول فيها : « ظهرت بعد ذلك (أى بعد الفترة التى جعلها موضوع دراسته) جماعة جديدة تسمى جماعة الإخوان المسلمين ، يتزعمها رجل يسمى حسن البنا ، ومن السابق لأوانه الحكم على هذه الجماعة ، وإن كان يبدو أنها ذات خطورة خاصة » !

وواضح من العبارة أن بريطانيا تتخوف من هذه الجماعة ، وأنها فى الوقت ذاته لم تستطع أن تسبر غورها تماما ، مع تخوفها منها . .

وإذا كان هذا هو الحال عام ١٩٣٦ ، عند ظهور الطبعة الأولى من ذلك الكتاب ، فقد ظل الحال على نحو قريب منه حتى عام ١٩٤٨ ، حين دخلت القوات الفدائية فى فلسطين . . مع فارق واحد ، هو أن بريطانيا قد زادت تخوفا من الجماعة ، بدليل تدخلها المباشر لمنع الإمام الشهيد من ترشيح نفسه للانتخابات فى دائرة الإسماعيلية عام ١٩٤٢ [2] ، وضغطها على النحاس باشا رئيس الحكومة القائمة يومئذ ليمنع هذا الترشيح . ولكنها من جانب آخر لم تكن حتى تلك اللحظة قد استطاعت أن تسبر غور هذه الجماعة مع تخوفها منها ، رغم كل محاولات الجاسوسية أن تنفذ خلالها . .

لذلك كانت المفاجأة بالنسبة إليها مذهلة كما كانت بالنسبة لليهود !

وقد كانت المسألة مفاجئة لبريطانيا ـ وللعالم الصليبى كله من ورائها ـ من جهتين اثنتين على الأقل :

فأما الجهة الأولى فهى أن العالم الصليبى كان قد ساء ظنه بالإسلام كله ، أنه قد «شاخ» وانتهى ، ولم يعد قادرا ـ بعد الضعف المزرى الذى وصل إليه المسلمون خلال القرون الأخيرة ـ أن ينبعث من جديد ، فى صورة « جهاد» إسلامى !

لقد كانت كل حركات الجهاد الإسلامى قد أخمدت وقضى عليها ، سواء فى الهند أو فى الشمال الأفريقى ، أو فى السودان ، أو فى غيره من بقاع العالم الإسلامى . وكان الغزو الفكرى المسموم قد حول روح الجهاد إلى حركات « سياسية» أقصى ما تلجأ إليه هو إقامة « مظاهرات» فى الشوارع ، تقذف أبواب الحوانيت ومصابيح النور ورجال الشرطة بالأحجار ، ثم تعود إلى بيوتها فى نهاية المطاف ! وتدخل فى

---

(١) لا يتسع المقام هنا لمناقشة موضوع الكتاب ، ولكنى ناقشته فى كتاب « المستشرقون والإسلام» .

(٢) لنا رأى فى قضية الدخول فى الانتخابات نبينه فى موضعه من هذا الفصل .

«مفاوضات» خاسرة بين الحين والحين، ويتظاهر العدو فيها بالتراجع عن موقفه المرة تلو المرة إزاء «المقاومة العنيدة التى لا تلين!» التى تبديها الحركات السياسية، بينما العدو يريد أن يطمئن إلى الحكام الذين سيتسلمون البلاد بعد «الاستقلال» أنهم قد تخلوا تماما عن فكرة الحكم بما أنزل الله!! وعندئذ يسلمهم «أمانة» الحكم!!

لذلك لم يدر فى خلد الصليبية أن «الإسلام» يمكن أن ينبعث من جديد فى صورة جهاد إسلامى. ورغم تخوفها من جماعة الإخوان المسلمين فى مصر، ومراقبتها الدائمة لها، وتخوفها الدائم من مفاجآت الإسلام التى قال عنها «جب» فى كتاب «وجهة العالم الإسلامى Whither Islam»: إن أخطر ما فى هذا الدين أنه ينبعث فجأة، دون أسباب ظاهرة، ودون أن تستطيع أن تتنبأ بالمكان الذى يمكن أن ينبعث منه! رغم هذا كله فلم تكن الصليبية تتوقع أن يكون الانبعاث على هذه الصورة!

وأما الجهة الثانية أن الصليبية قد عنيت بدك قواعد الإسلام فى مصر بالذات من وقت مبكر [1]، منذ حملة نابليون الصليبية على مصر عام ١٧٩٨م، أى قبل تلك الأحداث بقرن ونصف قرن من الزمان، ولم تكف أبدا خلال تلك الفترة الطويلة عن العمل بكل الوسائل - التى بيناها فى الفصل السابق - لمحاولة القضاء على الإسلام، وإخراج مصر نهائيا من الدائرة الإسلامية، وخاصة خلال فترة الاحتلال البريطانى الذى جثم على أرض مصر منذ عام ١٨٨٢م [2]. لذلك كانت المفاجأة للعالم الصليبى أن تكون مصر بالذات هى التى تنتج مثل هؤلاء الفدائيين، وترسلهم فى تلك اللحظة الحرجة إلى القتال!

عندئذ التقت الصليبية والصهيونية فى هدف واحد مشترك، كما التقت فى قرار واحد مشترك: أنه لابد من إبادة هذه الجماعة ليستتب الأمر للدولة اليهودية وللصليبية فى ذات الوقت.

لقد كان إنشاء الدولة اليهودية فى وسط المحيط العربى الإسلامى هو ذاته هدفا صليبيا أشار إليه اللورد كامبل فى تقريره الشهير عام ١٩٠٧م، تحسبا ليقظة «العملاق» كما عبّر صاحب التقرير!

---

(١) قلنا من قبل إن الأعداء اتجهوا إلى تحطيم الإسلام فى تركيا ومصر أكثر من أى مكان آخر فى العالم الإسلامى، باعتبار تركيا مقر الخلافة ومركز القوة السياسية والعسكرية، ومصر مقر الأزهر ومركز الإشعاع العلمى والروحى للمسلمين.

(٢) بقى الاحتلال إلى عام ١٩٥٤ حيث غادرت آخر القوات البريطانية الأرض المصرية.

كانت الدول الصليبية قد أقلقها بوادر اليقظة فى المنطقة قبل أن يستشعرها أصحابها أنفسهم ! ذلك أنه يعرفون هذا الدين كما يعرفون أبناءهم كما أخبر عنهم اللطيف الخبير :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم﴾ (١) .

ولما كانت بريطانيا هى زعيمة العالم الصليبى يومئذ، وصاحبة النفوذ الأوسع فى المنطقة، فقد لجأت إليها الدول الصليبية لتبحث لها الأمر الذى يشغلها جميعا، وتتعاون عليه جميعا، وإن أرادت كلٌّ لنفسها أن تفوز منه بأكبر نصيب!

وانتدبت بريطانيا اللورد كامبل ـ أحد أعضاء مجلس اللوردات ـ ليبحث الأمر ويقدم تقريرا لأصحاب الشأن أجمعين . فكتب تقريره الشهير الذى قال فيه : إن هناك شعبا واحدا يقطن مابين المحيط إلى الخليج (٢) . لغته واحدة ودينه واحد وقبلته واحدة ، وثقافته واحدة ، وآماله مشتركة وأرضه متصلة . . وهو اليوم فى قبضة أيدينا . . ولكنه بدأ يتململ . . فماذا يحدث لنا غدا إذا استيقظ العملاق؟!

إن الذى يحدث غدا، والذى تتوجس منه الصليبية واضح ولا شك .

فبصرف النظر عن الحقد الصليبى الذى يكره الإسلام لأنه الإسلام ، ويكره المسلمين لأنهم المسلمون :

﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ (٣) .

بصرف النظر عن هذا الحقد، فهناك ـ إلى جانبه ـ المصالح السياسية والاقتصادية التى تتأثر تأثرا بالغا إذا استيقظ العملاق . فإن أوربا لم تصبح هى أوربا التى نعرفها إلا بما سلبته من أراضى المسلمين وخيرات المسلمين !

فماذا كانت أوربا قبل التوسع الاستعمارى فى العالم الإسلامى؟ وماذا كان يمكن أن تكون ـ مهما بلغت قوتها ـ إذا ظلت محصورة فى داخل نفسها، تتصارع دولها فيما بينها كما كانت تتصارع قبل أن تتجه بصراعاتها إلى الخارج ؟

إنما أصبحت أوربا بهذه القوة وهذه الرفاهية وهذا التقدم بما تدفق عليها من ثروات نتيجة الاحتلال الصليبى للعالم الإسلامى ، فماذا يحدث غدا إذا استيقظ العملاق ، واسترد خيراته المنهوبة وكرامته المسلوبة؟!

---

(١) سورة البقرة [١٤٦] .　　(٢) يقصد الشعب العربى المسلم .　　(٣) سورة آل عمران [١٢٠] .

لن يكون خيرا لأوربا بطبيعة الحال !

وهنا يتقدم اللورد كامبل بالحل !

لابد أن نقطع اتصال هذا الشعب ، بإيجاد دولة دخيلة تكون صديقة لنا وعدوة لأهل المنطقة ، وتكون كالشوكة تخز العملاق كلما أراد النهوض !

وتلك هى الدولة اليهودية التى قامت عام ١٩٤٨م . . وذلك هو التخطيط الصليبى لإنشائها منذ عام ١٩٠٧م على الأقل ، إن لم يكن قبل ذلك التاريخ !

لذلك التقت الصليبية العالمية والصهيونية العالمية فى هدف واحد مشترك ، كما التقت فى قرار واحد مشترك : أنه لابد من إبادة هذه الجماعة المسلمة ليستتب الأمر للدولة اليهودية وللصليبية فى ذات الوقت !

لم يعد الأمر يحتمل الخط البطىء . . خط الإفساد الخلقى ، والغزو الفكرى . . ففى وسط هذا كله ، وبعد عمل دائب لمدة قرن ونصف قرن من الزمان ، قامت الصحوة الإسلامية على هذه الصورة الخطيرة التى كشفت عنها الحرب الفدائية فى فلسطين . . فماذا بقى ؟!

فلتستمر الأدوات كلها فى العمل لا تتوقف . . فلتستمر الكتب والمقالات والأبحاث والدراسات التى تهاجم الدين والأخلاق والتقاليد . . ولتستمر الصحف العارية والأفلام العارية والشواطئ العارية . . ولتستمر الفتيات المتبرجات فى الطريق . . ولتستمر المراقص والحانات ودور اللهو ودور الفجور . . ولتضاعف عملها . . ولكن لابد من عمل حاسم لوقف الخطر المرهوب . .

وتوالت الأحداث . . من اعتقال وتعذيب وتشريد ، بعد أن اجتمع سفراء الدول الأجنبية مع قواد القوات البريطانية فى مدينة « فايد» بالإسماعيلية ، وأرسلوا إنذارا إلى الحكومة المصرية بضرورة حل جماعة الإخوان المسلمين ووقف نشاطها . . وبلغت الأحداث قمتها بمقتل الإمام الشهيد عام ١٩٤٩ .

* * *

كان ظن الصليبية والصهيونية التى دبرت مقتل الإمام الشهيد ـ بأيد « إسلامية ! ! » ـ أن قتله سيحل القضية كلها مرة واحدة وإلى الأبد ، ويريح منها أعداء الإسلام ، فلا يعودون يشغلون بالهم وأعصابهم بتلك الأمور !

وكانوا معذورين فى ذلك الظن ، وإن كانوا فى الوقت ذاته غافلين !

كانوا معذورين فى ظنهم أن مقتل حسن البنا سيقضى على الجماعة التى أنشأها ، فقد كان بالنسبة لتلك الجماعة كل شىء فى حقيقة الأمر . . كان هو منشئها ، ومتعهدها بالتوجيه والرعاية ، كان هو عقلها المفكر ، وقلبها النابض ، وروحها الدافعة . فظنوا ـ ولهم العذر ـ أنهم إن قضوا عليه فقد قضوا على المحرك الحقيقى ، فتموت الحركة من تلقاء ذاتها وتنتهى . .

ولكنهم كانوا غافلين عن سنّة ربانية هائلة : أن الدعوة التى يقدم لها الدم لا تموت!

وكانوا غافلين عن أمر هائل : أنهم هم أنفسهم هم المسخرون ـ بقدر من الله ـ لإحياء هذه الدعوة ، بكثرة ما يسفكون فيها من الدماء !

* * *

مرّ عامان من الكبت والإرهاب الذى تولته حكومة إبراهيم عبد الهادى ، حتى تغيرت الأحوال السياسية فى مصر عام ١٩٥٠ ، حين أطلقت الحريات ، وسمح بإجراء انتخابات جديدة فى ظل ظروف عادية . .

وهنا وقعت المفاجأة . .

فقد حدث اندفاع هائل نحو الإسلام فى جميع المجالات !

فى الجامعة كانت انتخابات اتحاد الطلاب تقع بكاملها فى يد الإخوان المسلمين فى بعض الكليات ، أو تقع غالبيتها فى أيديهم على الأقل . وتسرب « الإسلام» إلى نقابات الأطباء والمهندسين والمحامين والعمال . . وأخطر من ذلك كله أنه تسرب إلى قوات الجيش والبوليس ، فوجد فى كل منهما ضباط برتب مختلفة ينتمون إلى «الحركة» الإسلامية ، ويعملون لنشر الدعوة فى مجالاتهم أو فى غيرها على السواء !

عندئذ تبينت الصهيونية والصليبية أن الضربة الأولى لم تكن هى القاضية ، وأنه لابد من ضربة جديدة أعنف من الأولى وأشد، تكون هى القاضية فى تقدير الشيطان.

ولكن أحداثا عالمية كانت قد وقعت فى تلك الأثناء ، غيرت خريطة المنطقة كلها ، وإن لم تغير شيئا من الأهداف . .

كانت أمريكا قد برزت إلى الوجود بوصفها « زعيمة العالم الحر ! » بعد أن حطمت

الحرب بريطانيا وفرنسا، وحولتهما إلى دول من الدرجة الثانية . . وصاحب ذلك - أو ترتب عليه - أمران مهمان بالنسبة للمنطقة الإسلامية وسير الأحداث فيها . الأول هو انتقال زعامة الصليبية إلى أمريكا مع انتقال زعامة « العالم الحر » إليها ! فالعالم الحر - المزعوم - هو الصليبية فى حقيقة الأمر . وزعامة الصليبية تقع دائما فى يد الدولة الأقوى فى العالم الصليبى . فحين كانت هى بريطانيا كانت زعامة الصليبية فى يدها ، ولما صارت هى أمريكا انتقلت إليها الزعامة بحكم الأمر الواقع ! فإن العالم الصليبى كله يحارب الإسلام ، ولكنه يسلّم قيادة الحرب - بحكم الأمر الواقع - إلى أقوى دولة فيه ! وهم يتنافسون فيما بينهم ، ويتصارعون فى الأمور كلها ، أما فى محاربة الإسلام فهم صف واحد متساند متعاون متكافل يشد بعضه بعضا !

والأمر الثانى أن اليهودية العالمية نقلت نقطة ارتكازها من بريطانيا إلى أمريكا ! وليس معنى هذا أنها تركت العمل فى بريطانيا أو التعاون معها . كلا ! فهى تعمل من جميع نقط وجودها . . من بريطانيا ومن فرنسا ومن ألمانيا ومن جنوب أفريقيا ومن روسيا ، ولكنها تجعل نقطة ارتكازها الرئيسية فى الدولة الأقوى ، ليكون ضمان «مصالحها» - أو ضمان « شرورها» - أكبر ! ومن هنا صار التعاون الأكبر للقضاء على الحركة الإسلامية قائما بين اليهودية العالمية وبين أمريكا بعد أن كان قائما من قبل بينها وبين بريطانيا .

ولسنا هنا نؤرخ للأحداث ، لا بالنسبة للصحوة الإسلامية ، ولا بالنسبة لمخططات الأعداء للقضاء عليها ، فإن هذا له مجال آخر ، وله كتّاب متخصصون . .

إنما نحن - على مدار البحث كله - نرسم خطوطا عريضة لظواهر تاريخية رئيسية . .

فكما أننا لم نؤرخ للجماعة الأولى ، ولكنا أبرزنا خطوطا عريضة تمثل أبرز سماتها ، ولم نؤرخ لخط الانحراف التاريخى ، وإنما أبرزنا أهم الخطوط الرئيسية فيه . . فكذلك نحن لا نؤرخ لأحداث الصحوة الإسلامية ، إنما نتناولها كظاهرة تاريخية ، فنشير - بقدر ما تسمح طبيعة البحث - إلى أهم الخطوط البارزة فى شأنها .

* * *

قررت الصليبية الصهيونية أنه لابد من توجيه ضربة ثانية - حاسمة - للحركة الإسلامية تقضى عليها القضاء الأخير . . ومن ثم تعاونت الصهيونية مع أمريكا - حسب مقتضيات الوضع الجديد - لتوجيه تلك الضربة ، وكانت الأداة التى اختيرت لذلك هى جمال عبد الناصر ، والانقلابات العسكرية .

إن المكان الذى تجتمع فيه الصليبية والصهيونية اجتماعا « طبيعيا » - حسب منطق الأحداث المعاصرة - هو الولايات المتحدة الأمريكية ! فهى صليبية - بحكم الأمر الواقع - وهى صهيونية بحكم خضوع الدولة الأمريكية والسياسة الأمريكية كلها للنفوذ اليهودى . ومن هنا ندرك الدور الرئيسى لأمريكا فى إدارة الأحداث فى المنطقة الإسلامية ، لحساب الصليبية والصهيونية معاً فى آن واحد .

أما اختيار الانقلابات العسكرية أداة لحرب الإسلام فهى - كما أسلفنا فى نهاية الفصل السابق - مبنية على الخبرة السابقة للصليبية الصهيونية ، المتمثلة فى تجربة أتاتورك ، وهى تجربة تعتز بها الصليبية اعتزازا كبيرا ، وتعتبرها «كنزا ثمينا» فى حوزتها لمثل هذا الهدف العظيم . . هدف القضاء على الإسلام وتذبيح المسلمين . وإذ كانت هذه التجربة تعتبر - فى حساباتهم - ناجحة فى أداء مهمتها ، فقد قررت أمريكا - دون تردد - أن تستخدمها لذات الهدف الذى استخدمت فيه من قبل على يد أتاتورك .

إن العسكريين - بطبيعة تكوينهم النفسى - محبون للسلطة ، وميالون إلى تركيزها فى أيديهم ، فإذا اختير للانقلاب العسكرى رجل يشتمل على خصلتين رئيسيتين : جنون العظمة وقسوة القلب ، إلى جانب بغض الإسلام ، فقد تم للعملية المطلوبة كل عناصر النجاح ، وسوف يقوم العسكرى المجنون بعملية الإبادة المطلوبة بكل العنف المطلوب ، وبأقسى الوسائل التى تخطر - أو لا تخطر - على البال . .

وقد نجحت التجربة الأولى على يد أتاتورك ، لاشتمالها على كل العناصر المطلوبة ، من حب السلطة ، وجنون العظمة وقسوة القلب وبغض الإسلام ، بعد أن أضيفت إليها « التزيينات » اللازمة من « البطولات » الزائفة ، حين انسحبت أمام «بطشه القاهر ! » قوات الحلفاء التى كانت تحتل الأناضول ، وهى التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية من قبل ! ! فأصبح اسمه « الغازى أتاتورك » بدلا من أن يكون لقبه الحقيقى « أتاتورك السفاح » .

واليوم يراد توجيه ضربة قاضية للحركة الإسلامية فى مصر ، مركز الثقل الثانى للعالم الإسلامى ، بعد أن ثبت أنه مايزال يمثل مركز ثقل حقيقى بعد كل تدبير الصليبية الصهيونية فيه ، إذ تمتد الدعوة الإسلامية منه إلى البلاد العربية المحيطة . . فى سوريا

والأردن والعـراق والسـودان . . ويمكن أن تمتـد منه إلى أبعـد من ذلك إذا ترك بغيـر تدمير . . [١] .

إذن فلتلجأ الصليبية الصهيونية إلى الانقلابات العسكرية بحسب رصيد تجربتها السابقة ، كما أشار « مرو برجر» في كتاب « العالم العربي اليوم» (ص ٢٤٨ من الأصل الإنجليزي ، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٤) .

أما اختيار عبد الناصر بالذات لهذه المهمة ، فليس في أيدينا حتى الآن الوثائق التي تبين متى كان أول اتصال اليهود به ، والتعرف عليه ، واكتشاف وجود الخصال المطلوبة فيه : جنون العظمة وقسوة القلب وبغض الإسلام [٢] . إنما أول اتصال رسمي معلن بينه وبين اليهود هو الذي تم في أثناء حصار الفالوجا بفلسطين عام ١٩٤٩م ، إذ تم اللقاء الأول بينه وبين « إيجال ألون» لمدة ساعة كاملة ثم تعددت الاجتماعات بعد ذلك . . وقد اشتهر أمر هذه اللقاءات بحيث لم يعد في حاجة إلى إثبات . . كما أن « كاتب الثورة » المقرب ، محمد حسنين هيكل أقر به إقرارا صريحا في مقال له « بصراحة» منسوبا إلى جمال عبد الناصر نفسه .

واستغرق الأمر عامين كاملين في التحضير والترتيب ، من عام ١٩٥٠ إلى عام

---

(١) تيقظ الانجليز إلى هذا الخطر قبل ذلك بسنوات ، فغيروا سياستهم في مصر تغييرا جذريا لعلهم يتفادون الخطر بالطرق السلمية ، البطيئة الأكيدة المفعول . فقد كان تخطيطهم الأول هو عزل مصر تماما عن العالمين العربي والإسلامي ، وإثارة النعرة الوطنية المتلبسة بالنزعة الفرعونية كما سبق بيانه في الفصل الماضي ، مع نشر التحلل والفساد الخلقي الذي يميت الوجدان الديني ويقتل الاهتمامات الجادة . . ولكن بعد ظهور حركة الإخوان المسلمين ، وامتدادها من مصر إلى البلاد العربية المجاورة ، سعت بريطانيا إلى إنشاء « الجامعة العربية» في القاهرة ، وجعل مصر « أم العروبة» و«زعيمة العالم العربي» و«كبرى الشقيقات» فيه ! لعل راية العروبة تخايل للناس فيتجمعوا تحتها بدلا من الراية الإسلامية المرهوبة . ولكن الإنجليز لجئوا بعد ذلك إلى العنف ـ كما سبق بيانه ـ حين لم تفلح دعوى العروبة ولا غيرها من الوسائل في وقف المد الإسلامي !

(٢) قضى عبد الناصر طفولته في حارة اليهود بالقاهرة ، إذ كان أبوه وكيل مكتب بريد حارة اليهود في ذلك الوقت . ونشرت مجلة « المجلة» ـ على جملة حلقات ـ تلخيصاً لكتاب من تأليف الكاتب اليهودي « موريس مزراحي » بعنوان «ملف اليهود في مصر » جاء في الحلقة السابعة منها (العدد ٢٩٠ بتاريخ ٢٨/ ٨/ ١٩٨٥) أن سيدة يهودية تدعى مدام يعقوب فرج شمويل توسطت لدى عبد الناصر لتخفيف الحكم الصادر على اثنين من اليهود في مصر بالإعدام لاتهامهما في قضية جاسوسية ، لأن عبد الناصر كان يدين لها بالفضل ، لأنها هي التي رعته في طفولته بعد وفاة أمه ، وكانت تعامله كأحد أبنائها . . ولكنا لا نعرف شيئا يقينيا عن اتصال اليهود به وتعرفهم على خصاله قبل اللقاء الذي تم في الفالوجا بينه وبين إيجال آلون في أثناء حصار الفالوجا سنة ١٩٤٩م .

١٩٥٢ ، حين قامت « الحركة المباركة »[١] التى سميت « الثورة » فيما بعد ، وقام جمال عبد الناصر بالدور المطلوب على الوجه الأكمل ، فأقام للمسلمين مذبحتين من أبشع مذابح التاريخ ، الأولى عام ١٩٥٤ - ١٩٥٥ ، والثانية عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦م .

* * *

مرة أخرى . . لسنا نؤرخ لأحداث الصحوة الإسلامية ، ولا لمخططات الأعداء للقضاء عليها . إنما نشير فقط إلى الخطوط العريضة التى تبرز أهم الاتجاهات . .

فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٤ افتعلت مسرحية الاسكندرية ، وتم على أثرها اعتقال أكثر من عشرين ألفا من شباب الإخوان المسلمين وشيوخهم فى السجن الحربى وغيره من السجون ، ووقع عليهم من ألوان التعذيب الوحشى ما تعجز كل الكلمات عن وصفه ، مهما تكن دقة المتكلم فى الوصف ، وبراعته فى التعبير ! [٢] . وكانت أدوات التعذيب

(١) هكذا كانت تسمى فى أيامها الأولى . وقد صرح محمد نجيب الرئيس الظاهرى للحركة فى مجلة المصور (فى أول عدد صدر بعد الحركة) أن أول من علم بخبر الحركة كان هو السفير الأمريكى فى مصر ، وكان ذلك قبل قيام الحركة بستة أشهر ! ! وهذا هو القدر الذى كان مكشوفا للرئيس المستعار . . أما الحقيقة فيعلمها الرئيس الحقيقى جمال عبد الناصر !

(٢) أذكر للقارئ نموذجا واحدا ربما يعينه - ولو من بعيد - على تصور شىء مما كان يجرى فى السجن الحربى من ألوان التعذيب . كان اعتقالى فى نوفمبر من عام ١٩٥٤ ، بعد الحادث بما يقرب من شهر . وكان الشهيد يوسف طلعت قد اعتقل قبلى بثمان وأربعين ساعة ، بعد أن ظلوا يبحثون عنه أكثر من ثلاثة أسابيع حتى تمكنوا من معرفة مكانه فاعتقلوه . وكان « العرف » قد جرى فى السجن الحربى على أن يستقبل كل فوج من المعتقلين بما أطلقنا عليه من باب السخرية « حفل الاستقبال » ! فكان يتناثر فريق من زبانية المعتقل على الطريق من باب السجن إلى « المكاتب » حيث تسجل الأسماء فى أوراق السجن ، وكلما مر بهم واحد من المعتقلين قام كل واحد من الزبانية بنصيبه فى « استقباله » إما بضربه سوط ، أو ضربه عصا ، أو صفعة قوية على وجهه ، أو لكمة فى صدره ، أو ركلة بكعب الحذاء الحديدى فى أى مكان من جسمه بلا تحرز . . وكان ذلك مقصودا لبث الرعب فى قلب كل داخل من أول لحظة ، كجزء من خطة الإرهاب العامة التى تمارسها الدولة مع المسلمين . وكان نصيبى من حفل الاستقبال كنصيب كل واحد من الفريق الذى دخل معى السجن فى نفس اللحظة . ولكنى ذهلت عن ذلك كله - حتى ذكرنى الإخوة فيما بعد بما كان من أمر الزبانية معى - ذهلت عنه ذهولا كاملا حين رأيت الشهيد يوسف طلعت ، مأخوذا من باب السجن الداخلى إلى المكاتب للتحقيق !

كان يوسف قوى الجسم ، شديد الأسر ، متين البناء ، وكان معروفا بقوته الجسدية إلى جانب رسوخ عقيدته وجرأته فى الحق ، ولم يكن قد مضى عليه فى أيديهم إلا ثمان وأربعون ساعة كما أسلفت . . ولكن منظره أذهلنى ! كانت الأربطة التى يرشح منها الدم و« المركروكروم » الأحمر تمتد من أعلى رجليه إلى أسفل قدميه ، كما تغطى ذراعيه بطولهما . وكان معه اثنان من الزبانية ، أحدهما يقوده من أمامه والآخر من خلفه ، وفى كل خطوة كان يتلقى ضربتى سوط على ساقيه الداميتين ، إحداهما من أمام والأخرى من الخلف ، ومع ذلك لا تزيد خطوته فى كل مرة عن خمسة سنتيمترات ! ولو كان يملك أن يجعلها أوسع من ذلك بسنتيميتر واحد لوفر على نفسه مئات السياط فى هذا المشوار =

قد أقيمت فى السجن الحربى ابتداء من يونيو ١٩٥٤ - أى قبل الحادث بخمسة أشهر - وأخذ الزبانية يدربون على استخدامها بواسطة خبراء من « النازى » - الذين كان يستخدمهم هتلر لأعمال التعذيب فى معسكرات الاعتقال الألمانية - استؤجروا خصيصا لهذا الأمر منذ ذلك التاريخ ![1] .

كان ما حدث للإخوان المسلمين فى عام ١٩٥٤ وثيق الصلة بأمر آخر غير مسرحية الإسكندرية !

=الكئيب من باب السجن إلى المكاتب، حيث يعاد تعذيبه من جديد ! لذلك ذهلت عما أصابنى شخصيا فى «حفل الاستقبال» . . وقد كنت - قبل دخولى - قد سمعت كثيرا عما يجرى هناك من ألوان التعذيب . . ولكن كل ما كنت سمعته لم ينشئ عندى صورة حقيقية عن التعذيب، حتى رأيتها بعينى فى ذلك المشهد الرهيب . .

(١) قال لى المحقق أثناء التحقيق الذى أجرى معى فى السجن الحربى فى الاعتقال الثانى عام ١٩٦٥ (وهو مثبت فى ملفات التحقيق) : لقد قلت أمام مجموعة من الناس إن حادث الإسكندرية كان مسرحية ! قلت : لم أقل ذلك ! قال : فماذا قلت إذن ؟! قلت : قلت لهم إنه سواء كان حادث الاسكندرية حقيقيا أم كان حادثا مفتعلا فقد كان مُعَدًّا للإخوان كل ما حدث لهم بالفعل ! قال مستنكرا : وما دليلك على ذلك ؟ قلت : لقد كان لى صديق يدعى « حسن السيد» وهو عديل الضابط أحمد أنور مدير السجون الحربية ، وكان موضع ثقة كبيرة من جمال عبد الناصر ، وكانت قد قامت بينى وبينه صداقة وثيقة عام ١٩٥٢ ، فزرته ذات مساء فى أواخر يوليو ١٩٥٤ فى مكتبه (وكان يعمل محاميا) فوجدت عنده زبونين أنهى أمرهما بسرعة وقال : تعال! إنما أريدك فى أمر مهم . وأغلق باب مكتبه بالمفتاح من الداخل مع أنه لا يمكن فتحه من الخارج ! وقال : أريدك فى أمر على غاية من الأهمية . . نريد أن نوقف الصدام بين الإخوان والحكومة بأى شكل ! قلت: إن الصدام قد وقع بالفعل ، فكيف يوقف ؟ قال : فليكفوا عن نقد المعاهدة (يقصد المعاهدة التى أجريت بين الحكومة وبين الإنجليز فى ذلك العام ، وكان للإخوان عليها جملة اعتراضات) قلت : لقد أعلنوا رأيهم فيها بالفعل ، فما العمل ؟! قال : فلينسحبوا من السياسة ويعلنوا أنفسهم جماعة دينية ! قلت : ألحماية أشخاصهم يفعلون ذلك ، ويدمرون فى الوقت ذاته الأساس الذى قاموا عليه ؟ لقد قاموا على أساس ممارسة الإسلام بمعناه الشامل ، والسياسة جزء منه ، فإذا انسحبوا اليوم من السياسة فماذا بقى لهم من مبادئهم يرتكزون عليه ؟ قال : مؤقتا فقط حتى تمر الأزمة . . فإنك لا تدرى ماذا سيحدث لهم ! قلت مستفسرا : ماذا سيحدث لهم ؟ فتردد فى الإجابة فكررت عليه السؤال : ما الذى سيحدث لهم ؟ فقال : أنا أعيش فى وسطهم ، وأعلم ماذا سيحدث . يعنى . . حين يأخذون المرشد والأشخاص البارزين فى الجماعة فيعدمونهم ، ويأخذون كذا ألف شاب فيعذبونهم على طريقة إبراهيم عبد الهادى . . تكون الدعوة قد انتهت!! قلت : لا تنتهى الدعوة بهذا! قال محتدا : أظن ستقول لى إن الاضطهاد يذكى الدعوات ! أنا أحفظ هذا الكلام أكثر منك ! ولكن أمامك مائة سنة أخرى حتى تعود الدعوة من جديد ! قلت : إن هذا عصر تتابع فيه الأحداث بسرعة ولا مجال فيه لشىء يأخذ مئات السنين ! ومع ذلك فماذا فى وسعى أنا أن أفعل ؟! قال: تلتقى بأخيك سيد وتطلب منه وقف الصدام مع الحكومة بأى شكل ! قلت له : نعم ! أفعل . . ولم ألتق بأخى حتى كانت الاعتقالات .

قلت ذلك للمحقق فارتبك ارتباكا شديدا لم يستطع إخفاءه! وظل ما يقرب من نصف دقيقة لا يجد ما يقول ، ثم قال متلعثما : فى يوليو ألم يكن الحادث قد وقع ؟! قلت : لا ! لقد وقع فى ٢٦ أكتوبر ! قال : نعم ! لقد كان الإخوان يومئذ قد بدءوا يشاغبون ! وبعد أسبوعين طلبنى المحقق ، وقال : لقد استدعينا حسن السيد وسألناه ، فأقر بما ذكرته فى التحقيق!

كان وثيق الصلة بتقرير « جونستون» المندوب الخاص للرئيس أيزنهاور فى «الشرق الأوسط» المكلف ببحث القضية الفلسطينية ، وتقديم تقرير للرئيس أيزنهاور عن الحل الأمثل للقضية .

وقد قام « جونستون» بالمهمة التى كلف بها ، فجال خلال المنطقة ، وقابل العرب واليهود ، ثم قدم تقريرا مفصلا مبنيا على ثلاث نقاط رئيسية :

النقطة الأولى : هى تقسيم مياه نهر الأردن بين العرب واليهود بالنسبة التالية : ١٠٪ تقريبا لكل من سوريا ولبنان باعتبار أن منابع النهر تجرى فى كل من البلدين . و٤٠٪ تقريبا لكل من الأردن وإسرائيل . فأما إسرائيل فتأخذ هذا القدر لاستصلاح صحراء النقب ، لإيواء ثلاثة ملايين من المهاجرين اليهود الجدد . وأما الأردن فتأخذ هذا القدر لاستصلاح ثلاثة ملايين دونم (فى الضفة الغربية) لتوطين اللاجئين العرب[١] .

النقطة الثانية : هى أنه نظرا لعدم وجود حدود واضحة بين إسرائيل والبلاد العربية المحيطة بها [٢] . فإنه كثيرا ما يدخل العربى الأرض الإسرائيلية وهو يظن أنه مازال فى الأرض العربية ، أو يدخل الإسرائيلى الأرض العربية وهو يظن أنه مازال فى الأرض الإسرائيلية ، فتنشأ عن ذلك اشتباكات حربية تسيىء إلى أمن المنطقة ، فيحسن تحديد حدود ولو مؤقتة بين إسرائيل والبلاد العربية ـ تحدد نهائيا فيما بعد [٣] . على أن تترك شقة حرام عرضها مائتا متر بين البلاد العربية وإسرائيل .

النقطة الثالثة : هى أنه إذا بقيت أمور أخرى مختلف عليها بين العرب واليهود ، فيجلس العرب واليهود على مائدة مستديرة لحل هذه الخلافات [٤] .

ولا يعنينا الآن هذا التقرير ، ولا ما فيه من إجحاف بالعرب وخدمة مغلفة أو غير مغلفة لليهود . . فقد أصبح هذا كله فى ذمة التاريخ ، وما كان فى حقيقته إلا خطوة

---

(١) وبذلك تنتهى مشكلة « اللاجئين» التى كانت فى ذلك الوقت تشغل « الرأى العام العالمى» حتى استطاع اليهود ـ بوسائلهم ـ أن يُنْسوا « الرأى العام العالمى » مشكلة اللاجئين ، حين حولوا العرب جميعا إلى لاجئين !!

(٢) كانت البلاد العربية فى ذلك الوقت لا تعترف بإسرائيل ، وتسميها « إسرائيل المزعومة» فلم تكن هناك حدود معترف بها!

(٣) لاحظ رغبة جونستون فى عدم تحديد حدود نهائية فى ذلك الحين لكى لا تتقيد بها إسرائيل! إنما يريد فقط إعطاءها شرعية الوجود ، ولا بأس عليها بعد ذلك أن تتخطى الحدود!

(٤) وذلك تمهيداً للصلح !

مرحلية تتوسع إسرائيل بعدها ما شاءت . . وقد تجاوزت إسرائيل اليوم كل ما جاء فى ذلك التقرير ، فاستولت على الضفة الغربية بأكملها ، وعلى ثمانين فى المئة من مياه النهر ، وذبّحت من المسلمين من ذبّحت ، وطردت من طردت ، وحوّلت من حوّلت إلى لاجئين . .

إنما الذى يعنينا هو الجملة الختامية التى ختم بها « جونستون» تقريره ، الذى كان فى ذلك الوقت هو الطريقة التى تريد بها أمريكا تثبيت إسرائيل على وضعها الذى كانت عليه ، وإعطاءها الشرعية اللازمة لوجودها ، والتى كان اليهود يحتاجون إليها كخطوة مرحلية ، يثبون بعدها وثبات جديدة فى تحقيق ما هو مخطط من قبل ، وما هو متفق عليه بين أمريكا وإسرائيل .

كانت الجملة الختامية على هذا النحو :

« ولكن ، طالما أن جماعة الإخوان المسلمين ، وهى جماعة قوية مسلحة متعصبة ، يبلغ تعدادها حوالى المليون فى مصر والبلاد العربية الأخرى .. طالما أن هذه الجماعة باقية بقوتها، فلن يمكن تنفيذ هذا الحل ، ولن تستقر الأمور فى الشرق الأوسط» ! !

وكان المعنى واضحا بكل تأكيد . . معناه : اقضوا لنا على هذه الجماعة لكى « يمكن تنفيذ هذا الحل ، ولكى تستقر الأمور فى الشرق الأوسط » ! !

ورفع التقرير فى يونيو ١٩٥٤ إلى الرئيس أيزنهاور ، فوافق عليه . . وأعطيت الإشارة لجمال عبد الناصر للتنفيذ !

وهذا هو الذى يفسر فزع الرجل الطيب، الأستاذ حسن السيد ، الذى كان يعيش فى وسطهم ، ويعرف ـ مما يسمع منهم ـ ماذا يراد بالإخوان المسلمين ! !

* * *

تمت المذبحة البشعة على يد السفاح « البطل » !

وقتل من قتل على حبل المشنقة ، أو على يد الزبانية فى أثناء التعذيب . .

وعاشت البلاد فى رعب قاتل سنوات متلاحقات . .

وبدا للناس ـ ظاهرا ـ أن الحركة الإسلامية قد انتهت إلى غير رجعة . .

واطمأن الأعداء إلى ما تم من التدبير . .

كتب مروبرجر فى عام ١٩٦٢ فى كتابه « العالم العربى اليوم» :

« وكانت أشد صورة لتجدد هذا الصراع (بين الاتجاه الدينى والاتجاه العلمانى "Secular" هى التى حدثت فى مصر بعد عام ١٩٥٤ . . ذلك أن الإخوان المسلمين المتطرفين لما رأوا أن الحركة العلمانية (اللادينية[١]) تزداد قوة انقلبوا على زملائهم السابقين فى السلاح ، الذين استولوا على السلطة عام ١٩٥٢ . ولقد قام النظام (الحاكم فى مصر) بقمع الإخوان المسلمين بلا رحمة ، وقمع دعوتهم إلى الوحدة الإسلامية التى يقفون بها ضد الدعوة القومية اللادينية» [٢] .

ثم قال فى الصفحة التالية[٣] .

« إن الصراع بين الاتجاه الدينى والاتجاه القومى اللادينى هو صراع حتمى ، ولكن يمكن تأجليه بعض الوقت ، ولكن الغلبة فى ذلك الصراع ستكون للاتجاه القومى اللادينى» .

ثم كتب (ص ٣٨٥ ـ ٣٨٧) كلاما طويلا عن التغير الاجتماعى فى روسيا وتركيا ومصر خلص منه فى النهاية بأن جمال عبد الناصر قد أحدث اتجاها إلى العلمانية (اللادينية) فى مصر عن طريق تغيير مناهج التعليم ، وتشجيع الصناعة وتعليم المرأة وتغيير علاقات الأسرة . . إلخ ، قد يكون بطيئا ، ولكن لا رجعة فيه !

* * *

ولكن قدرا هائلا كان ينتظر جمال عبد الناصر ، وينتظر الصليبية الصهيونية من ورائه . .

ففى سنة ١٩٦٣ بدأت مخابراته تقول له : إن هناك حركة ما فى صفوف الإخوان

---

(١) تترجم كلمة Secular عادة بالعلمانية ، وهى ترجمة خاطئة ، والصحيح ترجمتها باللادينية (راجع فصل «العلمانية» من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة») فالناس فى الإسلام إما أن يكونوا بكل واقعهم وكل مشاعرهم داخل الدين وإلا فهم خارجه . ولا توجد فى الإسلام منطقة « علمانية» تكون فيها بعض الأعمال وبعض المشاعر خارج دائرة الدين ، ويكون أصحابها مع ذلك مسلمين !! إنما كان ذلك فى الدين الكنسى المحرف ، الذى قال قساوسته أدّ ما لقيصر لقيصر وما لله لله ! ولكن الله تعالى يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ [سورة البقرة : ٢٠٨] أى ادخلوا بكافة أنفسكم فى الإسلام .

(٢) ص ٣١٩ من الطبعة الثانية Anchor Books edition نيويورك سنة ١٩٦٤ .

(٣) ص ٣٢٠ .

المسلمين ، لا يعرف مصدرها بالضبط ، ولا يعرف حجمها بالضبط ، ولكنها بدأت تنشط . .

وكانت مفاجأة أعنف من كل ما سبق !

أبَعْدَ كل ماحدث ؟!

لقد كانت الصحوة الإسلامية منذ بدئها مفاجأة « لأصحاب الشأن» من الصليبيين واليهود !

وكان اتساع مداها بعد مقتل قائد الحركة الأول مفاجأة أخرى لأصحاب الشأن !

وكانت عودة النشاط فى صفوف الحركة بعد كل الذى فعله عبد الناصر من التعذيب الوحشى الذى لا مثيل له فى التاريخ (١) ، مفاجأة أعنف وأشد !

لذلك كانت مذبحة ١٩٦٥ - على يد السفاح « البطل» - أعنف بكثير من مذبحته السابقة سنة ١٩٥٤ .

* * *

ومرة ثالثة نقول إننا لا نؤرخ لأحداث الصحوة الإسلامية ، ولا نؤرخ لجمال عبد الناصر ، ولا للمخططات الصليبية الصهيونية للقضاء على الحركة الإسلامية . .

إنما نحن فقط ندرس هذه الظاهرة . . ظاهرة الصحوة الإسلامية . .

لقد بدأت فى قلب رجل واحد ، فتح الله عليه ، ووهب له من إشراقة الروح وصفاء الصلة بالله ما يستشعر به عظمة الإسلام ، وما يتحرك به لتحقيق هذه العظمة فى واقع الحياة .

بدأ حياته صوفيا ، فانتمى منذ صباه إلى جماعة صوفية ، عمّقت إشراقه الروحى ووصلت قلبه بالله . .

ولكنه أدرك - بما فتح الله عليه - أن الإسلام أعظم بكثير مما تتمثله الصوفية وتمارسه . . إنه نظام حياة كامل ، وليس صلة روحية بين العبد والرب فحسب . .

ليس عبادة فردية يستغرق فيها العابد ، فى صلة محدودة « بالإخوان» فى الطريقة[٢] ، بعيدا عن واقع الحياة . . إنما هو عبادة فردية وجماعية فى ذات الوقت ،

---

(١) إلا ما صنعته محاكم التفتيش فى الأندلس للقضاء على الإسلام كما سبقت الإشارة .

(٢) أى الزملاء فى الطريقة الصوفية .

تتمثل فى إقامة المجتمع المسلم الذى يتحاكم إلى شريعة الله ، والدولة المسلمة التى تحكم بشريعة الله . . وإذ كان هذا الحكم غير قائم فينبغى العمل على إقامته فى ترتيب متدرج متسلسل : بناء الفرد المسلم ، فالأسرة المسلمة ، فالمجتمع المسلم، فالدولة المسلمة.

يقول الإمام الشهيد فى رسالته بعنوان « أيها الشباب» :

« إن منهاج الإخوان المسلمين محدد المراحل واضح الخطوات . فنحن نعلم تماما ماذا نريد ، ونعرف الوسيلة إلى تحقيق هذه الإرادة .

(١) نريد أولا الرجل المسلم فى تفكيره وعقيدته ، وفى خلقه وعاطفته ، وفى عمله وتصرفه ، فهذا هو تكويننا الفردى .

(٢) ونريد بعد ذلك البيت المسلم فى تفكيره وعقيدته ، وفى خلقه وعاطفته، وفى عمله وتصرفه ، ونحن لهذا نعنى بالمرأة عنايتنا بالرجل ، ونعنى بالطفولة عنايتنا بالشباب، وهذا هو تكويننا الأسرى .

(٣) ونريد بعد ذلك الشعب المسلم فى ذلك كله أيضا ، ونحن لهذا نعمل على أن تصل دعوتنا إلى كل بيت ، وأن يُسمع صوتنا فى كل مكان ، وأن تتيسر فكرتنا وتتغلغل فى القرى والنجوع والمدن ، والمراكز والحواضر والأمصار ، لا نألو فى ذلك جهدا ولا نترك وسيلة .

(٤) ونريد بعد ذلك الحكومة المسلمة التى تقود هذا الشعب إلى المسجد، وتحمل به الناس على هدى الإسلام من بعد، كما حملتهم على ذلك بأصحاب رسول الله ﷺ أبى بكر وعمر من قبل . ونحن لهذا لا نعترف بأى نظام حكومى لا يرتكز على أساس الإسلام ولا يستمد منه، ولا نعترف بهذه الأحزاب السياسية ، ولا بهذه الأشكال التقليدية التى أرغمنا أهل الكفر وأعداء الإسلام على الحكم بها والعمل عليها ، وسنعمل على إحياء نظام الحكم الإسلامى بكل مظاهره، وتكوين الحكومة الإسلامية على أساس هذا النظام »[1] .

لقد كانت هذه الإشراقة فى قلبه وروحه ـ التى فتحت عينه على هذه الحقيقة ـ فتحاً

---

(١) راجع : مجموع رسائل الإمام الشهيد «حسن البنا » طبع المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م ص ١٧٧ .

ربانيًا ولاشك ، وكانت فى الوقت ذاته هى الاستجابة الصحيحة للأحداث القائمة منذ أكثر من قرن من الزمان فى العالم الإسلامى بأسره ، وفى مصر بصفة خاصة . كانت هى الموقف الصحيح الذى كان ينبغى أن يقفه رفاعة رافع الطهطاوى ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول . . وكل الذين انهزمت أرواحهم إزاء الغرب ، فانجرفوا - بدرجات متفاوتة - فى تيار التغريب!

هل كان من المستحيل على هؤلاء أن يتجهوا الوجهة الصحيحة فى الزمن الذى عاشوا فيه ؟!

هل كانوا هم النتاج « المنطقى» الوحيد ، أو النتاج « الممكن» الوحيد بالنسبة لظروف عصرهم ؟!

كلا! فقد كان نموذج محمد بن عبد الوهاب قائما فى الجزيرة العربية فى الوقت الذى عاشوا فيه ، وكان يمثل الاتجاه الصحيح والحركة المستقيمة . . ولكنهم لم يتجهوا إليه ولا إلى مثله ، إنما اتجهوا إلى الغرب لما كان فى نفوسهم من الهزيمة الداخلية إزاءه .

والله هو الذى يقدر الأقدار ، وهو الذى يفتح على قلوب من يشاء من عباده ، ويطمس على قلوب من يشاء . . ولكن الله بينّ لنا كيف يجرى قدره فى الأرض من خلال أعمال الناس واتجاهاتهم .

﴿ ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ..﴾ (١) .

﴿ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله ، فأحبط أعمالهم ﴾ (٢) .

﴿ قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (٣) .

﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾(٤) .

فلا عذر لهؤلاء فيما انحرفوا فيه عن الطريق الصحيح ، وجرّوا أمتهم كلها وراءهم فى انحراف عن الطريق الصحيح .

وفى الوقت ذاته نسأل : هل كان يمكن للدعوة أن تنجح لو قامت فى ذلك الوقت بدلا من وقتها الذى قامت فيه ؟

ذلك غيب لا نملك الإجابة اليقينية عليه ، وإن كان نموذج محمد بن عبد الوهاب فى

---

(١) سورة الروم [٤١] . (٢) سورة محمد [٩]. (٣) سورة الرعد [٢٧-٢٨]

(٤) سورة العنكبوت [٦٩].

الجزيرة يوحى بأنه كان فى الإمكان . ولكن هذا لايسقط عن هؤلاء واجب الدعوة! فإن الله من رحمته كلفنا أن ندعو، ولم يكلفنا الوصول إلى نتائج معينة فى دعوتنا. ولا يحاسبنا سبحانه عن النتائج - إن بذلنا جهدنا - لأنه هو سبحانه الذى يرتب النتائج ويقدرها . إنما يحاسبنا على الجهد الذى ينبغى أن نبذله : هل بذلناه ؟ وعلى أى نحو بذلناه ؟

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (١) .

« لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» (٢) .

« يأتى النبى يوم القيامة ومعه الرجل ، والرجلان ، وليس معه أحد » (٣) .

« إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها»(٤) .

فلو قام هؤلاء بواجب الدعوة إلى الله ثم لم يستجب لهم أحد ، لكانوا قد أدوا ما عليهم ، وأعذروا إلى الله . . ويقع الوزر على الذين لا يستجيبون .

* * *

كانت هذه الإشراقة فى قلب حسن البنا فتحاً ربانيًا - كما قلنا - وكانت فى الوقت ذاته هى الاستجابة الصحيحة للأحداث القائمة فى العالم الإسلامى - وفى مصر خاصة - منذ - كما قلنا - أكثر من قرن من الزمان . .

وكانت هى قدر الله الغالب الذى قدره سبحانه - فى غيبه - رداً على كيد الكائدين بإزالة الخلافة . .

لقد كان الضياع الذى أحسه المسلمون بعد الإطاحة بالخلافة ، والحزن البالغ الذى أصاب العالم الإسلامى ، والأسى الذى استولى على القلوب ، هو ذاته الذى بعث حسن البنا إلى إنشاء دعوته ، فقد قال فى نفسه : إذا كانت دولة الإسلام قد ضاعت فلماذا لا نحاول استعادتها من جديد؟!

---

(١) سورة آل عمران [١٠٤]. (٢) أخرجه الشيخان .
(٣) متفق عليه . (٤) أخرجه البخارى .

﴿والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ [1].

* * *

و أخذت الدعوة مداها فى حياة الإمام الشهيد، وانضم إليها مئات الألوف من الناس . . [2].

كانوا نماذج شتى، واتجاهات متعددة . .

كان فيهم فريق من الصوفيين الذين ظنوا أن جماعة الإخوان المسلمين جماعة صوفية جديدة متنورة، تسير على ذات القاعدة الصوفية التى يعرفونها، ولكنها خالية من «البدع» التى يقع فيها «المحترفون» من الصوفية، فرأوا أن اتباعها لا يخرج بهم عن طريقهم الذين ألفوه، وفى الوقت ذاته لا يوقعهم فيما يعاب على الصوفية من انحرافات.

وكان فيهم كثير من الشباب النظيف المتطهر، الذى لم تلوثه موجة الفساد الكاسحة التى تفسد المجتمع وتلوثه بالدنس، والذى اتخذ موقفا محددا من الحضارة الغربية: أن ينتفع بالنافع منها، الذى لا يتعارض مع عقيدته وأخلاقه، ولكنه يرفض مادية هذه الحضارة، وتبذلها الأخلاقى، وتحللها الجنسى، واستحلالها لكل ما حرم الله . .

ولقد كان مثل هؤلاء الشباب موجودين فى المجتمع . . لم تكن قد أكلتهم الدوامة، ولا غلبتهم على نظافتهم وتطهرهم . . ولكنهم كانوا ضائعين . . كانوا أفرادا متناثرين لا يربط بينهم رابط، ولا تجمع بينهم وحدة . . وكانوا قمينين أن يعيشوا فى عزلتهم الضائعة، تفنى فيها أعمارهم، لا يلتفت إليهم أحد، إلا بالسخرية إن التفت، فحسبها أن تقف فى موقعها الذى أزيحت إليه، حتى تفنى وتضيع . . ومن ثم لم يكن لهم- رغم وجودهم- وجود محسوس!

فالآن وجدوا أنفسهم!

لم يعودوا قطرات متناثرة مزاحة من الطريق . . إنما صاروا- فى حس أنفسهم على الأقل - وجودا محسوسا . . وجودا مستقلا متميزا عن الدوامة الكاسحة، مغايرا لها

---

(١) سورة يوسف [٢١]

(٢) تقدر بعض الجهات عدد الذين انضموا للدعوة قبل مقتل الإمام الشهيد بنصف مليون، وليس هناك إحصاء دقيق بطبيعة الحال.

فى الاتجاه، تضغطه الموجة الكاسحة، نعم، ولكنها لا تفقده وجوده، و لا تفقده تميزه، ولا تفقده ترابطه.. بل تزيده!

ثم إنه ينمو.. نموا سريعا [1].. فتحس الموجة الكاسحة ضغطه، وإن كانت لا تقف له، ولا تأبه له، ولا تكف عن الجريان من أجله، ولكنها تحس بالضيق من وجوده!

وكانت هناك «جماهير» جاءت لتشبع «وجدانها الدينى» وهى لا تعرف من الإسلام إلا ذلك الوجدان! وكانت تجد فى خطب الإمام الشهيد ودروسه من فيض «الروحانية» - وقد وهب الله له روحانية فياضة مشعة عميقة التأثير- ما يشبع فى نفسها وجدانها الدينى، فيشدها الى «الجماعة» فتمارس بعض نشاطاتها، ولكن مطلبها الأول هو إشباع ذلك الوجدان!

وكان فيهم كذلك مستنفعون! من رجال الأحزاب السياسية القائمة يومئذ! ظنوا أن هذا حزب سياسي جديد، ينمو بسرعة متزايدة.. أو قطار جديد، ينهب الأرض نهبا، وتتزايد «جماهيره».. فحدثتهم أنفسهم أن لعله يكون- بكثرة جماهيره وترابطهم- أقرب من غيره فى الوصول للحكم.. فلا تفوتهم إذن الفرصة، ولا يفوتهم القطار!

وحين جاءت الضربة عام ١٩٤٨-١٩٤٩ فرت كثير من تلك الجموع إلى غير رجعة!

فر المتصوفون.. فقد عرفوا -يقينا- أن هذه لم تكن جماعة صوفية جديدة متنورة، إنما كانت حركة جهادية، يتعرض أصحابها لما يتعرض له المجاهدون فى التاريخ كله، من القتل والتعذيب والتشريد والمطاردة.. وما لهذا كانوا قد جاءوا، ولا عندهم احتمال له ولا اصطبار عليه.. فالنجاة النجاة من مخاطر الطريق!

وفر المستنفعون.. فقد عرفوا - يقينا- أن هذا القطار هو أبعد شيء عن الوصول إلى كراسى الحكم.. وهم لهذا جاءوا، لا يعرفون غيره، ولا يستهدفون سواه.. فالفرار الفرار قبل أن يدمغوا دمغة لا يستطيعون التخلص من عقابيلها فيما بعد!

وفرت «الجماهير» فما عاد هناك ما يشبع وجدانهم الدينى، وهم لا يملكون غيره، ولا يعرفون من الإسلام غيره، إنما هناك سجن وتعذيب وتشريد وتقتيل. . وما لهذا

---

(١) لنا رأى فى هذا النمو السريع سنبينه فيما بعد، ولكنا هنا نسجل واقع الحال.

كانوا قد جاءوا، ولا عندهم احتمال له ولا اصطبار عليه . . فالهرب الهرب قبل أن تعثر عليهم السلطات، وتتهمهم بأنهم كانوا «هناك» !

ويقى الشباب النظيف المتطهر . . ومع ذلك لم يبق كله . . فما كان كله يعرف من قبل عقابيل الطريق . . وما كان كله يقدر أن سيناله فى الطريق شىء من العذاب والتضحيات! إنما كان يظن أنها سياحة طيبة فى الجو النقى، بعيدا عن قذارات المجتمع الدنس الذى يعيش فيه، فيها متاعبها الذاتية فحسب، متاعب المحافظة على الدين فى وسط الفساد الكاسح، تلك التى قال عنها رسول الله ﷺ : «يأتى زمان يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر». أما التعرض للسجون والمعتقلات، والتشريد والتعذيب، فلم يكن فى حسبان كثير منهم على الرغم من أن الإمام الشهيد قال لهم ذلك فى وضوح لا لبس فيه، حين قال لهم فى رسالة« بين الأمس واليوم» :

« أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيرا من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات. وفى هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات. أما الآن فلا زلتم مجهولين، ولا زلتم تمهدون للدعوة وتستعدون لما تتطلبه من كفاح وجهاد. سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم. وستجدون من أهل التدين ومن العلماء الرسميين من يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم فى سبيله. وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان، وستقف فى وجوهكم كل الحكومات على السواء، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم، وأن تضع العراقيل فى طريقكم.

« وسيتذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم، وسيستعينون بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة اليهم بالسؤال، وإليكم بالإساءة والعدوان. وسيثير الجميع حول دعوتكم غبار الشبهات وظلم الاتهامات، وسيحاولون أن يلصقوا بها كل نقيصة، وأن يظهروها للناس فى أبشع صورة، معتمدين على قوتهم وسلطانهم، معتدين بأموالهم ونفوذهم.

﴿**يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون**﴾ «التوبة». وستدخلون بذلك ولا شك فى دور التجربة والامتحان، فتسجنون

وتعتقلون، وتنقلون وتشردون، وتصادر مصالحكم وتعطل أعمالكم وتفتش بيوتكم، وقد يطول بكم مدى هذا الامتحان:

﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ «العنكبوت». ولكن الله وعدكم بعد ذلك كله نصرة المجاهدين ومثوبة العاملين المحسنين:

﴿يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم﴾ . . ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين﴾. فهل أنتم مصرون على أن تكونوا أنصار الله؟[1]

إنما الذين بقوا داخل الجماعة بعد الضربة القاصمة كانوا هم الذين تربوا بالفعل على يد الإمام الشهيد، والذين كان -فى تقسيمه- يسميهم «الإخوان العاملين». وإن كان كثير من هؤلاء قد ظهرت عليهم فيما بعد آثار «التعجل» فى التكوين والحركة، التى سنتكلم عنها فيما بعد . .

* * *

فرت كثير من الجموع التى كانت تتحلق حول الإمام الشهيد فى درسه الأسبوعى، فتملأ المركز العام لجماعة الإخوان المسلمين، وتملأ الشوارع المتفرعة حوله، حين رأوا أن الأمر ليس عرضا قريبا ولا سفرا قاصدا، إنما هو جهاد وعذاب [2]. كما فرت الجموع التى كانت تستقبل الإمام الشهيد كلما تنقل فى مدن القطر أو فى أريافه، فى رحلاته الدائمة التى لم يكن يفتر عنها . .

ولكن حدوث ذلك التجمع يحمل مع ذلك دلالته . . أو قل: يحمل دلالاته.

الدلالة الأولى: أن الإسلام لم يكن قد انتهى تماما من القلوب كما ظن الذين ظلوا يعملون- خلال قرن ونصف قرن من الزمان- على محو الإسلام من مصر محوا، وتحويلها إلى «قطعة من أوروبا» [3]، أو «قطعة من حوض البحر الأبيض المتوسط»[4]، أو قطعة من أى شىء إلا الإسلام!

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، المؤسسة الإسلامية للطباعة والصحافة والنشر، بيروت- ط ٣- ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، ص ١٠٨-١٠٩.

(٢) قال تعالى: ﴿لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك، ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ [سورة التوبة: ٤٢].

(٣) هذه قولة الخديو إسماعيل. (٤) هذه قولة طه حسين.

والدلالة الثانية : أن الناس كانت تنتظر الدعوة لتتجمع . .

إن الجماهير لا تتجمع من تلقاء نفسها إلا فى الأمور التى تتعلق بالكيان المادى ، كما تتجمع المظاهرات التى تطالب بالخبز أو غيره من الضرورات القاهرة . أما التجمع من أجل « القيم » فإنه يحتاج دائما إلى قيادة . ولقد كان علماء الدين دائما هم القيادة التى تلجأ إليها الجماهير فى أزماتها ، أو التى تدعو الجماهير إلى التجمع ، فتتجمع حولها وتتحرك بإرشادها .

ولما غاب العلماء عن الساحة ، وانزووا فى داخل دروسهم أو فى داخل أنفسهم ، غابت القيادة «الدينية» وبرزت - أو أبرزت - مكانها القيادة « اللادينية » وتبعتها الجماهير مفتونة بها على نحو ماذكرنا فى الفصل السابق .

فلما برزت القيادة الدينية مرة أخرى عادت الجماهير إلى التجمع حولها ، وإن يكن بنسبة أقل فى هذه المرة بسبب الغزو الفكرى والفتنة بالغرب ، ولكنه تجمع قابل للاتساع والنمو ، بقدر ما تفلح القيادة فى إزالة الغاشية التى غشيت الأمة ، وعرض الإسلام فى حقيقته الناصعة ، وتربية جيل جديد على حقائق الإسلام .

والدلالة الثالثة : إن الإسلام يحمل دائما جاذبيته إلى القلوب بكونه دين الفطرة . فحيثما استقامت الفطرة اهتدت إلى الإسلام وسهل عليها اتباعه . . فإذا كان الواقع المنحرف الذى كان يعيشه المسلمون قد استغل من قبل الأعداء لتنفير الناس من الإسلام ، وإيهامهم أنه هو السبب فى جمودهم وتأخرهم ، وضعفهم وتخلفهم ، فإن العرض الصحيح لحقائق الإسلام قمين أن يرد القلوب الشاردة إليه ، والدعوة إلى التجمع تحت رايته قمينة أن ترد المسلمين إلى وضعهم الطبيعى بعد أن يتفرقوا فى شتى الضلالات :

﴿وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ (١) .

صحيح أن التمكين للإسلام مرة أخرى يحتاج إلى جهاد شاق . .

وصحيح أن الحرب الضارية المثارة ضد الإسلام اليوم من الصليبية العالمية واليهودية العالمية وأذنابهما تجعل الجهاد المطلوب للتمكين للإسلام أشق من أى وقت مضى ، بحيث لا يطيقه إلا أولو العزم من المسلمين ، ولهذا كان المستجيبون للدعوة قليلين فى مجموعهم وإن كثروا . .

---

(١) سورة الأنعام [١٥٣] .

كل هذا صحيح . . ولكن تبقى الدلالة قائمة لا تتغير . . لأنها مرتبطة بالاتجاه ذاته : اتجاه العودة إلى الإسلام ، لا بالعدد الذى اتجه حتى الآن بالفعل .

ومن أجل هذه الدلالة يجن جنون الأعداء كلما رأوا هذه الدعوة تمتد، أو تتنفس بعد أن يكتموا أنفاسها ويظنوا أنهم قضوا عليها القضاء الأخير !

* * *

لقد كان العمل الذى قام به حسن البنا عملا ضخما يشبه أن يكون إعادة بناء أمة . .

لقد كان حال هذه الأمة كجدار يريد أن ينقض . . فأقامه . .

ولم يكن عمله هو مجرد تجميع اللبنات التى كانت ماتزال صالحة فى المجتمع . . أو تجميع القطرات المتناثرة التى أزاحها السيل . . إنما كان عمله - إلى جانب التجميع - هو إنشاء بناء متين من تلك اللبنات ، وإيجاد تيار حىّ متدفق من هذه القطرات . .

كان عمله هو إعادة الإسلام فى نفوس معتنقيه إلى « حركة» . . إلى منهج حياة وعمل . . إلى ممارسة واقعية، بعد أن كان قد تحول على يد « المشايخ» إلى قوالب جافة تنقصها الحياة والحركة، وعلى يد محمد عبده إلى منهج ثقافى عقلانى ، لا يتحرك لتغيير الواقع، ولا « يجاهد» من أجل التغيير، وعلى يد الصوفية إلى أضرحة وأولياء ومزارات ، وعلى يد العامة إلى تواكل خامل وخرافات . .

ولم يكن ذلك عملا سهلا على أى إنسان يتصدى لهذه المهمة فى تلك الفترة من الزمان، وفى تلك البقعة من المكان، حيث ركزت الصليبية والصهيونية جهودهما لاقتلاع الإسلام . .

لم يكن سهلا ربط القلوب برباط الأخوة بعد أن فرقتها الفردية الأنانية الواردة مع تيار التغريب، والناجمة من قبل من تخلى الأمة التدريجى عن ممارسة الإسلام فى عالم الواقع .

ولم يكن سهلا تربية النفوس على أن تنذر نفسها للدعوة ، وتتخلى عن كثير من متاع الأرض، بعد أن كانت النفوس قد ألفت الإخلاد إلى الراحة ، ونذر الجهد للحياة الدنيا منقطعة عن الآخرة، فإن ذكر أحدهم الآخرة فبالشعائر التعبدية على الأكثر ، إن لم يكن بالنوايا الطيبة فحسب !

ولم يكن سهلا تربية تلك النفوس التى أخلدت إلى الراحة لكى تنذر نفسها - صادقة - للموت فى سبيل الله ، تعتبر الموت فى سبيل الله أغلى أمانيها . .

لم يكن شىء من ذلك سهلا على أى إنسان يتصدى لهذه المهمة . . ولكنه كان ينساب سهلا من بين يدى ذلك البنّاء العظيم ، الذى وهب الله له ماوهب من صفات الداعية البنّاء . . من إشراقة الروح ، وصفاء القلب ، والتجرد لله ، والحبّ الفياض ، والجلد على العمل ، والصبر على الكد ، والقدرة على التجميع ، والقدرة على القيادة ، والقدرة على التنظيم . .

* * *

ولكن هذا البناء الضخم الذى أقامه كان يشتمل على ثغرات ظلت تعطى تأثيراتها بصور شتى فى خط السير . . وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبنّاء العظيم فى بداية السير ، إلا أنها بدت له واضحة فيما بعد قبيل مقتله كما سيجىء ، وإن كان لم يمهل لترسيخها فى قلوب أتباعه .

كانت الثغرة الأولى هى الاستعجال فى التجميع الجماهيرى قبل موعده الذى ينبغى أن يجىء فيه . .

إن الحرص على هداية الناس ، وعلى هداية أكبر عدد ممكن فى أقصر وقت ، هو رغبة بشرية ملحة فى نفوس الدعاة والمصلحين ، بل كانت كذلك فى نفوس الأنبياء أنفسهم . وقد كان رسول الله ﷺ يحس بالرغبة العميقة فى أن يهتدى الناس ، كما يحس بالأسى العميق لعدم استجابة الناس لدعوة الحق ، حتى قال له ربه :

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا﴾ (١) .

﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين﴾ (٢) .

ولكن هناك سننا ربانية يجرى بمقتضاها أمر الدعوات ، وفيها الخير ، وإن شقت فى مبدأ الأمر على الدعاة والمصلحين . وليست الكثرة الجماهيرية فى مبدأ الدعوة من بين هذه السنن ، ولا هى مما يتحقق به الخير !

ولو كان الخير يتحقق من هذه الكثرة فى مبدأ الطريق ، ما حجبها الله عن نبيه ﷺ ،

---

(١) سورة الكهف [٦]   (٢) سورة القصص [٥٦] .

ولا عن دينه الذى قدر سبحانه أن يمكن له فى الأرض فى حياة النبى المرسل به، ويقيم له دولة ذات سلطان!

وحين ننظر إلى الأمر من زاويته الارضية- منقطعة عن قدر الله- فقد يخيل إلينا أن عناد العرب ولددهم [١] هو الذى جعل حفنة قليلة من الناس هى التى تتبع الرسول ﷺ خلال ثلاثة عشر عاما كاملة من الدعوة فى مكة. . ولكن حين ننظر إلى الأمر من زاوية قدر الله، فقد كان الله قادرا- لو شاء سبحانه- أن يجمع حول رسوله ﷺ ألوفا مؤلفة فى تلك السنوات المعدودة. .

ولكن قدر الله جرى على هذا النحو الذى جرى به- وهو سبحانه الذى يقول للشيء كن فيكون- لخير هذه الدعوة ومصلحتها، وكانت الدعوة على هذه الصورة هى الأكثر تمكنا فى الأرض، وهى التى كتبت - بقدر من الله- تاريخا لم تكتبه غيرها من الدعوات. .

كان الذين استجابوا لرسول الله ﷺ فى مكة خلال ثلاثة عشر عاما قلة محدودة لا تبلغ المائتين من الناس، ولكنهم كانوا هم نواة ذلك الجيل الفريد الذى تفرد فى التاريخ البشرى كله. .

كانوا قلة، نعم، ولكنهم كانوا- بلغة البناء- هم الأعمدة الراسية التى يقوم عليها البناء كله، فتحمله وتمكن له فى الأرض. وكما يعمدالبنّاء حين يشرع فى إقامة بنائه إلى دك الأساس دكا متينا بادىء ذى بدء، ثم إقامة الأعمدة التى تحمل البناء، قبل أن يضع الطوب والأحجار. . فكذلك فعل قدر الله بهذه الدعوة على يدى رسول الله ﷺ، فقيض له تلك الفئة القليلة حوله ﷺ، تتلقى كل رعايته، وكل توجيهه، وكل تربيته، وتتلقى منه الشحنة كاملة، فتكون كما شاء الله لها أن تكون، عمدا راسية فى كل اتجاه؛ ثم جاء قدر الله بالأنصار، يتربون على يدى رسول الله ﷺ- مع المهاجرين- وهم جميعا قلة محدودة، فينالون من تربيته ورعايته وتوجيهه الحظ الأوفى- ويظل للمهاجرين سبقهم فى ذلك كله- وذلك قبل أن تجيء الأحجار التى تكمل البناء، وتجعله صالحا لأداء مهمته، أولئك الذين قال الله عنهم:

﴿ ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا﴾ [٢].

---

(١) قال تعالى: ﴿ فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوما لدا ﴾ [سورة مريم: ٩٧]

(٢) سورة النصر [٢]

ذلك هو الترتيب الربانى، الذى به نجحت الدعوة وتمكنت فى الأرض . .

ونتخيل الأمر تم على غير هذه الصورة، فدخل الناس فى دين الله أفواجا منذ أول لحظة، أو فى السنوات الأولى للدعوة . . هل كان يقوم البناء على ذات الصورة، وهل كان يرسخ فى الأرض كما قدر الله له الرسوخ؟!

إن الله يقول للشىء كن فيكون . . ولو شاء الله لفعل، ولو قدر شيئا لكان . .

ولكن الله- جلت مشيئته- قد جعل سننا فى الكون وسننا فى الأرض وسننا فى حياة الناس، وجعل تلك السنن هى العاملة- بمشيئته سبحانه- فى الكون والأرض والناس. وجعل من سنته فى الدعوة أن يستجيب لها قوم محدودون، ينالون من رعاية النبى المرسل النصيب الأوفى، فيكونون كالأعمدة الراسية التى يقوم عليها البناء . .

والتربية عملية شاقة بطيئة تحتاج الى كثير من الجهد . .

ورسول الله ﷺ هو أعظم مرب فى التاريخ . . ولكنه لو واجه الألوف من أول لحظة فما كان من المستطاع أن يعطيهم كل رعايته وكل توجيهه وكل تربيته، كما أعطاها لتلك الحفنة القليلة المحدودة العدد، فتحقق فيها على أكمل صورة وبأكمل قدر قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس.. ﴾ (١) وكان إتمام الأمر على هذا النحو متمشيا مع السنن الجارية التى يجرى بها قدر الله فى حياة الناس. فلقد شاء الله- لحكمة يعلمها سبحانه- أن يجرى أمر هذا الدين كله على السنن الجارية لا السنن الخارقة، حتى لا يأتى جيل من أجيال المسلمين يتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالخوارق، ولم تعد الخوارق تتنزل بعد ختم الرسالة وانقطاع النبوات!

إن الخارقة الكبرى فى هذا الدين هى كتاب الله المنزل، وهى باقية ومحفوظة بقدر الله إلى قيام الساعة:

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٢) .

ولئن كان اشتراك الملائكة فى القتال مع المسلمين يوم بدر من الخوارق، فقد كانت الخارقة هى رؤية المسلمين للملائكة وهم يقاتلون معهم. أما تنزل الملائكة على المؤمنين بالتثبيت والتأييد والسكينة فهو قدر جار يجريه الله حين يشاء على من يستحقه من عباده:

---

(١) سورة آل عمران [١١٠]   (٢) سورة الحجر [٩]

﴿ إن الذين قالوا ربنا الله، ثم ا ستقاموا، تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا، وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا، وفى الآخرة..﴾[1] .

إنما السنة الجارية- التى جرى بها الأمر مع رسول الله ﷺ- أن تقف الجاهلية بالمرصاد لدعوة الحق، تحاربها وتهددها وتتربص بها، وتصد «الجماهير» عن الانضمام اليها بكل وسائل الصد، وبكل وسائل التخويف والإيذاء، فلا يقبل عليها فى مبدأ الأمر إلا أفذاذ من الناس، قد رسخ الإيمان فى قلوبهم، فاستعلوا على الجاهلية، وصبروا على كيدها كله، وصمدوا فى موقفهم لا يتزحزحون عنه، لا يزيدهم الابتلاء إلا رسوخا فى الإيمان. . فيتمحصون بذلك كله، ويصطفيهم الله لحمل الأمانة وإقامة البناء . .

والابتلاء سنة :

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ [2] .

والتمحيص قبل القضاء على الأعداء سنة :

﴿وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾[3].

فحين يتم الابتلاء والتمحيص، ويعلم الله من قلوبهم أنها تجردت له وأخلصت، وأصبح الله ورسوله أحب إليهم من كل ما سواهما، يجرى قدره سبحانه بالتمكين لهم فى الأرض، وبدخول الناس أفواجا فى دعوة الحق . .

وفى فترة الابتلاء والتمحيص تتم جوانب كثيرة من التربية المطلوبة لحملة الأمانة، الذين يواجهون الجاهلية فى أول جولة، والذين تلزمهم صفات وأحوال غير التى تلزم للأفواج الداخلة فيما بعد، ويحتاجون إلى عناية خاصة تختلف عن العناية المطلوبةللقادمين فيما بعد، بمقدار ما تختلف إقامة الأعمدة الراسية فى الأرض، التى تحمل البناء كله، عن إقامة الأحجار فى أماكنها بين هذه الأعمدة.

إن هذه الأعمدة تحتاج إلى صناعة خاصة، ومكونات خاصة، ومقومات خاصة، وزمن معين لاستكمال تلك المقومات. فإن لم تستوف كل مقومات صناعتها، فإنها تعرض البناء كله فيما بعد للتشقق أو الانهيار.

---

(١) سورة فصلت [٣٠ـ ٣١]. (٢) سورة العنكبوت [٢ـ٣]. (٣) سورة آل عمران [١٤١].

حقيقةً إن الأعمدة وحدها لا تشكل بناء، ولا تحقق الهدف الذى من أجله أنشئ البناء . . فلابد من الأحجار الكثيرة التى تشكل الجدران، وتعطى البناء شكله النهائى، وتحقق الهدف الذى أقيم من أجله . . ولكنك لو بدأت برص الأحجار قبل دك الأساس، وقبل إقامة الأعمدة الراسية، أو قبل إتمام ذلك كله على المستوى المطلوب، فإن البناء كلما علا ينهار . . وتكون الأحجار حملا ثقيلا أكثر مما هى عون وتأييد!

وحين يتم- فى فترة التربية- إعداد الصفوة التى تواجه الجاهلية أول مرة ذلك الإعداد الخاص المطلوب لها، فإن أمورا كثيرة تتم فى الحقيقة فى آن واحد.

إن هذه الصفوة- كما قلنا- هى التى تستطيع- بحكم متانة تأسيسها- أن تصمد لكيد الجاهلية، التى تحاول بكل جهدها أن تقضى على الدعوة الجديدة قبل أن تمد لها جذوراً فى التربة، لأنها تعلم جيدا أنها إن لم تبذل كل طاقتها فى ذلك فسيفلت الأمر من يدها، ولا تستطيع أن تسيطر عليه . . لذلك يكون البطش فى أقصى عنفوانه فى جولته الأولى، ولا يصمد له إلا تلك الصفوة المختارة من المؤمنين، الذين يتلقون الشحنة الكاملة من قائدهم الذى يتعهدهم بتربيته ورعايته.

ثم إن نجاح هذه الصفوة فى الصمود للكيد هو الذى يشكل فى الحقيقة نقطة التحول فى خط سير الدعوة، لأنه يعطف القلوب نحو أولئك المؤمنين الذين يتلقون هذا القدر الهائل من البطش والتعذيب دون أن يتحولوا عن الحق الذى يؤمنون به، فيكون صمودهم شهادة لهذا الحق، تجتذب نفوسا جديدة، تؤمن به وتجاهد فى سبيله، فتتسع القاعدة وهى على ذات القدر من المتانة وقوة التأسيس.

ثم إن هذه الصفوة تشكل جنودا فائقين لقائد الدعوة، ولكنهم فى الوقت ذاته يربون ليكونوا قادة، وليكونوا خلفا للقائد من بعده . .

انظر إلى صحابة رسول الله ﷺ . . لقد كانوا جنودا فائقين للدعوة، ولقائدهم ﷺ، على الصورة التى يعرفها التاريخ . . ولكن رسول الله ﷺ رباهم فى الوقت ذاته بحيث يكون كل واحد منهم ركنا فى الموقع الذى يكون فيه، فقاموا بالمهام التى وكلها إليهم على المستوى الفائق الذى يعرفه التاريخ، وكانوا هم القدوة للناس فى تربيتهم على هذا الدين، كما كان رسول الله ﷺ قدوتهم هم فى هذه التربية الفريدة . . ثم كانوا هم

حملة الأمانة من بعده، والقادة الذين قادوا الأمة من بعده فى الخلافة الراشدة التى يعرفها التاريخ . .

تلك سنة جارية فى عملية «البناء» . . وهى ألزم ما تكون فى بناء الجماعة التى تتولى الدعوة لدين الله .

فإذا عدنا إلى البناء الضخم الذى أقامه الإمام الشهيد، وكون به - بقدر الله - منعطفا تاريخيا فى حياة الأمة الإسلامية، نجد أن«الأفواج» من الناس قد سمح لها بالتجمع فى وقت باكر، لم يكن قد تهيأ فيه دك الأساس المتين بالقدر المطلوب، ولا إقامة الأعمدة التى تحمل البناء على المواصفات المطلوبة للجيل الأول، الذى يواجه الجاهلية أول مرة . .

وهنا يتبادر سؤال . .

هل كان من واجب الإمام الشهيد أن يصد الناس الذين التفوا حوله بعشرات الألوف، حتى يتمكن من تربية العدد اللازم لهم من الدعاة والمربين، فيتركهم فى ضياع وهو قادر على تجميعهم، وإثارة وجدانهم الدينى على أقل تقدير؟

وحين توضع القضية على هذا النحو فالجواب لا شك بالنفى!

ولكن هذا ليس الوضع الصحيح للقضية!

إنما نسأل : لو علم الناس حقيقة الدعوة وأبعادها، وحقيقة الأوضاع المحيطة بها، وحقيقة المعركة بين الدعوة وأعدائها، وحقيقة مخططات الصليبية الصهيونية تجاه الإسلام، وتجاه كل دعوة تحاول إعادة الناس إليه . . فهل كانوا يتجمعون بعشرات الألوف فى تلك السنوات القصار؟!

ونعود إلى كلام الإمام الشهيد نفسه، الذى أثبتناه قبل صفحات :

« أحب أن أصارحكم أن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس، ويوم يعرفونها ويدركون مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة وعداوة قاسية، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات، وسيعترضكم كثير من العقبات . وفى هذا الوقت وحده تكونون قد بدأتم تسلكون سبيل أصحاب الدعوات . . . »

وهذه هى القضية فى حقيقتها . .

فلو عرف الناس - أو عُرِّفوا- حقيقة الدعوة، لجرت السنة الربانية مجراها، فأقبل على الدعوة أفراد معدودون، يتلقون شحنة التربية كاملة، ويكونون هم الأعمدة الراسية التى تحمل البناء، ويكونون هم المربين الذين يقومون بتربية الناس حين يدخلون فى الدعوة أفواجا، ويكونون هم « الصف الثانى» فى الدعوة، الذى يخلف القائد على الطريق . .

ولقد كان « الإخوان العاملون» جنودا فائقين نعم . . يتحركون بأمر قائدهم الحركة المضبوطة التى يكلفهم بها، وعلى النحو الذى يوجههم إليه [1]، ولكنهم لم يكونوا بعد قد تهيأوا ليكونوا قادة ومعلمين لتلك الأفواج كلها التى تجمعت قبل أوانها حول الدعوة، لأنها- كما قال الإمام الشهيد- لم تكن تعرف حقيقة الدعوة. كما أنهم-وهذا أخطر- لم يكونوا قد تهيأوا بعد لتسلم القيادة من بعده، والمضى بها فى الطريق الشاق الطويل . . فكان لهذا أثره فى خط السير فيما بعد كما شهدت الأحداث.

* * *

وكما حدث التعجل فى دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتم بناء الأعمدة الراسخة بالمواصفات المطلوبة، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب سواء فى الساحة الداخلية، أو فى ساحة المعركة فى فلسطين.

فأما فى الداخل فقد كان هناك تعجل فى إظهار قوة الجماعة، سواء فى استعراضات الجوالة، أو فى المظاهرات والمسيرات، أو فى الدخول فى القضايا السياسية المثارة فى ذلك الوقت، كمحاربة الشيوعية، أو تأييد قضية مصر فى مجلس الأمن، أو غيرها من القضايا، كأنما تريد الجماعة فى كل مرة أن تقول: نحن هنا، ونحن نستطيع أن . .

وبصرف النظر عن كون هذه القضايا المثارة يومئذ كانت مما يجوز للجماعة المسلمة أن تخوض فيه، أم أن واجبها كان المناداة بتصحيح منهج الحياة الأساسى، الذى تنجم تلك القضايا من فساده، ومن عدم اتباع منهج الله بشأنه . .

---

(١) شكا الإمام الشهيد فى نهاية حياته من بعض التصرفات غير المسئولة التى يقوم بها أفراد معينون من الجماعة، ولكن هذا لا ينفى الأصل، وهو طاعة الجنود لقائدهم، وسمعهم وطاعتهم له فى المنشط والمكره.

بصـــرف النظر عن هذا الأمــر[١] ، فقـد كـان « استعـراض العضـلات» على هذه الصورة ، قبل استكمال العدة اللازمة ، من تمكين الأساس ، وإقامة الأعمدة الراسية ، واستكمال التربية المطلوبة ، تعجلا بالحركة قبل الأوان ، ترتب عليه ما ترتب من آثار فى خط السير . .

أما فى فلسطين ، فلقد كان دخول الفدائيين من الإخوان المسلمين فى ساحة المعركة قدرا مقـدورا دون شك . . ولكن هذا الحدث كان لـه أثر بالغ فى سير الأحـداث كلها فيما بعد . وما قدره الله لابد أن يتم . ولكن كتاب الله علمنا أن قدر الله لا ينفى دور البشر ومسئولياتهم :

﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا؟ ! قل: هو من عند أنفسكم. إن الله على كل شىء قدير. وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله..﴾ [٢] .

وليس لدىّ الآن ما يثبت أن الإمام الشهيد قد اتخذ قرار دخول الفدائيين فلسطين بمحض رغبته ، أم بضغط الشباب وإلحاحهم عليه . . وأحسب أن ما سبق من اشتراك الجماعة فى القضايا السياسية المثارة على الساحة ، هو الذى جعل دخول الإخوان المعركة فى فلسطين هو الأمر « الواجب» . . سواء كان قائد الجماعة مقتنعا بجدواه أم غير مقتنع . فما دامت الجماعة قد شاركت فى الأحداث من قبل ، وهى تنادى بالجهاد والفداء ، فإن قعودها عن دخول المعركة كان يعد بالنسبة إليها نكوصا عن المبادىء التى أعلنتها من قبل ودعت إليها الجماهير !

وأيا كان الأمر فقد وقع قدر الله . . واكتشفت الصليبية والصهيونية الخطورة البالغة لهذه الجماعة على كل مخططاتها ، وعلى وجود الدولة اليهودية بصفة خاصة ، فكان ما كان من المذابح المتوالية التى تعرضت لها الجماعة قبل أن يتم لها النضج ، وتكون على مستوى الأحداث . .

* * *

وكما حدث التعجل فى دعوة الجماهير للتجمع ، وفى التحرك بهذه الجماهير قبل الأوان المناسب ، حدث كذلك فى عملية البناء ذاتها ، فلم تبدأ من نقطة البدء اللازمة ، بل تجاوزتها إلى ما يجىء بعدها فى الترتيب . .

---

(١) سنعود إلى هذا الأمر بالحديث فيما يلى من هذا الفصل .

(٢) سورة آل عمران [١٦٥-١٦٦] .

لقد اعتبرت قضية العقيدة قضية بديهية، وقضية منتهية. وكل ما ينبغى علينا بشأنها هو إيقاظ الوجدان الدينى من غفوته، وتحويله- بالعمل- إلى حركة واقعة، فيستقيم الأمر، وتتحقق الأهداف.

وكان هذا- كما سيجىء بيانه- مبالغة فى إحسان الظن، أثبتت الأيام فيما بعد أنه فى حاجة إلى مراجعة شديدة، وأن نقطة البدء كان ينبغى أن تكون هى تصحيح العقيدة ذاتها، وجلاء مفهومها الحقيقى الذى غاب عن الجماهير، بل غاب عن كثير من الدعاة أنفسهم، فى غربة الإسلام الثانية، التى أخبر عنها رسول الله ﷺ حين قال:

« بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ، فطوبى للغرباء »[1].

* * *

نستطيع أن نرد هذه العجلة بوجه الإجمال إلى نقطتين رئيسيتين:

الأولى: هى افتراض أن « القاعدة الإسلامية» موجودة بالفعل، وأن العمل المطلوب ليس هو « إنشاءها» من جديد، وإنما هو « تجميعها» وبث الحركة فيها، وتنظيمها، وقيادتها، وتوجيهها إلى العمل المطلوب..

الثانية: هى عدم التقدير الكافى للقوة المطلوبة لمواجهة الصليبية العالمية والصهيونية العالمية من جهة، والأحوال الداخلية من جهة أخرى.. سواء من حيث نوعية هذه القوة أو من حيث حجمها المناسب.

ونستطيع أن نتصور- بالنسبة للنقطة الأولى- أن الإمام الشهيد قد أحسن الظن بالموقف بناء على الاستجابة الواسعة التى تلقاها من « الجماهير» على الدعوة، التى اتسمت بها السنوات العشرون التى عاشها منذ بدء الدعوة إلى يوم استشهاده، حيث تضاعف حجم الجماعة عدة مرات فى خلال تلك السنوات.. كما كان من أسباب حسن الظن كذلك الاستجابة الواسعة التى تلقاها من « جنوده» - الإخوان العاملين-الذين كانوا فى يده- أداة طيعة تستجيب لتعليماته، وتتشكل- طائعة- فى القالب الذى يريد تشكيلها عليه.

ولكن التجربة العملية أثبتت أن هذه النظرة كان فيها من حسن الظن أكثر مما تقتضيه الأحوال!

---

(١) سبق ذكره.

إن « العواطف الدينية» شيء ، و« القاعدة الإسلامية» شيء آخر . .

وحتى إن كانت هذه العواطف متجهة إلى الإسلام- دينها التقليدى الذى عاشت به أكثر من ثلاثة عشر قرنا من قبل- فإنها- وحدها- بغير فهم حقيقى لهذا الدين، وبغير بصيرة واعية . . لا تكفى .

فالفهم الحقيقى الذى يصل إلى درجة ا لعلم « مطلوب» :

﴿ فاعلم إنه لا اله إلا الله﴾ (١).

والبصيرة مطلوبة :

﴿قل هذه سبيلى: أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى، وسبحان الله، وما أنا من المشركين﴾ (٢).

ولقد كانت العقيدة ضمرت ضمورا شديدا فى نفوس المسلمين خلال القرون المتعاقبة، كما أسلفنا القول، بحيث لم تعد هذه « العواطف » الدينية ذات دلالة حقيقية تبنى عليها حركة واعية تواجه الجاهلية المعاصرة بكل إفكها وانحرافاتها، وتواجه الحرب الضارية الماكرة التى يشنها- فى الداخل والخارج- أعداء الإسلام . .

لم يكن إيقاظ « الوجدان الدينى» من غفوته، وتحويله إلى حركة واقعة، إلا تصحيحا لجانب واحد من جوانب الخلل التى أصابت العقيدة خلا ل القرون، وخلال القرن الأخير بصفة خاصة .

لقد كان التواكل الذى أحدثته الصوفية وأحدثه الفكر الإرجائى هو الخلل الذى أصلحته حركة الإمام الشهيد، بإيقاظ الوجدان الغافى وتحويله إلى حركة واقعة، وكان هذا جهدا ضخما فى حقيقته، إذا نظرنا إلى ماكان قد أصاب المسلمين فى هذا الجانب كما بينا من قبل .

ولكن الخلل الآخر ـ الذى طرأ على الأمة خلال القرن الأخير خاصة ـ كان هو إفراغ «لا إله إلا الله» من حقيقتها فى قضية «الحاكمية» المتصلة بتحكيم شريعة الله، وكان هذا الخلل شديد الخطورة فى حياة هذه الأمة، وشديد الخطورة بالنسبة للصحوة الإسلامية ذاتها، بحيث ينبغى أن يركز له من الجهد بقدر ما ركز فى علاج التواكل الذى أحدثته الصوفية والإرجاء . .

(١) سورة القتال [١٩] .

(٢) سورة يوسف [١٠٨] .

لقد بقيت الأمة ثلاثة عشر قرناً على وجه التقريب تعيش فى ظل الشريعة الإسلامية، وتراها بديهية من بديهيات إسلامها كأداء الصلاة سواء بسواء.

وقد سبق القول أن الأمة ـ برغم انحرافاتها كلها، ورغم كل البدع والخرافات التى دخلت عليها ـ ظلت تشعر فى أعماق كيانها أن تحكيم الشريعة الإسلامية وأداء الصلاة هما الركنان اللذان لا يمكن أن يزولا من حياة الأمة، ولا أن ينحسر عنهما الواقع الذى يعيشه الناس..

ولكن الصليبية التى أحكمت سيطرتها على العالم الإسلامى خلال القرن الأخير ـ والصهيونية فى أطوائها ـ قد ضغطت بكل ثقلها ـ العسكرى والفكرى ـ لتنحية الشريعة الإسلامية من الحكم، وتنحية الصلاة من واقع الناس..

وظل الكيد ـ الذى يتزايد بإلحاح لزحزحة الأمة عن إسلامها ـ يوهم الناس فى كل خطوة أنهم مازالوا مسلمين..

نحيت الشريعة عن الحكم أولاً، وقيل للناس لا بأس عليكم! مادمتم تصلون وتصومون فأنتم مسلمون..

ثم نحيت الصلاة ـ والعبادات عامة ـ وقيل للناس: لابأس عليكم! مادمتم تقولون لا إله إلا الله فأنتم مسلمون! [1].

وفرغت لا إله إلا الله من محتواها كله تحت ضغط الأمر الواقع، وبتأثير الغزو الفكرى المسموم، وأصبحت مجرد كلمة تنطق باللسان، ويحسب قائلها أنه قد حاز الإسلام كله بمجرد نطقها بلسانه، وأنه قد قام «بالشهادة» المطلوبة منه، وأن الجنة تنتظره فى نهاية المطاف، مهما يكن قلبه غافلاً عن حقيقتها، ومهما يكن سلوكه مناقضاً لمقتضاها!

وجاءت حركة الإمام الشهيد والأمة على هذا النحو.. إلا من رحم ربك، ممن فتح الله عليه بمعرفة حقيقة الشهادة وحقيقة الدين..

وقام الإمام الشهيد ـ كما بينا ـ بتصحيح جانب من العطب الذى أصاب «لا إله إلا الله» فى قلوب المسلمين، ذلك الجانب الذى كانت قد أفسدته الصوفية والفكر الإرجائى؛ ثم دعا إلى تحكيم شريعة الله، وإلى وجوب إقامة الدولة المسلمة التى تحكم بشريعة الله، ووجد استجابة الجماهير من حوله، فاطمأن إلى هذا «الظاهر»،

---

(١) سبق أن ذكرنا ذلك من قبل فى الفصل السابق، أثناء الحديث عن «آثار الانحراف».

فلم يول الأمر فى مبدأ الأمر من العناية ما أثبتت التجربة فيما بعد أن الأمر كان فى حاجة شديدة إليه . .

لقد قتل حسن البنا ، ومر الحادث بكثير من القلوب كأن لم يمسها على الإطلاق!

ثم جاء « البطل» السفاح ، فأقام للمسلمين مذبحة من أبشع مذابح التاريخ ، ومر الحادث بكثير من القلوب كأن لم يمسها على الإطلاق . . بل كان الأمر أسوأ بكثير . . فقد صفقت كثير من الأيدى للسفاح ، ويده تقطر من دماء المسلمين!

كيف حدث ذلك؟!

أهذا هو الأمر الطبيعى بالنسبة « للمسلمين » ؟!

وقل من جانب آخر : لو كان الناس يعلمون حقيقة لا إله إلا الله ، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله . . أكانوا يقفون هذا الموقف المنكر الغريب؟!

لا يمكن ذلك بحال!

لا يمكن أن يمر قتل الداعية الذى يدعو إلى تحكيم شريعة الله ، بهذه البساطة التى مر بها . . ولا يمكن أن تمر المذبحة البشعة التى أقامها السفاح للدعاة الذين يدعون لتحكيم شريعة الله بهذة البساطة التى مرت بها ، فضلا عن أن يكون هناك من يصفق للسفاح ، إلا أن تكون هناك جهالة مطبقة بحقيقة لا إله إلا الله!

وضَعْ فى الحساب كل ما يمكن أن يوضع من أثر الدعاية المضادة التى أقيمت ضد الإمام الشهيد ، وضد الجماعة التى خلفها من بعده . . وضع فى الحساب كذلك كل ما يمكن أن يوضع من أثر الدعاية المحلية والعالمية للبطل السفاح . . فسيظل الموقف غير مقبول لا بالنسبة لمقتل الإمام الشهيد ولا بالنسبة للمذابح التى أقامها السفاح!

كان يمكن - بسبب تلك الدعاية المضادة - أن تقف الجماهير ضد شخص الإمام الشهيد أو جماعته ، ثم يكون لها موقفها الخاص من قضية تحكيم شريعة الله!

أما السكوت الكامل عن قضية تحكيم شريعة الله ، ثم السكوت عن المذابح التى تقام للمسلمين الداعين إلى تحكيمها ، فأمر لايمكن أن يحدث ، إلا أن تكون تلك الجهالة المطبقة بحقيقة لا إله إلا الله ، وا رتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله . . والظن بأن مجرد نطقها باللسان هو الذى يعطى صفة الإسلام ، وأن هذه الصفة تظل لاصقة بالإنسان مهما يكن فكره وسلوكه بعيدين عن مقتضيات لا إله إلا الله! والجهل بأن

تحكيم شريعة الله - وحدها دون سواها - والتحاكم إلى شريعة الله - وحدها دون سواها - هو أول مقتضيات لا إله إلا الله، التى لا تكون بدونها قائمة ولو نطقها الإنسان بلسانه ألف مرة كل نهار!

وبصرف النظر عن وضع الناس فى ميزان الله، وكونهم - بهذه الجهالة - مسلمين أو غير مسلمين [1]. . فلا شك أن هذه الجهالة قائمة - بكل ثقلها - فى حياة الناس وأفكارهم ومشاعرهم، وأن« القاعدة الإسلامية» لا يمكن أن توجد وهذه الجهالة قائمة، وأن أولى الخطوات لإقامة « القاعدة الإسلامية» هى إزالة هذه الجهالة من حياة الناس. .

إن هذه الجهالة هى العقبة الكبرى فى سبيل إقامة الحكم الإسلامى! وهى أخطر بكثير مما قد تبدو لأول وهلة. .

إن الحكم الإسلامى لن يقوم بمجرد وجود « جماعة» مؤمنة مجاهدة تنادى بتحكيم شريعة الله. .

فأيا كانت الوسيلة المتخيلة لوصول هذه الجماعة إلى الحكم [2] فإنه لابد لكل حكم من سند يسنده ويدافع عنه مما يتعرض له من كيد الأعداء. .

وهناك حكومات كثيرة تقوم اليوم فى العالم الإسلامى لأن أمريكا تسندها، أو لأن روسيا تسندها، أو لأنهما معا يسندانها لقاء ما تقوم به من تذبيح المسلمين وتقتيلهم والقضاء عليهم. . أما الحكم الإسلامى، فمن يسنده فى كل الأرض؟ لن تسنده أمريكا بطبيعة الحال ولن تسنده روسيا . . ولابد له من سند من أهله. . من المسلمين المؤمنين المجاهدين، الذين يقاتلون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم. .

لابد من وجود «القاعدة الإسلامية». .

وليس معنى هذا، كما يتخيل بعض الناس، أننا لابد أن ننتظر حتى تتحول الأمة كلها إلى مؤمنين مجاهدين لكى يقوم الحكم الإسلامى. .

إنه لا يوجد مجتمع فى الأرض كلها يكون كله من أولى العزم، وكله على مستوى القمة. . ولا مجتمع الرسول ﷺ. فقد كان فى مجتمع الرسول ﷺ المنافقون وضعاف الإيمان والمبطئون والمثّاقلون. . ولكن « القاعدة المسلمة» كانت فيه من القوة والرسوخ

---

(١) سنتكلم عن هذه القضية فيما بعد.

(٢) سنتكلم بعد قليل عن الوسائل.

والتمكن بحيث حملت أولئك كلهم، ومضت فى طريقها تحقق أهدافها كما قدر لها الله . .

والمطلوب اليوم، لكى يقوم الحكم الإسلامى، أن توجد « القاعدة المسلمة» بالحجم المعقول، الذى يقود خطى الأمة كلها فى سبيل تحقيق ذلك الهدف الضخم . . والذى لا يعوقه وجود المنافقين وضعاف الإيمان والمبطئين والمتثاقلين!

والعقبة الأولى فى سبيل بناء هذه القاعدة بالحجم المطلوب، هى تلك الجهالة المطبقة بحقيقة لا إله إلا الله!

ذلك أن المسلمين لا يتحركون فى فراغ . . إنما يتحركون فى وسط عداوات عالمية ومحلية قد تكون- فى حجمها- أضخم عداوة فى التاريخ!

وأعداء الإسلام يستغلون هذه الجهالة على أوسع نطاق فى محاربة الحركات الإسلامية . .

فهم يقيمون فى البلاد الإسلامية أنظمة للحكم لا تحكم بما أنزل الله، بل تحارب الحكم بما أنزل الله والداعين إليه، ثم يضفون- بوسائل الإعلام المختلفة- شرعية كاملة على هذه النظم، فتتقبلها الجماهير تقبلا« طبيعيا» بسبب جهلها العميق بحقيقة لا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله!

ثم هم يقيمون حاجزا من النفور بين الناس وبين الحركات الإسلامية حين يقولون لهم: هل تظنون أن هؤلاء يعملون من أجل الإسلام؟! إنهم يعملون من أجل الوصول إلى الحكم، ولكنهم يتسترون وراء الدين! والتستر وراء الدين بالذات صورة كريهة تنفر الناس وتبعدهم عن الطريق!

وقد درجت الجماهير على السلبية التامة فى قضايا السياسة وقضايا الحكم، فلا يهمهم كثيرا من الذى يسعى إلى الحكم ومن الذى يصل إليه! ولكنهم حينئذ كما يقول المتنبى:

الناس من يلق خيرا قائلون له * ما يشتهى . . ولأم المخطئ الهبل!

أى أنه إذا وصل المسلمون للحكم فستصفق لهم الجماهير! أما إذا فشلوا فهم حينئذ يستحقون ما أصابهم! فلماذا كانوا يتعرضون للسلطان؟! هل كانوا يتصورون أن القائمين فى الحكم سيسلمون لهم بمجرد أن يطلبوا منهم التخلى عن السلطة؟! لابد أن

يتمسك القائمون فى الحكم بما فى أيديهم من السلطة، ولابد أن يضربوا من يتعرض لسلطانهم!

وهكذا تتميع القضيه تماما، ويتساوى فى نظر هذه الجماهير كل الساعين إلى السلطة وكل الواصلين إليها، دون اعتبار« للحق» و«الباطل» كما حددهما دين الله، ودونما نظر إلى « الشرعية » فى الإسلام : أهى للذى يحكم بما أنزل الله، أم للذى يحكم بغير ما أنزل الله، ويتأخر - بهذا التميع - تكوّن «القاعدة المسلمة» التى ترفض كل حكم غير حكم الله، لأنه حكم جاهلى لم يأذن به الله:

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟!﴾ (١)

﴿أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؟﴾ (٢)

ثم يترتب على هذه الجهالة أمر آخر، أشد خطورة على الحركة الإسلامية من هذا التميع الذى يؤجل النضج اللازم لنشأة « القاعدة المسلمة» . .

إنه يتيح للطاغية دائما أن ينفرد بالجماعات الإسلامية فيضربها بوحشية بالغة . . يضربها ضرب إبادة . . وهو آمن من غضبة شعبية تكف يده عن التقتيل والتعذيب والتشريد، كما حدث عند مقتل الإمام الشهيد، وكما حدث عند المذابح الوحشية التى أقامها السفاح، وقتل فيها أئمة الجماعة وقادتها من أجل القضاء المبرم عليها . . وكما يمكن أن يحدث مرات ومرات!

ولنتصور الأمر- كان- على غير هذه الصورة . .

نتصور الجماهير فهمت المعنى الحقيقى للا إله إلا الله، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله، كما بين الله فى كتابه المنزل، وكما علم الرسولﷺ أصحابه، وكما وعت الجماهير المسلمة خلال ثلاثة عشر قرنا من الزمان

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾ (٣) .

﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون﴾(٤)

---

(١) سورة المائدة [٥٠]   (٢) سورة الشورى [٢١]   (٣) سورة النساء [٦٥].

(٤) سورة النور [٤٧ - ٤٨].

﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا. وأولئك هم المفلحون﴾ (١).

نتصور أن الجماهير أدركت جيدا أن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا حكم بما أنزل الله، وتحاكم إلى شريعة الله، أو بعبارة الإمام الشهيد (٢): « أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما (٣)، وأدى الفرائض»..

فكيف يكون الحال!

هل يمكن حينئذ للطاغية أن يقتل الدعاة ويعذبهم ويشردهم وهو آمن من غضبة الشعب المسلم عليه؟!

ولسنا نتوهم أن الفهم الحقيقى للا إله إلا الله سيقلب الشعب كله بين يوم وليلة إلى مجاهدين من أولى العزم، لا يبالون بالأخطار التى تتهددهم وهم قائمون ينافحون عن شريعة الله، ويذودون عنها كل معتد أثيم!

كلا! ما يتوهم ذلك أحد!

---

(١) سورة النور [٤٧ـ٤٨]. (٢) سورة النور [٥١].

(٣) جاء فى رسالة التعاليم، فى البند العشرين: « لا نكفر مسلما أقر بالشهادتين، وعمل بمقتضاهما، وأدى الفرائض، برأى أو معصية.. إلخ» انظر: « مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا» المشار إليها آنفا ص ٣٥٩.

(٤) العمل بمقتضاهما هو الحكم بما أنزل الله فى كل أمور الحياة. وهو شرط الإيمان الذى لا يقوم الإيمان بغيره:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت، ويسلموا تسليما﴾ [سورة النساء: ٦٥] وهنا تعرض مسألة يختلط أمرها فى أذهان بعض الناس، وهى المعصية. فإجماع الأمة أن المعصية لا تخرج صاحبها من الإيمان بينما هى عمل مخالف لما أنزل الله. ولا تناقض فى الحقيقة بين الأمرين. فمرتكب المعصية حين يقر بأنها معصية فهو يحكم عليها بما أنزل الله، ويزنها بميزان الله، وإن خالف أمر الله فيها شهوة أو هوى. ولذلك لا يخرج من دائرة الإيمان. أما حين يستحلها فهو يحكم فى شأنها بغير ما أنزل الله، ويزنها بغير ميزان الله، ولذلك يكفر. بل هو يكفر بهذا الاستحلال ولو لم يأت العمل المنهى عنه. ذلك أنه ـ وإن لم يرتكب بجوارحه ذلك العمل ـ فقد أتى بعمل من أعمال القلب يخرج صاحبه من الإيمان، هو اتخاذ نفسه ندا لله سبحانه وتعالى، يحل ويحرم من عند نفسه بغير إذن من الله، والله وحده هو صاحب الأمر فى التحليل والتحريم، والإباحة والمنع، بمقتضى كونه هو الخالق وحده سبحانه: « ألا له الخلق والأمر » [سورة الأعراف: ٥٤]. وهذا هو الذى يفسر كون المعصية فى حد ذاتها لا تخرج من الإيمان إلا أن يستحلها صاحبها، أى يعطيها حكما مخالفا لحكم الله. ومع ذلك فهناك إجماع من الأمة على أن هناك أعمالا بعينها لا يسأل صاحبها عما فى قلبه، وهل هو مستحل لها أم غير مستحل، لأنها دالة بذاتها على الكفر، كالسجود إلى الصنم، وإهانة كتاب الله، وسب الرسول صلى الله عليه وسلم، وموالاة أعداء الإسلام، والتحليل والتحريم من دون الله، أى التشريع بغير ما أنزل الله.

ولكنه- على أقل تقدير- سيجعل تكوين « القاعدة المسلمة » أيسر بكثير ، وأقرب بكثير، من خطها الحالى الذى تواجه فيه وحشية الطغاة بغير سند من الجماهير، بينما الطغاة -فى إجرامهم الوحشى- يتدرعون بجهالة الجماهير!

من أجل ذلك كان التركيز على هذه القضية أمرا بالغ الأهمية بالنسبة للصحوة الإسلامية، وكانت هذه القضية هى نقطة البدء التى لابد من البدء بها لتكوين« القاعدة المسلمة» . وكل بدء من غير هذه النقطة الرئيسية يعوق السير، ويطيل الطريق!

ولئن كان هذا لم يكن واضحا تماما فى مبدأ الطريق، أو كان خافيا وراء الحماسة العاطفية للجماهير، فقد اتضح فى حس الإمام الشهيد فى أيامه الأخيرة على ضوء الخبرة الواقعية، كما يبدو ذلك واضحا متبلورا فى هذا المقال الذى ننقله بنصه كاملا من جريدة« الإخوان المسلمون» اليومية (العدد ٦٢٧ السنة الثالثة بتاريخ الأحد ٧ رجب ١٣٦٧ ، ١٦ مايو سنة ١٩٤٨) بعنوان « معركة المصحف- أين حكم الله؟» ، وتوقيع« حسن البنا» :

﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما﴾ [سورة النساء : الآية ١٠٥].

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم، واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله عليك، فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ [سورة المائدة : الآيتان : ٤٩ ، ٥٠] .

﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ [سورة النور : الآية٥١].

الإسلام دين ودولة ما فى ذلك شك. ومعنى هذا التعبير بالقول الواضح أن الإسلام شريعة ربانية جاءت بتعاليم إنسانية وأحكام اجتماعية، وكلت حمايتها ونشرها والإشراف على تنفيذها بين المؤمنين بها، وتبليغها للذين لم يؤمنوا بها إلى الدولة، أى إلى الحاكم الذى يرأس جماعة المسلمين ويحكم أمتهم. **وإذا قصر الحاكم فى حماية هذه الأحكام لم يعد حاكما إسلاميا. وإذا أهملت الدولة هذه المهمة لم تعد دولة إسلامية. وإذا رضيت الجماعة أو الأمة الإسلامية بهذا الإهمال ووافقت عليه لم تعد هى الأخرى إسلامية...، مهما ادعت ذلك بلسانها. وإن من شرائط الحاكم المسلم أن يكون فى**

نفسه متمسكا بفرائض الإسلام بعيدا عن محارم الله غير مرتكب للكبائر . وهذا وحده لا يكفى فى اعتباره حاكما مسلما حتى تكون شرائط دولته ملزمة إياه بحماية أحكام الإسلام بين المسلمين ، وتحديد موقف الدولة منهم بناء على موقفهم هم من دعوة الإسلام .

هذا الكلام لا نقاش فيه ولا جدل ، وهو ما تفرضه هذه الآيات المحكمة من كتاب الله . ولقد كانت آيات النور صريحة كل الصراحة ، واضحة كل الوضوح فى الرد على الذين يتهربون من الحكم بما أنزل الله ، وإخراجهم من زمرة المؤمنين ، فالله تبارك وتعالى يقول فيهم :

﴿ ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا، ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أولئك بالمؤمنين. وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون. وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين. أفى قلوبهم مرض أما ارتابوا، أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله. بل أولئك هم الظالمون. إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأولئك هم المفلحون﴾ . كما جاءت آيات المائدة تصف المهملين لأحكام الله بالكفر والظلم والفسق فتقول :

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾﴿الظالمون﴾ ﴿الفاسقون﴾ ثم تقول :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون﴾ .

ولا يكفى فى تحقيق الحكم بما أنزل الله أن تعلن الدولة فى دستورها أنها دولة مسلمة ، وأن دينها الرسمى الإسلام ، أو أن تحكم بأحكام الله فى الأحوال الشخصية وتحكم بما يصطدم بأحكام الله فى الدماء والأموال والأعراض ، أو يقول رجال الحكم فيها إنهم مسلمون سواء أكانت أعمالهم الشخصية توافق هذا القول أم تخالفه . لا يكفى هذا بحال . ولكن المقصود بحكم الله فى الدولة أن تكون دولة دعوة ، وأن يستغرق هذا الشعور الحاكمين مهما علت درجاتهم والمحكومين مهما تنوعت أعمالهم . وأن يكون هذا المظهر صبغة ثابتة للدولة توصف بها بين الناس ، وتعرف بها فى المجامع الدولية ، وتصدر عنها فى كل التصرفات ، وترتبط بها فى القول والعمل .

فى العالم دولة اسمها الاتحاد السوفيتى ، لها مبدأ معروف ولون معروف ومذهب معروف ، نحن لا نأخذ به ولا ندعو إليه ، ولكنا نقول إن هذه الدولة عرفت بلونها هذا بين الناس وفى المجامع الدولية ، وهى ترتبط بمقتضياته فى كل تصرفاتها وأقوالها

وأعمالها. وقد أرادت إنجلترا وأمريكا تقليدها فادعتا أنهما تصطبغان بالدعوة إلى شيء اسمه الديمقراطية، وإن اختلف مدلوله بمختلف المصالح والمطامع والظروف والحوادث.

فلماذا لا تكون مصر- وهي دولة مستقلة وذات سيادة- معروفة في المجامع الدولية بتمسكها بهذه الصبغة الإسلامية وحرصها عليها ودعوتها إليها وارتباطها بها في كل قول أو عمل؟ ذلك هو أساس الحكم بما أنزل الله. ومتى وجد هذا المعنى، وارتبطت الدولة بهذا الاعتبار، واصطبغت بهذه الصبغة، فستكون النتيجة ولا شك تمسك الحاكمين بفرائض الإسلام واتصافهم بآدابه وكمالاته، فيتحقق حكم الله فرديا واجتماعيا ودوليا وهو المطلوب.

أين نحن من هذا كله؟

الحق أننا لسنا منه في شيء. وكل حظنا منه نص المادة ١٤٩ من الدستور، ثم ما بقي في نفوس هذا الشعب من مشاعر وعواطف وتقدير وأعمال وعبادات. أما الحكومة والدولة ففي واد آخر.

يا دولة رئيس الحكومة أنت المسئول بالأصالة.. ويا معالي وزير العدل أنت المسئول بالاختصاص.. ويا نواب الأمة وشيوخها أنتم المسئولون باسم أمانة العلم والتبليغ التي أخذ الله عليكم ميثاقها.

« ويا أيتها الأمة أنت المسئولة عن الرضا بهذا الخروج عن حكم الله، لأنك مصدر السلطات».

« فناضلي حكامك وألزميهم النزول على حكم الله، وخوضي معهم معركة المصحف، ولك النصر بإذن الله».

حسن البنا

* * *

نعم، لقد اتضح الأمر في حس الإمام الشهيد في أيامه الأخيرة، ولكنه لم يُمهَل حتى يرسّخ هذا المعنى في قلوب أتباعه كما أشرنا من قبل، فظل هذا المعنى غير واضح في نفوسهم، ولا تبدو آثاره في تخطيطهم وتحركهم وأفكارهم.

تلك هي النقطة الأولى التي تحدثنا عنها بالنسبة للبناء الذي أقامه الإمام الشهيد.

أمـا النقطة الثـانيـة، وهـى تقـدير حـقيـقـة المعركـة التى لابد أن تخـوضـهـا الصـحـوة الإسلامية- رضيت أم أبت - مع أعداء الإسلام، وتقدير النوعية المطلوبة لها، والجهد اللازم لإعدادها، والزمن المقدر لتهيئتها . . فلا نستطيع أن نعلم بالضبط ماذا كان يدور فى ذهن الإمام الشهيد بشأنها، وقد عوجل- رضوان الله عليه- بالقتل وهو فى شبابه لم يزل، وهو فى أول الطريق؛ ولكنا نلحظ- كـمـا قلنا- أنه قـد حـدث تعـجل فى الإعداد، وتعجل فى الحركة، كانت له آثاره فيما بعد.

إن المعركة فى حقيقتها ليست معركة محلية بين الجماعات الإسلامية وبين الطاغية الذى يقوم بتقتيلها وتعذيبها وتشريدها ومحاولة القضاء عليها . كما أنها ليست معركة سريعة تتم فى جولة أو بضع جولات. إنهـا مـعـركـة تشارك فـيـهـا وتشـرف عليـهـا، وتوجهها الصليبية العالمية، والصهيونية العالمية، بالتحالف مع كل أعداء الإسلام!

قالت إحدى الصحف البريطانية أيام العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦م:

« لقد أيدنا جمال عبد الناصر حين قام بحركته عام ١٩٥٢، على أساس أنه أتاتورك جديد قوى جاء ليحارب الشيوعية برفع مستوى المعيشة، ويقر السلام فى الشرق الأوسط بالصلح مع إسـرائيل [١]. ولكنه اختار الحرب على السلام [٢]. ونـحـن مـسـتـاءون منه من أجل ذلك. ولكن ينبـغى ألا ننسى أنه هو الذى سـحق الإخـوان المسلمين المتعصبين» .

"But we should not forget that it was he who crushed the fanatic Moslem Brotherhood".

وقالت أنديرا غاندى فى حديث صحفى لها مع إحدى المجلات الأمريكية عام ١٩٦٨:

---

(١) هذا هو البرنامج الثلاثى، أو « ورقة العمل» التى جىء بجمال عبد الناصر ليقوم بتنفيذها، وقد بذل كل جهده بالفعل لتنفيذها. فأتاتورك مهمته بالطبع معروفة وهى القضاء على الإسلام . وإشارة الصحيفة ذات مغزى، فأتاتورك الأول كانت مهمته القضاء على الإسلام فى اسطنبول، مركز القوة السياسية والعسكرية للعالم الإسلامى، وأتاتورك الثانى- جمال عبد الناصر- مهمته القضاء على الإسلام فى القاهرة، مركز الإشعاع الروحى والثقافى للعالم الإسلامى. ومحاربة الشيوعية تقلبت بها الوسائل وانتهى بها الأمر إلى تطبيق الاشتراكية لتكريه الناس فى الشيوعية كما جاء فى كتاب « والت روستو» اليهودى الأمريكى: « مراحل التنمية الاقتصادية فى البلاد المتخلفة». والصلح مع إسرائيل مهد له جمال عبد الناصر بكل ما فى وسعه، ولكنه هلك قبل أن يتم التنفيذ، فجاء خلفه « العظيم»! ليتمم مكارم الأخلاق!!

(٢) تشير الصحيفة بذلك إلى تأميم قناة السويس.

« إننا نحب جمال عبد الناصر ونؤيده لأنه قضى على الإخوان المسلمين المتعصبين» !

وكان أصدقاؤه المقربون كلهم من أعداء الإسلام : الأب مكاريوس الذى كان يقوم بتذبيح المسلمين فى قبرص بتأييد الأمم المتحدة ، وتأييد جمال عبد الناصر ! وتيتو اليهودى الذى قام بذبح ثلاثة أرباع مليون مسلم فى يوغسلافيا . وأنديرا غاندى ، التى كانت تشرف على تذبيح المسلمين فى الهند وتحريقهم أحياء ، ثم معاقبتهم « رسميا » بعد ذلك بحجة أنهم هم الذين يثيرون الشغب فى البلاد . وهيلاسلاسى الذى خطب فى الأمم المتحدة عام ١٩٦١ خطبة قال فيها : إنه بعد اثنى عشر عاما لن يكون فى الحبشة إلا دين واحد ! أى أنه يعلن رسميا عزمه على إبادة ٦٥٪ من سكان الحبشة المسلمين ، أو طردهم خارج البلاد !

وكانت الدعاية العالمية - الصليبية الصهيونية الشيوعية الرأسمالية . . . إلخ [١] - التى أضفت عليه « البطولات » الخرافية ، تقوم بتغطيته وهو يلغ فى دماء المسلمين . . وكلما أوغل فى إراقة الدم وفى التعذيب الوحشى ، زاد الدوى الإعلامى العالمى ، ترحيبا بالصديق الحبيب ، الذى يقضى لهم على الخطر المرهوب !

وجاءت « لجنة حقوق الإنسان » ! فزارت السجون الحربية عام ١٩٥٥ م فى أوج المعمعة الدائرة لتعذيب المسلمين بالوسائل الوحشية ، وحضرت مهزلة المحاكمات التى كان يشرف عليها أعوان السفاح ، ثم قدمت تقريرا قالت فيه إن المحاكمات تجرى حسب الأصول القضائية الصحيحة ، وفى جو من الحرية التامة !!!

وتلك مجرد نماذج عابرة من العداوات العالمية المرصودة ضد الإسلام !

والمعركة التى تخوضها الجماعة المسلمة - رضيت أم أبت - مع هذه العداوات كلها ليست معركة سهلة ولا قريبة ، وتحتاج إلى نوعية خاصة وإعداد خاص ، لا ينظر فيه إلى « الزمن » الذى يمكن أن يستغرقه الإعداد . .

بل إن هذه العداوات المحددة المركزة كلها - على ضراوتها وعنف خصومتها - ليست هى العداوات الوحيدة التى تواجهها الصحوة الإسلامية ، فهى تواجه - مع هذا كله - عداوة « الجاهلية » فى كل الأرض ، بما فيها الأرض الإسلامية ذاتها ، التى تسربت إليها الجاهلية ومسخت كيانها ، منذ أتاح التخلف العقدى الذى وقع فيه المسلمون

---

(١) اشتركت جميع أجهزة الإعلام العالمية التى يسيطر عليها اليهود فى إضفاء صفات البطولة الخارقة على السفاح إمعانا فى تغطية دوره الحقيقى .

المجال لأعداء الله أن ينفذوا إلى العالم الإسلامى ويسيطروا عليه، فينحوا عنه شريعة الله، ويبثوا فيه أفكار الجاهلية المعادية للدين. . وإن هذه الجاهلية لتتخذ نظما للحكم، ومناهج للفكر، ومناهج للتعليم، ووسائل للإعلام، وأنماطا للسلوك الواقعى. . تقف كلها موقف العداء الشديد من « الدين» وموقف العداء الأشد من «الإسلام». .

والصحوة الإسلامية- رضيت أم أبت- تتعرض لعداوة هذه الجاهلية فى كل خطوة من خطواتها، وكل تحرك من تحركاتها، إن بالتقتيل والتعذيب والتشريد، وإن بالتسخيف والترذيل، وإن بالصد والتنفير. . وبكل وسيلة من وسائل الصد والتنفير! وهى تحتاج - فى مقابل ذلك- إلى نوعية فريدة لتواجه ذلك العداء كله وتصبر عليه. . نوعية ذات وعى سياسى فائق، ووعى فكرى متعمق، يحيط بما حول المسلمين من عداوات، وبطبيعة المعركة، ووسائل الحرب المتبعة فيها، والأدوات اللازمة لمواجهتها. . وتدرك- فوق ذلك- أن المعركة ليست ذات صبغة محلية محدودة، وليست معركة جيل واحد، بل معركة أجيال متعاقبة، سواء بسبب العداوات المرصودة من الخارج، أو بسبب الجهل العميق بحقيقة الإسلام، الذى يعوق نشأة « القاعدة المسلمة». . وأنها من أجل ذلك فى حاجة إلى النفس الطويل الذى لا يتعب من طول الطريق. .

ولقد كان الجيل الذى رباه الإمام الشهيد جيلا فائقا من ناحيتين اثنتين على الأقل: الروح الفدائية العالية، المستعدة للموت فى سبيل الله، الناذرة نفسها نذرا كاملا للدعوة ومطالبها؛ وروح الأخوّة العميقة التى تربط بين الإخوة فى الله. .

وكان هذا جهدا ضخما بذله الإمام الشهيد من وقته وجهده وروحه ودمه، لم يكن غيره قادرا عليه، ولا كان غيره يملك الموهبة اللازمة لأدائه. .

ولكن ذلك الجيل- برغم ذلك - كان مفتقرا إلى كثير من الوعى السياسى، الذى يدرك به أن الخوض فى القضايا السياسية القائمة فى وقته ليس هو مهمة الجماعة المسلمة الأصيلة، إنما مهمتها الأصيلة بيان المنهج الإسلامى الذى يصحح الأمور، ويبين أن الفساد ناجم من عدم اتباع المنهج الربانى فى كل أمر من الأمور. . ويدرك به أن تغيير حاكم فى أى بقعة من بقاع العالم الإسلامى لن يغير شيئا فى الموقف، طالما لم

توجد بعد « القاعدة الإسلامية » التى تقيم الحكم الإسلامى ، ثم تحميه حين يقوم . . لأن كل حاكم يتغير يأتى بعده حاكم جديد ، يقوم بذات المهمة الموكولة إليه فى حرب الإسلام والمسلمين ، وإن تغيرت الأدوات وتغيرت الأساليب . .

وكان مفتقرا إلى كثير من الوعى الفكرى ، الذى يدرك به الوسائل الخفية والظاهرة التى استخدمها الأعداء ويستخدمونها لصرف المسلمين عن الإسلام ، فى مناهج التعليم مرة ، ووسائل الإعلام مرة ، وقواعد التفكير مرة . . وأن من بين هذه الوسائل الخفية استدراج الصحوة الإسلامية إلى قضايا فرعية ومعارك فرعية يستنفدون فيها جهدهم ، ويستهلكون فيها طاقتهم ، وينصرفون بها عن مهمتهم الرئيسية فى إنشاء «القاعدة المسلمة» بالمواصفات المطلوبة ، على الزمن المديد ، دون استعجال فى الزمن ولااستعجال فى البناء . .

وكان مفتقرا إلى النفس الطويل فى المواجهة ، الذى يصمد للضربة تلو الضربة دون أن يتعب من الصراع . . وقد كان يبدو عجيبا لأول وهلة أن ينهار قوم فى المعتقلات والسجون ، وهم المؤمنون الصادقون ، وهم الفدائيون المخلصون . . لا لنقص فى إيمانهم ، ولا لنقص فى فدائيتهم . . ولكن لأن أعصابهم كانت « مضبوطة» على زمن محدد ، يتخيلون فيه تحقق النصر ، والتمكين للإسلام ، والقضاء على الأعداء . . فلما ضُربوا بدل أن يضربوا ، وتوالى عليهم الضرب بدلا من التمكين ، تعبت الأعصاب المشدودة ، المضبوطة على الوقت القصير ، وانصرف كثيرون عن الدعوة إلى غيرها من الأمور ، أو دخلوا بالدعوة فى منعطف مبتعد عن الطريق ! [1] .

* * *

والآن فلننظر إلى واقع الصحوة الإسلامية بعد ما يزيد قليلا على نصف قرن منذ بدأها الإمام الشهيد . .

هناك ظاهرتان على الساحة : إحداهما تدعو إلى التفاؤل ، والأخرى تثير الأسى فى نفوس الدعاة المخلصين .

---

(١) يأتى ذكر بعض المنعطفات عرضا فى أثناء الحديث . .

الأولى: هى اتساع القاعدة، واتجاه مزيد من الشباب إلى الإسلام، بحيث يصح أن يقال إن الإقبال على الإسلام أصبح تيارا ذاتيا عند الشباب، لا يرتبط بالضرورة بنشاط جماعة معينة، أو بوجود جماعة معينة، إنما ينبعث تلقائيا فى نفوس الشباب. . والثانية هى تبعثر العمل الإسلامى وتفرقه، وكثرة الجماعات التى تعمل فى الساحة، وتناقضها وتنابذها، وانتقاد كل واحدة منها لسائرها، وادعاؤها أنها وحدها على الحق، وبقية الجماعات على ضلال!

والظاهرتان قد وجدتا- بقدر من الله- معا فى وقت واحد مع اختلافهما فى الاتجاه! ولكن هناك أسبابا متواكبة هى التى أدت إلى هذا الوضع.

فاتساع القاعدة يرجع- من جانب- إلى جهود الدعاة العاملين فى حقل الدعوة، ويرجع - من جانب آخر - إلى المذابح المتوالية الذى يقيمها أعداء الإسلام للمسلمين! وتلك سنة يغفل عنها دائما أعداء الإسلام، مع تكررها دائما مع الأيام: أن الدعوة التى يقدم لها الدم لا تموت! والأعداء- من حنقهم- لا يستطيعون أن يمنعوا أنفسهم من التقتيل والتعذيب والتشريد، ظنا منهم فى كل مرة أن هذا هو الذى يقضى على الدعوة، فينفذ قدر الله من خلال أعمالهم، وتتسع القاعدة مع كل نقطة دم تراق، ومع كل سوط يلهب الظهور. . واستشهاد رجل واحد موصول القلب بالله، يصنع الله به للدعوة ما لا تصنعه ألوف الخطب، وألوف الكتب، وألوف المحاضرات. . ولكن الظالمين لا يعلمون.

أما تبعثر العمل الإسلامى فله أسباب عدة. .

السبب الأول- والأظهر- : هو غياب القيادة الكبيرة التى تطمئن لها النفوس، وتنقاد لها طائعة بدافع الحب والتقدير والثقة والاحترام، فيلتئم حولها الشمل، وتجتمع حولها القلوب. .

ووجود القيادة الكبيرة لا يحل كل مشاكل التجمع. . فهناك دائما نفوس مريضة لا تنقاد إلا لشهواتها وأهوائها. . وقيادة رسول الله ﷺ وهو النبى المرسل، وهو أعظم شخصية فى تاريخ البشرية كله قد أثارت حقد عبد الله بن أبى وجعلته ينشق عن الصف! وعلى المستوى البشرى تعتبر قيادة الإمام الشهيد من القيادات الكبرى فى التاريخ، ولم يمنع وجودها من حدوث انشقاقات داخل الجماعة وتحزبات. .

ولكن وجود القيادة الكبيرة يقلل كثيرا دون شك من مشاكل التجمع، لأنه يجمّع

النفوس المخلصة التى لا تعمل من أجل الظهور والمجد الشخصى، وتجمّع الجنود. . والجنود غالبا ما يكونون مخلصين متجردين من الأهواء. .

وفى غياب مثل هذه القيادة تتولد زعامات صغيرة شابة تنقصها الخبرة، وكثيرا ما يختلط فى نفوسها الإخلاص للدعوة والإخلاص للذات، من مدخل من مداخل الشيطان هو اعتقاد كل واحد منهم أنه على حق، وأن اتباع الحق يستوجب اتباع من يمثله! أى اتباعه هو! ومن ثم تتناحر هذه الزعامات وتتناطح، ويقول كل منها: على فلان وجماعته- إذا أرادوا- أن يأتوا إلى، ويتبعونى! أما أنا فلا أذهب إليه، ولا أتبعه، لأنه ليس على الحق!

والسبب الثانى: أن معظم الشباب المقبل على الدعوة اليوم لم يترب فى داخل جماعة واحدة ذات قيادة منظمة، لغياب القيادات العاملة داخل السجون والمعتقلات، إنما تربى على الكتب. . على القراءة. . والقراءة وحدها لا تكفى!

إن العمل الإسلامى لابد له من قيادة: تقوده، وتعلمه، وتربيه. .

ولو كان الله يعلم أن النفوس- التى خلقها بعلمه سبحانه- تكفيها الكتب، فقد كان الله قادرا على أن ينزل القرآن كله جملة فى قرطاس، ويعلم الناس قراءته!

ولكن الله الذى خلق هذه النفوس- وهو العليم بها سبحانه- يعلم أن الحق لا يعمل عمله فى النفوس إلا أن يتلقاه قلب من قلب، ومتعلم من معلم، ومتلق من موجه. . لذلك أرسل الله رسوله ﷺ ليكون هو المعلم والموجه، ويكون هو القلب العظيم الذى تتلقى منه سائر القلوب.

والشباب كان يملك الحماسة والرغبة، ولكنه فى وقت من الأوقات لم يكن يملك إلا كتبا يقرؤها، فتفرقت به السبل!

إن من شأن العقول أن تختلف على دلالة النص الواحد، وإن كان قطعى الثبوت وقطعى الدلالة! فما البال إن كانت النصوص المتداولة غير قطعية الدلالة، وما البال إن كان بعضها غير قطعى الثبوت؟!

لقد نجم الخلاف طبيعيا- وإن كان غير مرغوب فيه- مع نشأة هذا الشباب على قراءة الكتب، بلا مرشد يرشد، ولا معلم يعلم، ولا قائد يقود!

وهى ظاهرة سيئة بلا شك. فالمفروض أن يتجمع العمل الإسلامى ولا يتفرق، لأن

الفرقة لا تخدم أحدا إلا الأعداء . . ولكنها- كما أقول دائما- مشكلة ليس لها حل سحرى! وأقصد بالحل السحرى الحل السهل السريع، الذى يتم دون معاناة! ومعظم مشكلات العمل الإسلامى هو من هذا النوع الذى ليست له حلول سحرية! إنما حله هو المعاناة ، والصبر على المعاناة، وبذل الجهد الدائم بلا توقف، مع الإخلاص فى القصد:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اصبروا، وصابروا، ورابطوا، واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾(١) .

ولكنى- مع ذلك- لا أنزعج كثيرا من هذه الظاهرة على ما فيها من سوء، لأنى أنظر إليها على أنها من حصيلة الماضى أكثر مما هى مؤشر للمستقبل.

من حصيلة الصحوة بعد الغفوة الطويلة . .

فحين يهب الناس من الغفوة الطويلة، ويدركون ما أصابهم، ويحاولون الخلاص، وفى غيبة المرشد الذى تطمئن القلوب إليه وتنقاد له، يمكن أن يحدث اختلاف وجهات النظر. فهذا يرى طريق الخلاص من هنا، وذاك يراه من هناك، وثالث يرى غير هذين . .

ولكن من خلال التجربة . . من خلال المعاناة . . يتضح رويدا رويدا أى الطرق أصح، وأيها قمين بالوصول.

ولا ينبغى للحظة واحدة أن ننسى أنه ليس البشر هم الذين يدبرون! إنما هو الله سبحانه . . وهذه دعوته . . وهو المتكفل بها، وهى دائما فى رعايته . . وهو سبحانه الذى تكفل بأن يميز صفها، وينقى خبثها . .

﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب...﴾(٢) .

فهو سبحانه لا يترك الصف مختلطا فيه الطيب والخبيث. وهو لا يطلع الناس على غيبه فيقول لهم سلفا: هذا طيب وهذا خبيث. . ولكنه يدخل المؤمنين فى اختبارات وابتلاءات يتميز بها الطيب من الخبيث، فى الوقت الذى يتمحص فيه المؤمنون ويتجردون لله . .

---

(١) سورة آل عمران [٢٠٠].
(٢) سورة آل عمران [١٧٩].

فمن خلال التجربة . . ومن خلال المعاناة . . سيعرف الناس أى هذه الدعوات المتناحرة أكثر إدراكا لحقيقة الإسلام الشاملة ، وأيها أصح تحركا بهذا الإدراك الشامل ، وأيها أكثر تجردا وإخلاصا لله . . وينقى الله الخبث وينفيه :

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض﴾(١) .

أما القيادة الكبيرة ، المطلوبة - دائما - للعمل الإسلامى ، فهى هبة ربانية لا تصنع ! فليس هناك مصنع نستطيع أن نوصيه بأن يصنع لنا القيادة المطلوبة خلال فترة معينة من الزمن ! ولكنْ هناك الموهبة الربانية ، وهناك المصنع الربانى وهو الاختبارات والابتلاءات التى تمحّص المؤمنين ، وتبرز - من بينهم - من هو أصلح للقيادة والتوجيه . . إنما علينا نحن واجب نتقدم به بين يدى الله ، لنطمع أن يستجيب لنا حين ندعوه أن يبرز لنا القائد المطلوب ، هو أن نخلص النية له سبحانه ، ونخلص العمل ، فيستجيب الله للدعاء :

﴿وقال ربكم ادعونى أستجب لكم﴾ (٢) .

وقال رسول الله ﷺ للرجل الذى قال له : ادع لى يارسول الله أن أكون رفيقك فى الجنة ، قال : أعنّى بكثرة السجود ! (٣) .

وإذا كان هناك اليوم شباب لا يثقون بقيادة من يرونه أمامهم من الشيوخ ، وكانوا - بعد - لم يفرزوا قيادتهم الخاصة التى يرضون بقيادتها ، وتطمئن قلوبهم إليها ، فليس هذا وضعا دائما ، مزعجا كما يبدو فى هذه اللحظة ، إنما هو مرحلة عابرة ، يغيّر الله بعدها للناس ، حين يغيّرون ما بأنفسهم ، ويَخْلصون من حظ أنفسهم ، ويتجردون لله .

ولنحاول فى الصفحات التالية أن نستعرض أهم نقط الخلاف التى نجمت فى الحركات المعاصرة ، وإن كنت أحب - قبل ذلك - أن ننتبه إلى مسألة مهمة فى هذا الشأن . .

إن تصحيح المفاهيم وتصحيح المنهج أمر ضرورى للحركة الإسلامية دون شك . وما تستطيع الحركة أن تثمر ثمرتها المرجوة إن لم تعرف الطريق الصحيح وتتوجه إليه . .

---

(١) سورة الرعد [١٧] . (٢) سورة غافر [٦٠] . (٣) أخرجه مسلم .

ولكن محاولة التصحيح بالتنابذ والفرقة ، والتدافع بالمناكب ، والجدل الدائم الذى يحاول فيه كل فريق تسفيه الآخرين وتجريحهم والنيل منهم . . كل ذلك جهد ضائع بلا ثمرة ، إلا الثمرة النكدة التى يتلقفها الشيطان !

إنما يكون التصحيح بالبيان الهادئ الهادف ، وإبراز الدليل الشرعى الذى تبنى عليه الأحكام ، مع التفقه فى دين الله ، قبل إصدار الحكم الذى يتشبث به صاحبه ويفاصل الناس عليه !

وحين لا نتعلق بذواتنا ، وحين يكون الحق أعز علينا من أنفسنا ، ويكون وصولنا إلى الحق عن تدبر ودراسة وبصيرة ، ستنجاب الغاشية ، وتتضح الرؤية ، ويستبين الطريق . . وهوما نعتقد أن الأمور ستصير إليه فى النهاية بعون الله وتوفيقه . .

* * *

تشعب الخلاف كثيرا بين الجماعات القائمة بالعمل فى حقل الدعوة . . ولكن ربما كانت أكبر قضيتين ثار بشأنهما الخلاف والجدل ، هما قضية الحكم على الناس ، وقضية المنهج الواجب اتباعه فى الفترة الراهنة . . ثم تجىء بعد ذلك قضايا أقل شأنا ، نتعرض لبعضها بعد الكلام عن هاتين القضيتين الرئيسيتين .

قضية الحكم على الناس

شغلت هذه القضية أكبر مساحة من الخلاف والجدل بين الفرق المختلفة . . وذهب فيها ناس إلى حد التطرف من الجهتين . فقال بعضهم : من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام! وقال آخرون : إن الأصل فى الناس اليوم هو الكفر ، ما لم يثبت عكس ذلك . الأولون يحكمون على الناس بالنية وحدها دون العمل ، والآخرون يحكمون بالعمل وحده بصرف النظر عن النية . . ووقف آخرون فى منازل مختلفة بين هذا الطرف وذاك .

وقد كان لى موقف قديم في هذه القضية [1] ، اقتنعت به بعد سنوات من التفكير الدائب فيها ، ومازلت مقتنعاً به إلى هذه اللحظة . . هو أن قضيتنا الأولى والكبرى ليست هى قضية الحكم على الناس ، إنما هى قضية تعليمهم حقيقة الإسلام . فلا ينبغى

---

(١) منذ سنة ١٩٦٥ .

أن تشغلنا تلك القضية أصلا ، ولا أن نجعلها محور ارتكازنا فى الدعوة ، ولا نقطة الشد التى نحاول أن نشد الناس إليها من هذا الطرف أو ذاك . إنما الأولى والأجدى والأكثر ثمرة أن ننصرف إلى تعليم الناس ما جهلوه من حقيقة الإسلام ؛ وإن تعليمهم هذه الحقيقة ، وتربيتهم على مقتضياتها ، هو العمل الحقيقى المثمر ، الذى يغير واقع الناس فى النهاية ، ويردهم إلى الجادة التى شردوا عنها خلال الأجيال ، وكان شرودهم عنها فى القرن الأخير خاصة هو الذى جر عليهم الوبال . .

إن الجهالة التى تعيش فيها الأمة بالنسبة لحقيقة الإسلام هى ـ كما بينا من قبل ـ العدو الأول للحركة الإسلامية ، والمعوق الأكبر للدعوة [1] ، وهى التى يستخدمها الأعداء أداة من أكبر أدواتهم لحرب الدعوة وتعويقها . .

لقد كان إفراغ لا إله إلا الله من محتواها الحقيقى ، وبالذات فصلها عن مقتضاها الأول ، وهو الالتزام بما جاء من عند الله ، وتحكيم شريعة الله . . هو الذى أتاح للعدو الصليبى الصهيونى تنحية الشريعة عن الحكم ، مع إيهام الناس أن إسلامهم لا يتأثر بذلك قيد شعرة . وأنهم حين يرضون بالقوانين الوضعية ، ويتحاكمون إليها عن قبول ورضى ، فمازالوا رغم ذلك مسلمين ، ماداموا يقولون لا إله إلا الله ! وهو الذى أتاح للعدو ـ بعد انسحاب عسكره من أراضى العالم الإسلامى ـ أن ينيب عنه فى الحكم حكومات من أهل البلاد ، تستمر فى تنحية الشريعة عن الحكم ، ومع ذلك تُضْفَى عليها فى حس الناس الشرعية الكاملة ، ويتقبلها الناس ـ بقوانينها الوضعية ـ دون أن يطالبوها بتحكيم شريعة الله . ثم هو الذى أتاح لعملاء العدو فى العالم الإسلامى أن يبطشوا بالدعاة بطشا ، ويبيدوهم إبادة ، وهم آمنون من غضب الناس عليهم ، ماداموا ينطقون بأفواههم لا إله إلا الله !

وإزالة هذه الجهالة ، وتعليم الناس حقيقة الإسلام ، وحقيقة الارتباط الذى لا ينفصم بين لا إله إلا الله ومقتضاها الأول ، وهو تحكيم شريعة الله ، ثم تربية الناس على هذه الحقيقة ، هو العمل المثمر المجدى ، الذى يغيّر أحوال الناس فى العالم الإسلامى ، ويردهم إلى الحقيقة الضائعة . فيردهم من ثم إلى أنفسهم وإلى دينهم ، فيمكن الله لهم حين يستوون على الشرط :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف

---

(١) راجع قول الإمام الشهيد فى رسالة «بين الأمس واليوم» : «سيقف جهل الشعب بالإسلام عقبة فى طريقكم» وقد سبقت الإشارة إليه .

الذين من قبلهم ، وليمكّنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا﴾ (١) .

ومن ثم ينبغى أن تنصرف جهود الدعاة إلى إزالة هذه الجهالة ، ولا تتشتت ولا تتناثر فى قضايا لا طائل وراءها كقضية الحكم على الناس !

إن الحكم على الناس بالإسلام أو الكفر ليس هو الذى سيحل القضية ، ولا هو الذى سيجعل الناس يغيّرون موقفهم ! فإنك إن قلت لهم - كما يقول الطرف الأول - من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام ، فلن يخرجوا من الخدر الذي يعيشون فيه ، والذى يخيّل إليهم أنهم قد استوفوا متطلبات الإسلام والإيمان ، وأن الجنة فى جيوبهم ولو لم يعملوا ! ولن يغيّروا - من ثم - شيئا من واقعهم البعيد عن حقيقة الإسلام! وإن قلت لهم - كما يقول الطرف الآخر - أنتم كفار بواقع عملكم ، مهما تكن نواياكم فى داخل نفوسكم ، فسينشغلون بالدفاع عن أنفسهم ، والبحث عن الأدلة الفقهية التى تجعلهم فى عداد المسلمين . ولن يغيروا - من ثم - شيئا من الواقع السيء الذى يعيشون فيه !

أما تعليمهم - دون التعرض للحكم عليهم فى الوقت الحاضر - فقد يكون هو الذى يصلح الأفكار والقلوب ، ويدعو الناس إلى تغيير ما بأنفسهم فيغير الله ما بهم كما بيّن سبحانه :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾ (٢) .

وتدفعنى إلى هذا الموقف - منذ وقفته - عدة اعتبارات ، مازال لها فى نفسى ثقلها ووجاهتها . .

الاعتبار الأول : أننى أشعر - بحق - بعد تدبر خط الانحراف الطويل كله ، وآثار الانحراف ، والغزو الفكرى ، وانزواء علماء الإسلام عن قيادة الأمة وتبصيرها بحقيقة دينها ، بل مشاركة بعضهم فى تضليل الأمة عن هذه الحقيقة وتعميتها عليها ، بالفتاوى المضللة حينا ، وبإضفاء الشرعية على ما لا شرعية له عند الله حينا آخر ، وإيهام الناس أن هذا من الاجتهاد المأذون به فى الإسلام . . (٣) .

---

(١) سورة النور [٥٥] . (٢) سورة الرعد [١١] .
(٣) مر بنا نموذج من ذلك فى فتوى الشيخ رشيد رضا فى الفصل السابق .

أقول : إننى أشعر بحق - بعد تدبر هذا كله - أننا اليوم فى مقام التعليم ، قبل التصدى لإصدار الأحكام على الناس . وأن هذا التعليم - لإزالة الغربة الثانية التى تحيط بالإسلام اليوم - يحتاج من الوقت والجهد شيئا غير قليل ، ولكنه فى النهاية هو الذى سيحسم القضية حسما كاملا ، فمن أبى وأصر - بعد البيان والتعليم - فهو الكافر بلا شبهة ، ومن أجاب الدعوة فهو المسلم بلا شبهة :

﴿وكذلك نفصل الآيات، ولتستبين سبيل المجرمين﴾ (١) .

﴿ ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حيّ عن بينة﴾ (٢) .

وقد يقول قائل - ممن يرون أن الأصل فى الناس اليوم هو الكفر ما لم يتبين غير ذلك - إن استجابة من يستجيب بعد البيان والدعوة لا تنفى عنه أنه كان مشركا قبل أن يستجيب . فقد قام رسول الله ﷺ بالبيان والتعليم ، فأبى من أبى وأجاب من أجاب ، ولكن استجابة من استجاب منهم لا تنفى عنه أنه كان مشركا قبل أن يستجيب . فمن حقنا إذن أن نحكم على واقع الناس اليوم بمثل ما حكم الله سبحانه على واقع الناس فى الجاهلية قبل الدعوة ، فنقرر أنهم مشركون ابتداء إلا من ظهر منه غير ذلك . .

والتشبيه هنا مع الفارق . .

فلم يكن فى تلك الجاهلية من يجهل حقيقة ماهو عليه ، وأنه يعبد مع الله آلهة أخرى ، عالما بها ، متوجها إليها ، معتقدا بألوهيتها مصرا على عبادتها . . كما لم يكن أحد منهم يجهل حقيقة ما يدعى إليه ، وهو نبذ هذه الآلهة كلها ، سواء عبدت لذاتها أو عبدت زلفى إلى الله ، والتوجه بالعبادة إلى الله الواحد الذى لا شريك له ، والتلقى من عند الله وحده ، ونبذ كل مصدر للتلقى أو للحكم سواه . .

وهذه الحالة من المعرفة ليست قائمة اليوم إلا عند قلة من الناس ، منهم الكافرون بلا شبهة ، لأنهم يرفضون وهم يعلمون ماذا يرفضون ، ومنهم المؤمنون بلا شبهة ، لأنهم يقبلون وهم يعلمون ماذا يقبلون (٣) . وهناك كثير من الناس تحيط بهم شبهة الجهل بحقيقة ماهو مطلوب منهم على وجه اليقين . وفى هذه الشبهة يقول الإمام ابن تيمية :

« لا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر . فمن

---

(١) سورة الأنعام [٥٥] . (٢) سورة الأنفال [٤٢] .

(٣) حسب ظاهرهم ، والقلوب أمرها إلى الله .

استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلا من غير اتباع لما أنزل الله فهو كافر . فإنه ما من أمة إلا وهى تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل فى دينها ما رآه أكابرهم . بل كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التى لم ينزلها الله ، كسواليف البادية، وكانوا هم الأمراء المطاعين ، ويرون أن هذا هو الذى ينبغى الحكم به دون الكتاب والسنة وهذا هو الكفر . فإن كثيرا من الناس أسلموا ، ولكن لا يحكمون إلا بالعادات الجارية التى يأمر بها المطاعون. فهؤلاء إذا عرفوا أنه لا يجوز لهم الحكم إلا بما أنزل الله ، فلم يلتزموا بذلك ، بل استحلوا أن يحكموا بخلاف ما أنزل الله فهم كفار»[1] .

ومن هنا لزم التعليم لإزالة هذه الجهالة قبل التصدى لإصدار الأحكام على الناس.

والاعتبار الثانى : أنه لا يمكن فى الحقيقة إصدار حكم واحد يشمل المجتمع كله . فالناس فى هذا المجتمع فئات كثيرة . منهم ـ كما قلنا ـ كافرون بلا شبهة، وهم الذين يرفضون هذا الدين، أو يرفضون التحاكم إلى شريعة الله رفضا صريحا بأى حجة من الحجج : أن الدين لا علاقة له بالسياسة والاقتصاد والاجتماع وواقع حياة الناس . أو أن الشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنا لا تصلح للحكم اليوم . أو أن التطور يقتضى نبذ ما كان فى الماضى ـ ولو كان صالحا فى حينه ـ واتخاذ «أزياء» أحدث، فى السياسة والاقتصاد والاجتماع وواقع حياة الناس . . وهؤلاء هم الذين يعتنقون المذاهب « العلمانية» بديلا من دين الله وشريعة الله .

ومنهم مسلمون بلا شبهة، وهم الذين يعلمون أن الإسلام يقتضى الحكم بشريعته والتحاكم إليها فى واقع حياتهم بما يملكون أن يتحاكموا إليها فيه ، ويسعون إلى إقامة حكم الله بطريقة من طرق السعى .

ومنهم كتلة كبيرة غير متميزة السمات، لا تتخذ موقفا حاسما إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بحيث تعرف هويتهم ، وهؤلاء هم الذين يختلف الرأى فيهم، وهم مع ذلك إذا دققت النظر فيهم لتتبين أحوالهم ليسوا فئة واحدة فى مجموعهم! فمنهم ولا شك من لا يأبه لأمر الدين على الإطلاق، حكم أم لم يحكم، وجد أم لم يوجد . . وهؤلاء كفار لأنهم بلا عقيدة . ومنهم من يعتقد بجهالة أن تجاوز الأحكام الربانية هو من الاجتهاد الجائز للأمة فى حالة الضرورة القائمة اليوم كما ضللهم « علماؤهم»، فهؤلاء

(١) ابن تيمية ، الفتاوى ، مجموعة التوحيد، الرسالة الثانية عشرة ، ص ٢٧٨ .

تشملهم شبهة الجهل التى تحدث عنها ابن تيمية وأشرنا إليها آنفا، ومنهم من ينكر بقلبه وهو يجهل أن للإنكار بالقلب مقتضيات يجب أن تتوفر فيه ، هى عدم المشاركة فيما يعتقد أنه باطل - إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان - ومنهم من يتمنى فى دخلية نفسه أن يحكم الإسلام ، ولكنه لا يتحرك حركة تعبر عما فى نفسه ، إلا أن يجد الفرصة الآمنة تماما ، التى لا تعرضه لأذى على الإطلاق . . فى «مسيرة» مأذون بها ، أو «استفتاء» مأمون العاقبة!

هذا الخليط الذى لا يجمع بينه إلا خفاء هويته ، وسوء مظهره ، وبعده عن الصورة الصحيحة للإسلام ، هو مع ذلك كله ليس ثابت الحجم ولا ثابت الصورة!

إنه واقع بين ضغطين شديدين يلجئانه إلجاء - وإن يكن فى بطء شديد - إلى التحرك إما إلى معسكر الكفر الصريح وإما إلى معسكر الإيمان الصريح .

واقع بين ضغط اليهودية العالمية التى تهدف إلى نشر الإلحاد الصريح فى كل الأرض ، ولا تكتفى من الناس بما كانت تكتفى به فى القرنين الماضيين ، من الخروج عن حقيقة الدين وإن ظلوا متعلقين به بخيوط واهنة آيلة للانقطاع . . إنما تريد محو الدين كله من الأرض حتى لا يبقى أحد من « الأميين» له دين ، فتتحقق لليهود السيطرة الكاملة عليهم . .

وبين ضغط الحركة الإسلامية التى تلح على الناس بأن حقيقة التوحيد - التى هى الإسلام - لا تتحقق بمجرد النطق بالشهادتين باللسان ، إنما بالنطق بالشهادتين والعمل بمقتضاهما وتأدية الفرائض كما أمر الله ورسوله ، وكما عبر الإمام الشهيد فى رسالة التعاليم .

وبين هذين الضغطين الملحّين الدائمين ، تتحرك هذه الكتلة الخفية السمات ، حركة وئيدة ولكنها دائبة ، كما يتحرك جبل الجليد فى موسم الذوبان ، فتنفصل عنه فى مسيرته بعض أجزائه ذات اليمين وذات اليسار حتى يتذاوب كله . . وفى واقعنا الذى نعيشه نرى حركة هذه الكتلة الوئيدة الدائبة ، يقع منها من يقع فى معسكر الكفر الصريح ، ويتجه منها من يتجه إلى معسكر الإيمان الصريح ، ويقل حجمها بالتدريج .

كنت أقول فى نفسى قبل عشرين سنة : لو أن تميز هذه الكتلة إلى عنصريها المتميزين ، الكفر الصريح والإيمان الصريح[1] قد استغرق خمسين سنة من تلك

---

(١) فى الحقيقة لا يوجد مجتمع فى الأرض - ولا مجتمع الرسول ﷺ - يتميز كله تميزا واضحا ، إنما تبقى فيه دائما فئات خافية الحال ، ولكنا نقصد الفئات الرئيسية فى المجتمع ، التى تعطيه سمته المميزة . .

اللحظة، ما استوجب الأمر أن نجهد أنفسنا فى استصدار الحكم عليها، فضلا عن أن نختلف ونتخاصم فى أمر ذلك الحكم ، ونجعله نقطة الشد التى نشد إليها الناس، ونشد إليها العمل فى حقل الدعوة !

والآن ـ بعد عشرين سنة [١] ـ أرى بوادر التميز فى هذه الكتلة : فهناك شباب ـ من الجنسين ـ تميع وتفكك وانحل ، واتجه إلى الكفر بغير رجعة ، إلا أن يشاء الله ، وشباب ـ من الجنسين ـ التزم الإسلام فى وضوح متميز لا خفاء فيه .

وأرى ظاهرة لها دلالتها الضخمة . . ظاهرة الفتيات المحجبات . . يملأن الجامعات والمدارس، ويملأن من الجامعات كلياتها العملية بصفة خاصة، وهى التى أنشئت فى الأصل لتكون معاقل للكفر والإلحاد والانسلاخ من الإسلام ، ويتحدين بزيهن الجاهلية العالمية كلها، لا الجاهلية المحلية فحسب، رافعات الرأس، مستعليات بالإيمان، لا يصدهن عن الالتزام بالحجاب كل سخرية الجاهلية وحقدها، بل عدوانها عليهن بين الحين والحين، بالاعتقال والسجن، أو التعذيب والتنكيل .

وهذه الظاهرة بالذات لها دلالتها . . فقد كان التخطيط اليهودى « للأميين» فى العالم كله هو إخراج المرأة من دينها وأخلاقها وتقاليدها بحيث لا ترجع إليها أبدا ! ضمانا لإفساد المجتمع كله ، حين لا تكون هناك «أم » تلقن أبناءها مبادئ الدين والأخلاق وهم بعد صغار [٢] . . ثم كان التخطيط الصليبى الصهيونى للمرأة المسلمة أن تسير فى ذات الخط الذى دفعت إليه المرأة الأوربية من قبل، ضمانا لإفساد المجتمع الإسلامى كله ، حين لا تكون هناك أم مسلمة، تلقن أبناءها مبادئ الدين والأخلاق وهم فى مرحلة الطفولة[٣]، وبذلت الصليبية الصهيونية كل ما فى وسعها ، واستخدمت كل وسائلها لجعل عودة المرأة المسلمة إلى الإسلام، وإلى الحجاب الإسلامى ، مستحيلة بعد أن تعرت بجسدها كله أو معظمه ، وبعد أن أصبح العرى أصلا من أصول المجتمع « المتمدن ! »، وعلامة على الرقى والتحضر والتطور والانطلاق !

لذلك فإن اقتحام الفتاة المسلمة للحواجز التى وضعتها الصليبية الصهيونية أمامها،

---

(١) كتب هذا فى عام ١٤٠٦هـ (١٩٨٦م) .

(٢) انظر إن شئت فصل « دور اليهود فى إفساد أوربا» من كتاب «مذاهب فكرية معاصرة» .

(٣) أشرنا إلى هذا فى الفصل السابق « آثار الانحراف» .

وعودتها للحجاب الإسلامى على هذا النحو - عقيدة لا تقليدا - أمر له دلالته الكبيرة على مدى التحول الذى صار فى المجتمع ، والتميز الذى بدأ يأخذ سبيله فى داخل الكتلة المتميعة السمات . .

فلو افترضنا أن الأمر يحتاج إلى عشرين سنة أخرى أو ثلاثين ، لتتم عملية التميز فى تلك الكتلة المتميعة ، أو حتى لتأخذ مسارا واضحا فيها ، فالأمر فى حسى لا يحتاج إلى هذا الجدل كله ، أو هذا الخلاف كله ، أو هذا الخصام كله ، الذى جرى بين الجماعات العاملة فى الحقل الإسلامى حول قضية الحكم على الناس ، لأنه - فى تصورى - كمحاولة التصويب على جسم متحرك ، كلما أحكمنا التصويب إليه وجدناه قد تحرك من مكانه ولو بضع خطوات !

وإن بطء الحركة فى هذه الكتلة لهو حقيقة ملموسة ، قد تثير الحنق عند بعض الدعاة ، وقد تثير اليأس عند غيرهم ، ولكنا لا نستطيع بحال أن نقول إن الصورة اليوم من جانبيها ، الأبيض والأسود ، هى كما كانت قبل خمسين سنة ، أو كما كانت قبل عشرين سنة . . إنها تتغير باستمرار . . والعبرة بهذا التغيير ، بصرف النظر عن سرعة التغيير .

والاعتبار الثالث : أن هذه الكتلة المتميعة من «الجماهير» لن تعارض الحكم الإسلامى حين يقوم ، سواء بدافع السلبية المستولية عليها ، أو بدافع «العواطف الدينية» التى تستولى عليها حين يذكر الإسلام . .

صحيح أن الجهالة العميقة التى تعيش فيها هذه الجماهير - وبالأخص جماهير «المثقفين» - تجاه الإسلام ، وجهلها بالارتباط الوثيق بين لا إله إلا الله وبين تحكيم شريعة الله ، هى أداة تستخدم اليوم ضد الحركة الإسلامية كما بينا فى الصفحات السابقة ، وهى معوّق من أكبر معوّقات الحركة . . ولكن الذى أؤكده هنا أن الحكم الإسلامى حين يقوم - أى حين تتسع «القاعدة المسلمة» إلى الحد الذى يسمح بقيام الحكم الإسلامى - فإن الكتلة المتميعة - حتى إن بقيت على صورتها الحالية ، وهو أمر غير ممكن - لن تعارض الحكم الإسلامى ، ولن تقف عقبة فى سبيله . إنما الذى سيعارض الحكم الإسلامى هم « العقائديون» . . أى الشيوعيون والعلمانيون والملحدون وأضرابهم . وهؤلاء ليسوا من بين الكتلة المتميعة التى تختلف الجماعات فى الحكم عليها ، إنما هم من الذين اختاروا معسكر الكفر الصريح .

فلو أن هذه الكتلة المتميعة كانت ستقف ضد الحكم الإسلامى حين يقوم ، لكان الأمر حريا أن يبذل فيه الجهد لتحرّى الحكم الشرعى المضبوط بالنسبة لها، لتحديد موقفنا النهائى منها. أما الآن فموقفنا منها هو الدعوة . . هو بيان حقيقة لا إله إلا الله، وحقيقة الإسلام ، ومحاولة تربية من يستجيب لهذه الدعوة على معانى الإسلام الحقيقية ومقتضياته الحقيقية [1] . والدعوة ـ على هذا النحو ـ لا ترتبط بالحكم على هذه الكتلة. فسواء كانوا مسلمين ـ فى ميزان الله ـ أو كافرين ، فالدعوة التى توجه إليهم الآن واحدة . . هى لكل الناس . . حتى العاملين منهم بالفعل فى الحقل الإسلامى ، فإن كثيرا منهم يجهلون كل مقتضيات لا إله إلا الله ، وإن كانوا يشتغلون بالدعوة إلى الإسلام! وإن منهم من يقول بتأثير الفكر الإرجائى الذى توغل فى حياة الأمة منذ قرون : « من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملاً واحداً من أعمال الإسلام»!!

فلو كانت الدعوة ـ فى مرحلتها الراهنة ـ تتغير ـ أو تتأثر ـ بتصنيف الناس إلى مسلمين وكافرين، لوجب أن نجتهد فى هذا التصنيف ، ونتحرى الدقة فيه ، لأننا ـ عندئذ ـ سنقدم لونا خاصا من الدعوة لكل فريق . ولكن الواقع أننا الآن نقدم لونا واحدا من الدعوة لكل الناس ، حتى للعاملين بالفعل فى الحقل الإسلامى ، الذين لاشك عندنا فى إسلامهم، وفى إخلاصهم لله ودعوته، حسب الظاهر من أحوالهم!

ويقول كثير من الناس، فى معركة الجدل القائمة بين جميع الأطراف : إنه لابد من الحكم على الناس بالإسلام أو الكفر ، لنحدد موقفنا منهم، ونحدد كيف نتعامل معهم، سواء فى التعامل اليومى ، أو التعامل الحركى فى الدعوة . .

فأما ضرورة الحكم على مجموع الناس لتحديد موقفنا منهم، وطريقة تعاملنا معهم، فهو كلام نظرى أكثر مما هو عملى !

فنحن فى أكثر الأمور لا نتعامل ـ واقعيا ـ مع المجتمع بأسره ، إنما مع أفراد معينين منه، سواء كان تعاملا اجتماعيا فى زواج ومصاهرة ، أو تعاملا ماليا فى بيع وشراء وتجارة ، أو حركة بهذا الدين فى مجال الدعوة . . وفى كل هذه المجالات نستطيع بسهولة أن «نتبين» من الذى نقيم علاقاتنا معه . . أما «المجتمع» بأسره ، فمتى نتعامل معه على هذه الصورة وبهذه الصفة ؟!

(١) ستتكلم عن موضوع التربية فى موضع آخر من هذا الفصل .

إننا نصف المجتمعات التى نعيش فيها اليوم بأنها « مجتمعات جاهلية» لأنها لا تَحكُم ولا تُحْكَم بشريعة الله ، إنما تحكُم وتحكَم بشرائع جاهلية من صنع البشر . ولكن هذا الوصف لا يلحق الأفراد الذين يعيشون فى تلك المجتمعات ، بل كل فرد له حكمه الخاص ، حسب موقفه من المظلة الجاهلية التى تظلله ، فمن رضى بها فهو منها ، ومن كرهها أو أنكرها فحكمه غير حكمها[1] .

وفى تعاملنا الفردى - فى جميع المجالات - لا نتعامل مع المجتمع ككل ، إنما نتعامل مع أفراد فى ذلك المجتمع ، نستطيع - كما قلنا - أن نتبين أحوالهم ، ونقيم علاقاتنا معهم على أساس معرفتنا بأحوالهم .

أما فى مجال التعامل الحركى فى الدعوة ، فالواقع أن الحركة - الآن - لها اعتبارات خاصة غير اعتبارات الكفر والإسلام . . فالحركة الآن تحتاج إلى بناء الأعمدة الراسخة قبل كل شىء[2] ، وهذا الأمر لا يصلح له أى إنسان ولو كان من المسلمين الخلّص الذين لا شك عندنا فى إسلامهم . فإن أبا ذر رضى الله عنه هو من أجلّه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم ، وقد آمن إيمانا راسخا عميقا بالإسلام وبالرسول ﷺ ، ولكنه حين رغب فى التحرك بالدعوة لم يأذن له الرسول ﷺ ، بل نصحه أن يبقى فى قومه حتى يظهر هذا الأمر ، أى حتى يتم التمكين للإسلام .

فتخيرنا الناس للحركة - أو إقامة علاقات معهم على أساس الحركة - لا ينبنى على تصنيفنا الناس إلى مسلمين وكافرين . بل يتجاوز ذلك إلى الاختيار من بين المسلمين الخلص من نعتقد أنه يصلح لمرحلة البناء .

أما قضية « الولاء» والتناصر - على كل أهميتها فى مجال العقيدة - فليس لها فى أحوالنا الراهنة ، فى مجتمعاتنا المضطربة الحائرة المفككة ، مدلول عملى واقعى حتى نشغل أنفسنا بتصنيف الناس من أجلها ! فإلى أن يقوم مجتمع مترابط تحكمه شريعة الله ، وتضبط كل تصرفاته ومنطلقاته ، ستظل قضية الولاء فى حقيقتها العملية الواقعية قضية فردية ، أو قضية «تجمعات» قائمة داخل المجتمع الجاهلى الذى لا تربطه وحدة حقيقية .

---

(١) انظر شرح هذه القضية فى فقرة تالية فى هذا الفصل بعنوان : « ماذا نتقلد من الوظائف فى المجتمع الجاهلى» .

(٢) أشرنا إلى هذا الأمر من قبل ، وسنعاود الحديث عنه حين نتكلم عن «منهج الحركة» .

ولسنا بعد دولةً حتى يكون لتصنيفنا للناس أثر واقعى فى حياتهم ، إذ نقيم حد الردة على المرتدين منهم . . إنما نحن دعوة . . ودعوة لكل الناس . . وبكلام واحد نقوله لكل الناس . . ثم نتخير من المستجيبين من نعتقد أنه يصلح لمرحلة البناء .

أمر واحد تثيره بعض الجماعات قد تكون له وجاهة فى ميزان الله ، هو اختيار الإمام الذى يُصَلَّى خلفه . وفى هذا الصدد نقول كلمة صريحة : إننا لا نستطيع أن نكره أحدا على الصلاة وراء إمام لا يرتاح إليه . أما الحكم المسبق على ذلك الإمام بالكفر، بغير البينة القاطعة التى لا تحتمل الشك، فأمر غير جائز فى شرع الله! [1] .

* * *

بهذه الاعتبارات كلها لا أرى أن قضية الحكم على الناس هى قضية الساعة التى نتخاصم عليها ونفترق عندها . . وأرى كذلك أنها قضية ستحل نفسها بنفسها خلال فترة من الزمن تعتبر قصيرة فى حياة الأمم وفى حياة الدعوة ـ وإن استبطأها بعض الدعاة ـ لأن الحركة الدائبة ـ المفروضة فرضا على الكتلة المتميعة ـ ستحولها تدريجيا إلى فريقين متميزين ، لكل منهما سيماها المتميزة التى يعرفها بها الناس ، ولا يقع فيها الاختلاف : كفر صريح أو إيمان صريح . . [2] .

* * *

ولكنا حين نلقى جانبا قضية الحكم على الناس فى الوقت الحاضر، ينبغى أن نوجه اهتمامنا كله إلى تعليم الناس ما جهلوه من حقيقة الإسلام، وحقيقة لا إله إلا الله .

إننا إن تركناهم على جهالتهم لا نكون قد أدينا الأمانة التى فى أعناقنا لله . والله سبحانه وتعالى يقول لنبيه ﷺ :

---

(١) جاء فى المغنى لابن قدامة (ج ٢ ص ٢٠٠ ، طبعة رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد بالمملكة العربية السعودية) : « إذا صلى خلف من شك فى إسلامه أو كونه خنثى ، فصلاته صحيحة ما لم يبين كفره ، وكونه خنثى مشكلا ، لأن الظاهر من المصلين الإسلام ، سيما إذا كان إماما ، والظاهر السلامة من كونة خنثى ، سيما من يؤم الرجال . فإن تبين بعد الصلاة أنه كان كافرا أو خنثى مشكلا فعليه الإعادة . . » .

(٢) قلنا آنفا إنه لا يوجد مجتمع فى الأرض ـ ولا مجتمع الرسول ﷺ ـ يتميز كله تميزا كاملا . فهناك دائما «منافقون» فى كل مجتمع . وحكم هؤلاء فى المجتمع المسلم الذى يحكم بما أنزل الله أنهم مسلمون طالما كانوا يقولون لا إله إلا الله ويخضعون لشريعة الله ولا يخرجون عليها، فإن لم يخضعوا لشريعة الله اعتبروا مرتدين وإن نطقوا بالشهادتين .

﴿ يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ (١) .

فإن لم نقم بتعليم الناس حقيقة لا إله إلا الله ، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله ، فلن نكون قد أدينا الأمانة ، ولن نكون قد قمنا بالدعوة كما أمرنا الله فى قوله تعالى :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم المفلحون ﴾ (٢) .

كما أننا إن قلنا للناس : من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام - وهى قولة غلاة المرجئة - فقد خدعناهم عن حقيقة الإسلام ، وزدناهم تميعا إلى تميعهم ، وأخّرنا نضجهم وتميزهم ، وأخرنا بالتالى قيام « القاعدة الإسلامية » التى لا يقوم بغيرها الحكم الإسلامى ولا يمكّن له فى الأرض ، ونكون إلى جانب ذلك - بوعى أو بغير وعى - قد أعنّا الطاغية على دعاة الإسلام : يقتّلهم ويذبّحهم وهو آمن من غضبة الجماهير ، متلفع بالجهالة التى يسدر فيها الناس !

كذلك إن قلنا لهم : من قال لا إله إلا الله فهو مسلم فى الحياة الدنيا وحسابه على الله فى الآخرة ، فقد قدمنا لهم كلمة خادعة سنبين فى السطور التالية ما فيها من زيف وخديعة . . فضلا عن كونها - حتى لو كانت صحيحة - ليست هى الكلمة المناسبة لأحوال الناس الراهنة ، حيث هم بعيدون كل البعد عن حقيقة الإسلام ، وغارقون فى الذل والهوان والضياع من جراء بعدهم عن هذه الحقيقة ، فهم ليسوا فى حاجة لمن يمدّ لهم فى الذل والهوان والضياع والغفلة ، إنما هم فى حاجة لمن يوقظهم من غفلتهم ، ليغيروا ما بأنفسهم ، فيغير الله حالهم . .

وليست مهمة الدعاة أن يعطوا الناس شهادات مزورة بالإسلام ! ولا مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مسلمين فى الحياة الدنيا ولو كانوا ممن لا يقيم لهم الله يوم القيامة وزنا ! إنما مهمتهم أن يبينوا للناس كيف يكونون مؤمنين حقيقة فى ميزان الله ، ومقبولين عنده يوم القيامة ، أى أن مهمتهم أن يبينوا للناس حقيقة الإسلام - حقيقة التوحيد البريئة من الشرك - لا ما يحقق للناس مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا !

وحتى مظهرية الإسلام فى الحياة الدنيا فهى لا تتحقق بمجرد نطق لا إله إلا الله كما تزعم القولة الزائفة التى أشرنا إليها فى السطور السابقة .

---

(١) سورة المائدة [٦٧] . (٢) سورة آل عمران [١٠٤] .

إن قول لا إله إلا الله محمد رسول الله يدخل الناس فى الإسلام ، نعم، ويعطيهم صفة الإسلام فى الحياة الدنيا . ولكن هذه الصفة لا تلصق بأصحابها من تلقاء ذاتها ـ سواء كانت مظهرية أو حقيقية ـ ولا تظل لاصقة بهم طيلة حياتهم مهما فعلوا ! إنما هى تحتاج إلى تثبيت دائم فى كل لحظة ، بعمل دائم يقوم به الإنسان فى كل لحظة ، ولا يكف عن القيام به فى أية لحظة ، هو التحاكم إلى شريعة الله فى كل أمر من الأمور ، وعدم التحاكم إلى غيرها فى أمر من الأمور .

إنما يختلف الإسلام المظهرى عن الإسلام الحقيقى لا فى وجوب التحاكم إلى شريعة الله ـ فهو لازم لكل منهما لكى تظل له صفة الإسلام فى الحياة الدنيا ـ إنما يختلفان فى أن صاحب الإسلام الظاهرى يتحاكم إلى شريعة الله نفاقا ، وهو فى الآخرة فى الدرك الأسفل من النار، والمسلم الحقيقى يتحاكم إلى شريعة الله تصديقا وإيمانا وطاعة لله ، فيدخله الله فى جناته جزاء إيمانه وطاعته . . وفى الحالين لابد من التحاكم إلى شريعة الله ، لكى تظل للإنسان صفة الإسلام . .

إنما يعتبر من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله مسلما فى الحياة الدنيا ـ بصرف النظر عما فى قلبه ـ فى حالة قيام الدولة الإسلامية التى تحكم بشريعة الله ، دون أن يطلب منه ـ مع نطق الشهادتين ـ أن يتعهد بالتحاكم إلى شريعة الله وعدم الإعراض عنها إلى غيرها ، لأن ذلك بديهية من بديهيات لا إله إلا الله ، يفترض فى قائلها أنه مقرّ بها ـ حقيقة أو نفاقا ! ـ ولأن سلطان لا إله إلا الله قائم فى الأرض متمثل فى تحكيم شريعة الله ، ولا يفترض فى ناطق الشهادتين ـ سواء كان مؤمنا أو منافقا ـ أن يخرج على هذا السلطان ويتمرد عليه ، لأنه حينئذ يعتبر مرتدا ويقام عليه الحد !

أى أن الناطق بالشهادتين فى ظل الحكم الإسلامى ـ سواء كان مؤمنا أو منافقا ـ يقرّ بأمرين فى آن واحد (سواء اعتقد حقيقتهما فى قلبه أم لم يعتقدها[1]) أحدهما يقرّ به نطقاً بلسانه، والآخر يقرّ به بواقع حاله . فأما الذى يقرّ به نطقاً بلسانه فهو أنه لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وأما الذى يقرّ به بواقع حاله [2] فهو أنه لا شريعة ينبغى أن تحكّم إلا شريعة الله ، وأنه لا شرعية لحكم غير حكم الله . .

فإن نكل عن إقراره بأن شريعة الله وحدها هى التى ينبغى أن تحكّم ـ وهو الإقرار الذى لم ينطقه بلسانه ، ولكنه متضمّن فيما أقر به بلسانه ـ اعتبر مرتدا، وأقيم عليه حد

(١) يعتقدها المؤمن ولا يعتقدها الكافر المنافق. (٢) الإقرار هنا معناه الالتزام .

الردة في ظل الحكم الإسلامي ، ولو ظل يردد في اليوم مائة مرة أنه لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ! ولو كان الذي أعطاه صفة الإسلام هو مجرد النطق بالشهادتين ، دون وجود لازم لهما ، ولا مقتضىً متضمنٍ في نطقهما ، فكيف يقام عليه الحد وهو مايزال يردد الشهادتين ؟!

إن إقامة الحد على المرتد بسبب إعراضه عن تحكيم شريعة الله ، أو إنكاره شيئا منها - بينما هو مازال ينطق بالشهادتين - يؤكد قطعاً أنه لم يحصل على صفة الإسلام بمجرد النطق بالشهادتين ، إنما بالنطق بالشهادتين من جهة ، والإقرارا لمتضمّن في نطقهما بالالتزام بشريعة الله من جهة أخرى . وأنه قد افترض فيه حين نطق بالشهادتين أنه ملتزم بمقتضاهما - وهو تحكيم شريعة الله - ولو لم يطلب منه أن يقر بلسانه بهذا الالتزام نصا ، لأنه من بديهيات لا إله إلا الله منذ كان في البشرية دين ، ومنذ أرسل الله رسولا يقول الناس : لا إله إلا الله ، ويقول لهم : اعبدوا الله مالكم من إله غيره !

وإلا فلو كان الأمر على غير ذلك . . لو كان النطق بلا إله إلا الله محمد رسول الله لا يتضمن إقراراً بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها ، وعدم الإعراض عنها إلى سواها . . فكيف يتصور من عدل الله سبحانه أن يعاقب إنسانا بالقتل في الحياة الدنيا ، وبالعذاب المقيم في الآخرة على شيء لم يطلب منه الإقرار به ولا الالتزام به؟ ![1]

هذا هو الحال حين تكون شريعة الله قائمة في الأرض ، وهذه هي الكيفية التي يأخذ بها الناس صفة الإسلام في الحياة الدنيا ، ولو كانوا في دخيلة أنفسهم كافرين منافقين : نطق لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، والخضوع لشريعة الله ، وعدم الإعراض عنها إلى غيرها من الشرائع والنظم والأحكام . ويظل الفارق بين المنافق والمؤمن أن المنافق يتحاكم إلى شريعة الله نفاقا بغير إيمان ، أما المؤمن فيتحاكم إليها عقيدةً وطاعةً وطمعاً في الجنة والرضوان .

أما حين تكون شريعة الله غير قائمة في الأرض ، فقد بيّن الرسول ﷺ كيف يثبت الإنسان صفة الإسلام لنفسه ، ولا يجعلها تسقط عنه . قال عليه الصلاة والسلام :

«ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف ، يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو

---

(١) يقول تعالى في محكم التنزيل : «وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . إن الله بكل شيء عليم» [سورة التوبة : ١١٥].

مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[1] .

وهكذا يتبين ارتباط لا إله إلا الله الوثيق بتحكيم شريعة الله ، دائما فى جميع الأحوال، سواء كانت دولة الإسلام قائمة فى الأرض، أم كان القائمون بالحكم لا يحكمون بما أنزل الله [2] .

وهذا الارتباط الوثيق هو الذى يجهله الناس، وهو الذى ينبغى للدعاة أن يعلموهم إياه، أداءً للأمانة التى فى أعناقهم لله ، وفراراً من عذابٍ توعد به الله من يكتم حقائق هذا الدين :

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم﴾ [3] .

﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ [4] .

ولا نكون مؤدين للأمانة ولا قائمين بالدعوة إن لم نبين للناس هذه الحقيقة : أن الذى يعتبر مسلما فى الدنيا - ولا يجوز تكفيره ولو كان منافقا فى الحقيقة، وحسابه على الله فى الآخرة - هو الذى ينطق بالشهادتين ويعمل بمقتضاهما - أى يتحاكم إلى شريعة الله - كما قال الإمام الشهيد فى رسالة التعاليم ، وكما ينبغى أن نبين للناس فى مقام التعليم . أما المؤمن الحقيقى فهو الذى يصنع ذلك عن إيمان وتسليم ورضا وإخلاص :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما﴾[5] .

منهج الحركة

تختلف الجماعات العاملة اليوم فى حقل الدعوة اختلافا واسعا حول منهج الحركة الواجب اتباعه فى المرحلة الراهنة . وربما لم يكن هذا الخلاف قائما قبل ربع قرن من

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) انظر إن شئت فصل « مفهوم لا إله إلا الله» من كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح» .

(٣) سورة البقرة [١٧٤] . (٤) سورة البقرة [١٥٩] . (٥) سورة النساء [٦٥] .

الزمان. فقد كانت الحركة تسير على المنهج الذى رسمه الإمام الشهيد وأقام جماعته على أساسه، ولم تكن هناك فى الساحة جماعات أخرى غير تلك الجماعة.

ولكن الموقف اليوم يختلف . .

تعددت الجماعات، وتعددت وجهات النظر . . وتعددت المواقف بتعدد وجهات النظر . .

ولكن هناك أمرا مشتركا يجمع بين معظم هذه الجماعات، وإن اختلفت مواقفها ومناهجها . . هو التعجل !

يقولون : مضى على الدعوة أكثر من نصف قرن . . ولم تنجح بعد . . أى لم تصل إلى الحكم لتحقيق ما تدعو إليه من تحكيم شريعة الله، وحل مشاكل المجتمع على أساس المنهج الربانى . .

وفى ذات الوقت يقولون : إن الشيوعيين ينجحون، وغيرهم من الأقليات التى ليس لها سند شعبى ولا حجم يذكر تصل إلى الحكم، والمسلمون لا يصلون! فلابد أن هناك خطأ فى منهج الحركة . . ولابد من التغيير . . وعند هذه النقطة يبدأ الخلاف !

ولابد لنا قبل أن نبحث المنهج الذى ينبغى اتباعه فى المرحلة الراهنة، أن نصحح هذا التصور ذاته : هل يصح قياس الحركة الإسلامية على الحركات الشيوعية والعلمانية والأقليات التى تصل إلى الحكم وتقهر الشعوب ؟!

إننا إن لم ندرك بادئ ذى بدء أن هذه الحركات لا تنجح بجهدها الذاتى، ولا بثقلها الذاتى، إنما تُنْجَحُ من الخارج، بتحريك أعداء الإسلام لها، وإعطائها السند اللازم لها، والقوة اللازمة لقهر شعوبها وإذلالها . . لا نكون جديرين بالعمل فى مجال الدعوة، لأن العمل يحتاج إلى البصيرة والوعى، وبغيرها لا يقوم عمل على الإطلاق، فضلا عن العمل الإسلامى :

﴿ قل هذه سبيلى، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾ [1] .

فإن أدركنا هذه البديهية، فينبغى أن ندرك بعدها ـ أو معها ـ حقيقة أخرى مازالت تخفى على الكثيرين . .

---

(١) سورة يوسف [١٠٨] .

فإذا كان لابد لكل حكم من سند يسنده لكى يقوم أولا ، ولكى يستمر فى الوجود بعد ذلك . . فأين هو السند الذى يقيم الحكم الإسلامى فى الوقت الحاضر ، ثم يظل مساندا له لكى يستمر فى الوجود ؟

وإذا كان الشيوعيون والعلمانيون والأقليات التى تصل إلى الحكم تقوم أساسا بتحريك أعداء الإسلام ، وتستمر فى الوجود بسندهم لها ، فهل أعداء الإسلام - سواء روسيا أو أمريكا - سيسمحون بقيام حكم إسلامى فضلا عن أن يسندوه إذا قام ؟ أم إنهم يتربصون بالمسلمين ليمنعوهم من تحقيق وجودهم الإسلامى ، كما تفعل أمريكا فى كل البلاد الواقعة تحت نفوذها؟!

لابد إذن - بداهة - أن يقوم السند للحكم الإسلامى من داخل الأمة المسلمة مادام لا يمكن أن يجيء من خارجها . . فهل هذا السند موجود فى الحقيقة ؟!

إن الذين يقولون - بلا روية - نعم ، يقعون فى ذات الغلطة التى وقع فيها العمل الإسلامى أول مرة ، وهى افتراض أن « القاعدة الإسلامية» قائمة بالفعل ، وما علينا إلا أن نذكى الوجدان الدينى ، وندفعه للعمل ، فينتهى الإشكال!

ونكون بهذا قد أضعنا أكثر من نصف قرن من العمل فى ميدان الدعوة ، دون أن نأخذ العبرة ، ودون أن نكتسب الخبرة اللازمة لتكوين « البصيرة» المطلوبة . .

لقد أثبتت التجربة - سواء فى مقتل الإمام الشهيد أو فى مذابح السفاح - أن القاعدة التى توهمنا وجودها لم تكن موجودة بالفعل ، وأنها فى حاجة إلى الإنشاء من جديد . . وإنما الموجود هو جماعة أو جماعات قائمة بالعمل الإسلامى ، وليس بينها وبين «الجماهير» فى الحقيقة « قضية مشتركة» . . وإن حدث التعاطف العارض بين الجماهير وبين هذه الجماعات حين تتعرض للقتل والتعذيب ، أو حين تقع منها بطولات تهز مشاعر الجماهير . .

إن هذا التعاطف العارض - أيًّا كان حجمه - أمر يختلف عن وجود «القضية المشتركة» بين هذه الجماعات وبين الناس . والقضية المشتركة التى ينبغى أن تكون ، هى وجوب التحاكم إلى شريعة الله ، ونبذ غيرها من الشرائع كما أمر الله :

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، ولا تتبعوا من دونه أولياء.. ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأعراف [٣] .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون؟﴾ [١] .

وهذه القضية ماتزال ـ كما أثبتت التجربة ـ غير واضحة المعالم عند الجماهير . .

نعم إن القاعدة الواعية لهذه القضية ، العاملة من أجلها ، قد أخذت تتسع ولا شك . . وذلك من المبشرات الموجودة فى حقل الدعوة اليوم . . ولكنها ماتزال أضأل بكثير من الحجم اللازم لإقامة الحكم الإسلامى ، ومساندته لكى يستمر فى الوجود .

إن حجم الانحراف الذى وقعت فيه الأمة خلال القرون ـ وفى القرن الأخير خاصة ـ أضخم بكثير مما يتصوره الكثيرون . إنه ـ كما بيّنا جيدا من قبل ـ ليس فسادا فى السلوك فحسب ، ولكنه فساد فى التصور وفساد فى السلوك . فساد فى تصور كل المفاهيم الرئيسية للإسلام ، بدءا بمفهوم لا إله إلا الله ، الركن الأول والأعظم فى هذا الدين . .

وتغيير حال هذه الأمة ، وإرجاعها إلى حقيقة الإسلام ، أمر لا يتم بالسهولة التى يتصورها كثير من الناس ، إنما يحتاج ـ بحسب السنّة الجارية ـ إلى وقت أطول بكثير ، وجهد أكبر بكثير ، مما تم حتى هذه اللحظة فى جميع الميادين !

يحتاج أولا إلى تبيين الحقائق المجهولة من هذا الدين ، بدءا بحقيقة لا إله إلا الله[٢] ، ويحتاج ثانيا إلى تربية الناس على ما تقتضيه هذه الحقائق من سلوك واقعى فى واقع الحياة . وهو جهد طويل طويل لايمكن ـ بحسب السنة الجارية ـ أن يتم فى سنوات قصار . . والسنوات التى مرت فى الدعوة ـ بالقياس إلى عمر الأمم ـ قصار ، جد قصار !

وهنا ـ وبصبر نافد ـ يخرج المتعجلون ـ ومعظمهم من الشباب المتحمس ـ بسؤالين يصبان فى النهاية فى ملتقى واحد : وهل من المعقول أن ننتظر حتى تتربى الأمة كلها على الإسلام ، وهو أمر لا يتحقق بالفعل ؟ وكيف نربى والحكومات المعادية للإسلام تنقض علينا كل فترة من الزمن ، كلما ربينا جيلا من الشباب أخذوه ، فعذبوه وقتلوه وقضوا عليه ؟!

فأما بالنسبة للسؤال الأول ، فلم يقل أحد قط إنه ينبغى الانتظار حتى تتربى الأمة كلها ، فهذا أمر ـ بالفعل ـ لا يتحقق أبدا فى واقع الأرض . ومجتمع الرسول ﷺ لم يكن كله على القمة السامقة التى كان عليها أصحابه رضى الله عنهم ، الذين رباهم على عينه ، وتعهدهم برعايته . . بل هؤلاء أنفسهم لم يكونوا على مستوى واحد من

---

(١) سورة المائدة [٥٠] . (٢) انظر إن شئت كتاب « مفاهيم ينبغى أن تصحح » .

العظمة والارتفاع، وقرن الرسول ﷺ هو خير القرون على الإطلاق. . فما بالك بقرننا الحاضر!

إنما المقصود- كما أشرنا مرارا- أن تتربى القاعدة التى تحمل البناء، بالحجم المعقول، وبأقرب شيء إلى المواصفات المطلوبة لهذا العمل الخطير. . خطير لا فى حياة هذه الأمة فحسب، بل بالنسبة للبشرية كلها فى زمننا هذا الذى نعيش فيه [١].

وأما بالنسبة للسؤال الثانى فليس صحيحا ما يتصوره بعض الناس- فى نظرتهم المتعجلة- من أن أعداءنا يقضون على جهدنا كله، وعملنا كله، وكلما ربينا جيلا من الشباب أخذوه. .

إنهم بالفعل يعوقون الحركة عن الإنطلاق. . أما القضاء على الحركة فهم أنفسهم لا يزعمون ذلك وإن تمنوه! إنما الذى يحدث دائما- بقدر من الله، وحسب سنة من سنن الله- أنه بعد كل مذبحة بشعة يقومون بها يأتى مد جديد من الشباب، وتتسع القاعدة على الدوام، برغم كل التعذيب الوحشى، وكل التقتيل والتشريد، بقدر من الله، وحسب سنة من سنن الله:

﴿ سنة الله التى قد خلت من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾[٢].

* * *

ويقول المتعجلون: لقد ربينا بما فيه الكفاية. . وآن الآوان أن «نعمل». .

وهذه القولة - على قصرها - تشتمل على قضيتين خطيرتين من قضايا العمل الإسلامى، تحتاج كل منهما إلى بيان:

الأولى: هل ربينا حقا بما فيه الكفاية؟ وما المعيار الذى نقيس به ما تم من التربية حتى اليوم، لنعرف إن كان كافيا أم إنه يحتاج إلى مزيد.

والثانية: ما نوع « العمل » المقصود، الذى يفكر فيه المتعجلون؟

وأبدأ بالقضية الثانية لأنها قد تكون أيسر بيانا من الأولى، لأنها محددة فى أذهان أصحابها، أما الأولى فما تزال تحتاج إلى تحديد.

---

(١) ستتعرض لهذه النقطة فى الفصل القادم « نظرة إلى المستقبل».

(٢) سورة الفتح [٢٣].

هناك نوعان رئيسيان من التفكير، ونوعان من العمل، يفكر فيهما المتعجلون بحسب كونهم من الشباب ومن الشيوخ، بالإضافة إلى لون ثالث سنتحدث عنه، وإن كان لا يمثل حتى الآن ظاهرة فى ساحة العمل الإسلامى، ولكن أصحابه يحاولون أن يجعلوا منه تلك الظاهرة، ويحاولون أن يحوّلوا العمل الإسلامى كله إليه . .

فأما الشباب - الذين تملؤهم الحماسة وتدفعهم إلى التعجل - فتفكيرهم هو وجوب الوصول إلى الحكم بالقوة، وتربية الأمة من موقع السلطة لا من موقع الدعوة، لأن التربية من موقع الدعوة أمر يطول به الزمن ويطول به الطريق، بسبب وقوف الأعداء بالمرصاد، وتعويقهم المستمر للحركة الإسلامية، وتشتيتها كلما أرادت أن تتجمع . .

وأما الشيوخ - الذين أجهدهم المشوار الطويل، والضربات المتوالية على الطريق - فتفكيرهم هو الدعوة السلمية التى لا تصطدم مع السلطة أبدا، والتى تتخذ جناحا من أجنحتها الدخول فى البرلمانات والانتخابات، ومحاولة التأثير على مجرى السياسة من داخله، أو على الأقل إعلان صوت الإسلام من داخل الأجهزة السياسية التى تسيطر اليوم على حياة الناس، حتى يكون لهذا الصوت وقع فى حس الناس.

ونحن نفترض - بادئ ذى بدء - الإخلاص الكامل فى كل من الفريقين (والفريق الثالث كذلك الذى سنتكلم عنه فيما بعد) ولكن الإخلاص وحده لا يكفى! بل لابد معه من البصيرة، لأن عدم البصيرة حرىّ أن يفسد ثمرة الإخلاص!

ونعيد ما قلناه من قبل . . إن الحكم الإسلامى لن يتلقى سندا من أعداء الإسلام فى الخارج - لا من روسيا ولا من أمريكا . لا من الصليبية ولا من الصهيونية، ولا من معسكر الشرك كله - فلابد أن يكون سنده من الداخل . . فأين هى « القاعدة الإسلامية» التى تسند الحكم حين يقوم، وتسنده بعد ذلك لكى يستمر فى الوجود؟

نفترض جدلا أن مجموعة من الشباب المتحمس قد أحكمت التدبير، فقامت

«بانقلاب» ، وأقامت حكومة إسلامية فى أى بقعة من العالم الإسلامى . . فمن يسندها؟ !

ولنأخذ مصر مثلا . . وقد تحدثنا عن « التجربة المصرية» من قبل . . و« القاعدة الإسلامية » فى مصر هى أوسع قاعدة حتى الآن فى العالم الإسلامى كله ، فهل تكفى هذه القاعدة لسند الحكم الإسلامى ، وحمايته من العدوان الصليبى الصهيونى المتوقع فى جميع الأحوال؟

ولنفترض أن أمريكا لم تتدخل بعدوان مباشر كما تحدثها نفسها الشريرة فى بعض الأحيان ، ولا حرضت إسرائيل على العدوان كما تفعل فى كل الأحيان . . وإنما فقط مُنع القمح عن الشعب المصرى !

هل يصبر الشعب المصرى- فى حالته الراهنة- على الجوع من أجل إقامة الحكم الإسلامى؟ أم تسير المظاهرات- بقيادة الشيوعيين والعلمانيين والملحدين ، ومن ورائها « الجماهير» الجائعة- تقول : نريد الخبز والحرية؟ !

فلنكن واقعيين . . ولنقل إن « القاعدة الإسلامية» لم تزل بعد أصغر من حجم العمل المطلوب !

وقبل أن تقوم القاعدة بالصورة الصحيحة ، فكل محاولة للصدام مع السلطة للوصول إلى الحكم عبث غير مبنى على بصيرة ولا تدبر . . وقمته هو ما حدث فى مذبحة حماة . . نموذجا بارزا ينبغى أن تتدبره الحركة الإسلامية جيدا لتتعرف كل أبعاده ، ولا تقع فى مثله مرة أخرى مهما كانت الأسباب .

فإن قال المتعجلون من الشباب : كيف نقعد « بلا عمل» حتى تتكون مثل تلك القاعدة ؟ فنقول إن القاعدة تتكون ، ببطء ، نعم ، ولكنها تتسع على الدوام ، ولا تتوقف على النمو ، وينضم لها على الدوام شباب جديد ، يعلم سلفا عقبات الطريق ، وعذابات الطريق ، فيوطن نفسه على ملاقاة الموت ، واحتمال العذاب ، ويوطن نفسه كذلك على المشوار الطويل . . وذات يوم - لا يعلمه إلا الله سبحانه - ستنضج القاعدة وتتسع ، وتصبح بندقة صعبة الكسر . .

وعندئذ ـ بسنة من سنن الله الجارية ـ سيدخل الناس فيها أفواجا ، وسيجد العدو نفسه لا أمام جماعة منعزلة يحصدها حصدا وهو مطمئن ، إنما أمام أمة قد اجتمعت على إرادة موحدة . . فيجري قدر الله بما تفرح به قلوب المؤمنين .

أما القول بأن الشباب سيقعد « بلا عمل » حتى تتكون تلك القاعدة ، فهو صادر عن تصور معين للعمل ، يملأ قلوب هؤلاء الشباب وأفكارهم ، فلا يتصورون «العمل » إلا حمل السلاح وملاقاة الأعداء ! ويتصورون أي شيىء غير ذلك قعودا بلا عمل !

فنقول لهم : من إذن الذى سيبنى القاعدة ؟! إن لم يكن هؤلاء الشباب أنفسهم؟! وكيف يكونون بلا عمل إذا كانوا منهمكين في البناء؟!

إنما تصدر هذه القولة عن الشباب المتعجل نتيجة أمرين معا : عدم إدراك الأبعاد الحقيقية المطلوبة لعملية التربية ، والاعتقاد ـ من ثم ـ بأن التربية قد تمت ، وأننا ينبغى إذن أن ننتقل إلى الخطوة التالية ، وهى حمل السلاح وملاقاة الأعداء . .

ونريد أن نتكلم عن التربية ، لنوضح أبعادها المطلوبة بالنسبة للجيل الذي يواجه الجاهلية أول مرة ، وبالنسبة لمجموع الأمة كذلك ـ أو من يستجيب للتربية منها ـ ولكنا نريد قبل ذلك أن نتعرف على الفريقين الآخرين من المستعجلين ، لأن حديث التربية لازم للجميع ؛ للمتعجلين من الشباب والشيوخ ، والفريق الثالث الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، وللعاملين فى ميدان التربية على حد سواء .

ولنتذكر بادئ ذي بدء أن شيوخ اليوم هم أنفسهم بقية شباب الجيل الأول المتعجل! الذى كان يعتقد أن « العمل » قد وجب ، وأنها ضربة قوية أو مجموعة ضربات ، فيخر الطغاة هداً ، ويحكم الإسلام!

وقد تخلى من أولئك الشباب من قبل من تخلى . . ولكن هؤلاء الشيوخ هم الذين بقوا ولم يتخلوا .

نعم ، لم يتخلوا . . ولكنهم يعتقدون أن الدعوة قد وصلت إلى طريق مسدود . . وأنه يجب ـ من ثم ـ تغيير الطريق !

والسبب فى هذه الرؤية من جانبهم واضح . فقد كانوا تربوا على أنهم هم الذين

سيضربون الضربة الأولى، أو مجموعة الضربات ، ثم تنجلى الضربة عن هزيمة العدو، وانتصار الإسلام . . في سنوات معدودات .

وقد وجدوا أنهم هم الذين يُضْرِبُون المرة بعد المرة على امتداد السنوات ، وأن الأعداء هم الذين يكسبون الجولة ، بينما لا يصنعون هم شيئا إلا تلقى الضربات . ومن ثم فإن الطريق ـ كما تصوروه ـ يبدو مسدودا بالفعل ، ولا يؤذن بانفتاح قريب . . فلابد ـ في حسهم ـ من البحث عن طريق غير مسدود .

والطريق الذى يظنونه موصلا هو الذى أشرنا إليه من قبل : دخول البرلمانات والانتخابات ، وإعلان صوت الإسلام من هناك ، مادام لا يُسْمَح بإعلانه من غير هذا الطريق .

وكما ناقشنا الشباب المتعجل ، الذي يدعو إلى حمل السلاح وملاقاة العدو، ورأينا ـ على ضوء الواقع ، وعلى ضوء ما حدث فى حماة ـ أن الصدام مع السلطة قبل تكوّن « القاعدة المسلمة » ذات الحجم المعقول ، عبث لا يجنى منه العمل الإسلامى إلا ما جناه فى حماة . .

كذلك نناقش الشيوخ المتعجلين ، الذين يظنون أنهم يحركون العمل الإسلامى بولوج هذا الطريق غير المسدود ، ويصلون عن طريقه إلى تحقيق الأمل المنشود . .

نقول لهم نفس الشيء . . إن استخدام هذا الطريق عبث لا يؤدى إلى نتيجة قبل تكوّن « القاعدة المسلمة » ذات الحجم المعقول ! ولنفرض جدلا أننا توصلنا إلى تشكيل برلمان مسلم مائة في المائة . . كل أعضائه يطالبون بتحكيم شريعة الله ! فماذا يستطيع هذا البرلمان أن يصنع بدون « القاعدة المسلمة » التى تسند قيام الحكم الإسلامى ، ثم تسند استمراره فى الوجود بعد قيامه ؟!

انقلاب عسكري يحل البرلمان ، ويقبض على أعضائه فيودعهم السجون والمعتقلات ، وينتهي كل شيء فى لحظات !!

إنه تفكير ساذج رغم كل ما يقدم له من المبررات . . وفوق ذلك فهو يحتوى على مزالق خطيرة تصيب الدعوة فى الصميم ، وتعوّقها كثيرا على الرغم مما يبدو ـ لأول وهلة ـ من أنها تمكن لها فى التربة وتعجّل لها الخطوات!

المزلق الأول هو المزلق العقدى . .

فكيف يجوز للمسلم الذى يأمره دينه بالتحاكم إلى شريعة الله وحدها دون سواها ،

والذى يقول له دينه إن كل حكم غير حكم الله هو حكم جاهلي ، لا يجوز قبوله ، ولا الرضى عنه ، ولا المشاركة فيه . . كيف يجوز له أن يشارك في المجلس الذي يشرع بغير ما أنزل الله ، ويعلن بسلوكه العملى - في كل مناسبة - أنه يرفض التحاكم إلى شريعة الله ؟!

كيف يجوز له أن يشارك فيه ، فضلا عن أن يقسم يمين الولاء له ، ويتعهد بالمحافظة عليه ، وعلى الدستور الذي ينبثق عنه ، والله يقول سبحانه :

﴿ وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزأ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره ، إنكم إذن مثلهم ..﴾ (١) .

وهؤلاء حديثهم الدائم هو مخالفة شريعة الله ، والإعراض عنها ؛ ولا حديث لهم غيره ينتظره المنتظر حتى يخوضوا فيه ! . . فكيف إذن يقعد معهم ؟!

كل ما يقال من مبررات : أننا نُسْمعهم صوت الإسلام . . أننا نعلن رفضنا المستمر للتشريع بغير ما أنزل الله . . أننا نتكلم من المنبر الرسمى فندعو إلى تحكيم شريعة الله . .

كل ذلك لا يبرر تلك المخالفة العقدية الواضحة . .

يقولون : ألم يكن النبى ﷺ يذهب إلى قريش فى ندوتها ليبلغها كلام الله؟!

بلى ! كان يذهب إليهم في ندوتهم لينذرهم . . ولكنه لم يكن يشاركهم فى ندوتهم!

ولو أن مسلما يدعو إلى تحكيم شريعة الله ، استطاع أن يذهب إلى ندوة الجاهلية المعاصرة ، ويُسْمح له بالكلام فيها كما كانت تَسْمح الجاهلية الأولى لرسول الله ﷺ ، لكان واجبا عليه أن يذهب وأن يبلّغ ، لأنه في هذه الحالة لا يكون « عضوا » فى الندوة ، إنما هو داعية من خارجها ، جاء يدعوها إلى اتباع ما أنزل الله ، فلا الندوة تعتبره منها ، ولا هو يعتبر نفسه من الندوة . . إنما هو مبلّغ جاء يلقى كلمته ثم يمضى . .

أما المشاركة في « عضوية » الندوة بحجة إتاحة الفرصة لتبليغها كلمة الحق ، فأمر ليس له سند من دين الله !

---

(١) سورة النساء [١٤٠].

والمزلق الثانى هو تمييع القضية بالنسبة « للجماهير » . .

إننا نقول للجماهير في كل مناسبة إن الحكم بغير ما أنزل الله باطل ، وإنه لا شرعية إلا للحكم الذي يحكم بشريعة الله . . ثم تنظر الجماهير فترانا قد شاركنا فيما ندعوها هي لعدم المشاركة فيه ! فكيف تكون النتيجة ؟!

وإذا كنا نحن نجد لأنفسنا المبررات للمشاركة في النظام الذي نعلن للناس أنه باطل ، فكيف نتوقع من الجماهير أن تمتنع عن المشاركة ، وكيف تنشأ « القاعدة الإسلامية » التي يقوم عليها الحكم الإسلامى ، القاعدة التي ترفض كل حكم غير حكم الله ، وترفض المشاركة في كل حكم غير حكم الله!

إننا نحسب أننا بدخولنا البرلمانات ، نقوم « بعمل » ييسر قيام « القاعدة الإسلامية» ، لأنه يدعو إليها من فوق المنبر الرسمي ، الذي له عند الناس رنين مسموع . ولكننا فى الحقيقة نعوّق قيام هذه القاعدة بهذه التمييع الذي نصنعه في قضية الحكم بما أنزل الله . . فلا يعود عند الجماهير تصور واضح للسلوك « الإسلامى» الواجب فى هذه الشئون . . ولن تتكون القاعدة بالحجم المطلوب لقيام الحكم الإسلامي حتى ينضج وعي الجماهير ، وتعلم علم اليقين أن عليها ـ عقيدةً ـ أن تسعى لإقامة الحكم الإسلامى وحده دون أى حكم سواه ، وألا تقبل وجود حكم غير حكم الله .

والمزلق الثالث أن لعبة « الدبلوماسية » كما أثبتت تجارب القرون كلها ، لعبة يأكل القوى فيها الضعيف ، ولا يتاح للضعيف من خلالها أن « يغافل » القوى فينتزع من يده شيئا من السلطان!

والقوة والضعف ـ في لعبة الدبلوماسية ـ لا علاقة لها بالحق والباطل ! ولا علاقة لها بالكثرة والقلة!

فالأقلية المنبوذة من الشعب ، المكروهة منه ، التي تسندها في الداخل القوة العسكرية ، وتسندها من الخارج إحدى القوى الشيطانية الموجودة اليوم في الأرض هى القوية ، ولو لم يكن لها أنصار . . والأكثرية المسحوقة المستضعفة هي الضعيفة ، ولو كانت تمثل أكثرية السكان !

ومن ثم فالجماعات الإسلامية ـ الداخلة في التنظيمات السياسية لأعداء الإسلام ـ هى الخاسرة فى لعبة الدبلوماسية ، والأعداء هم الكاسبون ! سواء بتنظيف سمعتهم

أمام الجماهير ، بتعاون الجماعات الإسلامية معهم ، أو تحالفها معهم ، أو اشتراكها معهم في أي أمر من الأمور ؛ أو بتمييع قضية الإسلاميين في نظر الجماهير ، وزوال تفردهم وتميزهم الذى كان لهم يوم أن كانوا يقفون متميزين فى الساحة ، لا يشاركون في جاهلية السياسة من حولهم ، ويعرف الناس عنهم أنهم أصحاب قضية أعلى وأشرف وأعظم من كل التشكيلات السياسية الأخرى ، التى تريد الحياة الدنيا وحدها ، وتتصارع وتتكالب على متاع الأرض . . ولا تعرف فى سياستها الأخلاق الإسلامية ولا المعانى الإسلامية . . فضلا عن مناداتها بالشعارات الجاهلية ، وإعراضها عن تحكيم شريعة الله . . ولم يحدث مرة واحدة في لعبة الدبلوماسية أن استطاع المستضعفون أن يديروا دفة الأمور من داخل التنظيمات السياسية التى يديرها أعداؤهم ، لأن « الترس » الواحد لا يتحكم فى دوران العجلة ، ولكن العجلة الدائرة هي التي تتحكم في « التروس » ! وما يحدث من « إصلاحات » جزئية عارضة في بعض نواحي الحياة على يد « الإسلاميين » لا تطيقه الجاهلية ولا تصبر عليه ، وسرعان ما تمحوه محوا وتبطل آثاره . . وتظل الآثار السيئة التي ينشئها تمييع القضية باقية لا تزول ، وشرها أكبر بكثير من النفع الجزئى الذي يتحقق بهذه المشاركة ، حتى لكأنما ينطبق عليه قوله تعالى :

« فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » [1] .

أما توهم من يتصور أن الجاهلية تظل غافلة حتى يتسلل الإسلاميون إلى مراكز السلطة ، ثم - على حين غفلة من أهلها - ينتزعون السلطة ويقيمون الحكم الإسلامي ، فوصفه بالسذاجة قد لا يكفي لتصويره ! وتجربة الجزائر تكفى - فيما أعتقد - لإبطال هذا الوهم - إن كان له وجود حقيقي في ذهنٍ من الأذهان .

أما الفريق الثالث من المتعجلين فهم أصحاب « التفكير العلمى » و « الدراسات العلمية » !

وقد نبت هذا الاتجاه أو تمركز عند الشباب العربي المسلم الذي يعيش في أمريكا ، وإن كانت له جذور مشابهة أو مماثلة عند غيرهم ممن يعيش في أوربا أو فى « العالم القديم ! » .

---

(١) سورة البقرة [٢١٩] .

يقول أصحاب هذا الاتجاه إن « التجربة الشرقية » قد استنفدت أغراضها ، ووصلت إلى طريق مسدود . . وإنه آن الأوان أن تتسلم قيادة العمل الإسلامي عقول جديدة ، تفكر بطريقة جديدة . . تفكر تفكيرا علميا ، مبنيا على دراسات علمية ، فتقدم للناس الحلول العملية لمشكلاتهم ، مستمدة من الإسلام . . وهذا هو الطريق !

ومن كل قلوبنا نتمنى للقيادة الجديدة التوفيق . . ولكنا نتدارس معهم مدارسة «علمية» و « واقعية » فى مزالق هذا الطريق .

إن تصور أن كل الذي ينقص الناس هو معرفة الحلول الإسلامية لمشكلاتهم ، وأنهم إن عرفوا ووثقوا واطمأنوا أن الحلول الإسلامية أفضل من الحلول الرأسمالية والاشتراكية ، ووثقوا بأنها حلول عملية لا نظرية ، ولا دعائية ، ولا خطابية ، فسيقبلون لتوِّهم على الإسلام ، ويقيمون لتوهم حكومة إسلامية . .

إن هذا التصور قد نشأ - على الأرجح - من حياة أولئك الشباب في ظل الديمقراطية الغربية ، حيث الحرية متاحة لكل الناس أن يفكروا ، وأن يجربوا ، وأن يدعوا ، وحيث يوجد احتمال - ظاهرى على الأقل - أنه حين يقتنع الناس بشيء فإنهم يسعون إلى تطبيقه في عالم الواقع ، ويتمكنون - عن طريق الأجهزة الديمقراطية - من تنفيذه[1] .

ونفترض جدلا أن كل الذى ينقص الناس فى « العالم القديم » هو معرفة الحلول الإسلامية العملية لمشكلاتهم ، وأنهم إن اطمأنوا ووثقوا أن الإسلام يقدم لهم حلولا عملية أفضل مما تقدم الرأسمالية والاشتراكية ، فسيسعون بالفعل لإقامة الحكم الإسلامى . .

نفترض هذا . . ونسقط كل الدلالة المرة التي يدل عليها مرور مقتل الإمام الشهيد ومرور مذابح السفاح هينة على قلوب الناس ، لأن وعيهم بأن تحكيم شريعة الله جزء من عقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، مازال ناقصا جدا ، ومازال في حاجة إلى بيان طويل ودعوة وتربية ، حتى تصحح العقيدة إلى صورتها الربانية الحقيقية التى جاء بها رسول الله ﷺ من عند الله .

نفترض هذا . . ونفترض أنه بمجرد أن تعرض عليهم الأبحاث العلمية المتضمنة

---

(١) من العجيب أن يمارس هؤلاء الشباب الحياة في أمريكا ثم يغفلون عن الحقيقة الكبرى هناك ، وهى أن اليهودية العالمية هى التى تحكم من خلال الديمقراطية . . وأن أي فكر مخالف لمصالحها لايتاح له أن يتحول إلى واقع عملي !

للحلول الإسلامية العملية سيقتنعون بالإسلام ، وبضرورة « الحل الإسلامى » ، ويسعون إلى التطبيق ، أو يطالبون بالتطبيق . . فماذا تكون النتيجة؟

هل تقول روسيا وأمريكا إنه مادام المسلمون قد اقتنعوا عن طريق الدراسة العملية والتفكير العلمي بضرورة إقامة حكومة إسلامية فدعوهم وشأنهم ! وليقيموا حكمهم الإسلامي الذي ينشدون ؟! أم إنهما ستكلفان عملاءهما ـ كما تفعلان الآن ـ بتذبيح المسلمين وتقتيلهم ، وتشريدهم وتعذيبهم ، لكي يتخلوا عما هم مقدمون عليه من إقامة حكومة إسلامية في الأرض ؟!

وعندئذ . . هل يكفي « الاقتناع» وحده ، و «التفكير العلمي » وحده ، لمواجهة التعذيب الوحشي الذي يصب على المسلمين المطالبين بتحكيم شريعة الله ؟ أم يحتاج الأمر إلى « عقيدة» ؟ . . العقيدة التي تقول إنها قضية كفر وإيمان لا قضية الحل «الأفضل » . . قضية جنة ونار ، لا قضية مشكلات عملية في الحياة الدنيا تحتاج إلى حل ! والتي يستيقن الناس بها أنهم لا يكونون مؤمنين ، ولا يتقبلهم الله يوم القيامة إذا أرادوا التحاكم إلى غير شريعة الله ، أو رضوا بحكم غير حكم الله . .

ولا شك أن الإسلام هو دين الدنيا والآخرة . وأنه ليس عقيدة فحسب ، إنما هو عقيدة ومنهج كامل للحياة ، محسوب فيه كل احتياجات البشرية في الحياة الدنيا ، بل محسوب فيه أن ترتفع الحياة البشرية عن مستوى الضرورة ، وتصل إلى درجة «الجمال» ودرجة « الإحسان » في كل شيء :

﴿إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته !﴾[1] .

وأنه يقدم لتلبية هذه الاحتياجات وتنميتها وترقيتها أفضل منهج وأحسنه :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟! ﴾ [2] .

صحيح هذا كله . . ولكنْ لأمر ما أمر الله رسوله ﷺ أن يقيم الاعتقاد الصحيح أولاً ، ويجلّي للناس حقيقة الألوهية ، ويبين لهم أن الالتزام بما جاء من عند الله من أمر ونهي هو مقتضى هذه العقيدة الذي لا تصح بدونه ، ثم ـ بعد ذلك ـ أنزل « الحلول

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه انظر فصل « وليرح ذبيحته » من كتاب « قبسات من الرسول» .

(٢) سورة المائدة [٥٠] .

العمليـة » لمشـكلات البشرية ، وجعل الالتزام بهـا قضيـة كفر وإيمان ، وقـضيـة جنة ونار :

﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك .. ﴾[1] .

﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾[2] .

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء ﴾[3] .

﴿ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ﴾[4] .

فإن نحن قدمنا « الحلول العملية » للناس قبل أن يستقر في خلدهم - إلى درجة اليقين - أن التزامهم بشريعة الله أو عدم التزامهم بها هو قضية الإيمان والكفر . . قضية الجنة والنار . . فهل يتم الأمر على الصورة التي يتخيلها الباحثون ؟!

وما القول في الذين يقولون لك - وهم كثير - بعد أن تقنعهم عن طريق البحث العلمي والدراسة العلمية أن الحل الإسلامي هو الأفضل ، يقولون لك : اقتنعنا ! وما كنا نتصور - والله - أن الإسلام بهذه العظمة وهذا الشمول وهذه القدرة على تقديم الحلول العملية لمشكلات الناس ! هلموا ! أقيموا الدولة الإسلامية ، وحين تقيمونها ستجدوننا أول المستجيبين !

هل تقوم الدولة الإسلامية على هذه الصورة ؟!

إن الاقتناع العقلي وحده لم يغير قط شيئا في عالم الواقع ، حتى في أوقات السلامة والأمن ، فضلا عن حالات الاضطهاد الوحشي ! وهذه هى « الفلسفة » منذ سقراط وأرسطو إلى وقتنا الحاضر . . هل غيرت شيئا في واقع الأرض ؟ إلا أن تكون عقيدةً أو مرتكزة على عقيدة ، فعندئذ تكون العقيدة هي التي تغير واقع الناس .

والذي أثبتته التجربة في « العالم القديم » أن هذه العقيدة هى التي تحتاج قبل كل شيء إلى تصحيح . . لأنها فرّغت من محتواها خلال الأجيال ، وفي القرن الأخير خاصة ، فأصبحت في حاجة ملحة إلى بيان حقيقتها ، ثم تربية الناس على مقتضى هذه الحقيقة حتى يصبح سلوكهم العملي في كل المجالات - ومن بينها مجال السياسة والحكم ، والاجتماع والاقتصاد ، والعلم والفكر - مطابقا لمقتضيات لا إله إلا الله .

---

(١) سورة النساء [٦٥] . (٢) سورة المائدة [٤٤] .

(٣) سورة الأعراف [٣] . (٤) سورة الشورى [٢١] .

ونحن مع ذلك لا نقول للباحثين العلميين لا تبحثوا! بل نحن نفرح بكل بحث متعمق يظهر من حقائق الإسلام ما كان خافيا من قبل . . ولكن فيم يكون البحث ؟ وعلى أي نحو يكون ؟

إن هناك في الحياة البشرية ـ وفي الإسلام كذلك ـ ثوابت ومتغيرات .

هناك أمور ثبتها الله سبحانه وتعالى وأمر بتثبيتها على صورتها في حياة الناس ، كعقيدة لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ بمعناها الشامل المتكامل الذي نزلت به من عند الله ، والذي يشتمل فيما يشتمل على الالتزام بكل ما جاء من عند الله ـ والعبادات بجملتها وتفصيلاتها ، والحدود ، وغير ذلك مما فصله الفقهاء .

وهناك أمور متغيرة أذن الشارع بالاجتهاد فيها ، ولكنه قيدها ـ في تغيرها الدائم ـ بمحاور ثابتة أو أصول ثابتة ، لا يجوز أن تحيد عنها في أثناء تغيرها ونموها بما يلائم ما يجد من أمور في حياة الناس .

فحين نبحث اليوم بحثا علميا في الحلول الإسلامية الواقعية للمشاكل الحاضرة ففي أي شيء نبحث : في المحاور الثابتة أم في التفصيلات المتغيرة؟

أما البحث في المحاور الثابتة فواجب ، وهو جزء من الفقه اللازم لهذا الدين . وكلما اتسع علم الناس بحقائق دينهم كان ذلك أوفق لهم ، وأحرى باستقامة طريقهم .

أما المتغيرات ـ وخاصة في المشاكل الاقتصادية التي هي عقدة العقد في حياة الناس اليوم ـ فحين نبحث فيها ، فلمن نقدم البحث على وجه التحديد ؟ وعلى « مقاس» مَن نقيم البحث ؟ أو بعبارة أخرى : على أساس احتياجات أى قوم من الأقوام ، وأى زمان من الأزمان ؟!

نحن الآن في عام ١٤٠٦ من الهجرة (١٩٨٦ من الميلاد)[١] فحين نقوم ببحث اقتصادي نبرز فيه مقدرة الإسلام على حل المشاكل الاقتصادية بصورة عملية أفضل مما تقدمه الرأسمالية والاشتراكية . . فلمن نقدمه ؟ للمسلمين ؟ أم لغير المسلمين من سكان أوربا وأمريكا ؟!

وقد يبدو السؤال لأول وهلة غير ذي موضوع ! فنحن نقوم بأبحاثنا ونقدمها ـ بداهة ـ للمسلمين ! ولكنا نقصد السؤال حقيقة لننبه القيادة الجديدة إلى أمر لسنا ندري مدى تبينها له .

---

(١) هذه هى السنة التى كتب فيها الكتاب ، والآن بعد ما يزيد على عشر سنوات لم يتغير الوضع !

فأين هم المسلمون اليوم - على وجه الأرض كلها - الذين سيطبقون محتويات هذا البحث لينقذوا اقتصادهم من حمأة الجاهلية ويضعوه على قاعدة إسلامية ؟!

ولنذكر أن بحثنا ليس في النظرية ، وإنما هو في التطبيقات . . فإذا لم يكن هناك الآن من يطبق ، فأي عبث نقوم به حين نصرف جهدنا ووقتنا وطاقتنا في استنباط حلول عملية غير قابلة للتطبيق في عالم الواقع ، لا لأنها هي في ذاتها غير قابلة للتطبيق ، ولكن لأن المطبقين لم يوجدوا بعد ، أو لم توجد لديهم بعد القدرة على التطبيق ؟!

ولقائل أن يقول ولا شك : نحتفظ به ليكون جاهزا عند قيام الدولة الإسلامية ، فتطبقه على الفور ، مدروسا مفحوصا موثقا مفصلا ، بدلا من أن تقع في الحيرة عند قيامها ، ويبدو أمام العالم كله عجزها عن حل مشاكلها بمقتضى نظامها وعقيدتها .

وهذا القول الذي يبدو وجيها لأول وهلة ، هو عارٍ عن الوجاهة من الناحية العملية البحتة !

فهل يعلم أحد على وجه اليقين - أو حتى على وجه التخمين - متى تقوم الدولة الإسلامية المنشودة ؟!

وهل يستطيع أحد على وجه اليقين - أو حتى على وجه التخمين - أن يقول كيف تكون صورة المشكلات الاقتصادية يوم تقوم الدولة المنشودة؟!

فأى عبث في أن نبحث - الآن - تفصيلات الحلول العملية لمشكلات زمن لا نعرف على وجه التحديد متى يكون ، ولا نعرف على وجه التحديد كيف سيكون حجمها وشكلها يوم نحاول أن نواجهها بالحل الإسلامى ؟!

إن المشكلات الاقتصادية بالذات هي أشد المتغيرات تغيرا في عالمنا المعاصر . . فلو قلنا إننا نتوقع قيام الدولة الإسلامية خلال عشر سنوات من اليوم - وهو قول لا يسنده أي دليل « علمي » - فهل نضمن - من الوجهة العملية - أن مشكلات اليوم - التي نقيم بحوثنا على أساسها - ستظل على صورتها عشر سنوات فقط ، حتى نجهز لها الحلول العملية من الآن ؟!

فإذا افترضنا أن الدولة الإسلامية تستغرق في قيامها ربع قرن أو نصف قرن ، وهو أيضا رجم بالغيب لا يستند إلى أدلة « علمية » حقيقية ، فهل تبقى المشاكل الاقتصادية

مـجـمـدة على صـورتهـا التي نبـحـثـهـا اليـوم ، حـتى نهـيـىء لهـا الحلول الجاهزة التي تستخدمها الدولة فور قيامها؟!

بل هل نحن على يقين من أن مشكلات الدولة الإسلامية - حين تقوم في أي لحظة - ستكون هي بذاتها مشكلات العالم الرأسمالى الحاضرة، وهي نواة أبحاثنا كلها حتى الآن ؟!

مازلت أذكر مؤتمرا اقتصاديا إسلاميا ضخما عقد من أجل البحث في مشكلة التأمين من الوجهة الإسلامية ، وهل هو حلال أم حرام ، وما الصورة الإسلامية التى يمكن أن يكون عليها لو أردنا أن تكون حياتنا الاقتصادية إسلامية؟!

وقلت يومهـا للمؤتمر [1] - وأنا لست من رجال الاقتصاد - إنني أخشى أن نكون قد وجهنا جهدنا إلى بحث مشكلات تفرضها علينا اليوم الجاهلية الرأسمالية التي تضغط على واقعنا الاقتـصـادي ، ولكنهـا قـد لا تكون مـوجـودة على الإطلاق في الدولة الإسلامية حين تقوم . فمن أدرانا أن كل مشاكل التأمين الحالية قد نجمت من تعطيل وظيفة بيت المال الإسلامي ، وأنه حين يقدر للدولة الإسلامية أن تقوم ، وتعيد لبيت المال وظيفته ، لا تكون هناك حاجة إلى التأمين كله بصورته الحالية ، وحينئذ يكون بحثنا في كونه حلالا أو حراما في صورته الراهنة إضاعة للجهد بلا طائل!

ولكن المؤتمر الموقر لم يلتفت بطبيعة الحال إلى هذا التحذير ، ومضى يبحث بهمة «علمية» فائقة فى مشكلة التأمين ! وانتهى إلى نتيجة لم يوافق عليها كل المؤتمرين، هي أن التأمين بصورته الحالية حرام ، ولابد من البحث عن « صيغة» إسلامية تنفى ما يحوط الصورة الحالية من الربا أو شبهة الربا !

ولنفترض من الجانب الآخر أن الله سبحانه وتعالى لم يُجْر سنته الجارية في إقامة الدولة الإسلامية ، بل أجري بفضله ومنّه وكرمه سنته الخارقة ، فقامت الدولة الإسلامية غدا ، ونحن غافلون لم نحضّر شيئا لقيامها ، ولا جهزنا الحلول العملية للمشاكل التي ستواجهها ! فهل يبرر هذا الفرض أن نصرف طاقتنا اليوم في استنباط الحلول العملية لتلك المشاكل ؟!

---

(١) فى كلمة بعنوان « آمال ومحاذير ».

كلا بالطبع ! فحين يجرى الله سنته الخارقة ، فسيحقّها ـ سبحانه ـ بالخوارق التى تحل المشاكل فى لحظات !

إنما نحن مأمورون أن نتعامل مع السنة الجارية ، وإن كنا لا نكف عن التطلع إلى رحمة الله في كل لحظة . . تلك السنة التي يقول لنا عنها ربنا في كتابه العزيز :

﴿ هو الذى أيدك بنصره ، وبالمؤمنين ﴾ (١) .

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ..﴾ (٢) .

ليلفتنا إلى أمرين مهمين : أنه لابد من وجود مؤمنين مجاهدين ، يكونون ستارا لقدر الله في الأرض . وأنه لابد لأولئك المؤمنين أن يعدوا كل ما في طاقتهم من قوة لنصرة الحق . . وعندئذ يأتي نصر الله . لا عجزا من الله سبحانه أن ينصر دينه بغير أدوات بشرية على الإطلاق ، وبغير جهد بشري على الإطلاق ـ وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ـ ولكن لأنه هكذا جرت سنته سبحانه :

﴿ولو يشاء الله لا نتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ (٣) .

﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (٤) .

والسنة الجارية ـ التي نحن مأمورون أن نتعامل معها ، وإن كنا لا نكف لحظة واحدة عن التطلع إلى رحمة الله ـ هذه السنة تقول إنه لابد أولا من إقامة القاعدة المسلمة المؤمنة بالحجم المعقول ، ثم نتوقع إقامة الدولة الإسلامية بعد ذلك ، بعد جهاد ـ قد يطول ـ تقوم به تلك القاعدة مع الجاهلية المتربصة بها في كل مكان .

وحين يكون الأمر على هذه الصورة ، فإن الانصراف عن إقامة القاعدة المسلمة المؤمنة المجاهدة الصابرة على الابتلاء ، إلى البحث عن « الحلول العملية لمشكلاتنا المعاصرة » . . يكون عبثا غير معقول !

إننا ـ أحيانا ـ نُستَدْرَج بسؤال يلقيه علينا بعض الناس ، بعضهم بإخلاص كامل ونية حسنة ، وبعضهم بخبث شديد وكيد مقصود ، يسألوننا : كيف تواجهون المشاكل

---

(١) سورة الأنفال [٦٢] . (٢) سورة الأنفال [٦٠] .
(٣) سورة القتال [٤] . (٤) سورة القتال [٧] .

المعاصرة حين تقيمون نظامكم الإسلامي ؟ كيف تصنعون مثلا في المشاكل الاقتصادية؟[1] هل عندكم حلول عملية ؟ !

ويستدرجنا السؤال ، الملقى علينا بحسن نية أو بسوء نية ، فننصرف - دون أن نحس - عن محاولة الإجابة عن السؤال الذي ينبغى أن يكون ملء تفكيرنا في اللحظة الحاضرة ، وهو : كيف نقيم الدولة الإسلامية ؟ إلى محاولة الإجابة عن سؤال آخر ، يأتي ترتيبه فيما بعد ، وهو : كيف تصنع الدولة الإسلامية - حين تقوم - فى مواجهة المشاكل المعاصرة !

بل قد نُستدرج أكثر ، فنظن - بغير وعي - أن إجابتنا عن السؤال الآخر هي في الوقت نفسه إجابة السؤال الأول ! أي أننا حين نقدم الحلول العملية للمشاكل الحاضرة ، نوجد بذلك القاعدة الإسلامية التي تقيم الدولة !

وهو وَهْمٌ ناقشناه من قبل وبينّا زيفه . . ففي الأحوال الراهنة ، حيث تحيط عداوات العالم كله تتربص بالمسلمين لتمنعهم من مزاولة إسلامهم - بإقامة الحكومة التي تحكم بما أنزل الله - فلن يكون الاقتناع العقلى بقدرة الإسلام على تقديم الحلول العملية هو الأداة اللازمة لمواجهة تلك العداوات الضارية ، إنما ستكون الأداة هى العقيدة، التي تقول للناس إنها قضية إيمان وكفر . . قضية جنة ونار . .

ومن لم يدخل من باب العقيدة . . من باب لا إله إلا الله (على حقيقتها الربانية) . . فسيظل « يتفرج» على الإسلام ، وعلى الحلول الإسلامية ، دون أن يدخل المعمعة . . دون أن يخوض المعركة الضارية التي تقيمها الجاهلية المعاصرة ضد الإسلام، وتفرض على المسلمين أن يخوضوها ، إن لم يكن اليوم فغدا . . [2].

وهذا المتفرج من بعيد - أيا تكن درجة اقتناعه ، بل أيا تكن قدرته على تقديم « الحلول العملية » - لن يكون هو الذى يقيم الحكم الإسلامى . . إنما يقيمه - حين يأذن الله - أصحاب العقيدة الصحيحة ، التي يستيقن أصحابها أن إقامة الحكم الإسلامى هو المقتضى الطبيعى لقولهم لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأن ما يصيبهم من تقتيل

---

(١) أو السياسية أو الاجتماعية . . الخ .

(٢) المعركة اليوم مفروضة على الجماعات الإسلامية في كل مكان ، وغدا يفرضونها على الأمة الإسلامية بكاملها (انظر الفصل القادم « نظرة إلى المستقبل ») .

وتعذيب في سبيل إقامة حكم الله في الأرض ، هو أخصر طريق وأضمن طريق إلى الجنة التي وُعِدَ المتقون :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ [١] .

والقيادة الجديدة ، التي تسعى إلي قيادة العمل الإسلامي بتقديم الحلول العملية للمشكلات المعاصرة ، ينبغي أن تكون أكثر بصراً بطبائع النفوس ، وأكثر واقعية في مواجهة الأحداث ، من أن يصرفها استدراج من كان من الناس ، عن محاولة الإجابة عن السؤال الأول إلى محاولة الإجابة عن السؤال الأخير !

* * *

إنه لابد من ارتياد الطريق الطويل . . المجهد الشاق . . البطيء الثمرة . . المستنفد للطاقة ، طريق التربية ، لإنشاء « القاعدة المسلمة » الواعية المجاهدة ، التي تسند الحكم الإسلامي حين يقوم ، وتظل تسنده لكى يستمر في الوجود بعد أن يقوم . . وقد رأينا في دراستنا التي ناقشنا فيها الوسائل الثلاثة التي يستخدمها المتعجلون ـ كلٌّ من زاويته ـ أنها كلها تؤدي إلى طريق مسدود ، وإن بدا في ظاهر الأمر أنها هي « الحركة » التي تخرج « بالعمل » من حالة الجمود !

فالصدام مع السلطة قبل وجود القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة عمليات انتحارية لا طائل وراءها ، إلا إعطاء الطغاة حجة لتقتيل المسلمين وتذبيحهم ، والناس غافلون عن حقيقة المعركة ، وعن كون هؤلاء الطغاة إنما يعملون ما يعملون عداءً للإسلام ذاته ـ لا رداً على عمل بعينه ـ وولاءً للصليبية الصهيونية التي تحارب الإسلام في كل الأرض[٢] .

والتسلل إلى داخل الأجهزة السياسية مع عدم وجود القاعدة المسلمة الواعية

(١) سورة التوبة [١١١] .

(٢) دخل علينا ذات صباح في « السجن الحربي » مدير السجن وجلاده الأكبر حمزة البسيوني الذي نكّل الله به فيما بعد في حادث سيارة تناثرت فيها جثته على مساحة من الأرض ، وكنا في « طابور » التعذيب الذي يبدأ يوميا في الساعة السادسة صباحا وينتهي في الرابعة والنصف بعد الظهر ، وبعد استعراض بالجري والمشي بالخطوة السريعة قام به أمامه الجلاد الأصغر ليظهر همته في تنفيذ الأوامر قال حمزة البسيوني ، وكان يركب حصانه : « بعد الذي صنعناه كله فيكم يا أولاد الـ . . وما زلتم أحياء ؟ ماذا نصنع فيكم أكثر من ذلك ؟! كل الذي نستطيعه أن نأتي بكم كل بضع سنوات ونعطيكم «علقة» مثل هذه ! » أي أن هذا مخطط سلفا ، سواء وجدت المبررات أم لم توجد !!

المجاهدة عملية عبثية لا طائل وراءها ، إلا تمييع القضية في نظر الجماهير ، وتأخير النضج اللازم لإقامة القاعدة التي لا يقوم بغيرها الحكم الإسلامى .

والبحث عن الحلول العملية للمشاكل المعاصرة قبل وجود القاعدة المشار إليها آنفا صرفٌ للجهد بلا طائل ، وتحويلٌ للطاقة العاملة في الساحة من ميدانها الأول الأصيل إلى ميدان جانبى ، يستنفد الطاقة وهو لا يؤدى - الآن - إلى شيء ، ويوهم صاحبه في الوقت ذاته أنه « يعمل » ، بل أنه يعمل العمل الواجب ، فلا يحس بالتقصير الذي يمارسه في الميدان الأول الأصيل ، إن لم ينظر إلى العاملين فيه على أنهم هم العابثون المضيعون !!

وحين نقول إنه لابد من التربية أولا لإنشاء القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة ، يثور كثير من التساؤلات والتصورات :

ربينا بما فيه الكفاية !

إلى متى نظل نربي دون أن « نعمل » !

ما جدوى التربية وكلما ربينا جيلا من الشباب قضى عليه الأعداء !

ما المقصود بالتربية ؟!

ونريد الآن أن نلقي بعض الضوء على المقصود بالتربية . . ولكن لابد من تصحيح بعض هذه التصورات أولا تمهيدا لبيان الصورة الصحيحة المطلوبة ، المثمرة بإذن الله .

إن الذين يقولون : ربينا بما فيه الكفاية ، يغفلون عن حقائق كثيرة واقعة في الساحة .

ربما كان أفضل لون من التربية قام في الساحة حتى اليوم هو الذي قام به الإمام الشهيد بين « الإخوان العاملين » الذين رباهم على عينه . وأفضل جوانب هذه التربية هو الأخوّة المتينة التي رباها في أتباعه ، والروح الفدائية الصادقة التي طبعهم بها ، والجندية الملتزمة التى زرعها في نفوسهم ، ثم تحرير لا إله إلا الله في حسهم من تواكل الصوفية وتواكل الفكر الإرجائي ، وتحويلها في سلوكهم إلى حركة واقعية وعمل . .

ولكنا رأينا كم من الجوانب كان ينقص هذه التربية ذات الطابع الأصيل العميق ، وكم أثر هذا النقص في خطوات العمل الإسلامى بعد مقتل الإمام الشهيد بصفة خاصة . .

ولا ندرى كم من هذه الجوانب كان الإمام الشهيد قمينا بإضافته أو تصحيحه لو امتد به العمر . . ولكنا نجد على الساحة الواقعية أن الجنود قد ربوا ليكونوا جنودا فحسب ، لا ليكونوا قادة بعد ذهاب قائدهم ، كما ربى رسول الله ﷺ أصحابه ليكونوا جنودا فائقين تحت قيادته ﷺ ، وليكونوا في الوقت ذاته « صفا ثانيا » بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، كما كان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم في قيادة الأمة ، وكما كان بقية الصحابة رضوان الله عليهم فى كل ميدان انتدبوا إليه . .

نجد غياب « الصف الثانى » على المستوى المطلوب للجماعة التى تتزعم العمل الإسلامى فى ظروفه الراهنة واضحا ملموسا كلما امتد الزمن بعد مقتل الإمام الشهيد، فندرك - على الصعيد الواقعى - أنه كان هناك نقص في التربية ، في هذا الجانب ، ينبغى أن يستدرك ونحن نُعدّ لمسيرة طويلة قد تستغرق بضعة أجيال من عمر الدعوة قبل أن يكتب لها التمكين فىَ الأرض .

ومن قبل لاحظنا العجلة في الإعداد والعجلة في التحرك والعجلة في السماح للجماهير بالانتماء للحركة قبل تربية العدد المناسب من الدعاة ، الذين هم جنود تحت قيادة القائد ، وقادة في ذات الوقت ومربون . . وكيف كان لهذا كله آثاره في خط السير . والمفروض - ونحن نعد للمسيرة الطويلة - أن نتلافى كل هذه الجوانب من النقص التي اشتملت عليها الجولة الأولى ، أي أن نغيّر أسلوب التربية بما يتناسب مع أهداف الحركة ، وطول المسيرة ، ومشقة الطرق ، وكيد الأعداء . .

فإذا نظرنا إلى الساحة الآن فقد نجد نوعيات أفضل في بعض الجوانب . . ولكنا نجد نقصًا كبيرا في التربية في جوانب أخرى . نجد شبابا أكثر وعيا بمفهوم لا إله إلا الله ، وصلتها الوثيقة بتحكيم شريعة الله . . أي أكثر إدراكا لقضية « الحاكمية » التي كانت قد أجملت إجمالاً من قبل جعلها تخفى على كثير من الدعاة أنفسهم . ونجد شبابا أكثر إدراكا لطبيعة المعركة وما يلقى فيها من الأسلحة الظاهرة والخفية ، ودور الأجهزة المختلفة في محاربة الدعوة عن طريق مناهج التعليم ووسائل الإعلام ، وإثارة قضايا سياسية واجتماعية وفكرية معينة ، تتجه بالناس وجهة بعيدة عن الإسلام ، وتبعدهم باستمرار عن التلقي من المصدر الربانى . . ولكن هؤلاء الشباب - في كثير من الأحيان - ينقصهم التجمع الصحيح ، فيتجمعون في جماعات صغيرة مبعثرة ، يكيد بعضها لبعض ، أو يتربص بعضها ببعض ، أو يتجادل بعضها مع بعض بروح الخصام لا بروح

المودة . ويمكن أن تنقسم الجماعة الصغيرة إلى جماعات أصغر عند أول اختلاف على تفسير نص من النصوص ، أو تقويم قضية من القضايا . . مما يقطع بأن التربية الجماعية عندهم ناقصة . وأن الروح الفردية فيهم أقوى . بينما التربية المطلوبة - لتنشئة المسلمين عموما فضلا عن الجيل الذي يقع عليه عبء المواجهة الأولى مع الجاهلية - ينبغي أن توازن بين الروح الفردية والروح الجماعية عند أفراد الجماعة ، فلا تحيلهم أصفارا عن طريق تنمية الروح الجماعية على حساب الروح الفردية ، ولا تنمي فيهم الفردية الجانحة فيعتز كل منهم بفكره وبذاته وبتقييمه الخاص للأمور ، فلا تأتلف منهم جماعة ، ولا يلتئم لهم تجمع له وزن [1] .

كما أن هذا الشباب - في معظم الأحيان - تنقصه الخبرة الحركية (وهي جزء من التربية المطلوبة) ، مع أنه أكثر وعيا من الجيل السابق في كثير من القضايا ذات الطابع الفكري . ومن أجل هذا يتعجل في الصدام مع السلطة ، وفي استعراض قوته في قضايا لا تقدم ولا تؤخر ، أو في قضايا ذات وزن وذات خطر ولكن لا يستطيع المسلمون في حالتهم الراهنة أن يغيروا شيئا من مجراها . .

تجمع شباب الجماعات الدينية بجامعة الإسكندرية ذات مرة ، للحيلولة بالقوة دون إقامة حفل كانت إدارة الجامعة قد رتبته لمكايدة الجماعات الدينية خاصة والروح الإسلامي عامة . . وبالفعل نجح شباب الجماعات الدينية في منع إقامة الحفل رغم كل الترتيبات الرسمية التي رتبت له ، فلم يحدث ما كان مرتبا من رقص وغناء وتمثيل مبتذل . .

هذا نموذج لبعض « النشاط » الذي كانت تقوم به الجماعات الدينية في الجامعات . . فما تقويمه الصحيح ؟

إن استعراض القوة على هذا النحو كان بالفعل يرهب « المتحررين » و«المتحررات» من الطلبة والأساتذة على السواء . . فلا تجرؤ «فتاة جامعية» على التبذل الرخيص الذي يقع من كثير من « الفتيات الجامعيات » حتى كأنهن راقصات في ملهى ، أو عارضات أزياء في محل تجاري متبذل ، لا طالبات علم يتحشمن على الأقل في وقت تلقي العلم ، كما تتحشم الفتاة الأوربية الملحدة الكافرة المنسلخة تماما من كل دين أو أخلاق أو تقاليد ، في أثناء الساعات التي تتلقى فيها العلم ! ولا يجرؤ فتى شيوعي « متحرر »

---

(١) سنتكلم عن قضية « السمع والطاعة » فيما يلي من الحديث .

على مهاجمة الإسلام جهرة . . ولا يجرؤ أستاذ على السخرية بالإسلام كما يفعل «المتحررون » ، محتمين بالكرسي الذي يجلسون عليه ، و « بالنظام العام » الذي يحميهم وهم يهاجمون الدين والأخلاق والتقاليد باسم « التحرر الفكري» أو « الروح الجامعية ! » .

نعم ! ولكن !

قد يكون هذا سلوكا مناسبا لو أن لتلك الجماعات الدينية وجودا دائما في الجامعات ، بحيث يكون لهذا الوجود ضغط مستمر يقاوم ضغط الشيوعيين والملحدين و « المتحررين » لإفساد الأخلاق ، وصرف الشباب والفتيات عن القيم الدينية ، وإشاعة التحلل الخلقي بينهم . .

أما إذا كان وجود تلك الجماعات عابرا - كما سنبين في السطور التالية - فهل هذه العملية المفردة ستغير شيئا حقيقيا في حياة الفاسدين والفاسدات من الأساتذة أو الطلاب ؟ أم الأجدى - وقد أتيحت الفرصة لتلك الجماعات أن توجد فترة محدودة من الزمن - أن ينصرف الجهد إلى التربية الحقيقية على مبادئ الإسلام ، وكل شاب فرد ، وكل فتاة ، وكل مدرس أو أستاذ ، تنقذهم هذه الجماعات من الوحل الذي يرتعون فيه إلى النظافة والطهر ، هو كسب للدعوة ، وعمل مثمر خير من الدنيا وما فيها كما قال رسول الله ﷺ ؟

« لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها » أو قال : « خير لك من حمر النعم »[1] .

لقد كانت « اللعبة » التي أبرزت تلك الجماعات الدينية إلى الوجود أن الحاكم يومئذ كان يواجه ضغطا شديدا من التيار الشيوعي ، والتيار الناصري المتحالف معه ، فكان منطقيا بالنسبة إليه أن يستند - مؤقتا - إلى التيار الإسلامي ، فيفسح له المجال للعمل والحركة ، ليصد عنه هو شخصيا الضغوط التى يواجهها ، لا لينظف الجامعة من الفساد والإلحاد والكفر والتحلل الخلقي ، ولا لينشىء في البلد حركة إسلامية تطهرها من تلك الأدران ! وليتعرف في ذات الوقت - عن طريق أجهزته البوليسية - على القوى الكامنة في الشباب ، ليضربها في الوقت المناسب - بعد أن تنتهي « اللعبة » - ضربة تشلها عن الحركة أو تقضى عليها !

---

(١) سبقت الإشارة إليه .

فهل كان استعراض القوة في حادث الحفل الذي أشرنا إليه - أو أمثاله - هو السلوك الحركي المناسب إزاء هذه اللعبة ؟ ! أم إنه كان قمينا بالتعجيل في إنهاء اللعبة وتوجيه الضربة؟

وحقيقة إن الضربة كانت آتية لا ريب فيها كما أشار إلى ذلك مدير السجن الحربي[1] . فبمجرد أن يحس « المسئولون » أن التيار الإسلامي قد أخذ يقوي ، يتفجر الموقف بالضرورة للقضاء على الخطر المرهوب ، الذي تخشاه الصليبية الصهيونية وكل من يعمل لحسابها في الأرض . .

ولكن يختلف الأمر حين يكون كل « العمل » الذي تقوم به تلك الجماعات هو تربية شباب نظيف الأخلاق ، متطهر من الدنس ، يعرف ربه ولا يعرف رجس الشيطان . . فإن الحاكم يتردد كثيرا في ضربها ، ثم يتردد أكثر في استخدام الوسائل الوحشية لتعذيبها ، لأنه يومئذ لا يستطيع أن يبرر عمله الوحشي أمام الجماهير .

وفي وسع أجهزة الأمن بلا شك أن تفتعل قضية ، وأن تنسب إلى الناس جرائم لم يرتكبوها قط ولم يفكروا مجرد تفكير في ارتكابها ، وأن تحملهم - بوسائل التعذيب البربرية - على « الاعتراف » بما لم يفكروا فيه أصلا . .[2] ولكن الجماهير لم تعد اليوم غافلة كما كانت قبل ثلاثين سنة أو عشرين ! وصارت اليوم تقدم سوء الظن بأجهزة الأمن على إحسان الظن ! ولم يعد يسهل على حاكم أن ينقض على جماعة كل عملها هو التربية الإسلامية ، فيصب عليها وحشيته وهو آمن من الإنكار والسخط . وحقيقة إن أولئك الطغاة لا يهمهم كثيرا غضب الجماهير . . ولكن الذين يشغّلونهم لحسابهم لا يحبون أن يكون عميلهم مفضوح الأمر أمام الناس ، لأن هذا يفسد اللعبة في النهاية ولا يحقق المطلوب ! بل إنهم في بعض الأحيان يدفعونه دفعا إلى ما يسخط الناس عليه ، حين يكونون قد قرروا إنهاء دوره والإتيان بوجه جديد ، كما فعلوا بالسادات من قبل ، ومن بعده النميري!

ضربنا نموذجا من إنفاق الطاقة في قضايا لا تقدم ولا تؤخر ، ولا تغير شيئا في

---

(١) راجع الهامشة رقم (٢) ص ٤٥٢ السابقة .

(٢) من النكات التي أطلقت في عهد جمال عبد الناصر أن عبد الناصر تفقد قلمه فلم يجده ، فأبلغ وزير داخليته ، وطلب منه البحث عمن أخذه . فأسرع وزير الداخلية في القيام بالمهمة المطلوبة . وبعد ساعة اتصل عبد الناصر بوزير الداخلية وطلب منه الكف عن البحث لأنه وجد القلم الضائع . فأجاب وزير الداخلية : لكن يا فندم نحن قبضنا على خمسة أشخاص ، وكلهم اعترفوا!!

الحقيقة ، إذ سرعان ما أزيلت الجماعات الدينية من الجامعات ، ورجع الفاسدون والفاسدات أشد فسادا من ذي قبل!

ونضرب الآن نموذجا من قضايا ذات خطر حقيقي ، كقضية تحكيم الشريعة الإسلامية . وهي قضية رئيسية بالنسبة لكيان الأمة كلها ؛ والسعي إلى تحكيم شريعة الله فرض على كل مسلم يقول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، لأنه هو المقتضى المباشر لتلك الكلمة العظيمة التي يعلن بها شهادة الإسلام .

نعم ! ولكن !

هل يمكن حقا أن تقوم شريعة الله في الأرض قبل أن توجد القاعدة المؤمنة الواعية المجاهدة التي تواجه النتائج المترتبة على إعلان الحكم الإسلامي ، وأولها تحرش الصليبية الصهيونية على نحو ما حدث فى الجزائر وفى تركيا ؟

وهل يكفي « الضغط الشعبي » لإقامة الحكم الإسلامي ، إن لم يكن « الشعب » الذي يمارس الضغط مستعداً للجهاد ، ومستعداً لخوض معركة طويلة الأمد ، يصبر فيها على الخوف ، والجوع ، ونقص الأموال ، والأنفس ، والثمرات كما بيّن الله فى كتابه المنزل :

« يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين » [1] .

أليس الأجدى إذن إنفاق الطاقة في إقامة « القاعدة المسلمة » التي تحتمل هذه التبعات الجسام ، بدلا من إنفاقها ـ أو إنفاق قدر منها ـ في المطالبة الشفوية التي لا يترتب عليها شيء في الحقيقة ، إنما تكون كالطلقة الطائشة ، تنبه عدوك إلى مكانك دون أن تصيب شيئا في الواقع ؟!

إن القضية ليست إلهاب حماسة الجماهير لتطبيق الشريعة الإسلامية ، فهذا وحده لا يكفي ، ولا يغيّر شيئا من الواقع ، طالما كانت هذه الجماهير لا تملك إلا تلك الحماسة العاطفية ، التي يمكن أن تنطفىء بذات السرعة التي تلتهب بها . . إنما يتغير الواقع حين « تجند » تلك الجماهير نفسها لقضية تحكيم الشريعة على أساس أن هذا التحكيم هو المقتضى المباشر لقول لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . .

(١)سورة البقرة[١٥٣ـ١٥٥].

والفارق الضخم ـ في مجال الحركة الواقعية ـ بين الحماسة العاطفية التي لا تنتهي إلى شيء واقعي ، وبين تجنيد الناس أنفسهم لهذه القضية ، ينشأ من فارق دقيق ـ وخطير في الوقت ذاته ـ في تفهم حقيقة القضية وإدراك أبعادها . . فحين تكون القضية في حس الناس أن تحكيم الشريعة « كمالات» يكتمل بها دينهم ، ولكنهم قبل ذلك مسلمون ولو رضوا بشريعة غير شريعة الله ، وتحاكموا إليها بغير حرج في ضمائرهم ، سيكون أقصى ما يعطونه للقضية هو تلك الحماسة العاطفية التي لا تصمد للبطش الوحشي الذي يقابل به الطغاة الدعوة لتحكيم شريعة الله . أما حين يستيقن الناس أنهم لا يكونون مسلمين في ميزان الله إذا رضوا بشريعة غير شريعة الله ، وأن إيمانهم لا يكون ناقصا إنما يكون غير قائم أصلا إذا تحاكموا ـ راضين ـ إلى شرائع يضعها البشر من عند أنفسهم بغير إذن من الله . . عندئذ سيجند الناس أنفسهم لتلك القضية ، لأنها ستكون في حسهم قضية إيمان وكفر ، لا مجرد « كمالات» يكملون بها إيمانا موجودا بالفعل ، ومرضيا عند الله!

ولن تقوم شريعة الله في واقع الأرض حتى يجند الناس لها أنفسهم ، ويحتملوا التضحيات في سبيل إقامتها ، أما الحماسةالعاطفية فمهما أعجب الدعاة مظهرها ، فليست رصيداً حقيقيا في المعركة الهائلة التي يرصدها للإسلام أعداء الإسلام!

* * *

تلك نماذج نضربها لصرف الطاقة في غير مجالها الحقيقي ، أو للتقصير في صرفها في مجالها الذي يجب أن توجَّه إليه . ودلالتها أن هناك جوانب نقص في عملية التربية القائمة في ساحة العمل الإسلامي . ذلك أن معرفة العمل الصحيح والسعي إليه ، ومعرفة العمل الخاطئ والانصراف عنه ، هي جزء من «البصيرة » اللازمة لهذه الدعوة، وهي بدورها جزء من التربية الصحيحة اللازمة لإعداد الدعاة ، وخاصة الذين يقع عليهم عبء المواجهة الأولى مع الجاهلية التي تكيد لهم ، وتتربص بهم دائرة السّوْء .

فإذا أضيف إلى ذلك ما يشكو منه كثير من الشباب العاملين في الدعوة من أن بعض «المسئولين » عنهم ينقصهم التجرد الكافي للدعوة ، الذي يجعل مصلحتها الحقيقة هي رائدهم ، لا ذواتهم ، ولا رغبتهم في الظهور والاستحواذ على أكبر عدد من الأنصار .

إذا وضعنا هذا كله في الميزان . . فهل يحق لقائل أن يقول : ربينا بما فيه الكفاية ؟!

* * *

أما الذين يسألون : إلى متى نظل نربي دون أن « نعمل » . . فلا نستطيع أن نعطيهم موعدا محددا فنقول لهم : عشر سنوات من الآن ، أو عشرين سنة من الآن ! فهذا رجم بالغيب لايعتمد على دليل واضح . إنما نستطيع أن نقول لهم : نظل نربي حتى تتكون القاعدة المطلوبة بالحجم المعقول . .

وواضح أن هذه الإجابة غير محددة . . فلا هي تحدد « الزمن » المطلوب ، ولا هي تحدد « الحجم » المطلوب . ولكن الحقيقة أنه لا يوجد بشر في الأرض يستطيع أن يعطى هذا التحديد ، لأن فيه عنصرا بل عناصر غيبية لا يمكن للبشر تحديدها . .

لقد كان الوحي هو الذي ينقّل خطى الجماعة الأولى بقيادة الرسول ﷺ. فقد أمره الله بادئ ذي بدء بإنذار عشيرته الأقربين ، فأخذ يدعو إلي الله سرا فترة من الوقت وهو يتحمل الأذى من عشيرته صابرا محتسبا حتى نزل الأمر الرباني بالجهر بالدعوة ، فصدع رسول الله ﷺ بالأمر . ونزل الأذى بالمؤمنين وتحركت مشاعر بعضهم للرد على الأذى ، فنزل الوحي يقول لهم : « كفوا أيديكم » فكفوا ، واحتملوا الأذى صابرين حتى أذن الله لهم بالقتال فقال سبحانه :

﴿ أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ﴾ (١) .

ثم جاء الأمر بقتال الذين يقاتلون المؤمنين من المشركين ، دون سواهم :

﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ (٢) .

ثم جاء الأمر بقتال المشركين كافة :

﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة .. ﴾ (٣) .

واليوم وقد انقطعت الرسالات وختمت النبوة فلن يتنزل وحي يقول للمسلمين : كفوا أيديكم إلى سنة كذا ، وقاتلوا سنة كذا ! إنما هو الاجتهاد والرأي بحسب الظروف القائمة في الأرض ، وبحسب السنن الجارية التي يجري الله بها قدره في حياة الناس .

وهذه السنن تقول إن الانحراف الضخم الذي وقعت فيه الأمة حتى أصبح الإسلام

---

(١) سورة الحج [٣٩].　(٢) سورة البقرة [١٩٠].　(٣) سورة التوبة [٣٦].

فيها غريبا كما كان غريبا أول مرة ، يحتاج إلى جهد ضخم وزمن غير قصير حتى تعود الأمة إلى الصراط السوي ، أو حتى تعود منها فئة تحتمل الصراع والصدام مع القوى العالمية المعادية للإسلام ، وتصمد لها حتى يمدها الله بالنصر ، ويمكن لها في الأرض ، ويكون لها من رسوخ القدم في الإيمان ، وصدق العزيمة ، والشجاعة في الحق ، والزهد في متاع الدنيا ، والحرص على ما عند الله في الآخرة ، ما يجعلها تحمل العبء صابرة محتسبة ، ويجعلها تحمل أدران بقية الأمة من المنافقين وضعاف الإيمان والمتقاعسين عن الجهاد فلا يخذلونها ، بل ترفعهم هي بالمثال الرفيع الذي تضربه للناس.

﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا ، وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾ (١) .

﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا﴾ (٢) .

﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ (٣) .

﴿ وكأي من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين ﴾ (٤) .

﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيم ﴾(٥) .

فالزمن المطلوب للتربية هو الزمن الذي يكفل ترسيخ هذه الصفات في نفوس الفئة المختارة التي يقع عليها عبء المواجهة مع الأعداء . وهو زمن لا يستطيع بشر أن يحدده على وجه الدقة لأنه غيب . ولأن فيه جملة متغيرات تتغير النتيجة في كل مرة بحسب نوعها ومقدارها.

---

(١) سورة الأنفال [٢-٤] .
(٢) سورة الأحزاب [٢٣].
(٣) سورة المائدة [٥٤].
(٤) سورة آل عمران [١٤٦].
(٥) سورة النساء [٧٤].

فالمتغير الأول هو الجهد الذي ينبغي أن نبذله لبلوغ هذا الهدف الأساسي. فكلما بذلنا جهدا أكبر، كان لنا أن نطمع في تقريب الزمن، أما إذا تراخينا في بذل الجهد، أو لم نوجهه الوجهة الصحيحة فسيطول الزمن ولا شك.

والمتغير الثاني هو مدى استجابة الذين ندعوهم ونربيهم وهذا أمر ليس في يد البشر إطلاقا:

﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين﴾ [1].

إنما كلفنا الله سبحانه وتعالى أن نبذل الجهد، وتكفل هو سبحانه بالنتائج، لأنها تتم بقدر منه، وبحسب مشيئته. وإن كنا نطمع دائما في منّ الله وكرمه، أننا إذا صدقنا في بذل الجهد فإن الله يرتب النتائج في صالح الدعوة. وقد رأينا بأعيننا أن استشهاد رجل واحد صدق ما عاهد الله عليه، يصنع لهذه الدعوة من العجائب ما لا تصنعه ألف خطبة ولا ألف درس ولا ألف كتاب، وهذا عون الله الذي وعد به سبحانه حين يصدق عباده في التوجه إليه، والتوكل عليه، والإيمان به.

والمتغير الثالث هو الظروف التي تحيط بالدعوة وتحيط بالأعداء، والتي تحدد بدورها الحجم المناسب للقاعدة المطلوبة. فحين يخلق الله ظروفا مواتية فقد تستطيع قاعدة أصغر حجما مما نتخيل الآن، أن تقيم حكم الله في الأرض، وتسانده بعد قيامه. وحين تجري مشيئة الله بغير ذلك ـ لحكمة يريدها ـ فقد نحتاج إلى قاعدة أكبر حجما مما نفترض فى لحظة معينة. والحكم في هذا الأمر مسألة اجتهادية، سواء في تقدير الحجم اللازم للقاعدة، أو في تقدير الظروف القائمة من حولها.

ومن أجل هذه المتغيرات ـ وغيرها كثير ـ لا يستطيع بشر أن يحدد زمنا يقول فيه: نظل نربي إلى عام كذا، ثم نبدأ « العمل »!

على أنه ينبغي أن نضع في حسابنا أن التربية لايمكن أن تتوقف في أية لحظة فهي بذاتها هدف دائم بالنسبة للأمة حتى لو قام الحكم الإسلامي. فرسول الله ﷺ لم يكفّ عن تربية أصحابه حين قامت الدولة، بل استمر إلى آخر لحظة يربيهم، وانظر مثلا خطبته فى حجة الوداع. كذلك سار مَنْ بعده من الخلفاء الراشدين على نهجه ﷺ

---

(١) سورة القصص [٥٦].

يربون الأمة بالقرآن وبالسلطان . . إنما بدأ الانحراف في الأمة حين نقصت التربية عن القدر المطلوب، وحين تحولت عن النهج المطلوب.

إنما كانت إجابتنا موجهة للذين يعنون بسؤالهم : إلى متى نظل نخصص الوقت كله والجهد كله لعملية التربية المطلوبة.

* * *

وأما الذين يقولون : ما جدوى التربية ، ونحن كلما ربينا جيلا من الشباب قضى عليه الأعداء ! فقد سبق أن أجبنا على تساؤلهم من الواقع المشهود. والواقع المشهود يقول : إنه بعد كل مذبحة يقوم بها الأعداء تأتي صفوف جديدة من الشباب ، لا تملأ الفراغ الحادث فحسب ، بل تزيد القاعدة توسعا على الدوام!

ونحن لا نعلم الغيب . . ولا نعلم إن كان الشاب الذي نربيه اليوم سيموت غدا أم يموت بعد عمر مديد . ولا نعلم كذلك هل يثبت على الطريق أم يفتن في دينه . . ولكن علينا دائما أن نبذل جهدنا في تربيته على النهج الصحيح . فإن شاء الله أن يمتد به العمر فهو قوة للدعوة وامتداد لها . أما إن كان في قدر الله أن يفتن في دينه فمنذا الذي يستطيع أن يرد عنه قدر الله ؟ ومنذا الذي يستطيع أن يعرف سلفا ما يكون من أمره في الغداة؟!

في جميع الأحوال إذن ينبغي أن نمضي في التربية ، ونحن واثقون أنها الطريق الواصل في النهاية ، حتى وإن كانت هي الطريق الشاق المجهد البطيء الطويل !

* * *

ولابد من كلمة تبين لنا على الأقل بعض أبعاد التربية المطلوبة . . فما يمكننا في كتاب يتحدث عن « واقعنا المعاصر » أن نغفل الحديث عن أبعاد التربية إطلاقا ، وما يمكننا كذلك أن نتحدث عن كل أبعاد التربية أو عن المناهج التربوية ، فتلك بحوث متخصصة ليس مجالها هذا الكتاب.

ونكتفي بثلاثة أبعاد ، ننتقيها انتقاء من بين أبعاد كثيرة ومجالات عديدة ، لأنها ذات أهمية خاصة ، وإن كانت كل أبعاد التربية مهمة في الحقيقة ، وخاصة بالنسبة لبناء القاعدة المطلوبة.

يقول سبحانه وتعالى :

﴿إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ [1].

ولو أنك سألت أي إنسان في الطريق : من الذي يرزقك ؟ لقال لك على البديهة : الله !

ولكن انظر إلى هذا الإنسان إذا ضيّق عليه في الرزق ، يقول : فلان يريد أن يقطع رزقي ! فما دلالة هذه الكلمة ؟!

دلالتها أن تلك البديهية التي نطق بها لم تكن « يقينا » قلبيا ، إنما كانت بديهية ذهنية فحسب . . بديهية تستقر في وقت السلم والأمن ، ولكنها تهتز إذا عرضت للشدة ، لأنها ليست عميقة الجذور . .

هل يصلح مثل هذا الإنسان لأعباء الدعوة ومشقاتها؟!

هل يصلح لتلك الأعباء إلا شخص قد استقر فى قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . أن الله هو المحيى والمميت . أن الله هو الضار والنافع . أن الله هو المعطى والمانع . أن الله هو المدبر . أن الله هو الذى بيده كل شىء . .

وإذا اهتز اليقين لحظة واحدة فماذا يحدث ؟!

لقد كنا نرى فى المعتقل بعض الذين يهتز فى قلوبهم هذا اليقين لحظة ، فتهتز خطواتهم على الطريق ! يتسرب إلى روعهم أن هذا الشخص أو ذاك يمكن أن ينفع ، أو يمكن أن يضر . . فيتوجهون إليه يحسبون أنه يمكن أن يخرجهم مما هم فيه من الضيق . . فينزلقون . . وينتهى دورهم فى الدعوة . . إلا أن يتوب الله عليهم فيتوبوا . .

ترى كم جلسة . . كم درسا . . كم موعظة . . كم توجيها . . يحتاج إليها الإنسان ليرسخ فى قلبه إلى درجة اليقين أن الله هو الذى يدبر ، وأن هذه المخلوقات البشرية التى يخالطها فى حياته إن هى إلا أدوات لقدر الله ، وأنها حين تضره فهى تضره بشىء قد قدره الله له ، وحين تنفعه فإنما تنفعه بشىء قد كتبه الله له . . فلا يتوجه إلا إلى الله ، فى سرائه وفى ضرائه سواء ، ويعلم - يقينا - أن الخلق كلهم لا يملكون له - ولا يملكون لأنفسهم - ضرا ولا نفعا ؟! فإذا دخل فى الشدة - وطريق الدعوة مملوء بالأشواك والدماء والدموع - طلب التثبيت من الله ، ونظر إلى كل ما يصيبه على أنه قدر مكتوب له . ثم نظر إلى هذا القدر المكتوب له على أنه كله خير ، مادام يسير على طريق

---

(١) سورة الذاريات [٥٨].

الإيمان، لأن أمر المؤمن كله خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . . وليس ذلك إلا للمؤمن .

فإذا لم يصل إلى هذا اليقين القلبى ، الذى يترتب عليه سلوك عملى . . فهل يصلح لحمل أعباء الدعوة؟!

كم يحتاج الفرد الواحد حتى ترسخ هذه العقيدة فى قلبه إلى درجة اليقين؟ وكم يحتاج الجمع من الناس ؟ وكم يحتاج تكوين « قاعدة » صلبة من مثل هؤلاء ، يقوم عليها بناء دعوة ، ثم يقوم عليها - حين يأذن الله - بناء دولة؟!

إنه لمثل هذا كان يعمل رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عاما كاملة فى مكة ، وبعدها سنوات فى المدينة . . كان يعمل ، ولم يكن يقول فى نفسه وهو فى مكة : إلى متى نظل نربى دون أن « نعمل»؟ فقد كان يعلم يقينا - بما علمه ربه - أن هذا هو « العمل» الأساسى الذى يسبق كل عمل . . هذه هى « العقيدة» . . هذه هى « لا إله إلا الله» فى حقيقتها الاعتقادية . . ليست مجرد إقرار ذهنى بأن الله تعالى واحد . . فما أيسر أن يعتقد الذهن ذلك - وإن كان قد صعب على العرب فى جاهليتهم - ولكن تبقى « شوائب» نفسية وشعورية كثيرة عالقة بهذا الاعتقاد الذهنى ، لا تظهر إلا فى السلوك العملى ، فى حالى الشدة والرخاء سواء ، وإن كانت الشدة هى المجهر الأقوى الذى تبرز تحته كل شوائب الاعتقاد . .

﴿ومن الناس من يقول : آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله..﴾ (١) .

﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ؟ ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمن الكاذبين﴾ (٢) .

لمثل هذا كان رسول الله ﷺ يلقى أصحابه فى دار الأرقم : يربيهم ويعلمهم . . يعلمهم العقيدة الصحيحة ، ويربيهم عليها . فليست العقيدة مفهوما ذهنيا تستوعبه الأذهان ثم يستقر فيها هناك ! إنها على هذا النحو لا تصنع شيئا فى عالم الواقع ، ولا تغير شيئا فى عالم الواقع . . كالفلسفة فى الأبراج العاجية . . لا تغيّر شيئا فى واقع

---

(١) سورة العنكبوت [١٠] .

(٢) سورة العنكبوت [٢ - ٣] .

الناس ! إنما هى « عقيدة» . . ترسخ وترسخ وترسخ ، حتى تصبح يقينا قلبيا تنطلق على هداه مشاعر القلب ، ويجرى بمقتضاه السلوك العملى للإنسان . .

وبهذه الصورة تعمل « العقيدة» فى عالم الواقع . . تغير . . تهدم وتبنى . . تهدم الباطل وتبنى مكانه الحق . .

وحين كان رسول الله ﷺ يربى أصحابه على العقيدة الصحيحة ، كان ينشىء ـ بقدر الله ـ ذلك اليقين القلبى الذى ينبثق منه السلوك العملى ، وكان ـ بهذا ـ ينشىء ـ بقدر الله ـ تلك النفوس العجيبة التى صنعت ما شاء الله لها أن تصنع من عجائب التاريخ . .

بالقرآن . . بتوجيهاته الدائمة ﷺ . . بقيام الليل . . بالقدوة العملية فى شخصه الكريم ﷺ . . برعايته لهم فى المحنة . . بالحب الفياض من قلبه العظيم لهم . .

بكل تلك الوسائل مجتمعة ، تأصلت « العقيدة» فى قلوب ذلك الجيل المتفرد ، فكانت تلك « الطاقة» الهائلة التى صنعت الأعاجيب . .

وفى غربة الإسلام الثانية نحتاج إلى مثل ما احتاج إليه الأمر فى الغربة الأولى ، إن لم يكن على ذات المستوى السامق ، فعلى أقرب مستوى إليه يطيقه البشر فى جولتهم الثانية لإزالة غربة الإسلام . .

كم من الزمن يستغرق هذا الأمر ؟ لا أدرى ! ولكنى أعلم يقينا أنه مطلوب . . وأن « القاعدة » المطلوبة لابد أن تقوم على مثل هذا « الاعتقاد» فى لا إله إلا الله ، الذى يملأ القلب باليقين ، ويتمثل ـ من ثم ـ فى سلوك عملى .

* * *

يقول سبحانه وتعالى :

﴿ إنما المؤمنون إخوة﴾ [1] .

والأخوة من أجمل « المعانى » التى يمكن أن يتحدث عنها الإنسان ! شفيفة لطيفة كالنور ! ندية محببة إلى القلوب . . ولكن ما « الأخوة» التى وردت الإشارة إليها فى كتاب الله ؟

---

(١) سورة الحجرات [١٠] .

يستطيع اثنان من البشر وهما يسيران فى الطريق الواسع - فى الأمن والسلامة - أن يتآخيا ! أن يسيرا معا وقد لف كل منهما ذراعه حول أخيه من الحب . .

ولكن انظر إليهما وقد ضاق الطريق ، فلا يتسع إلا لواحد منهما يسير وراء الآخر . . فمن أقدّم ؟ أقدم نفسى أم أقدم أخى وأتبعه ؟

ثم انظر إلى الطريق قد ضاق أكثر . . فلم يعد يتسع إلا لواحد فقط دون الآخر !

إنها فرصة واحدة . . إما لى وإما لأخى . . فمن أقدّم؟ أقول : هذه فرصتى ، وليبحث هو لنفسه عن فرصة؟ أم أقول لأخى : خذ هذه الفرصة أنت ، وأنا أبحث لنفسى؟!

هذا هو « المحك » . .

إن الأخوة فى الأمن والسلامة لا تكلف شيئا ! ولا تتعارض مع رغائب النفس . . بل هى ذاتها رغبة من تلك الرغائب يسعى الإنسان لتحقيقها مقابل الراحة النفسية التى يجدها فى تحققها . .

أما فى الشدة - أو فى الطمع - فهنا تختبر الأخوة الاختبار الحق ، الذى يتميز فيه الإيثار والحب للآخرين ، من الأثرة وحب الذات ، التى قد تخفى على صاحبها نفسه فى السلام والأمن ، فيظن نفسه « أخا » محققا لكل مستلزمات الأخوّة!

كم جلسة . . كم درسا . . كم موعظة . . كم توجيها . . يحتاج إليها الإنسان الفرد ، وتحتاج إليها الجماعة ، وتحتاج إليها « القاعدة » ليرسخ فى حسهم جميعا هذا « المعنى » فلا يعود حقيقة ذهنية يستوعبها الذهن ثم ينتهى بها المقام هناك . . إنما تتحول إلى وجدان قلبى ، يتعمق فى القلب حتى يصدر عنه سلوك عملى كذلك الذى ورد ذكره فى كتاب الله :

﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1] .

إنه لمثل هذا كان يعمل رسول الله ﷺ وهو يربى أصحابه رضوان الله عليهم ، ثلاثة عشر عاما فى مكة ، وسنوات فى المدينة بعد ذلك . .

---

(١) سورة الحشر [٩] .

لم يكن يقول فى نفسه وهو فى مكة : إلى متى نظل نربى تلك المشاعر دون أن «نعمل» ! لأنه كان يعلم يقينا ـ بما علمه ربه ـ أن هذا من العمل الأساسى المطلوب لإنشاء القاعدة المؤمنة التى وُجِّه ﷺ لإنشائها . . وأن هذه الأخوة ـ فوق أنها ضرورية لإقامة القاعدة المؤمنة التى هى نواة « الأمة المسلمة» ـ فهى جزء من « التحقيق السلوكى » للا إله إلا الله . . فليست لا إله إلا الله وجدانا قلبيا عميقا فحسب، بل هى التزام بما أنزل الله . ومن ثم فكل ما جاء من عند الله فالالتزام به هو من مقتضيات لا إله إلا الله . وقد أحب الله هذه الأخوة وامتدحها ، وأوجبها على المؤمنين به ، وأنزل فيها آيات كثيرة لعل من أبرزها :

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان. ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون. يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ، إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا، ولا يغتب بعضكم بعضا . أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا؟ فكرهتموه . واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾(١) .

بالقرآن . . بالمصاحبة . . بالمعايشة . . بالتوجيه المستمر . . بالقدوة فى شخصه الكريم ﷺ . . بالحب الذى يفيض من قلبه الكبير إليهم . . بالاهتمام بكل فرد منهم كأنه هو الأثير عنده . . بالممارسة العملية للمشاعر الإيمانية داخل «الجماعة» . .

بهذه الوسائل مجتمعة ربّى رسول الله ﷺ هذه الجماعة المتآخية ، التى صنعت بتآخيها الأعاجيب ، وأقام ذلك البنيان المتين المترابط ، الذى يشد بعضه بعضا فيقويه . .

وفى غربة الإسلام الثانية ، نحتاج إلى مثل ما احتاج إليه الأمر فى الغربة الأولى . . إن لم يكن على ذات المستوى السامق ، فعلى أقرب المستويات إليه . . ذلك أن الضغوط الجاهلية تفتت كل ترابط ، ما لم يكن وثيق الرباط إلى الحد الذى يتحمل كل الضغوط ، ويبقى وثيقا رغم كل الضغوط . .

كم يستغرق هذا الأمر ؟ لا أدرى! ولكنّى أعلم يقينا أنه مطلوب . . وأن « القاعدة» التى يقع عليها عبء مواجهة الجاهلية بكل كيدها ، ينبغى أن تحقق فى سلوكها العملى

---

(١) سورة الحجرات [١١ ـ ١٢] .

هذا الخلق من أخلاقيات لا إله إلا الله ، لتصبح جديرة برعاية الله . . ولكى تستطيع أن تمضى فى الطريق متآخية متساندة مترابطة وهى تتعرض للأهوال . .

* * *

« النظام » من ضرورات الحياة البشرية . . وفى هذه الأيام خاصة يتردد القول بأنه من « التحديات الحضارية » التى تواجه هذه الأمة . .

والبيئة التى انتشر فيها الإسلام ـ بقدر من الله ـ تقع كلها ـ ما عدا النادر منها ـ فى المنطقة الحارة والمنطقة المعتدلة الحارة . وهذه البيئة فوضوية بطبيعتها !

إن الحياة ـ فى معظمها ـ سهلة رخية . . لا أحد يموت من الجوع إلا النادر . ولا أحد يموت من البرد إلا النادر . . وأقل قدر من الطعام يمكن أن يحفظ الأود لأنه لا يوجد البرد القارس الذي يستهلك الطاقة ويحتاج إلى « الوقود » الغذائي المتجدد . كذلك لا يحتاج الإنسان أن يختزن في أعصابه تدبيراً وترتيباً للمستقبل ، لأن المستقبل في حسه مثل الحاضر ، والحاضر تقضي أموره بصورة من الصور ليس فيها ترتيب مسبق ولا تدبير كثير . . ومن ثم لا يحتاج الإنسان أن « يخطط » للمستقبل ، ولا أن يمد بصره أو تفكيره إلى بعيد ، فحين يأتي الغد بمشكلاته ، نحلها بذات العفوية التي نحل بها مشاكلنا الحاضرة ! ومن ثم تتسم طباع أهل المنطقة ـ المستمدة من تأثير البيئة ـ بالعفوية الشديدة و« قصر النفس » ، لأن النفس الطويل لا يفترق في نتائجه العملية ـ في حسهم ـ عن النفس القصير الذي يواجه المشاكل ـ وقت حدوثها ـ وينتهي منها في لحظتها ، وينصرف إلى غيرها !

وخلاصة القول أن أهل هذه البيئة ـ حين يتركون لتأثير البيئة وحده ـ قوم يكرهون النظام ، ويرونه عبئا ثقيلا على أعصابهم لا ينبغي أن يحملوه ، ولا ضرورة ـ في حسهم ـ لحمله . وقوم عفويون يكرهون التخطيط والنظر إلى بعيد ، ويرونه كذلك عبئا ثقيلا على أعصابهم لا موجب له . وهم أخيرا قوم قصار النفس يشتعلون حماسة لفترة موقوتة ، ثم تخبو حماستهم كأن لم تشتعل قط ، وتنصرف إلى موضوع جديد .

من هذه الطباع ـ المستمدة من تأثير البيئة ـ تسلمهم الإسلام فأنشأ منهم خلقا آخر . .

أنشأ منهم بادئ ذي بدء أمة شديدة التنظيم . . لا تكره النظام ولا تتمرد عليه ، بل تسارع إليه وتمتثل لمقتضياته . . وليس بنا ـ هنا ـ أن نستطرد كثيرا إلى الوسائل التي غيّر

بها الإسلام طباع هذه الأمة المستمدة من البيئة ، والموروثة فيها قرونا إثر قرون . . ولكني كلما قرأت في كتب السيرة : « **كان رسول الله ﷺ يصفنا للصلاة كما يصفنا للقتال.** » تهتز نفسي تأثرا وعجبا لهذا المربي العظيم ﷺ كيف كان يعد هذه الأمة لمهمتها . . لتكون « خير أمة أخرجت للناس » ! وأعجب لهذا الدين كيف يصنع في النفوس ، فيغير من الطباع ما يبدو لأول وهلة داءً مستعصيا على الحل !

كان عليه الصلاة والسلام لا يبدأ الصلاة حتى يرى الصف قد استقام . . وكان يقوّم الصف بيديه الشريفتين ، يلصق كتف هذا بذاك ، وقدم هذا بذاك ، حتى يقوّم صف الصلاة كصف القتال . . كأنه بنيان مرصوص !

والإسلام كله نظام ودقة ، مع سماحته التي تعطف على الضعف البشري ولا تلعنه ما دام صاحبه لا يصر عليه ، ومع نداوته التي تتعامل مع النفوس البشرية لا على أنها آلات وأدوات ، ولكن على أنها مشاعر وعواطف ، فيرفع عنها الحرج :

﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ومن يغفر الذنوب إلا الله ، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون . أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ونعم أجر العاملين﴾ (١) .

﴿ هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ (٢) .

﴿ما يريد الله ليجعل علكيم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون ﴾(٣) .

ويتبدي التنظيم واضحا في العبادات خاصة . فالصلاة مواقيت . والصوم مواقيت، والحج مواقيت . والزكاة مواقيت . فضلا عن التنظيم الدقيق في كل عبادة من هؤلاء ، وخاصة في الصلاة والحج . .

والقرآن يعلم المؤمنين النظام والدقة في الآداب التي نسميها اليوم « الآداب الاجتماعية» :

﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها . ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم . وإن قيل

---

(١) سورة آل عمران [١٣٥-١٣٦] . (٢) سورة الحج [٧٨]. (٣) سورة المائدة [٦].

لكم ارجعوا فارجعوا ، هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم . والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ (١) .

﴿يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه . ولكن إذا دعيتم فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث . إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم . والله لا يستحيي من الحق . وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب . ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن ..﴾ (٢) .

والتربية الإسلامية التي رباها الرسول ﷺ لأصحابه جعلت منهم أمة منظمة تنظيما دقيقا على أساس « إنساني» لا على أساس آلى . . وتلك مزية الإسلام . فهو ينظم الحياة - في جميع جوانبها - مع المحافظة على « إنسانية الإنسان » ألا يتحول إلى آلة ، فيفقد العمل دلالته النفسية التي يؤدي من أجلها ، بل يظل الإنسان - مع محافظته على النظام - واعيا لأهداف وجوده ، مريدا لتحقيقها في كل مرة ، لا مدفوعا دفعا آليا إليها . .

ومع النظام لم تعد العفوية هي صورة العمل في الأمة الإسلامية ، لأنه لكل عمل ضوابطه الشرعية ، وللشريعة في كل عمل « مقاصد » ينبغي تحقيقها . . ومن ثم يراجع الإنسان كل عمل يعمله ليرى هل هو في دائرة الحلال المباح أم خرج عنها ، ويراجع النتائج التي يمكن أن تترتب على عمله ، ليرى هل هي متمشية مع مقاصد الشريعة أم مخالفة لها .

ومع النظام والانضباط والنظر في النتائج رباهم الإسلام على النفس الطويل والرؤية البعيدة . . فهناك هدف بعيد لكل فرد ، وهناك أهداف ممتدة لمجموع الأمة . .

فأما الفرد فقد رباه الإسلام على أن يعمل لا ناظرا لدنياه وحدها ، ولا لغده القريب وحده . . بل وضع له هدفا يتجاوز العالم المشهود كله ، والحياة الدنيا كلها . . ليصل به إلى عالم الغيب وإلى اليوم الآخر . . فيعمل في دنياه الحاضرة وفي لحظته الحاضرة وهو ناظر إلى عالم بعيد بعيد يتجاوز كل مدى الحس ، ولكنه حاضر فى قلبه كأنه يراه أمامه ، وكأنه متحقق فى هذه اللحظة . ويعمل وفى حسه ذلك الهدف البعيد الذي يسعى كل لحظة إلى تحقيقه ، وهو الجنة ورضوان الله . . هدف لا يمكن أن يوجد في

---

(١) سورة النور [٢٧-٢٩] . (٢) سورة الأحزاب [٥٣] .

حس البشرية كلها هدف أبعد منه . . ومع ذلك فهو متعلق به دائما ، يشعر في كل لحظة أن كيانه كله مرتبط به ، وأن كل خطوة يخطوها هي خطوة على الطريق إلى ذلك الهدف البعيد . .

وأما الأمة فقد رباها الإسلام على أن مهمتها لا تنحصر في تحقيق كيانها الذاتي المحدود ، ولا في أن تعيش لحظتها الراهنة ، وإنما لها هدف ممتد في الحياة الدنيا ، وممتد من الحياة الدنيا إلى الآخرة . . ذلك هو دعوة البشرية كلها إلى النور الرباني ، والجهاد لتكون كلمة الله هي العليا في كل الأرض ، لتكون شاهدة على البشرية كلها في اليوم الآخر :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[1] .

﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله﴾[2] .

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر،وأولئك هم المفحلون ﴾[3] .

ولقد ظلت الأمة تلاحق هذا الهدف ما يقرب من عشرة قرون متوالية ، لا تفتر حماستها له ، ولا تتقاعس عن الجهاد من أجله ، جيلا بعد جيل ، وهذا « أطول نفس » عاشته أمة في التاريخ . .

ولكن خط الانحراف الطويل الذي مررنا بخطوطه العريضة من قبل [4]، وبينا آثاره في حياة الأمة [5]، ظل يحدث انحسارا مستمرا في حقائق الإسلام ، وفي فاعليتها في نفوس الناس . . فارتدت الأمة رويدا رويدا إلى تأثير البيئة . ذلك أنه في غيبة العقيدة الحية المتمكنة من النفوس تصبح البيئة هي صاحبة التأثير . . ومن ثم رجعت الأمة إلى طبيعتها الفوضوية التي تكره الانضباط ، العفوية التي تكره التخطيط ، القصيرة النفس التي تكره الرؤية البعيدة ولا تطيق المتابعة للأمد الطويل . .

وإذ كانت هذه هي حالة الأمة - كما هو واضح لكل من يدرس أحوالها - فمن يصلحها ؟!

---

(١) سورة البقرة [١٤٣].
(٢) سورة الأنفال [٣٩].
(٣) سورة آل عمران [١٠٤].
(٤) انظر فصل « خط الانحراف ».
(٥) انظر فصل « آثار الانحراف ».

هل تصلحها الأحزاب السياسية الموالية للغرب ، وهي لا تضع ذلك في برامجها ، ولا تقدر عليه حتى إن قصدت إليه . . وهذه هي تجربة قرن كامل من الزمان ، كانت الأمة منجرفة فيه إلى تقليد الغرب والذوبان فيه ، فما استطاعت الأحزاب الموالية للغرب ، والداعية إلى التغريب ، أن تصلح شيئا في هذا المجال ، وظلت الأمة - إن لم تكن قد زادت - في فوضويتها الكارهة للنظام ، وعفويتها الكارهة للانضباط ، وقصر نفسها الذي يشتعل حماسة للحظات ، ثم تنطفىء الحماسة وتخمد العزائم وتنصرف الجهود !

هل تصلحها الأحزاب الشيوعية ، وهي لا تضع ذلك في برامجها ، ولا تقدر عليه حتى إن قصدت إليه . . وهذه هي تجربة ما يزيد على ربع قرن في البلدان التي ابتليت بها من العالم الإسلامي ، لم تغير شيئا من حال الناس ، إن لم تكن قد زادتهم انحرافا في كل جوانب الحياة . . !

إنه لا يقدر على إصلاح آثار هذه البيئة إلا العقيدة . . ولا يقدر على إصلاحها إلا أصحاب العقيدة الصحيحة ، الواعون لحقيقتها ، الذين تربوا تربية إسلامية صحيحة ، كتلك التي رباها الرسول ﷺ لأصحابه ، فتستطيع هذه التربية - كما استطاعت أول مرة - أن تنشىء النفوس نشأة جديدة ، منظمة منضبطة طويلة النفس ، تزيل آثار الانحراف ، وتعيد الأمة إلى ما كانت عليه وقت استقامتها على هذا الدين ، لا بهدف مواجهة « التحديات الحضارية » التى يذكرها بعض الناس وهم يتكلمون عن «الإصلاح » المطلوب ، بل بهدف إعادة الأمة إلى « خيريتها » التي أخرجها الله من أجلها :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾[1] .

وهو هدف يتجاوز كل « التحديات الحضارية» إلى ما هو أعلى وأنفس . . خير الدنيا والآخرة على السواء .

ترى كم جلسة . . كم درسا . . كم موعظة . . كم توجيها . . يحتاج إليها الإنسان

---

(١) سورة آل عمران [١١٠] .

الفرد ، وتحتاج إليها الجماعة ، وتحتاج إليها « القاعدة » ليتمثل فيها أولا هذا « المعنى » ثم لتكون قادرة على إعطاء المثل لغيرها ، فتستطيع بالتالي تربية الأمة كلها ـ أو من يستجيب منها ـ على هذه الصفات وهذه الأخلاقيات الضرورية لها ، لتتجاوز أزمتها الحاضرة وتأخذ فى الصعود ؟!

* * *

تلك ثلاثة أبعاد للتربية من بين أبعاد كثيرة في مجالات مختلفة ، ليست مثلا خيالية، ولا هي « تحديات » ! إنما هي شروط ضرورية لقيام القاعدة المطلوبة ، التي تستطيع أن تتحمل العبء الملقى عليها في مواجهة الجاهلية المتربصة بالكيد.

وحين نتكلم عن التربية ، وعن الطريق الطويل الذي لابد أن نسلكه ، نقصد هذه الأبعاد الضرورية التي ذكرنا نماذج منها لمجرد التوضيح . . ومن هذه النماذج ـ ومن غيرها الذي لم نذكره ـ يتضح جليا أن أمامنا شوطا طويلا في مجال التربية لا غنى لنا عن المضي فيه ، قبل أن يحق لنا أن نتساءل : وماذا بعد ؟!

إن بعض مجالات التربية قد قطعنا فيه شوطا ولم نصل . . وإن بعضها الآخر لم نبدأ فيه بعد ! وكل تعجل في ميدان التربية بالذات لا يأتي بخير . . لأنه يكون بمثابة إقامة بنيان على غير أساس . . أو على غير أساس مكين ، فكلما ارتفع كان عرضة للانهيار.

والذين يستطيلون الطريق ، ويحسبون أن هناك طرقا أقصر وأخصر ، ينبغي أن يأخذوا عبرة التجربة ، سواء كانت التجربة هي مذبحة حماة ، أم كانت هي التجربة «السياسية » في تركيا . فإذا كنا لا نعتبر بالأحداث ، فذلك في ذاته دليل على نقص في تربيتنا يحتاج إلى علاج !

والآن ، وقد بسطنا الحديث في القضيتين الرئيسيتين اللتين يدور حولهما الخلاف بين العاملين في الحقل الإسلامي ، فقد آن لنا أن نعبر عبورا سريعا ببعض القضايا الأخرى التي تدور في الساحة ، قبل أن نختم حديثنا عن « الصحوة الإسلامية » .

السَّمع والطّاعة

نتكلم عن هذه القضية من حيث إنها أحدثت انشقاقات في الجماعات القائمة بالعمل في الساحة الإسلامية ، لنشوب خلافات في وجهات النظر لم يتسع لها صدر تلك الجماعات ، فخيرت أعضاءها بين السمع والطاعة أو الانفصال عن الجماعة ، أو هددتهم بالفصل إن هم لم يسمعوا ويطيعوا ، فرضخ بعضهم للتهديد ، وكتم ما في نفسه من اختلاف في وجهة النظر ، وآثر بعضهم أن ينفصلوا ، ليكونوا جماعات جديدة ، أو ليتركوا العمل الإسلامي كله ، وتأكلهم دوامة الضياع !

وقضية السمع والطاعة في الحقيقة من ألصق القضايا بالتربية ، وكانت جديرة أن نتحدث عنها كبعد من أبعاد التربية المطلوبة للقاعدة الإسلامية . . لولا أننا آثرنا أن نتحدث هناك عن بعض النماذج البارزة لكي لا يطول بنا الحديث .

إن السؤال الذي ينبغي أن يُسأل في هذا المجال في الحقيقة هو : أى دولة هي التي نفكر في إنشائها ـ حين تتاح لها الظروف الموائمة ـ أ هي دولة الشورى الإسلامية التى أقامها رسول الله ﷺ والشيخان من بعده ، أم هي دولة استبدادية عسكرية النزعة ، تأمر وتتلقى من رعاياها الطاعة ، ولا تتيح لهم أن يناقشوها فيما تفعل وفيما تقول ؟!

معظم الجماعات يعتقد « المسئولون » فيها أنهم هم وحدهم الذين يحق لهم أن يتناقشوا فيما بينهم ، فإذا وصلوا إلى قرار فهو ملزم لجميع الأعضاء في الجماعة ، وأن الآخرين كلهم ـ أى غير أولئك « المسئولين » ـ واجبهم السمع والطاعة بغير اعتراض . وتلجأ تلك الجماعات كما قلنا إلى تهديد المخالفين بالفصل من الجماعة إن لم يسمعوا ويطيعوا . .

ويجب أن نقرر حقيقة لا معدى عن تقريرها ، هي أنه لا يمكن أن تقوم جماعة

بالفعل إن لم يكن لقائدها حق السمع والطاعة على الأعضاء . ويجب أن نقرر حقيقة تاريخية : أن الذي هزم عليا كرّم الله وجهه هو جيشه الذي لم يكن يتفق على رأي، ولا يرضخ لتعليمات قائده حتى يتناقش ويتباحث ، وقد يصل إلى قرار ثم ينقضه بعد أن يكون القائد قد أخذ في رسم خطته على أساسه . .

هذا حق . . ولكن الحق من جانب آخر أن استئثار بضعة أفراد في الجماعة بالسلطة بوصفهم « المسئولين » ، وإلزام الباقين بالسمع والطاعة بغير اعتراض ، فضلا عن المخالفة الشرعية التي يحملها ـ وسنبينها عاجلا ـ فإنه هو الذي جعل معظم هذه الجماعات تربي « جنودا » ولا تربى « قادة » ، فتعجز عن إيجاد « صف ثان » يحمل المسئولية بعد القائد الأول .

إن المطلوب في التربية ـ كما أسلفنا ـ هو تربية جماعة تكون جنودا ملتزمين للقائد ، وتكون في الوقت نفسه « قيادات » تحمل المسئولية بعد ذهاب القائد، وكل قائد لابد أن يذهب في يوم من الأيام ؛ وذلك هو المنهج النبوي، الذي أخرج أعظم جند عرفتهم البشرية ، وأعظم قيادات عرفتها البشرية كذلك ، وكان منهجه ﷺ أن يربي في أتباعه كلا الجانبين اللذين تشتمل عليهما النفس البشرية : الجانب الفردي والجانب الاجتماعي على سواء . فأما الضغط على الجانب الفردي من أجل تنمية الجانب الاجتماعي فإنه ينشئ جنودا طائعين ، نعم ، ينفذون أمر قائدهم في استسلام له ، ولكنه لا يربي أفرادا صالحين لحمل المسئولية . . والدعوة ـ قَبْلَ الدولة ـ ذات مسئوليات ضخمة تتبين عند كل منعطف في الطريق . فإذا كان الأفراد لا يحسنون إلا الطاعة والتنفيذ ، فما أيسر أن تنحرف الجماعة كلها بانحراف « المسئول» !

أما المخالفة الشرعية التي أشرنا إليها فهي أن السمع والطاعة ينبغي أن تنضبط بضابطها الشرعي : « إنما الطاعة في المعروف »[1].

فهي ليست طاعة مطلقة « للمسئولين » . . وليست طاعة بغير نقاش وحوار ومشاورة .

ونضرب أمثلة من واقع العمل الإسلامي تبين خطورة الأمر ، وتبين مدى النقص في التربية في هذا الجانب الخطير .

---

(١) أخرجه الشيخان .

فحين تقول جماعة من الجماعات إن فكرها قائم على أنه « من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام» ـ وهو قول غلاة المرجئة ، الذي يحمل مخالفة صريحة للكتاب والسنة ـ ثم تلزم أعضاءها بالسمع والطاعة لهذا القول ، أو تهددهم بالفصل إن عارضوا . .

وحين تقول جماعة من الجماعات إن السنة ليست ملزمة ، وإن لنا أن « نجتهد » في السنّة ، فنرى أن الحديث الذي حكم له الأقدمون بالصحة هو حديث ضعيف ، وأن الحديث الذي حكم له الأقدمون بالضعف هو حديث صحيح ، وأن نرفض من الأحاديث ما نراه غير ملائم لأحوالنا ولو كان المحدثون قالوا إنه صحيح وثابت . . ثم تلزم أعضاءها بالسمع والطاعة لهذا القول ، أو تهددهم بالفصل إن عارضوا . .

وحين تقوم جماعة من الجماعات بالتحالف مع الشيطان ، متمثلا في أحزاب تنكر شريعة الله ، وترفض اعتبارها ملزمة للناس في العصر الحاضر ، ولا تعتبر الدين ـ أى الإسلام ـ مقوما من مقومات فكرها ، وتضع بدلا منه الفكر القومي العربي الاشتراكي ، ثم تلزم أعضاءها بالسمع والطاعة لهذا العمل ، أو تهددهم بالفصل إن عارضوا . .

حين يحدث ذلك ـ وأمثاله ـ فينبغي أن نراجع جيدا مبدأ السمع والطاعة من ناحيتيه الشرعية والتربوية ، فمن الناحية الشرعية ينبغي أن تنضبط الطاعة بضابطها الشرعي : «إنما الطاعة في المعروف » . . وينبغي أن يكون في دستور هذه الجماعات ـ وفي نظام تربيتها كذلك ـ ما يوقف « المسئولين » عند حدهم حين يقعون في تلك المخالفات الشرعية . ومن الناحية التربوية ـ وهي لصيقة بالناحية الشرعية ـ ينبغي أن يُفَقَّه الأعضاء في دين الله ليعلموا متى يطيعون ومتى يتوقفون عن الطاعة ، ومتى يقفون الموقف الحازم من « المسئولين » ليردوهم إلى الحق . وينبغي كذلك أن يتربوا على تحمل المسئولية ، بجانب الالتزام بالسمع والطاعة . فإنهم مسئولون أمام الله عن كل سمع وطاعة قاموا به مخالفا للموقف الصحيح ، وهم مسئولون أمام الله عن الدعوة التى يحملونها ، ولا يعذرهم أمام الله أن يقولوا :

﴿ إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴾ [1] .

---

(١) سورة الأحزاب [٦٧].

وإذا بقيت الجماعات يفعل مسئولوها ما يعن لهم - حتى مع افتراض الإخلاص الكامل فيهم - ثم يلزمون الأعضاء بالسمع والطاعة ، أو يهددونهم بالفصل إن عارضوا ، فستظل تحدث مخالفات جسيمة كالتي حدثت من قبل أكثر من مرة ، ويظل العمل الإسلامي يتعثر ويتعثر ، حتى ينضبط بالضوابط الشرعية الصحيحة . . وتظل الجماعات القائمة بالعمل بعيدة عن تحقيق الروح الإسلامية الحقيقية التي ربى بها رسول الله ﷺ أصحابه .

القيادة المطلوبة

ذكرنا فيما سبق أن من أسباب تمزق العمل الإسلامي وتفرقه عدم وجود قيادة كبيرة ترتاح النفوس إليها وتتبعها طائعة ، بدافع الإعجاب والحب والتقدير والتوقير . وفي غياب القيادة الكبيرة تقوم قيادات صغيرة متنابذة متنافرة ، يعتز كل منها برأيه وموقفه ، فلا يحدث الوفاق ولا يحدث اللقاء .

وقلنا إننا لا نملك وسيلة نبرز بها تلك القيادة الكبيرة المطلوبة ، إنما نكل هذا الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ، على أن نلتزم نحن بالإخلاص والتجرد لله ، فنستحق عند الله أن يهيء لنا ما نصبو إليه . كما قلنا من جانب آخر إنه من خلال الاختبارات والابتلاءات تبرز القيادات وتتميز ، تحقيقا لقوله تعالى :

﴿ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ [1] .

ولسنا هنا نضيف جديدا في هذا الشأن ، إنما نقول فقط كلمة سريعة عن نوع القيادة المطلوبة للعمل الإسلامي في الوقت الحاضر . . ذلك أن الظروف الراهنة في العمل دقيقة للغاية بسبب الملابسات الداخلية والخارجية معا . ففي الداخل توجد حالة الجهالة التي وصفناها من قبل ، والتي هي السبب الأول في غربة الإسلام الثانية التي أشار إليها رسول الله ﷺ ، وفي الخارج توجد العداوات الصليبية والصهيونية المتربصة

---

(١) سورة آل عمران [١٧٩] .

الكائدة ، التي لا تترك فرصة لمناوأة العمل الإسلامي ومحاولة إجهاضه إلا انتهزتها إلى آخر المدى ، والقوة في أيديها لتنفيذ ما ترتب من مخططات ضد الإسلام . .

وفي هذه الأحوال الدقيقة توجد « معادلة صعبة » في مجال العمل الإسلامي . .

فحين يأخذ الشباب شحنة الإسلام الحقيقة ، أى حقائق الإسلام كما جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكما تحققت في التطبيق الصحيح لها في حياة السلف الصالح ، وحين يرى الشباب مدى بعد الواقع الموجود اليوم عن هذه الحقائق . . تملؤه الحماسة ، ويدفعه إخلاصه للحق الذي عرفه إلى عدم الصبر على هذا الواقع ، والرغبة في إزالته بالقوة . . وهنا يقع المحظور الأول ، وهو إتاحة الفرصة لأعداء الإسلام لتصفية الحركات الإسلامية بتهمة أنها إرهابية .

وحين يقال للشباب : كفوا أيديكم . . لا تعملوا على الصدام مع السلطة لأن ذلك عمل لا طائل وراءه . . انصرفوا للتربية . . تخمد حماستهم ، وينصرف كثير منهم . . ويأوي إلى عزلة بئيسة . . ثم تأكله الدوامة ويضيع !

والقيادة المطلوبة للعمل الإسلامي في ظروفه الدقيقة الراهنة ، هي القيادة التي تستطيع أن تعطى الشحنة التربوية كاملة ، وفي الوقت ذاته تقول للناس : كفوا أيديكم ، فيطيعون . . يطيعون دون أن تخبو حماستهم للعمل الإسلامي ، ودون أن يتفلتوا ، ودون أن يأكلهم اليأس أو يأكلهم الضياع !

إنها مهمة صعبة ، ومعادلة صعبة . . ولكنها ذات الحال التي ألمت بالمسلمين في الغربة الأولى في مكة . . وهم يتلقون الشحنة التربوية الكاملة من رسول الله ﷺ ، ويتلقون معها الإيذاء البشع من قريش ، ثم يقول لهم رسول الله ﷺ - بأمر الوحي - كفوا أيديكم ، فيكفون أيديهم طاعة واحتسابا ، وتظل الشحنة حية في نفوسهم لا تخبو ولا تنطفيء ، ولا ينصرفون عن قيادتهم ، بل يزدادون تعلقا بها ، ويتطلعون إلى رحمة الله .

ولن تكون هناك بطبيعة الحال قيادة على مستوى القيادة النبوية المتفردة في التاريخ البشري كله ، ولكن « المنهج النبوي » قد جُعل للأسوة ، وجُعل للتطبيق العملي على مستوى البشر ، كما يفهم من قوله تعالى :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾[1].

ولكن القائد ـ الذي يأخذ الأسوة من رسول الله ﷺ ، ويطبق « المنهج النبوي » على صورته الصحيحة ـ لا بد أن يكون إنسانا فائقا ، متصفا بالصفات اللازمة للقيادة ، مع تمكن خاص في الصفات اللازمة للظروف الراهنة الدقيقة ، ليزيل الله على يديه الغربة الثانية للإسلام ، كما أزال الغربة الأولى على يد رسول الله ﷺ . . وتلك مهمة الغرباء على أي حال كما حددها رسول الله ﷺ .

﴿... فطوبى للغرباء ، يصلحون ما أفسد الناس من سنتى ﴾[2].

وحين توجد هذه القيادة بالمواصفات المطلوبة ، وعلى المستوى المكافيء للظروف الدقيقة الراهنة ، سيلتئم كثير من الشتات المتناثر على الساحة ، بعد أن يعرف المنهج الصحيح . .

وحين لا تصبر الجاهلية على القائد فتقتله ، كما قتلت أئمة الدعوة من قبل ، فسيحدث من مقتله مولد جديد للدعوة ، ولا تخبو الشعلة أبدا ، مادامت تعرف المنهج الصحيح . .

هَل نتعلّم فى المدارس الجاهليّة ؟

ظاهرة خطيرة تقع من بعض الشباب المخلص المتحمس الذي نذر نفسه للدعوة إلى الله .

يكون قد وصل إلى السنة النهائية من دراسته الجامعية ، وإذا به فجأة يترك الدراسة لأنها « جاهلية » وينصرف إلى عمل تافه يرتزق منه فى حدود الكفاف ، ويملأ نفسَه الإحساس بأنه قد تغلب على نفسه ورغائبها ، واستعلى على الحياة الدنيا وزينتها ، و«تجرد » لله ، وللدعوة ، وحقق في نفسه المثال .

ولا شك عندنا فى أن مناهج الدراسة في مدارسنا ومعاهدنا ذات صبغة جاهلية

(١) سورة الأحزاب [٢١].　　(٢) رواه الترمذى .

صارخة ، وضعها لنا أعداؤنا ليفتنونا عن إسلامنا ، كما بينا من قبل في الحديث عن الغزو الفكري ، واستخدام مناهج التعليم أداة من أكبر أداوته وأخطرها . ولو لم يكن من هذه المناهج غير بثها الدائم لدعاوى الوطنية والقومية ، والعلمانية والاشتراكية . .[1] وإشادتها الدائمة بالذين لا يحكمون بما أنزل الله . . لكفى بذلك إثما . ولكنها في الحقيقة لا تكتفي بذلك في أي مرحلة من مراحلها ، إنما تنشيء ثقافة وعلما مضادا للدين ، يهدف في النهاية إلى إخراج العباد من عبادة الله[2] .

ولا شك عندنا من جانب آخر في إخلاص الشباب الذي يقرر الانصراف عن هذه الثقافة الجاهلية والانقطاع ـ فجأة ـ عن التعليم . ولكنه رغم ذلك يخطيء بهذا التصرف خطأ بالغًا يدل على نقص في البصيرة . . ولقد كررنا مرارا في هذا البحث أن الإخلاص وحده لا يكفي ، ولابد معه من البصيرة كما وجه الله رسوله ﷺ :

﴿قل هذه سبيلي ، أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين ﴾[3] .

والأمر الذي يغفله الذين يتصرفون على هذا النحو ينطوي على عدة جوانب :

الجانب الأول : أننا إذا انصرفنا كلنا عن تعاطى العلم والثقافة بحجة أنه علم جاهلي وثقافة جاهلية ، فسيكون هذا من أسلحة أعدائنا التي يستخدمونها ضدنا ! فسيرتبط الجهل بالدعوة في حس الناس ، وسيرتبط العلم بالإعراض عن الدين والانسلاخ منه ، وتلك هي الحالة التي كان الأمر قد صار إليها قبل الصحوة الإسلامية ، وكانت هي ذاتها مما استغله الأعداء لتنفير الناس من الدين ! ولقد كانت مزية الصحوة الإسلامية ـ كما أسلفنا في مبدأ الحديث عنها ـ أن القائمين بالدعوة الجديدة هم من « الأفندية » الذين تلقوا الثقافة « الجديدة » « التقدمية » ، ولكنهم مع ذلك عادوا إلى الدين ، وقاموا بالدعوة إليه . . وكانت تلك مفاجأة سيئة للأعداء ، أثارت كثيرا من الاضطراب في مخططاتهم ، وألجأتهم ـ من شدة حنقهم ـ إلى توجيه الضربات الوحشية للعمل الإسلامي ، فكان من نتيجة هذه الضربات ـ بقدر من الله ـ اتساع القاعدة وإقبال المزيد من الشباب على الإسلام .

---

(١) انظر إن شئت كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٢) راجع الكلام عن الغزو الفكري في الفصل السابق ، وفصل « العلمانية » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٣) سورة يوسف [١٠٨] .

فلو أننا عدنا اليوم فانصرفنا عن الثقافة والعلم ـ بأي حجة من الحجج ـ فستفقد الحركة الإسلامية سببا من أهم أسباب قوتها في الصراع الوحشي الدائر ضد الإسلام ، وسنعود إلى مثل الوضع الذي كان قبل الصحوة . . وسنعين الأعداء ـ من حيث لا ندري ولا نحتسب ـ على تنفير الناس من الدين !

والجانب الثاني : أن ما في المدارس والجامعات اليوم من العلم ليس كله خطأ ، وليس كله ضارا ، وليس كله مما يمكن أن يستغني عنه !

صحيح أنه يقدم بروح جاهلية . . فنحن نقول في كتبنا العلمية البحتة إن « الطبيعة » خلقت ، والطبيعة اختصت الكائن الفلاني بكذا من الخواص بدلا من أن نقول الحقيقة « العلمية » وهي أن الله هو الذي خلق ، وأن الله هو « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى »[1] . ونحن نتحدث عن حتمية « القوانين الطبيعية »[2] بما يوحي للدارسين أن الله سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا لا يستطيع ـ إذا شاء ـ أن يوقف هذه القوانين أو يغيرها أو يغير نتائجها ! وهذه وتلك ننقلها نقلا أعمى من كتب العلوم التي نترجمها من المراجع الأوربية ونضع عليها أسماءنا ! غير آبهين ولا ملتفتين إلى أن موقف الكنيسة في أوربا هو الذي جعل العلم هناك يأخذ تلك الروح المعادية للدين ، ولكن هذه الروح ليست علما حقيقيا ، إنما هي أهواء وشهوات مازجت ذلك العلم . .[3] .

كل هذا صحيح . . ولكنه لا يعني أننا نستطيع أن نستغني عن الطب ، أو الهندسة ، أو الرياضيات ، أو غيرها من العلوم ، ولا يعني أننا نستطيع أن نطرحها من حياتنا ثم تكون حياتنا صحيحة سليمة ! فمثل هذه العلوم ضرورة للأحياء ، وإن لم نتعلمها ـ بأي حجة من الحجج ـ نكون ناقصين في وجودنا ، ونكون في الوقت ذاته مقصرين في أداء ما خلقنا الله من أجله من الخلافة في الأرض ، التي تعني الهيمنة على الأرض ، والإنشاء والتعمير فيها ، والتي من أجلها علّم الله آدم الأسماء كلها ، وجعل لبني آدم السمع والأبصار والأفئدة :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾[4] .

---

(١) سورة طه [٥٠] .

(٢) صار « العلم » اليوم هو الذي يقول إن « قوانين الطبيعة » ليست « حتمية » ! وإنما هي مجرد « احتمالات » بعضها أقوى من بعض !

(٣) راجع إن شئت فصل « العلمانية » في كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

(٤) سورة النحل [٧٨] .

والجانب الثالث : أن مهمة هذه الأمة هي هداية البشرية إلى المنهج الحق :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾(١) .

والحركة الإسلامية القائمة في الأرض اليوم ذات رسالة للبشرية الضالة ، تهديها فيها إلى المنهج الحق . . (٢) فهل تستطيع أن تهديها وهي جاهلة في جانب من الجوانب الهامة في الحياة عامة ، وفي الحياة الحاضرة بصفة خاصة ؟ أم إن المفروض أن تطلع على معارف الجاهلية المعاصرة ثم تهديها لتصحيح منهجها ، من منطلق العلم لا من منطلق الجهل . . فالجهل لا يهدي إلى شيء قط !

وأنا أتحدث عن خبرتي الشخصية :

لقد كانت دراستي لفرويد وأنا طالب بالمعهد العالي للمعلمين ، هي المفتاح الذي وجهني إلى معرفة نقاط الخلل في الحياة الأوربية المعاصرة ، وانحرافات الفكر الغربي ، وزادتني معرفة بالمنهج الإسلامي الصحيح في مجال التربية وعلم النفس وغيرهما من المجالات . .

أقول ، كما وجهنا الله أن نقول :

﴿ الحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ﴾ (٣) .

وأقول من جانب آخر : لو أنني أغلقت قلبي وفكري عن الاطلاع على « علم » الغرب ، فمن أين لي ـ كان ـ أن أعرف جوانب الخلل فيه ، وأن أحاول البحث عن المنهج الصحيح في التفكير ؟ !

كلا ! ما يستفيد من هذه النزعة إلا أعداء هذا الدين !

---

(١) سورة البقرة [١٤٣].

(٢) سنشير إلى هذا المعني في الفصل القادم « نظرة إلى المستقبل » .

(٣) سورة الأعراف [٤٣].

ماذا نتقلّد من الوظائف في «المجتمع الجاهلي»

يجب باديء ذي بدء أن نبين ما نقصده حين نقول « المجتمع الجاهلي » لأنه كلمة يسهل إساءة فهمها في الدوامة الفكرية التي تحيط بالناس في الغربة الثانية للإسلام .

إن هذه المجتمعات التي نعيش فيها اليوم مجتمعات جاهلية كما أسلفنا القول من قبل ، لأنها لا تَحكُم ولا تُحكَم بشريعة الله ، إنما تحكم وتحكم بمناهج جاهلية وشرائع جاهلية . وكل حكم غير حكم الله هو - كما بيّن الله في كتابه المنزل - حكم جاهلي :

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [1] .

والآية واضحة الدلالة في أن الحكم - عند الله - نوعان اثنان لا ثالث لهما : إما حكم الله ، وإما حكم الجاهلية .

ولكن وصفنا لهذه المجتمعات بأنها جاهلية لأنها تحكم بغير ما أنزل الله ، لا علاقة له ألبتة بعقائد أهل هذه المجتمعات . فقد يكونون مسلمين ، وقد يكونون كفارا ، وقد يكونون خليطا من المسلمين والكفار [2] ، وتظل صفة المجتمع تابعة لنوع الحكم الذي يُحكَم به ذلك المجتمع بصرف النظر عن عقائد من فيه . . وذلك كوصف « الدار » بأنها دار حرب أو دار إسلام بالنظر إلى غلبة الأحكام فيها بصرف النظر عن عقائد أهلها . فقد كانت « المدينة » دار إسلام حين هاجر إليها رسول الله ﷺ وأقام فيها حكم الله ، مع أن المسلمين كانوا في مبدأ الأمر قلة بالنسبة لمجموع أهل المدينة . وكانت مصر دار إسلام حين فتحها المسلمون وأقاموا فيها شريعة الله ، مع أن غالبية أهلها لم يكونوا مسلمين ، وظلوا غير مسلمين فترة طويلة من الوقت . وكانت الهند دار إسلام حين فتحها المسلمون وحكّموا فيها شريعة الله ، مع أن المسلمين ظلوا طيلة الحكم الإسلامي الذي امتد ثمانية قرون أقلية بالنسبة لمجموع سكان الهند - وما يزالون ! - وعلى العكس

---

(١) سورة المائدة [٥٠] .

(٢) كما هو واقع المجتمعات اليوم .

من ذلك حين أقام الصليبيون دويلات نصرانية في العالم الإسلامي استمر بعضها مائتى عام، كانت تلك الدويلات دار حرب مع أن غالبية سكانها مسلمون.

إذا عرفنا هذا ، فلابد أن نتطرق إلى القضية التي تثار دائما حين نصف هذه المجتمعات بأنها جاهلية بسبب عدم قيام شريعة الله فيها ، وهي : كيف نحكم على «الناس» في هذه المجتمعات .

وقد سبق لنا بيان الرأي في هذه القضية ، وهو أننا الآن في مقام التعليم لا في مقام إصدار الأحكام على الناس . ولكننا - في مقام التعليم - لابد أن نبين للناس حكم الله في هذه القضية ليعرفوه، وليتخذوا مواقفهم بناء على معرفة واضحة بحكم الله .

فأما جاهلية المجتمع فمردها إلى أن هناك « مظلة جاهلية » تظلل المجتمع هي الحكم بغير ما أنزل الله . . وهي مظلة تظلل كل الناس الواقفين تحتها ، بما في ذلك الدعاة إلى الله ! أما الناس الواقفون تحت المظلة فالحكم عليهم - كما بيّن رسول الله ﷺ - مستمد من موقفهم هم من المظلة ! فمن رضي بها فهو منها ، ومن أنكرها فله حكمه الخاص :

« . . فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن . ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن . ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن . وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » (١) .

« . . فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم ، ولكن من رضي وتابع » (٢) .

فإذا كان هذا هو حكم المجتمع ، وحكم الله في ذلك المجتمع ، فما حكم تقلد الوظائف فيه ؟

الأصل في « المسلمين » - أى الذين ينكرون الحكم بغير ما أنزل الله - أن يكونوا - بقدر الإمكان - في مواقع بعيدة عن ضغط الحكم الجاهلي عليهم . ولكن هذا لا يتوافر في جميع الأحوال ، فكثير من الناس تضطرهم ظروف المعيشة أن يدخلوا تحت هذا الضغط من أجل إعالة أنفسهم وإعالة ذويهم . وهى - كما ترى - ضرورة بالنسبة لكثير من الناس . فأي الوظائف يصح لهم - تحت هذه الضرورة - أن يعملوا فيها؟

لا يوجد تحديد دقيق في الحقيقة . . ولكنا نقول بصفة عامة إنه كلما قربت الوظيفة من « السلطان» فقد بَعُدَ موقع المسلم منها بالضرورة!

---

(١) أخرجه مسلم. (٢) أخرجه مسلم.

فالطبيب المسلم يمكن أن يعمل في وظائف الطب . . ويمكن أن يكون بنظافة سلوكه، ونظافة ضميره ، ونظافة تعامله ، نموذجا يحبب الناس في الإسلام . . ويكون في الوقت نفسه محصورا فى دائرة عمله الفني ، بعيدا عن تدخل الجاهلية المباشر في عمله . والمهندس كذلك . .

أما المعلم فهو خاضع - لا محالة - لقدر من ضغط الجاهلية عليه ، سواء في المناهج غير الإسلامية التي تدرس ، أو فيما يفرض عليه فرضا من الإشادة بالطغاة الذين لا يحكمون بما أنزل الله . . ولكنه - مع ذلك - يملك ، بسلوكه النظيف ، وأخلاقه العالية ، وترفعه عن الدنايا ، وضربه المثل في اعتزازه بنفسه ودينه وخلقه أن يبين للتلاميذ والطلاب - في صورة عملية - كيف يتميز الإسلام عن الجاهلية . .

وغير أولئك - من « الموظفين » - يبتعدون أو يقتربون من ضغوط الجاهلية بحسب نوع العمل الذي يقومون به .

ولكن في جميع الحالات لا ينبغي « للمسلم » - أي الذي ينكر حكم الجاهلية - أن يكون وزيرا . . فإنه عندئذ يقع تحت الضغط المباشر للجاهلية ، بحيث لا يستطيع الفكاك! وأبسط ذلك أن يقسم يمين الولاء للحكم الجاهلي الذي ينكره ، أو للطغاة الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ! ولا أن يكون فى موضع التعامل المباشر مع التشريع المخالف لما أنزل الله ، فإنه لا يستطيع عندئذ أن ينجو من مخالفة أمر الله !

وكل ما يقال في تبرير ذلك لا يمكن أن يبرره في الحقيقة ، كما أسلفنا القول من قبل . .

ولكن بعض الناس يطيب له أن يستشهد بيوسف عليه السلام حين قال للملك الذي لا يحكم بما أنزل الله :

﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ [1] .

والقياس على حالة يوسف عليه السلام قياس باطل !

فإن يوسف عليه السلام لم يقل للملك ﴿اجعلني على خزائن الأرض ﴾ حتى كان الملك قد قال له : ﴿ إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ [2] . . أي أنه مكّن له في الأرض ، وفي الحكم ، بحيث يأمر فيطاع ، ولا يؤمر فيطيع !

(1) سورة يوسف [55] . (2) سورة يوسف [54].

وحين تكون هناك حكومة جاهلية لا تحكم بما أنزل الله ، تقول لرجل مسلم : تعالى فتول لنا وزارة من الوزارات ، بحيث تكون أنت المخطط فيها والمنفذ ، ولا نتدخل في عملك ، بل ننفذ لك أوامرك . . فعندئذ لا حرج على الرجل المسلم أن يقبل العرض ، ويختار الوزارة التي يعلم من نفسه واستعدادته أنه كفء لها ، ويكون في موقعه ركنا من أركان الدعوة ، ومنفذا لشريعة الله . . فهل يحدث هذا في عالمنا ؟!

وحين لا يحدث ذلك ، فكل كسب وقتي تكسبه الدعوة - وهي تكسب مكاسب مؤقتة دون شك - لا يوازي الضرر الحادث من تمييع قضية الحكم بما أنزل الله في حس الجماهير ، وبالتالي تأخير قيام « القاعدة المسلمة » التي لا يقوم بغيرها حكم إسلامي ولا يمكّن له في الأرض !

هل نرغّب النّاسَ في الإسلام بذِكر محاسن النّظام الإسلامي ؟

يقولون : من باب الترغيب . . من باب « تأليف القلوب » . . ينبغي أن نحدث الشباب خاصة عن محاسن النظام الإسلامي ، لأن الشباب عرضة - بسبب الغزو الفكري - للفتنة بالمذاهب المعاصرة - بالديمقراطية والاشتراكية خاصة - فلابد أن نبين له أن النظام الإسلامي أفضل من تلك النظم ، لنواجه تلك الفتنة التي يحدثها الغزو الفكري في غيبة من المعرفة الصحيحة بالإسلام .

ولسنا نعترض على كاتب يكتب عن النظام الإسلامي . . ولكن هناك عدة محاذير ينبغي أن نجعل بالنا إليها . .

المحذور الأول : هو « الدفاع » عن الإسلام !

إن اعتبار الإسلام متهما ينبغي أن تنبرى أقلامنا للدفاع عنه هو منهج خاطىء يجب الابتعاد عنه . . لأن النظام الرباني لا يحتاج إلى دفاع البشر عنه لتبرئته من « التهم » ، ولا إلى إعلان براءته مما يتهمه به الناس ! ويكون نقصا في عقيدتنا إن ظننا لحظة واحدة أن دين الله « محتاج » إلى تبرئة ساحته بكلام يقوله البشر من عند أنفسهم !

إنما يحتاج الناس دائما إلى « بيان » حقائق الإسلام لهم :

﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ، ولعلهم يتفكرون ﴾ (١)

فالمنهج الصحيح إذن هو بيان حقائق الإسلام للناس ، فهم في حاجة دائمة إلى هذا البيان في كل جيل من أجيالهم ، وفي الأجيال المعاصرة خاصة ، التي أصبح الإسلام غريبا بينها من شدة جهلها بحقائقه . . ولا بأس - في أثناء بيان حقائق الإسلام - أن نقف عند شبهة ترد في أذهان الناس من عند أنفسهم بسبب عدم المعرفة ، أو يثيرها الأعداء ليفتنوا بها المسلمين عن دينهم ، فنجلّي هذه الشبهة ببيان الحقيقة فيها .

أما « الدفاع » عن الإسلام فقد كان بعض الكتاب الإسلاميين قد وقعوا فيه - وما أبرىء نفسي - في وقت كانت آثار الهزيمة الداخلية ما تزال عالقة بالنفوس إزاء الهجوم المستمر العنيف الذي يثيره المستشرقون ، وأعداء الإسلام لفتنة الشباب « المثقف» عن دينه .

وقد كتبت في زمن مبكر كتاب « شبهات حول الإسلام » للرد على بعض تلك الشبهات التي يثيرها الأعداء . وعلى الرغم من أن الكتاب في الحقيقة لم يكن «دفاعا» بالمعنى المعروف ، إنما كان هجوما شديدا على الجاهلية الأوربية المعاصرة ، مما أثار مستشرقا معاصرا هو « ولفرد كانتول سميث » فأشار إلى الكتاب عدة إشارات حانقة في كتابه « الإسلام في التاريخ الحديث » . .

على الرغم من ذلك فقد أعلنت في مقدمة الطبعة السابعة للكتاب عن عدم موافقتي على منهج الكتاب ، وبينت رأيي في المنهج الصحيح الذي ينبغي أن يتبع ، وهو بيان حقائق الإسلام للناس ابتداء ، لا وضع الشبهة والرد عليها ، وقلت في تلك المقدمة إنني هممت أكثر من مرة أن ألغى هذا الكتاب من قائمة كتبي ، لولا أنه يطبع ويترجم إلى لغات كثيرة دون إذني في كثير من الحالات ودون علمي ، فآثرت أن أبقيه على ما هو عليه ، مع التنبيه إلى خطأ المنهج ووجوب اتباع المنهج الصحيح بالنسبة لمثل هذه الشبهات .

والمحذور الثاني : هو إدخال بعض المفاهيم غير الإسلامية في الإسلام رغبة من الكاتب في « الدفاع» عن الإسلام ! وهو كذلك أثر من آثار الهزيمة النفسية إزاء هجوم الأعداء !

---

(١) سورة النحل [٤٤] .

فحين نقول إن الإسلام يعطي المرأة جميع الحقوق التي أعطتها إياها « الحضارة الحديثة » . .

وحين نقول إن الإسلام لا يقاتل إلا للدفاع إزاء هجوم يقع على المسلمين . .

وحين نقول إن الإسلام يعطي الدولة حق مصادرة الأموال أو تأميمها - ولو كانت من مصدر حلال - إذا ترتب على وجود الملكية ضرر . .

وحين نقول إن الإسلام لا يأبى « الانفتاح » على ثقافات البشرية ونظمها ، والاستفادة منها . . أو نقول إن الإسلام نظام ديمقراطي أو نظام اشتراكي . .

حين نقول هذا وأمثاله مما يرد في كتابات بعض الكتاب بحسن نية ، فإننا في الحقيقة لا نخدم الإسلام بمثل هذا « الدفاع » - فضلا عن كون « الدفاع » نفسه ليس واردا بالنسبة لدين الله - وإنما نحن نلقى الغبش على حقيقة الإسلام الناصعة ، وندخل على الإسلام - بوعي أو بغير وعي - ما ليس فيه .

« فالحضارة » الجاهلية المعاصرة أعطت المرأة - كما أعطت الرجل - حق الفساد والتهتك والتبذل باسم « الحرية الشخصية » فهل يسمح الإسلام بذلك للمرأة أو للرجل سواء ؟! وهذه الحضارة قد عملت على ترجيل المرأة وإفساد أنوثتها وهي تنفخ في كيانها باسم المساواة مع الرجل . فهل يرضى الإسلام عن ذلك ؟ كما عملت تلك الحضارة على إحراج صدر المرأة من قوامة الرجل ، وجعلتها تنظر إليها على أنها عدوان على كيانها وكرامتها . . فهل يقبل الإسلام هذا المسخ الذي مسخته تلك الجاهلية لكيان المرأة ، وخرجت بها عن الحكمة التي خلق الله بها الزوجين ، وجعل العلاقة بينهما سكنا ومودة ورحمة ، فانقلبت قلقا وخصاما وتمزقا وفرقة .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾[1] .

إنما يعمد الخبثاء من المستشرقين إلى مهاجمة الإسلام في موضوع المرأة فيقولون ويلحون في القول : إن الإسلام يحتقر المرأة ولا يعطيها حقوقها الإنسانية ، ليقوم ناس - بحسن نية - « فيدافعوا » عن الإسلام ، فيقولوا : كلا ! لقد أعطى الإسلام المرأة جميع الحقوق التى أعطتها إياها الحضارة الحديثة ، فيكونون بذلك قد وقعوا في الفخ

---

(١) سورة الروم [٢١] .

المنصوب لهم ، وأدخلوا كل ما صارت إليه المرأة من فساد في الفطرة وفساد في الأخلاق تحت المظلة الإسلامية ! . . فيقوم آخرون من عصابة المستشرقين - إمعانا في الكيد - فيقولون : إن الإسلام لا يحارب المرأة ولا يحتقرها ، بل هو نظام حضاري يسمح بالتطور ويسمح بالتقدم ، وليس جامدا صلداً كما ادعى الذين لم يفهموه ! فنسارع نحن إلى الاستشهاد بما يكتبون ، ونقول : انظروا إلى « المنصفين » من المستشرقين ! لقد اعترفوا بأن الإسلام نظام حضاري تقدمي !! [1].

وكذلك قضية القتال « الدفاعي » . .

يظل المستشرقون يهاجمون الإسلام ويقولون إن الإسلام قد انتشر بالسيف ! ليقوم ناس - بحسن نية - فيقولوا : أبدا . . إن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعا . . ويكونون بذلك قد وقعوا في الفخ المنصوب ، وهو إبعاد « الجهاد » لنشر الدعوة عن حس المسلمين ، وهو أخوف ما يخافه أعداء الإسلام من الإسلام !

إن الإسلام يستخدم السيف - بأمر من الله سبحانه وتعالى - ولكن لا ليفرض العقيدة على الناس ، بل ليزيل الأنظمة الجاهلية التي تحجب - بوجودها - الحق عن الناس ، فإذا أزيلت الأنظمة الجاهلية بقي الناس أحرارا لا تفرض عليهم العقيدة الإسلامية ، كما بقي الأقباط في مصر ، والنصارى في سوريا ولبنان ، والمجوس في الهند ، لم يكرههم أحد على اعتناق عقيدة الإسلام . .

وتظل الشيوعية تهاجم الإسلام من جهة إباحته للملكية الفردية - التي تشن الشيوعية عليها كل هجومها - ليقوم ناس - بحسن نية - فيقولوا - دفاعا عن الإسلام - كلا ! إن الإسلام يضع في يد الدولة حق المصادرة والتأميم لإقامة « العدل الاجتماعي » ، فيقعوا في الفخ المنصوب ! ويدخلوا « الاشتراكية » في الإسلام ، وهو هدف رئيسي من أهداف الشيوعية في العالم الإسلامي . . فالخطة القائمة الآن بتوجيه روسيا هي توجيه دعاة الشيوعية ممن يحملون أسماء إسلامية إلى « تبنى » الإسلام ، مع زحزحته عن حقيقته وإلباسه ثوب الاشتراكية ، تسهيلا للغزو الشيوعي في بلاد المسلمين !

إنما يستخدم الإسلام أدواته الخاصة لإقامة العدل الاجتماعي ، ولموازنة المجتمع إذا اختل توازنه بسبب مخالفة مقاصد الشريعة ، وليس من هذه الأدوات مصادرة ما

---

(١) انظر إن شئت كتاب « المستشرقون والإسلام ».

اكتسب عن طريق حلال ولا تأميمه . . [1] وليس هنا بطبيعة الحال مجال بسط هذه القضايا . . إنما نحن نشير فقط إلى سلوك خاطىء يقع فيه من يقع بحسن نية وهو يحسب أنه « يدافع » عن الإسلام . .

وكذلك قضية « انفتاح » الإسلام على الثقافات والنظم !

إنها دعوة لتمييع الإسلام وإزالة أصالته النابعة من كونه نظاما ربانيا متفردا لا يختلط بغيره من النظم ولا يمتزج بها :

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾[2] .

﴿صبغة الله ، ومن أحسن من الله صبغة ، ونحن له عابدون ﴾[3] .

﴿ أفحكم الجاهلية يبغون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ [4] .

والذين يقعون فى هذه الدعوة يصدرون ـ بوعي أو غير وعي ـ عن هزيمة داخلية أمام النظم الغربية ، ورغبة فى « تحسين » الإسلام فى نفوس الناس ، بالقول بأنه يمكن أن يقتبس من هذه النظم ما يراه صالحا وغير متعارض مع أهدافه ! كأنهم ـ فى دخيلة أنفسهم ـ يشكّون فى صلاحية النظام الإسلامي بذاته . أو كأنهم يخشون ـ إن قالوا إن الإسلام لا يقتبس من غيره ولا يمتزج به ـ أن يمعن المتفلتون من الإسلام فى ابتعادهم عنه ، ولا يستمعوا لصوت الدعوة !

و « الترغيب » فى الإسلام مطلوب . . ولكن لا بتمييع حقيقته ، ولا بإدخال ما ليس منه فيه ! و«تأليف القلوب » لا يكون بالمداورة والمداهنة لهذه النظم الجاهلية البعيدة عن الهدى الرباني :

﴿ودوا لو تدهن فيدهنون ﴾ [5] .

إنما تكون بعرض الإسلام فى نصاعته كما أنزله الله ، نظاما شاملا متكاملا ، كاملا فى ذاته غير محتاج إلى الترقيع برقع من الأنظمة الجاهلية الشاردة عن منهج الله :

---

(١) جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف : إن لولي الأمر أن يوظف (أي يفرض) فى أموال الأغنياء بمقدار ما يحتاج بيت المال .

(٢) سورة البقرة [١٤٣] .

(٣) سورة البقرة [١٣٨] .

(٤) سورة المائدة [٥٠] .

(٥) سورة القلم [٩] .

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا﴾ [(١)] .

إنما يستفيد المسلمون من ثمار الفكر البشري فيما يصيب فيه هذا الفكر - بالموازين الربانية - دون أن يكون هناك اختلاط ولا امتزاج بين الإسلام وبين الأنظمة البشرية ، لأن صنعة الله لا تختلط بصنعة البشر ولا تمتزج بها ، وإن بدا - فى ظاهر الأمر - أن هناك تقاربا أو اشتراكا بين الإسلام وبين الأنظمة البشرية ، كما يبدو ذلك فيما بين الإسلام والديمقراطية من جهة ، والإسلام والاشتراكية من جهة أخرى !

هناك حقا بعض المشابه بين هذه النظم وبين الإسلام . ولكن الأولى - حتى من الوجهة التاريخية البحتة - أن يقال إن بعض النظم البشرية تقترب من الإسلام أو تتشابه معه فى بعض النقاط ، لا أن يقال العكس ! كأن هذه النظم هي الأصل ، وهي السابقة ، والإسلام محمول عليها أو آخذ منها ! !

ثم إنه من الواجب أن نقول : إن هذا التشابه الظاهري بين هذه الأنظمة البشرية وبين الإسلام ، لا يجوز أن ينسينا الفارق الهائل فى القاعدة التي تقوم عليها هذه النظم والقاعدة التي يقوم عليها الإسلام . ففي القاعدة الإسلامية المعبود هو الله ، والمشرع هو الله ، وفي القاعدة الأخرى المعبود هو آلهة أخرى - مع الله أو من دونه - والمشرع هو البشر ، بكل ما فى البشر من خضوع للهوى والشهوات ، وقصور عن العلم الشامل وعن الإحاطة . ومن ثم تتحقق إنسانية الإنسان كاملة حين يكون المعبود هو الإله الحقيقي ، وينتقص من هذه الإنسانية حين يكون المعبود آلهة أخرى من دون الله اسمها الوطن أو القوم أو المذهب أو الزعيم أو . . الدولار ! وحين يكون بعض الناس - بطريق التشريع - عبيدا لبعض ! ويتحقق العدل الكامل حين يكون المشرع هو الله « العليم الخبير » ولا يتحقق إلا جزئيا حين يكون المشرع هو البشر ، ويظل جانب من الظلم قائما على الدوام ، يحاول البشر تعديله فيعدلونه بظلم متجدد على الدوام ! [(٢)] .

والمحذور الثالث - وقد أشرنا إليه من قبل - هو الدخول فى تفصيلات « الحلول العملية » للمشاكل القائمة اليوم من أجل إثبات أن النظام الإسلامي ليس قادرا فقط على حل المشاكل المعاصرة ، بل إنه يقدم الحل الأفضل !

والمحذور فى هذا الشأن - كما بينا من قبل - أن هذه « الحلول العملية » ليست عملية

(١) سورة المائدة [٣] .

(٢) راجع إن شئت فصل « الديمقراطية » فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

فى الحقيقة لأنها غير قابلة للتنفيذ ! لا لأنها فى ذاتها غير قابلة للتنفيذ ، ولكن لأنه لا يوجد فى الواقع من ينفذها ، ولو كانت فى حقيقتها أفضل من الموجود كله ! فالغرب - الذي نفترض فى دخيلة أنفسنا أننا نخاطبه بهذه الحلول العملية - لن يلتفت إلينا ، ولن يستمع منا لأنه غير مسلم ! والحاجز الصليبي الذي يفصله عن الإسلام أعلى بكثير وأكثف بكثير من أن يجعله يسمع هتافنا له بأننا نملك حلولا عملية لمشاكله أفضل مما لديه من حلول ! إنما يسلم من يسلم منهم لإحساسه بجوعة الروح ، لا من أجل حلولنا العملية !

وأما الشباب المسلم - أو قل الذي يحمل أسماء إسلامية وهو نافر من الإسلام - فلن يرده للإسلام الاقتناع العقلي بأن الإسلام يملك حلولا عملية للمشاكل المعاصرة ، وحلولا أفضل من الديمقراطية والشيوعية ! وحتى إن اقتنع حقيقة فسيقول لك - كما أشرنا من قبل - هلموا حققوا حكومتكم الإسلامية ونظامكم الإسلامي ، ويومئذ ستجدوننا مؤيدين لكم ! ذلك لأنه لم يُدْعَ من جانب العقيدة - التي تحركه للتنفيذ - إنما دعي من جانب التفكير العقلى ، الذي لا يتحرك من مكانه ، وخاصة حين يكون معنى الحركة هو التعرض للتعذيب والتشريد والتذبيح والتقتيل !

إن النظم الباطلة لها دول قائمة بالفعل ، وهي ذات قوة وسطوة وسلطان . أما النظام الإسلامي - حتى إن اقتنع أولئك الشباب أنه الأفضل - فليست له الآن دولة ذات قوة وسطوة وسلطان . لذلك فإن الذي « يتفرج » على النظم ، سيجد أمامه «بضاعة حاضرة» فى « الدكان الديمقراطي » وبضاعة حاضرة فى « الدكان الشيوعي» ولكنه بالنسبة للإسلام سيجد نداء على بضاعة لم توجد بعد ، وإن قال له عارضها إنها أفضل من هذه البضاعة وتلك ! فما لم يكن « مؤمنا» فسيقول لك ببساطة : حين تجيء بضاعتك فسوف أشتري منها ! أما الآن فسأشتري من البضاعة الحاضرة ! لذلك نقول دائما إن باب الدعوة هو باب العقيدة . . هو باب لا إله إلا الله محمد رسول الله . وإن من لا يدخل من باب العقيدة فسيظل « يتفرج» من بعيد !

أما الذي ينبغي أن نبينه للناس حقا فهو القيم الثابتة فى هذا الدين . . سواء فى العقيدة ، أو فى السياسة ، أو فى الاقتصاد ، أو فى التربية ، أو فى بناء المجتمع . .

ففضلا عن كونها من « البيان» الواجب تقديمه لكل جيل من أجيال المسلمين باللغة التي يفهمونها ، ومن خلال التجارب أو المشاكل التي يخوضونها ، فهى أوجب بالنسبة

لهذا الجيل الذي يعيش فى دوامة قد لا يكون لها مثيل فى التاريخ . . تشتت فكره وتحيّر وجدانه . . والعلم بهذه الأمور يزيد المؤمن رسوخا فى الإيمان ، كلما عرف حقيقة من حقائق دينه ، وقد تلفت المتحيرين ، الباحثين عن الحق بإخلاص ، فترد بعضهم من التيه ، وتهديهم إلى سواء السبيل!

ولقائل أن يقول : ما الفرق بين أن نحدث الناس عن « الأصول الثابتة » فى السياسة والاقتصاد . . إلخ ، وبين أن نحدثهم عن التفاصيل؟ أليس الحديث عن التفاصيل أولى أن يرد الشاردين حين يقتنعون بجدوى « الحلول العلمية الإسلامية »؟

والأمر فى حقيقته غير ذلك!

فالباحث عن « الحلول العملية » هو فى الغالب شخص «واقعي» بالمعنى السيء للواقعية! فإن لم يجد « البضاعة الحاضرة » - أو الواقع المطبق بالفعل - فسينصرف إلى محل آخر . أما الباحث عن « الأصول» والباحث عن « القيم » فهو إنسان أصيل ، يبحث عن «الحق» ، وحين يجده فقد ينعطف إليه ، ثم يؤمن به ، ثم يجاهد لتحقيقه . .

والمحذور الرابع أن يستدرجنا أعداؤنا لمتابعتهم فيما يثيرون من قضايا لا يقصدون بها فى الحقيقة التعرف على «الحق» ، وإنما يقصدون بها تيئيس المسلمين من هدفهم الذي يسعون إلى تحقيقه . .

خذ مثلا « النظرية السياسية » . .

يقولون لك : ليس للإسلام نظرية سياسية . أو يقولون : ليس عند المسلمين القائمين بالدعوة أي تصور واضح لنظرية سياسية ، فكيف يقيمون دولة ؟!

ويتبنى بعض المخلصين هذه القضية ليثبتوا أن للإسلام نظرية سياسية . ويجتهدون فى بيانها من أصولها الثابتة فى الكتاب والسنة وفي التطبيق الصحيح لها فى عهد النبوة والخلافة الراشدة . . ويكون فى ذلك خير إن شاء الله . . ولكن! هل يسكت الذين أثاروا القضية أول مرة إذا رأوا أن هذا « التحدي» قد أجيب عليه إجابة « علمية » «موضوعية » مؤصلة ؟!

كلا! فما كان هدفهم منذ البدء الوصول إلى الحق!

سيقولون (وقد قالوا بالفعل) : وماذا تفعلون بالأقليات غير المسلمة فى

بلادكم؟! [1] وماذا تفعلون بروسيا وأمريكا؟ وماذا تفعلون بالمجتمع الدولي النافر من فكرة الدولة القائمة على عقيدة دينية ؟! وماذا . . وماذا . . وماذا . .

فإذا سألتهم : ماذا إذن ؟! فستجد فى النهاية أنهم يريدون لك التبعية لهذه الدولة أو تلك ـ حسب « هويتهم» السياسية إن كانوا من عبيد روسيا أو عبيد أمريكا ـ وإلى هذا الهدف يدفعونك من وراء « النقاش العلمي» و « البحث الموضوعي» !

فإذا نسينا خطنا الأصلي ، وهو « البيان» لحقائق الإسلام ، وتتبعنا القضايا التي يثيرونها باستمرار ولا يكفون عن إثارتها ، فالمحذور هو أن يتشتت جهدنا بغير طائل ، ونفقد الهدف الأصلي الذي من أجله بدأنا التفكير والبحث والكتابة إلى الناس . . وهذا هو الذي يقصده أعداؤنا ، ويصرون عليه ، ويضحكون منا كلما استثارونا للعَدْو فى متاهات الطريق!

إن وجود أقليات غير مسلمة ، ووجود روسيا وأمريكا ، ووجود المجتمع الدولي ، ووجود غير ذلك من المشكلات . . كل ذلك لا يمكن أن يلغي التكليف الرباني بإقامة حكم الله فى الأرض . والذين يعتقدون أن هذا التكليف قد سقط عن «المسلمين» بسبب هذه المشكلات ، هم قوم ينفون عن الله صفة العلم وصفة الحكمة . . كما ينفون عنه صفة القدرة والقوة . كأنهم يفترضون أن الله ـ سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ لم يكن عالما بأن ظروفا ستجدّ فى الأرض تمنع إقامة الحكم الإسلامي! ويفترضون فيه سبحانه أنه يفرض على المسلمين فرضا غير قابل للتحقيق مما يتنافى مع الحكمة! كما يفترضون فيه سبحانه أنه عاجز عن إعانة المؤمنين وتأييدهم بنصره لأن روسيا وأمريكا أكبر من قوته سبحانه !!

لقد كلفنا الله أن نؤمن به ونجاهد فى سبيله . . وتكفل سبحانه بما وراء ذلك . . وحين يصدق المؤمنون فى الجهاد يحدث ما يشبه المعجزات ، كما حدث أخيرا فى جهاد الشيشان ضد أكبر همجية وحشية فى تاريخ الحروب!

---

(١) من أعجب القضايا التي تثار ضد الحكم الإسلامي قضية الأقليات غير المسلمة! إن هناك أقليات إسلامية كثيرة فى الأرض لم تفكر ـ ولا يسمح لها ـ أن تمنع أكثرية السكان من ممارسة دينهم! فكيف يكون من حق الأقليات غير المسلمة أن يمنعوا الأكثرية المسلمة من ممارسة دينها ، والحكم بما أنزل الله هو جزء لا يتجزأ من هذا الدين؟! بأي عرف سياسي أو تاريخي أو منطقي يقال ذلك؟!

والدخول فى جدل مستمر مع المجادلين لن يقنعهم - فهم ما ابتغوا البحث عن الحق - ولن يطفىء أحقادهم ، فهم أولا وآخرا يكرهون الإسلام ، وهم بعد ذلك قد استعبدوا لهذه الكتلة أو تلك . .

﴿فذرهم وما يفترون﴾ [1] .

والمحذور الأخير أن تستدرجنا قضية « البحث العلمي» فتنسينا جهد التربية المطلوب لإقامة القاعدة الإسلامية - وقد أشرنا إلى هذا من قبل - ثم نظن ، طالما نحن مشغولون بالتفكير ، أننا نؤدي كل الواجب المطلوب منا . .

إنه لا بأس أن يتفرغ لذلك الأمر فريق من « الباحثين» ، المهيئين بطبيعتهم للبحث العقلي أكثر مما هم مهيأون للحركة ، أو الاتصال بالناس ، أو القيام بعملية التربية . . أما أن تنصرف إلى ذلك جماعة بأكملها ، وتظن أنها بذلك تؤدي العمل الواجب للإسلام الآن . . فهذا هو المحذور . . لأنه يقتل الحركة فى النهاية ، ويضيّق القاعدة بمقدار ما يضيف من البحوث!

التّطـرُّف

بطبيعتي لا أحب التطرف ! لا فى أمر بعينه ، ولكن فى جميع الأمور !

ولكن هناك أكثر من كلمة ينبغي أن تقال فى هذا الشأن!

الكلمة الأولى أنه قد يقع بالفعل تطرف من بعض الشباب ، أو بعض الجماعات القائمة بالعمل فى الساحة الإسلامية . . ولكن حجمه أقل بكثير جدا مما يهول المهوّلون الذين يرمون الساحة كلها بالتطرف لأمر يراد !

إن الذين يهوّلون فى تصوير التطرف ، للتنفير أو التحريض أو الإثارة ، يَصمُون بالتطرف كل شاب أطلق لحيته ، أو كل فتاة تحجبت ، أو كل مطالب طالب بتَحكيم شريعة الله .

---

(١) سورة الأنعام [١١٢] .

وقد يكون من بين كل ألف شاب أطلق لحيته ، أو بين كل ألف فتاة تحجبت ، أو بين كل ألف مطالب بتحكيم شريعة الله واحد متطرف أو واحدة متطرفة . . ولكن وصم الألف كلهم بالتطرف أمر مقصود لإيجاد حائل من النفور بين الحركات الإسلامية كلها وبين « الجماهير » ، لعل ذلك يوقف المد الإسلامي المتدفق ، ويعوّق الحركة الإسلامية عن المسير ! وكذلك لضرب الحركات الإسلامية كلها بتهمة التطرف ، إذا عجز الطغاة عن تدبير تهمة أخرى تبرر فى نظر الناس ضرب المسلمين الداعين إلى تحكيم شريعة الله .

فلينظر كل كاتب إسلامي يكتب ضد التطرف إلى أين تنتهي كلماته ، وكيف تستغل لمحاربة الحركة الإسلامية كلها ، حتى أشد « المتساهلين» فيها !

يقول الله فى كتابه الحكيم :

﴿ ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم ﴾ (١) .

فنهى سبحانه عن سب الآلهة التي تعبد من دون الله ، مع أنها كلها باطل لا ذرة فيها من الحق ، إذا كان سبها يؤدي إلى استعداء أعداء الله على مقدسات الإسلام . فكيف نعين بأقلامنا أهل الباطل - لمجرد أننا نكره التطرف ، أو لننفى عن أنفسنا تهمة التطرف - فنعطيهم سلاحا يستخدمونه ضدنا كلنا فى النهاية ، كما تقول الحكمة القديمة : أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! (٢) .

والكلمة الثانية أن الذين يحاربون ما يسمونه تطرفا بحجة أنه تطرف ! وأنه ينبغي الرجوع إلى القصد والاعتدال ! لا يحاربونه فى الحقيقة لهذا السبب ! ولا يقصدون رده إلى الاعتدال الحقيقي بميزان الله الحق ! إنما يحاربونه لأنه يشجع الشباب على الإصرار فى مطالبة الحكام بتحكيم شريعة الله ، وعدم قبول أي حل إلا تحكيم شريعة الله ! وهذا هو الذي لا يريدونه ولا يقبلونه ! فالمحارَب فى الحقيقة هو الإسلام ذاته وليس هو التطرف ! والممنوع فى الحقيقة هو المطالبة بتحويل الإسلام إلى واقع فى حياة الناس ، لأن المطلوب هو إبقاؤه هكذا ! إسلاما بلا إسلام !

---

(١) سورة الأنعام [١٠٨] .

(٢) تقول القصة إن جماعة من الثيران الحمر كان بينها ثور أبيض ، وكانت تنفر منه ولا تحبه لأن لونه مغاير للونها . فجاء الأسد فطلب من جماعة الثيران أن تقدم له واحدا منها ليأكله ، فقدموا له الثور الأبيض ليتخلصوا منه . ولكن الأسد عاد بعد فترة يطلب ثورا جديدا ليأكله ، وهجم على أحد الثيران الحمر ليلتهمه ، فقال الثور وهو بين فكي الأسد : أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! !

ومهما تخفّى الذين يحاربون الإسلام وراء ستار محاربة التطرف ، فستظل الحقيقة واضحة من وراء كل ستار : أن الذي يحارَب حقيقةً هو الإسلام ، وأن الذين يراد إبادتهم أو نفيهم من الأرض هم المسلمون :

﴿ وما كان جواب قومه إلا أن قالوا : أخرجوهم من قريتكم، إنهم أناس يتطهرون﴾ (١) .

والكلمة الأخيرة أن الذي أوجد التطرف فى الحقيقة ، والذي مازال يغذيه ، هو الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله ، ثم تقوم بتذبيح المسلمين وتقتيلهم حين يطالبون بتحكيم شريعة الله .

وإلا . . فلو أن هذه الحكومات حكمت بما أنزل الله كما أوجب الله عليها ، فمن أين كان ينشأ التطرف؟

ولو كانت هذه الحكومات ـ على أقل تقدير ـ وهي لا تحكم بما أنزل الله ـ تعامل المطالبين بتحكيم شريعة الله ـ وهو واجب على كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ كما تعامل « المجرمين » العاديين ، فتتيح لهم فرصة الدفاع عن أنفسهم ، ولا تستخدم الوسائل الإجرامية فى إكراههم على « الاعتراف » بما فعلوا وما لم يفعلوا ، وحكمت عليهم بمقتضى القوانين العادية رغم جورها وعدم شرعيتها . . لو فعلت ذلك ـ على أقل تقدير ـ فمن أين كان ينشأ التطرف ؟!

يجب أن يستقر فى أذهاننا بوضوح أن المتسبب الأول، والمتسبب الأكبر فى نشر التطرف وتغذيته هو الحكومات التي لا تحكم بما أنزل الله ، وتقوم بتعذيب المطالبين بتحكيم شريعة الله تعذيبا وحشيا لا مثيل له فى التاريخ . وأن هذه الحكومات ترتكب ثلاث جرائم فى وقت واحد : الإعراض عن أمر الله القاضي بتحكيم شريعته دون سواها . والقيام بجرائم القتل والتعذيب الجماعي التي لا تقرها حتى شريعة الغاب . وتغذية روح التطرف بين الشباب كرد فعل للجريمتين الأوليين .

كما يجب أن يستقر فى أذهاننا بوضوح كذلك أنه لا يمكن القضاء على التطرف إلا بإزالة أسبابه الحقيقية الدافعة إليه . أي باستجابة الحكام لأمر الله لهم أن يحكموا بما أنزل الله ، أو ـ فى أقل القليل ـ الكف عن المعاملة الوحشية التي يعاملون بها الذين يطالبون بتحكيم شريعة الله . . وأن كل مذبحة تقام للمسلمين فى الأرض هي وقود جديد للتطرف ، يمتد إلى ما شاء الله .

---

(١) سورة الأعراف [٨٢] .

فلينظر الذين يَشْكُون حقيقة من التطرف ، ويرغبون حقيقة فى علاجه ، أي طريق يسلكون !

* * *

استعرضنا فيما مضى بعض القضايا التي تدور فى ساحة العمل الإسلامي ؛ ويجدر بنا فى ختام هذا الفصل المتعلق بالصحوة الإسلامية أن نلخص المهمة الملقاة على عاتق الدعوة فى هذه المرحلة من تاريخها .

إن الدعوة مكلفة بواجب تبليغي وواجب تربوي ، مقتدية فى ذلك بالمنهج النبوي فى فترة الدعوة الأولى بمكة .

فأما الواجب التبليغي - حين تسنح الفرص بلقاء الدعوة مع الجماهير - فهو تعليمهم ما جهلوه من حقيقة لا إله إلا الله ، وارتباطها الوثيق بتحكيم شريعة الله . والتأكيد لهم بأن ما أصاب المسلمين فى حاضرهم من الذل والهوان والضعف والتخلف وغلبة الأعداء عليهم إنما كان سببه تفريغ لا إله إلا الله من مضمونها الحقيقي ، وجعلها كلمة تنطق باللسان فحسب . . وأن هذا ليس هو الإسلام الذي أنزله الله . . إنما الإسلام الذي يرضى الله عنه فى الدنيا والآخرة هو نطق لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والعمل بمقتضاها ، وتأدية الفرائض . . وأن المسلمين لن يعودوا إلى التمكن فى الأرض بأي مذهب من المذاهب ولا أي منهج من المناهج المستوردة من الشرق أو الغرب ، إنما بالرجوع الحق إلى الله ، أي عبادته وحده بلا شريك ، سواء فيما يختص بالعقيدة ، أو ما يختص بالشعائر التعبدية ، أو ما يختص بتحكيم شريعة الله فى كل أمر من الأمور . وأن استيراد المذاهب من الشرق والغرب خلال قرن كامل من الزمان لم يزدهم إلا ضعفا وهوانا وذلة وضياعا ، وبعدا عن التمكن والاستقرار .

وأما الواجب التربوي فهو أخطر ما تقوم به الدعوة فى الحقيقة ، لأنه هو طريق الخلاص . . وهو عمل دائب مستمر لا يتوقف مهما كانت الأحوال . فى الشدة وفي الرخاء سواء . فى السعة وفي الضيق سواء .

والتربية المطلوبة - لإقامة القاعدة الإسلامية - تهدف إلى إخراج نماذج فذة لا إلى مجرد إخراج مسلمين عاديين . نماذج تكون كالأعمدة الراسية فى البناء ، لتحمل ثقل البناء فيما بعد . .

وهذا يحتاج أولا إلى عقيدة صافية لا غبش فيها ولا بدع ولا انحرافات . عقيدة كعقيدة السلف الأول ، خالية من كل ما علق بها خلال الأجيال من إضافات وانحرافات خرجت بها عن عقيدة التوحيد الخالصة الصافية وكادت تردها وثنية جاهلية . .

ويحتاج ثانيا إلى إدراك واع لمقتضيات هذه العقيدة . ومقتضياتها هي كل التكاليف وكل التوجيهات التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله . . ومن عظمة هذه التكاليف والتوجيهات ، ومن شمولها لكل جوانب النفس وكل جوانب الحياة كانت عظمة هذا الدين ، وعظمة الأمة التي حملت هذا الدين وأنشأت به ذلك الواقع الضخم الذي شهده التاريخ .

ويحتاج ثالثا - إلى تربية تحول هذه العقيدة إلى حقيقة سلوكية قائمة فى عالم الواقع .

وهذه التربية تحتاج إلى ترسيخ معاني الألوهية وتعميقها حتى تصبح يقينا قلبيا ينبني عليه سلوك واقعي . . يقينا لا يزلزله الابتلاء والشدة ، ولا يزلزله الرخاء والسعة . .

وتحتاج إلى ترسيخ أخلاقيات لا إله إلا الله ، حتى تصبح حقيقة سلوكية ، تنبثق انبثاقا ذاتيا من داخل النفس . وأخلاقيات لا إله إلا الله من السعة والشمول بحيث تشمل كل سلوك يقوم به الإنسان . فالأخوة من أخلاقيات لا إله إلا الله . والتكافل من أخلاقيات لا إله إلا الله . والجلد والصبر من أخلاقيات لا إله إلا الله . والشجاعة فى الحق من أخلاقيات لا إله إلا الله . والنظام والانضباط من أخلاقيات لا إله إلا الله . ومعرفة الحق واتباعه من أخلاقيات لا إله إلا الله . .

وتحتاج إلى الوعي السياسي بأحوال العالم المعاصرة . وأحوال المسلمين فى ظروفهم الراهنة . ومكايد الأعداء ومؤامراتهم الدائمة ضد الإسلام . وتدسسهم إلى حياة المسلمين بالغزو الفكري وغيره من وسائل الحرب .

وتحتاج إلى الوعي الحركي الذي لا يتعجل الخطى قبل أوانها ، وفي الوقت نفسه لا يدع الفرص تفلت منه دون أن يستفيد منها .

وتحتاج إلى موازنة فى داخل الجماعة بين النزعة الفردية والنزعة الجماعية ، بحيث لا يكون الفرد مستبدا ولا ناشزا ، ولا يكون فى الوقت ذاته إمعة يساير المجموع إن أخطأ أو أصاب . ولا تكون الجماعة مستبدة طاغية تسحق شخصية الفرد ، ولا مفككة لا رابط لها ولا اتحاد . .

وتحتاج إلى وعي فقهي يعرف به الفرد ماذا يأتي وماذا يدع ، ومتى يسمع ويطيع ، ومتى يفضي به السمع والطاعة إلى الهلاك .

* * *

ومن أجل متطلبات هذه التربية ، وهى كثيرة وشاقة ، وخاصة فى أمة كادت تنسلخ من كل مقومات الإسلام ، فلا ينبغي التعجل فى خطواتها ، ولا ينبغى التعجل فى إدخال الجماهير فى الدعوة على النطاق الواسع قبل أن يتيسر العدد الكافي من الدعاة والمربين ، الذين تربوا هم أنفسهم على المنهج الصحيح ، والذين يستطيعون بدورهم أن يربوا على المنهج الصحيح . فهذا التعجل لا يخدم الدعوة فى شيء ، إنما يعوّقها فى الحقيقة عن المسير .

* * *

ويجب أن يكون واضحا فى أذهاننا أن « القاعدة الإسلامية » غير موجودة فى الحقيقة ، برغم كل عواطف الجماهير ، وكل حماستهم التي يبدونها حين يذكر الإسلام . فهي حماسة عاطفية لا تقيم بناء حقيقيا ولا حركة حقيقية . . إنما تحتاج القاعدة إلى الإنشاء من جديد . . فردا فردا حتى يكتمل منها بناء متماسك كبناء الجماعة الأولى على يد الرسول ﷺ ، إلا يكن فى الدرجة فعلى نفس المنهج ، الذي هو مجال الأسوة فى رسول الله ﷺ وفي الجماعة التي رباها ليقوم عليها البناء .

* * *

ويجب أن يكون واضحا فى أذهاننا كذلك أن المعركة بين الإسلام وأعدائه ليست معركة سريعة خاطفة ، ولكنها معركة طويلة شاقة قد تستغرق عدة أجيال . فينبغي للقاعدة التي تنشأ للقيام بهذا العبء الضخم أن تربي لتكون طويلة النفس ، شديدة الصبر ، عميقة الإيمان بالله ، عميقة التوكل عليه ، مستعدة لما يتطلبه أمرها من المعاناة ، قادرة على أن تبذل من نفسها : من جهدها ومالها ودمها وفكرها ، ما يحتاج إليه إزالة الغربة التي ألمت بالإسلام اليوم ، واستنقاذ « الغثاء » من دوامة السيل ، واستنباته مرة أخرى راسيا فى الأرض عميق الجذور . .

وحين تقوم القاعدة بالمواصفات المطلوبة ، بالحجم المناسب ، سيغير الله للناس ، لأنهم يكونون قد غيروا ما بأنفسهم ، ويمكّن لهم مرة أخرى فى الأرض ، لأنهم يكونون قد وفوا بالشرط :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبدوننى لا يشركون بي شيئا﴾ [1] .

وفي الفصل القادم نحاول أن نلقى نظرة على المستقبل، تمد بصرنا وراء الحاضر الذي نعيشه الآن . .

---

(١) سورة النور [٥٥].

نظرة إلى المستقبل

يمر العالم الإسلامي بفترة سيئة فى الوقت الحاضر ، نتيجة كل الظروف التى شرحناها من قبل فى أثناء الحديث عن آثار الانحراف . . من الضعف والذل والهوان والضياع وغلبة الأعداء ، مع كل ما يعانيه العالم الإسلامى من أزمات اقتصادية وأزمات سياسية وأزمات اجتماعية وأزمات فكرية وروحية . .

والذى يراد بالعالم الإسلامي فى المستقبل القريب أسوأ من ذلك كله . فإن الأعداء لم يكفهم كل ما أحدثوه من تخريب من قبل ، بل يريدون تخريبًا أكبر ، وتمزيقا أشد . .

إنهم فى الحقيقة سائرون فى ذات الطريق الذي بدأوه منذ أربعة قرون أو أكثر . . منذ طرد المسلمون من الأندلس ، ثم بدأت الحروب الصليبية الجديدة لمطاردة المسلمين فى بقية الأرض ، وإخضاعهم لسيطرة الصليبية الحاقدة ، وإذلالهم انتقاما من الهزيمة الساحقة التى تلقاها الصليبيون فى الحروب الصليبية الأولية ، بعد كل ما بذلوا من الدماء والأموال ، ولم يعودوا مدحورين فقط ، بل قامت دولة إسلامية فى أوربا ذاتها ، ظلت تزحف زحفا مستمرا قرابة ثلاثة قرون ، وتستولى على بلاد نصرانية تخضعها لسلطانها ، بل يدخل من سكانها فى العقيدة الإسلامية عشرات الملايين !

ولكن العالم الإسلامى كان قد ظن فى بداية القرن العشرين الميلادى ، وفى أثنائه أنه قد تخلص من الاستعمار ، واسترد كيانه ، وحسّن أوضاعه ، وبدأ يخطو إلى الأمام ، نحو القوة والحضارة والتقدم والرقى . .

فهل كان الظن حقا ؟

لقد انتشر التعليم بعد أن كانت الجهالة هى السمة العامة لشعوب العالم الإسلامى . وتحسنت الأوضاع الصحية بعد أن كان المرض هو المسيطر . ووجدت مصانع صغيرة

أوكبيرة تصنّع بعض الخامات المحلية ، وتنتج بعض ما يلزم الناس فى حياتهم ، بعد أن كان كل شيء يستورد من الخارج ، ويعجز الناس عن صناعته مهما كانت تفاهته . وصارت هناك جيوش تستخدم أسلحة حديثة بعد أن كان سلاحها متخلفا إلى أقصى حد . ودخلت الآلات الحديثة في الصناعة والزراعة والعمارة . وملأت السيارات شوارع المدن . وملأت أجهزة التليفزيون البيوت !

وإلى جانب ذلك انسحبت جيوش الاستعمار من معظم بلاد العالم الإسلامي ، واكتفت دول الاستعمار بنفوذها السياسى والاقتصادى بعد أن كانت تحتل الأرض وترهب الناس بعساكرها . وسمحت للبلاد الإسلامية أن يكون لها تمثيل «دبلوماسي» ، وأن تحتل مقاعد فى هيئة الأمم وفي مجلس الأمن . .

ولكن هذه الظواهر لم تكن كلها صادقة كما كان يبدو لأول وهلة ، فقد كان بعضها حقيقيا وبعضها خادعا . . ولكنها كانت فى جملتها ـ على أي حال ـ خيرا مما آلت إليه الأحوال بعد الحرب العالمية الثانية ، بحيث يعتبر الواقع المعاصر نكسة شاملة بعد التقدم الظاهري الذي كان فى النصف الأول من القرن . .

كيف حدث ذلك ؟ ! لماذا انتكست الأحوال وصارت تزداد سوءا يوما بعد يوم ؟ ألعوامل داخلية بحتة ؟ أم لعوامل خارجية بحتة؟ أم لمزيج من هذه وتلك ؟ !

فلننظر أولاً فى حالة التحسن الظاهري الذى كان فى مبدأ الأمر . .

لقد حدث ولاشك قدر من التقدم المادى برضا الاستعمار أو بغير رضاه . .

ونستطيع أن نتصور أن روح الثورة على الاستعمار قد شحذت عزائم الناس ، فأصروا على أن يتعلموا ، وأصروا على أن ينتجوا ، وأصروا على أن يصلحوا بعض ما رأوه فاسدا فى حياتهم . .

ولكن هناك أمرا خطيرا لم تلتفت إليه تلك الشعوب وهي « تزحف» نحو التقدم والتحضر والرقى . .

لم تلتفت إلى المؤامرة الكبري التي صاغتها دول الاستعمار جميعا ضد كيانها الأصيل . . ضد الإسلام . . ولم تلتفت إلى عملية « التسميم » التي قامت بها دول الاستعمار فى الأرض الإسلامية قبل أن تنسحب منها . .

إنها لم تنسحب حتى كانت قد أبرزت «القيادات العلمانية» التى تقود مرافق الحياة

كلها فى العالم الإسلامي ، وتقوم بتحضيره ، نعم ، ولكن على أسس غير إسلامية !

ولم تنسحب حتى كانت قد حررت المرأة المسلمة ! حررتها من دينها وأخلاقها وتقاليدها ، وأخرجتها إلى الشارع فتنة لنفسها وللرجل على السواء !

ولم تنسحب حتى كانت قد بذرت فى الأرض الإسلامية كل البذور السامة الموجودة فى المجتمع الغربي ، ولكن بدون عوامل القوة الإيجابية التي تؤخر الدمار هناك [1]. بذرت الفوضى الجنسية ، والتحلل الخلقي ، والتمزق الأسري ، والضياع الروحى ، والتمزق النفسي ، والقلق ، والانتحار ، والأمراض العصبية ، والخمر ، والجريمة والفردية الجانحة والاستهتار بالقيم ، والبحث عن المتاع المادي ، والاستغراق فيه . .

هل كان يتوقع لتلك الشعوب وقد بذرت فيها كل تلك البذور السامة أن تتقدم حقيقة ، وتنهض حقيقة ، وتسير حقيقة على خط القوة والصعود ؟

أم كان يتوقع لها الانتكاس الدائم والضعف المستمر ، رغم كل مظاهر التقدم المادي التى تطفو على السطح ؟ !

لقد رأى العقلاء بوادر ذلك كله ، وأنذروا شعوبهم ، فلم تستفق هذه الشعوب لصوت النذير - إلا من رحم ربك - وظلت تلهث كالمجنون ، تستزيد من بذور السم ، وكلما أخذت جرعة تطلب المزيد !

وما بنا من حاجة لاعادة ما قلناه من قبل عن الغزو الفكري وأدواته والقائمين به ، ما بين عميل مستغفل وعميل مأجور ، وأثر ذلك كله فى عملية التدمير الدائمة فى كيان تلك الشعوب .

ومع ذلك كله . . وعلى الرغم من فتور عزائم الثوار بعد أن خيل إليهم أنهم انتصروا على الاستعمار وطردوه ، وأصبحوا أحرارا فى بلادهم - وما كانوا أحرارا فى الحقيقة وقد تشربت نفوسهم العبودية للغرب - وعلى الرغم من أثر ذلك الفتور فى زيادة تأثير السموم التي خلفها الاستعمار قبل انسحابه . .

على الرغم من هذا كله ، فقد كانت خطوات الانحدار التى تسير بها شعوب المنطقة الإسلامية نحو الهاوية ، أبطأ بكثير مما صارت إليه بعد التغيرات الحاسمة التي حدثت على

(١) ستتكلم عن هذا الأمر فيما يلي من الفصل .

الساحة العالمية ، والتي أبرزت فى الساحة قوى جديدة أشد ضراوة وأكثر شرا من تلك التي كانت قائمة من قبل !

* * *

أحدثت الحرب العالمية الثانية تغيرات جذرية فى التركيبة السياسية القائمة فى الأرض .

لقد كانت الدولتان العظميان أي اللتان لهما السيطرة الغاشمة فى الأرض هما بريطانيا وفرنسا ، ومن دونهما قوى ثانوية تستظل فى الحقيقة بظلهما «الاستعماري» وإن حدثت منافسات جزئية بينها وبين الدولتين الكبيرتين فى شتى المجالات . وكانت الدولتان ذاتهما تتنافسان فيما بينهما منافسة عنيفة حتى عقدت اتفاقية سايكس - بيكو ، فهدأ بينهما الصراع حين اتفقتا على تقسيم مناطق النفوذ بينهما . . ولكن كان هناك عنصر مشترك بين المتنافسين جميعا ، ينسون عنده صراعاتهم ومنافساتهم ، ويقفون صفا واحدا متساندا متعاضدا - ذلك حين يواجهون الإسلام .

ولقد يفيدنا أن نذكر - على سبيل المثال - أن بريطانيا احتلت مصر عام ١٨٨٢ م ، وطردت النفوذ السياسي الفرنسي الذي كان قائما فى مصر من أيام محمد علي إلى أيام الخديو إسماعيل ، ولكنها لم تتعرض قط للمؤسسات التبشيرية الفرنسية ، ولا للمؤسسات الثقافية ، ولا لمعهد الآثار الفرعونية الذى تركه نابليون فى مصر ، لأنه هنا ينسى الانجليز عداوتهم وخصومتهم لفرنسا ، ويتذكرون أن كلا منهما يعمل للقضاء على العدو المشترك . . فيتساندان !

وربما كان أبلغ من ذلك فى الدلالة أن الذي حمى الدكتور طه حسين ، الفرنسى النزعة ، الفرنسي الثقافة ، حين غضب عليه الأزهر بسبب كتابه « فى الشعر الجاهلي» الذي هاجم فيه القرآن والإسلام وجميع المقدسات ، وطالب بسحب شهادة العالمية منه وتقديمة للمحاكمة . . الذي حماه من هذا كله هو المندوب السامى البريطاني ، الذي ذهب إلى رئيس الوزراء فى مكتبه ، وقال له : إلى متى يستمر هذا العبث ؟ ! وفي الحال أقفل التحقيق الذي كان قد بدئ مع طه حسين ، وأسكت الأزهر ، وهدأت الزوبعة . . وبقى « الدكتور » !

هكذا كانت تسير الأمور فى الأرض قبل الحرب العالمية الثانية . . قوتان رئيسيتان مسيطرتان ، وقوى ثانوية تنافسهما ، ولكن الجميع - بالنسبة للعالم الإسلامي -

متعاونون على الهدف المشترك ، وهو حرب الإسلام ! ووسائلهم الكبرى هي الغزو الفكري ، وتحرير المرأة ، وإفساد المجتمع ، وإبراز الزعامات العلمانية في جميع المجالات . . في ظل السيطرة السياسية والاقتصادية التي يمارسها الاستعمار الصليبي .

ولكن الحرب قضت على الدولتين «العظميين» وأبرزت بدلا منهما وحشين جديدين من نوع آخر . . هما روسيا وأمريكا . . وأهم من ذلك أنها أبرزت النفوذ اليهودي سافرا على السطح .

لقد كان النفوذ اليهودي قائما في العالم الغربي منذ الثورة الصناعية التي وقعت تلقائيا في أيدي المرابين اليهود كما بينا في غير هذا الكتاب [1] . ولكنه لم يتغلغل قط ، ولم يبرز قط ، كما تغلغل بعد الحرب العالمية الثانية ، وسيطر على كلا المعسكرين في الشرق والغرب ، وصارت السياسة العالمية في يد اليهود ، ينفذونها عن طريق الدولتين المتوحشتين الجديدتين ، أصرح بكثير ، وأوضح بكثير مما كانوا ينفذونها من قبل من خلال بريطانيا وفرنسا فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

لقد وصل اليهود إلى قلب المنطقة الإسلامية ، وأقاموا دولتهم في فلسطين ، وسخروا لذلك كلا من الدولتين المتسلطتين ، فكانت أمريكا أول دولة اعترفت بالدولة اليهودية ، وبعدها بعشر دقائق اعترفت روسيا بالدولة القائمة صراحة على أساس ديني ، بينما المذهب الشيوعي كله يرفض ذلك رفضا باتا ويندد به !

وحدث في أثناء قيام الدولة اليهودية ذلك الحدث التاريخي الذي وقع بقدر من الله وهو صدام الفدائيين المسلمين مع اليهود ، وتبينت الصهيونية والصليبية كلتاهما ، أن الدولة التي تآمرتا معا لإيجادها في قلب العالم الإسلامي [2]، مهددة بالخطر إذا بقيت الحركة الإسلامية ، فضلا عن تعذر توسعها فيما بعد إذا بقيت تلك الحركة على ما هي عليه .

عندئذ تلاقت العدوات كلها ـ ولكن على درجة أعنف مما مضى في التاريخ كله ـ على ضرورة القضاء البات على الحركة الإسلامية ، وعلى أن تتعاون القوى الثلاث : أمريكا وروسيا واليهودية العالمية على الفتك بالإسلام والمسلمين .

ومن هنا بدأت مرحلة جديدة من « التحطيم » أعنف مما سبق من قبل ، متمثلة في

(١) انظر إن شئت فصل « دور اليهود في إفساد أوربا » من كتاب « مذاهب فكرية معاصرة »

(٢) راجع تقرير لورد كامبل المشار إليه من قبل .

خطين رئيسيين : التذبيح الوحشي للمسلمين ، والتفتيت المستمر للدول القائمة فى العالم الإسلامي ، والعالم العربي بصفة خاصة .

حقيقة إن بدء التذبيح الوحشي قد قامت به بريطانيا لحساب اليهود عام ١٩٤٨ ـ ١٩٤٩ ، حين بدأ اعتقال الإخوان المسلمين وقُتلَ الإمام الشهيد ، وإنه كان يمكن أن يتكرر على يد بريطانيا وفرنسا فى أكثر من مكان فى العالم الإسلامي . . ولكن الجولة الجديدة استخدمت أداة أشد فتكا ، وأقدر على ارتكاب جرائم القتل الجماعي ، وهي الانقلابات العسكرية التى يختار لها « الصالحون » للمهمة ، من مجنوني العظمة وقساة القلوب ، الذين لا يتورعون عن شيء يطلب منهم مقابل التمتع « بالعظمة » والسلطان .

وهكذا توالت المذابح الوحشية ، وتصعدت معها فى الوقت ذاته عملية إفساد الأخلاق فى جميع المجالات .

لقد كانت عملية إفساد المجتمع من طريق ما سمي « تحرير المرأة » قمينة أن تتسع من تلقاء ذاتها ، وتعطي ثمارها الخبيثة على مدى الأيام ، ولكنها ـ على يد العساكر ـ نشّطت عن عمد ، وأسرعت خطاها لأمر يراد !

خطب جمال عبد الناصر ذات مرة خطبة ملتهبة ـ بالعامية ! [١] ـ وقال فيها عبارة عجب الناس منها ليلتئذ ، ولكنهم تبينوا مغزاها واضحا فيما بعد ! قال ـ وكان متضايقا من أحد مواقف إسرائيل المحرجة له [٢] ـ : « هي إسرائيل عايزة مننا إيه . . إحنا حررنا المرأة ! » .

كذلك كانت عملية تحطيم القيم فى المجتمع قمينة أن تتسع من تلقاء نفسها على يد الاستعمار الأول ، وفي فترة « الاستقلال » ، نتيجة السموم الكثيرة التي بثت فى المجتمع ، ونتيجة تنحية الدين عن الحياة . ولكنها اتسعت اتساعا بشعا على يد العساكر ، نتيجة الحرب الوحشية على الإسلام ، وإبعاد كل نظيف ونزيه عن مقاليد

---

(١) كان إبراز مجموعة من « القادة العظام » ! لا يستطيعون الكلام بالفصحى فى المنطقة العربية أمرا على هوى أعداء الإسلام ، بقصد منهم أو بغير قصد .

(٢) من المعلوم أن اليهود لا يحرصون على عواطف خدامهم ـ مهما خدموهم ـ بقدر حرصهم على مصلحتهم الخاصة ، ويذكر القراء أنهم أحرجوا رئيس الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من مرة مع أنه يقدم لهم خدمات تفوق التصور !

الأمـور ، وتقـريب المتـملقين والإمـعـات الذين يدورون مع الفلك حيـث دار . . حتى أصبحت الرشـوة أصلا فى المجتـمع ، وأصبـح الغش أصلا فى التعامل ، وأصبحت الانتهـازية عـملة متعـارفا عليهـا لا يستتر منهـا أهلهـا . . أو باختـصار : أصبح المعروف منكرا والمنكر معروفا كما قـال رسول الله ﷺ . . وكـان هذا كله جزءا من « السياسة العامة» المطلوبة من قبل الأعداء . . لتفتيت كيان «الشعوب» المحيطة بإسرائيل ، فلا يبقى فيها شيء متماسك ، يمكن أن يقوم بنوع من المقاومة لأطماع اليهود .

أما بالنسبة «للدول» فيكفي هذا المقال الذي نشر فى صحيفة «كيفونيم» اليهودية بتاريخ ١٤ فبراير ١٩٨٢ ، واقـتبس فقـرات منه « روجيه جارودي» فى كتـابه «ملف إسرائيل : دراسة للصهيونية العالمية » [١] ، لبيان السياسة المطلوب اتباعها فى المنطقة المحيطة بإسرائيل ، والتي بدأ تنفيذها بالفعل فى لبنان . . والبقية تأتي!

«استعادة سيناء بثرواتها هدف ذو أولوية . ولكن اتفاقات كامب دافيد تحول الآن بيننا وبين ذلك . . لقد حرمنا من البترول وعائداته ، واضطررنا للتضحية بأموال كثيرة فى هذا المجال . ويتحتم علينا الآن استرجاع الوضع الذي كان سائدا فى سيناء قبل زيارة السادات المشئومة ، وقبل الاتفاقية التي وقعت معه فى ١٩٧٩ .

« والوضع الاقتصادى فى مصر ، وطبيعة النظام الموجود بها ، وسياستها العربية ، كل هذا سيؤدى إلى مجموعة ظروف تدفع بإسرائيل إلى التدخل . . فمصر ، بسبب نزاعاتها الداخلية لم تعد تشكل بالنسبة إلينا مشكلة استراتيجية . ومن السهل أن نجعلها تعود خلال ٢٤ ساعة إلى الوضع الذى كانت عليه بعد حرب يونيو ١٩٦٧ . لقد ماتت أسطورة مصر « زعيمة العالم العربى» وفقدت مصر ٥٠٪ من قدرتها . . و كبناء موحد ، أصبحت مصر جثة هامدة ، وبخاصة إذا أخذنا فى الاعتبار المجابهة المتزايدة والمتصاعدة بين المسلمين والمسيحيين بها . ويجب أن يكون هدفنا هو تقسيمها إلى أقاليم جغرافية متباينة فى الثمانينيات .

« فإذا ما تمت تجزئة مصر ، وإذا فقدت سلطتها المركزية ، فلن تلبث بلدان مثل ليبيا والسودان ، وبلدان أخرى أبعد من ذلك أن يصيبها التحلل . وتشكيل حكومة قبطية فى مصر العليا ، وإقامة كيانات صغيرة إقليمية ، هو مفتاح تطور تاريخى ، يؤخره حاليا اتفاق السلام ، ولكنه تطور آت لا محالة على الأجل الطويل .

---

(١) ترجمة د. مصطفى كامل فودة ، إصدار دار الشروق بالقاهرة ، مقتطفات من ص ١٦١ ـ ١٦٤ ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

« ومشكلات الجبهة الشرقية أكثر وأشد تعقيدا من مشكلات الجبهة الغربية . وهذا على عكس ما يبدو فى الظاهر . وتقسيم لبنان إلى خمسة أقاليم . . يوضح ما يجب أن ينفذ فى البلدان العربية . وتفتيت العراق وسوريا إلى مناطق تحدد على أساس عنصرى أو دينى ، يجب أن يكون هدفا ذا أولوية بالنسبة إلينا ، على الأجل الطويل . وأول خطوة لتحقيق ذلك هو تدمير القوة العسكرية لتلك الدول .

«والتشكيل السكانى لسوريا يعرضها لتمزق قد يؤدى إلى إنشاء دولة شيعية على الساحل ، ودولة سنية فى منطقة حلب ، وأخرى فى دمشق ، وإنشاء كيان درزى قد يرغب فى أن يتحول إلى دولة على أرض الجولان التابعة لنا تضم حوران وشمال المملكة الأردنية . . ومثل هذه الدولة ستكون على المدى الطويل ضمانا لأمن وسلام المنطقة . وهذا هدف فى متناولنا فعلا تحقيقه .

«وأما العراق فهى غنية بالبترول ، وفريسة لصراعات داخلية ، وسيكون تفككها أهم بالنسبة لنا من تحلل سوريا ، لأن العراق يمثل على الأجل القصير أخطر تهديد لإسرائيل . وقيام حرب سورية عراقية سيساعد على تحطيم العراق داخليا قبل أن يصبح قادرا على الانطلاق فى نزاع كبير ضدنا . وكل نزاع داخلى عربى سيكون فى صالحنا ، وسيساعد على تفكك العرب . . وربما ساعدت الحرب العراقية الإيرانية على ذلك الانحلال والضعف فى صفوف العرب .

« والأردن هدف استراتيجى فى التو واللحظة . ولن يشكل أى خطر لنا على الأمد الطويل بعد تفككه ونهاية حكم الملك حسين ، وانتقال السلطة إلى أيدى الأغلبية الفلسطينية . وذلك أمر يجب أن يسترعى انتباه السياسة الإسرائيلية . فمعنى هذا التغير هو حل مشكلة الضفة الغربية ذات الكثافة السكانية العربية الكبيرة . فهجرة هؤلاء العرب شرقا ـ إما بالسلم أو بالحرب ـ وتجميد نموهم الاقتصادى والسكانى هى الضمانات الأكيدة للتحولات المقبلة . وعلينا أن نبذل قصارى جهدنا للإسراع بتلك العملية .

«وينبغى رفض خطة الحكم الذاتى ، وأية خطوة أخرى تتضمن حلا وسطا أو تعايشا ، وتصبح بالتالى عقبة فى سبيل فصل الأمتين .

«ويجب أن يفهم العرب الإسرائيليون (أى الفلسطينيون) أنه لا يمكن أن يكون لهم وطن إلا فى الأردن . . ولن يعرفوا الأمن إلا بالاعتراف بالسيادة اليهودية على كل ما

يقع بين البحر ونهر الأردن . . ولم يعد ممكنا ـ ونحن على مشارف العهد النووى ـ أن نرضى بوجود ثلاثة أرباع السكان اليهود مركزين فى ساحل مزدحم بالسكان ازدحاما كبيرا ، وتوزيع هؤلاء السكان هو أول واجباتنا فى سياستنا الداخلية . فيهودا والسامرة والجليل هى الضمانات الوحيدة لبقائنا على قيد الحياة كأمة . وإذا لم تصبح لنا الأغلبية فى المناطق الجبلية ، فسيكون مصيرنا كمصير الصليبيين الذى فقدوا هذه البلاد .

«وينبغى أن نعمل على إعادة التوازن إلى المنطقة فى المستويات السكانية والاستراتيجية والاقتصادية ، وأن يكون ذلك على رأس ما نصبو إليه . ويتضمن هذا الأمر الإشراف على الموارد المائية بالمنطقة من بير سبع إلى الجليل الأعلى ، وهى منطقة خالية من اليهود تماما اليوم » .

* * *

على هذا النحو من السوء تجرى الأمور فى العالم الإسلامى ، ويراد لها أن تسير من سيئ إلى أسوأ خلال السنوات القريبة القادمة ، من أجل أن تعيش الدولة اليهودية وتتوسع ، بالتأييد الظاهر المكشوف من جانب أمريكا ، والتأييد الصامت المستتر من جانب روسيا ، التى تكتفى بصيحات الإنكار على إسرائيل كلما وقع عدوان يهودى ، وصيحات العطف على « العرب » ، دون أن تصنع شيئا حقيقيا يوقف العدوان ويوقف التوسع العدوانى منذ ١٩٤٨م حتى هذه اللحظة ! وأنت حين تقف إلى جوار رجل يمسك سكينا ليذبح به رجلا آخر ، ثم تكتفى بأن تقول له : عيب يا رجل ! حرام عليك ! فإنك فى الحقيقة تعينه على أن يتمم جريمته وهو آمن من كل تعويق . . لأن الصياح يتبدد فى الهواء بعد لحظات ، بينما يظل المجرم ماضيا فى جريمته !

وهكذا تقف الدولتان « العظميان ! » موقفهما الحقيقى من الإسلام والمسلمين! وتستعين أمريكا ـ كما بينا من قبل ـ بعدوتها روسيا ، وبالشيوعية ، لمحاربة الإسلام فى منطقة النفوذ الأمريكية ، وتنسى الدولتان خصومتهما وعداوتهما ، وتقفان صفاً واحداً متساندًا متعاضدًا ضد الإسلام ، كما كانت الدولتان « العظميان» السابقتان ، بريطانيا وفرنسا ، ولكن بضراوة أعنف ، وشراسة أشد . ويصل الأمر فى التساند والتعاضد أن تغطى روسيا العميل الأمريكى الذى يقوم بتذبيح المسلمين ، كما تغطى أمريكا العميل

الشيوعى القائم بنفس الأمر، وتعمل كلتاهما لحساب اليهودية العالمية ، فى ذات الوقت الذى تشفى كل منهما غليلها الشخصى من الإسلام !

* * *

أما العمل على الساحة الإسلامية فقد تبين لنا من العرض السابق وجود مشكلات غير قليلة وغير هينة فيه ، أبرزها تفرق الجماعات العاملة فى الساحة وتمزقها ، وقيام بعضها بحرب بعض ، وغياب القيادة الكبيرة التى كان يمكن أن تجمّع العمل الإسلامى وتوحد طريقه ، ثم النقص الكبير فى جوانب مهمة من جوانب التربية : العقدية والحركية والفكرية والسياسية . . إلخ .

وعند هذه الصورة - بالإضافة إلى ما يراد بالمسلمين من سوء - يقف بعض الناس فيرون كأن الطريق مسدود ، وكأن الصحوة كلها توشك أن تنهار ، ويعود الظلام من جديد .

وهذا غير صحيح . .

وأعداء الإسلام أنفسهم - الذين يقومون بهذا الكيد كله للقضاء على الصحوة الإسلامية - يعلمون أنه غير صحيح ! وأنه على الرغم من كل الجهد الذى يقومون به فهم لم يقضوا عليها ، بل هم يخشون امتدادها بعد كل ما فعلوه .

وإذا نحن قلنا إن الصحوة باقية بإذن الله ، وممتدة ومتوسعة ، وإن المستقبل بإذن الله للإسلام ، فنحن لا نقول هذا رجما بالغيب ، إنما تتبعا للواقع المشهود ، وللسنن الربانية التى يجريها الله فى هذا الوجود .

ولنحاول أولا أن نتتبع قدر الله بهذه الأمة فى الفترة الأخيرة المشحونة بالأحداث . .

لو كان فى قدر الله أن تموت هذه الأمة وتنتهى ، وتخرج من التاريخ ، فربما كان أنسب حدث لهذا الأمر هو إزالة الخلافة على يد أتاتورك . فقد ساد الظلام واليأس ربوع العالم الإسلامى يومئذ ، وأحس المسلمون أنهم كالأيتام الذين فقدوا راعيهم ، وكانت الصدمة فى حسهم ثقيلة تبعث على القنوط .

ولكن قدر الله اختار هذا الحدث ذاته ليكون بداية ليقظة جديدة وبعث جديد . .

ولو كان فى قدر الله أن يتغلب الأعداء على هذه اليقظة فيقضوا عليها ويخمدوا

أنفاسها ، فربما كانت أعمال أتاتورك الثانى - جمال عبد الناصر - ووحشيته فى محاربة الحركة الإسلامية ، أنسب ظرف للقضاء عليها ومحوها من التاريخ . .

ولكن الذى نراه من قدر الله حتى هذه اللحظة أن كل مذبحة تقع ، تأتى بمدد جديد من الشباب ينضم للحركة الإسلامية ، بل نرى أن الاتجاه للإسلام ، والرغبة فى تحقيقه كاملا شاملا كما أنزله الله ، قد أصبح تيارا ذاتيا عند الشباب ، لا يتعلق بجماعة معينة ، بل يمثل تطلعا عاما عند الشباب ، سواء التحقوا بهذه الجماعة أو تلك . . أو لم يلتحقوا بجماعة على الإطلاق [1] .

ولقد قلنا فى فصل « الصحوة الإسلامية » إن رجوع الأمة للإسلام لم يكن عجبا ، «إنما العجب - كان - أن يشردوا عنه ويتجهوا إلى غيره ! والعجب الأكبر - كان - أن يثبتوا على هذا الشرود ، ولا يرجعوا إلى نبض قلوبهم الطبيعى ! » .

ولقد كان من أكبر أسباب هذا الشرود - كما بينا من قبل - الفتنة بالحضارة الغربية . حين قال « المثقفون» لأنفسهم : ها هي ذي أوربا كافرة جاحدة ، ومع ذلك فهي قوية متحضرة ممكّنة فى الأرض ، وهي رغم عدم تدينها ذات أخلاق ! بينما نحن أصحاب دين ، ولكننا ضعاف متخلفون ، وفضلا عن ذلك فنحن أمة بلا أخلاق! فلنترك هذا الدين إذن ، ولنفعل كما فعلت أوربا حين انسلخت من دينها لتتقدم وتتحضر ! ثم جر «المثقفون» بقية الأمة وراءهم ، فى الظروف التي أشرنا إليها من قبل فى فصل «آثار الانحراف» .

واليوم يبدو الخطأ فى طرفى المعادلة واضحا بما لم يكن واضحا يوم بدأت الفتنة . .

فأوربا جاحدة كافرة ، نعم ، وهي تجمع فى أيديها كل أسباب القوة . . ولكن كفرها وجحودها ليس عديم الأثر فى حياتها كما توهم « المثقفون» أول مرة . إنما له تأثيران عميقان فى كيانها كله ، أحدهما قريب صاحَبَ هذه «الحضارة» منذ مولدها ، ويزداد معها على الدوام ، والآخر ينتظرها فى نهاية المطاف . فأما الأول فهو «القلق» النفسي والعصبي والفكري ، لأن الله - الذي فتح عليهم أبواب كل شيء لما نسوا ما ذكروا به ، إجراءً لسنّة من سننه تعالى - قد أنذر البشرية من قديم ، أنها إن عتت عن أمر ربها فقد

---

(١) لا يصلح العمل للإسلام دون جماعة متحابة متآلفة تعيش الإسلام واقعا ثم تدعو إليه . ولكننا نسجل واقعا قائما بالفعل .

يغرقها فى المتاع الأرضي إلى حين - استدراجًا لها - ولكنه لا يمنحها البركة ولا طمأنينة القلب ، فهما من حصيلة الإيمان ، لا يمنحهما الله إلا للمتوجهين إليه ، الذاكرين له ، المقرين بألوهيته ، القائمين بعبادته :

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾ (١) .

﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ (٢) .

و « القلق » هو السمة الغالبة على هذه الحضارة منذ يومها الأول ، ولكن حصيلته تزداد وضوحا يوما بعد يوم ، وتقول إحصائياتهم - دائما - إنه آخذ فى الازدياد ، سواء فى صورة أمراض نفسية وعصبية ، أو جنون وانتحار ، أو إدمان على الخمر والمخدرات ، أو جنوح إلى الجريمة ، أو تمزق فى علاقات الأسرة وعلاقات المجتمع . . أو . . إلخ .

وأما التأثير الآخر الذي ينتظر هذه الحضارة فى نهاية المطاف فهو الانهيار ، الذي تنبأ به كثير من «عقلاء» تلك الحضارة أنفسهم ، وإن كانوا لم يملكوا لأنفسهم الفكاك ، لأنهم ينذرون غيرهم بالخطر وهم أنفسهم فى داخل الكيان المنهار !

وحقيقة إن الحضارة الغربية المسيطرة اليوم على البشرية لن تنهار بالسرعة التي يتخيلها بعض الناس حين نتكلم عن الانهيار ، لأنها تحمل من أسباب القوة والإيجابية ما يؤخر الانهيار المحتوم .

تحمل قوة العلم . وقوة الصبر والجلد على العمل . وعبقرية التنظيم . والروح العملية فى دراسة المشاكل والبحث لها عن حلول . وتحمل تيسيرات نافعة فى كثير من جوانب الحياة ، تحاول أن ترفع «الجهد» عن كاهل الإنسان وتحمّله للآلة . . وكل هذه قوىً تمسك بالكيان المتساقط ، وتمنعه من السقوط السريع ، رغم كل «الأوزار» التي تدفع به إلى الانهيار . .

نعم . . ولكنها - كلها - لا تستطيع أن تحول دون النهاية المحتومة . . لأنها من سنة الله .

أما قضية «الأخلاق» فقد تكشفت عن كونها أخلاقا «نفعية» لا أخلاقا حقيقية . . جميلة المظهر ، نعم ، ولكنها عديمة الجذور ، لأنها منبتة الصلة بالمعين الحقيقى

---

(١) سورة الأعراف [٩٦] . (٢) سورة الرعد [٢٨] .

للأخلاق - وهو الدين - ولذلك أخذت تذوى ، وخرج بعد الحرب العالمية الثانية جيل ينسلخ تدريجيا من تلك الأخلاق ، وينزلق إما إلى الجريمة ، وإما إلى الفوضوية وانعدام المبالاة . . والنسبة آخذة فى الازدياد !

ومن الجهة الأخرى تبين أن الذي حل بالمسلمين لم يكن نتيجة أنهم مسلمون . . إنما كان بسبب الخواء التدريجي الذي حل بكل مفاهيم الإسلام الرئيسية نتيجة خط الانحراف الطويل ، الذي فرّغ لا إله إلا الله من مدلولها الحقيقي ، وحول الإسلام كله إلى تقاليد خاوية من الروح .

ووضوح هذه الحقيقة بالنسبة للحضارة الغربية من جهة ، وبالنسبة لواقع المسلمين فى القرون الأخيرة من جهة أخرى ، له تأثيره ولا شك فى الصحوة الإسلامية ، فهو رافد يمدها على الدوام بمدد جديد من الأجيال الناشئة يتزايد باستمرار ، كلما بدا عوار الجاهلية المعاصرة واضحا للأعين ، وكلما أدرك الناس حقيقة الإسلام كما هي فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وكما كانت مطبقة فى حياة السلف الصالح رضوان الله عليهم ، وأدركوا إلى جانب ذلك مدى بعد الأمة فى وقتها الحاضر عن حقيقة الدين .

وهذا الوعي بهذه الحقيقة - من طرفيها - أمر لا يمكن وقفه !

فلا أوربا تملك أن تتوقف عن الانهيار الذي هي صائرة إليه بحسب السنن الربانية ، ما دامت مصرة على معاندة كل ما يأتي من عند الله . ولا المعرفة بحقيقة لا إله إلا الله ، وحقيقة الدين المنزل من عند الله ، يمكن وقفها اليوم ، وقد صارت عند الشباب بديهيات ومسلمات !

* * *

رافد آخر من روافد الصحوة الإسلامية يتمثل فى فشل النظم المستوردة فى حل مشاكل الناس ، وفشل الزعماء العلمانيين فى تحقيق ما كانت الأمة تعلقه عليهم من الآمال .

فهذا هو الواقع المشهود بعد قرن كامل من استيراد النظم من غرب أوربا أو شرقها على السواء .

ضعف متزايد من جانب «المسلمين» ، وقوة متزايدة وعدوان مستمر من جانب الأعداء . .

تمزقت الدولة الإسلامية الكبيرة، وتفتت العالم الإسلامي إلى أجزاء، ثم تفتت الأجزاء إلى أجزاء . . واليوم يطحن الفتات مرة أخرى لمزيد من السحق، ومزيد من التفتيت . .

زاد الفقر، وتراكمت الديون الربوية المتفاقمة ، مع بروز طبقة جديدة مستغلة - فى ظل « الاشتراكية» ! - تجمع فى أيديها ثروات خيالية ، مقتطعة كلها ومسروقة من قوت تلك الشعوب .

انهارت الأخلاق وتدهورت القيم، وفقدت الشعوب ترابطها وتماسكها، وتمزقت إلى أفراد أنانيين، أو جماعات متناحرة ، وفقدت البلاد طمأنينتها ، وصارت فى قلق دائم لا تعرف منه طريق الخلاص . .

اقتطعت من قلب العالم الإسلامي أرض من أقدس الأراضى لتنشأ فيها دولة لليهود، ويجري التحضير لإقامة دول أخرى غير إسلامية فى بلاد المسلمين . .

ويجري العدوان المستمر على المسلمين فى كل الأرض : فى الهند. فى الحبشة . فى أريتريا . فى الصومال . فى أوغندا . فى الفلبين . فضلا عن الحرب الضارية على المسلمين فى العالم الشيوعي .

ماذا فعلت النظم المستوردة، وماذا فعل الزعماء العلمانيون ، وقد جرت كل هذه المصائب من خلال وجودهم ، أو جرت على أيديهم، وكانوا هم طرفا من أطرافها، وسببا من أسبابها . . ؟

وحين ييأس الناس من هذه النظم ومن هذه الزعامات . . فإلى أين يتجهون؟ !

إنه رافد للصحوة الإسلامية لايمكن وقفه!

فهذه النظم المستوردة تصاحبها دائما عبودية خفية أو ظاهرة لواحد من المعسكرين . والعبودية لا تحدث نهضة ولا تحل مشكلة . أو إن حلت بعض المشاكل فهي تحلها على حساب المصير النهائي للأمة، كالذي يخرج من حفرة ليقع فى أكبر منها . . حتى يقع فى الحفرة التي ليس منها خلاص!

والزعماء المزيفون لايملكون الخلاص الحقيقي لشعوبهم، لأن ذلك يضر بمصالح الذين يضعونهم فى أماكنهم، ويملون عليهم سياستهم! وهم ما وضعوهم فى موضعهم

هذا إلا ليحققوا مصالح السادة لا مصالح العبيد! فلا السادة يسمحون بالنجاح الحقيقي لأولئك الزعماء لأن هذا ضد مصالحهم، ولا هم بأنفسهم قادرون على النجاح رغم أنف السادة، لأن السادة هم الذين يمنحونهم السلطان، ويوم يخرجون عن طوعهم فما أسهل أن يزالوا من الطريق!

ولقد حاول السادة أن يحلوا تلك المعادلة الصعبة بإقامة «زعيم خالد» فى كل بلد إسلامي، يحقق مصالح السادة تحت ستار من البطولات الزائفة التي تبهر أعين الشعوب، وتوهمها أنه يعمل لصالحها! ولكن اللعبة تنكشف فى النهاية، ويتبين للناس أن زعيمهم الخالد قد أغرقهم فى العار والذل، والفقر والفوضى، فى أثناء انبهارهم بما يلعب على المسرح من البطولات! وأنهم قد تأخروا فى كل سنة من حكمه بما يوازي عدة أضعاف من السنين.

وفي نهاية الشوط، حين تملّ الشعوب من اللعبة واللاعبين، تتجه إلى الإسلام بأعداد متزايدة تطلب الخلاص!

* * *

والوجود اليهودي فى الأرض الإسلامية رافد من روافد الصحوة الإسلامية!

لقد أنشئت الدولة اليهودية فى مؤامرة صليبية صهيونية مشتركة كما تبين لنا من تقرير لورد كامبل، لتكون «بمثابة الشوكة تخز العملاق كلما أراد النهوض»..

ولقد قامت بدورها بالفعل، وما تزال قائمة..

ولكن.. إلى أين يتجه الناس حين يتضجرون ذات يوم من الوجود اليهودي، وسيطرته السياسية والحربية والاقتصادية والفكرية والثقافية.. وكل مجال من المجالات الحيوية؟!

إن اليهود - برغم كل ذكائهم الشرير - يعملون ضد صالحهم، ولكنهم لا يملكون التوقف عن العمل ضد صالحهم، بسبب الحقد الأسود الذي يملأ قلوبهم ضد الإسلام والمسلمين!

﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾ [1].

---

(١) سورة المائدة [٨٢].

إنهم يستذلون البلاد العربية ولا يقفون فى إذلالها عند حد ، لأنهم يريدون السيطرة ويريدون التوسع ، فينشئون بذلك رد فعل دائم يتزايد باستمرار .

وقد مر بنا مخططهم الذي كانوا يريدون تنفيذه فى الثمانينيات من هذا القرن العشرين . فهل يملكون أن يتوقفوا ويقولوا لأنفسهم : فلنكف عن ذلك ، ونقف عند الحد «المعقول» لكى لا يحدث رد الفعل المحذور!

كلا ! فإنهم - من حقدهم - لا يكفّون . ويسوّل لهم الشيطان أن يمضوا فى العدوان فلا يرجعون .

وحين يحدث رد الفعل - كما لا بد أن يحدث ذات يوم - فلمن يتجه الناس ؟!

أتراهم يتجهون إلى الأحزاب الموالية للغرب ، والغرب - وعلى رأسه أمريكا - هو الذي يمد لإسرائيل فى الغّي ، ويشجعها على العدوان؟

أم تراهم يتجهون إلى الأحزاب الشيوعية ، التي تصيح فى وجه القاتل : عيب يا رجل ! حرام عليك ! ثم تتركه يجهز على فريسته وهو آمن من كل تعويق ؟!

إنه لا متجه لهم إلا الإسلام!

واليهود يعرفون ذلك! ويصرحون به أحيانا ، ويحذّرون منه ! ولكن الحقد الأسود فى قلوبهم ، والرغبة الجنونية فى السيطرة والتوسع تمنعهم من التوقف ، وتدفعهم إلى مزيد من الشر ، ومزيد من الطغيان .

* * *

هنالك قدر علوي يدفع الأحداث . . ويدفعها فى اتجاه معين . . فى اتجاه الصحوة الإسلامية .

إن بواعث الصحوة كلها موجودة ، سواء منها ما هو قائم فى هذه اللحظة أو ما هو قادم فى الطريق .

ولا يملك الأعداء - كما بينا - شيئا من أمر هذه البواعث . لا يملكون وقف الحضارة الغربية عن الانهيار . ولا يملكون أن يجعلوا عملاءهم فى المنطقة ناجحين من وجهة

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩ - ١٤٢] . (٢) سورة النور [٥٥] .

نظر شعوبهم. ولا يملكون إلغاء الوجود اليهودي ولا منعه من العدوان المستمر، والطغيان المستمر . .

إنهم يملكون ـ بقدر الله ـ أمرا واحدا ، هو التقتيل والتذبيح والتشريد والتعذيب والاضطهاد . . وهذا لا يقضي على الحركة الإسلامية ! إنما يصقلها ويمحصها ويجعلها أقدر على المواجهة !

والله هو الذي يدبر الأمور . .

وبقدر من الله تعمل الظروف العالمية كلها لتمكين الصحوة الإسلامية وتأصيلها ، وجعلها هي الخط البارز فى مستقبل البشرية .

وبقدر من الله يُسَخِّر أعداء الله كلهم للقيام بهذه المهمة ، مهمة تمكين الصحوة الإسلامية وتأصيلها ، من خلال أعمالهم « الطبيعية » التي يقومون بها ، وبدافع من الحقد الأسود الذي يملأ صدورهم تجاه الإسلام .

ولن يكون شيء من هذا نزهة جميلة يتنزه فيها المسلمون ، أو طريقا مفروشا بالورود . . إنما هو العرق والدموع ، والدماء والعذاب ، والجهد الناصب ، والطريق الوعر المحفوف بالمخاوف ، وبالوحوش الوالغة فى الدماء . . يسقط فيه شهيد تلو شهيد . . بينما يسير الركب فى الحر اللافح وفى الزمهرير . . لا يتوقف عن المسير . .

﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين . إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله. وتلك الأيام نداولها بين الناس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء . والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين.أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ويعلم الصابرين﴾ (١) .

وفي النهاية ينصر الله جنوده ويمكن لهم فى الأرض حسب وعده الدائم لهم :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾(٢) .

ولا نعلم بطبيعة الحال كيف يكون التمكين . . فذلك غيب . . ولكنا نستشف من أحاديث الرسول ﷺ بعض الملامح لهذا التمكين .

---

(١) سورة آل عمران [١٣٩ - ١٤٢] . (٢) سورة النور [٥٥] .

فاليهود اليوم هم المسيطرون فى الأرض ، وهم الذين يرسمون سياسة العالم، وهم الذين يخططون ضد الإسلام والمسلمين [١]، وبصفة خاصة فى المنطقة المحيطة بإسرائيل .

ويقول رسول الله ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون، حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر يا مسلم يا عبد الله ، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله» [٢] .

واليهود يعرفون هذا الحديث ويؤمنون به . فقد ورد فى آخره « إلا الغرقد فهو من شجر اليهود» وهم يغرسون اليوم شجر الغرقد حول بيوتهم فى فلسطين إيمانا منهم بصحة الحديث .

فنستطيع أن نستشف من ذلك قيام معركة حاسمة بين المسلمين واليهود، يستظل المسلمون فيها براية لا إله إلا الله، لا بالعروبة ولا بالقومية ، ولا بالتراب الوطنى . . وينتصر المسلمون فيها نصرا حاسما بتقدير الله، ويكون هذا من أحداث التاريخ التى تغير التاريخ . .

ويقولﷺ، وهو يستعرض التاريخ المقبل للأمة الإسلامية من لدن نبوته ﷺ كما علمه الوحى : « تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون . ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها . ثم تقوم خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فتكون ما شاء الله أن تكون . ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها . ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها . ثم تكون خلافة على منهاج النبوة . ثم سكت»[٣] .

فنستشف من ذلك أن هناك فترة مقبلة فى حياة المسلمين، يستظلون فيها بخلافة راشدة على منهاج النبوة، تزول فيها الغربة التى يعانيها الإسلام اليوم، وتعود فيها الأمة إلى التمكين . .

ونعود إلى الصحوة الإسلامية القائمة اليوم فى العالم الإسلامى كله . . هل هى الطريق إلى ذلك التمكين الموعود؟!

---

(١) بالتعاون الوثيق مع الصليبية بطبيعة الحال.　　(٢) أخرجه مسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد عن حذيفة بن اليمان.

ذلك غيب لا يستطيع بشر أن يتكهن به . إنما نقول فقط إنها بشائر على الطريق . . فإن علم الله في قلوب هذه الصحوة إخلاصها له وتجردها وصدق إيمانها وصلابة عودها ، فسيقوّم لها طريقها ويعينها على أداء مهمتها . . وإلا فسيبدلها :

﴿ وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ (١) .

وفى جميع الأحوال ينفذ الله قدره :

﴿ إن الله بالغ أمره. قد جعل الله لكل شيء قدرا﴾(٢) .

* * *

وحين يمكن الله للأمة المسلمة فى الأرض يحدث تغير جذرى فى حياة البشرية . .

إن من تكريم الله لهذه الأمة التى جعلها أمة وسطا لتكون شاهدة على الناس ويكون الرسول شهيدا عليها ، أن جعل أحوال البشرية كلها مرتبطة بحال هذه الأمة . فإن رشدت ومكن لها فى الأرض ، يعمها الخير ، ويمتد منها إلى ربوع الأرض ، كما كانت أوروبا تستمد منها فى بداية نهضتها بعد أن خرجت من قرونها الوسطى المظلمة نتيجة احتكاكها بالمسلمين فى المشرق والمغرب . وإن شردت عن دينها ونسيت ربها شقيت وشقيت معها البشرية . فإن أوربا الجاهلية التى تحكم البشرية اليوم ما انتفشت وصار لها هذا الوجود الطاغى فى الأرض إلا نتيجة انحسار الأمة الإسلامية عن رسالتها ، وكل انتفاش انتفشته أوربا فقد كان على حساب الأمة الإسلامية فى صورة استعمار وعدوان وطغيان . .

ومن الثغرات التى وجدت فى حياة أوربا الجاهلية نفذ اليهود وسيطروا على البشرية كلها كما بينا فى غير هذا المكان (٣) ، وازداد شقاء البشرية كلها بهذه السيطرة الحاقدة المجنونة التى تعتبر البشر كلهم حميرا خلقهم الله ليركبهم شعب الشيطان .

وحين تعود الأمة الإسلامية إلى إسلامها الحق ، ويمكن لها الله فى الأرض حسب صادق وعده ، تتغير ملامح كثيرة فى الأرض . .

---

(١) سورة القتال [٣٨] . (٢) سورة الطلاق [٣] .

(٣) فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة » .

لقد جاء الإسلام أول مرة والبشرية على حافة الهاوية، كما عبر « ج . هـ دينيسون» في كتابه« العواطف كأساس للحضارة
«Emotions as the Basis of Civilization

« ففي القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا جرف هار من الفوضى . لأن العقائد التي كانت تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو إذ ذاك أن المدنية الكبرى التي تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية، إذ القبائل تتحارب وتتناحر، لا قانون ولا نظام . أما النظم التي خلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام . وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها إلى العالم كله، واقفة تترنح وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب . . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذي وحد العالم جميعه»[1] .

واليوم تشرف البشرية على التحلل والانهيار مرة أخرى بقيادة الجاهلية المعاصرة . . كما يشهد « عقلاؤها» في صيحات متوالية يطلقونها بين الحين والحين، ولكنها تضيع في الدوامة المجنونة التي تلف البشرية . .

ولن ينقذها من الدمار إلا الإسلام . .

تماما كما حدث أول مرة . . مع فارق واحد : أن العداوة المرصودة في طريق الإسلام اليوم أشد مما كانت أول مرة . .

ومع ذلك فإن الضياع التي تعيشه البشرية في أزمتها الحاضرة يدفع ألوفا من البشر كل عام ممن يبحثون عن طريق الخلاص أن يدخلوا في الإسلام في أوروبا وأمريكا وأستراليا وآسيا [2] وأفريقيا . .

ولو كان الإسلام حاضرا في هذه اللحظة، ممثلا في مجتمع إسلامي حقيقي، لكانت هذه الألوف قد أصبحت ملايين! فالإسلام هو الحل الحقيقي لكل مشكلات البشرية . .

---

(١) عن كتاب « الإسلام والنظام العالمي الجديد» تأليف مولاى محمد علي، وترجمة أحمد جودة السحار .

(٢) في اليابان وكوريا اليوم جماعات كبيرة دخلت في الإسلام .

إن المشكلة الأولى للبشرية اليوم- فى ظل الحضارة الغربية- أنها تستكبر على الهدى الربانى، لأن « الدين» مثل لها على يد الكنيسة الأوربية غولا بشعا يأكل أموال الناس وأرواحهم وعقولهم، ويمنعهم من ارتياد العلم، ويمنعهم من تعمير الأرض، ويصرف همهم إلى الآخرة بنبذ الحياة الدنيا [١].

ومن هذه النقطة الرئيسية المبدئية جاء الشقاء كله، حين تحكمت « عقول» البشر، أو بالأحرى أهواؤهم وشهواتهم فى رسم منهج الحياة، فوقع الذل والظلم سواء فى الرأسمالية أو الشيوعية. سواء فى الفردية أو الجماعية. سواء فى الأخلاقية النفعية أو اللا أخلاقية. . وتردت البشرية فيما تردت فيه من فوضى الجنس والتحلل الخلقى والسعار المادى والصراع الوحشى فى غياب الشريعة الربانية والمنهج الربانى. .

والذى يحل هذه المشكلة الرئيسية المبدئية هو الإسلام. .

لأنه الدين الذى يعطى الألوهية قدرها الحق، ويكرم البشرية فى ذات الوقت بتكريم الله:

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ [٢].

الدين الذى يربط الكائن البشرى بالله بالحب العميق إلى جانب التوقير والخشية، ولا يجعل العبادة قهراً للعباد بل تكريما لهم ورفعة ونوراً وشفافية. .

الدين الذى يصفى النفس من كدرها الحيوانى، وفى الوقت ذاته لا يكبت دوافع النفس االتى خلقها الله لكى تعمل لا لكى تكبت. ولكن تعمل فى أفقها العالى الجدير «بالإنسان».

الدين الذى لا يفصل بين النزعة الفطرية للعبادة، والنزعةالفطرية للعلم، ولا يقيم بينهما الخصومة والعداوة وهما توأمان أصيلان فى بنية الفطرة، يعملان معا، فيتوازن كيان الإنسان. .

وهو الدين الذى يحوى المنهج الربانى لتوجيه الحياة البشرية فى كل اتجاهاتها: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية والروحية والخلقية والفنية. . المنهج الذى

---

(١) راجع فصل « العلمانية » فى كتاب « مذاهب فكرية معاصرة ».

(٢) سورة الإسراء [٧٠].

أنزله اللطيف الخبير. العليم الحكيم. الذى خلق النفس البشرية وهو أعلم بما يصلحها وما يصلح لها. وأعلم بأدوائها وبطريقة شفائها.

والذى يصد البشرية عن هذا الدين عوامل كثيرة فى آن واحد..

الروح الصليبية التى نشرتها الكنيسة الأوربية تجاه الإسلام عامل من هذه العوامل.

والعداوة اليهودية للإسلام عامل من هذه العوامل.

وإفساد مفهوم «الدين» على يد الكنيسة عامل من العوامل.

والهبوط الذى أحدثته الجاهلية المعاصرة فى نفوس البشرية عامل من العوامل.

والجهل بحقيقة الإسلام عامل من العوامل..

ولكن واقع المسلمين اليوم، وبعدهم الشديد عن حقيقة الإسلام سواء فى التصور أو السلوك، لهو من أشد العوامل التى تصد الناس عن الإسلام..

وكما كان سلوك المسلمين الأوائل، الملتزمين بالإسلام، عاملا من عوامل نشر الإسلام فى ربوع فسيحة من الأرض، فكذلك نجد سلوك من ينتسبون إلى الإسلام اليوم من أكبر عوامل الصد عن الإسلام، بكل ما يحملون من التخلف فى جميع الميادين، وسوء الأخلاق فى جميع المعاملات.

وليس المطلوب من المسلمين أن يسبقوا أوروبا فى المخترعات والعلوم لكى تقبل أوروبا على الإسلام! فليس الذى ينقص الغرب هو العلوم والمخترعات!

إنما الذى ينقصهم هو «المنهج» الصحيح للحياة.. المنهج الذى يأخذ الإنسان كله- فى شموله وتكامله- لا جانبا واحدا من جوانبه، ويطلق الطاقات البشرية تعمل، ولكن فى توازن واتساق..

ينقصهم أن يزيحوا من حياتهم كل الآلهة المزعومة التى ألهوها فى جاهليتهم المعاصرة: إله القومية والوطنية. إله العلم. إله العقل. إله الإنتاج المادى. إله الجنس. إله الهوى. إله الشهوات.. ويعبدوا الله وحده بلا شريك، ومن ثم يطبقوا منهجه وحده بلا شريك. وعندئذ يصبح كل ما يملكون من الطاقات الإيجابية قوة بانية لأنها مهتدية بالهدى الربانى، ولا تكون فتنة مردية كما هى اليوم، تبعدهم عن طريق الله

كلما حققوا قدرا من التمكين فى الأرض ، فتزيدهم طغيانا ، وتزيدهم- من ثم- قربا من الدمار . .

وهذا المنهج القائم على عبادة الله وحده ، والمستمد من عبادة الله وحده . . هو الذى يقدمه الإسلام . وهو الذى يملك المسلمون أن يهدوه للبشرية ويهدوها إليه . . حين يستقيمون هم على الطريق .

والمأمول فى الصحوة الإسلامية أن تصل إلى تحقيق هذه الاستقامة التى تنير للبشرية الطريق .

ولن يكون هذاجهدا هينا كما قلنا من قبل ، بالنظر إلى العداوات الضخمة المرصودة للإسلام ، والحرب الضارية المعلنة عليه ، وجهل الأمة بحقيقة دينها ، وبعدها عن حقيقته ، سواء فى التصور أو السلوك . .

ولكن المبشرات كما قلنا أثقل بكثيرمن المعوقات . .

إن المعوقات تمثل الحاضر القائم فى هذه اللحظة ، كما تمثل المستقبل القريب الذى يحاك للمسلمين على يد الصليبية الصهيونية الحاقدة . .

ولكن المبشرات تمثل المستقبل الكبير الذى ينتظر الأمة الإسلامية وينتظر البشرية كذلك .

والمبشرات أثقل من المعوقات لأنها هى المتمشية مع الدلالة التاريخية . . دلالة بروز الصحوة الإسلامية فى الوقت الذى تؤذن فيه الحضارة الغربية بالانهيار . .

والمعوقات قائمة اليوم ، وفى المستقبل القريب ، لأنه لا الحضارة الغربية قد انهارت انهيارها الكامل ، ولا الصحوة الإسلامية قد استكملت كيانها الكامل ، وحين يقع الصراع بين قوتين على هذه الصورة تكون الغلبة فى الجولات الأولى للكيان الذى يملك أسباب القوة المادية وإن كان آيلا للسسقوط ، لأن الكيان الذى يملك الحق يكون ما يزال بعد فى مرحلة الاستضعاف والابتلاء . .

ثم تجرى السنن الربانية مجراها ، ويخرج المؤمنون من الاستضعاف إلى القوة ممثلة فى قاعدة مؤمنة صلبة مجاهدة صابرة محتسبة ، تلتقى مع الجاهلية وجها لوجه ، فيؤيد الله بنصره الفئة المؤمنة المجاهدة ، وينصرها على أضعافها من المشركين :

﴿ لقد كـــان لكـــم آيـة فى فئتـــين التقـتا، فـئة تقـاتل فى سبــيل الـلــه وأخرى كـافرة يرونهـم مــثليــهـم رأى العين [1]، والله يؤيد بـنصـره من يشـاء، إن فى ذلك لـعـبـرة لأولى الأبصار﴾[2] .

وقد انتهى دور الرجل الأبيض كما قال برتراندرسل قبل سنوات . . لا لأنه لم يعد يملك القوة العسكرية ولا القوة المادية ولا القوة العلمية . . ولكن لأنه أصبح عاجزا عن أن يصنع من ذلك كله « زادا» صالحا للحياة . .

إنما الذى يملك الزاد هو الإسلام . .

وحين تتجه البشرية إلى الإسلام ، فعندئذ فقط يصبح التقدم العلمى والتكنولوجى دافعا إلى الأمام ، ومعينا على الخلافة الراشدة ، بدلا من وضعه الحالى الذى يدفع البشرية إلى الانحلال النفسى والخلقى ، كما يدفعها إلى الدمار . .

والدلالة التاريخية التى أبرزت الصحوة الإسلامية إلى الوجود اليوم ، فى الوقت الذى تميل فيه الحضارة المادية الغربية إلى الهبوط ، هى قدر الله الغالب ، الذى يشير إلى المستقبل . .

المستقبل للإسلام . .

تلك دلالة التاريخ . .

والتاريخ فى حقيقته هو مجرى السنن الربانية فى واقع الأرض . .

وحين تقف الجاهلية كلها تحارب قدر الله ، فمن يكون الغالب ، ومن يكون المغلوب؟

﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى. إن الله قوى عزيز﴾ [3] .

﴿ والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[4] .

---

(١) كانوا ثلاثة أمثالهم فى الحقيقة .

(٢) سورة آل عمران [١٣] .

(٣) سورة المجادلة [٢١] .

(٤) سورة يوسف [٢١] .

الفهرس

رقم الايداع : ٩٧/٩٩٩٧
I.S.B. N. 977 - 09 - 0393 - 0

مطابع الشروق
القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصري - ت.٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

